تاريخ الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(١٢٦٦-١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩-١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الأول

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة موقظ الشرق وحكيم الإسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤-١٣١٤ هـ = ١٨٣٨-١٨٩٧ م)

تأليف

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(١٢٨٢-١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥-١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

٢٠٠٦

تاريخ الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الأول

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة موقظ الشرق وحكيم الإسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤ - ١٣١٠ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

جامعه

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الادارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 19625 / 2003م

الترقيم الدولى : 8 - 182 - 297 - 977

﴿ تصويب أهم ما وقع من الخطأ وتحريف الطبع وخفائه ﴾

(في الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام)

بذكر الصواب دون الخطأ وقدمنا رقم السطر المعبر عنه بحرف س على رقم الصفحة المعبر عنها بحرف ص

(جعلناه منفصلا ليصحح بالقلم قبل القراءة، وتركنا بعض البديهي والحكمي)

في س٣ صفحة (ج) من التصدير: القرن الخامس ـ س١٧ صفحة (م) الذين آمنوا ـ س١٢ ص٦ هو مطية ـ س١١ ص١٨ الناس نسيا — س٢٣ ص٥٥ ودفع س١٧ ص٥٩ دناءة س١٦ ص٩٣ وهو يحتقر س١٥ ص١١٠ طائفة س٢١ ص١١١ من أغري س ١٥ ص ١١٥ ويحاولا ـ س٢٢ ص ١١٧ في اصطلاحهم س١٧ ص١١٨ غيبة س ٢٠ ص ١٣٢ الواضع س٢ ص١٤٢ ماسبيرو ـ س١٨ ص١٤٣ قراراته س ١١ ص ١٤٤ تألفت لجنة س٩ ص١٤٥ يتاحز — س١٦ ص١٤٧ الانقجاني س١٧ ص١٥١ جياشتنا — و س١٨ أنحاها بجماتها س٢٢ ص١٥٨ أجل وأوفى س١٩ ص١٧١ تدرج
س ١٠ ص ٢٢٤ M. Brodley — س ١٦ defended Orabi
س٢١ ص٢٥٦ (يرمج (يشطب) السطر كله لان كلة منو في الاصل صواب) س ١٢ ص٢٦٦ كاحو كموا س٢ ص٢٨٧ يمد ـ س١٠ ص٢٨٩ لا يظنن أحد س٢٣ ص ٢٩١ نجهله هذه الامم س٩ ص ٢٩٢ بل ما يجري س٢٣ ص٢٩٤ للمراسلات ـ العدوان الاجنبي س٣ ص٢٩٥ ولئن فاتت فكم س٣ ص ٣٠٨ المقالة س١٧ ص٣١٢ وكوي س١٤ ص٣٢٢ البشرية س٢٣ ص٣٢٣ فيما س٥ ص٣٤٢ ستار أكنف س٢٣ ص٣٤٨ عدة مقالات س٢٤ لتنيل ما كان س١٣ ص٣٦٩ يراق س١٩ ص٣٨٠ من سنة ـ س ١٢ ص٣٨٣ الحجر ـ س١٧ ص٣٨٨ اجتثاث س١٩ ص٣٩٣ ففهم س ٢٤ ص ٣٩٥ يخوض ـ س ١ ص ٣٩٦ أختمه س ١٦ ص٤١٤ طريقها س١٩ ص ٤١٨ يلبث س٢٥ إياها على تكوين قوة بها في أمته لا رجاء في رفع السلطة الاجنبية عنه وعنها بدونها(*) س١٦ ص ٤٢٦ حتى أهله س٩ ص ٤٣٩ وضع س٤ ص٤٦٥ والمقارنة

---

*) في هذا السطر تقديم وتاخير سببه سقوطه عند البدء في الطبع واعادته على غير اصله. ويحسن في تصحيحه أن يوضع على كل كلمة رقم على الترتيب الاصلي الذي هنا

صواب ما وقع من الخطأ في الكتاب

س ٢٢ ص ٤٧٤ الشيخين س ٢٤ ص ٤٩٠ كانوا س ١٧ ص ٤٩٨ متعاقبين س ٢٤
ص ٥٠٢ مذاهب س ١٧ ص ٥٠٤ الاصلاح الديني س ١٦ ص ٥١١ نفي الشيخ
العظيم اشتغالهم — س ١٧ ص ٥١٢ ازالاستاذ وفي س ١٨ الاستدراك — س ٩ ص
٥١٩ الحنيفي — س ١٨ ص ٥٣١ كيلا يحرموا — س ٢٣ ص ٥٣٣ لوجدتها — س ٢
ص ٥٤١ وأوهام س ١٧ ص ٥٤٤ تقرر س ٦ ص ٥٦٨ علمه س ٨ ص ٥٧٣ لحثلي أم
س ١٨ نص القانون س ١٣ ص ٥٧٨ الوجدان يقبل س ١٨ ص ٥٨٢ اركستره س ٢٥
ص ٦٥١ شرا س ١٨ ص ٦٥٥ المشروع س ٧ ص ٦٦٣ في الدين س ٢١ فان طالب الخير.
س ١٥ ص ٦٨٠ أمر الدم س ٢٢ ص ٦٩٣ الرئيسين العظيمين س ٢١ ص ٧١١ قصد
س ٨ ص ٧١٢ والنصارى س ٢٠ ص ٧٢٠ فيماه وعون س ١٦ ص ٧٢٥ يبونه دار الكرامة
س ١٤ ص ٧٥٣ إحياء س ٢٠ ص ٧٥٧ الذين س ٣ ص ٧٥٨ الشيخ حسين س ١٣ ص ٧٥٩
كلام غير المعصوم س ٢٠ ص ٧٧٨ سنة ١٣٠٦ — س ١١ ص ٧٩٢ أجد — س ٢٠ ص ٧٩٦
وليراجع القارىء قصة س ٢١ ص ٨٠٢ مقالا س ٦ ص ٨٠٦ كتبت اليوم س ٨ ص ٨١٤
ثم ذكر — س ٢٤ ص ٨١٥ وسّط — س ١٤ ص ٨١٩ عالما إيرانياً — س ٦ ص ٨٢٥ يؤولوا
س ٢٥ ص ٨٢٥ يستأذنه س ١٧ ص ٨٢٦ ان يدعهم س ٥ ص ٨٥٦ ويعلمهم العلم اللازم
س ٢ ص ٨٥٧ ويا ليت س ٤ ص ٨٦٥ تعلمه للغة س ٢٥ ص ٨٨٢ بذكراته س ٢١ ص ٩٠٨
إلى جحرها س ٢٣ ص ٩١٥ الصفتان اللتان س ١٢ ص ٩١٧ الاذان كان س ٢٣ ص ٩٢٧
تذاكرنا فيه س ٢٣ ص ٩٣٦ ختمتها س ٧ ص ٩٣٨ بان اسمه س ٤ ص ٩٤٥ بجهله س ٩ ص
٩٤٦ والمرشدين س ٢٠ ص ٩٧٦ مذكراته فيها س ١٦ ص ٩٨٤ أوعاداته س ١ ص
٩٨٧ عبده س ١٦ ص ١٠٠٣ أخالفكم فيه س ٢ ص ١٠١٣ ويعلمهم وص ٥ تفسير القرآن
س ١٨ ص ١٠٢٠ ما كان من س ٧ ص ١٠٢١ رشيداً س ٢٠ ص ١٠٢٥ كتابة س ٢ ص
١٠٢٩ لا يعلوه س ١٥ ص ١٠٣٢ تربيته س ١٣ ص ١٠٥٤ لم يتعودوا س ١٤ ص
١٠٦٢ عوض افندي واصف س ٢٥ ص ١٠٦٤ أدونها س ١٠ ص ١٠٩٠ دالمبس
الفرنسي س ١٩ ص ١١٠٣ سعيد الشرتوني

تصدير الكتاب

ببيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام

(وشيخنا الاستاذ الامام، ووجه الحاجة اليه، ووجوب المحافظة عليه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ (٢٧:٥) وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (٧:١٧٠) وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣ : ١٤٠)

جرت سنة الله تعالى في أفراد البشر أن يؤتيهم قوى المشاعر الحسية والمدارك العقلية بالتدريج حتى يبلغ احدهم أشده، ويستكمل رشده، ويستقل بنفسه بالعلم والعمل والتجارب، وجرت سنته في الشعوب والامم أن يمنح كلا منهم من هداية الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستعد له وصالح لحاله وزمانه، على مثال سنة التدريج في الافراد، إلى أن استعد النوع البشري في جملته ومجموعه لفهم أعلى هداية إلهية لا يحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها، في كل زمان ومكان بحسبهما، فوهبه هداية القرآن، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام

ولما كان من طباع البشر أن يضعف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الامد على عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم، ويتأولوا كتبه باهوائهم، أنعم عليهم بما يحيي هداية النبوة فيهم، بان يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين، وأئمة مصلحين، يرثون الانبياء بالدعوة الى اصلاح ما أفسد الظالمون في الارض، ويكونون حجج الله على الخلق، وقد بشرنا نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين، بان الله تعالى يبعث

في هذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، ليكونوا خلفاءه فيما جدده من دين الله تعالى للامم كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الامد، فقست قلوبهم ، وفسقوا عن أمر ربهم

إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو امية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا ، وكان الامام احمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما اخلق بعض بني العباس من لباس السنة ، ورشاد سلف الامة ، باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة . وكان الشيخ ابو الحسن الاشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزغات الفلاسفة وزندقة الباطنية ، والامام ابو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية ـ وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والالحادية ، من حلل الكتاب والسنة السنية ، في جميع العلوم والاعمال الدينية ، وحسبنا هؤلاء الامثال في التجديد الديني العام

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً انحصر في قطر اوشعب ، او موضع كبير او صغير ، كابي اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الاندلس، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند، والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك ، والشيخ محمد عبد الوهاب في نجد ، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن

وهنالك مجددون آخرون للجهاد الحربي بالدفاع عن الاسلام ، او تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون، كبعض خلفاء العباسيين والامويين، ومنهم

من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الايوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة ملاحدة العبيديين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك اوربة عرف فيها مجد الاسلام

ضعف الاسلام السياسي وملكه

ثم اتسع ملك الاسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين فزوال كل منهما ، وكثرت دوله فتفرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة في الاجناس والاوطان، ووحدة ملته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الاصول والفروع، فتمادوا في الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبيات الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فسلط الله عليهم أعداءهم فثلوا أكثر عروشهم، وانتزعوا منهم اكثر بلادهم (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم (٨:٥٣) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول المتفرقة مجددون متفرقون في العلم كما تقدم وفي الادارة والعمران كمحمد علي باشا بمصر - وفي الحرب كالامير عبد القادر في الجزائر ويعقوب بك في تركستان الصينية - وفي السياسة كمصطفى رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا في الترك وخير الدين باشا في تونس - وفي ارشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسي

حال البشر الاخير وما يقتضيه من التجديد

في أثناء هذا الضعف الاسلامي العام - دخلت الشعوب الافرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة والعمران ، قوامه العلوم الكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيهما من آلات الحرب وكراعها، وأسلحة القتال وعتادها، ما يمكن الجند القليل من إبادة جند يفوقه أضعافا مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه

أن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الانعام الداجنة والسائمة، والحمر الموكفة والخيل المسومة، فيذلون بالجماعات المذللة منه الجماعات المتمردة، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي نزحوا منها فاتحين مستعمرين، ويتصرفون في قواه المعنوية، وروابطه القومية والدينية، كما يتصرفون في حرثه ونسله، ولحمه ودمه، وأرضه وماله، وهكذا يتصرف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى

وابتدع فيه من مراكب النقل والتسيار، وآلات رفع الاثقال، وأجهزة تبليغ الاخبار، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أشرنا اليه من الاعمال الحربية، والتصرفات السياسية، والوسائل الاقتصادية، وصارت المسافة بين القارة والقارة، اقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ما عبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلهما، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة، لا ينهض بمثله أمثال أولئك المجددين القدماء بالوسائل القديمة وحدها، ولا يطمح اليه صوفي يستمد قوته من الاموات، ويتكل على الكرامات ويغتر بالمنامات، ولا يطمع في تذليل صعابه واقتحام عقابه غريق في بحار النظريات العقلية، ومفترق الافكار بنظريات الفلسفة، ولا يطلع ثناياه، ويجتلي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع، واستنباط أحكام الوقائع، ولا يتسامى اليه من تعلم العلوم والفنون العصرية تعلما آليا ليكون أحد العمال في دائرة من دوائر الحضارة أو ديوان من دواوين حكومتها.

إن هذا لبدع من الخطوب الكبرى غير عادي، لا ينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي: أمم قوية بالعلم الجديد والفن الجديد، والسلاح الجديد، والنظام الدقيق في السياسة والادارة والمال، والتعاون بتوزيع الاعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستلب ملك أمم جاهلة، متفرقة متخاذلة، مختلة النظام، مستعبدة للمستبدين، منقادة للخرافيين، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ «يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى

قصعتها »[1] فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل :يارسول الله وما الوهن ؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت »[2] فمن ذا الذي يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى ويحشرهم من قبورهم

ألا إن الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدركات من الوهن، وبعثها إلى مجاهدة أمم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة ، يجب أن يكون ذا روح علوية، أوتيت حظا عظيما من وراثة النبوة ، في كمال الايمان، وصحة الالهام، وعلو الهمة ، وقوة الارادة ، وصدق العزيمة ، واخلاص النية ، وقوة الفراسة، والزهد في الشهوات البدنية، واحتقار الزينة الخادعة. والزهد في الجاه الباطل، وعدم الخوف من الموت، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر، وتاريخ الشعوب الديني والسياسي ،وسنن الله في الاجتماع ، وفصل الخطاب في الاقناع ، وفصاحة اللسان وبلاغة التعبير ، وقوة التأثير ، ثم يكون ما يحذقه من سائر العلوم مدداً له في عمله

حكيم الشرق والاسلام

كذلك كان ذلك الروح العلوي النبوي ، الذي تمثل للافغان في ناسوت بشري ، جلس في دروس العلم فحذق العلوم والفنون القديمة نقليها وعقليها في بضع سنين، وألمّ بالهند لتلقي مبادي العلوم الاوربية فوقف على ماشاء منها في زهاء سنتين ، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في سفره زهاء سنة يتقلب في البلاد الاسلامية، لاكتناه أخلاقها وعقائدها الدينية، واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية

ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية، ومهددة بالدسائس البريطانية، فكاد بتدبيره يخلص الامر فيها لأميرها محمد أعظم خان الذي بوأه مكان الوزير الاول عنده ، لو لا ما عارض ذلك من الدسائس الانكليزية ، التي تمدها القناطير المقنطرة من الجنيهات الاسترلينية ، والروبيات الهندية

(١) تداعى بفتح الدال أصله تتداعى أي يدعو بعضها بعضا. والاكلة بفتحتين جمع آكل (٢) رواه ابوداود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض)

واضطر بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته، الى حيث يمكنه الاصلاح من أوطان امته، فمر بالهند فبالغت حكومتها الانكليزية في الحفاوة بضيافته، مع إحاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه، ومنع علمائها من الاتصال به، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبرائها روح الاستقلال، والجرأة على كسر مقاطر الاستعباد، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتلاقين الافكار، ممن بقى من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد، وبمقالات له في الجرائد نشرناها في المنار، وناهيك بالعروة الوثقى التي كادت تضرم نيران الثورة فيها، وكان موقنا باستقلالها من بعده، حتى انه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري: يا ولد انك ستصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند، وقد تمت البشارة الاولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الاعوام

وأغرب من ذلك انه حمله تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له اذهب بهذه الرسالة وأوصلها الى الغراندوق فلان، واعلم انك إما ان تقتل، وإما ان تفوز وتغنم، فأوصلها فقام الغراندوق لها وقعد، ثم اعاده بها إلى بلاد اليونان ليطبعها فيها باللغة الروسية ويرسلها اليه، وعرض عليه من المال ماشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري، ولقي اهوالا كادت تذهب بحياته

جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية، وألف فيها الحزب الوطني الاول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة، كما ارشد المسلمين منهم الى الاصلاح الديني والجمع بينه وبين العلم العصري، وكان من أثر هذا ما شرحه هذا الكتاب

ذهب الى ايران، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران، فمازال يفعل فعله فيها بين قيام وقعود، وهبوط وصعود، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر الدين خان، وما زالت تتنقل في أطوار التجديد والاصلاح

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية فأنشأ يرشد السلطان الى وسائل الاستفادة من منصب الخلافة الاسلامية، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة، حتى انه أقنع كثيراً من علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بخلافته وجعلها مناط الوحدة الجامعة

للمسلمين ، ولكن قرناء السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة فأعرض عنها، و كان السيد مع ذلك يبث هنالك أفكار الاصلاح والتجديد ، الجامع بين الطريف والتليد ، إلى ان قضى نحبه ، ولاقى ربه ، رحمه الله وقدس سره

الاستاذ الامام

أرأيتك هذا المصلح العظيم، والمجدد الحكيم، انه لم يظفر في شعب من الشعوب الاسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له، ومتمما لاصلاحه بما يرجى به دوامه، بعد أن وجه اليه الوجوه ، وعلقت بطلبه القلوب ، على كثرة من المصطبغين بصبغته ، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده ، لان منصب إمامة الاصلاح والتجديد ، لا يرتقى اليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعليم وحدها ، بل لابد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس ،وصادف تربية صوفية نقية ، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي ، وأعدته لوراثة هداية النبوة ، فكان زيته في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فمسته شعلة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

اقرأ في الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب كيف زار السيد المرة الاولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الطويل في خان الخليلي، وكيف كان اول حديثه معهما السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها ، وانه بين لهما قصور كل ماقالوه، وجاء من عنده بخير منه ، وكيف اعجبا كلاهما بما قال، ولكن الشيخ حسنا ظل على حاله ، لانه كان قد بلغ منتهى استمداده ، وكان أرقى علماء الازهر عقلا وعلماً وزهداً

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشعر بأن كل ما اصابه من حسن تربية الشيخ درويش ، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير [1] دون ما تسمو اليه نفسه ،

(١) المراد بالشيخ القصير احمد الرفاعي القصير القامة وكان اصلب الازهريين جمودا كما كان الشيخ الطويل اشدهم استقلالا

ويتطلع اليه عقله ، وتضطلع به همته ، وكان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجده ، ذلك ان روحه كانت مستشرفة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية في إصلاح البشر ، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الاعظم ﷺ فاتصل بالسيد جمال الدين من ذلك اليوم حتى اقتبسه منه وكان خليفته فيه ، لكن من ناحية تربية الامة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها ، إذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها ، لا من ناحية استبدال حكومة صالحة مكان غيرها (راجع ص ٩٧٤)

تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيز البليغ: «والدي أعطاني حياة يشاركني فيها علي ومحروس[1] السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً وابراهيم وموسى وعيسى (ص) والاولياء والقديسين . ما رثيته بالشعر لاني لست بشاعر ، ما رثيته بالنثر لانني لست الآن بناثر ، رثيته بالوجدان والشعور لانني انسان أشعر وأفكر » اه بنصه تقريبا[2]

هذه الوراثة هي التي أخرج الله بها محمداً عبده من خمول تصوفه وخمود أزهريته الى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني ، والاصلاح الاجتماعي المدني ، يخوض غمرات الثورات ، وتتقاذفه أمواج الاسفار ، وتكافحه فتن الامراء المستبدين ، وجهالة حملة العمائم الجامدين — من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة قابعا في كسر بيته ، راضيا بخموله وراحة نفسه . وإن في الصلاة لراحة ، وان في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابهما قاصر على صاحبهما ، وثواب الجهاد متعد لكل من ينتفع به ، والانسان الكامل من يجمع بينهما

بهذا الروح العلوي كان يقول له أستاذه السيد جمال الدين وهو مجاور يلبس الزعبوط: قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت ؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الاقران ، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول للسلطان عبد الحميد انني لاجل أمرك قد عفوت عن شاه ايران ، ويقول له السلطان : بحق يخاف منك الشاه خوفا عظيما[3]

---

(١) هما أخواه اللذان يشتغلان بالزراعة (٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وفقدت المكتوب وبقي المحفوظ (٣) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والسلطان على الحكومة المصرية من أعلاها الى أدناها، فيأمرها وينهاها، منتقداً أعمالها، مرشدا عمالها ، يخطيء لغتهم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم ، ويفند اعمالهم فيقيمهم على صراط العدل المستقيم . بل ازعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظار رياض باشا فما أشكاه ، وكلم الرئيس الشيخ فأقام له البرهان على وجوب الاصلاح ، وأقنعه بانشاء المجلس الأعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الاعمال، فأنشأه برأيه ، وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الاكبر فيه

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه، وأعلن فيه عفوه عمن وشوا به وأساءوا اليه على ما كان من احسانه اليهم، وجزم بما اعدت له العناية من المجد ، واعداً بان سيفعل المعروف ، ويغيث الملهوف . . . وكذلك كان

بهذا الروح العلوي كان هو الرأس المدبر في كل مجلس رسمي عين عضواً مرءوسا فيه كمجلس إدارة الازهر ومجلس الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين . تجد إثبات ذلك في بيان اعماله فيها من هذا الكتاب ، سافرة الوجه ليس دونها نقاب

بل بهذا الروح العلوي كان اميره يكبره ويهابه ويقول انه يدخل علي كأنه فرعون . وإنما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون، متوكئا على عصا الحق ، داعيا الى الاصلاح والخير ، ناهيا عن الاستبداد والبغي ـ كقوله له في مجلس تشريف المقابلة الحافل بالعلماء : ان مجلس إدارة الازهر لا يعرف لسموكم أمرا عليه ، الا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الاوامر الشفوية التي يبلغها عنكم ، من لا يثق به المجلس لمخالفته لقانونكم

*
* *

تلك آيات بينات من حياة كل من الروحين على الانفراد ، فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الاعلى الذي اذكى سراجه الوهاج، واتحدا في عمل من الاعمال ؟ ذلك ما كان من اصدارهما جريدة العروة الوثقى التي لا نعرف في تاريخنا كلاما بشريا ابلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس ،

ومواضع الإقناع من العقل ، وتجرئة الضعفاء على الثورة على الاقوياء ، والجهاد لتحرير امتهم ، واستقلال بلادهم

فان سألت عن تأثيرها في رعب العظمة البريطانية ، وإثارة العالم الاسلامي والشعوب الشرقية ، فانك تجد قصصها مبسوطا في هذا الكتاب ، بما يشبع نهمتك السياسية من إسهاب ، ويروي غلتك الادبية من إطناب ، (ص ٢٩٨ و ٣٠٣)

وانه ليبسط لك بالروايات الصحيحة ، والشواهد الصادقة ، كل ما أشرنا اليه في هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية ، وتجديد الاصلاح المنقذ للامم والشعوب من رق الفاتحين المستعمرين ، وظلم المستبدين القاهرين ، وجمود الفقهاء المقلدين ، ودجل المتصوفة الخرافيين ، فاطلبه من هذا التاريخ فانه يقصه عليك مفصلا تفصيلا

فاقرأه أيها الغيور على قومه ووطنه فصلا فصلا ، وتدبر مقاصد فصوله مقصداً مقصداً ، ثم اقرأ في الجزء الثاني له مقالات الامام الاجتماعية والادبية ، ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والادبية للعلماء والادباء . ثم ارجع البصر إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والمدني ، وتأمل إجماع كتاب الامم والشعوب المختلفة الاجناس والاديان والآراء والافكار على تزكيته وتقديسه ، او تدبر مقدمتنا لكل منهما ــ تعلم انه هو الامام الذي يجب اتباعه في تجديد الامة وإحياء الملة ، وإيجاد المدنية الفاضلة ، ثم انظر ما اقترحته على مصر في خاتمة هذا الكتاب لعلك تكون من حزب الدعاة المصلحين ، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال الله تعالى فيهم (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب ، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق العادات ، كابراء الاكمه والابرص وإحياء الاموات ،

المجددون للوثنية والدجل

إلا وإنه قد نجم في هذين القرنين قرنان او قرون من أدعياء التجديد، بعضهم في إيران وبعضهم في الهند، وانهم إلا مسحاء دجالون ، ومتنبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الاصلاح الديني، وتمثلوا لهم بالشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي ، وانتحلوا لدعايتهم آيات ، واخترقوا لانفسهم معجزات ، فمنهم من ادعى النبوة ، ومنهم من ادعى الالوهية ، وقد اتبعهم فئام من المحرومين من مزايا الانسان : الكافرين بنعمتي العقل والقرآن ، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين بالعلم والعقل ، وان الله ختم به نزول الوحي، فزادوهم رجسا على رجسهم، وعبودية للاجانب على عبوديتهم ، فكانوا دعاة وأنصاراً للمعتدين على استقلال بلادهم ، المستعبدين لاقوامهم ، فوالله لو عمت فتنتهم لاستولى الانكليز على بلاد فارس كلها ، ولما وجد في الهند من يطالب الانكليز باستقلال ، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الاعمال

أليس من مثار العجب الذي جاء بها ابو العجب[1] ان يضع كل من أتباع هؤلاء الدجالين لأنفسهم نظاما ، ويجمعوا لبث نحلتهم أموالا ، وينفروا للدعوة اليها خفافا وثقالا ؟ فيكون لهم في كل واد أثر ، وفي كل قطر ذكر ، وينضوي اليهم بعض الملاحدة طمعاً في أموالهم ، لا إيمانا بمسيحهم او الههم ؟

أو ليس باوغل من هذا في أعماق العجب واولغ في احشائه أن يتخاذل العارفون بقدر حكيمي الشرق ، وامامي الاسلام بالحق ، عن تأليف حزب لتعميم اصلاحهما ، واستمرار تجديدهما ، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم ، ومدارس تربي النابتة على منهاجهم ، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بعلاجهم ؟ على استقلال الفكر ، وحرية العلم والرأي ، وهداية الدين ، وتوطين النفس على الجهاد لاعلاء كلمة الحق . واقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لاتدين لاجنبي معتد، ولا لوطني مستبد ؟

(١) ابو العجب الشعوذي وكل من يأتي بالاعاجيب

نعم ان ذلك لعجيب ! وان هذا لاعجب منه. ويشبههما في العجب أن المنتمين الى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاونا وتناصراً وعصبية ودعاية : أفلا أنبئك بالسبب ، الذي ينتاشك من حيرة العجب ؟

ان حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الاسلام . وان الاسلام الحق هو دين توحيد العبودية والربوبية لله وحده . والحرية وعزة النفس تجاه ماسواه . واتباع رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسي التابع للعقيدة ، والنظام الاجتماعي الذي تقرره الشريعة ، فلا تذل نفس صاحبه بالانقياد لرئيس ديني ولا دنيوي لذاته ، ولا لسلطان ورائي أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه .

وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا الى بعضها فأساسها العبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر ، يقدس منتحلها أشخاصهم ويرفعهم على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم ، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند آخر . فتكافل هؤلاء يكون تاما شاملا لانه تعبدي ، وعصبيتهم تكون أقوى لانها وجدانية لا عقل للافراد ولا رأي للجمهور فيها .

ويرد علينا ههنا ان العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة ، خير للجماعات والشعوب التي تأخذ بها من العقائد الصحيحة والتعاليم العالية ، من حيث جمع الكلمة ووحدة الامة . ونرد هذا الايراد بقولنا ان العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا أصحاب العقول النيرة والافكار المستقلة الذي آمنوا بها عن حجة وإذعان . وما تنازع هؤلاء مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان . سواء أكان التنازع في الدين أو في الحكم والسلطان ، وبهذا ظهر الاسلام على جميع الاديان .

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قل في جميع فرق المسلمين ببناء التعليم فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل مايقرره شيوخه بعنوان مذهبه وإن لم يكن منه ، سواء أعقله أم لم يعقله ، فان نازعه فيه حكم بكفره ، ولهذا صار أكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون اليها ، إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لعصبيات لها رؤساء يطاعون باسمها ، وأكثرهم يجهلون اصولها وقواعدها . ومن تلقى منهم شيئا منها فانما هو لفظ ينقله ولا يعقله ،

ولا يرجع اليه في فروع علمه ولا عمله ، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته ، لا يكون مستقل الارادة في عمله . ومن نتائج هذا الخضوع ان صاروا خاضعين للمستبدين ، وظهراء للظالمين ، وان كانوا بملتهم كافرين

وأساس الاصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الاسلام دينا ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه . وهو الذي دعا اليه الحكيمان المجددان الافغاني والمصري ، وقد بينه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد ، لهذا كان أنصارهما من رجال الدين هم الاقلين وخصومهما منهم هم الاكثرين . وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد — ويقابله أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدروهما قدرهما ، هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العالية التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشرهم على استعداد فيه فصار مستقلا . ثلة من المدنيين وقليل من المعممين

ولو كان مادعا اليه الحكيمان هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لألف له هؤلاء الانصار حزبا كبيراً منظما كما فعل سعد باشا من تلاميذهما بعدهما

ولو دعا الاستاذ الامام الى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الازهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يتبعها الالوف وألوف الالوف في زمن قريب ، ولا سيما اذا أباح لنفسه أن يظهر لهم تعبده الخفي ، ومعرفته باسرار التصوف ، وغير ذلك من خصائصه الروحانية ، التي كان يعتقد وجوب كتمانها لانها غير طبيعية فاظهارها للمقيدين بالسنن الطبيعية فتنة لهم ، وفيها كثير مما يعد من الكرامات عندهم ، وقد نقلت هذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية .

بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وان السيد جمال الدين رجل دين وان غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه الى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين فيهما ، فقد كان في الازهر لا يعلو قوله قول ولا يغلب رأيه رأي . وكذلك كان بين الراقين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والادباء والمنشئين ، بل كان كذلك بين علماء الافرنج وساستهم ، وترى نموذجا من شهادات الجميع له في هذا التاريخ

خلاصة الخلاصة

في وجوب الجمع بين التجديدين الديني والمدني

وحزب الاصلاح المعتدل

الذي يقوم به

وخلاصة ماأريد عرضه على قراء هـذا التاريخ في هذا التصدير ان اصلاح الامة الاسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والدنيوي. هذا ماصرح به الحكيمان وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد نقلته عنه في المنار. بل هذا مايعتقده أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولا و كتابة، كما يراه القارىء فيما كتبه بعضهم في تأبينهم الاستاذ الامام وترجمتهم له من الجزء الثالث، وذكرت كلمات منها في الشهادات المعدودة لاشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء

فالجهاد الذي يخوض غمراته دعاة الاستقلال السياسي والاصلاح المدني لايتم لهم النصر فيه، ولايتسق أمره وتثبت بوانيه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاة الاصلاح الديني ، وقد كثر جنده المستقلون في فهم الاسلام في الازهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الاقطار الاسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم ، فاذا وجدوا من زعماء الاحزاب المدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم ، ظهر لهؤلاء من قوتهم في الرأي ، وتأثيرهم في الشعب ، بألسنتهم الخاطبة ، واقلامهم الكاتبة ، مالم يكونوا يحتسبون ،

واختصر في هذا الموضوع هنا لانني قد وفيته حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد ، إلا اذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ

فراجع الخاتمة ، واجمع بينها و بين هذه الفاتحة ، وانما الاعمال بالخواتيم

(ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

﴿ وكتبه محمد رشيد رضا في سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ﴾

﴿ المواد المهمة التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا التاريخ ﴾

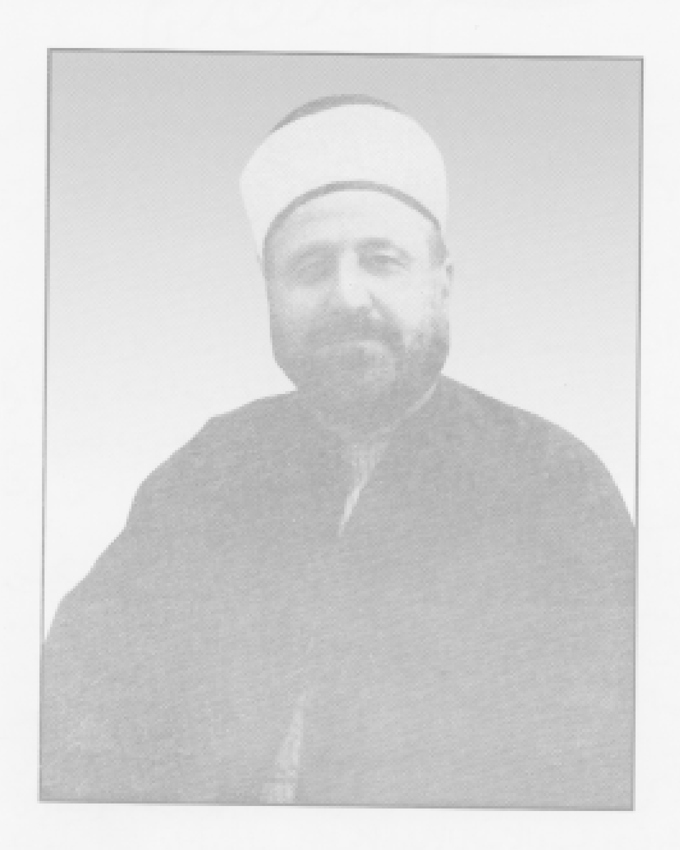
(١) ما كان شرع فيه الاستاذ الامام من ترجمة نفسه بخطه .
(٢) مذكرة بتاريخ حياته كتبها لي لاجعلها أصلا لخلاصة لتاريخه طلبت منه
(٣) ما كتبه من تاريخ الثورة العرابية ومذكراته الوجيزة فيها
(٤) مجموعة خطية له فيها بعض المستندات في عمله مع السيد جمال الدين في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية ونظامها. وبعض المكاتبات بينه وبين أعضائها
(٥) مسودات مقالات ومكتوبات وتقارير كان يعطيني إياها لتبييضها أو بسطها ونشرها في الجرائد أو إرسالها لبعض الناس ومنها ما هو خاص بالازهر
(٦) مؤلفاته كلها وما اقتبسته من تفسيره ودروسه في الازهر
(٧) جملة من المكتوبات والرسائل والقصائد التي كانت ترسل اليه وحفظها عنده
(٨) مجموعة فيها حكم مقتبسة منثورة بخط السيد جمال الدين وخطه ومقالات اه
(٩) مقالاته الاصلاحية في جريدة الوقائع المصرية
(١٠) مجموعة العروة الوثقى برمتها بخطي وخط بعض اخواني
(١١) قوانين الازهر ولوائح التعليم فيه ومحفوظات أخرى في شأنه
(١٢) كتاب اعمال مجلس ادارة الازهر
(١٣) تقرير محمد بك ابو شادي في مسألة فتوى طعام اهل الكتاب
(١٤) إرشاد الامة الاسلامية إلى أقوال الائمة في الفتوى الترانسفالية لجماعة من أكابر علماء الازهر
(١٥) مجموعة مجلدات المنار وما فيها من المقالات والآراء له وعنه وفي شأنه
(١٦) عدة أجزاء من مجلة ضياء الخافقين فيها مقالات للسيد جمال الدين
(١٧) مجموعات المجلات والجرائد المصرية التي نشرت ترجمة السيد وترجمته
(١٨) كتاب الدفاع عن العرابيين لحاميهم مستر برودلي
(١٩) ما كتبه لي أصدقاؤنا من تلاميذه ومريديه عن سيرته في سورية بعد النفي ورحلته إلى السودان وفي مدحه والدفاع عنه
(٢٠) مذكراتي الخاصة ومكتوباته لي وما اقتبسته واستفدته من معاشرته ٨ سنين



السيد جمال الدين الأفغاني



المرحوم
الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
ولادته و وفاته
هجرية



السيد محمد رشيد رضا

مؤلف الكتاب سنة ١٣٤٥

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٢٦ : ٨٣) أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٢ : ١٠١)

فلك الحمد أن جعلت سير الاولين عبرة للآخرين ، ومننت على عبادك بمن بعثته في الاميين ، يتلو عليهم آياتك و يزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة و إن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . محمد خاتم النبيين ، ورحمتك العامة للعالمين ، فصل وسلم اللهم عليه وعلى آله وصحبه ، والمجددين لهديه واصلاحه من بعده ، حتى ترث الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين

أما بعد فيقول محمد رشيد رضا صاحب المنار إن مصر لن تنسى ذكر الحكيمين المجددين ، والامامين المصلحين ، السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده المصري ، فطلاب الاصلاح الديني والاصلاح المدني والاصلاح السياسي ، لا يفتؤن يشيدون باسميهما على أعواد المنابر ، وفي اعمدة المجلات والجرائد ، ولا يزالون يجعلونهما مضرب الامثال ، و يتناقلون مايؤثر عنهما من حكم الاقوال ، وجلائل الاعمال ، بل ذكرهما الحميد معروف في سائر الشرق ، غير مجهول في عالم الغرب ، وان لقب « حكيم الشرق » ولقب « الاستاذ الامام » لاصقان بهما ، ومغنيان عن تسميتهما

وقد أجمع العارفون والمدونون للتاريخ الحديث على انهما مصدر هذه النهضة العصرية في مصر والافغان و إيران والهند ، وهم يشعرون بالحاجة إلى وضع تاريخ لهما يدون سيرتهما ، و يفصل أعمالهما الاصلاحية ، و يرون ان ما كتب في الصحف عند وفاة كل منهما ، وما ينشر فيها أحيانا من التنويه باصلاحهما ، نزر يسير من أعمالهما وآرائهما النافعة . وعجب بعض المفكرين ان رأوا بعض الافرنج يكتب في تاريخهما مالم يكتب مثله أولادهما وأحفادهما من دعاة الاصلاح والتجديد

و ينحون باشد اللائمة على المصريين منهم عامة وعلى صاحب المنار خاصة إذ كان أخص مريدي الاستاذ الامام و ناشر علمه وحكمته . والمدافع عن اصلاحه

في عهده ومن بعده . وقد وعد بكتابة تاريخ له عقب وفاته . فنشر سفراً جمع فيه أكثر منشآته القلمية، وجزءاً جمع فيه أهم ما قيل وما كتب في تأبينه ورثائه وسماها الجزء الثاني والجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام . وقد مر ربع قرن ونيف ولم يصدر الجزء الاول الذي هو التاريخ الحقيقي

أشهد ان لوم اللائمين لعمر على هذا التقصير حق. واني بما يخصني من التثريب علي لاجله وهو أكبره أحق. ورب لائم مليم. ورب ملوم معذور . وها أنذا ألخص عذري بعد أن اعترفت بتقصيري . وبرئت من ذنبي بانجاز وعدي

توفي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في إثر معارك من جهاده في الاصلاح ماصلي نارها معه غيري . وحملت ما تصديت له من الضرر . غير متململ ولا ضجر. وأما ما لذع قلبي من نار فقده فهو الذي لم يكن لي بحمله حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم كنت مهدداً بعده بالنفي من هذه البلاد كما هددت في آخر عهده . وقد وطنت نفسي على النفي وعزمت على السفر الى الهند . ولم أتحول عن خطتي قيد شعرة

أعلنت عزمي على كتابة تاريخ للاستاذ الامام فلم ألبث أن بلغت عن الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ان أصدقاءه قد قرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم وهم به أولى ، فقلت للمبلغ ان تأليف تاريخين لهذا الامام الكبير ، ليس بكثير ولا كبير . فليكتبوا ماعندهم وأنا أكتب ماعندي

ثم أرسل إلي عميد حزبه المدني وأقوى أركانه سعد باشا زغلول وكان عاد مع شقيقه احمد فتحي باشا من أوربة ، فجئته فبلغني أنه هو واخوانه من مريدي الامام وأصدقائه يرون أن أتولى كتابة تاريخه . وأن يساعدوني بما لديهم من المواد والمعلومات . ثم يساعدوني على طبعه ونشره بالمال، بشرط ان أطلعهم على عملي وأستشيرهم فيه ، فان كثيراً من سيرته رحمه الله كانوا يعدون متكافلين معه فيه . ويعدون من بعده مسؤلين عنه

فاجبته اني لست الا واحداً منكم بل أنا أصغركم ، ولا أستغني عن مساعدتكم ومشاورتكم . ولا أحب الخروج عما ترونه من مصلحتكم . وفي إثر ذلك اجتمع بدعوة منه الشيخ عبدالكريم سلمان وحسن باشا عاصم ومحمد بك راسم وقاسم بك أمين والشيخ عبدالرحيم الدمرداش (باشا) وقرروا انتداب أحدهم احمد فتحي باشا زغلول ليكون نائبا عنهم في التعاون والتشاور معي في العمل و بلغوا محمود بك عبده ذلك ، وانه يرضيهم أن يعطيني ما عنده من مواد هذا التاريخ . وانما اختاروه لذلك لانه أنشطهم وأقدرهم عليه وأكثرهم مودة وزيارة لي ، وطلاقة في حرية الكلام معي ،وكان هو المتصل من جماعتهم بسمو الخديو ومحيطا بسياسته وسياسة الانكليز في الامور علما . وهما الجانبان اللذان يحسب لرضاهما وسخطهما كل حساب

وكان كل ماقدمه لي من المساعدة نسخ مقالات الاستاذ الامام الاصلاحية من جريدة الوقائع المصرية الرسمية إذ كان يقتني مجموعتها . وكان أول ماشاورته فيه مقالات جريدة العروة الوثقى وكانت كلها منسوخة عندي . فاما ما كان منها خاصا بالسياسة ومسالة مصر والسودان وتهييج العالم الاسلامي والهند على الدولة الانكليزية فقد وافقته على تركه وعدم نشر شيء منه في منشآته لان الحرية في مصر لاتسع لنشرها . وقد كانت العروة الوثقى ممنوعة من مصر والسودان والهند لاجلها . وقد نشرت أهمها في هذا الجزء . وأعطاني حموده بك بعض المواد ومن أهمها ما كتبه الاستاذ من تاريخ الثورة العرابية

وأما المقالات الاصلاحية العامة التي بث الحكيمان فيها الدعوة الى جمع كلمة المسلمين واصلاح ذات بينهم . والتعاون على احياء مدنيتهم بما تقتضيه وسائل هذا العصر . فقد اتفقنا على نشر أكثرها . وترك ما تعده انكلترة تحريضا عليها منها . ولكنه أشار أيضا بحذف جمل من بعض المقالات ماوافقته عليها إلا اكارها . وأيقنت انني لايمكنني أن أكتب هذا التاريخ تحت مراقبته والتقيد بمشاورته بالحرية التي أريدها . وقد ساعدتني اللجنة بمبلغ من المال أعطيتها في مقابله مئات من النسخ وزعها أعضاؤها بالمجان، وبيع بعضها بثمن بخس

فهذا ما حملني على التعجيل بجزء التأبين والرثاء والتعازي ثم بجزء المنشآت والتسويف بجزء الترجمة ثم التطويل في فصول تربية الاستاذ الامام وتعليمه منه بذكر ذلك الاستطراد الطويل في الكلام على حقيقة التصوف وما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه

واتفقنا على جعل ترجمة المنار للاستاذ الامام هي الاصل لجزء الترجمة في مواده مع بسطها والتوسع فيها . وقد قرأه هو ورتبه وأشار بالحبر الاحمر الى حذف بعض المسائل منه لمخالفتها لمقتضى الحال أو سياسة الوقت

وفي أثناء ذلك استقال لورد كرومر العميد البريطاني وخلفه السر ألدون غورست صديق سمو الخديو وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٥ قبل أن تتم على وفاة الامام سنتان، فكبر نفوذ سموه في الحكومة وضاقت بكبره سعة الحرية علينا، وأعيد في عهده العمل بقانون المطبوعات فاقتنع أحمد فتحي باشا نفسه بان كتابة تاريخ الاستاذ الامام كتابة حرة مفيدة صار متعذراً ، فاتفقنا على الوقوف عند ما كان قد تم منه وهو الى ٢٣٢ صفحة وهو المقدار الذي أطلعت عليه الشيخ عبدالكريم سلمان إذ رأيته شاكا في بدئي بطبع الكتاب فاعترف بانه لايمكن نشره

وجملة القول ان طبع هذا الجزء كان يسوء الخديو عباسا وإن لم ينشر فيه ما كان من مقاومته للامام في اصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والاوقاف حتى المساجد فان نشر هذا فيه كما يراه القاريء هنا فانه كان يبذل كل قواه في عقاب مؤلفه ، وما

كان أحمد فتحي باشا ليرضى بذلك ولا سعد باشا أيضاً، ومكانهما في حكومة جنا به مكانهما

وما انتهى عهد سموه إلا بسبب الحرب الكبرى التي جعلت الحكومة الانكليزية مصر في اثنائها خاضعة لاحكامها العسكرية وأعلنت حمايتها عليها، واشتدت مراقبتها العسكرية ومراقبة الحكومة المحلية بامرها على المطبوعات، واستمرت هذه المراقبة الشديدة الى مابعد الحرب بزمن طويل

وانما سنحت الفرصة الاولى لاصدار الكتاب في العهد الاخير لسعد باشا في زعامة الامة ورياسة الحكومة واستقرار نفوذه في البلاد أي في سنة ١٣٤٥ هـ إذ لم يبق للانكليز من النفوذ القوي في هذا العهد ما يخشى أن يمكنهم من حمل الحكومة على مصادرته، على ان ثورة مصر قد انتهت ولم يعد ما في الكتاب من التحريض السابق يضيق على حريتهم. بيد أنه قد عاقني عن افتراص هذه السانحة بالسرعة عدة عوائق منها انني كنت انتقلت من الدار التي طبعت فيها القسم الاول من التاريخ الى دار أخرى وتعذر وضع كل نوع من المطبوعات الكثيرة وحده فلم نقدر على العثور على المطبوع من التاريخ إلا بعد الانتقال الى دار المنار الجديدة ووضع كل كتاب من مطبوعاتنا في محل خاص به. وانما تم بعد وفاة سعد رحمه الله تعالى. وقد وجدنا بعض المطبوع تالفا وبعضه قد فقد، فاضطررنا الى اعادة طبع أكثرها

وشرعت في اتمام الكتاب في أواخر سنة ١٣٤٨ وعرض لي موانع عن المضي فيه مدة سنة وعدت اليه في اواخر سنة ١٣٤٩ وكنت أقدره بثمانين كراسة (ملزمة) أو مائة، ثم كنت كلما شرعت في مقاصد فصل من الفصول أتذكر من مواده ومسائله ما كنت ذاهلا عنه حتى بلغ ما يراه القاريء، وقد صبرت نفسي وحبستها على كتابة ثلثه الاخير اربعة أشهر من هذا العام (١٣٥٠) لا اشرك به عملا آخر حتى تم طبعه في هذه الايام، وبقي كثير من المواد والمستندات من تاريخه وتاريخ السيد جمال الدين ضاق عنها هذا الجزء فوعدت باثباتها في جزء الذيل الذي اضعه له ان شاء الله

كيف كتب هذا التاريخ

كتب هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة وفترات بعيدة، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور باختلاف الاحوال، والاناة والاستعجال، ولم تكن مواده مجموعة مرتبة وانما جريت في ترتيب أكثرها على ما كتبته في المنار عقب وفاة الاستاذ الامام من ترجمته، ومنها ماليس له ذكر في تلك الترجمة، ومن ثم يجد القاريء فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد، وربما تختلف فيه العبارة في المسالة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ كاختلاف الورق، ولا سيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض فانني بفضل الله تعالى قوي الذاكرة للمعاني

ولولا ان طال هذا الجزء حتى صار يثقل حمله، وعطلت أهم أعمالي لاجل اتمامه، مع سوء الحال، وقلة المال، لوضعت له خلاصة كلية ألخص فيها مقدمات كل مقصد من مقاصد فصوله ونتيجته، وأبين مواضع العبرة فيه على نحو ما ذكرته في أثنائه لبعضها، كأن أعد ما كان عليه الازهر قبل تصدي الامام لاصلاحه من الصفات والاحوال واحدة واحدة، واعد ما كان عليه شيوخه وطلابه من الصفات والعادات والاعمال صفة صفة وعادة عادة وعملا عملا، ثم أبين ما كان من تغيير الاصلاح لبعض ماذكر وأعد فوائده واحدة بعد واحدة، ومثله أن ألخص آراءه في التربية والتعليم فأعد المفاسد التي ذكرها في لوائح اصلاح التعليم في الدولة العثمانية وفي مصر، وما ذكره منها في خطبه في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية، ثم أعد ماذكره في تلك المواضع وغيرها من قواعد الاصلاح كلها وهي التي ادعو اليها، ولكنت أفعل هذا في كل فصل بل كل مقصد، واذا لكانت الفائدة اتم والنفع أعم، واذ تعذر علي كتابة هذا فانني أوجه همة الراغبين في مثله أن يتولوه لانفسهم بانفسهم، ومن لا يعنيه ذلك فلا يهتم لقراءته . وعسى أن أوفق لهذا في الذيل الذي أرجو أن يكون هو المكمل له

وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين في بيان آراء الاستاذ الامام وعاداته وشمائله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق، ومنها ماهو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق ، الذي يندر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس ، وأنا أعلم ان منها ما يكون منتقداً في نظر غيري وان كان صوابا عندي ، ومنها ما ينتقد علي نشره لان مثله غير معتاد، أو لانه من مبالغاته التي ربما كان يقصد بها التاثير الخاص، ككلمته في تحريف الفقهاء، وهذا نادر

ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى ان أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كي يحيط القارىء به خبرا، ويحكم عليه حكما صحيحا ، فان الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم ، واخفاء هناتهم ومثالبهم . انما هم شعراء مداحون ، لا مؤرخون حقيقيون .

فاذا رأى القارىء انني على اعجابي بسعة علومه ورسوخه في معارفه التي كان بها جديراً بلقب الاستاذ الامام ، الذي قبله وأجازه الرأي العام . أثبت انه كان مقصراً في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الازهر - وانني على اعجابي باخلاقه التي كان بها حقيقا بزعامة الاصلاح والتجديد للامة والملة ، صرحت بانه كان كأستاذه لايخلو من الحدة. ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة، والمبالغة في الورع ، المغريتين لصاحبهما بايثارهما على المصلحة العامة - وأنني على اعجابي بقوة تدينه وحسن تعبده ومحافظته على تهجده . صرحت بانه كان يجمع بين الصلاتين في الحضر أحيانا ترخصا اجتهاديا خالف فيه المذاهب الاربعة، ولكنه وافق حديثا صحيحا أخذ به غيرهم من الائمة

اذا رأى القارىء هذا وذالك أيقن انني لم أكن محابيا له في هذا التاريخ، ولا سالكا فيه مسلك الشعراء، ولا انصار المذاهب وزعماء السياسة، الذين يصورون آئمتهم وزعماءهم صورا مكبرة مزينة مجملة بما يظهر محاسنهم ويخفى مساويهم، أو يبدل سيئاتهم حسنات، وعلم ان كل ما انتقد على الاستاذ يصح أن يقال فيه « حسنات الابرار سيئات المقربين » واني وأيم الحق لم أطلع له على عمل ينافي العفة والنزاهة ولا الورع والشرف. ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد. فهو أكمل من عرفت من البشر. ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى، او الحكمة والفلسفة، أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبجر. فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرياسة ؟

ولقد كنت داعية لزعامته وامامته، وانما كانت دعاية صدق ودين، وجهاد وجلاد، لزعامة تجديد واصلاح. لازعامة رياسة وجاه، ومناصب ومال، وهل يتوسل العاقل المتدين الى الحق بالباطل، والى الاصلاح، بالكذب الذي مطية كل افساد، فيتعجل لنفسه الاجرام نقدا، لاجل ما يرجو لغيره من الاصلاح نسيئة؟ وقد سئل الاستاذ الامام أترجو أن تجني ثمر اصلاحك في حياتك ؟ قال أستبعد هذا ولا أظنه، وحسبي أن يتم فيجنيه من بعدي

وجملة القول ان هذا الرجل اكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعلما وعملا وصدقا واخلاصا. وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضريب، وانه لهو السري الاحوذي العبقري الحقيق بلقب «المثل الاعلى» من ورثة الانبياء في هذا العصروان لم اطلقه عليه لانه على اطلاقه خاص بالله في نص كتابه، وقد ابتذله الناس في الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه.

***

صنوف قراء هذا التاريخ

ألا وان قراء هذا التاريخ صنوف فمنهم طلاب الاصلاح والتجديد النافع للامة، مع المحافظة على مقوماتها ومشخصاتها التي تمت بها حقيقتها وامتازت من غيرها، وهؤلاء يشكرون لي عملي ويرون أني أحسنت فيه وأصبت. ويعفون عما عساني أخطات فيه أو قصرت، ويساعدونني على نشر الكتاب، لانه خير عون على اثارة الهمم، وتقوية الامل، والتنشيط على العمل. بل هؤلاء منا، من عرفنا منهم ومن لم يعرفنا

و يليهم المستعدون للاصلاح بسلامة فطرتهم وحسن نيتهم . ولكنهم غافلون عنه لفقد الباعث والمنبه ، وسيجدون في هذا التاريخ أقوى دعاية،وأوضح هداية، فلا يلبث قارئه أن يكون منا و ينصرنا بقدر ما أوتي من همة واستطاعة

ومنهم دعاة النهضة المدنية الوطنية اللادينية وسيجد المخلصون منهم ان اماءنا امام لهم في جانب من جانبي اصلاحه ، وان الجانب الآخر ينفعهم ولا يضرهم ، فان الجامدين في التقاليد الدينية والخرافيين فيها هم أعداء التجديد المدني ، فاذا صلحوا التقوا معهم في تعزيز النهضة الوطنية وتعاونوا معهم عليها ، مالم يكونوا دعاة للالحاد لذاته . وقد كان المعاصرون منهم للحكيم الافغاني والامام المصري يدينون لزعامتهما، وان لم يكونوا من مريديهما والمقتبسين منهما مباشرة. بل كان اخلص منهم لقومه ووطنه يعترف بفائدة إصلاحهما الديني وضرورته لا كمال النهضة المدنية ، والرابطة الوطنية ، كما ترى في تابين احرار النصارى وملاحدة المسلمين للاستاذ الامام

وأما الجامدون المصرون على التقاليد والخرافات، المطبوع على قلوبهم بما مردوا عليه من الخطيئات، فقد يوجد فيهم من يلتمس لنا العثرات ، و يبدل حسناتنا سيئات ، و يكبر الصغير من الهفوات . ولا خوف على أنصارنا منهم فالحق يدمغ الباطل والنور يطرد الظلمات، وانما ضررهم محصور في مقلدتهم من العوام الجاهلين الخرافيين. يصدونهم عن قراءة كتبنا ، وما قرأها أحد وفهمها الا واتبعنا

ومن دون هذه الصنوف والطبقات صنف الملاحدة والزنادقة، ودعاة الاباحة المطلقة ، وصنف اجراء الاجانب وأعوانهم، وصنف المتملقين للظلمة المفسدين . وهؤلاء تحوت أدنياء لا يرجعون عن غيهم الا اذا صار للاصلاح دولة قوية غنية تستصلح هؤلاء بالرزق، وتكبح شر أولئك بالقوة . وأما نحن فاذا خاطبونا قلنا سلاما . واذا مررنا بلغوهم مررنا كراما . ونسأله تعالى ان يجعلنا معهم ممن قال فيهم (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به . انه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا و يدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

سيرة الاستاذ الامام

بدء الشعور بالحاجة اليها ومطالبته بالشروع في تدوينها

ما كان الاستاذ الامام يفكر في أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدون، لانه كان يستصغر عظائم اعماله لتوجه همته الى ما هو أعظم منها . ولا أعظم منها الا غاياتها وثمراتها . وأما علمه وحكمته وأخلاقه وشمائله فكانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله ما في اظهارها للناس من المثل الكامل والاسوة الحسنة . فبينا هو غافل عن هذه ومستصغر لتلك اذا به يطالب من بعض أهل العلم والفضل بالتفضل عليه بترجمته . ثم اذا هو بمعجب به يقترح عليه أن يكتب بيده سيرته . واذا بالمقترح جاد يلحف في السؤال ويكرر الاقتراح، فهل كان هذا المقترح وذلك الطالب من تلاميذه ومريديه وهم أولى الناس بعرفان فضائله ؟ أم من صنائع أياديه فكان من حق الشكر عليها تعريف الناس بفواضله؟ أم كانا من أولي النزعة الوطنية والعصبية القومية، فاحبا أن يباهيا به الاوطان، ويفاخرا به الاقوام؟ لا هذا ولا ذاك

جاء في الامثال « مغنية الحي لا تطرب » والعجيب اذا ألف لا يعود يعجب، ولذلك يكون اجلال الغرباء للرجل العظيم أبلغ من اجلال أهله وقومه ، وقد كان للاستاذ الامام نصيب عظيم من اكبار الغرباء له لفضائله ومناقبه ، على حين كان أكبر تحويم قومه عليه لجاهه ومنصبه ، لا لعلمه وحكمته ، واكثر اغتباط اصحابه الكثيرين به لعلو مروءته ونجدته ، لا لاجل اصلاحه وجهاده ، فكان لاكثر الفريقين حظ شخصي من تعظيمه

وأما اعجاب الغرباء به فالباعث عليه فضائله الذاتية . لا فواضله العرضية . وقد كان الذي طالبه بكتابة سيرته وتاريخه رجل من فضلاء الاجانب لا من متبعي ملته ولا من اهل وطنه . والذي طالبه بتفضله عليه بخلاصة من سيرته ليزداد علما بمناقبه . وتأسيا به في عمله ، رجل كريم يشاركه في الدين دون الوطن . فكان هذان الاقتراحان سببا لعلمنا بما لم نكن لنعلمه لولاهما

أما هذا المقترح للخلاصة فكان سببا لحمل الاستاذ نفسه على كتابة مذكرة في خلاصة سيرته أعطانيها لازيد فيها ما علمته منه بالمشافهة والمشاهدة . وأبيضها ليرسلها اليه ، ففعلت، وبقي عندي الاصل وقد ازددت به علما . وكان مادة لي في هذا التاريخ فيما سبق صحبتي لصاحبه من الزمن، وأما المقترح لتدوين كتاب حافل في سيرته التفصيلية فقد كان بالحاحه وما شعر به الامام من اخلاصه، سببا لشروعه فيه، ولكن كثرة أعماله وضيق أوقاته عن الاتساع لها كلها قضت بان يسترق له من خلس الراحة سويعات من كل أسبوع أو شهر ، وكان كل ما أمكنه أن يكتبه المقدمة وبعض الفصل الاول الذي موضوعه أهله وبيته . واني أبدأ به وهذا نصه تجاهك:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي الضعفاء اذ رجعوا اليه ، ونصيرهم اذا اعتمدوا في أعمالهم عليه، وأخلصوا له العمل ،ومحصوه من شوائب الحيل ، ولم ييأسوا من رحمته، ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله، الهادي الى الحق وسبله، الداعي اليه بقوله وفعله ، المؤثر له على نفسه وأهله ، المعرض عن نعيم الدنيا لأجله، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه .

و بعد فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للاجيال طريقته . فإني لم آت لامتي عملا يذكر ،ولم يكن لي فيها الى اليوم أثر يؤثر ،حتى أكون لأحد منها قدوة، أو يكون لاحد فيّ أسوة ،وهذا الذي أجد من استصغار أمري، وخفاء أثري، وظهور عجزي عن بلوغ ما يرمي اليه فكري و يطمح اليه نظري كان يمنعني من أن أكتب شيئاً يتعلق بحياتي ،تعرض فيه بداياتي، وشيء من أعمالي بعدها وصفاتي،حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتي . وكنت أقول :وقت أصرفه في حكمة أستفيدها خير من زمن أنفقه في قصة أستعيدها، وما الذي عساه يبقى مني، وأنا في قومي لم أترك ما يؤثر عني .

ولكن عرض لي أن زرت يوما بعض معارفي من الغربيين ممن نظروا في الآفاق، و بحثوا في العادات والأخلاق ،وجابوا لذلك الاقطار، وركبوا الاخطار، وتجشموا مشاق الأسفار ،وحققوا في ذلك ونقبوا ،وكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوا، فدار الحديث بيننا على شؤون بعض الأمم الحاضرة ،وما يجري فيها مما أدت اليه حوادثها الماضية فذكرت لهم ما عندي في ذلك وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات، في أيامي الخاليات، فرأوا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر ،ولا ينبغي أن يهمل ويهدر، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يتمنون أن يروه منقولا الى لغتهم، مقروءا في قومهم بلسانهم، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا في سيرتي، معروضا في تضاعيف وصفي لمعيشتي، وما تنقلت فيه من أدوار، وما تدرجت اليه من آراء وأفكار، مع اسناد

كل شيء الى سببه، ورد كل أمر الى أصله، وسألوني مع ذلك ان اكتب ما أعرف من نسبي وما كان عليه بيتي ومنزلة أهلي من قومي فقلت سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت انهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا » اولئك قوم يعرفون الاقدار، ويقدرون الآثار، لا يبخسون شيئا حقه، ولا ينكرون عليه ما استحقه، يطلبون المنفعة في كل شيء حتى فيما لا قيمة له في نظرنا، وفيما نعده من الضائعات فيما بيننا . هذا الذي الفتهم الى دعوتي لتحرير سيرتي—نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولاه بكبريائه وعنجهيته، ومغرور بمقامه ورتبته، ومعجب بسنه وشيخوخته، وما استحثني على اثبات شيء مما غشيني الا رجل واحد يشاركني في الملة، ولكنه يفارقني في الاصل والمنشأ، (١) وكان من كلامه في استنهاضي لذلك « انه ان لم ينفع أهل عصرنا انتفع به من يأتي بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه غير واثق بما غاب عنه فكنت ادافعه بما قدمت من الأعاليل، ولكن لما نصره أولئك الغرباء، وأيده في طلبه العرفاء، وبالغوا في الالحاح علي حتى قال لي أحدهم ثاني يوم (٢) « لعل الفصل الاول قد تم » يريد بذلك لعلي بدأت في العمل عقب مفارقته وأتممت الفصل الاول من الكتاب مع اني لم أكن شرعت فيه وفي يوم سفره قال « أرجو أن أقرأ الكتاب بلغتنا في مثل هذه الايام من العام القابل »

لما تكرر الطلب فى هذه الصور المختلفة رأيت ان الاضراب عن الاجابة اغراق في الخمول وتقصير في احترام رأي لم يشبه رياء ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة فى المطلوب .

ثم نظرت نظرة فى نفسي وما كانت بدايتي، وما لاقيت في تربيتي، وما نزعت اليه اثناء الطريق في سيري، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام عمري، وقست جميع ذلك الى ما عليه الناس حولي، فوجدت اختلافا قد يسهو عنه الغافل، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل .

---

(١) يعني بهذا الرجل مؤلف هذا الكتاب الذي هو إتمام ما شرع به فاني كنت ألح عليه في ذلك (٢) هو المستر ويلفرد بلانت الانكليزي المشهور

وجدت انني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن ان سئمت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت الى طلب شيء مما لا يعرفون، فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، ونادات أحسن ماوجدت ودعوت اليه، وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين — الاول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس واصلاح العمل، كل هذا أعده أمراً واحداً وقد خالفت في الدعوة اليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الامة — طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم .

أما الأمر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب: الاول ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته ولا يزال شيء من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير انه والحمد لله قليل . والنوع الثاني ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان بارداً ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئاً في الذوق، بعيداً عن الفهم ثقيلا على السمع غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية وهو وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها، ولا يزال هذا النوع موجوداً في عبارات المشايخ خاصة . ثم

ورد علينا في أخريات الايام ضرب آخر من التعبير كان غريباً في بابه وهو ماجاءنا من الأقطار السورية في جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني وهذا الضرب كان يعد من غرائب الاساليب وبه أنشئت جريدة الاهرام في مصر وقد محي أثره والحمد لله ·

وهناك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعا في عمى عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة · نعم كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الامة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً · دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وانه لا يرده عن خطأه ولا يقف طغيان شهوته الا نصح الأمة له بالقول و بالفعل ·

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه · ويد الظالم من حديد · والناس كلهم عبيد له أي عبيد ·

نعم انني في كل ذلك لم أكن الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير انني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح أدعو الى عقيدتي في الدين وأطالب بإتمام الاصلاح في اللغة وقد قارب · اما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لانني قد عرفت انه ثمرة تجنيها الامم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال فهذا الغراس هو الذى ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان ·

أصبت نجاحا في كثير مما عنيت به ، أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي اليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي، وشيء منها مما احتف حولي، وطائفة

منها من اصالتي في الرأي أوخطلي، ومن الذي يستطيع ان يفصل ذلك غيري، حتى يكون انشاء الله عبرة لمن يأتي من بعدي ،

لهذا رأيت أن أكتب مالاقيت، وأثبت ماصادفت من لدن عقلت، منبها على مافيّ من معايب ،وعلى احسان الله اليّ في بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التي مررت بها أومرت بي في أطوار حياتي. غير اني أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بماقبل حياتي وهو مالا أعرفه الا بالسماع من أهله كما لايخفى

الفصل الاول — أهلي

أول ما عقلت من أنا ومن والدي ومن والدتي ومن هم أقاربي وجيران بيتي عرفت اني ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة ووقر في نفسي احترام والدي ونظرت اليه أجل الناس في عيني وسكن من هيبته في قلبي مالا أجده لاحد من الناس اليوم عندي أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأذكر منها قلة الكلام امامي ووقار كان في الحركات والاعمال والهيأة، والتنزه عن مخالطة الصغار من الناس، ومشاهدتي أهل بلده يحترمونه ويبالغون في توقيرهم اياه، وانفراده بالطعام دون والدتي وأخواتي فان ذلك كان آية العظم عندنا فانه ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الاوقات الاالفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية .

ثم وجدت والدي يقري الضيف ويؤوي الغريب ويفتخر باكرام النزيل وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علوا وأنا لاأفهم من هذا الا أنه شيء يفتخر به بدون أن أعقل له علة وبالجملة كنت أعتقد أن والدي أعظم رجل في القرية وكل من فيها دونه وهو بذلك كان أعظم رجل في الدنيا فان الدنيا عندي لم تكن أوسع من قرية محلة نصر وكان يمدني في اعتقادي هذا رؤيتي لبعض الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولاينزلون في بيت العمدة مع انه كان أوسع رزقا من والدي وأكثر دورا وأرضين وفشا فيّ بذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لايتعلقان بالثروة ووفرة المال.

هذا وكنت أعقل من صغري ما كان عليه والدي من ثباته في عزيمته وشدته في المعاملة وقسوته على من يعاديه وقد أخذت عنه ماعدا القسوة وأحمد الله ولا أحصي ثناء عليه

اما والدتي فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدي وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء وتعد ذلك مجدا، وطاعة لله وحمدا. ولم أزل أجد آثر ماوعيت من ذلك في نفسي الى اليوم .

عرفت لي عما يسمى بهنسى ولا أعرف من أحواله شيئا لانه مات قبل أن أحفظ عنه وكان لوالدي ابن عم يسمى ابراهيم ولم يكن له بين الناس مايذكر به وكان يسا كننا في بيت واحد ولا يزال ولده يسكن في قسم من منزلنا الى اليوم ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء و بيوتهم من خير البيوت في القرية .

هذا ماعرفته من حاضر بيتي في أول أمري وما طرأ عليه سيأتي ذكره في سيرتي اما ماضيه فانما أذكره حديثا عن أبي ورواية عن بعض من عرف شيئا منه ممن أثق به من ذوي قرابتي وغيرهم . جدي لابي كان يسمى حسن خير الله توفي عن أبي وعمي بالهواء الاصفر الذي فتك بسكان القطر المصري في اواسط القرن الماضي ويقال انه كان له قبل موته من بني عمه وذوي عصبته نحو اثني عشر رجلا وبني بهم واش من بيت آخر جاء البلدة وسكن فيها وحسد أهل الحسب من سكانها فسمى باهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكام بحجة انهم ممن يحمل السلاح و يقف في وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم فأخذوا جميعا وزجوا في السجون واحدا بعد واحد ومن دخل منهم السجن لا يخرج الا ميتا وكان جدي حسن شيخا بالبلدة وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه ابراهيم الذي سبق ذكره

بعد وفاته طالت يد ذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة الى سلب ما كان في البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه فانه لم يكن بقي الا والدي في سن الرابعة عشرة وعمي في سن السادسة عشرة وابراهيم في سن الثامنة عشرة والنساء فأخذ جميع ما كان في البيت حتى الابواب و بعض أخشاب السقوف فهاجر والدي وعمي ومن معهما من البلدة ولجأوا الى خال والدي الحاج محمد خضر وكان عمدة في قرية صغيرة

ستترف بكنيسة أورين من مركز شبراخيت ولكنه لم يستطع ايواءهم عنده خوف الاضطهاد لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلت احقاد الظلمة من الحكام والوشاة فأخذهم خفية وسار بهم الى مديرية الغربية عند احد أقاربه في قرية يقال لها منية طوخ بمركز السنطة ثم انتقلوا الى قرية بجانبها تسمي شتراء وكان معهم من النقود مايسمح لهم باستئجار أطيان يعملون في زراعتها امابانفسهم أو بشركاء يعملون بايديهم ويقتسمون الريع معهم واشتهر والدي بالفتوة والبراعة في الصيد بالسلاح وأحبه لذلك مصطفى أفندي المنشاوي ومحمد أخوه وكانا موظفين في دائرة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاول في وظيفة مفتش زراعة والثاني بوظيفة ناظر وطابت له صحبتهما وعدوه كأنه واحد من أهلهما ودام ذلك مدة سنين

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر وضاقت بهم السبل كما كان يسومهم ذلك الواشي من الخسف والذل أخذوا يتسللون بيتا بعد بيت يهجرون القرية ويذهبون ليقيموا في جوار من سبقهم من أهلي فأحس الشقي باشراف القرية على الخراب وفي ذلك انتقاص منافعه وخسار كبير في مصالحه فجدد لوشاية بوالدي ومن معه ورفع شكوى الى مدير البحيرة وكان في شبراخيت يذكر فيها ان والدي مأوى لمن فروا باسلحتهم من القرية وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الاول بتجريد الاهالي من السلاح وحظر حمله عليهم فكتب مدير البحيرة بذلك الى مدير الغربية واتهم مع ذلك مصطفى أفندي المنشاوي بايوائه بعض الفارين من العسكرية فأخذ الجميع على غرة وقبض عليهم في بيوتهم وسيقوا الى مديرية الغربية أمامصطفى المنشاوي فارسل الى ليمان الاسكندرية وأما والدي ومن معه فارسلوا الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الامر في شأنهم ولم يزالوا في السجن الى أن توفي عباس باشا فافرج عنهم وعن غيرهم وبعد ذلك عاد والدي الى مسقط رأسه في أول ولاية المرحوم سعيد باشا ولم يجد شيئاً مما كان يملكه اسلافه الا جدران البيت مهدمة .

تقدم انه طالت اقامته في مديرية الغربية ويقال ان مدتها بلغت نحو خمس

عشرة سنة وفي أثنائها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشنرا وعرف فيمن عرف بيت والدتي وهو بيت كبير في بلدة تسمى حصة شبشير يعرف ببيت عثمان كان كبيره اذ ذاك جدي ابراهيم عثمان الكبير فتزوج والدتي وأخذها الى شنرا وفيها ولدت في أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والالف من الهجرة (* ولم يولد له منها غيري الا بنتان احداهما تسمى زمزم وهي بكرة وتوفيت قبل ولادتي والاخرى تسمى مريم وهي لم تمت حتى تزوجت وأنا في آخر سني طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت التركمان فسألت والدي عن ذلك فاخبرني أن نسبنا ينتهي الى جد تركماني جاء من بلاد التركمان في جماعة من أهله وسكنوا في الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن ثم اتفق ان اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه واتخذ له خلوة في المحل الذي أسست فيه قرية محلة نصر فلما توفي رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ و بيت آخر يسمى بيت الغرنواني ان يبنوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة و يسكنوها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون من مجموعها قرية محلة نصر وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداؤه ولا تزال قبة الشيخ و بيت أقربائه الى اليوم اما تسميتها بمحلة نصر فذلك لان مزارع البلدة كانت أعطيت أقطاعا لشخص يسمى نصرا فسميت باسمه وذلك في زمن لا نعرفه أيضا .

وقد أخبرني المرحوم علي باشامبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير تعرف بالرحلة الكبرى ورأى فيها اسم محلتي نصر ومسروق وانه نزل ضيفا في بيت خيرالله التركماني وقال ان البيوت الكبيرة في البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ و بيت خيرالله وبيت الغرنواني .

اما بيت والدتي فيقال انه عربي قرشي وانه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن اقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب في الاسلام و كيف وصل الامر بالمسلمين الى ان لا يعرف الواحد منهم من آبائه أكثر من ثلاثة ومنهم من

*) كذا بخطه وفي رواية عنه أنه ولد سنة ١٢٥٦ وهي المشهورة

لا يعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على انسابهم وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لاسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الاحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئاً يساوي شرف النسب. وهيهات أن يرتفع ذو أدب بادبه، الى رتبة شريف بنسبه، وان كان خاملا في نفسه غير شيء في عمله. ولا يخفى ما كان في ذلك من بخس الحق والاستهانة بالكرم الذاتي والشرف العصامي والاتكال في نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون، لا على ما يكسبه المرء بجده واجتهاده. نعم كان في الافتخار بالآباء والاجداد ومعرفة ما أتوا به من جليل الأعمال وما كانوا عليه من كريم الخصال تحريض لأخلافهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورثوهم من علو ورفعة، لكن الكسل الملازم لطبيعة الانسان كان يغلب جانب الاتكال على جانب الاسوة فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط والغلو في اعتبار الانساب كما أنكر ذلك في كل شيء حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (ان اكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم «ائتوني باعمالكم ولا تأتوني بانسابكم» ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض ولكن المعول عليه، وما يصح ان يرجع الكرم اليه، انما هو ما يكون عليه المرء نفسه فان وافق ذلك نسباً عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم والا فلن يبخس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الآلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم، فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة، ووفقهم للاعمال الصالحة، فمنهم يبتدئ الحسب، واليهم في القرون المستقبلة يرجع النسب.

هذا ما اراده الاسلام وما دعا اليه ولكنه مع ذلك امر برعاية النسبة الى الآباء ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والالتحام بالادعيا وفرض على المؤمنين ان يدعوهم لآبائهم ليعرفوا بهم لا بمن اندرجوا فيهم وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن ابي طالب أن يعهد بجلائل الاعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة

وجاءت سنة السلف شاهدة بان للانساب وتوارث الاحساب مظاهر في أعمال الاشخاص وآثاراً في خصالهم ينبغي النظر اليها . فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن الادب المكتسب ، بل طلب العدل في الامرين ، وجمع لاهله بين النظرين الصادقين .

ولكن ماذا يصنع الاسلام في المسلمين وقد مهروا في تحريفه وقلب مقاصده العالية الى اضدادها كأنما هم مغرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالي والملصقين قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يغبطهم عليه أهل الاحساب وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة أو علم وفضيلة و بلغ من أمر بعض الموالي الذين لا يعرف أباؤهم فضلا عن أجدادهم في الدولة العباسية ان استبدوا على الخلفاء من نسل العباس ابن عبد المطلب واغتصبوا الملك منهم وسادوا على كل ذي حسب ونسب في أيامهم بل قد فعل كثير منهم الافاعيل بأشرف الناس نسباً من آل بيت النبوة فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الاخلاق والغرائز وان ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيء الابناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك فهو من مبتدعات القدرة الآلهية وأما التربية فان كانت حسنة مهدت السبيل واسرعت بتكوين الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الاخلاق وليس له سلف فيها وان كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحته من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده .

وشأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه فان كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وان كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشيء حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم برميه القدر من أول نشأته من قسيّ الحاجة فيأخذ يكلف نفسه ماليس في استعدادها و يحملها على معاطاة مالا يليق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلا وهو ليس من أهلها .

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم مع أنهم لم يغفلوا عنها في دوابهم من الخيل والحمير وما شبهتهم من البقر والغنم والابل ونحوها فيطلبون

نتاج الجياد من الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين بل ولعوا بالجواري والاماء ممن لا تعرف أصولهن، ولم تعرض على الاختبار خلالهن، في بيوت آبائهن، وأكثر ما كان من ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من علية الناس فكان خيرا للابن أن ينسى خؤولته بعد ان كان يفتخر بها . وولع الملوك بالمماليك وظنهم فيهم الاخلاص في الولاء وثقتهم بامانتهم ذهب بهم الى رفعهم على رؤس من سواهم فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام وما كان لاحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له ابا ، أو يتذكر لنفسه نسبا، فصار الجهل بالانساب عادة و بئست العادة وأصبح البيت القديم المؤسس على مئين من السنين لا يعرف من أسلافه الا واحدا أو اثنين ومن بقي بعد ذلك فقد أكل الزمن ذكره ومحى جهل خلفه أثره .

ولذلك أقول ان ما أسمعه عن بيت والدي ووالدتي انما هو روايات في أفواه الاهل والاقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيد في الفضل غير أن ذلك يأتي في الانتساب الى قريش وعمر ابن الخطاب أما في الانتساب الى أصل تركماني فلا أظن ذلك يأتي ولهذا يترجح عندي جانب صحة الخبر و يؤيده ما نرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي لا يشاركهم فيها من يجاورهم في مساكنهم .

(يقول مؤلف الكتاب) هذا ما كتبه رحمه الله في ترجمة نفسه ومن الاخلاق المعروفة لبيته ان والده كان الى آخر عمره شهما شجاعاً وقورا مهيباً سخي النفس كريم النحيزة محترماً من كل من يجالسه وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم خلقاً . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثة ومكتسبة بالمعاشرة والقدوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استعداد الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم نر ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه وسلم « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » رواه البخاري ومسلم ، ولذلك كان السيد جمال الدين يقول له : قل لي بالله أيّ أبناء الملوك أنت : يشير الى أن ما كان عليه من الاخلاق العالية وشرف النفس كان وراثياً

الفصل الثاني

نشأته وتربيته وطلبه العلم

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد كتب هو عن مبدإ تعلمه وتأدبه من مذكرات أعطانيها لأستخرج منها ترجمة مختصرة له - وكان قد طلبها بعض الغرباء الفضلاء - ما نصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاؤا من مكتب آخر ليقرؤا القرآن عند هذا الحافظ ظنا منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأمي الشيخ مجاهد رحمه الله لأجود القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

« ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم و بدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئًا لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عثر عليّ أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكراهي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق عليّ الا أن أعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغلبي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الاثر الذي يجده خمسة وتسعون في المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة

من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم — سبيل إلقاء المعلم مايعرفه أومالا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعداده للفهم غير ان الاغلب من الطلبة الذين لايفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال، وهم في أحلام الأطفال، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ويضلون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

« بعد أن تزوجت بار بعين يوما جاءني والدي ضحوة نهار وألزمني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرساً أحضر فركبته وأصحبني والدي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس ليشيعني الى محطة (إيتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا كان اليوم شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة سافياء، تحصب الوجه بشبه الرمضاء، فلم أستطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بد من التعريج على قرية أنتظر فيها أن يخف الحر، فأبى عليّ ذلك فتركته وأجريت الفرس هاربا من مشادته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة اورين) — بلدة غالب سكانها من خؤولة أبي — وقد فرح بي شبان القرية لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه. أدركني صاحبي وبقي معي الى العصر وأرادني على السفر فقلت له خذ الفرس وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالدي انني سافرت الى طنطا. فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي، وبدلت فيها رغبة غير رغبتي،

ذلك ان أحد أخوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاستانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد

حفظ القرآن وفهمه ثم رجع من أسفاره الى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلح الارض وكسب الرزق بالزراعة

« وان هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي بتها فى الكنيسة وبيده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالاطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئاً اضعف بصره فدفعت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى في ألطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ماقرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضي فتغلبه وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألحّ عليّ في قراءة شيء منه فقرأت وفسر ثم تركته الى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ماأقرأ نحو ثلاث ساعات لم أملّ فيها فقال لي إنه في حاجة الى الذهاب إلى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

« لم يأت عليّ اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء إليّ ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء الىّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب ويزهدونني

في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب . في اليوم السابع سألت الشيخ ماهي طريقتكم فقال طريقتنا الاسلام فقلت أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب و بغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم — متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا في غمرة ساهين ، سألته ماورد كم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال لا ورد لنا سوى القرآن تقرأ بعد كل صلاة أربعة ارباع مع الفهم والتدبر : قلت أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً قال أقرأ معك ويكفيك ان تفهم الجملة و ببركتها يفيض الله عليك التفصيل واذا خلوت فاذكر الله — على طريقة بينها — وأخذت أعمل على ماقال من اليوم الثامن فلم تمض علي بضعة أيام الا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد ، واتسع لي ما كان ضيقا ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي الاهم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني الى ماوجهت اليه نفسي الاذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى إطلاق التوحيد ، — هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادتي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي ردلي ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي ،

« وفي اليوم الخامس عشر مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني ان والدي ذهبت الى طنطا لتراني فعلمت ان سيقول لوالدي انني لا أزال في الكنيسة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اللوم لانني لو كنت أقمت له ألف دليل على انني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع

« ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرس وجلست في الدرسين فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله. وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما سنتلقاه. وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت رأسي اليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحان الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

« وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الازهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة . وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين — من منتصف شعبان الى منتصف شوال — وكنت عند وصولي الى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشا قد سبقني اليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئا من مبادىء الهندسة : وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطىء في الطلب وأخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦

« وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ

مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الاقاويل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي: ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وان اعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علما وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلها الاضرار بالناس: »

هذا ما كتبه الفقيد عن مبدإ تربيته وتعليمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حدثني بشيء من ذلك قبل ومنه أنه لم يكن يواظب على حضور دروس من لا يفهم أولا يستفيد منهم وانه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البسيوني وأنه بعد الحضور في الازهر ثلاث سنين مل الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديدا وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى اعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازا في الأزهر بعلم المنطق فحضره عليه ولم يكن يشفي مافي نفسه بل كانت تتشوف دائماً الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الازهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصا. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو شبه الحزر فيما بينهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيتها،

وأخبرني الشيخ رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدوم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو يقيم في خان الخليلي فسر بذلك وأخبر الشيخ حسنا ودعاه الى زيارته معه فألفياه يتعشى فدعاهما الى

الأكل معه فاعتذرا فطفق يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيدنا به عجبا وشغفه حبا لان التصوف والتفسير هما قرة عينه أو كما قال مفتاح سعادته . وأخبرني رحمه الله تعالى انه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق ، والهداية والاشارات وحكمة العين وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني في التوحيد والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجغميني وتذكرة الطوس في الهيئة القديمة وكتابا آخر في الهيئة الجديدة نسيت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كغيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية ومرنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها و بلاغتها لم تصف من كدورة العجمة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد فى ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلازمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكلفك كل ما يلقيه اليك سواء كنت تشعر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعدا لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا مايرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقى اليك كمثل من يكلفك أن تأكل مقدارا معينا من الاطعمة التي قد تعاف بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغثاثة فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي اما أن يضر واما أن لا ينفع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشتهيه وتتناول منه ما يكفيك فيكون كله غذاء نافعا . وقد قال بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمنا طويلا . ولقد كانت مجالس استاذنا الفقيد كمجالس استاذه (رحمهما الله) تفيض علما وحكمة وأدبا ولكن الفصل بينهما فى هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان يخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي

رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الى مايريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لانني تؤثر في حالة المجلس والوقت فلاتتوجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهراوهكذا الكتابة: واننا في هذا المقام نورد ترجمة السيد جمال الدين التي نشرها في أول ترجمة رسالة الردعلى الدهريين ونزيدعليها قليلا قال

السيد جمال الدين الافغاني

يحملناعلى ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل مارأيناه من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره، حتى كانه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أوقوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء جوهره، وزكاء مخبره، لم يصبه وهم الواهمين، ولم يمسسه حزر الخراصين، وانا نذكرمجملا من خبره، نرويه عن كمال الخبرة، وطول العشرة:

هذا هو السيد جمال الدين ابن السيد صفدر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينمي نسبه الى السيد على الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه . وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كنر) من أعمال كابل تبعد عنهامسيرة ثلاثة أيام ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الافغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لهاسيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من أيديها دوست محمد خان جد الامير الحالي (١) وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين و بعض أعمامه الى مدينة كابل

ولدالسيدجمال الدين في قرية (اسعدآباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل وفي السنة الثامنة من عمره اجلس للتعلم وعني والده بتربيته فأيد العناية بقوة في فطرته، واشراق في قريحته، وذكاء في مدركته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها . تلقى علوما جمة برع في جميعها

(١) يعني به المرحوم الامير عبد الرحمن لان الترجمه كتبت وهو حي

فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وآلهية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى مافي الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة وأتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التي مر بها في سياحته واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد اداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا . وتقلد الامارة ولي عهدها شير علي خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته خصوصا من هو أكبر سنا منه ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة وألبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالامارة

وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم فلما أحسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار وتفرقوا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجالدات عنيفة عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن (الامير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان

وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها (على خلاف ماتعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوءظن الامير بالاغلب من ذوي قرابته حمله على تفويض مهمات من الاعمال الى أبنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش أحدهم وكان حاكما في قندهار على منازلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مئتي جندي واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ماالتفت يعقوب خان قائد شيرعلي فوجد ذلك الفرّ المتهور منقطعا عن جيشه فكرّ عليه وأخذه أسيرا فتشتت جند قندهار وقوي الامل عند شيرعلي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحروب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي و بذلوا لها قناطير من الذهب ففرّقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات و بعد حروب هائلة تغلب شيرعلي وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن فذهب عبدالرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور و بقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسه الامير بسوء احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فأذن له على شرط أن لايمر ببلاد إيران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه الاعلى عين من رجالها فلم يقم أكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في أحد مراكبها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر وأقام بها نحو

أربعين يوما تردد فيها على الجامع الازهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثم تحوّل عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة

وصل الاستانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاة الصدر الاعظم عالي باشا ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجراء وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلاذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب عن ازيائهم ولغتهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سمي عضوا في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات حسن فهمي أفندي لانها كانت تمس شيئاً من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دار الفنون تحسين أفندي ان يلقي فيها خطابا للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه تحسين أفندي فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولمنيف باشا ناظر المعارف وكان عضوا في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم وأطنب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده وأرسل حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتمثيل به وما كان يجدها لو طاب حقا ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حيّ وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن فشبه الملك مثلا بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة . والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين ومضى في سائر الصناعات والاعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف ثم قال هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية

ولا حياة لجسم الا بروح وروح هـذا الجسم أما النبوة واما الحكمة ولكن يفرق بينهما بان النبوة منحة الهية لا ينالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالاته. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات و بأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه. وان أحكام النبوات آتية على ما في علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فالاخذ بها من فروض الايمان اما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ما هو الاولى والا فضل على شريطة أن لا تخالف الشرع الالهي.

هذا ما ذكره متعلقا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية الا ان حسن فهمي أفندي أقام من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة، (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم أوعز الى الوعاظ في المساجد أن يذكروا ذلك محفوفا بالتفنيد والتنديد فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك) واشتد في طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها وأكثرت الجرائد من القول في المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها أعوان لشيخ الاسلام فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون و يغضي على الكريهة وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل ولج في طلب المخاصمة فعظم الامر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجلاء عن الاستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء ففارق الاستانة مظلوما في حقه، مغلوبا لحدته، وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هذا مجمل أمره في الاستانة وما ذكره سليم العنحوري في شرح شعره المسمى سحر هاروت مما يخالف ذلك خلط من الباطل لا شائبة للحق فيه

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصري كل شهر نزلا

أكرمته بلا في مقابلة عمل واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فاورى، واستفاضوا بحره ففاض درا، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلي والحكمة النظرية طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم ولم يذهب الى الازهر مدرسا ولا يوما واحدا نعم كان يذهب اليه زائرا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة ·

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية ثم وجه عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان أرباب القلم في الديار المصرية القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون في المراسلات الخاصة واما مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وماشا كلها

ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصرى لايشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به ومنكر ذلك مكابر والحق مدابر · هذا ماحسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ أما الثابتون في ايمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم ولنا في أئمة الملة الاسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم ليدهم اخلاط من الناس

من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون مالا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه في ارتفاع ، والقلوب عليه في اجتماع ، الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديوها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشرين لمحامده ، إلا ان بعض المفسدين ومنهم (مسترفيفيان) قنصل انكلترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوي و نقل المفسد عنه ، ما الله يعلم انه بريء منه، حتى غير قلب الخديوي عليه فأصدر أمره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه ابو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بحيدرآباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين .

ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدر آباد الى كلكته وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم أبيح له الذهاب إلى اي بلد فاختار الذهاب الى أوربا واول مدينة أصعد اليها مدينة لوندرة أقام بها اياما قلائل ثم انتقل عنها الى باريز واقام بها مايزيد على ثلاث سنوات وافيناه في أثنائها . ولما كلفته جمعية العروة الوثقى[1] ان ينشيء جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية ايدها الله سألني ان أقوم على تحريرها فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً مالم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه ، وذلك لخلوص النية في تحريرها ، وصحة المقصد في تحبيرها ، ثم قامت الموانع دون الاستمرار في اصدارها حيث اقفلت ابواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الانكليزية في اعنات من تصل اليهم فيه، ثم بقي بعد ذلك مقيما باوربا أشهراً في باريز وأخرى في لندرة إلى أوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع إلى البلاد الايرانية

أما مذهب الرجل فحنيفي حنفي وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاشريه في مصر أيام اقامته بها، ولا يأتي من الاعمال إلا مايحل في مذهب امامه، فهو أشد من رأيت في

(١) هي جمعية سياسية كان لها فروع في الاقطار الاسلامية

المحافظة على أصول مذهبه وفروعه

اما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله

اما مقصده السياسي الذي قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي اليه مدة حياته، وكل ما اصابه من البلاء اصابه في سبيله، فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الامة بالامم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للاسلام شأنه، والدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الاقطار المشرقية، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله في عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها

اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي إلا بنوع من الاشارة اليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وابرازها في صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له. وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها. كل موضوع يلقى اليه، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر المستور منه، واذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع، وله لسن في الجدل وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهداً على ذلك انه ما خاصم أحداً إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الاوربيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون. وبالجملة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله ان يسع، إلا ان يدنو منه أحد ليمس شرفه او دينه، فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب، اذا هو أسد وثاب، وهو كريم يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر، عظيم الامانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسي الذي قدمناه، اذا لاحت له بارقة منه،

تعجل السير للوصول اليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الامور ، عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام لايهاب الموت كانه لا يعرفه ، إلا انه حديد المزاج وكثيراً ما هدمت الحدة مارفعته الفطنة ، الا انه صار اليوم في رسوخ الاطواد ، وثبات الافناد ، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده

اما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الاولين من سكنة الحجاز حماه الله . ربعة في طوله ، وسط في بنيته . قمحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الاحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ماينطبق على كمال خلقه

بقي علينا ان نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المتنزهات العامة والاماكن المعدة لراحة المسافرين ، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه في تلك المواضع لايخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً من اللغو ، منزهاً عن اللهو ، وكان يوافيه فيها كثير من الامراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يحب ان تؤتى رخصه ، كما يحب ان تؤتى عزائمه ، وأي غضاضة على المرء المؤمن في ان يفرج بعض همه بما اباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعاً لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكنا في تاريخه مسلك التفصيل ، لادى بنا الى التطويل . اه

***

(يقول المؤلف) وكتب الاستاذ الامام في كتاب أسباب الحوادث العرابية نبذة أثبت فيها أن هذا السيد كان مبدأ النهضة الاجتماعية السياسية بمصر ، وذلك قوله بعد بيان ما كانت عليه مصر في زمن الخديو اسماعيل باشا ما يأتي بنصه :

« هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها

العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كمل ظهوره ، وانتشر نوره، لاهتدى به الضال ، وحسن به الحال

«ذلك ان أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة ملكا لحاكمهم الاعلى ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته، ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكولان الى أمانته وعدله ، او خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له ان يبديه في ادارة بلاده ،او إرادة يتقدم بها إلى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحا لامته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى انهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ماعليه الامم الاخرى سواء كانت اسلامية أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم الى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير إلى ذلك التاريخ الذي ذكرناه وذهاب العدد الكثير منهم إلى ماجاورهم من البلاد الاسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وابراهيم باشا لم يشعر الاهالي بشيء من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبت بها، ومع ان اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى، في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه ان يعلم الاهالي ان لهم شأناً في مصالح بلادهم وان لهم رأيا يرجع اليه فيها، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بان له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيأة الشوروية لان مبدع المجالس قيده في النظام وفي العمل . أما في النظام فلانه قد نص فيه على ان نظر المجالس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه وما يعن لها أن ترسله اليه للمداولة فيه ، واما في العمل فلانه كان يرسل من قبله عند المداولة من يخبر الاعضاء بارادة جنابه فيقررون مايريد بعد مداولة صورية، فكانوا يشعرون بان الارادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم.

هل كان يمكن لاحد ان يعمل على خلاف مايامر به؟ هل كان يمكن لشخص ان يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، او الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم ؟ لو حدثه الفكر السليم بان هناك وجهة خيراً من تلك هل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ؟ كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفي عن الوطن او إزهاق الروح أو تجريد من المال،

وبينما الناس على هذا لا كاتب ينبههم ، ولا خاطب يعظهم، اذ عرض امر قلما يلتفت اليه ،أو تحوم الافكار حواليه ، وان كان مما يعرض في كل مكان، وجرت به السنة الالهية في كل زمان

﴿ مبدأ النهضة المعنوية بمصر ﴾

« جرت سنة الله في خلقه بأن عظائم الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام الاشجار تبسق من بزورها ، جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ رجل غريب ، بصير في الدين ، عارف بأحوال الامم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جريء القلب ، وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني ، وركن الى الاقامة في مصر فتعرف اليه في بادىء الامر بعض طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد ، فكان ذلك داعياً لطلاب الاجتماع به لتعرف ما عنده . ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو في جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس الى معالي الامور ، أو يستلفت الفكر الى النظر في الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف الى بلادهم ايام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في اطراف متعددة من البلاد خصوصا في القاهرة — كل ذلك والحاكم القوي في علو مكانه ، ارفع من ان يناله هذا الشعاع في ضعف شأنه ، ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء ، وينتشر في الانحاء على غير نظام الى ان نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة الروسية في سنة ١٢٩٣

« وجد الناس من نفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسية فتطاولوا الى ما يرد من اخبار الحرب . وكثرة الاجانب في هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الاوربية الى طلابها من الاوربيين ، ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد

العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على مالايهم ، فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية ، فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الاخبار، ومناوأتها في المشرب، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة

« لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الامم في سيرتهم السياسية والمعاشية، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الاقلام على التحرير وانشاء الفصول الادبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن اصلاح الافكار ، وتهذيب الاخلاق ، فتسابقت الى ذلك الكتاب وتبارت الاقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال ، أو أرض غير ارض الخيال ، ومن يطلع على اعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والاهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا » اهـ ما اردنا نقله من كتاب اسباب الحوادث العرابية وهو على ايجازه صريح في ان السيد جمال الدين كان هو مبدأ هذه النهضة الفكرية في مصر. وكان بعد ذلك يغذيها بارشاده وجرائد تلاميذه حتى صار له حزب سياسي عظيم من ذلك الحزب الادبي الذي لم يكن يخطر على البال

***

وانا ندعم ما كتبه الاستاذ الامام على قوته ورسوخه بما كتبه أديب بك اسحاق الكاتب المشهور وكان من تلاميذ السيد جمال الدين وافراد حزبه في زمنه قال أديب :



جمال الدين

«هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة، النبيه المتوقد الذكاء، الجريء الذي لا يعرف الخوف، النسيب السيد جمال الدين الحسيني الافغاني، ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الآن نحو ٤٥ عاما وطلب العلم بالفارسية والعربية على ما جرت به عادة الامراء والعلماء في بلاده فتبحر في المنقول والمعقول، وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فداخله في ذلك بداءة بدء شيء من التصوف فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والمريدين، كل ذلك وهو دون العشرين سناً. ثم خرج من خلوته مستقر الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية، ومات عامئذ أمير الافغان عن ولدين وهما شيرعلي خان ومحمد أعظم خان فاقتتلا على الولاية فانتصر جمال الدين للثاني

فقربه وجعله من رؤساء جنده فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافاً بالموت، وأقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان، حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان، فانصرف الاولياء عنه إلا جمال الدين ونفر غيره من الامناء فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا أن أوجست حكومة الانجليز خيفة من صاحب الترجمة فعاد إلى أفغانستان ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة فلم يلائمه ثم الهواء، فقصد الاستانة وأقام بها مجهول المكان، حتى اهتدى اليه بعض أكابر الوزراء فعرف قدره وفضله، فجعله من اعضاء مجلس المعارف العالي، ثم اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فأجاب وكانت خطبته في الصناعات فأنكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت له في مجلسه، فالتمس من الدولة إبعاده فارسلته الى الحجاز فاقام فيه مضطراً، وكان قد عرف رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منه باسباب مودة فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت له الحكومة الخديوية رزقا كافياً على ان يكون من المدرسين، فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة، أفضت الى المنافرة، فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين ثم صارت ملتقى للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء، فكان يكاشف بعضهم بآرائه الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل، على انه بقي مجهول الشان عند العامة، حتى ظهرت آثاره وآثار مريديه في جريدة مصر، فاظهرت شانه، وصارت تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح) فطار صيته، وعظم نفوذه

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية، قوي الرغبة في إنقاذ المصريين من الذل، فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلت أمورها المالية، علم أنه لابد من تغير أحوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع الكلمة على مبدأ الحرية فدخل الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم أنشا محفلا وطنياً تابعاً للشرق الفرنسوي ودعا مريديه من العلماء والوجهاء اليه

فصار أعضاؤه نحوا من ثلاثمائة عدا وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر في جريدة مصر فصولا ناطقة به خصوصا في اعتداء الانكليز على ابناء أبيه فاجوا عليها وترجمتها جرائد لوندره واهتموا بها كثيرا حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه أمر الجدال في موضوعها فلما عظم شأن محفله داخل الخوف منه قنصل انكلتره فوشى به الى الحكومة و بث الرقباء في المحفل فسموا فيه فسادا

وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد جمال الدين ان الخديوي اسماعيل مخلوع لامحالة فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية وأخذ يسعى في انفاذ أغراضه فلقي المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التيمس وكلهما بلسان حزب كبير فهال أمره بعض أمراء المصر بين فقويت بذلك حجته وشأنه ونفذت سعاية أعدائه فأمر الخديوي الجديد بنفيه أواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر ستمبر سنة ١٨٧٩ فأخذ غلسا وقبض على من كان في حلقته وأرسل هو وخادمه الأمين (أبو تراب) مخفورين الى السويس ومنها الى أبو شهر (فرضة في العجم) وهو الآن بحيدرأباد مرفوع المكان عالي المقام و بقيت كتبه وأوراقه في مصر وقيل ان روجرس بك أخذها ثم أعيدت لصاحبها

(قال أديب)عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الاقامة بالمحروسة والاسكندرية فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختيار على انني ملتزم فيه جانب الصدق بريء من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين والله على ما أقول وكيل . والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربعة ممتلىء قوي البنية جذاب النظر نافذ اللحظ خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زي علماء الاستانة وانه عزب عفيف النفس قانت كثير القيام لاينام الا الغلس الى الضحى ولايأكل غير مرة

واحدة في اليوم على أنه يكثر من شرب الشاي والتدخين قوي العارضة ميال الى المعارضة طويل الحجة واسع المحفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر، و يهتك استار السرائر، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج

ومن عجائب ذكائه انه تعلم اللغة الفرنسوية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها و يحفظ من مفرداتها شيئاً كثيرا في أقل من ثلاثة شهور بلا استاذ الا من علمه حروف هجائها يومين

ومن غرائب فضله انه كان يتتبع حركة المعارف الاوربية والمستكشفات العصرية و يلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدا حتى كأنه قرأ العلم في بعض مدارس أوربا العالية

ومن مدهشات أحواله الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه انه قبض عليه لما لا نعلم من الشر، فكان سائرا الى الخطر، سير الشجاع الى الظفر، وانه أنزل الى البحر في السويس منفيا خالي الجيب فأتاه فيما يقال السيد النقادي قنصل ايران بذلك الثغر ومعه نفر من تجار العجم وقدموا له مقدارا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن فرده وقال لهم «احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ان الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب» اه من كتاب الدرر

ترجمة سليم بك العنحوري للسيد جمال الدين

قال في شرح ديوان (سحر هاروت) في تفسير قوله :

ترنو اليّ بعقله غضبى اذا	بصرت بطودسال كالوديان
فكأنني بيكونسفيلدُ زمانه	وكأنها من بغضها الافغاني

ما يأتي بعد ترجمة وجيزة لورد بيكونسفليد الوزير الانكليزي الشهير :

« وأما الافغاني فهو السيد جمال الدين العالم الفيلسوف الشهير . نبغ في بلاد الافغان فتعلم فيها اللغة الفارسية والعلوم الدينية والمنطق وشيئاً من علم الاخلاق وكان ممن انتظموا في سلك الجندية فلما قام الخلاف عام ١٨٦٣ على امارة الافغان

بين شير علي خان واخوته وأولاد اخوته انحاز جمال الدين الى أفضل خان (أو الى محمد أكبر خان) (*) وعدّ من مشاهير أنصاره بيدان الانكليز أخذوا أخيراً بناصر شير علي واعترفوا له بمعاهدة عقدت في أوائل سنة ١٨٧١ بانه وليّ البلاد الشرعي فاخفق سعي جمال الدين وفرّ ثمت الى الهند وهنا لك أخذ عن علماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ وتبحر في لغة (السانسكريت) أمّ لغات الشرق وبرّز في علم الأديان حتى أفضي به ذلك الى الالحاد والقول بقدمية العالم زاعماً ان الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوّنة بترقّ وتحوير طبيعيين مانراه من الاجرام التي تشغل الفلك ويتجاذبها الجو وان القول بوجود محرّك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقي الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات بمعنى انه عند ما كان همجياً صرفاً وساذجاً بحتاً كان يعبد خسائس الموجودات من مثل الخشب والحجر ولما ترقى في معراجي المدنية والعلم رقى بالنسبة عينها معبوداته فصار يحترم النار فالسحاب فالافلاك فاجرامها وما برح يتدرّج يرقى في الخبرة ويستضيء بمشكاة العلم وهو آخذ في سير طبيعي برفع مكانة معبوده وبرقيه في مراتب السموّ حتى قال هو منزه عن الكيف والكم معصوم من البداية والنهاية . بعيد عن الحصر والاحاطة . مالئ الكل وفي الكل يرى الكل ولا يراه أحد غير ان مدارك الانسان ترقت بعد ذلك الى حد أوصلها الى العلم بأن كلّ هذا ضروب أوهام ، وأضغاث أحلام ، نشأت في الاصل عن خوف الانسان من الموت وميله الى الخلود، ذلك ماجعله يبني في الهواء صروحاً من الاماني وابراجاً من التعلاّت مما رسخ في مخيلته الى حد كاد يكون اعتقادا فطفق يقول انه سيتحول بعد هذا الموت الى حياة خالدة ونعيم مقيم وان الخشب أو الحجر هو الذي ينتهي به الى هـذا المقام الاسمى اذا أداه احتراماً ، وأوسعه اكراماً، فانبعث في عبادته تخلصاً من مرارة التفكر بممات لاتعقبه حياة . ثم عن له ان النار أكثر اقتـدارا ، وأجل نفعاً واضرارا، فمال عنه اليها، ثم رأى ان السحاب خير من النار وأقـدر فانضوى اليه، وعول عليه، وما برحت تزداد حلقات تلك السلسلة المصوغة باداني

(*) الصواب انه تحيز لمحمد أعظم خان كما تقدم

وهم وميل مرافقين لغريزة الانسان وفطرته حتى انتهى الى تلك الرتبة المتناهية علوًّا فصار من موجبات نواميس الاشياء رد الفعل المؤدي الى الجزم بان كل ذلك خزعبلات منشؤها الأماني لاحقيقة لها ولا رسم

وليس اعتقاد المرء ماخط كفهُ   كما ان حاكي الكفر ليس بكافر

(عودٌ على بدء) و بعد ان أقام في الهند ردحاً جاء فروق عاصمة الدولة العلية فاتصل بصدرها (أمين عالي باشا) وحظي لديه وما لبث هنالك ان أتقن اللغة التركية ولما رغب اليه الصدر ان يخطب في دار الشورى ارتجل خطابة في الصناعات غالى فيها الى حد ان ادمج النبوّة في عدادالصنائع المعنوية فشغب عليه طلبة العلم وشددت صحيفة الوقت عليه النكير بما الجأ الصدر الى ابعاده فقصد مكة وجاور هناك عاماً و بعض عام أخذ في خلالهامبادئ اللسان العربي (كذا) ثم جاء مصر وكان قد سبق تعرف في الاستانة رياضها المشهور (وزير المعارف أو انئذ) فاكرم مثواه اجلالاً لعلمه وانزله حجرة في الجامع الازهر (كذا) وعين له راتباً رابياً مع وظيفة التدريس بعد ان محضهُ النصح بان يلزم خطة الشرع الأنور والدين الحنيف فلبث في الجامع حيناً من الدهر يفي فروض الصلاة و يواصل الانفال والاوراد و يواظب على قشف الصوم مستمسكا بشعائر أهل السنة وكان قد آنس من بعض الطلبة فكرا نيرا وذهناً وقادا فجعل معوّلهم عليه ، ومصدرهم عنه وموردهم اليه ، ثم لاح له ان يغادر الازهر فاتخذ له في حارة اليهود بيتاً مالبث ان صار منتدى العلماء والادباء ، ومحط رحال الطلبة الاذكياء ، وكان من ديدنه ان يقطع بياض نهاره في داره حتى اذا جنّ الظلام خرج متوكئاً على عصاه الى ملهي قرب الازبكية يدعى (قهوة البوسطة) وجلس في صدر فئة تتألف حولهُ على هيئة نصف دائرة ينتظم في سمطها اللغويّ والشاعر والمنطيقيّ والطبيب والكيماويّ والتاريخيّ والجغرافيّ والمهندس والطبيعي فيتسابقون الى إلقاء ادقّ المسائل عليه ، و بسط اعوص الاحاجي لديه ، فيحل عقد اشكالها فرداً فردا و يفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحدا واحدا بلسان عربي مبين لا يتلعثم ولا يتردّد بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين ،

ويفحم السائلين ، ويبكم المعترضين ، ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبًا وترعي غزالة الصبح نرجس الظلم فيقفل الى داره بعد أن ينقد صاحب الملهي كلما يترتب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك المجمع الانيق .

وبعد ان ذهب المنشيُ الكاتب أديب اسحق الى الاسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رئاسة الفاضل المغفور لهُ سليم نقاش سنحت عوارض قضت بالغاء التمثيل فأصبح أديب خالي الوفاض ، بادي الانفاض ، فبعث به المرحوم حنين الخوري الي القاهرة مصحوبًا بكتاب وصاة الى جمال الدين فأحسن هذا لقياه لما توسمه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه ثمت ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه إقبال الهائم العاني الكاف ، فحصّل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكانًا بباب الشعرية هيأ له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقي المشهور ما قوي معه على اصدار تلك الصحيفة فكانت ترد مودعة فصولا وأمالي منسوجة بيراع جمال الدين ومنشورة باسم المزهر ابن وضاح أصارت لتلك الصحيفة شأنًا مذكورا ثم رأى ان ثغر الاسكندرية أقرب لاصطياد الاخبار فوفق بين أديب وسليم وأوعز اليهما بنقل الادارة اليها بعد ان مكنهما من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعياها (التجارة) ثم أومأ الى كاتبيه الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني ان يخدما تينك الصحيفتين قلمًا وسعيًا ما استطاعا الى ذلك سبيلا وجعل يواصلهما بشذرات من قلمه البديع، وخطرات من فكره المزري بلألاء الرقيع ، حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له في النعوت والالقاب من مثل (مهبط اسرار الحكمة وأسطرلاب فلك العلوم واسطقس هيولى الفلسفة) الى غير ذلك مما اعتادا ان يصفاه به سبب نماء شهرته وانتشار صيته وله في صحيفة مصر مقالتان احداهما في الحكومات الشرقية وأنواعها والثانية سماها (روح البيان في الانكليز والافغان) ترنحت لها اعطاف أولي العلم طربًا، ومالت اليهما اعناق الحكام السياسيين عجبًا، حتى ان (غلادستون) زعيم الحرية في انكلترا اثبت في بعض الصحف رسالة تشهد له انه من اعلام الشرق واعيان العلماء ، حالة كون الانكليز من أعدائه الا لداء ،ولما شخص المؤلف الى القاهرة

عام ١٨٧٨ تعرف به وانتفع بصحبته ولازمه حيناً من الدهر في أوقات اجتماعه وخلوته وكان ممن ساعدوه على الوصول الى الخديو (اسمعيل) والتمكن منه وشوقوه الى الاندماج في سلك الاخباريين فنال امتياز صحيفة دعاها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) وكان قد أمر زعيم تلامذته الشيخ محمد عبده ان يقرّظ كتابه (كنز الناظم) فوصفه برسالة ضافية الذيل نسج أكثرها بقلم جمال الدين ونشرت في العدد ١٢٦ من صحيفة الاهرام فانه كان من خلقه الاخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزر كل ذي ميل للادب ومع انه كان كثير الانفة شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء، ويرنو اليهم بعين المقت والازدراء، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لاولياء العلم وانصاره مها كانوا خاملين قاصرين يبذل لهم الانس والدعة ويخفض جانب الرقة والدماثة ويؤاسي محتاجهم ومحتاجهم بكلما يقدر عليه ، وتصل يده اليه ،

وفي خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطرا في البلاد وسما مقامه لانه تداخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصارله أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية من مثل محمود باشا البارودي (الذي نفي أخيراً مع عرابي الى جزيرة سيلان) وعبد السلام بك المويلحي النائب المصري في دار الندوة وأخيه ابراهيم كاتب الضابطة وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ، ويعلون بين الناس مناره ، من أرباب الاقلام من مثل الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني وعلي بك مظهر والشاعر الزرقاني وأبي الوفاء القوني في مصر ، وسليم نقاش وأديب اسحق وعبد الله نديم في الاسكندرية . فتغيرت ثم لهجته في أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم اثناء مكالماته ما معناه : انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وربيتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وانتم صابرون بل راضون ؛ وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم في غفلة معرضون ، فلو كان في عروقكم

بجم فيه كريات حيوة وفي روؤسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والاكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم باداة عسفه، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت انظروا اهرام مصر وهيا كل منفيس وآثار ثيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرشيد فلاحُ

هبوا من غفلتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كباقي الأمم احرارا سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء،: الى غير ذلك مما من شأنه ان يحرك الماء فيجعله ناراً، ويثير نسيم الصبا فيغادرها اعصارا، فبدأت تنتشر حركة الخواطر في الديار المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم متململين، ويتطاولون باعناقهم الى ما يقول مشرأبين، ومذ ذلك الحين طارت الشررة الأولى من شررات الثورة العرابية وكان المؤلف قد لمح الى هـذا في بعض أعداد صحيفته (مرآة الشرق) بقوله في جملته الافتتاحية

أرى خلل الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرامُ

فثار بعض قادة الجند (على) بولسن ودبلنيير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوهما ضربا وإهانةً واجتمع في بيت الشيخ البكري ثم في بيت راغب باشا لفيف من اعيان البلاد وعمد الارياف وأجمعوا على تغيير الوزارة النوبارية ثم التوفيقية. ثم زاد انتشار الخواطر الثوروية وكسبت صحف الاخبار اهميةً ما كان لها لن تكسبها في اسمى البلاد مدنيـةً وحينئذ رأى المؤلف ان المسلك وعر، والموقف خطر، فمال الى الغاء التحرير بالتي هي أحسن، والجنوح في هذا الامر العسير للتي هي أقوم، فاعتزل الجريدة بعد ان أحال امتيازها الى رجل أصارها طوع اشارة الافغاني، فوكل بها كاتبه ابرهيم اللقاني، فبدأ من العدد السادس عشر ايعابها مبادئ الثورة وأمالي الشكوى والتعريض وبعد حين ناب الافغاني

عن الأمة بسفارة الى الخديو فذكرت ذلك (مرآة الشرق) بطنطنة عادت عليه بالو بال * وعليها بالتعطيل والنكال (السبب الظاهري لتعطيلها غير هذا واما المطلعون على الحقائق فيعلمون ان الباعث عليه انما هو انتماؤها الى الافغاني) وكان قبل ذلك قطع في الاسكندرية بضعة أيام خطب في أثنائها بقاعة (زيزينيا) خطبة في النساء جمعت ألوفاً من الفرنكات فوزعت بايعاء منه على الفقراء ولم يمض زمن حتى انقلب دست (اسمعيل) وعلا أريكة الخديوية صاحب السمو الاميري (توفيق) وكان من الواجدين على جمال الدين فأخذ يجوس موامي أفعاله ، ويرود مرامي أقواله، حتى علم انه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المقيدة بجمهورية شوروية تحدثه نفسه بتولي زعامتها فاغتاله بعض الشرطة وهو عائد عند بزوغ الفجر من مقامه الليلي المعلوم وكان قد ارفض عنه أصحابه فاستاقوه الى دار الضابطة وذهبوا به ثمت الى محطة السكة حيثما أرسل من طريق الاسمعيلية الى (بورت سعيد) ولما رأى قنصل العجم فى ذلك الثغر (وكان ماسونياً) انهم مزمعون على بعثه بطريق جدة الى بلاد فارس عرض عليه مئة دينار برسم النفقة فأبى مع كونه لم يملك ساعتئذ درهماً وأما مكتبته فحجرت عليها الحكومة وضبطتها وأما خادمه (أبو تراب) الذي صار بعاشرته اياه وملازمته له فيلسوفاً صغيراً حالة كونه أمياً كبيراً فسجن زمناً ثم أطلق سراحه فأتى بيروت منذ عامين ولا علم لنا الآن اين مرساه وكيف مسراه . وكان روح الثورة قد امتد فى القطر بحيث لم يكن اجلاء الافغاني الا ليزيده سرياناً وانتشاراً (من هنا فما بعد يعلم كل بما جريات الديار المصرية مما يخرج عن وظيفة كتابنا هذا الافاضة بتفصيلاته) ومذ ذلك العهد احتجبت عن المؤلف اخباره حتى ظهرت في باريز صحيفة العروة الوثقى موسومة باسمه وموشاة بقلم دهقان رجاله الشيخ محمد عبده فعلم من منزعها انه عاود الاستمساك بالدين الحنيف وجنح الى نهج خطة جديدة تكسبه ميل العالم الاسلامي ورضاءه عنه

وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته ولو لم يكن طموحاً الى المعالي بافراط واعجال وعاجزاً عن كتمان مبدإه

وغايته لرحب به التاريخ وافرز له من اسفاره صفحات تترى * زينها برقم اعمال مجيدة تكون قدوة للآتين وذكرى * وهو الآن دون الخمسين من عمره أسمر اللون الى صفرة * مفلفل الشعر أسوده * نحيف البنية * اهيف القامة * جذاب الملامح * خفيف العارضين * حادّ البصر يكاد يتطاير الشرَر من حدقتيه . يلبس السواد ويتزيى بزيّ العلماء * طليّ الكلام ذرب اللسان * فصيح اللهجة * بليغ العبارة * مليح النكتة * سمح الكف * طلق المحيا * وقور السمت * مجتنب النساء ويفطم نفسه عن الشهوات * يكره الحلو ويحب المرّ وقلما خلت جيوبه من خشب الكينا والراوند يتنقل بهما تفكهاً * يأكل الوجبة (مرّة كلّ يوم) ولا يأكل الا منفرداً * يكثر من شرب الشاي والتبغ واذا تعاطى مسكراً فقليلاً من (الكونياك) وليس له من التآليف المطبوعة سوى تاريخ الافغان * يكره الكتابة ويتثاقل منها فاذا رام انشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل ابراهيم اللقاني القاء قلما يراجعه ويصلحه فيجيئ من أول وهلة مسبوكاً مفرغ المعاني بقوالب لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد * فسبحان من خلقهُ بهذه الاطوار * وجلّلهُ بهذه الآثار * انهُ فعالٌ لما يريد» اه ما كتبه سليم بك العنحوري في شرح سحر هاروت

وقد اطلع الاستاذ الامام على هذا الشرح أيام كان مقيما في بيروت واجتمع بالكاتب فأقنعه بأنه مخطىء فيما وصف به السيد من الإلحاد فبادر الى تخطئة نفسه في الجرائد فكان بذلك مصيباً للفضيلة ، وظهيرا للحقيقة ، وقد نشر الاستاذ الامام ما كتبه العنحوري في آخر ترجمته للسيد التي نشرها في صدر ترجمة رسالة الرد على الدهريين قال :

« هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعاً لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكنا في تاريخه مسلك التفصيل ، لأدى بنا الى التطويل ، وانا نتبع هذا بما كتبه سليم افندي العنحوري تخطئة لنفسه فيما نقله في شرح سحر هاروت والمطلع على ما كتبناه ، يعلم خطأه في جل ما رواه ،

«هذا ما نشر سليم افندي المنحوري في جريدة لسان الحال والجنة بحروفه:

«لايخفى اننا كنا أتينا في حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شيء من ترجمة الحكيم الشرقي الغزير المادة السيد جمال الدين الافغاني الطائر الصيت وأبنا في عرض قصصنا لمحة مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته ووهن دينه مما كان مدعاة أسفنا وباعث استغرابنا ثم أسعدنا البخت بان التقينا هاته الأيام بصديقنا المجلي بحلبة الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل والنقل، الشيخ محمد عبده نزيل بيروت وأعز أخلاء الحكيم المشار اليه فجال بيننا حديث أفضى الى البحث بما يرويه عنه بعض الناس ورويناه نحن عنهم فأوضح لنا بدلائل ناهضة، وبراهين داحضة، أن ما تتناقله الألسن من هذا القبيل ما كان الا من آثار ما رماه به بعض من غمرتهم أياديه فجازوه بالكنود يعني بهم قوماً كفرة تزلفوا اليه فاغتر بيراقيش ألسنتهم ووطأ لهم جانب الأنس سالكاً في سبيل اسعادهم كل سبيل فلما دارت عليه الدوائر وتحولت الأحوال أخذوا يتبجحون بالتلمذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر اليه، وبين لنا بأجلى أسلوب ان المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد المعطلين كان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها، والجنوح اليها ، بل مع تعقيبها بالرد عليها ، واقامة الحجج على بطلانها، ثم تأييداً لمقاله هذا وقفنا على رسالة منسوجة بقلم المشار اليه سوأ بها أصحاب المبادئ المعطلة من أي فريق كانوا وبين قبح طريقتهم بعبارة حنيف عريق بالاسلام نثبت منها هنا مبحثه في ضرورة اعتقاد الألوهية لسعادة الانسان

« قال بعد بيان وجوه زعموها كافية لاصلاح النوع البشري ورد ما زعموا ﴿ فاذن لم يبقَ للشهوات قامع، ولا للاهواء رادع، الا الايمان بأن للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب، ومطويات الانفس، سامي القدرة ، واسع الحول والقوة، مع الاعتقاد بأنه قد قدّر للخير والشر جزاءً يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحيوة سرمدية ﴾ ثم قال ﴿ فلم تبقَ ريبة في ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شيء من أباطيل من

يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سبباً في السعادة التامة والتعليم الكامل ويذهب بمعتقديه في جوادّ الكمال الصوري، والمعنوي ويصعد بذويه الى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقليّ والنفسي مايظفرهم بسعادة الدارين »

ثم أتى بعد هذا في مزايا الدين الاسلامي خصوصاً بما يطول بيانه ويعلمه من اطلع على تلك الرسالة هذا كله بعد ما قال في وصف الماديين « أنهم كيفما ظهروا، وفي أي صورة تمثلوا، وبين أي قوم نجموا، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم، وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم، وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم، يميتون القلوب الحية بأقوالهم، وينفثون السم في الارواح بآرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم، فما رزئت بهم أمة، ولا مني بشرهم جيل الا انتكث فتله، وتبددت آحاده، وفقد قوام وجوده ،» ثم أطال في بيان ذلك الى حدٍّ لم يبقَ معه محل للريبة في كمال اعتقاده وجلاء يقينه

« فأخذتنا لذلك خفة الطرب وسارعنا لاذاعته بلسان الصحف شأن المؤرّخ العادل وقياماً بحق الأدب وضناً بفضل هذا الرجل الخطير من ان تناله ألسنة من لا يعرفه خطأ وافتراءً والله يتولى الصادقين » اهـ كلام المنحوري

(يقول محمد رشيد) ان الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن ينبزوا بالكفر ولالحاد كل نابغ في العلوم العقلية بل كل مستقل في العلم لايتبع الناس في جميع مادرجوا عليه من التقاليد الدينية ولذلك نبزوا بلقب الكفر أوالابتداع مثل ابن سينا وابن رشد من الفلاسفة وأبي الحسن الشاذلي ومحيي الدين بن العربي من الصوفية ومثل الغزالي ممن جمعوا بين الفلسفة والتصوف: وكذلك فعل النصارى قبل المسلمين فاتبع هؤلاء سننهم وسيأتي بيان ذلك في هذا الكتاب مفصلا .

من الناس من يتهم أمثال هؤلاء العقلاء متعمدا للكذب والبهتان ومنهم من يتهمهم لسوء ظنه وقصور عقله وقد أشار الاستاذ الامام في ترجمة أستاذه السيد الحكيم الى ذلك وبه أقنع سليم بك المنحوري كما قرأت آنفا . وقد ذكرني هذا درسا خاصاً ألقاه الاستاذ على بعض النابغين من أساتذة المدارس الأميرية وغيرهم في الدين هل هو فطري في البشر أم هو حاجة من حاجات الاجتماع تعرض لهم

فيعطيهم إياها الجواد الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)

ذكر الاستاذ الامام في بيان كون الدين بطبيعته أمراً فطريا أن الشعور بوجود إله يتصرف في الاكوان تصرفا غيبيا فوق تصرف المخلوقات ، بما يكون من إفضاء الاسباب الى المسببات ، قد عرف في جميع البشر من أدنى القبائل الهمجية ،الى أرقى شعوب المدنية ، فهو شعور يستوي فيه الحفاة العراة في صحاري أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الافرنج الآن وقد عرف في الفريقين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود كما هو معروف في هذا العصر. ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشمالي والجنوبي في جميع الازمان من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم لا يعقل الا أنه فطري في البشر

فان قيل ان في الناس من لا يؤمن بالله ولا بعالم الغيب كالماديين من الفلاسفة ومقلديهم ولو كان ذلك الشعور فطريا لكان عاما ولم يعر منه هؤلاء : فاننا نقول إن من لا يؤمن بسلطة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جدا والقاعدة لا تنتقض بالنادر بل تبقى صحتها الثابتة بالدليل ويبحث عن سبب شذوذ النادر كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذي يعبرون عنه بفلتات الطبيعة ولا يعدون هذه الفلتات دليلا على بطلان السنن والنواميس العامة في الكون . (قال) فالحقيقة ان الالحاد مرض من الامراض الاجتماعية

ثم تكلم في مسألة ترقي الشعور الديني في البشر بحسب ارتقائهم الاجتماعي وهي المسألة التي يعدها الملحدون من علماء الاجتماع أقوى الشبهات على الدين وهي هي التي ذكر المخزومي ان السيد جمال الدين كان يحتج بها على كون الدين أمرا وضعيا وهميا رقاه الانسان بحسب معارفه حتى بين له الاستاذ خطأه كما تقدم . وما قاله الاستاذ في الدرس يوشك ان يكون قد سمع هو وغيره مثله من السيد ففهم هو ما لم يفهه أولئك الذين حرفوا الكلم عن مواضعه جهلا وغباوة أو كذبا وبهتانا

بين الاستاذ رحمه الله تعالى ان البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون في

ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب الوهم فكلما أشكل عليهم فهم شيء من أسرار الخليقة توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التي كانوا يشعرون بوجودها فعظموه لهذا التوهم فكان ذلك عبادة له لأن العبادة هي تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب لامعنى لها الاهذا

رأى بعضهم الثعبان الصغير يميت الانسان أو نحو الثور والجمل من غيرأن يذبحه أو يدق عنقه أو يهشم رأسه وذلك ما لم يكونوا يعهدونه ولا يفهمون سببه فعبدوه وعلى هذا النحو عبدوا كثيرا من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل فكانت موضوع عبادتهم . ولما ارتقوا عن هذه المرتبة عبدوا السحاب فالكواكب فهكذا كانوا يحصرون شعورهم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما تصل اليه عقولهم حتى استعدوا بالارتقاء الى فهم الحقيقة وهي أن كل مافي الكون ماعرف سببه ومالم يعرف مخلوق خاضع للسنن العامة في الاسباب والمسببات وأن الخالق الواضع لهذه السنن لايحل في شيء من هذه المخلوقات ولا يتقيد به . حينئذ بعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين ،

(يقول محمد رشيد) هذاملخص ماعلق بذهني من ذلك الدرس ومن أراد كمال البيان فيه فليرجع الى ما كتبه رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية عند بيانه فيه لقول أبي مسلم الأصفهاني والقاضي أبي بكر (ص ٦٠ م ٨ من المنار . وص٢٩٤ وما بعدهامن الجزء الثاني من التفسير) فهذا ماتراه في منشأ وهم الواهم في عقيدة السيد جمال الدين من غير الكذبة المفترين

وأماماذكره المنحوري من عادته في أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب فقد كان يأكل الوجبة ، ولكنه لم يكن يأكل وحده ، وقد كان يكثر من شرب الشاي ، ولم نسمع حتى من أعدائه انه كان يشرب المسكرات ، فان لم يكن ماقيل من شربه انليل من الكونياك فرية ، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كان يكون رآه الناقل يشرب شيئاً يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداويا فظنه الناظر عادة . وهذه الشبهات كثيرة وقع لي منها ماظن به من لا يعرفني الا بالسماع انني أفطر في رمضان متعمدا

ذلك أن ابراهيم بك الهلباوي كتب في المؤيد مقالة ضرب فيها المثل برجل كان في ادارة المؤيد يكلم صاحب المنار ويمدح الدين ويذكر فوائده وهو يدخن بسيكارته في نهار رمضان . فظن كثير ممن قرأ تلك المقالة ان الذي كان يدخن وقت الحديث هو صاحب المنار وتعجبوا من ذلك وتكلموا فيه فكان من يسمعه من العارفين بهذا الفقير يقول لهم ان صاحب المنار لم يتعود التدخين ويكرهه وربما يحرمه لاعتقاده بضرره :

على ان القصة ليست كما رواها الكاتب فان ذاك الذي كان يمدح الدين — انما كان يمدحه في معرض مدح المنار وفوائده — لم يكن يدخن في أثناء الحديث ولكنني تركته وخرجت لحاجة ثم عدت فاذا به يدخن ويشرب القهوة !!

تتمة الترجمة

علم أن السيد جمال الدين ذهب بعد إنشاء العروة الوثقى في باريس والسعي في المسألة المصرية ذهب الى روسيا . ونقول إنه أقام في بطرسبرج عاصمتها أربع سنين كان فيها موضعاً لاكرام القيصر وكان مما خدم به المسلمين هناك إقناع القيصر بحسن معاملة المسلمين والاذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية فأذن بذلك وقد نشرت جريدة الفلاح التي كانت تصدر في القاهرة مقالة في هذا الموضوع

وبينا هو في بطرسبرج زارها شاه ايران ناصر الدين وأظهر هناك رغبته في لقاء السيد فبلغ السيد ذلك فلم يحفل به ولم يزر الشاه . ثم سافر السيد الى مونيخ من بلاد ألمانيا فوافاها الشاه وهو فيها وهناك التقيا

ذكر السيد ذلك في بعض مجالسه في الاستانة وقال « إن بعض الكبراء من الألمان وغيرهم جمعوني به فرغب اليّ أن أذهب معه الى بلاده ليجعلني رئيس

وزرائه فأبيت وقلت انني عزمت على الذهاب الى معرض باريس ولا أحب أن أنقض عزمي فألح علي أشد الالحاح حتى ألزمني بالذهاب معه . وكان يقول عني : هذا رجل العالم السياسي الحربي الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب : فقال له بعض الحاضرين — وهو الشيخ عبدالقادر المغربي الذى كتب حديثه وأرسله الي من الاستانة يومئذ — كيف يدعوك الى ذلك وأنت مشهور بشدة رغبتك في تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون وهوس منه : وبعد أن مكثت مدة في بلاده طلبت الذهاب الى الأوربا (كذا كان يعرف الكلمة وأمثالها في كلامه) فمنعني وسمعت عنه كلاماً خشناً في حقي وآراء رديئة مآلها الحجر علي في البلاد الايرانية . فأعملت الحيلة وذهبت الى مقام عبد العظيم وهو من أحفاد بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آمنا فمكثت هناك سبعة اشهر كتبت في أثنائها عدة مقالات وحررت في الجرائد جملة كتابات (كذا) في مثالب الشاه المذكور وحث الشعب على خلعه ثم خرجت من هناك :

ثم ذكر مجيئه الى لوندره وطعنه هنالك في الشاه الى أن طلبه السلطان عبدالحميد الى الاستانة وكلمه في الكف عن الطعن في الشاه . قال : أخبرني أفندينا أن سفير العجم قصده ثلاث مرات قال فحجبته في المرتين الأوليين ثم أذنت له فطلب مني أن آمرك بالكف عن التعرض للشاه بسوء فأنا الآن أطلب منك الإعراض عن شاه العجم : فقلت حينئذ : امتثالا لأمر خليفة العصر قد عفوت شاه العجم قد عفوت شاه العجم (كذا قالها بتعدية عفوت بنفسه) فقال مولانا أمير المؤمنين حينئذ : يحق أن يخاف منك شاه العجم خوفا عظيما :

قال الكاتب : وذكر أنه حمل بعض علماء العجم على الافتاء بحرمة الدخان (التنباك) فحرمه ومنع العامة عن شربه فأطاعوه وشغبوا على الشاه وقصدوا داره لإهلاكه أو يبطل المقاولة الجديدة التي عقدها مع الافرنج لاجل حصر الدخان فاضطر الشاه الى ذلك ورفع غرامة لأصحاب المقاولة قدرها نصف مليون ليرة انكليزية:

(يقول المؤلف محمد رشيد) قد اطلعت على صورة مطبوعة على حدتها من الكتاب الذى أرسله الى رئيس المجتهدين في ذلك الوقت وهذا نصه :

مكتوب من البصرة الى السامرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقاً أقول : ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت، وحيثما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زاكية تحققت بها وقامت بواجب شؤونها كيفما نشأت، وفي أي قطر نبغت، الا وهم العلماء فاحببت عرضه على الكل وان كان عنوانه خاصاً ،

حبر الأمة ، وبارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة الاسلام ، ورد كيد الزنادقة اللئام ،

لقد خصك الله بالنيابة العظمى ، عن الحجة الكبرى ، واختارك من العصابة الحقة ، وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشريعة الغراء ، وحراسة حقوقها بها ، وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتياب فيها ، وأحال اليك من بين الأنام (وانت وارث الانبياء) مهام أمور تسعد بها الملة في دارها الدنيا ، وتحظى بالعقبى ، ووضع لك أريكة الرئاسة العامة على الافئدة والنهى ، اقامة لدعامة العدل وانارة لمحجة الهدى ، وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها والشهادة دونها على سنن من مضى ،

وان الأمة قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، ووضيعها وعاليها ، قد أذعنت لك بهذه الرئاسة السامية الربانية ، جاثية على الركب، خارة على الاذقان ، تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تعروها ، تطل بصارها عليك في كل مصيبة تمسها ، وهي ترى ان خيرها وسعدها منك ، وان فوزها ونجاتها بك ، وان أمنها وأمانيها فيك ،

فاذا لاح منك غض طرف ، أو نيت (١) بجانبك لحظة، وأمهلتها وشأنها لمحة ، اوتجفت أفئدتها، واخذلت مشاعرها، وانتكثت عقائدها، وانهدمت دعائم ايمانها ، فهم لا برهان للعامـة فيما دانوا ، الا استقامة الخاصة فيما أمروا ، فان وهن هؤلاء في فريضة، أو قعد بهم الضعف عن اماطة منكر ، لا عتور أولئك الظنون والاوهام، ونكص كل على عقبيه مارقا من الدين القويم ، حائدا عن الصراط المستقيم .

وبعد هذا وذاك أقول ان الأمة الايرانية بما دهمها من عراقيل الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتطاول الأجانب على حقوق المسلمين ، ووجوم الحجة الحق (اياك أعني) عن القيام بناصرها وهو حامل الامانة ، والمسؤول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعاً ، وطاشت عقولها ، وتاهت أفكارها ووقفت موقف الحيرة (وهي بين انكار واذعان وجحود وايقان) لا تهتدي سبيلا ، وهامت في بيداء الهواجس في عتمة الوساوس، ضالة عن رشدها لا تجد اليه دليلا ، وأخذ القنوط بمجامع قلوبها ، وسد دونها أبواب رجائها ، وكادت ان تختار إياساً منها الضلالة على الهدى ، وتعرض عن محجة الحق وتتبع الهوى ، وان آحاد الأمة لا يزالون يتساءلون شاخصة أبصارهم عن أسباب قضت على حجة الاسلام (اياك أعني) بالسبات والسكوت ، وحتم عليه ان يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينه ، واضطره الى ترك الشريعة وأهلها ، الى أيدي زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون ، ويحكمون فيها بما يشاؤن ، حتى ان جماعة من الضعفاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء ، وحسبوا الامر أحبولة الحاذق، وأسطورة المذق ، وذلك لانها ترى (وهو الواقع) ان لك الكلمة الجامعة ، والحجة الساطعة ، وان أمرك في الكل نافذ ، وليس لحكمك في الامة منابذ ، وانك لو أردت تجمع آحاد الامة بكلمة منك (وهي كلمة تنبثق من كيان الحق الى صدور أهله) فترهب بها عدو الله وعدوهم ، وتكف عنهم شر الزنادقة ، وتزيح ما حاق بهم من العنت والشقاء ، وتنشلهم من ضنك

---

(١) كذا في الاصل والنيت هو التمايل من ضعف وفعله ككال يكيل

العيش الى ما هو أرغد وأهنى ، فيصير الدين بأهله منيعا حريزا ، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزا ،

هذا هو الحق . انك رأس العصابة الحقة (١) ، وانك الروح الساري في آحاد الأمة ، فلا يقوم لهم قائم الا بك ، ولا تجتمع كلمتهم الا عليك ، لو قمت بالحق نهضوا جميعا ولهم الكلمة العليا ، ولو قعدت تثبطوا ، وصارت كلمتهم هي السفلى ، ولربما كان هذا السير والدوران حينما غض حبر الأمة طرفه عن شؤونهم ، وتركهم هملا بلا راع ، وهمجا بلا رادع ولا داع ، يقسم لهم عذرا فيما ارتابوا . خصوصا لما رأوا أن حجة الاسلام قدوتي فيما أطبقت الامة خاصتها وعامتها على وجوبه ، وأجمعت على حظر الاتقاء فيه (٢) خشية اللغوبه ، الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذي به بعد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة . ومن يكون أليق بهذه وأحرى بها ممن اصطفاه الله في القرن الرابع عشر ، وجعله برهانا للدين ، وحجة على البشر ،

أيها الحبر الأعظم ، ان الملك قد وهنت مريرته ، فساءت سيرته ، وضعفت مشاعره فقبحت سريرته ، وعجز عن سياسة البلاد ، وادارة مصالح العباد ، فجعل زمام الامور كليها وجزئيها بيد زنديق أثيم ، غشوم ثم بعد ذلك زنيم . . يسب الانبياء في المحاضر جهرا ، ولا يذعن لشريعة الله أمرا ، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا ، يشتم العلماء ، ويقذف الاتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويعامل الوعاظ معاملة اللئام ، وانه بعد رجوعه من البلاد الافرنجية قد خلع العذار ، وتجاهر بشرب العقار ، وموالاة الكفار ، ومعاداة الأبرار ، هذه هي أفعاله الخاصة في نفسه . .

ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الايرانية ومنافعها لأعداء الدين ـ المعادن ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول . . نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المنبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج . . والجادة من الاهواز الى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول . . والتنباك وما يتبعه من

(١) الحقة الثابتة القوية والمراد طائفة العلماء لاسيما المجتهدين منهم (٢) الاتقاء التقية

المراكز ومحلات الحرث و بيوت المستحفظين والحاملين والبائعين اني وجد وحيث فبت ، وحكر العنب للخمور وماتستلزمه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك ماالبنك هو اعطاء زمام الأهالي كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملا كه ايام وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان ،

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواهي برهانه فحبق قائلا ان هذه معاهدات زمانية ، ومقاولات وقتية، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة !! يالله من هذا البرهان الذي سوله خرق الخائنين ، وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقا لسكوتها (لو سكتت) مرداب رشت وأنهر الطبرستان والجادة من أنزلي الى الخراسان وما يتعلق بها من الدور والفنادق والحقول . . . ولكن الدولة الروسية شمخت بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية ، وهي عازمة على استملاك الخراسان والاستيلاء على الاذربيجان والمازندران ان لم تنحل هذه المعاهدات ولم تنفسخ هذه المقاولات القاضية على تسليم المملكة تماما بيد ذاك العدو الالد ، هذه هي النتيجة الاولى لسياسة هذا الاخرق ،

و بالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول بيدع المزاد، وانه يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للاجانب ولكنه لخسة طبعه ودناءة فطرته لا يبيعها الا بقيمة زهيدة ودراهم معدودة (نعم هكذا يكون اذا امتزجت اللئامة والشره بالخيانة والسفه)

وانك أيها الحجة ان لم تقم بناصر هذه الأمة ولم تجمع كلمتها ولم تنزعها بقوة الشرع من يد هذا الأثيم لاصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب (يحكون فيها بما يشاؤن و يفعلون ما يريدون) ، واذا فاتتك هذه الفرصة أيها الحبر ووقع الامر وأنت حي لما أبقيت ذكرا جميلا بعدك في صحيفة العالم وأوراق التواريخ... وأنت تعلم أن علماء الايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك (وقد حرجت صدورهم وضاقت قلوبهم) كلمة واحدة و يرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها . . . ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها و يترکها سدى ،

ثم أقول للحجة قول خبير بصير ان الدولة العثمانية لتبجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليه لانها تعلم أن مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية والاستيلاء عليها تجلب الضرر الى بلادها لامحالة ، وان وزراء الايران وأمراءها كلهم يتبهجون بكلمة تنبس بها في هذا الشأن لانهم بأجمعهم يمافون هذه المستحدثات طبعاً ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويجدون بنهضتك مجالا لابطالها ، وفرصة لكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ،

ثم ان العلماء وان كان كلٌ صدع بالحق وجبه هذا الاخرق الخائن بسوء أعماله ولكن ردعهم للزور وزجرهم عن الخيانة ونهرهم المجرمين ماقرت كسلسلة المعدات قرارا ، ولا جمعتها وحدة المقصد في زمان واحد ،

وهؤلاء لتماثلهم في مدارج العلوم وتشاكلهم في الرئاسة وتساويهم في الرتب غالبًا عند العامة لاينجذب بعضهم الى بعض ولا يصير أحد منهم لصقًا للآخر ولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثر الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة . كل يدور على محوره ، وكل يردع الزور وهو في مركزه ، (هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المنكر والبغي) .

وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمنزلة الرفيعة علة فعالة في نفوسهم ، وقوة جامعة لقلوبهم ، وبك تنضم القوى المتفرقة الشاردة ، وتلتئم القدر المتشتتة الشاذة ، وان كلمة منك تأتي بوحدانية تامة يحق لها أن تدفع الشر المحدق بالبلاد ، وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الاسلام .... فالكل منك وبك واليك .. وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس

ثم أقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذلك العتل شدائد ماسبق منذ قرون لها مثيل ، وتحملوا لصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة .

ولا شك أن حبر الامة قد سمع مافعله أدلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدربندي وستسمع قريبًا ماصنعه الجفاة الطغاة بالعالم المجتهد التقي البار الحاج السيد علي أكبر الشيرازي ومنحيط

علما بما فعله بحماة الملة والامة من قتل وضرب وكيّ وحبس. ومن جملتهم الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرماني الذي قتله ذلك المرتد في الحبس والفاضل الكامل البار حاج سياح والفاضـل الاديب الميرزا فروغي والاريب النجيب الميرزا محمد علي خان والفاضل المتفنن اعتماد السلطنة وغيرهم .

وأما قصتي، وما فعله ذلك الكنود الظلوم معي، فمما يفتت أكباد أهل الايمان، ويقطع قلوب ذوي الايقان، ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الاوثان، ان ذلك اللئيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة (هذا كله بعد النهب والغارة) « انا لله وانا اليه راجعون »

ثم حملني زبانيته الاوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقتني جحفلة من الفرسان الى خانقين وصحبني جمع من الشرط . . . ولقد كاتب الوالي من قبل والتمس منه أن يبعدني الى البصرة علما منه أنه لو تركني ونفسي لاتيتك أيها الحبر وبثثت لك شأنه وشأن الامة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أيها الحجة الى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمـين ، . . وكان على يقين اني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبقى على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد، وهلاك العباد، واعلاء كلمة الكفر . . . . . ومما زاده لؤما على لؤمه ودناءة على دناءته أنه دفعا لثورة العامة وتسكينا لهياج الناس نسب تلك العصابة التي ساقتها غيرة الدين وحمية الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي (بقدر الطاقة والامكان) الى الطائفة البابية . . كما أشاع بين الناس أولاً (قطع الله لسانه) أني كنت غير مختون (وا إسلاماه) ما هذا الضعف؟ ما هذا الوهن ؟ كيف أمكن أن صعلوكاً دنيء النسب، وغدا خسيس الحسب، قدر ان يبيع المسلمين وبلادهم بثمن بخس دراهم معدودة ويزدري بالعلماء ويهين السلالة المصطفوية ويبهت السادة المرتضوية البهتان العظيم ، ولا يد قادرة تستأصل هذا الجذر الخبيث شفاء لغيظ المؤمنين، وانتقاما لآل سيد المرسلين، عليه وآله الصلاة والسلام .

ثم لما رأيت نفسي بعيداً عن تلك الحضرة العالية أمسكت عن بث الشكوى .....
ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي أكبر الى البصرة طلب مني ان اكتب
الى الحبر الاعظم كتاباً أبث فيه هذه الغوائل والحوادث والكوارث فبادرت اليه
امتثالاً ، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمراً ،والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

السيد الحسيني

....

(يقول محمد رشيد) إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والغيرة في ذلك
العالم العظيم صاحب النفوذ الروحي في الامة الفارسية فأفتى بحرمة استعمال التنباك
وزراعته واذاع العلماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها أعناق الامة حتى قيل
ان الشاه طلب في صبيحة يوم بعد وصول الفتوى الى طهران النارجيله (الشيشة)
فقيل له انه ليس فى القصر تنباك لاننا اتلفناه فسأل عن السبب مبهوتا فقيل له:
فتوى حجة الاسلام : فقال لم لم تستأذنوني؟ قيل انها مسألة دينية لاحاجة فيها
الى الاستئذان !! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانكليزية على أن تأخذ
نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز . وبهذا انقذ السيد جمال الدين بلاد ايران من
احتلال الانكليز لها بابطال مقدمته وهو ذلك الامتياز أو الامتيازات التي قرأت
شرحها في كتابه فهكذا تكون الرجال وهكذا تكون العلماء

هكذا هكذا او الا فلا لا ليس كل الرجال تدعي رجالا

وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء في بلاد فارس اتم الظهور بما كان قلب نظام
الحكومة وتحويلها عن الاستبداد المطلق الى الشورى . ولعل تلك الحادثة هي
المنبه للاول العلماء الى ان الامر في ايديهم . فالسيد جمال الدين على هذا هو
العامل الاول في هذا الانقلاب كما أنه سبب الانقلاب الذي حدث في مصر فان
عمل جمعيته كان اول سعي في مقاومة سلطة اسماعيل باشا وتقويضها وفي نفخ روح
الاصلاح في توفيق باشا حتى واثق السيد وخاصته بأنه اذا آل الامر اليه ايوسس
مجلس نواب وليعملن وليعملن . ولكن تداخل الجند في السياسة أفسد العمل بعد ذلك
ولم يكن نجاح العلماء بسعيه وارشاده في ابطال تداخل الاجانب في بلاد

فارس هو المنبه وحده لكون سلطة العلماء والامة فوق سلطة الملوك بل كان تمام التنبيه قتل الشاه بعد ذلك وما قيل من ان قاتله من اتباع السيد جمال الدين

لم يكتف السيد بتحريض كبير المجتهدين وسائر العلماء على الشاه ووزيره ولا بنجاحه في تدبيهم له بل ذهب من البصره الى أوربا وطفق يطعن فيهما بالقول والكتابة وقد أسس هناك مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والانكليزية باسم (ضياء الخافقين) أو سعي في تأسيسها وكان يكتب في كل عدد منها مقالة في أحوال فارس بتوقيعه المعروف (السيد) أو (السيد الحسيني) وكان الكلام في مصر من أهم مباحثها

وقد فضح في مقالته عن بلاد فارس حكومتها وشاهها شر فضيحة حتى جاءه سفير العجم في لندره يستميله ويسترضيه ليكف عن الكلام والكتابة في ذلك وعرض عليه مالاً كثيراً فقال له السيد « لا أرضى الا أن يقتل الشاه ويبقر بطنه ويوضع في القبر » فكان هذا القول من الشبه على كون القاتل له من أتباع السيد . وانا نورد هنا بعض ما كتبه في ضياء الخافقين عن بلاد فارس تخليداً له في التاريخ . وهاك ما كتبه في العدد الثاني تحريضاً للعلماء على خلع الشاه والقيام بشؤون الامة . وهذا العدد صدر في أول مارس (آذار) سنة ١٨٩٢

بلاد فارس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حملة القرآن ، وحفظة الايمان ، ظهراء الدين المتين ، ونصراء الشرع المبين ، جنود الله الغالبة في العالم ، وحججه الدامغة لضلال الأمم ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي . وجناب الحاج الميرزا حبيب الله الرشتي ، وجناب الحاج الميرزا أبي القاسم الكربلائي ، وجناب الحاج الميرزا جواد الآقا التبريزي ، وجناب الحاج السيد علي اكبر الشيرازي ، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي ، وجناب الميرزا حسن الاشتياني . وجناب السيد الطاهر الزكي صدر العلماء . وجناب الحاج آقا محسن العراقي ، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الاصفهاني ،

وجناب الحاج الملا محمد تقي البجنوردي . وسائر هداة الأمة . ونواب الأئمة. من الاحبار العظام ، والعلماء الكرام ، أعز الله بهم الاسلام والمسلمين ، وأرغم أنوف الزنادقة المتجبرين ، آمين

طالما تاقت الامم الافرنجية الى الاستيلاء على البلاد الايرانية حرصا منها وشرها . ولكم سولت لها امانيها خدعا تمكنها من الولوج في ارجائها وتمهد فيها سلطانها على غرة من اهلها تحاشيا من المقارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس على الثورة كلما سنحت لها الفرص وقضت بها الفترات . ولكنها علمت ان بلوغ الارب والعلماء في عز سلطانهم ضرب من المحال لان القلوب تهوي اليهم طرا ، والناس جميعا طوع يدهم يأتمرون كيفما أمروا ، ويقومون حيثما قاموا ، لامرد لقضائهم ، ولا دافع لحكمهم ، وانهم لايزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام لاتأخذهم فيه غفلة ، ولا تعروهم غره ، ولا تميد بهم شهوه ، فخنست وهي تتربص بهم الدوائر ، وتترقب الحوادث ، ايم الله أنها قد اصابت فيما رأت ، لان العامة لولا العلماء وعظيم مكانتهم في النفوس لالتجأت بطيب النفس الى الكفر واستظلت بلوائه خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى التي قد عدمت القوة ، وفقدت النصفة، وانفت المجاملة، فلا حازت منها شرفا ، ولا صانت بها لنفسها حقا ، ولا انشرح منها صدرها فرحا .

ولقد كلما ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية وثبت عليها طائفة من الافرنج ومحت اسمها ، وطمست رسمها ،

إن سلاطين الهند وأمراء ماوراء النهر جدت في إذلال علماء الدين فعاد الوبال عليهم سنة الله فى خلقه . . . وان الافغانيين ماصانوا بلادهم عن أطماع الأجانب وما دفعوا هجمات الانكليز مرة بعد أخرى الا بقوة العلماء وقد كانت فى نصابها *

ولما تولى هذا الشاه (الحارية (١) الطاغية) الملك طفق يستلب حقوق العلماء تدريجا ويخفض شأنهم ويقلل نفوذ كلمتهم حبا بالاستبداد بباطل أوامره ونواهيه،

(١) هي الحية كبرت فصغرت حتى بقي رأسها فيه سمها ونفسها وهي أخبث الافاعي

وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره ، فطرد جمعاً من البلاد بهوان ، ونهنه فرقة عن إقامة الشرع بصغار ، وجلب طائفة من أوطانها الى دار الجور والخرق (طهران) وقهرها على الإقامة فيها بذل لخلاله الجو فقهر العباد وأباد البلاد وتقلب في أطوار الفظائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيمية مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصرا ونزح من دموع الأرامل والأيتام قهرا (ياللاسلام)

فاذا اشتد جنونه بجميع فنونه فاستوزر وغداً خسيساً ليس له دين يردعه ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه وهذا المارق ماقعد على دسته الا وقام بابادة الدين ومعاداة المسلمين وساقته دناءة الأرومة ونذالة الجرثومة الى بيع البلاد الاسلامية بقيم زهيدة *

فحسبت الأفرنج ان الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الايرانية بلا كفاح ولا قتال وزعمت ان العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الاسلام قد زالت شوكتهم وفقد نفوذهم فهرع كل فاغراً فاه يبغي أن يسرط قطعة من تلك المملكة *

ففار الحق وغضب على الباطل فدمغه فخاب مسعاه وذل كل جبار عنيد ·

أقول الحق إنكم يا أيها القادة قد عظمتم الاسلام بعزيمتكم وأعليتم كلمته وملأتم القلوب من الرهبة والهيبة · وعلمت الأجانب طرا ان لكم سلطانا لا يقاوم وقوة لا تدفع وكلمة لا ترد وانكم سياج البلاد وبيدكم أزمة العباد ولكن قد عظم الخطب الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبرا للكسر وحرصاً على الوصول الى الغاية وأزمعت على اغراء ذاك المارق الأثيم على طرد العلماء كافة من البلاد . وأبانت له ان انفاذ الأوامر انما هو بانقياد قواد الجيوش وان القواد لا يعصون العلماء أمرا ولا يرضون بهم شرا فيجب لاستتباب الحكومة استبدالهم بقواد الأفرنج . وأرت لذاك البليد الخائن رآسة الشرطة وقيادة فوج (١) القزاق

(١) يطلق الفرس هذا اللفظ العربي على الطائفة من العسكرية التي يطلق عليها الترك لفظ طابور (وصوابه بالعربية تابور) ويطلق عليها في مصر لفظ أورطه وهي أعجمية

(٩ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

نموذجاً (كنت واضرابه) . وان ذاك الزنديق و زملاءه في الالحاد يجدون الآن في جانب قواد من الأجانب. والشاه بجنونه المطبق قد استحسن هذا واهتز به طرباً *

لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقة وتعاهد العته والشره على محق الدين واضمحلال الشريعة وتسليم دار الاسلام الى الأجانب بلا مقارعة ولا مناقرة *

ياهداة الأمة انكم لو أهملتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأمهلتموه على سرير جنونه وما أسرعتم بخلعه عن كرسي غيه لقضي الأمر فعسر العلاج وتعذر التدارك *

أنتم نصراء الله في الارض . ولقد تمحصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن أهواء دنية تبعث علي الشقاق وتدعو الى النفاق وينأس الشيطان بقذفات الحق عن تفريق كلمتكم . فأنتم جميعاً يدٌ واحدة يذود بها الله عن صياصي دينه الحصينة و يذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة . وان الناس كافة (الا من قضي الله عليه بالخيبة والخسران) طوع أمركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحارية) لأطاعكم الأمير والحقير وأذعن لحكمكم الغني والفقير (ولقد شاهدتم في هذه الأزمان عياناً فلا أقيم برهاناً) خصوصاً وان الصدور قد حرجت وان القلوب قد تفطرت من هذه السلطنة القاسية الحمقى التي ماسدت ثغوراً ولاجندت جنوداً ولا عمرت بلاداً ولا نشرت علوماً ولا أعزت كلمة الاسلام ولا أراحت يوماً ما قلوب الأنام بل دمرت وأقوت وأفقرت وأذلت ثم بعد ضلت وارتدت وانها سحقت عظام المسلمين وعجنتها بدمائهم فعملت منها البنات(١) بنت بها قصوراً لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة والسنين العديدة تعساً لها وتبت يداها *

واذا وقع الخلع (وتكفيه كلمة واحدة ينبض بها لسان الحق غيرة على دينه) فلا ريب ان الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الحيدان عن أوامركم الالهية ولا يسعه الا الخضوع بعتبتكم عتبة الشريعة المحمدية كيف لا وهو يرى عياناً مالكم من القوة الربانية التي تقلبون بها الطغاة عن كرسي غيها . وان العامة متى سمعت

(١) جمع لبنة من اللبن الذي يبنى به

بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم ولها وحامت حولكم هياما وصارت جميعاً جنداً لله وحزباً لاوليائه العلماء *

ولقد وهم من ظن ان خلع هذا (الحارية) لا يمكن الا بهجمات العساكر وطلقات المدافع والقنابر . ليس الامر كذلك . لان عقيدة ايمانية قد رسخت في العقول ، وتمكنت من النفوس ، وهي ان الراد على العلماء راد على الله (هذا هو الحق وعليه المذهب) فاذا أعلنتم (ياحملة القرآن) حكم الله في هذا الغاصب الجائر وأبنتم أمره تعالى فى حرمة إطاعته لانفض الناس من حوله فوقع الخلع لا جدال ولا قتال *

ولقد أراكم الله في هذه الأيام إتماماً لحجته ما أولاكم من القوة التامة ، والقدرة الكاملة ، وكان الذين في قلوبهم زيغ في ريب منها من قبل . اجتمعت النفوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الرذيل (مسألة التنباك) فعجبت الامم من قوة هذه الكلمة وسرعة نفوذها وبهت الذي كفر . قوة أنعمها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسلام . فهل يجوز منكم اهمالها وهل يسوغ التفريط فيها ؟ حاشا ثم حاشا *

قد آن الوقت لاحياء مراسم الدين ، واعزاز المسلمين ، فاخلعوا هذا (الطاغية) قبل أن يفتك بكم ، ويهتك اعراضكم ، ويثلم سياج دينكم ، ليس عليكم الا أن تعلنوا على رؤوس الاشهاد حرمة إطاعته فاذاً يرى نفسه ذليلا فريداً يفر منه بطانته وينفر منه حاشيته ويذبذه العساكر ويرجمه الأصاغر *

انكم يا أيها العلماء والذين قاموا معكم لتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم . قد كسرتم قرن فرعون بعصا الحق وجدعتم أنف الحارية بسيف الشرع فهو يتربص فرصاً تساعده على الانتقام شفاء لغيظه ومرضاة لطبيعته التي فطرت على الحقد واللجاج فلا تمهلوه أياما ولا تمكنوه أن يقبض زماما اعلنوا خلعه قبل اندمال جرحه *

وحاشاكم أيها الراسخون فى العلم أن ترتابوا في خلع رجل سلطانه غصب وأفعاله فسق وأوامره جور وانه بعد ان مص دماء المسلمين ونهش عظام

المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه ان يملك الأجانب بلاداً كانت للاسلام عزا وللدين المتين حرزا وساقته سورة السفه الى اعلاء كلمة الكفر والاستظلال بلواء الشرك *

ثم أقول ان الوزراء والامراء وعامة الاهالي وكافة العساكر وأبناء هذا (الطاغية) ينتظرون منكم جميعاً (وقد فرغ صبرهم ونفد جلدهم) كلمة واحدة حتى يخلعوا هذا الفرعون الذليل ويريحوا العباد من ضره ويصونوا حوزة الدين من شره قبل أن يحل بهم العار ولات حين مناص والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *

﴿ السيد الحسيني ﴾

(يقول محمد رشيد) ان للعلماء من الاحترام والنفوذ الروحي في بلاد الأعاجم ماليس لهم في البلاد العربية وان احترامهم في بلاد الفرس أشد منه فى سائر بلاد العجم فان الحكام ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل مالغيرهم من حكام المسلمين وما أزال الملوك والأمراء احترام العلماء ومحو نفوذهم – حاشاما كان منه مؤيدا لهم ومعينا لاستبدادهم – الا بما اخترعوه لهم من الرتب العلمية وكساوي الشرف الوهمية وبما جعلوا من موارد أرزاقهم في تصرفهم . فصار رزق العالم وجاهه الدنيوي بيد الأمير أو السلطان وهما الرسنان اللذان يقودون بهما طالب المال والجاه من العلماء الى حيث شاؤا . فاذا أمكن لطلاب الاصلاح الاسلامي أن يبطلوا هذه الرتب العلمية ومالها من الشارات ويخرجوا أرزاق علماء الدين من أيدي الحكام فانهم يحررون العلماء من رق يكون مقدمة لاصلاح الامة كلها

الاسلام دين اجتماعي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة وقد عبث الحكام المستبدون في أهله بانتحال الرياسة فيه على كونهم قد أبطلوا اشتراط العلم الديني وغيره في الخليفة وفي السلطان والوالي بالأولى ثم جعل بعضهم الاحكام والأعمال والمناصب قسمين شرعية خاصة بعلماء الشرع كالقضاء فيما يسمونه الامور الشخصية وغير شرعية وهي سائر الاحكام القضائية والادارية والسياسية ولا يشترطون في عمال هذه الاحكام والأعمال معرفة شيء من أحكام الشرع ولا الأخذ بشيء من أمر الدين كما أنه لا يشترط في الحاكم الاعلى من أمير أو سلطان ان يكون

قد تلقى علم التوحيد والفقه فضلاً عن التفسير والحديث . ومع هذا كله يجعل هذا الحاكم رئيساً دينياً ويجعل أمر علماء الدين في يده فهو الذي ينعم عليهم بالرتب العلمية التي يعدّ بها بعضهم فوق بعض في الدين وعلومه من غير مبالاة بالقاعدة المشهورة التي لا يختلف فيها عاقلان وهي « فاقد الشيء لا يعطيه» فلهذا صار الدين أمراً ثانوياً في أكثر بلاد المسلمين لا يحترم عند حكامه الا بقدر تعلق العامة به على حسب ما عليه العامة كالاحتفال بالمواسم الدينية والمبتدعة

ينهدم ركن من اركان الاسلام كالزكاة فلا يبالي به الحكام الذين جعلوا انفسهم رؤساء للدين ويسكت معهم العلماء عن ذلك فلا يقومون بفريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سياج الدين لأنهم على قسمين قسم مرتبط بالسلاطين والامراء فهم تابعون لهم وقسم لاشأن له فهو يستصغر نفسه ان تقوم بالدعوة الى احياء الدين فاذا عرف لنفسه قيمة وظهر بالدعوة فطفقت العامة تحترمه نفحه الامراء بشيء من الدنانير التي قاموا على خزائنها ـ وهي للامة لا لهم ـ وألقوا في عنقه ورأسه طوقا من الفضة او الذهب (علامة الشرف)فكان لهم من المنقادين

فلا صلاح للاسلام الا باستقلال العلماء وعدم ارتباطهم في التعلم والتعليم والارشاد ولا في الرزق بالامراء والسلاطين كما تقدم

وكتب السيد في العدد الاول من ضياء الخافقين الذي صدر في فبراير (شباط) سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

أحوال فارس الحاضرة

ان اصراخ الفارس دويا في آفاق الارض . قد أقفرت البلاد وبارت الاراضي وغارت الأنهر وتبدد الناس في شاسعات الاقطار شذر مذر . ان سواد العراق ومدن القفقاز وامصار ماوراء النهر وقرى الخوارزم وقصبات بين النهرين غصت بوجوه غبره . ذرارى الاماثل وسلالة الافاضل يكدون آناء الليل وأطراف النهار في أعمال خسيسة وحرف دنيئة تأنف منها النفوس وتعافها الطباع . ان

الايران بسعتها قد ضاقت على أبنائها ، ونبت بأهلها، وليس في تلك البسيطة الرحبة الا أخصاص حقيرة واكنان صغيرة ودور حرجة يستكنها شعث غبر رث الثياب كأنهم ينازعون الموت ويراقبون الأجل . الجور قد تمثل في تلك البلاد سلطانا قاهراً لا يحد طوره، ولا يسبر غوره . والقسوة برزت بصور بشعة وهيئات شنيعة تقشعر منها الجلود . جدع الانوف وقطع الآذان وشق البطون وجز الرؤوس أعمال عادية وأفعال يومية لا يستغرب منها السامع ولا يتبشعها الرائي . ودونها فظائع تأبى النفوس البشرية عن استماعها وتجم دون ذكرها وتضطرب حياء وخشية كلما خطرت في لوح خيالها .

الحكومة قهرت الشرع فأبادته ، وكرهت النظام المدني فمحته ، وازدرت بناموس العقل والفطرة فطمسته ، فلا يسود فيها الا الهوس ، ولا يأمر الا الشره ، ولا يقوم بالامر الا القهر والزور ، ولا يحكم الا السيف والكي والسوط ، يلذها سفك الدماء ، وتباهي بهتك الأعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأرامل والأيتام ، فلا أمان في تلك البلاد ، وان قاطنيها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم الا الفرار ،

قد هرب خمس الايرانيين الى الممالك العثمانية والبلاد الروسية وتراهم يجولون في الأزقة والأسواق بين حمال وكناس وزبال وسقا . وهم برثاثة ثيابهم وكلوحة وجوههم وخساسة حرفتهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ...

لا حد في الأقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . ان الجرائم ليست لها حقائق أحرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزاء لا يحده حصر . كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر . لا دستور للحكومة ولا نظام ولا قانون . كل يفعل مايقدر عليه وتدعو شهوته اليه ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع لحكمه . يأخذ الجار بالجار ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل (ولا ذنب له) كل مسؤول لديه عن الكل . . .

الحاكم يقدم للشاه على حسب عظام الحكومة وصغرها تقدمة (بيش كش) ويلتزمها على نفسه كل سنة شكرا لتوليته (ولا شهرية له) ثم انه يأخذ من كل من

يستصحبه لخدمة الحكومة أوخاصة شخصه من مدير وكاتب ومعاون وشرطي وجلاد وطباخ وفراش وسائس وبغال مبلغا جزاء لاستخدامه (ولاشهرية لهؤلاء أبدا) . وهذه القطيعة الضارية والضباع الجائعة تثب فجأة على البلاد فتفترس وتنهش وتبلع وتدمر ولا شفقة تكف ولاعقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه . .

وان الحاكم واتباعه للاستحصال على ما نقدوه أولا وما التزموا على ذمتهم لايدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة عملا شنيعا وفعلا فظيعا وأمرا بشعا الا ويرتكبونها . . يعلقون النساء بشعورهن ويضعون الرجال مع الكلاب العاقرة في الجوالق ويسمرون الآذان على ألواح من الخشب ويدخلون زماما في العرنين ويديرون ذاك المظلوم بتلك الهيئة المحزنة في الأزقة والأسواق وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط *

وان الحكومة الايرانية لاتمون العساكر وليست لهم لاشهرية ولاجراية فانما تكلهم الى قدرتهم في الغصب وحذقهم في السرقة . تدبر فيما يكابده الأهالي ويقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحمق . أليست هذه هي الامة الايرانية التي سادت الأمم في زمانها ؟ أليست هذه هي الامة الفارسية التي أحيت العلوم في العالم الاسلامي وأقامت الديانة على دعامة الحق بقوة براهينها وقومت اللغة العربية بعالي تصانيفها ؟ أسفا على هذه الامة كيف أبادها الجور وبددها الظلم حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة وكاد أن يندرس رسمها وينطمس اسمها . أين العلماء وأين حملة القرآن وأين حفاظ الشرع والقائمين بأمر الامة وأين نصراء الحق والعدل * ﴿ السيد ﴾

(يقول محمد رشيد) الم يكن الشاه جديراً بالخوف من اظهار هذه المخازي وعاقبة ذلك التحريض ؟ امهل يستغرب القارئ — وقد قرأ هذا — قول السلطان عبد الحميد للسيد : بحق يخاف منك شاه العجم خوفا عظيما : وبلغني أن له كتابة أخرى يحرض فيها على خلع السلاطين ، ويقول فيها ان خلعها أهون من خلع النعلين ،

وانا لم أطلع على ذلك . ولكن أغابه أحد السلطانين بالدهاء وحجر عليه في الاستانة حيث لا مجال للتحريض بالقول ولا بالكتابة

قال السيد في بعض محافله بالاستانه ان الشاه ناصر الدين طغى وتجبر و بالغ في الكبر والعلو وكان كل استناده على دولة الانكليز . وذكر انه انما اختار عاصمة الانكليز للطعن فيه لاجل ان يحقر أمره في عين الشعب الانكليزي ويحفظ قلبه عليه

ونقل الينا أن السلطان كان يريد ان يرسله الى أوروبا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . وذكر هو أن السلطان أثنى عليه بخدمة الاسلام وقال له انني أحب ان اجعل وطنك الاستانة اذ لا وطن لك وعرض عليه ان يزوجه فأبى وقال في بعض مجالسه اني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة امري في مصر من ذهاب الشيخ عليش بتلاميذه الى أحد ملاهي الازبكية وتعاطيهم كؤوس (البيرة) جهرا : وقد ذكرت ذلك للاستاذ الامام فقال لي انه كان قد فقد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه الى ماعلق آماله به من عظائم الامور

وحدثني الشيخ حسين الجسر وغيره عنه انه بعد مجيئه الى الاستانة استأذن له على السلطان فقيل له انه مشغول وضرب له موعد جاء فيه فقيل له انه مشغول وضرب له موعد آخر فقال لا أعود ثم طلب بأمر السلطان لمقابلته فتمنع وقال «هذه بتلك» فاقنعوه بما ذكروا له من كثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد فرضي . وان السلطان كان اذا أغضبه بعمل يرضيه بالقول وحسن المعاملة . ومن ذلك انه لما سعي به اليه بأنه أفشى سره (اي سر السلطان) الى مكاتب التيمس وكان قد زاره وان عنده ديناميت وانه يحقر السلطان في مجالسه امر السلطان بتفتيش بيته الذي انزله فيه فغضب وذهب الى سفارة الانكليز وأراد ان يسافر من الاستانة فاستحضره السلطان بعد ذلك وقبله وقال لا يفرق بيني و بينك الا القضاء المحتوم ثم انزله في زورقه الذي يتنزه به في بحيرة « يلدز » وما زال به حتى استجابت حيته لرقيته ، واندمل جرحه بصبره ،

وكان السلطان يتساهل معه ما لا يتساهل مع أحد اذ يبلغه عنه من الأقوال الجارحة ما يبلغه فلا يظهر له ولا لأحد ذلك . وقد حدثني بعض من حضر مجلسه في الاستانة انه سمعه يقول « ان هذا السلطان سلّ في رئة الدولة » وكان هذا بعد إعجاب بالسلطان استمر مدة طويلة كاتب في غضونها علماء الفرس المجتهدين واقنعهم بأن يعترفوا له بأنه خليفة المسلمين فأجابوا وكتبوا اليه في ذلك .يقال إن هذا كان ابتداء في دعوة المسلمين كافة الى الاعتصام بعروة الخلافة والقيام بتدبير سياسي عظيم عرقله الشيخ ابو الهدى عليه واقنع السلطان بوجوب الانصراف عنه .

مذهب السيد جمال الدين السياسي

لعل ما قلناه آنفاً هو السبب فيما اشتهر عن السيد من السعي الى جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد فانني رأيت الناس يتناقلون هذا الرأي وقد كتبه غير واحد في الصحف المنشّرة والتواريخ المصنفة . قال جرجي افندي زيدان في آخر ترجمة السيد من كتاب تراجم مشاهير الشرق (ص ٦٥ ج ٢) ما نصه :

﴿ آماله وأعماله ﴾ يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله ، والمحور الذي تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا السعي جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا » اه المراد

والصواب أنه كان له من حياته مقصدان (احدهما) علمي وهو تنبيه المسلمين الى الاصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو ما بينه الاستاذ الامام في ترجمته (ص٣٤) وهو ترقية دولة إسلامية أية دولة كانت وحسبك انه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمي الى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الاوربية . ثم تعلق أمله بالسودان ، ثم بلاد إيران ، ثم بالدولة العثمانية

أما شأنه في مصر فظاهره معروف في الجملة وقل من يعرف أسراره الخفية ، ومقاصده السياسية ، وقد علم بعضه مما تقدم ونزيده بيانا فنقول

نقلنا فيما مرّ من هذه الترجمة (ص٣٥ـ ٣٨) نبذة من كتاب اسباب الحوادث العرابية للاستاذ الامام بين فيها ان السيد جمال الدين هو موجد النهضة الاجتماعية بمصر (من الجهتين العلمية والسياسية) وقد بين بعدما تقدم نقله ما كان من الارتباك الشديد في المالية المصرية بإسراف إسماعيل باشا وسوء تصرفه وتشكيل لجنة مختلطة من وكلاء الدول لذلك سميت « لجنة التفتيش العليا » وتعيين وزيرين اوربيين احدهما انكليزي للمالية والآخر فرنسي للاشغال العمومية فكان ذلك مع حكم المحاكم المختلطة على الخديوي في مسألة مالية وتنفيذ الحكم بالقوة رغم إرادته مما أعان على تنبيه أفكار المصريين وبين لهم ان حاكمهم قد يقع تحت الحكم وان سلطته ليست إلهية تعلو قوى البشر . ثم أفاض في بيان سوء الحال وذكر حادثة الضباط التي توسل بها إسماعيل الى قلب وزارة نوبار باشا مع بقاء الوزيرين الاوربيين ثم توسله باعيان الأمة الى عزلهما وخبر اللائحة الوطنية التى عملت لاجل ذلك وما كان من تنبيه الناس الى ان حاكمهم قد يحتاج اليهم في الدفاع عن سلطته (وهذا مما كان يغتنمه السيد جمال الدين)

بعد هذا ذكر ما كان من سعي نوبار باشا في اوربا لعزل إسماعيل واشار الى ما كان من سعي جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولي العهد (توفيق باشا) من المواطأة على الاصلاح اذا صار الأمر اليه . قال بعد ذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأمورا فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على عزل إسماعيل ما نصه :

« ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (أي اسماعيل) بعيداً عن كرسي الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهرون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله . وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخابرات في هذا الأمر فسعى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تنالا ما تطلبان

عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح (١) ويسعى اليه وأن الاصلاح لمصر لا يتم الا على يد وليّ العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وتناقلته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اه

ثم ذكر ولاية توفيق باشا وماتشبث به من الاصلاح في اوائلها ومنه شروع شريف باشا في وضع قانون اساسي لمجلس النواب ومعارضة الاوربيين لاسيما وكيلي فرنسا وانكلترا لذلك وذكر انشاء جمعية في الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » لم يكن فيها مصري حقيقي وانما كان أغلب أعضائها من شبان اليهود . ثم انشائها جريدة (مصر الفتاة) المتطرفة في الانتقاد والوعظ والارشاد ثم قال ما نصه :

« لكن ماحظ الاجانب في مصر من اطلاق الحرية للمصريين وتخويلهم الاصلاح المرغوب؟ لو صح شأن المصريين واستنارت عقولهم وكان لهم رأي في ادارة بلادهم هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح في ادائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة اشهر وهو انما ياخذها من الاجنبي ؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للاهالي سعادتهم هل يمكن للاجانب ان يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذي يتمتعون به تحت السلطة الاستبدادية وان يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم ؟ ماذا اصاب الاجانب في عهد الاستبداد مما لا يحبون حتى يطلبوا الخلاص منه ؟ نعم قد يصح هذا اذا امكن ان يكونوا ملائكة قدسيين يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ويزهدون في المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم وان يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما اتوه من قبل

« وسواء صحت هذه الأقول أو لم تصح فالمحقق الذي لا ريب به ان وكيل دولة فرنسا عند ما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام أخذ

(١) راجع كلام اديب اسحق في ص ٤١

يسعى في إقامة الموانع دون ذلك ودعا وكيل دولة انكلترا للاتفاق معه في اقناع الخديو بمضرة هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر وقت الارتباك في المسائل المالية وان دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وافناء الوقت في المداولات لو تم ذلك و بقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام . وساعدهم على ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجناب الخديوي ولقرب حادثة الخديوي الاسبق من الأذهان وظهور السبب فيها تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ومال الى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا وعندما عرض عليه رئيس النظار ماوضعوه في مشروعهم عرضاً غير رسمي ظهرت عليه علامات النفور منه غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى ان جاء الفرمان وتلي في احتفال عظيم وذهب المندوب السلطاني الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاستانة يوم الأحد غاية شعبان سنة ١٢٩٦ فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه و بعد قليل قدموا استعفاءهم فقبل وانصرفوا والسبب الصحيح لاستعفائهم ان شريف باشا صمم على تنفيذ لائحة الإصلاح ورأى حضرة الخديو السابق ان الاصلاح على هذه الصورة سابق وقته فلم يقبل ماعرض عليه فاستعفت النظارة وشكل الخديوي نظارة جديدة تحت رئاسته

« بذلت مساع كثيرة في اخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة الى الاصلاح الجديد لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعي وكثر القيل والقال في ذلك وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ في مصر يظنون ان محرك هذه الافكار و باعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام انما هو الشيخ جمال الدين فتقدموا الى الجناب الخديوي باقامة الادلة على خطر الرجل واخافوه منه (١) كما اخافوه من النظام نفسه وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة . اما التخلص من الشيخ جمال الدين فكان بنفيه سادس رمضان اخذ في الطريق آخر الليل وهو

(١) راجع ص٣٣

ذاهب الى بيته هو وخادمه وحجز في الضبطية ولم يمكن من أخذ ثيابه . و بعد ان انتشر ضياء النهار حمل في عربة مقفلة الى محطة السكة الحديد ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ومنها انزل في البحر ليسافر الى بمباي فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تقرح جسده ولم يكن معه من النقود اكثر من ثلاث جنيهات عثمانية و بعض قروش من الفضة وهذا المبلغ اخذ منه في السويس فنزل البحر ولم يكن معه شيء . ولما شعر بذلك احمد بك النقاوي وكان قنصل دولة ايران في السويس ذهب لتشييعه وعرض عليه مبلغا وافرا من النقد فأبى ان يأخذ منه شيأ(٢) هذا مارواه احمد بك النقاوي و وافقه عليه الشيخ جمال الدين عند ما سئل عن ذلك بعد عودته من الهند الى اوربا . وثاني يوم سفر الشيخ جمال الدين ذهب بعض تلامذته الى بيته فوجدوا بعض اعوان الضبطية يعبثون كتبه فدهشوا و رجعوا وكان عنده كتب كثيرة في فنون شتى فاختار منها اعوان الاصلاح وحفظة الأمن ما اختاروا لأنفسهم وحشوا بالباقي بطون الصناديق وارسلوه الى بندر أبو شهر من بلاد ايران ظنا منهم بأن صاحب الكتب ذهب الى ذلك الثغر و بقيت الكتب في مخزن الجمرك هناك الى ان اكلها العث هنيئاً مريئاً

«اذ كر هذه الحادثة لما كان لها من الأثر السيئ في افكار العامة فقد ذكرتهم بالايام السالفة واحيت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المفتش وغيره وفجعت آمالهم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديوي قبل الحادثة بأيام على مسمع من الحاضرين

«انك أنت موضع أملي في مصر ايها السيد»

« فاين موضع هذا العمل من الاصلاح الذي كان ينادي به الجناب الخديوي في اوامره العالية وينعش بذكره ارواح الخاصة من الماثلين في حضرته ويجتهد في ابلاغ البشرى به الى الكافة؟ اليس من اول مبادي الاصلاح تقرير الأمن على الانفس وكفالة الحقوق بالعدالة ومتى يكون الامن اذا لم تحقق التهم ، ولم يسأل المتهم ، ولم تتضح الجناية بادلتها الصحيحة ولم تقدر العقوبة بقدرها

(٢) راجع قول اديب اسحق في ذلك (ص ٤٢)

« لا ريب ان الانزعاج بنفي الشيخ جمال الدين كان عاما، والكدر كان تاما، ولكن الجناب الخديو أظهر سروره مما فعل وتحدث به فى محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار فى رمضان فاظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة فى العلم والفضل فى محضر الشيخ جمال الدين وألزمت الجرائد بنشر الامر الصادر بالنفي وفيه من التقريع الشديد مالم يكن يستحقه الرجل كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه فنشره البعض وابت احدى الجرائد نشره لان محررها كان من تلامذته فعطلت. على ان هذه الشدة، لم تزد الافكار الا حدة، ولا الالسن الا جرأة، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الا نموا وظهورا » اه المراد هنا من كلام الاستاذ الامام في كتاب اسباب الثورة العرابية وهو مؤيد بما تقدم في ترجمة اديب بك اسحق وسليم بك العنحوري للسيد

هذا شيء من التفصيل لعمله السياسي في مصر فهو الذي نفخ فيها روح الحياة المعنوية ونقلها من طور الى طور ولكنه تركها في سن الطفولية وخلف عليها وصيه ووارث علمه وحكمته الاستاذ الامام كما صرح بذلك عند سفره فاستقل بتربيتها من بعده كما يعلم ذلك بالتفصيل من هذا الكتاب

وأما ما قصد اليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندره أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال . فقد عظم أمر محمد أحمد القائم بدعوى المهدية بالسودان في نفوس الانكليز وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان الى انكلترا من الاخبار حتى اقنعا الحكومة الانكليزية بإخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها الا مجيء البرق بنبإ وفاة محمد أحمد

وقد كان لهما رحمهما الله من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل الى العمل فيه بعد ترك الانكليز له ما لا فائدة في بيانه . ويجد قارئ كتب الاستاذ الإمام الى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى إشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الإصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني)

وأما إيران فقد علم القراء بعض نبإه فيها من الفصل الذي قبل هذا فهو نافخ روح الحركة التي تقيم البلاد وتقعدها الآن

وجملة القول انه كان العامل الاول في هذا الانقلاب الاجتماعي الذي حصل في مصر من نحو ثلاثين سنة والمنبه الأول الى الانقلاب الذي حصل في بلاد فارس وسمعت الاستاذ الامام يقول « ان السيد لم يعمل عملاً حقيقياً الا في مصر » ولا غرو فهو المزلزل الأول لجمود الازهر والمصلح الاول للتعليم الاسلامي فيه بتربيته للاستاذ الامام وواضع المعول الاول في أساس بناء السلطة الاستبدادية بمصر ومؤسس الحزب الوطني لايجاد حكومة أهلية صالحة. وقد كانت البلاد تشتغل بالعلوم الاوربية من قبله عشرات من السنين في غير ان يفكر احد فيها بشيء من هذا وقد كان من اسباب فشله والعوائق دون إتمام عمله بناء سياسته على عداوة انكلترا ومقاومة نفوذها في الشرق وله في ذلك مقالات كثيرة سنورد طائفة منها في جزء آخر نجعله ملحقاً لهذا الكتاب مع طائفة أخرى من مقالاته في الفلسفة ومقاومة الاستبداد

فلسفة السيد جمال الدين

لا تزال فلسفة اليونان والعرب تدرس في بلاد الأعاجم ولكن قل من يقرأها في البلاد العربية كمصر والشام . وقد تلقى السيد جمال الدين الفلسفة العربية القديمة في بلاده ثم تلقى شيئاً من الفلسفة الأوربية والرياضيات على الطريقة الحديثة في الهند وكان قد تصوف قبل ذلك علما وعملاً فكانت فلسفته مزيجا من التصوف والفلسفة القديمة والحديثة أي كان له رأي خاص في العلوم العقلية وعلم النفس والاخلاق وعلم الوجود والتكوين يستدل عليه ويفند رأي من يخالفه ولا معنى للفيلسوف الا هذا

مذهب فلاسفة الافرنج في الوجود قريب جدا من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة وكان السيد يميل الى هذا المذهب كما أشار اليه الاستاذ الإمام في ترجمته. ولا بد من التنبيه هنا الى ان مذهب السادة الصوفية قد اشتبه على كثير من المتأخرين بمذهب الباطنية الزاعمين ان الله تعالى يحل في بعض البشر سبحانه

وتعالى عما يصفون . والفرق بين المذهبين دقيق ، لا يمحصه الا أهل التحقيق ؛ فللصوفية كلام في أنفسهم وفي شيوخهم ، يشبه كلام الباطنية في أئمتهم ؛ ومن ذلك قول الاستاذ الامام في خطاب السيد (رحمهما الله تعالى) « أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول » الخ (راجع ص ٥٢٦ من الجزء الثاني) فان كنت لا تعرف مذهب الباطنية حق العلم ومذهب الصوفية حق العلم ولا تدري ما يريدون بالظهور والبطون والتجليات والتنزلات والمنازلات فاربأ بنفسك ان تكون من أهل الدث والرجم ، وان تقفو ما ليس لك به علم (١٧ : ٣٦ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤلاً)

كذلك يشتبه على الجاهل الفرق بين رأي السيد في النشوء ورأي داروين فقد حكى الاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات مانصه :

« بين حفظه وأثبت ان الانسان نوع من انواع الحيوانات الارضية (لا كما يزعم ارباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم ابناء السماء فليتذكر من له فطنة) وانه قد أتى حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ، ويسير في عيشه سيرتها ، يتفيأ ظلال الاشجار ، ويستكن في الجحر والاوكار ، ليس له شعار ولا دثار ، ولكن خفيف اشعار ، يقتات بنبات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على يد القوى الطبيعية ، لا تمسها يد صناعية ، ولا تربية اجنبية ، ليس له من المكر والتخيل الا مالا يداني فيه الثعلب ، ولا من العلم والتدبير الا مايبعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار ، والرواح للاستكنان من كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفرّ الشاة من الذئب ، والارنب من الثعلب ، ولم يكن له من رفعة القدر مايجلسه على كرسي سلطنة الوجود ، ويقيمه متحكما في كل موجود ، ويدعوه للحكم بانه خلاصة العالم ، ومنتهى سير الحقائق وعمار عالم الكون ، وان جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لاجله ، والكواكب والسيارات انما تتحرك لخدمته ، » الخ ماأثبتناه في مقالة فلسفة الصناعة من جزء المنشآت ، (راجع ص ٣٠ ج ٢)

فاذا قابلنا هذا القول برده على مذهب دارون وعلى الماديين الذين يقولون

انه لا فرق بين الانسان و بقية الحيوانات يتجلى لنا ان مذهبه وسط بين المذاهب في ذلك وهو ان الانسان حيوان مترق من جهة وملك أرضي من جهة أخرى اي انه جامع لخواص الجنسين. وقد قال في رسالته في الرد على الدهريين مبينا خواص اعتقاد اهل الدين بأن الانسان ملك أرضي وانه اشرف المخلوقات فى الأرض (اي لا في العالم كله) مانصه :

« فما يلزم الاعتقاد بان الانسان اشرف المخلوقات تَرَفُّعُ المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية ، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ، ولا ريب انه كلما قوي هذا الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلي ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بافرا الحظوظ حتى قد ينتهي به الحال الى ان يكون واحداً من اهل المدينة الفاضلة يحيا مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الانسانية في الدنيا وغاية مايسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

« فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية في معيشتها ، والثيران البرية في حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدوابّ الهاملة ، والهوامّ الراشحة ، لا تستطيع دفع مضرة ، ولا التقية من عادية ، ولا تهتدي طريقا لحفظ حياتها ، وتقضي آجالها في دهشة الفزع ووحشة الانفراد

« هذه العقيدة أشد زاجر لابناء الانسان من التقاطع المؤدي لافتراس بعضهم بعضا كما يقع بين الاسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها من مشاكلة الحيوانات ، في خسائس الصفات ، وهذه العقيدة احجى حاد للفكر في حركاته ، وأنجح داع للعقل في استعمال قوته ، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

« إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، والى أي حد تصل بهم الشرور ، و بأي منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية »

(١١ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

رأي السيد في اصلاح حال المسلمين

كان يرى ان المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية ودول عزيزة الا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به وما ضعفوا واستكانوا بعد ذلك الا بسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه وأنهم لا يرتقون ولا يعتزون إلا بحسن فهمهم له ونهوضهم به واستقامتهم عليه وهذا الرأي معروف عنه . وقد كتب إليّ الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة سنة ١٣١٠ انه زاره مرتين أو ثلاثا وانه كان مما دار بينه وبينه ما يأتي بالنص الذي كتبه المغربي يومئذ :

« قال (السيد) ان بطرسبرج وفينا كباريس في حسن الانتظام والزخرف وان فينا أكبر من الاستانة . فقلت الاستانة منذ ثلاثين سنة لم تكن هكذا بل كانت متأخرة من عدة وجوه فهي لا تزال تتدرج في مدارج المدنية لاسيما باهتمام أفندينا وليّ النعم وهذا يدل على ان المسلمين عن قريب يبلغون من التمدن والترقي ما بلغت اليه أهالي البلاد الغربية . فقال اذا لم يبن تقدمنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ولا يمكن أن نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر . قلت إذا نظرنا الى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن نرى بونا عظيما . فقال : ما تراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهرا هو عين التقهقر والانحطاط لاننا في تمدننا هذا مقلدين للامم الاوربية وبسبب ذلك يخشى علينا بمدزمن غير طويل ان نخنع للذل والسلطة الاجنبية أو تتبدل صبغة الدين الإسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلب الى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة .

« فقلت ما الطريقة القويمة التي ينبغي ان نسلكها لنتوصل للتمدن الحقيقي ولمساواة شعوب اوروبا؟ فقال لا بد من حركة دينية لاننا اذا نظرنا في سبب انقلاب حالة عالم اوروبا من الخشونة الى المدنية نراه الحركة الدينية وذلك منذ عصر لوثيروس رئيس الطائفة البروتستانية فانه لما رأى اهل اوروبا تعتقد في البابا اعتقادا يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لاوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة

قام بتلك الحركة الدينية التي نشأ عنها الانقسامات بين الشعوب وجعل كل شعب يغار من الآخر ويحار به في سلوك سبل النجاح · وخلاصة الامر ان تمدن أوروبا ينسب الى تلك الحركة ومبدأه من ذلك العهد

قلت ان دينهم فاسد فأصلحوه وديننا بحمده تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغيير فكيف تكون حركتنا الدينية وعلى اي شيء مبناها ؟ فقال حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ان لا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الاصلاح والنجاح ومثل · · ومثل · · · فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على محاملها الصحيحة التي تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى · ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على تقدمنا لا أن نجعلها علماً مقصودا لذاته كعلم النحو والبلاغة يصرف الانسان جلّ في حياته الاشتغال فيها ولا يقتدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم في نفسه من الافكار والامور التي يرجع اليها إصلاح في الوطن وتعزيز للدين وتقوية للامة

« وهنا شرع في بيان سوء اشتغالنا في العلوم على غير طائل حتى ان الغير اهتدى الى لب تلك العلوم واستعان بها على تقويم اعوجاجه وتركنا نحن نتخبط في مهامه الحيرة والغفلة ونتيه في فيافي الجهالة غير مبالين بما ينجم عن ذلك من الدمار والامحاء من صفحات الوجود « فلا بد إذن من الحركة الدينية » » اه ما كتبه المغربي من محاورته مع السيد

وهكذا كان السيد يدعو كل من لقيه من المسلمين الى الاصلاح الديني ويخاطبه في ذلك على قدر فهمه ولا شيء من آثاره ينجلي فيها ذلك الا العروة الوثقى التي عرفنا منها مذهبه هذا على ما فيها من الاجمال ولكن الاستاذ الامام هو الذي كان يسلك مسلك التجلي والتفصيل، وهو المثال الكامل الذي عرف به فضل جمال الدين

﴿ عشق المؤلف للسيد وكتابه اليه ﴾

نشأ مؤلف هذا الكتاب نشأة دينية صوفية فحبب اليه النسك والتحنث منذ سن المراهقة بل التمييز وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة أخبار الصالحين والذكر والصلاة وهديت الى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم فأكببت على مطالعته مع مطالبة النفس بالعمل به ثم اشتغلت بطلب العلوم ولم اترك التصوف بل سلكت معه طريقة النقشبندية فنفعني التصوف في طلب العلم من جهة واضر بي من جهة اخرى فانني رغبت عند دخول (المدرسة الوطنية) عن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ انه ليس في دراستهما فائدة دينية ولا هما مما يطلب لوجه الله عز وجل

وقد غلب عليّ الزهد وبغض الحكام والمسرفين من اهل الدنيا حتى كنت انكر على من أراه منهم كل منكر يأتيه . فانكرت على والي بيروت مرة إساءة صلاته وهو في مسجد « السراي » بطرابلس حتى لامني على ذلك بعض العلماء الرسميين وانكرت على كثير من رجال العدلية وغيرهم سيرتهم وحملهم للساعات والسلاسل الذهبية وغير ذلك

ثم اتفق لي ان كنت اقلب في اوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عددين من جريدة العروة الوثقى فقرأتهما بشوق ولذة ففعلا في نفسي فعل السحر فطفقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة فانتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي وهو انه ليس روحانيا أخرويا فقط بل هو دين روحاني جسماني اخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل ،

وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأيا فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين فقد كان همي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا . وكنت مجدا في ذلك حيث

كنت حتى اذا ما اردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة (من لبنان) أخذت معي مثل كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لأتوكأ عليه في المواعظ التي كنت أبثها في كل مجلس فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطفقت أستعد لذلك استعداداً

وكنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده وعما قيل فيهما وما كتب عنهما . وكنت اناضل دونهما وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ احد على الطعن فيهما أمامي . ولما اشتدت المنافسة بين السيد و بين الشيخ ابي الهدى افندي في الاستانة وصار بدري باشا احد انسباء ابي الهدى متصرفا في بلدنا (طرابلس) وكان ما كان لصنائعه بني الأنجا من النفوذ والبغي كنت في دفاعي عن السيد عرضة للايذاء ولكن ذلك لم يحولني عن مذهبي حتى إني جاهرت بذلك في دار بدري باشا على مسمع من مصطفى باشا الأنجا . واني اذكر هنا صورة الكتاب الذي أرسلته من طرابلس الى الاستانة وهو يمثل حالي في ذلك الوقت تمثيلا بينا وهو بحروفه :

كتاب المؤلف الى السيد جمال الدين

{ في سنة ١٣١٠ }

الحمد لله على افضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي بل السيد المطلق، ذي القدح المعلى والجواد المصلي الاسبق، سدرة منتهى العرفان، وجنة مأوى المحاسن والاحسان، الذي له في كل جوّ متنفَّس، ومن كل نار مقتبس، الامام المفرد ، والعقل المجرد، حجة الاسلام، وعلم الأعلام، أخطب الخطباء وأبلغ الكتاب، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، بدل الأبدال، سيد الآل، الانسان الكامل، الوارث الكامل، المرشد الكامل

مهبط الفيض مصعد الكلم الطيـ ـب مجلى سر الجمال الأكمل

جمال الدنيا والدين، و بقية رجاء المسلمين، أيده الله تعالى، وزاده رفعة وكمالا

ان فرط الشغف بالجمال، ومساهمته بالانتساب للآل، قد حملاني على غارب الجرءة

والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب، ومحب لحبيب، ومغادرة الاحرى بل الواجب الذي لا تخيير فيه من مخاطبته مخاطبة مملوك لمليك كريم، وخادم لسيد عظيم، وعليه قلت :

اني منذ لاحت على مخايل التمييز مانمي الى خبر ألذ وأشهى، ولا انبل واسمى، من خبر سيدي (جمال الدين) نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف وسقاها بماء الحياة فنبتت نباتا حسنا، وامتدت أغصانها، وتشعبت افنانها، حتي لم تذر في أرض الجسم ذرة من دقائقه الا وجذورها راسخة فيها . شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، جنيت منها ثمرة حب الحكمة واقتطف الناس منها ثمار الثناء، على حكيم الحكماء، أعزه الله تعالى. ولم تزل تنمو بنموي حتى كأنها من عناصر جسدي، وتقوى بقواي العاقلة حتى كأنها من مقومات ماهيتي، وهي الآن أرسخ الملكات في نفسي : لا أتبوأ مجلسا ولا أفيض في كلام الا ويكون ذكر الجمال فاتحته أو ختامه، اومتخللا أجزاءه واقسامه، ان لم يكن هو موضوع الكلام، حتى عرفت بين المعاشرين، بعاشق جمال الدين، وربما دعاني بعض الاصدقاء بالداعي له (واحد الدعاة) لا سيما وأنا أعد له مايُعَدُّ عليه (كدخول الماسونية والجلوس في الاماكن العامة وطول الاقامة في أوربا وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية)

إني حتى الآن لم اقف على شيء من سيرة سيدي الاما كتبه سليم أفندي العنحوري في كتاب له خلط فيه الخطأ بالصواب : وما نقل في منتخبات اديب بك اسحق وما كتبه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده (حياه الله تعالى) على رسالة سيدي في النسبة بين الدين والكفر في العمران (١) ولم أحظ بشيء من آثاره النفيسة إلا الرسالة المشار اليها آنفا وتاريخ الافغان والاعداد الـ ١٨ التي صدرت من العروة الوثقى

هذا كل ما ارويه وأوثره عن سيدي وهو ان كان قليلا بالنسبة لمن أضرَّ به الظمأ فلا يكتفي بقليل من الورود لكنه لا يقال له قليل بالاضافة لما فيه من عظيم الفائدة التي لا يغني عنها لقاء المئين والالوف من المشيخة ولا مطالعة أسفار المتقدمين والمتأخرين في الفنون العديدة

---

(١) انني منذ اطلعت على هذه الرسالة وسمتها بهذا الوصف الذي ذكرته لمؤلفها

فلله أنت من ذي نفس زكية، وروح قدسية ، ماهبت نفحة من معارفها في جوّ قوم الا ونفخت في رممهم روح الفضل، ولا تدفقت امواه فضائلها في ارض امة الا وجرفت منها ادران الجهل، بل اقول لا تنبث من ذلك الذهن المشتعل بالانوار، ذرّات الفكر في فضاء قطر من الاقطار ، الا تكوّن منها في سماء العقل من كوا كب العرفان ، ماهو افيد من النظام الشمسي في عالم الحسّ والعيان ، وعلى هذا فما اجدركم بقول القائل

أبداً تحنّ اليكم الارواح ووصالكم ريحانها والراح

وما أعذرني وأنا أعد قربكم أفضل القربات ، ولقاكم غاية الغايات، واني اسيّر كتابي هذا ليكون مستمنحا عواطفكم، ومستجديا مكارمكم، قبولي لديكم بصفة مريد يتلقف الحكمة ، وتلميذ يقوم ببعض الخدمة ، يساهمكم السراء والضراء (وقاكم الله) ويسايركم في الزعزع والرخاء (حماكم الله) ولا أراني ارد عن أبواب فضلكم فما جزاء من احب الا ان يحب وللرحم حقوق مثل سيادتكم من يراعيها ويصلها»

ثم ذكرت له في آخر هذا الكتاب ملخص ترجمتي ولا حاجة الى اثباتها هنا على اني لم أجدها كلها فقد كنت كتبت لهذا الكتاب مسودة بقلم الرصاص على ورقتين فقدت مني الصغرى منها وفيها تتمة الترجمة وعبارة اخرى اتذكرها بنصها تقريبا وهي قولي في الاعتذار عن عدم المبادرة الى الرحلة اليه فى الاستانة « لانني اعتقد ان القسطنطنية على سعتها بل المملكة العثمانية بما رحبت لا ينفسح فيها لسيدي مقام لأن ممالك الشرق امست كالمريض الاحمق يأبى الدواء ويعافه من حيث إنه دواء »

وقد كتب الي الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة أنه اجتمع بالسيد وانه ذكر كتابي اليه فاثنى عليه مبالغا في الثناء وأمره ان يبلغني ذلك معتذرا عن عدم الكتابة الي بانه ليس عنده قلم ولا دواة ولا ورق (اي كان ممنوعا عن مكاتبة الناس او ممتنعا عنها حتى لا يسوء ظن السلطان به) وذكر لي احمد بك رشوان وغيره ممن كان يتردد عليه من المصريين أنه كان يثني على هذا الكتاب وعلى صاحبه ويقرأه لزائريه المرة بعد المرة . ولا سبب لذلك الا اخلاص الكاتب وشعور المكتوب اليه بذلك

﴿ نهاية امره في الاستانة ﴾

ذكرنا خبر مجيء السيد الى الاستانة وحفاوة السلطان به . وقد كان لما طلبه السلطان من لندرة تمنع وكان ممن كتب اليه واجتهد في اقناعه الشيخ ابو الهدى افندي الشهير وكانت الموادة بينهما في أول مقدمه شديدة وانخدع السيد بحفاوة ابي الهدى واجلاله له فأحسن به الظن كعادته فكان يثني عليه ثم لم يلبث ان قلب له ظهر المجن ومحل به عند السلطان وعرقل عليه عمله في شد اواخي الاخاء بين العثمانيين والفرس أو بين اهل السنة والشيعة ووسوس للسلطان في شأنه ماشاء ان يوسوس حتى قويت ريبته فيه وجعله موضع الظنة واكثر من العيون والجواسيس حوله حتى ضاق صدره وناهيك بحياة من كان اشد الناس حرية وعزة في ضيافة السلطان عبد الحميد وتحت مراقبته مراقبة من يخشى منه على المملكة او الخلافة !!!

حدثني الثقة قال حدثنا السيد جمال الدين بالاستانة فقال مامثاله : ان الخديو كان شديد الرغبة في لقائي لما كان يسمع عني من اولادي واحفادي بمصر فارسل الي في ذلك فقلت لابد في ذلك من اذن السلطان فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المابين فكانوا يرجئون و يسوفون و يجمجمون في الجواب ولا يفصحون و بينا انا جالس في الكاغدخانه (متنزه مشهور في الاستانة كالجزيرة بمصر) أصيل يوم من الايام كعادتي واذا أنا بفارس قد اقبل عليّ وترجل مسلما فقلت من انت ؟ قال عباس حلمي . فمكثنا ساعة زمانية نتحدث . وطار الجواسيس الى السلطان بالخبر فأرسل الي فاما لقيته قال : اتريد ان تجعلها عباسية ؟ فقلت ان بني العباس قد انقرضوا و بنو عليّ أولى » ثم قال ان مولانا يريد عباس حلمي وهل هي خاتم يدي فأضعها في اي إصبع شئت

وذكر غير هذا الراوي ان السيد لم يفهم ان السلطان يريد بقوله « أتريد ان تجعلها عباسية » جعل عباس حلمي باشا خليفة فأجاب بما أجاب . وكنت عندسماع الرواية الأولى فهمت انه قال ذلك أولاً على سبيل المغالطة . فبمثل هذه الأوهام

كأن شياطين الانس يوسوسون للسلطان ويخوفونه من السيد حتى حرم الاستفادة منه

وحدثنا الثقة أيضاً ان السيد جمال الدين كان يركب عربته كل يوم بعد العصر فيذهب الى الكاغدخانه ففطن لجاسوس كان يتبعه ماشيا فقال لجماعة السلطان في نفس المابين انكم قد أعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوسا بغير مركبة فاذا أنا أسرعت بعربتي طفق يعدو ورائي وهو يلهث كالكلب ولا يدركني فهلا رحمتموه فأعطيتموه عربة ليدركني أنى سرت ؟ ؟



﴿ هذه آخر صورة للسيد قبل مرض وفاته ﴾

(١٢ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وقد بالغ الشيخ أبو الهدى في عداوته والكيد له حتى كان يسعى في ايذاء من يذكره بخير أينما كان من بلاد الدولة . وكان يطعن في نسبه ودينه كما هي عادته فيمن يستاء منهم فانه يجردهم من اللباس الذي فصله وخاطه لنفسه ولمن يرضى عنهم من انصاره . وقد كتب إليَّ في ٢٩ رجب سنة ١٣١٦ كتابا قال فيه « اني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفقة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زورا وقد ثبت في دوائر الدولة رسما انه ما زندراني من اجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » وكذلك قال الشيخ أبو الهدى في امام الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلي الذي هو من أشهر الشرفاء ، في كتب لفقها باسماء الاموات والاحياء ، ولا ندري في أيّ دوائر الدولة يسجل شتم الناس فنصدق خبر أبي الهدى

كذلك كان شأنه في الاستانة في آخر أيامه بمساعي أبي الهدى الى ان توفاه الله اليه



﴿ وهذه صورة السيد بعد العملية الجراحية ﴾

﴿ خبر مرضه ووفاته ﴾

المشهور انه أصابه وجع في احدى اسنانه أوأضراسه فأشار الطبيب بقلعها فحصل له التهاب في موضعها كان يعالجه له الطبيب ثم ظهر في فكه السرطان فعملت له عمليات جراحية فلم تفد ولم يلبث أن توفي على أثرها فشاع في كثير من البلاد انه مات مسموما كما شاع مثل ذلك في موت الاستاذ الامام وموت السيد عبدالرحمن الكواكبي

ولما توفاه الله تعالى صدرت الارادة السلطانية الى الجرائد العثمانية بأن لا تكتب في شأنه شيئا بل ضبطت الحكومة في سوريا جميع الجرائد والمجلات المصرية التي أبنته واعني غير الممنوع منها كالهلال والبيان . وإننا نختم الترجمة ببعض ما كتبته الصحف المصرية من خبر مرضه وموته

جاء في المؤيد الذي صدر في ٥ شوال سنة ١٣١٤ و٩ مارث سنة ١٨٩٧ مانصه

« علمنا من اخبار الاستانة العلية ان صحة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني في غاية الاعتلال شفاه الله وعافاه . وقد انقطع حضرته عن الكلام بالمرة إثر العملية الجراحية الثالثة التي عملت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه واستئصل الفك الاسفل . وجلالة مولانا السلطان قد كلف جملة من أطبائه الخصوصيين بعيادته على التناوب ويرسل للاستفسار عن صحته كل وقت رسلا وكثيرا مايتوجه عطوفتلو عزت بك (العابد) من قبل الحضرة السلطانية لعيادته فيجد فضيلة السيد من هذه العناية مايخفف آلامه لطف الله به

وفي العدد الذي صدر في ١٠ شوال و ١٥ مارث مانصه

انا لله وانا اليه راجعون

« نعت الينا أخبار الاستانة العلية المغفور له الاستاذ الفاضل والفيلسوف الشهير السيد جمال الدين الافغاني .

« توفي رحمه الله في الساعة ٧ و ١٣ دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الماضي خامس

شوال (٩ مارث) الماضي (كذا) حيث كان يعوده كثير من الحاشية والخدم الذين خصصهم له مولانا السلطان الاعظم في منزله بيشكطاش

ولما حضرته الوفاة كان في خدمته كذلك حضرة جورج افندي كوتشي أحد موظفي محافظة مصر سابقا حيث يقيم معه من مـدة وهو الذي نعاه الى المابين الهمايوني فصدرت الارادة الشاهانية الى سعادة حسن باشا ضابط بشكطاش ان يعد جنازته و يشيعها بالاحتفال اللائق . و بلغ الخبر جماعة من حضرات العلماء الاعلام فبادروا الى منزل الفقيد كما بادر اليه كثيرون من رجال الدولة و بينهم سعادة سهل باشا نجل دولتلو فضل باشا العلوي وحضرة علي بك راغب المصري من ضباط البحرية العثمانية وقد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق حيث دفنت جثته في قرافة « شيخلرمزارلغي » أي مقبرة المشايخ

« ولقد أسف جلالة السلطان عليه شديد الاسف كما حزن عليه أصدقاؤه وكبار المابين الهمايوني الذين كانوا يعرفون فضله و يقدرونه حق قدره

« وجاء خبر وفاة الاستاذ الفقيد رحمه الله أمس تلغرافيا على حضرة الفاضل ابراهيم افندي اللقاني فأبلغنا إياه ولكن كان ذلك بعد ما طبع أكثر الجريدة . ثم جاءنا كتاب خصوصي من الاستانة العلية مساء أمس يفصل الخبر بما تقدم ولا شك ان وفاة هذا العالم العظيم تحزن جميع العارفين بفضله وما كان منفردا به من قوة الحجة والعارضة في الكتابة والخطابة مع التضلع الرائد من العلوم العقلية والنقلية وسعة الاطلاع في المعارف الحديثة . فنحن نعزي أنفسنا وكل أصدقائه وتلامذته على وفاته ونسأل الله تعالى له الرحمة والرضوان »

وجاء في المقطم الذي صدر في ١٥ مارث ما نصه

« بلغنا نعيّ العلامة الشهير ، الغني عن الوصف والتعريف ، السيد جمال الدين الافغاني بعد صدور جانب من المقطم يوم السبت فذكرناه في الجانب الآخر . وما ذاع هذا النبأ في أطراف العاصمة حتى جل الخطب على كل أديب ، واشتد الاسى على كل من عرف فضل رجل طبق صيته المشارق والمغارب . وكان مناراً للحرية

والعرفان في كل مكان احتله، وتعلقت به افئدة النجباء والاذكياء في كل بلاد اقام بها، ووقعت تعاليمه وآراؤه في نفوس الادباء وقعاً عجيباً، حتى انك لتراهم في كل جهة من جهات المشرق يتحدثون في مجالسهم بمواهبه ويتناقلون اقواله، فقد فقد الشرق به عالما يهتدى بعلمه، وركنا يعتمد عليه، وداعيا الى الحرية يقتدي به في الدعوة اليها، ومقداما لا يهاب كبيراً في المجاهرة بضميره، ولا يراعي اميرا في ما ليس من رأيه، ولسنا ندعي في هذه العجالة إيفاءه حقا من حقوقه المتعددة في عالم الأدب والعلم والحرية، على انا سننشر ترجمته مفصلة في المقتطف. وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء في التاسع من هذا الشهر بداء السرطان فراح مأسوفا عليه مبكيًّا من جميع تلامذته ومريديه واحتفل بمأتمه في الاستانة احتفالا يليق بمقامه ومكارم الحضرة السلطانية فنعزي جميع انصار الحرية ومحبي العلوم والفضائل عن فقده، ونسأل له الرحمة والرضوان ولهم طول البقاء من بعده،»

ثم جاء في العدد الذي صدر منه (اي المقطم) في ١٨ مارث مانصه

« كتب الينا صديق يوثق بروايته تفصيل وفاة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وهو يخالف ما نشر من هذا القبيل قال : رأى الطبيب هرون صباح الثلاثاء في ٩ الجاري ان ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جرجي افندي كوتجي صديقه الأمين وأيقظه من نومه قائلا ادرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته وهو يحاضر فأسرع جرجي افندي الى منزله فوجده في حالة النزع وليس عنده غير خادمه فلما رآه امسك يده وكلما اشتدت عليه الحشرجة حول عينيه اليه، كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه، ثم اسلم الروح فى الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح ذلك اليوم. فأبلغ جرجي افندي المابين خبر وفاته فى الحال فجاء بعض الاطباء وشاهدوه ثم أثبتوا للمابين وفاته فصدرت الارادة الى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسائر تركته فحضر حسن باشا ومعه بعض البوليس وبعض الجواسيس ودققوا فى البحث والتفتيش وضبطوا كل ما كان باقيا عنده . وفي الساعة العاشرة امروا بدفن الجنازة في مقبرة بجهة نشان طاش اسمها « شيخلرمزارلغي » فأرسل جرجي افندي الى اصدقائه يخبرهم بوفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا ابن فضل باشا الملاباري

وعلي قبودان راغب المصري ثم حمله اربعة من حمالي الاستانة على اكتافهم وسار بعض رجال البوليس حولهم يخفرونهم ودفن كما يدفن أقل أنسان في بلاد آل عثمان و بقي السيد رحمه الله خمسة أشهر يقاسي ألم السرطان وعذابه وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة في مرضه ورجال المابين يشيعون ان السلطان يفيض عليه النعم و يغمره بالاحسان انتهى بمعناه. هذا وا أسفاه ما يعامل به الفضلاء اذا قضوا نحبهم في دار السعادة »

وكان المقطم ذكر في العدد الذي صدر في ١٣ مارث و٩ شوال خبر اشتداد المرض على السيد وقال « و يقال ان السلطان ينفق عليه ١٨٠ ليره في الشهر آملا ان يشفى من مرض قلت فيه حيل الاطباء » وهذا يدل على ان المقطم كان يكتب مايبلغه بدون تحامل . ولكن اصحابه لم يذكروا ترجمته في المقتطف كما وعدوا

وقد كتب الينا بعض المطلعين على الجرائد المصرية والمتلقفين لأخبار السيد من العارفين مايؤيد رواية المقطم الاخيرة في الجملة وزاد ان جرجي افندي انفق على السيد مئتي ليرة وان المابين لما بلغه ذلك بعد موت السيد أراد ان يعطي المبلغ لجرجي فلم يقبله . ومما رواه الكاتب من خبره عند مادعي الى السيد وهو محتضر انه قال «دخلت عليه وهو وحده يعاني سكرات الموت فاحترت ماذا اصنع والمحتضر يصلي او يذكر الله الله وأنا أدور من حول سريره حتى استأثر الله به »

تابين مجلة البيان

﴿ وترجمتها للسيد جمال الدين ﴾

كتب الشيخ ابراهيم اليازجي الكاتب اللغوي الشهير في الجزء الثاني من مجلة البيان الذي صدر في اول ابريل سنة ١٨٩٧

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الافغاني ﴾

هذا جمال الدين امسى نازلا   جدثا تضمن منه أي دفين
قدرٌ به عمَّ البكاء على امرئ   فقدت به الدنيا جمال الدين

«نعت الينا انباء الاستانة انسان عين الفضائل والكمال ، ومجمع اشعة الحكمة بل قطب دائرة العلوم على الاجمال ، رُحلة البلغاء وقدوة العارفين ، وقاضي علوم الدنيا والدين ، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني المشهور ، فرع الارومة الزكية ، وسليل الحسب القائم من منصب السؤدد في الذروة العلية ، فكان لمنعاه يوم اشتد وقعه على القلوب والمحاجر ، وطال في وصفه أنين الاقلام فأمدتها بالدمع عيون المحابر ، وكيف لا وهو خطيب الشرق الذي رنَّ في الخافقين صدى خطابه ، وامامه الذي انبثقت انوار اليقين من سماء محرابه ، واستاذ علومه الذي ما فتئت الحكمة تتدفق بين فؤاده ولسانه ، وتطلع شموس البلاغة من بين خاطره وبيانه ، وتجري مناهل العرفان بين اقلامه وبنانه ،

« قضى رحمه الله في التاسع من الشهر الغابر بعلة السرطان وقد تشبث منه بين الفك والنحر ، ودب في مجرى الفصاحة منه ولا عجب ان يدب السرطان في البحر ، فقبض ذلك اللسان عن تدفق عبابه ، وحبس تلك الدرر فلا يبرز مكنونها من حجابه ، الى ان نقله الله الى جواره فذهب حميد الاثر ، ودفن في قرافة المشايخ مذكورا بالرحمة ما غاب قمر ، وناح طائر على شجر ،

«وهذه ترجمته نلخصها عن فصل لحضرة العلامة الفاضل الشيخ محمد عبده الشهير صدر به تعريب رسالته التي كتبها في ابطال مذهب الدهريين على ما سيجيء ذكره في الترجمة قال حفظه الله :

(وهنا ذكر ملخص الترجمة التي تقدمت في ص ٢٧ — ٣٥ ثم قال)

« و وقفنا له على ترجمة اخرى باللغة الفرنسوية فيها انه بعد ما فارق اوربا سار يريد نجداً فوافته رسالة برقية من الشاه ناصر الدين سلطان العجم يدعوه اليه فتحول قاصداً بلاده ولما بلغ طهران احتفل به الشاه احتفالا بالغاً وادناه منه ورفع منزله وسماه وزير حربه وكان ينوي ان يرقيه الى مقام الصدارة

« و بعد أن اقام مدة ببلاد فارس شاع ذكره وتناقلت الالسنة فضائله وغزارة علمه وادبه فتواردت عليه الخاصة من وجوه البلاد وامرائها وعلمائها ورأوا من كمال فضله وسعة معرفته باحوال السياسة والتاريخ وسائر العلوم قديمها وحديثها وتبحره في معرفة

الاديان مع ما رزقه من توقد الذهن و بلة المنطق وقوة الخطاب ما بهرهم وعظم به وقعه في نفوسهم فانصرفت اليه الوجوه وملكته القلوب اعنة اهوائها ورأى الشاه أن تسلطه على النفوس يزداد كل يوم وحرمته تعلو عند الامة فاستشعر خشية من امره واضمر الحذر من ناحيته وتبين السيد جمال الدين ذلك من قبل الشاه واستأذنه في الانصراف وخرج من البلاد الايرانية فصار الى موسكو ثم تحول الى باريز لشهود معرضها الذي كان سنه ١٨٨٩ وفيما هو مار في مونيخ من بلاد الالمان وافق الشاه بها فاجمل ملتقاه ودعاه للمصير الى بلاده وألح عليه في ذلك فسار في صحبته وما كادت تستقر قدمه في بلاد ايران حتى تألب القوم حوله بما اربى على ما كان منهم في المرة الاولى ثم رغب اليه المتفقهون منهم ان يرسم لهم قوانين دستورية تجري بها الاحكام في نصابها من النصفة والعدل وتلزم الحكام العمل بمقتضاها فأسر جمال الدين ذلك في نفسه ثم تلطف في عرضه على الشاه فاستصوبه ومال الى موافقته عليه لكنه لم يلبث ان نكل عن قبوله بمشورة الصدر الأعظم فانه حذره عواقبه بحجة ان الأمة غير متأهبة له فصلا عن انه يؤدي الى تقييد سلطة الشاه وربما كان سببا في تقويض عرشه

«فلما رأى جمال الدين ذلك خرج الى المشهد المعروف بشاه عبد العظيم وهو مقام مبني على نحو اثني عشر ميلا من طهران يفضي اليه بسكة حديد فاستمر القوم يختلفون اليه في مقامه ذاك يفاوضونه فيما اشربته قلوبهم من أمر القوانين والاحكام الى ان اتى على ذلك نحو من ثمانية أشهر وأمره لا يزداد الا انتشارا حتى ثارت الخواطر في جميع اطراف البلاد

« وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه فوجه الى الشاه عبد العظيم خمس مئة فارس مدججين بالسلاح فقبضوا عليه وهو مريض في فراشه وقاده خمسون منهم الى الحدود العثمانية فكان عن ذلك هرج شديد في البلاد الايرانية وانتشرت المشاغب وكثرت الرسائل والمنشورات وتواردت على الشاه كتب التهديد بان يجري على مقترحهم أو يخلع نفسه من الملك حتى بلغ منهم ان حاصروه يوماً في قصره . وسار جمال الدين بعد ذلك الى البصرة لتفاقم العلة عليه بسبب اشتداد البرد في تلك الديار فلبث بها سبعة أشهر الى ان تماثل من مرضه ثم نهض متوجها

الى لندره فأنشأ بها جريدة سماها ضياء الخافقين) أكثر فيها من الطعن في سياسة الشاه وتهييج خواطر الامة من رعيته عليه وكان يكثر التردد الى المحافل السياسية يخطب فيها في امر الشاه وحض رجال الدولة الانكليزية على خلعه واقام على ذلك مدة ثمانية أشهر وفي اعقاب ذلك بعث السلطان عبد الحميد يستدعيه اليه على يد رستم باشا سفيره في لندره فأجاب بعد ما امتنع على ان يؤذن له في العودة الى أوربا متى شاء وقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فتلقاه السلطان بتعطفاته واحسانه واجرى عليه رزقا واسعا وكان كثيراً ما يدعوه ويخلو به في اغراض سياسية ليس من شأن هذه المجلة التعرض لها ولا لغيرها مما اتفق له من الحوادث مدة اقامته بالاستانة حتى ظهر فيه الداء فألزمه الفراش أشهرا قاسى في اثنائها عذابا واصبا الى ان اختار له الله ما عنده فذهب مأسوفا عليه تغمده الله برضوانه وافرغ عليه سحائب رحمته وغفرانه

* * *

هذا ما وقع الينا من ترجمة هذا الرجل الشهير وهي كما تراها أدنى ان تكون ترجمة رجل سياسي قد جعل نُصب ناظره غرضا بعيدا لا تبلغ اليه ذراعه، ولا تصبر عن همته وأطماعه، فهو أبدا تمثال يقظته وطيف منامه، وحديث خواطره في رحلته ومقامه

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر

فأقبل يضرب اليه آباط المسالك، ويكثر في التماسه من الحركة في البلاد والتنقل في الممالك، لا تستقر له قدم ولا يقف على ساق، ولا ينزل رحله في أفق من الآفاق، ولسان حاله ينشد قول المتنبي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل ان يُسمى

وإنما تدرك الآمال، بمضافرة الرجال، وتبلغ الأوطار، بموازرة الأقدار، ولا نصير اذا لم ينصر القدر، ولا رفيق اذا توعرت شقة السفر، وكانت محفوفة

بالخطر ، فلا عجب اذا قصر مشايعوه عن مجاراته ، وتخاذل مريدوه عن موالاته، فكان كما قال المتنبي أيضا

وحيد من الخلان في كل بلدة   اذا عظم المطلوب قل المساعد

وانما هي نفسه الكبيرة اقدمت على ركوب العظائم ، ومنته ان يبلغ منفردا مالا يبلغ الا بالجيوش الخضارم، فلا مأربا نال ، ولا نفسه أقال،ولكنه اضاع أيامه في الطلب ، ولم يجن من أمانيه سوى النصب ، وما أحسن ما قال المتنبي أيضا

واذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الاجسام

وانما انتزع المتنبي هذه المعاني من صحيفة ايامه ، وما قرأ فيها من تخلف جده وتقدم إقدامه ، كما قال :

أبداً أقطع البلاد ونجمي   في هبوط وهمتي في صعود

فقد طبع الرجلان على غرار واحد وان تفاوت المحتدان ، ونشآ في منشأ واحد وان تباين البلدان ، فدرج كل منهما بين صليل السيوف وصهيل الجياد، وترعرع بين مزاحف الصفوف ومواقع الجلاد ، في بلاد لا حكم فيها الا للغالب ، ولا شرع الا ما حكمت به شفار القواضب

وحقيق بمن ربي على مثل تلك الحال، ان يخرج صلب النفس رغيب الآمال، ولاسيما اذا كان له قديم يرجع اليه ببصره ، او فائت يستحثه للكر على أثره

وعجيب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ،وضمه بين حاشيتي علوم المتقدمين والمتأخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة يجمع الدنيا به بنظرة ويستقصي اطرافها بلمحة ، وقد تجردت له عن زينتها وزخارفها ، وأماطت له اللثام عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى في نفسه مكان شيء منها يقال له الرئاسة ، وتنزع همته الى حال من احوالها تسمى بالسياسة ، بل ما كان اجدره وقد رزق من توقد الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله ، وأوتي من قوة الحكم وسرعة الخاطر ما انفرد فيه عن النظراء والاشباه ، ووعى في صدره من انواع العلوم العقلية والنقلية ما كان فيه نسيج وحده ، ومن سياسات الممالك وتواريخ الامم ما عز على غيره من بعده ،ان ينزل نفسه من دنياه حيث انزلته الفطرة ، ولا يتعدى ماقسم له القدر

ووجد من نفسه عليه القدرة ، فيجعل ايامه وقفا على الاشتغال والنفع ، واستزادة ماشاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبع ، وتسطير مايفتح به عليه مما غفل السلف عن تدوينه ، أوفاتهم الوصول اليه من علوم هذا العصر وفنونه ، ولو فعل لكان إمام الدنيا بلا مدافع ، وكانت حياته طافحة بالفوائد والمنافع ، ولتجاوبت الآفاق من صدى ذكره بما لا يأتي عليه كرور الليال ، ولا ينقرض الا بانقراض القرون والاجيال ، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو الكبير المتعال ،

اه ما كتبه اليازجي ونجيب عما تعجب منه بكلمة واحدة وهي ان السيد رحمه الله كان يشتغل بالسياسة لانه يرى أنها اذا لم تصلح لاتدع احداً يعمل إصلاحا ، ولا يطلب فلاحا ، ولا ينشر علما يرقي به الأمة ، ولا يطوي وهما يكشف به الغمة ، وان هي سمحت لمثله بالاصلاح يبث العلوم ، وتربية الارواح والعقول ، فان طريق ذلك يطول عليه ، وربما حالت المطامع الاجنبية دون الوصول اليه ، فهو ما اختار الاصلاح من طريق السياسة الا لاعتقاده ان العمل من طريقها أسرع تأثيرا من العلم والكتابة لا لأجل الرياسة كما علم من مجموع ترجمته

***

وكتب صاحب مجلة الهلال ما ملخصه :

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الافغاني ﴾

(ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩ م) وتوفي سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م)

قد تمرُّ القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقتهم اليه الحاجة في شؤون معاشهم لا يفقهون غثها من سمينها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افرادا يميطون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين. أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا استار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة

المستترة وراء تلك النواميس و بينوا ماأودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية

ولكن الطبيعة لاتجود بواحد من أولئك الافراد إلاّ كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى إذا كادوا يرجعون إلى غيهم جادت عليهم بآخر ينفث فيهم روحا حية فينتهون من رقادهم و يعودون إلى رشدهم ريثما يأتيهم ثالث

هكذا كان شأن العالم في بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسفة سقراط وأفلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا نزال نستضيء بنبراسهم

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الاعمال فتحيط بهم بيئات لا تصلح لنماء ما يغرسون فيذهب سعيهم هباء منثورا

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق قدرهم واغفال التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بفقيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله فقد نشأ قطبا من اقطاب الفلسفة وعاش ركنا من اركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا الف كتابا . على أن ذلك لا يحط من مقامه وقد رأينا اعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدون شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الاجيال خلفا عن سلف . فعسى ان لا نحرم من مريدي الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك »

ثم ذكر الهلال ملخص ترجمة الاستاذ الامام له مع زيادات منها ما كان من شأنه في بلاد فارس على نحو ما ذكر في مجلة البيان . ومنها قوله قبل ذلك «وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في جرائدها مقالات تبحث في سياسة روسيا وانكلترا او الدولة العلية ومصر ترجمت جرائد انكلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنساوي رينان في «العلم والاسلام» فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحجة ثم شخص إلى لوندرا بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبري ليسألاه عن رأيه

في المهدي وظهوره إذ ذاك . ثم عاد إلى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكانا عاليا » اه ومما قاله في شمائله :

﴿ مجلسه وخطابه ﴾ كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على أختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلفا . وكان ذا عارضة و بلاغة لايتكلم إلا باللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية واذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فاذا كان السامع عاميا تنازل الى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه » اه

يقول مؤلف الكتاب . حدثنا الدكتور شبلي شميل انه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح وإلقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس . أو ما هذا معناه

هذا وإن كثيرا من الفرس يقولون إن السيد جمال الدين فارسي لا أفغاني فكلمة أبي الهدى لها أصل عن غيره زاد عليها من عنده كما هي عادته فقد ذكر في كتبه التي عزاها الى الرفاعية طعنا مثل هذا في نسب السيد عبدالقادر الجيلي سواء بسواء

وقد قال لنا بعض علماء الفرس إن اسرة السيد هي من بيوت العلم والشرف في بلاد فارس وقد هاجرت إلى الافغان وان السيد جمال الدين ولد في بلاد الافغان فهو أفغاني منشأ فارسي في الاصل . ومن الناس من يظن ان ادعاء بعض الفرس ان السيد منهم هو من قبيل ما جرت به العادة في الرجال العظام من تنازع الشعوب لهم

* * *

وجملة القول ان هذا الرجل كان آية من آيات الله وان عمله في البلاد الاسلامية لم يكن قليلا فهو الذي نقل مصر من طور إلى طور وأحياها حياة جديدة لم يسبق لها نظير في تاريخها فانها كانت في كل أدوارها مستعبدة للحكام لم يخطر في بال شعبها ان يكون له شأن في حكومتها حتى في حركتها الأوربية الأخيرة في عهد بيت محمد علي فاننا لم نقرأ لمن ترجموا الكتب الأفرنجية ولا لمن ألفوا الكتب

العصرية ولم نرو عنهم كلمة تشير إلى وجوب جعل الحكم في البلاد مقيدا برأي أهلها حتى جاء السيد جمال الدين فأسس الحزب الوطني المصري لأول مرة على هذا الأساس كما يعلم من مقالاته وخطبه التي كان يلقيها على تلاميذه (١)

ثم انه هو الذي كسر مقاطر التقليد الفكري والديني واللغوي فكان إمام النهضة العلمية والقلمية والدينية في مصر وغيرها كما كان إمام النهضة الاجتماعية والسياسية

وهو أيضا إمام النهضة الاجتماعية السياسية في بلاد الفرس الذي بذر في نفوس الفارسيين بذرة الحكم الشوري كما تقدم · ولو انه انقطع إلى التصنيف لما كان بوجوده مثل هذا التأثير الكبير

ونقول في خاتمة ترجمته انه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى كما قال كثير من العلماء في شيخ الاسلام أحمد بن تيمية انه لو لم يكن له من الأثر إلا تلميذه ابن قيم الجوزية لكفى · ولنعد إلى ترجمة الاستاذ الإمام فقد جمح القلم في ترجمة السيد حتى جاء فيها بأكثر مما وعدنا به رحمه الله رحمة واسعة

* * *

﴿ دخول الاستاذ الامام الامتحان ﴾
(في الازهر)

بعد ان تلقى رحمه الله تعالى ما تلقاه على شيوخ الأزهر وعلى السيد جمال الدين كما سبق البيان عرض نفسه على لجنة الامتحان لأجل شهادة العالمية كما هو المعهود وقد كتب عن امتحانه ما نصه :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الاكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعاديني على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة ما في العلم وجرت أمور قبل الامتحان

(١) راجع مقالاته في الحكومة الاستبدادية في (ص ٥٧٧ و ٦٠١) من مجلد المنار الثالث وربما ننشرها مع مقالات اخرى له في ملحق لهذا الكتاب

يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الازهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية» الخ

وقد أخبرني رحمه الله ان بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان يمينا مؤكدة لا يأخذنّ فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عما سألوه فوق ما كانوا ينتظرون ، طفقوا يناقشون ويراجعون ، وينتقلون به ويستطردون ، حتى صار الامتحان مناظرة ، تتولاها المشاغبة والمكابرة ، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي انه لم ير احد امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ وأظنه الشيخ الرافعي ان يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يعرضها على اخوانه الذين كانوا متفقين على حرمانه ليوقعوا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يحب ان يراجعهم بعد أن رأى منهم ما رأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الاولى وما كانوا ضائرين.

﴿ طلبه العلم بعد التدريس ﴾

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ الى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يعدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه هممهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل . وان صاحبنا لم يسلك مسلكهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يؤثر عنهم : اطلب العلم من المهد الى اللحد: فكان يقول الى آخر حياته انني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم : فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الازهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشي والتقارير سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فانتاشه من الإخلاد الى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة والاحتمالات البعيدة ، ورفعه الى سماء عرفان الحقيقة ، والافصاح عنها بالعبارة البليغة ،

بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين ، وتعويده الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الاسلامية ،التي كتبت باللغة العربية،مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ،وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الافرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لايكاد يتركها يوما من الايام .وكانت عنايته بعلوم الاخلاق والنفس وأصول الاجتماع الانساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقلما علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه عن الاسلام والمسلمين الاواستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الارادة خاصة ،وفي سفره الاخير إلى سويسرة تعلم هناك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الاوربية كتبا فيه وإن الانكليز نقلوا من حضرموت بعض ماهنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل كبير في تاريخ العرب والاسلام .وهذه العلوم الافرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الاسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين يهاجمه أعداؤه وكيف تردهجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الاوربية لايعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته لنفسه عن تعلمه اللغة الفرنسية مانصه :

« بدأت بتعلم اللغة الفرنساوية عند ما كانت سني أربعا وأربعين سنة ولكن ميلي الى تعلم لغة أجنبية ابتدأ في أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريبا وعند ماسافرت الى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أتعلم شيئا من الفرنساوية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين وبرفاق من العرب واشتغالي بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب علي ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة. أما بعد عودتي من النفي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الاهلية والحكم بها خصوصا في الجنايات على أصول القوانين الفرنساوية وجلوسي بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد قوي عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء وبعد مجيئي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل

فبحثت عن معلم فوجدت أستاذاً لا بأس به فدعوته فجاءني حاملا كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ماهذا فقال كتاب نحو فقلت له «لاوقت عندي لأن أبتدي وانما عندي زمن لأن انتهي» ثم ناولته قصة من تأليف ألكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو عليَّ والنحو يأتي في أثناء العمل ، وهكذا أتممت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا فتعلمت مبادىء اللغة الفرنساوية وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام

« سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنساوية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أني وجدت انه لا يمكن لأحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم » اه

هذا ما يقال في طلبه للعلم وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسير العظماء ، وتاريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيوخ بما يقولون من غير أن يفهمه وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه ، الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم اكتفائه بما ألقى عليه شيوخه في اكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس اساتذة آخرين ، وخاتمتها عدم الغرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

(١٤ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

الفصل الثالث

﴿ في تربيته الروحية وتصوفه ﴾

قدعلم ممامر شيء من تربيته الأولى منهاأنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق الفطرية الحميدة التي لا ينقصها الا نور العلم وقد كان له وانه لم يعن في صباه إلا بالفروسية وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر من السباحة وهذه الألعاب مما يحسن أن يربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء وعلماء التربية وهي مما يربى عليه أولاد الملوك والأمراء في أوربا

بعد ان أخذ حظه من هذه التربية الفطرية أخذه الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية فألزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جبلته أن يأخذ كل شيء بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر ويمشي مطرقا لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا لضرورة وقد ظل عدة سنين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق. وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويزج في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين. ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الاحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو كنت ملكا لحكمت بقتل الذين يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحداً . وقال ما معناه مازج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه وذلك قليل

وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه ، ورقى به الى ما هو خير منه ، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جاراه عليه زمنا عرفه به أنه أعرف بتلك المشاهد ، وأسبق الى تلك المشاهد، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز

عن حالها ، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها ، ولو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عليش شيئاً من أمر الرجل في تصوفه وتنسكه لهاجوا على الشيخ عليش وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وشى اليه من فساق المجاورين ولما خاضوا في فقيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفاً من الرياء وحب السمعة والأمة مستعدة للشر وكانت الشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي نقل فقيدنا من حال الى حال في التربية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهد له السبيل للأمرين . وقبل ان ننتقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للارشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فمهد السبيل التي سلكها به السيد جمال الدين — سبيل الإصلاح العلمي والاجتماعي . ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد العزلة الطويلة وكمل سلوكه فصار بمأمن من المعاشرين الذين يقطعون الطريق على المريدين فأمره بمخالطة الناس والتعرض لإرشادهم وقد كتب لي رحمه الله في ذلك ما نصه :

« قلت انني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك — والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة و بلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى . قال لي عندما رجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذا لم يكن لك نور تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فعليك ان تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذا لقيتهم وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ما حثثتك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح

الـكلام في الشؤون المختلفة ويوجه اليّ الخطاب لأتكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق في القول على وجل في أول الامر ومازال بي حتى وجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني و بكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى » اه أقول يظهر أنه أحس بأن عمله قد تم بتكميل تربية مريده وأنه ألهم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمـله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الالهام والشعور ، ماهو معروف مشهور ،

ومن تدبر كيفية تربية الشيخ درويش للرجل وكان عارفا بطرق الصوفية يعلم انه يصدق على طريق الشيخ درويش ما قاله أبو السعود بن الشبل عن نفسه وعن شيخه عبد القادر الجيلي قال « طريق عبد القادر في طريق الاولياء غريب وطريقنا في طريق عبد القادر غريب » وأبو السعود هذا هو الذي كان يقول محيي الدين ابن العربي فيه وفي شيخه ان الشيخ عبد القادر أعطي حال الصدق فكان صاحب ظهور والشيخ أبا السعود أعطي مقام الصدق فكان نكرة لا تتعرف .

وهكذا كان شيخنا محمـــد عبده في الصوفية نكرة لا تتعرف أي انه صاحب مقام لا تغلبه الاحوال ، ولا يسهل عليــه التأثير في نفوس الاغيار ، ولا يحتاج الى كلفة في إخفاء ما هو فيه ، وكتمان ما وهبه وأعطيه ، فكان مقامه مقام الصدق كالشيخ أبي السعود ابن الشبل ، ولذلك كان يظن المحجوبون عن خصوصيته انه كان من أبناء الدنيا ، ومن رآه منهم غير مبال بالمال ، ولا ميال إلى زينة الأثاث والرياش ، ظن ان حب الجاه هو الذي غلب عليه . ولـكن من وقف على تاريخه يعلم ان هذا الظن من الباطل فانه كان يخفي ما استطاع كل مامن شأنه توسيع دائرة جاهه من الأعمال ، ولما عاد من منفاه في سورية إلى مصر وأراد توفيق باشا أن يجعله قاضيا في المحاكم الأهلية قال انني خلقت لأكون معلما لا لأكون قاضيا وانني أعلم انني إذا دخلت القضاء أرتقي الى أعلى درجاته ومع هذا أختار أن أكون معلما في مدرسة دار العلوم على علمي بأنه لا ارتقاء في صنعة التعليم ، كما سيأتي

ولما بلغ انه صار مفتيا انكمش وأخبرني بذلك وهو ممتعض حتى إنني لم أنطق بكلمة تشعر بالسرور أو التهنئة ولكنني قلت له ومالي أراك منقبضا ؟ قال لأن هذه

وظيفة لا عمل فيها . وسيأتي لذلك مزيد بيان في الكلام على أخلاقه وانما غرضنا الآن ان نبين شيئا من تربيته الصوفية لا آثار هذه التربية في الاخلاق والعمل وان ما نريد من ذلك يتوقف على بيان شيء من حقيقة التصوف ومن أحوال طرق الناس فيه قديما وحديثا فنذكر من ذلك مالا بد منه لمن يريد ان يعرف الحقيقة التي نرمي اليها فنقول

ماهو التصوف

يقال تصوف الرجل إذا صار صوفيا لامعنى للكلمة غير هذا ولهذا البناء اصل معروف لانزاع فيه فهو كتهود اذا صار يهوديا ومنه الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولكن وقع الخلاف في الصوفي الى أي شيء ينسب فأشهر الأقوال وأقربها من اللفظ ان يكون نسبة الى الصوف لأن القوم كانوا يكثرون من لبسه وعارض فيه بعضهم بأنه لم يكن خاصا بهم ولا كان كلهم يلبسه أو لم يكن شعارا لهم . وزعم بعضهم ان اسم الصوفي مأخوذ من الصفاء وانشدوا:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف (*

ولست امنح هذا الاسم غير فتى صافى وصوفيَ حتى سمي الصوفي

وزعم آخرون انه من الصفة نسبته الى أهل الصفة من الصحابة أي الذين كانوا يلازمون صفة المسجد لفقرهم وانقطاعهم للعبادة وحفظ القرآن واللغة تنفي هذا النسب وتتبرأ منه . ويقول بعض الناس ان الصوفي منسوب الى كلمة «سوفا» أو «سوفى» بعد التصرف فيها بالتعريب والكلمة يونانية معناها الحكمة والصوفية الحقيقيون كلهم طلاب حكمة وهم من صنف الفلاسفة الاشراقيين عند اليونان. وذلك انه لما دخلت الفلسفة اليونانية البلاد الاسلامية أخذ كل أناس منها ما يناسب استعدادهم فعني بعض الناس بالعلوم النظرية وبعضهم بالعلوم العملية مع العمل وذلك قسمان قسم يتعلق بالظاهر كالطب وقسم يتعلق بالباطن كرياضة النفس وتهذيب الاخلاق وهذا هو موضوع التصوف ويعرف أهل التاريخ ان هذا التصوف قديم العهد في البشر فهو معروف عند

*) ويروى المصراع الثاني هكذا * وكلهم قال قولا غير معروف *

براهمة الهند الى اليوم وعند أهل الصين أيضا ومن الصينيين طائفة يسمون أهل الطريقة لهم شارات كشارات أهل الطريق وأعلام يكتبون عليهما كلمات دينية كالذي تراه كل يوم عند اهل الطرق

وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتاب « تلبيس ابليس » الى ان الصوفية نسبة إلى رجل يقال له صوفة قال

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومومن ثم حدث اسم زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقا تخلقوا بها ورأوا ان أول من انفرد بخدمة الله سبحانه عند بيته رجل يقال له صوفة واسمه الغوث بن مرّ فانتسبوا اليه بمشابهتهم اياه في الانقطاع الى الله سبحانه وتعالى فتسموا بالصوفية . وعن ابن سعيد الحافظ قال سألت وليد بن القاسم إلى أي شيء نسب الصوفي فقال كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا الى الله عز وجل وواطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية . قال عبد الغني فهؤلاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر اخي تميم بن مرة . وعن الزبير بكار وقال كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى الغوث بن مر بن أدّ بن طابخة (*) ثم كانت في ولده وكان يقال لهم صوفة وكان اذا حانت الاجازة قالت العرب « أجيزي صوفة » قال الزبير قال ابو عبيدة صوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله اذا قام بشيء من أمر المناسك يقال لهم صوفة وصوفان . وعن ابن السائب الكلبي قال انما سمي الغوث ابن مر صوفة لانه كان لا يعيش لامه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ففعلت فقيل صوفة ولولده من بعده . وعن عقال بن شيبة قال قالت أم تميم بن مر ولدت نسوة فقالت لله عليّ ان ولدت غلاما لأعبدنه للبيت

---

*) طابخة هذا هو ابن الياس بن مضر وهو بالباء والخاء كاسم الفاعل المؤنث من الطبخ كما في المعاجم وضبط في نسخة التلبيس بالهمزة والحاء المهملة . والاجازة هي الافاضة من عرفات كانت العرب لا تفيض من موقفها بعرفات حتى يفيض بها صوفة وكذا من منى . ونسبة الصوفية الى صوفة ذكرها الزمخشري في الاساس احتمالا

فولدت الغوث بن مر فلما ربطته عند البيت اصابه الحر فمرت بهوقدسقط واسترخى فقالت ماضار الا صوفه فسمي صوفة وكان الحج وإجازة الناس من عرفة الى منى ومن منى الى مكة لصوفة فلم تزل الاجازة الى عقب صوفة حتي اخذتهاعدوان فلم تزل في عدوان حتى اخذتها قريش اه

أقول ولا مانع في القياس من صحة هذه النسبة عربية ولكن يبعد انينتسب القوم باختيارهم الى أهل الجاهلية ولو الى النساك وملازمي خدمة البيت منهم فاذا صح انهذا هو أصل النسبة فالمعقول انيكون قد أطلق عليهم ذلك بعض العرب اذ رأوهم يكثرون التحنث وينقطعون للعبادة في المسجد الحرام وغيره لأن صوفة ممن يضرب بهم المثل في مثل ذلك

وأما تاريخ التصوف ومبدأه فقد قال ابن الجوزي فيه: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة متين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها ان التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الاخرى . وسئل الجنيد بن محمد عن التصوف فقال الخروج عن كل خلق دري، والدخول في كل خلق سني، وعن محمد بن حنيف قال لرويم كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا انفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق،

ثم ذكر انهذا ما كان عليهم أوائلهم حتى لبس الشيطان عليهم فكان أول تلبيسه ان صدهم عن العلم وأراهم ان المقصود العمل فلما انطفأ مصباح العلم تخبطوا في الظلمات فمنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ومنهم أغري بتعذيب النفس بالجوع والعري والفقر الاختياري . ومنهم من هام بالسماع والوجد والرقص، ومنهم من غلبت عليهم الخيالات، حتى قالوا بالحلول والاتحاد، وكانوا يعنون بالنظافة والتنطع في الطهارة وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعة

وذكر المؤلفين منهم . وان بعضهم قد هذبوا التصوف . فأول من ألف لهم في الزهد

والغلو في ترك الدنيا الحارث المحاسبي · وصنف لهم عبدالرحمن السلمي كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم مافيه العجب من تفسير لا يستند الى أصل من أصول العلم ·وذكر ابن الجوزي ان السلمي هذا غير ثقة وانه كان يضع لهم الاحاديث وحدث عن الاصم بشواذ كثيرة وهو لم يسمع منه الا قليلا ، وصنف لهم ابو نصر السراج كتاب لمع الصوفية وفيه كثير من الاعتقاد القبيح وصنف ابو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الاحاديث الباطلة والموضوعات · وصنف لهم ابو نعيم كتاب الحلية وذكر في حدود التصوف اشياء منكرة قبيحة (وقال) لم يستح ان ذكر في الصوفية الخلفاء الراشدين وسادات الصحابة والتابعين وسفيان الثوري واحمد بن حنبل · وصنف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق الخ ثم ذكر تصنيف الغزالي للاحياء وما فيه من الاحاديث الباطلة وانه لم يكن يعلم بطلانها

ثم ان أبا الفرج بين ضروب التلبيس على الصوفية وماخالفوا فيه الشرع عن جهل أو تأول فأصاب في أكثر ما كتب وأخطأ في أقله وقد كان حسن النية كما كان أولئك الذين انتقد عليهم مخلصين فيما قالوا وفعلوا وهو لا ينكر ذلك عليهم ولكنه كان أعلم منهم بالسنة السنية وبما كان عليه السلف الصالح من هدي الدين لأنه من الحفاظ ولم يكن في أولئك الصوفية حافظ ولا محدث الا من انتصر لهم في بعض المسائل كابن طاهر الذي انتصر لهم في القول بإباحة السماع وان إحياء علوم الدين هو أحسن كتبهم ومولفه الامام ابو حامد الغزالي كان أوسعهم علما بالكلام والفقه والأصول وأدقهم فهما في اسرار الشريعة وحكمها ومع ذلك كله نرى في الاحياء كثيرا من الاحاديث والآثار الموضوعة والواهية وجلها أو كلها منقولة من كتاب قوت القلوب وهي هي وما أخذمنها و بني عليها هو جل ماينتقد على هذا الكتاب الجليل ولكن لا نعرف كتابا بالعالم من علماء الاسلام أشد جذبا الى الدين وتأثيرا في قلوب القارئين من هذا الكتاب ·

واذا كان كثير من الصوفية قد أخطأوا بقبول بعض الموضوعات والواهيات والاحتجاج بها والاستنباط منها فهذا خطأ لم يسلم منه كثير من الفقهاء الذين تحاملوا

عليهم وضللوا بعضهم وكفروا آخرين في القرون الأولى عند ما كان الصوفية صوفية كاملين في طريقهم ثم خضعوا لهم وذلوا وأولوا كلامهم المخالف لظواهر الشريعة وكذا المخالف لنصوصها وذلك بعد أن طرأ عليهم ما طرأ من الشذوذ والبدع الكثيرة

وقف الصوفية على الطرف المقابل للطرف الذي وقف عليه الفقهاء من الاسلام: عني الصوفية بباطن الاسلام ولبابه وسره وهو تزكية النفس وتطهير القلب ومراقبة الله تعالى وما يوصل الى ذلك من علم حكمة التشريع وأسرار الدين وعلم النفس والاخلاق والعلم بصفات الله وسننه في خلقه · وعني الفقهاء بظاهر الاسلام من علم طهارة الابدان والثياب وأعمال العبادات والاحكام القضائية مدنية وجنائية وسياسية · وكان كل من الفريقين يخطئ ويصيب على نسبة استقلاله في فهم القرآن والعلم بالسنة و بعده وقربه من ذلك و « كل حزب بما لديهم فرحون »

قد علم كل أناس مشربهم ، واقتدى قوم آخرون بهم ، ثم جاء المقلدون لكل منهم ، فذهب بهم الجهل الى الغلو فيهم ، حتى فضلهم بعضهم على الصحابة والتابعين ، وظنوا أنهم أوسع علما وأحسن عملا بهذا الدين ، هيهات هيهات لما تزعمون ، وشتان بين السلف والخلف فيما تصفون ، فلو صدق ما ظننتم ، وكانت حقيقة الامر ما زعمتم ، لكان لقائل أن يقول ان هذا الدين من وضع البشر ، ولذلك ارتقى بتطاول الزمن ، كلا ان السلف هم الذين أقاموا وزنه بالقسطاس المستقيم ، وجروا فيه على سنة الحنيفية السمحة وهداية الكتاب الحكيم ، فكل ما خالف جماعتهم من فنون زهد الصوفية البصريين ، أواقيسة الفقهاء الكوفيين ، فهو في هذا الدين مردود ، وصاحبه إما مجتهد معذور وإما مقلد معذول ، ولا يتبع أحد منهما فيما يعمل من ذلك ولا فيما يقول ، اذ المسألة من مسائل النزاع فترد الى كتاب الله وسنة الرسول ، (٤ : ٥٨ فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) فلا أحد من الصوفية معصوم في أعماله وأحواله ، ولا أحد من الفقهاء معصوم في آرائه وأقواله ، ولكن العصمة لكتاب الله عز وجل ، ولما بينه من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله

وسلم ، فحكمها هو الحكم العدل ، وقولها هو القول الفصل ، وسبيلها هي سبيل جماعة المؤمنين الاولين ، وهم سلف الامة الصالحين ، من جمهور الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم قبل حدوث الفرق ، وتحزب الاحزاب والشيع ، واجماع أولي الامر ، من أهل الحل والعقد ، يطاع في المصالح العامة ، دون العبادات والامور الخاصة ،

ولقد غلا من كل حزب وفرقة أناس بعدوا بالدين عن كتابه وسنته ، وسيرة سلفه وأئمته : كان من غلو بعض الصوفية أن أفرطوا في الكلام على حكمة الدين وأسراره حتى بعدوا بها عن النصوص والسنن ثم زعموا ان للقرآن ظاهرا و باطنا ، وان مدلول النصوص هو الظاهر ، وأما الباطن فلا يعرف الا بالكشف والالهام ، ومن هذه الثغرة دخلت على هؤلاء الغلاة دسائس الباطنية الذين أوجسوا خلال الامة يبغونها الفتنة بتحريف النصوص وتأويلها ، وفيها سماعون لهم ، مخدوعون بزخرفهم ،

ثم انهم اشتغلوا بالفلسفة وعلوم الكون من الرياضيات والطبيعيات كالمتكلمين ومزجوا ما أخذوه منها بكتبهم التي بحثوا فيها عن الوجود وعوارضه ، ولكن طريقتهم فيها كانت مخالفة لطريقة المتكلمين ، فكانت عناية المتكلمين منصرفة الى عرض مسائل تلك العلوم على الكتاب والسنة واقرار ما وافقها و إبطال ما خالف النصوص بالادلة والبراهين على طريقة الفلاسفة أنفسهم ، وما خالف الظواهر ان ساعدهم الدليل على إبطاله أبطلوه ، والا أولوا العبارة على طريق فنون اللغة من جعلها مجازا أو كناية ، واما غلاة الصوفية فقد تصرفوا في المعاني والالفاظ ، وسلكوا سبيل التعمية والالغاز ، فهم كغلاة الفلاسفة الاسلاميين واكثر منهم مخالفة للفلسفة ، ومخالفة للشريعة ، حتى إنهم قالوا شريعة وطريقة وحقيقة ، والتقسيم والعطف يفيدان المغايرة ، وكان المتكلمون والفقهاء يكفرون الغلاة من الفريقين بل كانوا على الصوفية أشد تحاملا لانهم يخدعون العامة باظهارهم التنسك فتعظم الفتنة بهم ، والفريقان سواء في شر ما كفرهما به المتكلمون والفقهاء وهو أمران أحدهما علمي كالقول بقدم العالم وكون النبوة كسبية ، وثانيهما عملي وهو إباحة المحرمات للخواص الكاملين في العلوم وجعل الشريعة وسيلة لتربية النابتة وضبط العامة ، ومن دون ذلك مخالفة

النصوص واتباع الفلاسفة في مسائل العالم العلوي وعالم الغيب كالسموات والعرش والكرسي والملائكة والجن والجنة والنار ،

والذي استنبطته من طول البحث والمقارنة ان أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لابسي لباس التصوف هم باطنية في الحقيقة وأقلهم قد مرق من الدين بشبهات عرضت له من تلك الفلسفة الباطلة التي كانت رائجة في تلك القرون ، ثم قلدهم في هذه الاباطيل كثير من المسلمين وهم لا يعرفون أصلها ولا الغاية التي وضعت لتؤدي اليها

مثل الصوفية في ذلك كمثل الشيعة فقد كان هؤلاء حزبا سياسيا من المسلمين يرى ان الحكومة الاسلامية يجب ان تكون حكومة أشراف وان احق الناس بها بعد النبي (ص) أقرب زعماء الصحابة المرشحين لذلك إليه وهو علي ربيبه وصهره وابن عمه ثم أولاد علي من بنته (ص) فجعل الباطنية من أصول تعاليمهم الرفضية الغلو في علي و ولده والقول بعصمتهم ، وانه لا يعرف باطن الدين ولا حقيقته الا منهم ، و بثوا ذلك في غلاة الشيعة وجهلتهم ، توسلا بذلك الى الطعن في ابي بكر وعمر وجمهور علماء الصحابة وادعاء كتمانهم لبعض القرآن وتحريفهم لبعض آخر وابطال ثقتهم بما كانوا عليه من الدين وصرف وجوههم الى زعماء منهم يدعون انهم اخذوا حقيقة الدين من أئمة آل البيت المعصومين فيطمسوا الاسلام الحقيقي ويحلوا رابطة أهله و يستبدلوا به دينا جديدا ان لم يتيسر لهم إرجاع الناس الى المجوسية التي هي دين واضعي تعاليم الباطنية للانتقام من المسلمين الذين أزالوا ملكهم واستولوا على بلادهم

هكذا بثت الباطنية تعاليمها الالحادية الفاسدة في غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة وانخدع بها الفريقان لاظهار دعاتها الاسلام والتنسك والتقوى حتى صار الناس يقولون ان الشيعة قسمان ظاهرية و باطنية ، ولم يكن أحد يقدر ان يميز بينهما لان الباطنية كانوا يخفون عقائدهم أو تعاليمهم المخالفة للاسلام نفسه المصرحة بعداوته الا لمن يثقون به بعد وصوله الى الدرجة الاخيرة من درجات دعوتهم ، ولذلك رأينا مثل الشريف الرضي من أئمة العلم والفضل في الشيعة يمدح بعض الخلفاء العبيديين ، ظنا منه انهم من الشيعة المسلمين ، وانهم حقيقة من العلويين ، فقال وقد كان مستاء من الخليفة العباسي

ألبس الذل في ديار الاعادي وبمصر الخليفة العلويّ
من أبوه ابي ومولاه مولا ي اذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيدا النا س جميعا محمـد وعلي

ولو علم ان الخليفة العبيدي عدو جده والساعي في إبطال دين جده لما قال ذلك فيه

ولما ظهرت تعاليم الباطنية في بعض فرقهم امتاز مسلمو الشيعة وثبتوا على الايمان بوحدانية الله ورسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين وإقامة أركان الاسلام الخمسة بالعمل لا يخالفون غيرهم من المسلمين فيها الا ببعض الفروع الاجتهادية، والباطنية هدموا كل هذه الأركان والعقائد الاساسية، ولكن بقي في كتب الشيعة وتقاليدهم شيء من تعاليم الباطنية كما بقي في كتب أهل السنة شيء من أحاديثهم الموضوعة. وأما كتب غلاة الصوفية فلا تزال حاوية لجميع ضلالاتهم أو أكثرها لا يستطيع التمييز بينها وبين التصوف الصحيح الا افراد من المحققين. وكان الاستاذ الامام صاحب الترجمة يقول ان التفسير المطبوع في جلدين المنسوب الى الشيخ محيي الدين بن عربي هو للكاشاني الباطني. ويقول بعض العلماء ان الفتوحات المكيـة والفصوص أشهر مصنفات الشيخ محيي الدين فيها كثير من دسائس الباطنية فان لم يكن كذلك فهو من أكبر زعماء الباطنية أو أكبرهم على الاطلاق

قال ابن خلدون في مقدمته في سياق الكلام عن التصوف:

«ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتابه المقامات له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطون الاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الائمة مذهبا لم يعرف لاولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفـة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان

« وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها قال : جل جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، وأن يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد : وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من أنواع الخطابة أو هو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به

« ثم قالوا بترتيب الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى انهم لما اسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفعوه الى علي رضي الله عنه وهو في هذا المعنى أيضا والا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضي عنهما ازهد الناس من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحدا منهم بشيء يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة في كلام بنفي أو إثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة ومذاهبهم في كتبهم والله يهدي الى الحق

« ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقامات وأمثالها وشملوا بالنكير سائر ماوقع لهم في الطريقة والحق ان كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع (احدها) الكلام في المجاهدات وما يحصل في الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق التي تصير مقاما ويترقى الى غيره كما قلناه (وثانيها) الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان بأنواع الكرامات (وثالثها) التصرف في العوالم والاكوان بأنواع الكرامات (ورابعها) ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول

« وأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل في الاذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد وأذواقهم فيه صحيحة

والتحقق بها هو عين السعادة

« وأما في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحاق الاسفرايني من أئمة الاشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون بينهما بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم ان وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية فان صفة نفسها التصديق فلو وقعت من الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع ان الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وانكارها مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من هذا وهو معلوم مشهور

« وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه لما انه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لانها لم توضع الا للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك ونتركه فيما تركناه من المتشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة

« وأما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم ان الانصاف في شأن القوم انهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وان العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لابي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك اذا لم يتبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه واما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فمؤاخذ أيضا ولهذا افتى الفقهاء واكابر المتصوفة بقتل الحلاج لانه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم

« وسلف المتصوفة من أهل الرسالة (١) اعلام الملة الذين أشرنا اليهم من قبل لم

(١) يعني رسالة القشيري

يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما همهم الاتباع والاقتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه و يرون انه من العوائق والمحن وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والاقتداء و يأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب» اه

أقول وذكر قبل مانقلناه أن بناء هذه الطريقة على مجاهدة النفس وغايتها الوصول الى مقام التوحيد والمعرفة : قال ان الادراك الذي يتميز به الانسان عن سائر الحيوان نوعان إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم و إدراك للاحوال القائمة بالنفس من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف بالبدن تنشأ من إدراكات وارادات وأحوال وهي التي يميز بها الانسان و بعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة ، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به ، والنشاط عن الجمام والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للكمال :

ثم ذكر عناية القوم بمحاسبة النفس على الاعمال والخواطر وعدم الاكتفاء بالاتيان بالعبادة موافقة لشروط بالفقه بل يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ، فأصل طريقتهم المجاهدة والمحاسبة وآثارها في النفس ، وذكر انهم اصطلحوا على ألفاظ تدل على ما انفردوا به من هذه الاذواق ومباديها وغاياتها كما وضع أهل الكلام والفقه والاصول اصطلاحات لعلومهم فصار علم الشريعة صنفين علم الفقهاء وعلم الصوفية

ثم تكلم على ما تثمره الخلوة والمجاهدة من كشف حجاب الحس وإدراك بعض العوالم الخفية وأطال في الكلام على هذا الكشف وعلته من سنة الله تعالى في النفس البشرية وما فيها من الاستعداد للادراك بغير واسطة الحس ، وما حدث للصوفية بعد عنايتهم بهذا الكشف من الكلام في حقائق الموجودات العلوية والسلفية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي ، وإنكار بعض الفقهاء وأهل الفتوى عليهم وتسليم بعضهم لهم واطال في ذلك

وأقول ان ابن خلدون أصاب في أكثر ماقاله وأخطأ في بعضه وانه ما سلم للصوفية من سلم من الفقهاء الا لظهور بعض خوارق العادات من بعضهم كالكشف وغير الكشف والانسان مهما كان معتزا قويا بعلمه وثقته بمعرفته فانه يضعف وينقاد لأضعف الاشياء اذا ظهر له من قبلها ما يعده مددا من السلطة العليا والقدرة الإلهية اذ أودع الله في فطرته العبودية والخضوع لسلطانه الأعلى الذي سخر به الاسباب ولا تسخره الاسباب في شيء ، ومن الناس من لم يبال بخوارقهم لأنه علم بأن مثلها قد كان من الهنود والصينيين وغيرهم فقالوا ان لهذه الخوارق أسبابا جارية على سنة الله تعالى في النفس البشرية وآثارها فنحن لا نسلم بشيء في الشرع لم يقم عليه الدليل الشرعي لان القائل به جاء بشيء غريب لانعرف سببه وهو نفسه لا يصلح أن يكون حجة على ما قاله ولا على عصمته فيما يكون عليه . وقد قال بعض كبراء العلم والتصوف . اذا رأيتم الرجل يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تروا حاله عند الأمر والنهي ، أي فان كان منتهيا عما نهى الله عنه مؤتمرا بما أمر به فهو المؤمن الصالح الولي لله والا كان فاسقا شقيا ، أو كافرا غويا ،

وقد غلا في علم التصوف فريقان فريق عده كله بدعا محدثة يجب ردها وعدم قبول شيء منها الا اذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف العملي أو القولي ولا يعتد بما يسمونه الاشارة ولا الكشف لانهما ليسا من طرق الدلالة في الشرع ولا في اللغة العربية . ومنهم من جعل ماثبت عنهم دينا يتقرب الى الله تعالى به وينكر على مخالفه كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة أو نصوص أئمة الفقه عند مقلديهم ، ويؤمن بمتشابهه كمتشابه الكتاب والسنة مع ان الصوفية

أنفسهم أنكروا ذلك . وذكر الشعراني ان شيخه عليا الخواص قال له في جواب سؤال : ان متشابه كلام الصوفية لا يقبل ولا يؤوّل كمتشابه الكتاب والسنة ، لعصمة الكتاب والسنة دون كلام الصوفية ، فانهم غير معصومين من الخطإ فيه . وهذه الكلمة أحسن مانقله عنه

والصواب ان كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والاصول والفقه — وأهل العلوم الكونية والعقلية كالفلسفة والطبيعيات. وكتبهم ككتب هؤلاء العلماء فيها الخطأ والصواب . وقد كنت كتبت لهذا البحث أوراقا ثم ضاعت ، واتفق ان اطلعت قبل كتابة غيرها على فتوى لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية في الصوفية والفقراء ذكر فيها تاريخ ظهورهم وحقيقة حالهم وغلوّ بعض الناس في مدحهم، و بعضهم في ذمهم وانتقاصهم ، وحقق ان مبدأ ظهورهم كان في البصرة وانهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري ، وان أهل البصرة قد اشتهروا بالعبادة والزهد أكثر من أهل سائر الامصار ، كما اشتهر أهل الكوفة بالفقه، فكان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية

وان الصوفية والفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وان السابقين بالخيرات منهم كالسابقين بها من الفقهاء ، و يسمون أهل الحقائق، وقد يصل بعض هؤلاء وأولئك الى درجة الصديقين. ثم قال:

« وقد انتسب اليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاّج مثلا فان أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وذكره الحافظ أبو الطيب في تاريخ بغداد

« فهذا أصل التصوف ، ثم انه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق، وصوفية الارزاق، وصوفية الرسم؛ فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم، وأما صوفية الارزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فان هذا عزيز وأكبر أهل الحقائق

لا يتصدون بلوازم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم ، والثاني التأدب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها . والثالث أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متخلق بالاخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك . وأما صوفية الرسم فهم المقصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ؛ فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع مّا من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره انه منهم وليس منهم »

ولما كان الصوفية يسمون أنفسهم (الفقراء) تكلم شيخ الاسلام في مسألة الفقر ولقب الفقير في عرف الشرع وعرفهم ، وبين ان الفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث التي أشرنا اليها في تلخيص كلامه عن الصوفية

وجملة القول ان مرادنا من التصوف والصوفية هنا ينحصر في المسائل الآتية نلخص بها ما تقدم ونزيد عليه . وهي

(١) التصوف الاسلامي هو التخلق بأخلاق الصوفية والانتظام في سلكهم

(٢) الصوفية في الاسلام طائفة انقطعوا الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس وتربية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكمال المعرفة بالله تعالى، ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشاء وتلبيسا، ولبس لباسهم من تناقض حاله حالهم دعوى وتقليدا

(٣) ان رياضة النفس والتدقيق في عيوبها والحرص على تزكيتها وتكميلها يثمر علما وعرفانا بسنن الله تعالى في الارواح وأسرار قواها ، وأحوالا وأذواقا غريبة ، من أعمها الكشف ، وهو معرفة بعض الحقائق والوقائع من غير طرق الحس والفكر ، (ومنها) التأثير بقوة الارادة في بعض الاشياء، وأكثر مايكون ذلك بنحو شفاء مريض أو استهواء نفس تكون أطوع للمستهوي من طرفه ، وأتبع له من ظله .وذلك فوق مايعهد الناس في هذا العصر من الاستهواء الذي يسمونه [التنويم المغناطيسي]

وقد ظهر في هذا الجيل رجل في سورية عرضت له حال اعتقد بها انه يجب عليه الخروج لإزالة الفساد، واصلاح أمر العبادة، فكان يسبر ويدعو الناس الى اتباعه فيتركون حرثهم وزرعهم وتجارتهم وصناعتهم ويتبعونه فرادى ومثنى وجماعات، من غير بينة ولا برهان، ولولا أخذ الحكومة له لكان له شأن وأي شأن!

(ومنها) أحوال تعرض، وبروق تومض، يلطف بها الكثيف، ويرق بها الغليظ، ويضعف سلطان المشاعر، وينعكس نور الابصار الى البصائر، فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال، حتى انه ليزج به في عالم من الخيال، يناجي فيه الارواح، تتجلى في صور الاشباح، بأغرب وأعجب مما يدعيه مستحضرو الارواح الآن

(ومنها) الغوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها، وصفات النفوس البشرية وقواها وعللها، وغير ذلك من العلوم العقلية، والمعارف الكونية والالهية

(٤) إن هذا التصوف برياضة النفس وما تثمره من الاحوال ليس من مستحدثات المسلمين بل سبقهم اليه قدماء الهنديين والصينيين واليونان وغيرهم — كما تقدم في أوائل الفصل — وقد سرى الى بعض صوفية المسلمين كثير من بدعهم وضلالاتهم، وشعائرهم وشاراتهم، حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود، فصارت هي غاية الطريقة عندهم، كما كان تجريد التوحيد الشرعي غاية الطريق الاسلامي عند غيرهم. ولا ندري كيف دخلت هذه الدخائل على الصوفية ولا عن أي كتب الهند وغيرها أخذوا، ولا تاريخ ذلك — لم نقف على ذلك كما وقفنا على ما يقابله من دخول فلسفة اليونان على علماء الكلام، ولكننا رأينا في بعض كتب الصوفية ذكراً لصوفية البراهمة وتفرقة بين كشفهم وكشف المؤمنين. ويسمون الكشف الاول الكشف الصوري والظلماني، والثاني الكشف المعنوي والروحاني، وأما المتكلمون منا فقد قالوا بجواز وقوع الكشف وغيره مما يسمونه خوارق العادات من غير المؤمن التقي، ويجعلون لكل نوع منها اسما، فما كان على يد المؤمن التقي يسمونه كرامة، وما كان على يد الكافر أو المبتدع أو الفاسق يسمونه استدراجا

(٥) اننا على جهلنا تاريخ دخول تلك الدخائل على صوفية المسلمين نعلم ان الباطنية

الذين كانوا يؤلفون الجماعات والاحزاب للكيد للاسلام ودولة العرب، والسعي لإفساد الدين وإسقاط الملك ، قد دخلوا على المسلمين من بابي التشيع والتصوف معا كما تقدم، ولذلك ترى أ كثر طرق الصوفية تتصل بأئمة آل البيت عليهم السلام وتنتهي الى أصلهم علي المرتضى كرم الله تعالى وجهه . وما عدا ذلك فهو مستحدث كطريقة النقشبندية التي تنتهي الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . والباطنية هم الذين اخترعوا مسألة كون الشريعة لها ظاهر و باطن ، وكون أئمة الباطن هم العارفين بتأويل القرآن وحقيقة الدين دون غيرهم ، وكونهم يتصرفون بأمور الكون ، وهم الذين أدخلوا على التصوف بدعة وحدة الوجود البرهمية ونزغات فلسفة اليونان النفسية . وكان غرضهم من ذلك إفساد عقائد الاسلام وازالة سلطانه وحكمه، وكانوا يعنون بالأئمة والاقطاب وأهل الديوان المستورين أئمة نحلتهم الذين يريدون رفعهم الى عروش الممالك ليتمموا لهم مايريدون بقوة السلطة ، بعد التمهيد العظيم له بالدعوة . وقد تم لهم أمر الملك في مصر بدولة العبيديين، ولكنهم عجزوا عن ابطال الاسلام وافساد أمره

(٦) قد امتزجت دسائس الباطنية بتعاليم الصوفية فراج بعضها على الاكثرين و بعضها على الاقلين ، وعز التمييز بينها حتى على كثير من العلماء الراسخين ، كما راج على الاكثرين ما دخل عليهم من البدع الاخرى لجهلهم بالسنة الصحيحة وسيرة السلف المقتدى بهم من الصحابة وأئمة التابعين

فالضلالات والبدع المتغلغلة في كتب الصوفيـة قسمان (أحدهما) ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل من كتاب ولا سنة (ثانيهما) ما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر المخالفة للسنة في ذاتها أو في كيفيتها . ولايخفى انه ليس لاحد بعد زمن الوحي ان يجعل بعض العبادات التي لا أصل لها في الدين شعائر تؤدى بطريقة مخصوصة في أزمنة مخصوصة بكيفية مخصوصة. اذا لم يرد هذا التخصيص في السنة المتبعة . مثال ذلك صلاة رجب (الرغائب) وشعبان اللتين نص الفقهاء على كونهما من البدع المذمومة . وقس عليهما ماهو دون الصلاة من شعائرهم كالاجتماع لقراءة الاوراد والدلائل وللاذكار بالكيفيات المخصوصة في الايام المعلومة والمواسم المؤقتة كالموالد وغيرها ، وما فيها من

البدع والمنكرات الكثيرة

(٧) إنما الحكم العدل في التصوف والصوفية كتاب الله وسنة رسوله (ص) وسيرة أهل الصدر الاول في اقامتهما والعمل بهما، فما وافق ذلك فهو الحسن المقبول، وما خالفه فهو القبيح المردود، وما كان غير موافق ولا مخالف فهو محل الاجتهاد اذا لم يعد ديناً، وتحسين الظن أولى بالعاجز عن الاجتهاد، ولو فيما كان مخالفاً المعهود بين الناس

ولا يعرف هذا الحكم الا العالم الراسخ في التفسير والحديث وتاريخ الاسلام، لان شيوخ التصوف يلتمسون لما لديهم أدلة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ولكنهم قد يستدلون على الشيء بما لا يدل عليه من التأويلات البعيدة للآيات والاحاديث، والاخذ بالاخبار الموضوعة بَلْهَ الضعيفة، وترى عالماً كبيراً كالامام الغزالي يقع في ذلك

(٨) طالما تمنيت ان يوجد كتاب لاحد أئمة العلم الجامعين بين علوم النقل والعقل والتصوف يحصي على المنتسبين الى التصوف ما ألموا به من البدع، ويبين ما خالط كتبهم من دسائس الباطنية والفلاسفة، ويزن ذلك بالقسطاس المستقيم المبين في المسألة — السابقة — حتى عثرت على كتاب [مدارج السالكين بين منازل : إياك نعبد وإياك نستعين] للامام الشهير ابن القيم — وهو ابن بجدة هذا الامر وأبو عذرته — فاذا هو قد شرح فيه كتاب [منازل السائرين] لشيخ الاسلام أبي اسماعيل عبدالله بن محمد الانصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١ فكان هو الأمنية

أما أبو اسماعيل فهو — على كونه من أكابر أئمة الصوفيه أرباب الحقائق — مفسر محدث فقيه حنبلي سلفي . وأما كتابه [منازل السائرين] فهو نسيج وحده في متون التصوف، جعله عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب، في كل باب كلام وجيز على منزلة من منازل السائرين الى الحق تعالى، وكل منزلة لها ثلاث درجات . وقد يعبر بغير الدرجات قليلا. وقد غلب تصوف مؤلفه على علمه بالسنة في بعض المواضع فشذ كغيره . ولذلك تمنى الحافظ الذهبي لو لم يكن ألف هذا الكتاب

وأما الامام ابن القيم فلا يعرف مكانته وعلو قدمه في التصوف الا من اطلع

على كتابه مدارج السالكين . وأما علمه بالسنة وسائر العلوم الاسلاميةفهو فيه أشهر من علم ، وكتابه هذا هو الذي حرر علم التصوف ونقاه من دسائس ملاحدة الباطنية وغيرهم ، وحكم فيه كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف الصالح . فهو غاية الغايات في هذا الباب ، لانعرف كتابا غيره ندل عليه من يريد هذا العلم علما إسلاميا ليس فيه بدع ولا عقائد زائغة ، الا ان تذكر لتدحض شبهتها ، وتدمغ جبهتها

مكان صاحب الترجمة من التصوف

بينا في أول الفصل ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ربي تربية صوفية، وانه كان صوفيا حفيا خفيا ، وأنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يؤتاه المرء من ثمرات التصوف، وأن يكون مع الناس فيما يشاركهم فيه من الصفات والاحوال . وكذلك كان : كان مع الحكماء حكيما ، ومع الفقهاء فقيها ، ومع الادباء أديبا ، ومع المؤرخين مؤرخا ، ومع رجال الادارة والقضاء اداريا كاملا ، وقاضيا عادلا — وكان يخاطب كل قوم وكل فرد بقدر ما يراه من استعداده ، مع التزام الصدق واستقلال الرأي

ولما كان وجود الصوفية في هذا العصر أندر من الكبريت الاحمر كانت مكانة الشيخ في التصوف مجهولة حتى عند أصدقائه وتلاميذه ، ولا أعرف أحدا من أهل هذه البلاد كان يزوره ليذاكره في علم التصوف وأحواله الا أحد شيوخ الطريق المعتقدين في الصعيد وهو الشيخ أبو شروقاوي رحمه الله تعالى . كان لهذا الشيخ تلاميذ يعتقدون أنه من أولياء الله تعالى، ومنهم من هو سيء الاعتقاد أو الظن بالشيخ الذي كان شيخهم يسأله عن دقائق التصوف و يستفيد منه

ولولا أن سبق لمؤلف هذا الكتاب اشتغال بسلوك طريق التصوف وعناية بمطالعة كتبه لما أمكن أن أعرف من صاحب الترجمة ما عرفت من أمره فيه شيئا لانه كان نكرة لا تتعرف كما قلت في أول الفصل. وقد أخبرني أن كتاب الفتوحات المكية عنده كتاريخ ابن الاثير لا يقف فهمه في شيء منه

وقد بدا لي الآن ان أبدي شيئا مما كنت عازما على إخفائه من معنى قوله : مازجّ أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر

ويخرجه منه وذلك قليل . فأقول :

ان كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع في عالم الخيال ، ومن آثار ذلك ان يرى في اليقظة (الطبعية لا ما تسميه الصوفية اليقظة) ما لا وجود له في الخارج ويسمع من نفسه تارة ومن الارواح التي تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما انه لا يمكن للرجال ان يعبروا للاطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، وينبع هذه الاحوال تخيلات وأوهام كثيرة ، يجد لها صاحبها لذة عظيمة، يحتقر في جنبها ما سواها ، فلا يسمع فيها عذل عاذل ، ولا رأي عاقل ، ولا فتوى فقيه ، ولا برهان متكلم أو حكيم . ولكنه قد يقبل كلام من يرى انه فوقه في أحواله وأعماله ، وأنى لغريق خياله بانقاذ غريق خياله ؟ بل ما كل من غرق ثم نجا يقدر على إنقاذ الغرقى ، وانما تكون النجاة من هذا الغرق بقوة واستعداد من الغريق ، وقوة واستعداد آخرين من المنقذ ، وقلما يتفق اجتماع الامرين ، كما اتفق ذلك للشيخين — الاستاذ الامام والسيد الحكيم — قدس الله أرواحهما

ومن لم يتح له هذا التوفيق يفتتن بهذه الحال أو بذلك الخيال ، ويغتر به ويرى انه مستغن به عن جميع العلوم الدينية والدنيوية التي فرضها الله على العباد ، اذ جعلها مدار صلاح أمور المعاش والمعاد ، فاذا اقترن بذلك ما يقع كثيرا من المكاشفات ، أو التأثير بقوة الارادة في شفاء بعض الامراض ، أو حمل بعض الناس على أعمال ما كان ينتظر ان يعملوها لولا ذلك التأثير ، وغير ذلك من الامور الغريبة التي يسمونها كرامات ، فحينئذ يكون من يقع له ذلك فتنة لنفسه ولغيره ، فيغلو فيه من يرى ذلك منه ، أو يروى له عنه ، حتى ان من الغالين من يعدلون هؤلاء الناس بربهم ، ويجعلونهم شركاء له في التصرف بهم وبغيرهم ، بل يدعونهم حتى عند الشدائد من دونه ، ويقدمون كلامهم على كلامه وكلام رسوله ، فاذا كان لاحدهم أو لاحد رجال طريقته حزب أو ورد اتخذوا قراءته شعارا من شعائر الاسلام ، وهجروا لقراءته تلاوة القرآن ، ومنهم من يواظب على الورد ويترك الصلاة ، واذا نسبت الى أحد

منهم بدعة ، قدموها على ما اتفق عليه المحدثون من السنة ، فيصدق عليهم بذلك ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بأنهم اتبعوهم في مسائل الحلال والحرام ، وكذا فيما زادوا في الدين من العبادات

ومن رضي أن يرى نفسه إماما متبوعا ، وشارعا مطاعا، جدير بأن تعظم فتنته ، ويرسخ غروره ، وقد يتوهم انه على هدى من ربه ، وان من ينكر بدعه من علماء الشرع محجوب بقشور الدين عن لبه ، فيكون من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا . ولكن منهم من يتخذ إلها معبودا ، وربا مقصودا ، وشارعا مطاعا ، وهو لا يدري ، واذ درى لا يرضى

ومن دون هؤلاء من ينتحل لنفسه مقام شيوخ الطريقة ، وهو لم يعرف للسلوك معنى، ولم يذق للتصوف طعما، ولم يعقل له حدا ولا رسما ، انما قصارى أمره فيه أن يرأس زعنفة من الغوغاء ، على اللغط والصياح بما يسمونه الاذكار والاوراد ، ثم انه يُدَّعى له مقامات العارفين ، وكرامات الصالحين ، فيخادع العوام الغافلين ، بتخييلات السحرة وحيل المشعوذين ، ويخترع لهم من الرؤى المنامية ، ما هو عندهم أهدى من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية ، فاذا مثل له الهوس في أحلامه ، بعض ما يشغله في عامة لياليه وأيامه ، فقد يلبس على نفسه ما كان يلبسه على الناس ، ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس

فهؤلاء يعيشون في عالم خيالي ، وأولئك يعيشون في عالم خيالي ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والحدادين — كما يقول في أمثاله الغزالي — بل هؤلاء من الشياطين، وأولئك من الصالحين غير الكاملين ، فهم بغرورهم بما هم فيه والاستغناء به عن علوم السنة والفقه الصحيح والعلوم والفنون التي تمتاز بها الملة وذم ذلك واحتقار أهله كبعض غلاة علم الكلام وعلم الاحكام الذين يفضلون جدلهم وحيلهم التي يسمونها شرعية على كل شيء ويحتقرون في سبيلها كل شيء

ان المنتسبين الى طرق الصوفية في هذا العصر ألوف الالوف، ولكنهم هبطوا الى اسفل سافلين ، فقلما يصلح احد منهم أن يعد ممن سماهم ابن تيمية صوفية الرسم

دع صوفية الارزاق الذين فوقهم ، دع صوفية الحقائق الذين كلامنا فيهم

طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين في إصلاح شأن المنتمين الى طرق الصوفية ، و إنقاذهم من خيالاتهم الفاسدة و بدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم من جحر الضب الذي دخلوه وهم لا يشعرون — فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا ، ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ كان أول إصلاح سعيت اليه أن حاولت إقناع شيخ مشايخ طرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكري بالقيام بهذا الاصلاح، كلمته بذلك قبل إصداري (المنار) ثم مازلت الح عليه في ذلك وهو يسوّف مع الاستحسان حتى عمد الى ذلك بوضع لائحة رسمية ولائحة داخلية ، ثم وضع كتابا في الاخلاق والآداب، على انه سألني عن رأيي في ذلك فقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والاخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق كلها ، ثم علمت بعد طول السعي ان ما حاولت من الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحي يكاد يكون من محالات العادات[1]

وقد جرت المذاكرة في ذلك مرة بيني وبين صديقي السيد عبد الرحمن الكواكبي — وكان يرى أن إصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال — فقلت أرأيت إذا اقنعنا بعض إخواننا الصادقين في حب الاصلاح ، العالمين بطرق الارشاد ، بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة ، ألا يستطيعون ان يقفوا بعامة أهل طريقتهم عند حدود السنة ، ويربّوا طائفة من المريدين تربية جديدة؟ فقال إننا جربنا ذلك فأقنعنا رجلا من أمثل هؤلاء الذين تعنيهم بنحو مما ذكرت ، فكان عاقبة أمره معهم ، ان أفسدوه ولم يصلحهم ، فأنس بهذه الرياسة وآثرها ، فخسرناه بها

---

(١) مما يعد من عجائب مصر أن مشيخة التصوف فيها منصب رسمي يورث كالمال ، فامير البلاد يقلد بعض الوجهاء منصب (شيخ مشايخ الطرق الصوفية) وهو منصب محصور منذ عهد بعيد في بيت البكري من بيوتات مصر ، وشيخ المشايخ يقلد مشيخة أكثر الطرق المشهورة في هذا القطر من يرثها عن أبيه أو غيره، ولهم عادات وتقاليد في ذلك لا غرض لنا في شرحها

فعلم بهذا كله ان للحياة الخيالية التي يعيش بها هؤلاء الناس لذة عظيمة سواء كان الخيال فيها عاليا أم سافلا ، ولذلك كان اصلاح شأنهم عسرا جدا ، ولن يقوم به الا من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والاخلاص وقوة التأثير بالكلام و بالارادة، وهيهات ان يتفق وجود افراد من هؤلاء اتفاقا ، وانما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد ؛ وكثيرا ما يكون لهذا الواحد من الصوارف ما يحول دون التصدي لهذا الاصلاح، فيجب على المسلمين السعي لتربية طائفة منهم، وقد كان الاستاذ الامام من اولئك الافراد القادرين على هذا الارشاد لو تصدوا له ، ولكن صرف عنه حتى كان أكثر الناس يظنون انه ليس منه في ورد ولاصدر ، وطالما كانت نفسه تتوق اليه ؛ قال لي مرة : اذا يئست من اصلاح الازهر فانني انتقي عشرة من طلبة العلم واجعل لهم مكانا عندي في عين شمس أربيهم فيه تربية صوفية مع إكمال تعليمهم وأستعين بك على ذلك . وكان اقترح مثل هذا الاقتراح على السيد جمال الدين ايام كانا ينشئان العروة الوثقى في باريس ، وسيأتي بيان ذلك

ولو تم للاستاذ هذا على الوجه الذي يريده لكان أعظم أعماله فائدة ، وما كان يحول دون تمامه الا تعسر الاهتداء الى عشرة من المريدين المستعدين لهذه التربية ، فان أوبئة فساد الفطر والاخلاق وضعف الارادات والعزائم لم يكد يسلم منها الا الافراد الذين يعز الاهتداء اليهم بالسعي ، وإنما يعرف منهم من يعرف بالاتفاق والمصادفة غالبا. على ان تلك الروح الملية ، والارادة القوية جديرتان بتحويل الطباع ، وتبديل الاوضاع

الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية

وهو ماقبل النفي

يتألف هذا الفصل من تمهيد في نتيجة تربية صاحب الترجمة وتعلمه ، خمسة مقاصد —١— تدريسه في الازهر —٢— تدريسه في مدارس الحكومة —٣— عمله في ادارة الحكومة —٤— عمله في نظارة المعارف —٥— سيرته في الثورة العرابية

تمهيد في حظه مما يكون به الرجل عظيما لو سأل سائل: أي الرجال أعظم في الامة وأفضل؟ — لاختلف الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم، فهذا يقول أعظمهم العالم وذاك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح، فينبري رابع قائلا بل القائد الفاتح ، ويخالفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي الحاذق ، ويقول آخرون أقوالا أخرى . واذا رجعت بالجميع الى البرهان رأيتهم يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع الامة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا ، وهؤلاء قلما تجود الاجيال بواحد منهم على كثرة العلماء والصلحاء والقواد والسياسيين في كل زمان

انما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطري لايأتي بالكسب وهو الاستعداد الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج ، وحسن الوراثة للوالدين والاجداد . وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الاستاذ الامام لكل أمر عظيما حتى كان استعداده هو الاصل في تربيته وتعليمه . فقد علمت مما مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لايفهمها ولم يعرف هذا

عن غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكيائهم الذين استفادوا بعد العناء، فصاروا من كبار العلماء ، فقد كانوا يصبرون على مالا يفهمون زمنا طويلا، واذا حفظ أحدهم شيئا بالتكرار ظن ان هذا فهم وعلم، ولاسيا اذا حفظ تفسير المتن من شرحه وحاشيته . ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها ، و يوقن أو يرجح أن الحكم فيها كذا ، ولذلك أسرع اليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات . وكان يقول ان حضور كتب العلوم العربية على طريقتهم قد أضر بذهنه وعقله، وانه ظل يكنس ذهنه و ينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة . وقد أعجبته طريقة السيد جمال الدين فانه كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للافهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقها عليها فان انطبقت والا أبان مافيها من التقصير، أو يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقرّه أو يفنده ويجزم بغيره . وبهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل ولا يرضى بمجرد فهم المراد مع التسليم لمؤلف الكتاب ، فالذي امتاز به صاحب الترجمة على اخوانه الازهريين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئا لا يفهمه ، وفي نهايته لم يرض بما يفهمه الا بعد أن ينتشر فيه الدليل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداولة في الازهر بل كان من أوائل عهده بطلب العلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما يزيده كمالا في نفسه ، ويعينه على رفع شأن ملته وأمته ، ولو انه تعلم في حداثته على طريقة قويمة كما تعلم النابغون من حكماء أوربة وعلمائهم في المدارس النظامية ولم يضيع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية الملتوية ـ لرأينا من آياته العلمية أضعاف ما رأينا ، على ان ما رأيناه يكاد يكون من الخوارق، فانه لم يكن يتكلم في علم الا وتراه صاحب القدح المعلى فيه حتى كأنه هو الواضع له ، فمن شاء أن يقتدي بطريقته المثلى من الازهريين وغيرهم فليفعل عسى أن يكون من المفلحين

وأما تربيته النفسية فقد علم مما تقدم آنفا انه تربى على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات وسلم من أوهامها الخالية حتى ملك نفسه وكملت أخلاقه وصار الدين وجدانا له، فكمل دينه بالجمع بين صحة الوجدان وقوة البرهان . وأهم ما اتفق له تربية الارادة أي ملكة العزيمة والاقدام، فقد كان فيها نسيج وحده في أمته،

وسيأتي بيان ذلك في الكلام على أخلاقه .

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل أن يصير مدرسا رسميا فبدأ باحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجه وجهه الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك، فاشتغل بها معه مدة ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في إحياء لغة الامة واصلاح نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع. وسيعلم القارئ من هذا الكتاب كيف تنقل في ذلك من حال الى حال حتى كان بدء عمله التعليم في الازهر وخاتمته التعليم في الازهر

المقصد الاول

تدريسه وبدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ لطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بحاشية العطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر، فكثر سواد المجتمعين عليه، وكان يدعوهم الى مطالعة مالم يعودوا من الفنون والكتب، ويفتح لهم أبواب المذاكرة والمناقشة ليلا، فكانوا يطالون الليل ولا يشعرون بطوله، وفتن الاذكياء بحسن بيانه ودقة فهمه. وحسده أناس منهم فخذلوا عليه قلب الشيخ عليش فكان ما كان من أمره معه، اذ ذهب ابن للشيخ عليش مع ناس آخر فقالوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية ، وقد رجح في درسه أمس مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ، وكان الشيخ عليش رحمه الله أذنا يصدق كل ما سمع، وكان شديد الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب، فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته، فأرسل الى الفقيد فجاءه وهو يقرأ الدرس في المسجد الحسيني ، فقال الشيخ عليش : بلغني أنك تقرأ شرح العقائد النسفيـة درسا، قال: نعم، قال الشيخ عليش وبلغني أنك

رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ! قال : اذا كنت أترك تقليد الاشعري فلماذا اقلد المعتزلي ؟ إذاً أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل، قال الشيخ عليش: أخبرني الثقة بذلك، قال:هلم الثقة الذي يشهد بذلك فايميز امامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت،قال الشيخ عليش: أومثلك يفهم شرح العقائد؟ قال: الكتاب حاضر وأنا حاضر فسلني ان شئت . فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عليش المهيب، وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته، وأخذ عمامته عن رأسه، ولغط الحاضرون، فتركهم الفقيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه . فقال أناس ان الشيخ عليشا ضربه، وقال آخرون انه منعه من الدرس. وكثرت الاشاعات والاقوال والرؤى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين . والحق أن ما ذكرناه هو كل ماحصل ، وأن الفقيد لم يمتنع من قراءة الدرس ، وقد اشيع ان الشيخ عليشا لا بد ان يمنعه من الدرس بالقوة ، واشتهر انه ترك قراءة الدرس في مسجد محمد بك أبي الذهب وأتمه في بيته . وقد حدثني انه لم يترك الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بعكازه فله هذه العصا . وكان من الشجاعة على ما يعهد عارفوه، كما سنبين ذلك في الكلام على أخلاقه .

أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها ، بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام رحمهما الله تعالى حتى عدوا حبس الاستاذ في امر الثورة العرابية كرامة للشيخ عليش ولم يعدوا حبس عليش كرامة له . وسنعقد فصلاخاصا في هذا الجزء نبين فيه انه لم يسلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن، وأنه من مناقب حكيمينا قدس الله روحهما ، وان الذين يتشفون بمثل هذا الخوض من الاعداء والحاسدين ومن يقلدهم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه وسعوا في ازالته

نعم ان ذلك الخوض والتقول مما نزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا ننكر أن تأثيره السيء وقع على الامة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين الذين لم يحترم الناس من عقلاء الامة الاسلامية ولا من الاجانب أحداً في هذا

العصر من أهل المشرق كاحترامهم اياهما — ذلك انه كان عقبة في سبيل اصلاحهما واستفادة الامة منهما ، وهما مأجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما ، وبذلهما جهد المستطاع في خدمة أمتهما وملتهما . وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الازهر لولا عدل الشيخ العباسي وإنصافه

ثم ان دروسه في الازهر كانت بناء جديدا للعقائد على أساس البراهين القطعية ، وتجديدا لما يلي من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الازهر واسعة جدا تحيط بأعمدة كثيرة ، وكان يقرأ في بيته درسا في الاخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين : قرأ في ذلك كتاب (تهذيب الاخلاق) لابن مسكويه الرازي فكان ذلك سبب طبعه المرة الاولى . وقرأ كتاب (كيزو) في السياسة ولا أدري أتمه أم لا

شعر الازهر بشيء جديد يتجلى في تلك الدروس ، فهابها كثيرون ، كما أقبل عليها كثيرون ، وحسد الفقيد عليه بعض الشيوخ فكانوا يصدون تلاميذهم عنه ، حدثني صديقنا حفني بك ناصف أنه ما أقدم على حضور درسه في الازهر الا على سبيل الاكتشاف ، مع مراعاة الحذر والاحتراس ، وانما اكتشف بتلك التجربة كنزا من التبر ، وغاص في بحر جنى منه أنفس الدر ، فترك له ما كان يلهو به من الخزف ، أو يخطف بصره من بريق الصدف ، وتبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه .

هذا ماكان من أمر الفقيد فى الطور الاول من حياته العملية ، وهو وضع جرثومة الاصلاح فى الازهر ، وقد بقي هذا همه الاكبر طول حياته فكان المبدأ والختام ، وسيأتي تفصيل ما عمله في الازهر في أواخر أيامه

المقصد الثاني

تدريسه في مدارس الحكومة

عين الفقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم، وللعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية، فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

في الجامع الازهر، فبدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وانما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ، فكان يطبق مافيها من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمته، ويبين أسباب ضعفها، والوسائل التي تذهب به وتعيد اليها ما فقدت من عزها ومجدها . وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شان أمته، لان هذه الافكار لم تكن معهودة في هذه البلاد، فلا تذكر في المدارس ولا في الجرائد المنتشرة في أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكام لا حقوق لهم عليهم وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ماقاله ابن خلدون واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع في هذا العصر من أحكام العمران في العصور الغابرة

وكان في مدرسة الألسن آية البيان في احياء اللغة العربية وا شراع الطريق اللاحب في التعليم ، والخروج بالطلاب من مأزق العهد القديم

وما نبغ من نبغ من تلاميذ السيد وتلاميذ الشيخ الا لانه كان يقصد بتربيتهم وتعليمهم ايجاد نابتة من المصريين تحيي اللغة العربية ، والعلوم الاسلامية ، وتقيم عوج الحكومة ، اذ كانت قد رثت ووهت، ووقعت في النزع أو أوشكت . عظم فيها سلطان الاجانب ، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب ، فمنيت الامة بالمتربة والمسغبة ، وضربت عليها الذلة والمسكنة ، ذلك بما أسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس ، وتعذيب الاجساد واذلال النفوس ، وقد حدثني بعضهم أنهم عند ما كانوا يحضرون دروس الشيخ ومجالس السيد يشعرون بأن في استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم ، وأنهم اذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها في أقرب وقت ، وقد كان السيد مهد السبيل لهذا الإصلاح باتصاله بتوفيق باشا ولي عهد الخديوية المصرية ، وإقناعه إياه بما يجب أن تكون عليه الحكومة اذا آل أمرها اليه، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة السيد رحمه الله

ظهرت آثار روح الشيخين في أعمال تلاميذهما فكان منهم أرقى القضاة

الاهليين والمحامين وأساتذة المدارس العالية ، ومن أشهرهم سعد زغلول ، وابراهيم اللقاني ، وحفني ناصف ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد

المقصد الثالث

عمله في ادارة المطبوعات والجريدة الرسمية

في أواسط سنة ١٢٩٧ توجهت عناية رياض باشا الى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوبا فيها من الناس فاستشار الشيخ حسيناً المرصفي ومحمود باشا سامي البارودي كلا على حدته فأشارا برأي واحد كأنهما تواصيا به وهو جعل الشيخ محمد عبده محرراً فيها أولا ففعل بعد أن استرضى توفيق باشا فصدر الامر العالي بتعيينه محرراً ثالثا وانتظر رياض باشا مدة من الزمن فلم ير تغييراً يذكر فطلب الفقيد وسأله عن ذلك فقال ان أمر الجريدة ليس إلي وانما أنا أحد المحررين ان طلب مني شيء كتبته وإلا فلا.

ثم ان رياض باشا كتب من الاسكندرية يأمر قلم المطبوعات في مصر بان يكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وأن تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد فخاض كتاب الجريدة وحاروا فلم يدروا ما يكتبون ثم اهتدوا السبيل فأرسلوا الى صاحب الترجمة من أحضره من الازهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها في مجلسه ونشرت فلما قرأها رياض باشا أعجب بها أشد الاعجاب وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الازهر شاب واقف على تاريخ المالية في مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه. ويقول بعض مريدي الاستاذ ان رياض باشا طلبه وكلفه كتابة تلك المقالة في بيان الغرض من قانون التصفية وفائدته للبلاد وأما الرواية الاولى فقد سمعتها من الفقيد ولعلهما واقعتان لمقالتين .

وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة اذ علم انه ابو عذرتها، والمنفذ لما يرجو من ترقيتها، فبين له رأيه في تقرير ضاف فأمر بان

تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، وأن توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك ، وعين الفقيد رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية وسمي « المحرر الاول» لها ، فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبدالكريم سلمان والشيخ سعد زغلول (هو سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ ابراهيم الهلباوي (هو ابراهيم بك المحامي الشهير الآن) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا قد برعوا في الكتابة معه على يد السيد .

ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان مالم يخطر على قلب بشر ، وهو ان رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيمناً على الحكومة والامة ، ينتقد الاعمال والاقوال، وينتقل بالناس من حال الى حال

وضع لائحة لقلم المطبوعات أو الجريدة الرسمية اجازها وأنفذها رياض باشا فكان من احكامها ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها ومجالسها في العاصمة وغيرها مكلفة أن تكتب الى ادارة الجريدة مخبرة بما عملت وتمت وماشرعت فيه فلم تتمه، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج أحكامها، وأن لادارة الجريدة الحق في انتقاد كل ماتراه منتقداً من الاعمال ومن المكتوبات الرسمية، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في القطر المصري، وأن تبحث عن حقيقة ماتقوله في رجال الحكومة وأعمالها . وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ماترتاب ادارة المطبوعات فيه فان لها أن تسأل المصلحة أو الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية إن لم يكن ماذكر مسنداً الى النظارة وإلا سألتها هي مباشرة. فان كان حقاً مانشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية . وإن كان كذبا طولب مدير الجريدة باثباته وإلا أنذر . وكان من احكام قانون المطبوعات انه اذا تكرر إنذار جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها البتة أو الى الاجل الذي تراه الادارة

وكان من حق هذه الادارة أن تفصل في كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلا لاتجوز المناقشة فيه . وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية

أن يجعل فيها قسما غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعاً من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) ومن أحب أن يعرف قيمة هذه المقالات في ارشاد الامة والحكومة فليرجع الى ما نشرناه من مقالاتها في منشئات الاستاذ في الجزء الثاني من هذا التاريخ

ان في هذا لعبرة لاولي الالباب — صاحب عمامة أزهرية يدخل في حكومة مطاقة بعيدة في أعمالها عن رجال العلم والدين فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح لعمالها ما يلتبسون ويرشدهم الى اصلاح العمل فيما يعملون . ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الامة فيقوم من أخلاقها ، ويصلح ما فسد من عاداتها ، بالوعظ الصحيح ، والارشاد القويم . ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربيها على الصدق في القول ، ويجعل للصادق منها سلطانا نصيراً ، وتأثيراً مأثوراً ! يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرابيش ، وهابتها التيجان وعظمتها البرانيط . ونذكرها على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك العهد ان يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأرادوا الاستعانة عليه برياض باشا فأوهموه انه يميل الى لبس الطربوش ولكنه لا يلبسه إلا بأمره فسأله فظهر له أنه لا يرغب في ترك زيه وأنه اذا ألزمه ذلك الزاما فانه يمتثل مادام في عمل الحكومة . فاذا خرج من عمله عاد إلى عمامته فقال رياض باشا كلا إنني لا أرضى لك الطربوش لانني أحب ان يعلم الناس أنه يوجد تحت العمائم من العقول والافهام مثل ما يوجد تحت الطرابيش وغيرها فلله در رياض باشا وجزاه الله الخير فانه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له في أرض مصر وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في اول نشأته حتى إنه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد أن اجتهد اصحابها في انتقاء المحررين وقد أنذر الفقيد عامله الله تعالى باحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته

إذا لم يختر لها محرراً صحيح العبارة في مدة عينها فبادر ذلك المدير إلى الامتثال ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة في الجريدة الرسمية أن نبه شأن المجيدين ، وفتحت مدارس ليلية لتعليم المقصرين وتبرع تغمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر ، فالفضل فيها للسيد جمال الدين وللشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى

وأما انتقاده أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريها الحق والعدل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة ، وكل مديرية ومحافظة ، وقد ثقل على بعض المديرين انتقاد الجريدة اياه وأراد منعها من مديريته وراجع نظارة الداخلية في أمرها زاعما ان انتقاد أعماله يضع من قدر الحكومة في أعين الرعية ، فعادت عليه شكواه بضد ما أراد ، وعلم ان سلطة الجريدة الرسمية ، فوق سلطة المديرية

وقد عني الفقيد يومئذ بنفسه بانتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شر تمثيل ، فضاق ناظر المعارف لذلك العهد ذرعا ، فلاذ برياض باشا شاكيا من الجريدة الرسمية ، فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقا فلا وجه للشكوى منه ، وان كان باطلا فعليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها ، فانه لا يقصد بما يكتب فيها إلا المصلحة . فسكت الناظر واجما ، وكان ذلك سببا لما ترى في المقصد الرابع ، من المشروع في إصلاح نظارة المعارف

المقصد الرابع

(عمله في مجلس المعارف الاعلى)

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر الفقيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فأشار أولا بان يستبدل بناظر المعارف ناظرا آخر أقدر منه على الاصلاح المطلوب ، فقال له الوزير إن الوزارة متكافلة لا تستطيع ان تفتح للخديو باب التغيير والتبديل فيها ، فعرض عليه حينئذ ان يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذا لما يقرره فأنفذ ذلك رياض باشا باستصدار الامر العالي الآتي

وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقتراحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يعارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما .

صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وهذا نص الامر العالي به وما كتبه ناظر المعارف الى صاحب الترجمة في ذيله نقل من الاصل الرسمي المختوم بختم الناظر وهو :

ترجمة

أمر عالي (؟)

نحن خديوي مصر

بناء على ما رفعه لنا ناظر المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس نظارنا أمرنا هو آت :

بند — ١

قد تشكل تحت رئاسة ناظر المعارف مجلس أعلى للمعارف العمومية مركب على الوجه الآتي:

علي مبارك باشا	ناظر الاشغال العمومية
حسين (فخري) باشا	ناظر الحقانية
موسيو موني	مدير وكوميسارى صندوق الدين العمومي
موسيو ليرونه ديرول	باشكاتب عموم التفتيش العام
استونه باشا	رئيس عموم أركان حرب
عبدالله باشا فكري	وكيل نظارة المعارف العمومية
لارمي باشا	ناظر المدارس الحربية
الدكتور سالم باشا سالم	رئيس مجلس الصحة العمومية
جاليار دو بك	ناظر مدرسة الطب

مسيو جاستون ماسبيرو	ناظر دار الآثار القديمة (الانتقخانة) ومدير عمليات الحفر والبحث في جوف الارض
موسيو موجيل	ناظر مدرسة المعلمين
اسماعيل بك الفلكي	ناظر مندرسة المهندسخانة
روجرس بك	ناظر قلم الاملاك الميرية المعروضة للبيع
فيدال بك	ناظر مدرسة الادارة
جيجون بك	ناظر مدرسة العمليات
اسبيتا بك	ناظر الكتبخانة الاهلية
موسيو مونتان	ناظر دروس المدرسة العالية
صادق بك شنن	ناظر مدرسة التجهيزية
الدكتور عثمان بك غالب	وكيل مدرسة الطب
الشيخ حسين المرصفي	خوجه بمدرسة المعلمين
الشيخ محمد عبده	محرر أول الصحيفة العربية الرسمية
الشيخ زين المرصفي	عالم
الشيخ حسونه	خوجه بمدرسة الادارة
موسيو بارنار	خوجه بمدرسة الالسن

بند — ٢

يعطي المجلس المذكور رأيه في المواد الآتية :

أولا في مشروعات القوانين واللوائح المختصة بالتعليم وخصوصا في جداول مواد التعليم بالمدارس الميرية

ثانياً فيما يتعلق بانشاء مدارس جديدة

ثالثا فيما يختص بتوزيع مايعطى من النقود على سبيل الاعانة والتشويق للمدارس الغير ميرية

رابعا فيما يتعلق بكتب التعليم التي تستعمل في المدارس الميرية

خامساً في جميع المسائل المختصة بضبط وربط المدارس الميرية وحساباتها وادارتها

سادسا في المسائل المتعلقة بحقوق وترقي المعلمين

سابعا في غير ماذكر من جميع المسائل التي يقدمها له ناظر المعارف العمومية

بند — ٣

على ناظر المعارف أن يقدم في كل سنة للمجلس الاعلى صورة ميزانية المعارف العمومية عن السنة التالية وعند تقديم هذه الميزانية لمجلس النظار ينبغي أن تكون مصحوبة بما يبديه المجلس الاعلى من الملحوظات فيها بعد نظره اياها

بند — ٤

يجوز المجلس الاعلى أن ينتدب واحداً أوأكثر من أعضائه إمالتحقيق المواد التي تعرض عليه أو لتفتيش على المدارس الميرية أو المدارس الغير ميرية المربوط لها مرتبات على سبيل الاعانة من طرف الحكومة

بند — ٥

على المجلس الاعلى أن يحرر وينشر في آخر كل سنة تقريراً عن حالة التعليم في المدارس الميرية

بند — ٦

ينعقد المجلس المذكور بناء على طلب ناظر المعارف العمومية ويكون انعقاده مرة واحدة بالاقل في كل شهر ماعدا في مدة البطالة (؟)

بند — ٧

لاتكون مداولات المجلس المذكور صحيحة ومعتبرة الا اذا كان حاضراً به تسعة من أعضائه لأقل وتكون قرارته بأغلبية الآراء

بند — ٨

على ناظر المعارف تنفيذ أمرنا هذا

صدر بسراي عابدين في ٢٨ مارث سنة ٨١ — ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨

بامر الحضرة الفخيمة الخديوية الامضاء (محمد توفيق)

رئيس مجلس النظار

الامضاء (رياض)

ناظر المعارف

(الامضاء على ابراهيم)

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده

المسطر بهذا ترجمة الامر الكريم (١) الصادر بتشكيل مجلس أعلى للمعارف وحيث ان حضرتكم من ضمن أعضاء المجلس المذكور فلزم تحريره للمعلومية بما اشتمل عليه الامر والحضور لديوان المعارف الساعة ٩ افرنجي صباحا في يوم الخميس الموافق ١٥ جا سنة ٩٨ حيث سيكون انعقاد اول جلسة في اليوم المذكور؟ ١١ جا سنة ١٢٩٨

نمرة ٣٦٠/٣٥ ناظر معارف الختم

هذا نص ما بلغه صاحب الترجمة بحروفه ، وخاتم ناظر المعارف منقوش فيه قوله تعالى (والله غالب على أمره) لا اسمه — ويرى القارئ ان الاعضاء الاوربيين أكثر من الوطنيين في هذا المجلس

في هذا المجلس تألفت للنظر في اصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس جعل الفقيد الكاتب العربي لجلساتها وكان له فيها الاراء الصحيحة والحجج القيمة على ما يطلب من الاصلاح

اذكر من اقتراحاته شيئاً سمعته منه ولا ادعي أنني أحطت بتفصيله كل الاحاطة وهو أنه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مبلغا عظيما من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد ، فهش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق عليه الآخرون الذين عرفوا ما يرمي اليه المقترح فتقرر بأكثر الآراء . ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشو النظارة في نظام التعليم وسيره فيها فهش الاعضاء الوطنيون لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب ، فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الاوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها اعانة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة ان تعلم أنها لا تضيع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض

١) قرارات مجلس النظار المصري تصدر باللغة الفرنسية الى الآن وتدون بها وتترجم بالعربية

الآن في هذا الاقتراح لاننا نعلم أن المعارف في مصر منحطة وانما اجتمعنا لترقيتها، وأرباب المدارس الاجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح الادنى للاشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيد رحمه الله تعالى للمعترض : كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقك الاوربيون المرتقون من أعضاء مجلس المعارف المصري ، على انه اذا كان الطلب في نفســه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لان المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية. فان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لاينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربة العالية يصلحون لتفتيش المدارس الاجنبية: فنهضت حجته وتقرر اقتراحه. وانها لأمنية كان يتلخر على ذكرها السلطان والامير ، ويسيل لتوهمها لعاب الناظر والوزير ، ولكن تقف دونها الآمال حسرى، وتنحني أمامها العقول حيرى ، وتكبو في غاياتها جياد السياسة ، ويصغر عن الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم تسمو اليها تلك الهمة ، وتستنزلها من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك العضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ماكان لهم في ذلك الزمان، من النفوذ والسلطان، فكيف لوكان ذا منصب أعلى، ونفوذ أقوى؟

المقصد الخامس

﴿ عمله ورأيه في الثورة العرابية ﴾

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر إمارة اسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض — ظلمة الجور والظلم ، وظلمة الفقر والفاقة ، وظلمة الشرور وفساد الاخلاق، والآداب ، وظلمة تحكم الاجانب وسيطرتهم على الحكومة بحجة المراقبة المالية لما لهم من الديون على اسماعيل باشا، وظلمة سلطتهم على الرعية التي أغرقوها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى ، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر فنفخ

الشيخ عليش نفخة أخمدتها ولكنها ما أطفأتها، ثم كان هـذا النور يظهر في معاهد خاصة فتعشو اليـه الابصار، ويسير في ضوءه من سار، حتى أشرق وتلألأ في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ما كان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأميرهم الجديد (توفيق باشا) لعفته عن أموالهم، ورغبته في اصلاح حالهم، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم، وطائر الشر قد وقع، اذ هب ضباط الجيش من المصريين يطالبون بحقوقهم، وأيديهم على مقابض سيوفهم، وتلك هي ما يسمونه بالثورة العرابية

كان استاذنا في أول أمر هذه الثورة كارهاً لها منددا بزعمائها وهو بينهم، لانه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه، وكل اصلاح تعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للاجانب سبيل الاستيلاء على البلاد، بل كان هو واستاذه يتوقعان ذلك من سيرة اسماعيل باشا، وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد، وحاول ان يحول دون ما يخشى ويتوقع بالسعي في الاصلاح، فليس قولنا عن استاذنا أنه كان لا يجهل خطر الثورة من الدعوى أو الرجم بالغيب، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان .

كان ينتقد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في أنديتهم وسمّارهم وبالكتابة في الجريدة الرسمية، حتى أرسل اليـه عرابي مرة من يتهدده ويقول انك أهنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورؤسائه. أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما اذ هما لم يخرجا، حتى صار عرابي وأعوانه ينفضون من المجلس الذي يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستبداد والحرية، والحكومة المطلقة والحكومة النيابية الدستورية، واتفقوا على أن الامن على الارواح والاموال، وصعود الامة في مراقي الكمال، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه، وأدركها إبانه، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال

يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح، ومنه تعويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها إياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات . وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بما له قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد . فطفق عرابي يجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية، وكان مما احتج به الفقيد عليهما أن الامة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤونها لما كان اطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصويرا لاستعداد الامة ومطلبها، ويخشى ان يجر هذا الشغب على البلاد احتلالا أجنبيا يسجل على مسببه اللعنة الى يوم القيامة .

عند ذلك أبدى المجادل نواجذه لغير تبسم ، وقال أرجو أن لا أستحق هذه اللعنة، وليس الجند هو الذي يطالب بمجلس النواب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهائها ؛ ثم أسرّ الى الاستاذ أن سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب .

وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد سنة ١٣١٩) ردا على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العرابية نذكره هنا وهو

« عرّض هذا الانفجاني المتدفق بذكر الفتنة العرابية ويا ليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف فاذا أحب فليسأل العارفين ، وليراجع كتابة الكاتبين ، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين . يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي وتهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتعد فرائص قصر الخديوية من عرابي ، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره. ثم تظهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العرابية عند ما ألزموه حضور مجتمعهم وان يقوم فيهم خطيبا .

« ماذا كان موضوع خطبته ؟

«كان موضوعها بيانا تاريخيا اجتماعيا ملخصه أن المعهود في سير الامم وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها والزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام، وانه لم يعهد في أمة من أمم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك، فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع؟ (قال) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الانساني، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك حبا بالعدالة والانسانية؟ أم تسيرون الى حيث لا تدرون؟ وتعملون ما لا تعلمون؟: وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينغضون رؤوسهم وعلا على أفهام الآخرين

«هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمع لرؤساء العرابيين ولو كانوا يعقلون لرجعوا به الى رشدهم، ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما تستعد الى الآن، ولهذا الاستاذ ان يتمثل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى

« ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى   ولكنها الاهواء عمت فأعمت» اه

هذا ما كتبناه في سنة ١٣١٩ ونزيد عليه الآن أن عرابي ورجاله حنقوا على الاستاذ وكاشفوا المرحوم السيد أحمد علي محمود والمرحوم ابراهيم افندي الوكيل وكانا من أعضاء مجلس النواب ومن أخص أصدقاء الاستاذ بما أضمروه له من السوء، فأعدا احتفالا في منزلها بقصر الشوك دعيا اليه كل ذي جاه ومقام ليصلحا ذات البين بين الفريقين، وتوالى الخطباء هنالك حتى جاء دور الاستاذ وقام ليعتذر عما مضى ففسر مقصده من الخطبة السابقة تفسيرا كان أسوأ تأثيرا في نفوس العرابيين مما كانوا نقموه منه وحنقوا عليه لاجله.

ولا يلتبس على القارئ معارضة الاستاذ الامام للعرابيين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد استاذه وأول من

تلقى ذلك عنه، فانه إنما كان يحاول أن يكون ذلك برضا الامير وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون في البداية من قبيل التمرين والتعويد، مقرونا بالتربية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها ، وتصل من طريق الحكمة الى رشدها ، وقد رأيت كيف كان التوسل اليه منه ، فيما رويناه لك عنه ، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالاصلاح عند مهب الفتنة ، و يلجأ الى قصر الامارة أو يتفيأ ظلال العزلة ، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصلحتين، وقد قال لعرابي مرارا كثيرة: عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطالب في بضع سنين ، ونهاه بعد ذلك عن محاربة الانكليز

انتهت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وألقوا في غيابة السجن ليحاكموا فيقتلوا تقتيلا، وجعل الفقيد منهم لأمرماء، وصدر الامر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي، وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم ، وكلفهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم، كل يكتب عن نفسه ، ولا يطعن في غيره ؛ فلم ير في كتابة أحدما تقوم به الحجة ، وتقمد به التهمة ، و يدل على الغوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الاسباب والنتائج . الا ما كتبه وما قاله الاستاذ الامام ، وقد زاد المحامي على بيان ذلك أن أشعره بالخفايا ، وأطلعه على ما في زوايا القصر من الخبايا ، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت . وأعطاه من المستندات ما يقلب وجه المسألة ، ولا ترضى اظهاره السياسة، فكان ذلك سببا لتخفيف الحكم ، ونسخ إعدام الزعماء بالنفي، فحكم على عرابي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدي وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين . وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل من المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه، ومزيدا في كمال علمه وتربيته، وسببا لنشر علمه في بلاد كثيرة، ذلك أنه كان من أهل الاخلاص والتقوى، فجعل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجا، بل بدله بالنقمة نعمة، والسيئة حسنة ، فكان مبدأ حياة جديدة له نبينها في الفصل الذي يلي هذا

هذا ما كنا كتبناه في المنار ونزيد عليه هنا ما يلي :

﴿ قصيدة الفقيد في الثورة العرابية ﴾

أصح الدلائل على رأي الانسان في أمر من الامور أو حدث من الاحداث وعلى موضع ذلك الشيء من شعوره ووجدانه ما يكتبه بشأنه في أثناء وقوعه ، وقد نظم صاحب الترجمة قصيدة في شأن هذه الثورة وهو في السجن صور فيها كل ماكان في دماغه وقلبه في ذلك الوقت، اذكانت نفثة مصدور، وشكوى مظلوم، وأماني مصلح لم يدر كنهه أهل زمنه ، فاتهموه بضد ماكان عليه في نفسه ، ولو كان فقيدنا من الشعراء ، أو استمال بقصيدته أمير البلاد أو أصحاب السلطة العسكرية فيها، أو اعتذر عن عمل عمله، لامكن لمن لم يعرف أخلاقه أن يقول إنه قال غير ما يعتقده ويشعر به لاستمالة أصحاب السلطة اليه، توسلا به للافراج عنه . ولكن القصيدة كما ترى ، وهو لم ينظم الشعر قبلها ولا بعدها، الا تلك الابيات التي قالها في مرض موته وقد سارت بها الركبان، وحفظها الالوف من الناس. وقد قال لي إذ أنشدني إياها اني قلت شعرا في هذه الايام كأنني لا أقول الشعر الا في المرض أو السجن (يشير الى هذه القصيدة)

وقعت لنا نسخة من هذه القصيدة فيها غلط وتحريف وتصحيف ، فما عرفنا أصله باليقين صححناه ، وما لم نعرف أصله تركناه ، وهي :

ما لي يعنّف قلبي من تفاضيهِ ... دَهرٌ يبالغ في عُجب وفي تيهِ
أبيتُ ليلي كملسوع تُساوره ... زُرْقُ الافاعي وقد شُدّت أياديه[1]
الجسم في ألم والروح في قلق ... والقلب في فزع من خوف آتيهِ
وما ذنوبي لدى دهري سوى شمم ... يأبى الدنايا وأفكار تضاهيهِ
سريت للمجد هَوْناً غير ذي عجل ... على أساس من التقوى أراعيهِ
مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه ... وشيمة الحر تأبى خفض أهليهِ

(١) الايادي جمع الايدي وهي جمع يد ، وأكثر ما تستعمل الايادي في النعم وصنائع المعروف ولعله يشير الى عجزه عنها في تلك الحال

وإذا أحسّ عداةُ الفضل مشيتنا — قاموا على قدم : هيّا نناويه [١]
فأوقفوني شهورا في مقاومة — نجوتُ منها بعزم هيب ماضيه
وازددت بسطة جاه لم يهنَّ بها [٢] — سوى مضيم ومظلوم أنجّيه
أنزلت نفسي مقاما لا يحفُّ به — الا الفضائلُ تعليه وتغليه
وقمت للحق أجلو من مطالعه — نوراً وكان غمام الظلم يخفيه
وأبرزَ الفكرُ كنزا من جواهره — وزيّن النطق باهيها بحاليه
وصحتُ بالظلم لا تطرق مغانينا — [رياض] راع وعتّلي من حواريه [٣]
فخرّ كلُّ غشوم واجفاً صعِقا — وارتجّ كل ظلوم خيفة «الهيه» [٤]
وكنت أسهرُ ليلي في مطالعة — ونشر در لتبيان أوفيه
أنعم به من سهاد كنت آلفه — وأبغض الشمس تُثني عن وصاليه
وكان لي أمل في وضع قاعدة — لكل نوع من الاعمال تحويه
ويؤخذ القوم طرا في مناهجهم — أن لا يجوروا عن المشروع أوفيه [٥]
حتى يكون نظاما كل سيرهم — بمقتضى الإنصاف مع فهم يزكيه
ويأخذَ العلم والتهذيب مأخذه — من النفوس فنزهو من دراريه
ويصبحَ العدل طبعا في جبلتنا — ويشهد الكون أنّا من مواليه
وتستقلّ بلادي في حكومتها — ونمنع الترك مفروضا نؤديه [٦]
ويشمل الخصب انحاها بجملتها — ويثريَ القطر قاصيه ودانيه

(١) أصله تناوئه بالهمز أي تفاديه (٢) أصل يهنأ (٣) حواريه بتشديد الياء أنصاره وخفف لضرورة الشعر (٤) هيه اسم صوت كان يردده رياض باشا دائما بغير قصد، وأدخل عليه حرف التعريف لقصد لفظه، والمعنى خوفا من ذلك الوزير
(٥) جار عنه عدل وانحرف وجار في الحكم وفي الامر ظلم أي بأن لا ينحرفوا عنه ولا يظلموا فيه (٦) قد كان موافقا لرجال الثورة في هذه المسألة

نقضي ديونا ونغشى من ينازعنا بصوت فضل يرجّ الكل داويه[1]
هذا سبيلي خبيت السير فيه على رغم الانوف من البُله المعاتيه
ما كنت أسعى لنفسي في مصالحها جزءا من الألف من سعي لانهيه[2]
وكنت أنجح قومي في مكالمة مع الرئيس لإخلاص بتنويهي
وتنهض العزم أقوالي ولا عجب شراب حق وروح الفضل ساقيه
أقاوم الصعب في سيري فأخضعه ولا حسام ولا رمح أرويه
وانما الفكر يغني نفس صاحبه عن الجيوش اذا صحت مباديه

*

وبينما أنا لاه في محادثتي مع المعالي أقول «الامر ما فيه»[3]
قامت عصابات جند في مدينتنا لعزل خير رئيس كنت راجيه
ذاك الذي أنعش الآمال غيرته وخلّص القطر فارتاحت أهاليه
قاموا عليه لأمر كان سيدهم يخفيه في نفسه والله مبديه
كان الرئيس حليف العدل منقبة[4] وسيد القوم يهوى الجور يأتيه
جرّوا مدافعهم صفوا عساكرهم نادوا بأجمعهم سل ما ترجيه
فنال ما نال وانفضت جموعهم[5] اما النظام فقد دكت مبانيه
ثعالبُ الشر هبت من مراقدها وأفسدت من قوام العدل باقيه
تفلّت الحكم من أيدٍ مدبّرة وصار فوضى شتيت الناس يجريه

(١) لعل البيت محرف (٢) الضمير راجع الى السبيل وهو يذكر ويؤنث (٣) هذه جملة محكية تستعمل في مصر عند إتمام الكلام وارادة الشروع في غيره (٤) الرئيس رياض باشا أي كان العدل منقبة راسخة فيه لا متكلفا (٥) أي نال سيد الجند عرابي ما نال من عزل رئيس الحكومة رياض باشا

مانوا أماني تبكيني وتضحكني ... حرية ونظام الشورى عاليه(١)
حديثهم صخب أسرارهم لجب ... لا عقل لا فهم أين النجح نبغيه ؟
أما سبيلي فقد سدت منازعه ... طبعا وعز صعودي في مراقيه
رجعت أجري على خوف لمبدئه ... أناد قومي تعالوا لا نعاديه
فعنفوني وراموا خفض منزلتي ... فقلت لا تعجلوا هذا مرائيه (؟)
وعجت أسأل ماذا في حقائبكم؟ ... هل ثم فكر وفكري لا يوافيه؟(٢)
هزوا الرءوس جوابا أي نعم معنا ... سياسة السيف فيها الفصل نقضيه
فولوات مهجتي حزنا على وطني ... وقلت (خطب) لعلي أن أجليه (٣)
وصغت من كلمي شمسا تكاشفهم ... هذا المصاب الذي حلت مرازيه
فأنكر الجهل ضوء الشمس ضاحية ... وظلمة الغي وارت ما تواريه
لووا رءوسهم عجبا بقوتهم ... واستكبروا النصح أن يصغوا الصافيه
مزجت بالهزل جدي عل يعجبهم ... كوالد الطفل يلهيه يرضيه
وأعجم القول طورا في مناصحتي ... كساحر أم مصروعا ليرقيه
وعند ماحقت البلوى أشرت لهم ... : هذا الخراب فمدوا قد باغيه
فلم يصيخوا وعجوا في محاضرهم ... قولا هراء بلا فعل يعاليه
ولم يزالوا حيارى في ترددهم ... حتى دهاهم أبو الهيجا بداهيه
وشب حربا صلاها من بني وطني ... من لا يهاب المنايا أن تغشيه
وسح كل غني ماء ثروته ... كما همى دمع عيني من أماقيه

(١) مانوا كذبوا والاماني جمع أمنية وهي ما يتمناه الانسان ويطلق على الكذب أي اختلقوا لانفسهم أماني زعموا انها مطالبهم وهي الحرية ونظام الشوري العالي في الاحكام. ولفظ الشورى مختلس فلا يعد لمراعاة الوزن (٢) أي لا يلاقيه ويحتمل أن يكون لا يواتيه (٣) كان موضع كلمة خطب بياضا ثم كتب فيه بقلم الرصاص كلمة (سال)

وعج كل فقيه في تضرعه كما تفطر قلبي من عواديه
والمسلمون وكل القبط في نهج مع اليهود كأن لا دين يأويه
نادوا بأجمعهم هذى مواطننا وطارق السوء فيها لا نخليه
وبينما الظفر معقود بوحدتهم مال الأمير لأمر كان ينويه
واستدبر الجيش واستدعى لحضرته زعيم عسكره يبلو مغازيه
وقال أقدم فلا حرب ولا حرب فليصرف الجيش فورا لا تبقيه
فرابه الريب وانهارت عزائمه إذ كان جيش العدا بالثغر ماليه
وخالف الأمر واستعصى بقوته ونصب الشر مولى القطر واليه
وصار جيش العدا جيشا لحاكمنا وقوة الملك تحمي وجه عاديه
فانحل عقد نظام كان ملتئما وبدد الرأي وهم كان يوهيه
هذا وهذا الى ما كان من دخل في أنفس من كبار الجند تطويه
وزاد في الضعف ضعفا أن قوتنا ناس يرى ضبطهم صعبا تلافيه
وقائد الجند شهم في مكالمة أشل قلبا إذ الهيجا تناديه (١)
يستطلع الرأي والتدبير في حلم من المنامات جل الله هاديه
ما كان أحسنه شيخا بزاوية يغشى النساء بوعظ كان يمليه
أما البلاد فواغمي لحالتها لم يبق فيها سوى أمر وتنبيه (٢)
واستنزفت طلبات الجند ثروتها واستأسد الذئب واشتدت عواديه

---

(١) يعني ان عرابي باشا كان شهماً أي ذكي الفؤاد عند الحديث ومكالمة الناس ولكنه جبان اذا نادته الهيجاء أي الحرب الى القتال يصاب قلبه بالشلل ، وفيما كتبه الناظم في أسباب الثورة ومذكراتها بيان لذلك مؤيد بالحوادث (٢) أي لم يبق فيها سوى أوامر الجند تنفذ بالقوة وندرهم التي يسمونها تنبيهات

حكام أريافها هاضوا بأجمعها واستفرغوا من فقار الظهر شوكيه (١)
مهاجرو الثغر زادوا في مصائبها قوم جياع وباع العقل شاريه (٢)
ماذا أحمّلُ نفسي في مداركتي هــذا البلاء بتخفيف يسرّيه (٣)
أظلُّ يومي وأمسي في مناضلة مع الاهالي لدى من هم مراميه
وسقت من منطقي جيشا أروع به قلب الـكميّ فألهيه وأدهيه (٤)
حوائج الناس هالات على قري وليس في الناس إلا قائل هيه (٥)
وينجح الجـد مني في وقايتهم ويقشم الظلم مذعوراً طواغيه
ولا جزاء أرَجّيـه سوى ألم يلمّ بالقلب والانجاز يشفيه
والنـاس قسمان قسم همه نشب وآخر همه العلياء تطربه
وبينما النـاس أحزاب وأغلبهم من المنيفين (؟) يشدو باسم مسميه
ساق النظام على الأشتات عسكره فصبّح التل طود من سواريه (٦)
منا قتيل ومنا هائم جزعا قلبي الجريح فهـلا من يداويه؟
في موقع الشرق كانت شر هزمتهم والشرق ضأن وذئب الغرب راعيه

(١) هاض العظم كسره بعد الجبر والظاهر ان المراد هاضوها أى الارياف بمعنى أهلها . وكان يمكن أن يقال * حكام أريافها هاضوا العظام بها *

ومعنى البيت انهم كسروا عظام الاهالي وانتقوها أى أكلوا ما فيها من النخاع حتى النخاع الشوكي الذى لا حياة بدونه — أى لم يبقوا للفلاح شيئاً يسد به الرمق . و وله شوكيه مخفف شوكيه أى نخاعه الشوكي (٢) مهاجرو الثغر هم الذين هاجروا من الاسكندرية الى الارياف (٣) جواب الاستفهام معروف من السياق: أى أحملها حملا ثقيلا (٤) أدهيه أنسبه الى الدهاء أو أرميه بداهية . يقال دهاه يدهاه بهذا المعنى (٥) هيه كلمة تقال للاستزادة (٦) أى ساق الانكليز أولو النظام عسكرهم على العرابيين الاشتات المتفرقين فصبح المكان المعروف بالتل الكبير جبل من سواريه. أى جيش كبير من فرسانه كالجبل في عظمته

وقائد الجند وافانا بلحيته يسيل رعبا وثوب العار كاسيه
وسلم السيف واستجدى بغفلته عفوا من الحنق المنزو خديويه
تخوّف الذل فاستدعى مطيته ركضا اليه فوافاه موافيه
.... (*)
تنكرتني وجوه كنت أعرفها تعد لثم نعالي غاية التيه (١)
تيقن العزم اني لو برزت له أخرجت من ضغنه أخرى مخازيه
فهاص في قرم من ضل سحنته يبغي مغالبتي كلا سأقميه (٢)
حجبت عنهم وعضبي غير محتجب صلٌّ يصاصل والاقدارُ تمليه
بنى الزمان لهم بيتا وشيده وليس يُبقي على مالست أبقيه
تمم له معنا فيهم مداركة فيهم أجرهم من صنع أيديه
هذا الزمان زحمناه فذل لنا لكن به صرف عيب كنت أدريه
وأحفظَ الدهرَ أني لا أشاكلهُ فيما تبطن من غش وتمويه
أحارب الدهر وحدي ليس ينفعني إلا الثبات وحسبي من أصافيه
تعلم الدهر مني كيف يطمعني نخاب ظنا وخانته مزاكيه
وليس يعجزني عن كسر فيلقه إلا المنايا تفاجيني فتحميه
ان المنايا سهام الله سددها وليس يخطىء سهم الله مرميه

---

*) حذفت من هذا الموضع بضعة أبيات محرفة الاصل معظمها في طعن سلطان باشا

(١) رويت هذا البيت بهذا اللفظ عن محمود افندى الكحيل أحد تلاميذ الاستاذ الامام في المدرسة السلطانية ببيروت وقد رواه كما سمعه منه أو من أخيه حموده بك الذى كان تلميذاً معه في المدرسة. وتمنيت لو قال بناني بدل نعالي وقد يكون تقبيل النعال حقيقة لا مجازا (٢) هاص الطائر ساح وهاص بالشيء عنف به وأقمى الفارس فرسه — رده القهقري . ولعل المصراع الاول محرف

كتاب الثورة العرابية

اذا كانت قصيدة السجن ناطقة برأي صاحب الترجمة وشعوره في الثورة العرابية وهو في شرخ الشباب ، وأوان التأثر و الانفعال ، ذي السلطان الأعلى على الخيال. و كان خيال الشعر في مثل هذه الحال والسن يصور الاشياء أحيانا بغير صورتها. وكثيرا مايسمها بغير ميسمها . فاعلم أيها القارىء لسيرته أنه قدكان شرع في أواخر سني حياته ، أو قبل بضع سنين من سنة وفاته ، بكتابة تاريخ للثورة العرابية يبين فيه أسباب الحوادث ومسبباتها ، وعلل الوقائع ومعلولها ، ويستنبط النتائج من مقدماتها . توجه الى كتابة هذا الكتاب بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبلغ من كمال الحكمة الغريزية والكسبية المنتهى. بطلب من أمير البلاد. خلف العامل الاكبر في تلك الأحداث. وانك لتجد ما كتبه في هذه الحل . القاضية بأتم الروية والاعتدال . مما يعد في معنى الشرح . لما جاء في قصيدة السجن ، الا مافيها من الفخر . الذي لايحسن الا في الشعر

ومن سوء حظ مصر والمصريين ، بل الشرق الادنى والشرقيين ، ومحبي حقائق التاريخ أجمعين ، أن الاستاذ الامام . لم يتم تأليف هذا الكتاب ، وسبب ذلك أنه كان يكتبه لأمير البلاد عباس حلمي باشا بأمره . وكان اذ رغب اليه بكتابته — وذلك في السنين الاولى من امارته — موادا للاستاذ شديد الرغبة في استفادة الامة من معارفه ، ولكن لم يكد يتم القسم الاول من الكتاب ، وهو ماتقدم الثورة من المقدمات والاسباب . فتح لها الطاق والباب. حتى نجمت نواجم التناكر بين الامير والاستاذ . وانتهت الى المغاضبة الشديدة المعروفة . وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير أن الاستاذ عدوله ولبيت محمد علي،ولا يزال يسعى الى سلب الامارة منهم . وبهذا صار تأليف الكتاب للأمير مشكلا ، لانه قد يعدمؤيدا لتهمة المفسدين بما فيه من إلقاء تبعة الثورة على الخديو توفيق باشا مباشرة . وجعل ماكان من اسراف الخديوا سماعيل باشا وسوء ادارته للبلاد أسبابا ممهدة لها — ثم ان أعمال الاستاذ الامام تضاعفت بعد جعله مفتيا للديار المصرية وعضوا في مجلس

الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين على كونه رئيسا للجمعية الخيرية وعضوا في مجلس ادارة الازهر . بل كاد يكون هو المجلس وحده — وسيأتي بيان كل ذلك في موضعه — فلا جل هذا كله ترك إتمام كتاب الثورة ، منتظرا به سنوح الفرصة

قد اطلعت على مسودة ما كتبه بعد أن كنت كتبت كل ماتقدم القصيدة من هذا المقصد في ترجمته التي نشرتها في المنار فنقلت جملا منه في ترجمة السيد جمال الدين . ثم رأيت من تمام الفائدة تلخيصه أو الاتيان بخلاصة وجيزة منه هنا يعرف بها قراء تاريخه مالا سبيل لهم الى معرفته من غيره . اذ كل ما كتب غيره في هذه المسألة لايتجاوز بيان الظواهر الخادعة والاخبار الرسمية . وأبدأ بنشر خطاب المؤلف للامير في ذلك وهذا نصه :

خطاب الاستاذ الامام لسمو الخديو في أول الكتاب

الى مليك مصر المعظم عباس حلمي باشا الافخم

مولاى

هذا مقام الذاكر لنعمتك . العارف بقدر منتك . العاجز عن الايفاء بحق شكرك . التالي في سره وجهره لآيات حمدك . طوقتني احسانا لم أكن أتأمله . اذ أمرتني أمرا ماكنت أتخيله . أمرت أن أكتب ماشهدت وما سمعت . وماعلمت وما . اعتقدت في الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى نهايتها . مع بيان أسبابها . وإسناد الاعمال إلى أربابها . سمحت بأن تكون الحقيقة بادية الرواء . حاسرة نقاب الرياء . أي منة أعظم من الاذن للحقيقة أن تتجلى بعد أن نسجت عليها العناكب . وتدافعت عنها المناكب . وسترها عن الابصار عثير الاهواء . وحجبها عن البصائر ضلة الاعياء . وذلة الضعفاء . حتى أنكرها من شهدها . وخبط فيها من سمع خبرها . ممن تولى كبرها . أو ممن لم يقف على سرها . ولم يميز خلها من خمرها . أي إحسان أجل وأوفى من رغبة مليك في كشف الغطاء عن حادثة الت بعرش الدولة .

واضطربت لها أركان الحكومة وتغير لها وجه السلطان وظهرت بعدها البلاد في شأن جديد؟

علم « بعوامل هذه الفتنة يقرر تبعة الخطيئة على من اقترفها، ويبرىء منها من رمي بها ،وقد كان الساعي في تسكينها وحاثي التراب في وجهها ،وقوف على دخائل هذه النازلة يبعد بالعقل الرشيد في مثلها عن الاغترار بظواهر، ليست لها سرائر، وصور انما تنكشف عن غير ،وعبر ويجنب الفكر السليم في ما يشبهها عن الزلل، في مزالق الخطل، ويضيء لأهل العزم مسالك الحزم، فلمولاي المنة على الحقيقة ومظهرها ، حتى قدرها حق قدرها ، واستضاء بسناها واهتدى بنورها

مولاي :أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسي غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سبقني به غيري . اللهم إلا إلى بعض الاوامر الرسمية أو شيء من المخابرات السياسية التي يضطر في بيان الوقائع إلى الاشارة إليها إذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها

أرفع إلى كرم مولاي المعظم ما استطعت أن أعرض على مقامه الفخيم، امتثالا لامره الكريم، معترفا بقصوري عن إبلاغه منزلة كتاب يستحق النظر، أو عمل من الاعمال يليق به أن يذكر ،إلا إذا شملته عناية الجناب العالي بحسن القبول،فعند ذلك تعلو قيمته، وتستكمل له زينته ، ويرتد عنه كيد الكائد ،وتنقطع دونه نفثات الحاسد ، أيد الله بالحق مليكنا ومولانا ، وأبلغه من العزة والمجد متمنانا ، آمين

﴿ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة العرابية ﴾

بدأ الاستاذ كتابه هذا بوصف حالة البلاد المصرية وحكومتها السوءى عند ما تنازل اسماعيل باشا عن إمارة مصر ووليها توفيق باشا ،فبين أولا بالايجاز ما كان من تدخل دولتي فرنسة وانكلترة في شؤون البلاد المالية وغيرها ومن تأثير المحاكم المختلطة في إضعاف سلطة الحكومة والتصرف في ثروتها وثروة الامة — ومن سوء أحوال رجال الحكومة وأحوال الجند — ومن تصرف الربويين في استنزاف ثروة

الامة بالربا الفاحش ومساعدة الحكومة لهم — ومن الاضطراب العام في البلاد وإشرافها على المجاعة — وبين أيضاً ما كان عليه أهل مصر إلى ماقبل سنة ١٢٩٣ من توكلهم على حكومتهم في كل شيء وتسليمها إليهم أمر شؤونهم العامة وكذا الخاصة أيضاً، إذ كانوا يرون كل شيء ملكا لها ، وبين ان أكثر من تعلم في اوربة من المصريين من عهد محمد علي الكبير الى ذلك التاريخ لم يغير شيئاً من هذه الحالة ولا أثر فيها مجلس الشورى الذي ابدعه اسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ لانه قيده في النظام والعمل فكان يقرر مايوعز إليه بتقريره،فظل الناس معه على اعتقادهم أنهم عبيد للحاكم لا رأي لهم معه ولا أمر

ثم انتقل من هذا إلى بيان مبدإ النهضة المعنوية في مصر بارشاد السيد جمال الدين الافغاني وسعيه فبين بالايجاز ماتقدم شرحه في ترجمة السيد من تربية نابتة جديدة وترقية أفكارها وأقلامها، وما كان من تأثير ذلك في ارتقاء الجرائد العربية وما أشرق عليها من نور الحرية .ومزج هذا بذكر بعض الحوادث الكبرى وتأثيرها في قلوب الناس وأفهامهم كالارتباك الشديد في المالية المصرية الذي أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة وتعيين ناظر انكليزي للمالية وناظر فرنسي للاشغال العمومية و كأحكام المحكمة المختلطة على الخديو وحكومته — وما تلا ذلك من انطلاق الألسنة والاقلام بالافكار الجديدة (الجمالية) كبيان أنواع الحكومات الاستبدادية والدستورية وتأثير ذلك في طبقات الامة . ولكن الشعور بحقوق الامة في أمر حكم نفسها ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبي في حكومتهم . فتعلقت آمال البصراء من الناس باصلاح عظيم ولكن لم يهتدوا سبيلا يسلكونه إليه لسوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها وسوء الظن بالسلطة الاجنبية والخوف من مآلها

ثم بين أن الخديو اسماعيل ضاق ذرعاً بالوزيرين الاوربيين وأخذ يسعى إلى الخلاص منهما ،فكثرت الاشاعات عن سوء مقاصدهما بايعاز منه كما كان يقال . وفي اثناء ذلك دعي مجلس شورى النواب إلى الاجتماع فوفد أعضاؤه إلى القاهرة وفي أنفسهم ذلك الشعور الشديد بشر الاحوال ويلوح في أفكارهم الميل إلى الخلاص

منه « فالتأم المجلس في أوائل سنة ١٢٩٦ في موج من التشويش شديد الاضطراب واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التي تطاب نظره فيها الاما لا قيمة له » فكثر الانتقاد على الحكومة ، ولما أمرت باقفال أبواب المجلس سلك بعض النواب مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الامر وحاولوا التوقف عن الانصراف حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما ينبئون به منتخبيهم ، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة، ولكن الخديو كان يشد عضد أعضاء المجلس في المعارضة هذه المرة

ثم ذكر قلق ضباط العسكرية من تأخير رواتبهم واحساسهم بانحراف الخديو عن نظار حكومته ومهاجمتهم لنظارة المالية وضربهم لناظرها الانكليزي واهانتهم لرئيس النظار نو بار باشا وقبض أحدهم عليه من شاربيه وتصديهم لاهانة سائر النظار لولا أن جاء الخديو بنفسه وصرفهم ، وانما كانت حركتهم بتحريك منه توسلَ به الى إسقاط وزارة نو بار باشا فتم له ذلك ، ولكن لم يمكن اسقاط الناظرين الاوربيين فأدخلا في الوزارة الجديدة التي تألفت برياسة توفيق باشا ولي العهد وزاد تضييقهما على الخديو في التصرف فتوسل الى عزلهما بوسيلة أخرى وهي طلب أعيان البلاد لذلك اذ اجتمعوا في دار السيد البكري ووضعوا اللائحة الوطنية المشهور أمرها التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة العظيمة وأنهم ضامنون لها

وقد بين الاستاذ ما في هذا العمل من الخطل وقصر النظر ، وأنه « أحدث في الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل فقد أيقنوا أن الحاكم القوي السلطان قد صار في حاجة اليهم ، ولا قوام لامره الا بالاعتماد عليهم ، فزادهم ذلك ولوعا بما كانوا يميلون اليه من وجوب اشتراكهم في أعمال الحكومة دفعا للمضار التي نشأت عن استقلال الحاكم بالرأي ، وانفراده بالسلطة »

ثم بين سيرة اسماعيل باشا بعد ذلك في العود الى التصرف بأموال الحكومة وتبذيره وسوء الحالة العامة وذهاب رياض باشا ونوبار باشا الى أوربة بقصد الاقامة فيها وسعي الثاني الى اقناع فرنسة وانكلترة بالسعي الى خلع الخديو اسماعيل. ثم ارسال فرنسة موسيو تريكو مندوبا خاصا (فوق العادة) ليتحدمع وكيل انكلترة في مصر في

مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولي عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته في الامر واشارة أجهلهم بالسياسية عليه أن لا يتنازل والجيش حاضر يؤيده - واشارة من كان يقال انه أعلمهم بأن يتنازل ، وبين بعد هذا ان جمهور العقلاء يرون ان رأي ذلك الجاهل كان عين الصواب وان الخديو لو ظهر لمندوبي الدولتين بجلد الاسد الذي كان يلبسه للمصريين وعلموا ان دون التنازل حمل السلاح لأمكنه ان يرضيهما بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش

ثم بين ان السيد جمال الدين كان قد أسس حزبا في مصر باسم (الحزب الوطني الحرّ)وانه كان بينه وبين ولي العهد توفيق باشا مكالمات في هذا الامر ، وانه سعى مع الكثير من الاعيان الى شريف باشا الكبير بأن يقنع الخديو بالتنازل ، وان أحسن ما يجيب به مندوب الدولتين تفويض الامر الى السلطان — وان السيد جمال الدين ذهب بوفد من المصريين الى وكيل دولة فرنسة وكاشفوه بأمر الحزب الوطني الحر الذي يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشاء وأن ذلك تأييدا لرأي شريف باشا في اقناع الخديو بما ذكر آنفا فأقنعه بحول الأمر الى السلطان فقبل السلطان تنازله ونصب توفيق باشا خديويا بدله — وقد تقدم نقل كلامه في ذلك في ترجمة السيد — . فهذه هي الاسباب التمهيدية الاول للحوادث العرابية

﴿ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا ﴾

حالة البلاد وتظاهره بالاصلاح

بين رحمه الله تعالى أن البلاد دخلت في عهد توفيق باشا في طور جديد من الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين وتعليمه وسعي الحزب الوطني الذي ألفه فيها ما فتح أقفال القلوب والعقول لتدرك كنه أعمال حكومتها وما يجب أن تكون عليه ، وسيرة الاجانب فيها وما يخشى أن تنتهي اليه ، فقد تولى هذا الامير ولاية امة غير الامة التي كان يتصرف فيها والده تصرف الراعي المالك بالمواشي، ولكن هذا الامير لم يكن شرها ولامسرفا بل كان عفيفا رحيما فكان

لطلاب الاصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته

وقد كان أول عمله أن كتب الى شريف باشا في اليوم الثاني من ولايته أمرا بتشكيل الوزارة بعد قبول استعفائها صرح فيه برغبته في تحقيق آمال الامة فيه واخراجها من الحال السيئة التي هي فيه بالاقتصاد القانوني في نفقات الحكومة والاستقامة في الوظائف العامة واصلاح القضاء والادارة — ثم كتب في اليوم الخامس أمرا آخر الى مجلس النظار فصل فيه ما يحقق الآمال بجعل الحكومة شورى ونظارها مسؤلين وتوسيع نظام شورى القوانين واصلاح المحاكم والمجالس والسعي لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم ، وصدر ذلك الامر في ١٤ رجب سنة ١٢٩٦

و بين الاستاذ أن كل ما ورد في هذا انما انعكس على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته

يلي ذلك بيان مشروع شريف باشا في وضع قانون أساسي لمجلس النواب يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الامة النظر والكلام فيه على حسب ما قرأه ورآه في بلاد أوربة، فأعجب بذلك أرباب الأفكار المتطرفة وقالوا ان التصديق عليه يعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين

قال: وتظاهر الاجانب بالرضاء عن الاصلاح المشروع فيه، وأنشئت جمعية في الاسكندرية باسم [مصر الفتاة] لم يكن فيها مصري حقيقي بل كان أكثر أعضائها من شبان الاسرائيليين المنتمين الى الاجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة الى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة [مصر الفتاة] فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين كان أولئك الاجانب في ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المئة بمئتين في بضعة أشهر، وكانوا يتصرفون في المصريين كتصرف حكومتهم بهم

سواء صح ذلك التظاهر أم لم يصح، وأما الذي لا شك في صحته فهو أن وكيل دولة فرنسة أخذ يسعى في إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر في تصحيح

الموازين وتقرير الامور المالية ودعا وكيل انكلترة الى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الاوضاع الجديدة في ذلك الوقت بحجة أنه مما يعوق حل المشاكل الموقوفة ، وساعد على اقناع الخديو بعض الوطنيين من حاشيته ، فتأثر الخديو بذلك ومال الى غير ما أظهره للجمهور من قصد الاصلاح المطلوب، ثم رفض لائحة شريف باشا عند عرضها عليه فاستقال شريف باشا لإصراره على هذا الاصلاح فشكل الخديو نظارة جديدة تحت رياسته

يتلو ذلك بيان أن وكلاء الدول أصحاب النفوذ في مصر كانوا يظنون أن محرك هذه الافكار الاصلاحية ، و باعث الانفس على طلب الحرية ، انما هو السيد جمال الدين ، فأقاموا الادلة للخديو على خطر الرجل وأخافوه منه كما أخافوه من النظام نفسه . فأما التخلص من النظام فكان باستعفاء الوزارة ، وأما التخلص من السيد جمال الدين فكان بنفيه من مصر الى الهند

أقول وقد فصل هنا مسألة نفي السيد وسوء تأثيرها في مصر وتحول القلوب بسببها عن الخديو الذي تناقل الناس قوله له «انت موضع أملي في مصر أيها السيد» وقد تقدم ما كتبه في ذلك بنصه في ترجمة السيد (ص ٧٤ — ٧٨)

مبدأ الفوضى في الجند المصري

ثم بين انه في حو لي هذه المدة وقبل استعفاء وزارة شريف باشا صرف مبلغ عظيم من الجند الى بلادهم وتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألفا فقط. وأن جماعة من الضباط قدموا بعد ذلك عريضة الى الجناب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية و بنوا ذلك على أسباب منها رداءة المآكل وضررها بصحة العساكر، ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر في اصلاح معاشهم. فوعدوا باصلاح الحالة، و بعد أيام استعفت الوزارة ولم ينظر في حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة الفوضوية بالبحث في أسبابها ، واستئصال عواملها من الجيش قبل ان تأخذ قوتها و يظهر أثرها بمثل ماظهر به من بعد. (قال) وانما قلت انها فوضوية لأن للضباط حق الشكوى مما يصل اليهم من الاذى أو ما يجدونه من

الضرر ولكن لا حق لهم في طلب العزل والنصب فما فعلوا كان خارجا عن حد النظام لهذا كان جديرا بالالتفات .

نفوذ الاجانب واسبابه وغايته

قضى باستعفاء الوزارة ونفي السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب و بعض الوطنيين في منع الاصلاح وأرهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا . و بعد ذلك أخذ القناصل في اقناع الخديو بأن هذه لوزارة الجديدة تحت رئاسته لا قدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة ومن الضروري ان يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب في الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة، وأشاروا الى عودة واسن ودبلنيار، فأظهر لهم أن ذلك غير ملائم للمصلحة وأنه لا يرضى البتة بأن يكون في النظارة أعضاء أور بيون لانه يشوش أفكار المصريين و يؤدي الى الخبط في الاعمال، قال ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارجاعهما وزيرين فاني مستعد للاشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به واحسبهما صديقين ولكني أتبرأ من تبعة ذلك، وقال: انني لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ولكني أريد رجالا مثل بارنج (١) يشتغلون باصلاح المالية ولا يخلطون الادارة بالسياسة و يكونون في وظائف سامية غير انهم لايكونون وزراء، فأشاروا الى نو بار باشا فأظهر غاية التمنع من قبوله بل أبى ان يسمح بعودته من أوربة إبعادا لدسائسه كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة وتناقلته الجرائد في حينه، فأشير الى رياض باشا فأبان شدة ميله اليه وقال انه الصديق الحميم والصادق الامين، وانتهى الامر باستدعائه فحضر في النصف الاخير من رمضان ثم عهد اليه برئاسة النظار في ٥ شوال سنة ١٢٩٦ .

« كان الخطاب الصادر من الجناب الخديوي الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار يشف عن كمال المودة وتأكد الثقة وخلوص السريرة في الاعتماد على امانته ، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترأسه على مجلس النظار مدة الشهر الذي مضى ان يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الاحوال (رفض لائحة النواب ونفي الشيخ جمال الدين اذ لم يظهر حال يقتضي التفرد بالسلطة سوى هذين الامرين)

(١) هو الذي صار لقبه بعد ذلك لورد كرومر

« ومن المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة التي لاجلها اجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعا بالعويل والنحيب، ولاجلها ولي خديو جديد ناشئ في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان ، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل اليه بأي الوسائل الممكنة، وآماله في المستقبل تستدعيه في كل آن لحل ما وجده من العقد ووضع حد لتلك المصاعب التي جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والانقلاب الذي لم يكن في حسبان، وتلك هي لمسألة المالية التي كان يريد الجناب الخديو أن يأتي على حلها قبل كل المسائل ، و بفضّ مشكلها قبل جميع المشاكل ، على انه لم يكن مشكل سواها لولا ما أعقبها مما تولد منها

«لم تكن عقدة الاشكال فيما يمس حالة المصريين وعلاقتهم مع الحكومة في الامور المالية، اذ لم تكن لهم حاجة الى أمور جسام وأعمال عظام فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة، فقد كان يكفي ان تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيرا ويزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد ، وما كان أسهل هذا الامر في ذاته ، على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الارض والسماء ، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءًا من المئة بل من الالف مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت . وَلَمَّا كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولي الامر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال ربما لم يكونوا يقصدونها، على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها

« كان معظم الاهتمام منصرفاً الى ارضاء الاجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا ينالون من فوائد الدين الباهظ . ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦ ولكون الخديو الاسبق كان يريد أن يكون ذلك العجز معروفاً عند الدول ذات النفوذ ويجب أن يتداخلن أيضا في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد ظنا منه بأنه متى ثبت عجز المالية

المصرية عن اداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفي له أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة ونادت به ملكا مستقلا على مصر لا يؤدي خراجا الى سلطان آخر وكان يسره ان يكون ملكا ولو على بلاد خربة ورعية ضئيلة و بين خليط من الاجانب يصرفونه في داخلية بلاده حسب ما يريدون . ثم لم يكف الخديو الاسبق عن تصرفه الخفي في المالية المصرية بما يزيد ارتباكها وكلما تقدم الزمن ظهر الاختلال فيها فيدعو وكلاء الدول السياسيين للتداخل في اصلاحها ثم هم يجيبونه الى مايدعوهم اليه تمكينا لحق التداخل في الشؤن المصرية الى أن جر الامر الى تعيين لجنة التفتيش العليا ولم يكن فيها الا مصري واحد وسائر أعضائها من الاجانب، وأخذت تتناول البحث في الشؤون المالية وتتصل بها ماشاءت من الامور الادارية، وكانت أحكام المحاكم المختلطة لارباب الديون السائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو، وطلبت الحكومة سبيلا للتخلص من بعض ورطاتها فعقدت سلفة روشيلد تحت شروط شديدة ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الاملاك المرهونة عن وفائه، فكانت هذه السلفة ضغثا على إبالة ومشكلا فوق المشاكل، فقد أبى بيت روشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعدمادفع شيئا منها وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة. وبذلك وقع الخديوي الاسبق في شباك من حبائل السياسة التي ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار وصدق فيه قول القائل ,, انه صرف مائة مليون من الجنيهات أخذها بأفحش الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب وقضى مع ذلك مدة سبع عشر سنة في سلطة تامة وكلمة نافذة — كل ذلك لان يعد بلاده ويهيأها لنفوذ أجنبي يسوسها، ولان يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منهما،، بل كان يهيئ نفسه بالمال والسلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لا يرحم، ورقيب يعجز عقله الذكي عن اخفاء شيء دون علمه، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوي عن مناوأته وهكذا كان يبذل جهد المستطيع في اضاعة نفسه وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به، ولهذا سمح بأن يأتي وكلاء عن أرباب الديون ليبحثوا في شؤون المالية وأظهر لهم

قبول ماطلبوه بعد بحثهم، وعين مراقبة من الاجانب على عموم حسابات المالية، ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه كما هي القاعدة المعروفة في كل ممالك العالم، بل حول المسألة من مالية الى سياسية، وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم الى ذلك الغرض السامي الذي كان يخيله، وهي فرصة لا يضيعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية في مصر

« ومن المقرر عند الاوربيين ان العادة قانون وأن العادة تتأصل بمرة فما بالك بالمرات الكثيرة، فلهذا انقلبت المسألة المالية آخر الامر الى سياسية محضة، وما أخذه الاوربيون من حق التداخل في شؤونها أصبح أمراً مقرراً وقانونا واجب الرعاية ولم يعد لاحد من حكامنا ان يفكر في إلغائه أو تعديله خصوصا وقد وجد الاجانب من الادلة ما يحجون به المنازع اذ كانوا يقولون " لا ثقة بوعد ولا اعتماد على عهد فقد وعد الحاكم السابق وأخلف وعقد ونقض ولم نره يوما أتى بعمل تكون النية فيه خالصة لنفع بلاده ولم نر له أثرا في البلاد تساوي قيمته ماصرف فيه ، والحاكم الجديد حديث العهد لا نعلم ما يكون منه ولا نريد ان نقع في التجربة مرة أخرى، فلا بد من أخذ الاحتياط الشديد من بداية الامر، ولما كان توفير المال الذي يقوم بوفاء الدين وضبط حسابه موقوفا على ضبط جميع الادارات والمصالح فلا بد ان يكون لنا نوع من المراقبة عليها، حتى نكون على ثقة من ان حالتها لا تنقص الايراد ولا تزيد في النفقة، ولما كان الفلاح هو العامل الفرد في سوق الاموال الى الخزينة ومنها الى الدائنين فشأنه مرتبط بشؤون الدائنين ولا يثمر عمل الفلاح الا إذا كان آمنا على نفسه وماله فلنا حق المراقبة على كل ما يتعلق بالفلاح من هذه الجهة — والنتيجة التي لا شبهة فيها بعد تسليم هذه المقدمات ان لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها لكن تحت اسم المراقبة المالية"، وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلع اسماعيل باشا فهنا كان موضع الاشكال ومن هذا كان ينبوع المخافة والاضطراب على المسند الجديد

« قبلت الدولتان ماطلبه جناب الخديوي السابق في عدم تعيين وزير بن أوربيين ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية ونفوذهما يشمل جميع الادارات المصرية ، ورواتبهما الذي ينالانه من الحكومة أوفر بكثير من راتب

وزيرين ، وصدر الامر بتعيينهما قبل توسيد رئاسة النظار الى رياض باشا بأيام . ولما تعين رياض باشا رئيسا للنظار وجد موسيو بارنج (اللورد كرومر) محاسباً عموميا لقلم الايرادات ، وموسيو دوبلنيار محاسبا عموميا لقلم المحاسبة وادارة الدين العمومي، ولم يبق الكلام الا في تحديد وظائفهما، كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافيا في فهم معناها، وبعد قليل قدم قنصلا دولتي فرنسا وانكلترا لائحة تحدد وظائف المراقبين وبعد مداولة طويلة في مجلس النظار ونزاع شديد بينهم قبلت اللائحة كما قدمت تقريبا، وصدر الامر بتحديد وظائفهما على وجه ان لهما في الامور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية، وعلى الوزراء والمأمورين من أي رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الافادات ، وعلى ناظر المالية ان يقدم اليهما كل أسبوع كشفا مفصلا عن دخل نظارته ونفقتها، وعلى كل ادارة ان تقدم كشفا مفصلا كذلك في كل شهر، ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية التي يكون من شأنهما مراقبتها والاشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الامر الخديوي، وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأي شوري، وتقرر ان لا يعزلا إلا بموافقة حكومتيهما، ولهما ان يعزلا وان ينصبا جميع الموظفين في ادارة التفتيش وان يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان، وعلى الحكومة ان تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلامعارضة. ومن هذا ترى ان تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهمه عنوان وظيفتهما واطلاق حق المراقبة عن كل قيد»

وقد ذكر في ذلك الامر ما نصه : « ان حكومتي فرنسا وانكلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لا يتداخلان في الوقت الحاضر في ادارة المصالح الادارية والمالية فالمراقبان يقتصران الآن ان يقدما الينا (الخديو) والى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بالوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من المخابرات . واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الامر الخديوي عن ألفاظ « الوقت الحاضر » و« الآن » المسطورة في الامر الخديوي وتأويلهما على وجه لم يزد القصد الا ظهورا يشير الى ان الامر سطر برأي القنصلين وان الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الامر كما

تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائها الا بعد امضائه ، وكانت الترضية عبارة عن إبقاء الالفاظ وتأويلها بما لا يفهم منهـا ليجري حكمها كما وضعت

« لم يمر ذلك على الانفس والعقول بلا أثر خادش وهزة أسف عامة لكل من كان يلوح في قلبه شعاع الفكر ويدور في خلده خيال الميل الى استقلال البلاد ووضع الاصلاح فيها على قواعد سليمة واحاطته بما يتقي أعمال السلطة العليا من كل قصد الى غير مصلحة الرعية ، ويصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية، بعد ما عرفت آثارها، وتمكنت من النفوس النفرة منها . وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين، واكثروا الانتقاد عليه قبل مجيء رياض باشا وقبل ان تبين حدود المراقبة على هذا الوجه ، وبعد ان نشر هذا الامر وعرفه العام والخاص لم يدع انساناً حتى أنطقه ، ولا قلما حتى أطلقه ، وجرائد ذلك التاريخ شاهدة به

«وهنا اترك تسلسل الحوادث وتوارد الاسباب التي جرّت الى الثورة حتى افرغ من ذكر ماتم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا وما تحولت اليه أحوال المصريين، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدماً وتأخراً . آتي على ذلك باجمال يغني عن تفصيل ان شاء الله، ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقاً بدون حاجة للتنبيه الى العود اليه »

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

بين الاستاذ ان رياض باشا حفظ لنفسه وزارة الداخلية اصالة لاصلاح الحال العامة ، ونظارة المالية نيابة موقتة لحل مشاكلها مع الاجانب ، وانه سار في الاصلاح سيرة حميـدة لا عيب فيها الا محاولة تعميم العدل والمساواة فيها بسرعة ، ونلخص ذلك بما يأتي :

إلغاء رياض باشا للسخرة

كان أول إصلاح قام به إلغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد المصرية نوعين عاما وخاصا . أما العام فهو إكراه الحكومة الاهالي على العمل بغير

أجر في المصالح العامة كإقامة الجسور (الحواجز) على الانهار العظيمة وحفر الجداول الكبيرة وتشييد كل بناء يقام باسم الحكومة ، وأما الخاص فهو إلزام الاعلياء من دونهم العمل في منافعهم الخاصة بغير أجرة كالعمل في المباني والاراضي بجميع أنواعه — فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الاهالي بهذه السخرة، ويقرنونها بالضرب والاهانة ، حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة ، (قال) : كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أي هي منطقة نفوذه) يستخدم سكانها في أراضيه بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة على شرط ان يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم اذا كانت البلاد قريبة ، فان كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ولكنه لا يسمح لهم بأماكن تقي من المطر والبرد في أيام الشتاء ولا بمستظل يقيهم الحر في أيام الصيف ، فكان القر يقتلهم شتاء والحر يذيبهم صيفا — وبين الاستاذ ضرر ذلك في الانفس وقتله الشعور والاستقلال والارادة

شدد الوزير في إلغاء السخرة بنوعيها وبالغ في ذلك « حتى إنه آخذ مدير القليوبية مرة في ارسال بعض أشخاص من أهاليها لحفر الترعة التوفيقية التي تصل الى أراضي القبة لانها خاصة بالخديو ، ووبخ المدير توبيخا شديدا وعرض الامر على الخديو فاستحسنه ، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه، فان مبالغته في العدالة الى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا في مصر مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال — فانظر ماذا يكون في نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين بل والحاليين من رياض بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدريج »

ثم ان رياض باشا شرع في وضع نظام لتوزيع الاعانة على الاعمال العمومية يكون بدلا من السخرة كما أشارت لجنة التفتيش العليا من الاجانب ، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدني ودفع بدل نقدي ، فخف الويل عن كثير من الفلاحين وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة . وكان من عدل رياض باشا في ذلك ان عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مئتي رجل لاصلاح ماجرفه السيل من سكة حديد السويس اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك

حسب العادة ، هـذا وان فريد باشا كان من رجال رياض الذين يحبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة . ولم يكتف بذلك حتى كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك. وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية مرارا وكلما عرضوا عليه صورة مزقها لانها لم تف بغرضه من التنويه بشأن الاهالي ، (قال الاستاذ) وآخر الامر دعاني لتحرير ذلك المنشور فكتبته وذكرت فيه الحادثة وأتذكر منه هذه الفقرة « وليعلم المديرون والاهالي (لعلها والمأمورون) جميعا ان الاهالي ليسوا عبيدا لاحد ولا لأحد عليهم سلطان الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة » وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوي باعتاق الاهالي من عبودية التسخير بل من العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق ، وهذا مما لم يعهد له مثيل من قبل

العدل في توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الاغنياء . وشدد رياض باشا على نظارة الاشغال العموميـة في تنفيذ ذلك على الكبير والصغـير ، وذكر الاستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل يحول دون ما كان يستفيده بولينو باشا من آلة بخارية له يبيع الماء الذي ترفعه للفلاحين حتى في أيام الفيضان التي يجدون فيها الماء بغير ثمن، وأن بولينو باشا جاء برجاله مسلحين ليمنعوا فتح الترعة التي يسقي منها الاهالي فأمر رياض باشا بفتح الترعة ولو بقوة السلاح ففتحت تحت حماية العساكر المصرية

إلغاء الضرائب وترك بقاياها

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغي ثلاثون ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة كانت أضرت بالمصنوعات والاعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبحال المزارعين . وزيد مئة وخمسون الف جنيـه على ضريبة الاطيان العشورية تعويضا لما فات بإلغاء تلك الضرائب، فخف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الاغنياء ، وهو مما لا يمحى أثره من أنفس الفريقين . وذهب الافواج من التجار والصناع ليعلنوا شكرهم للجناب الخديو على إلغاء تلك الرسوم ، ولكن الكبراء لم يحفلوا بذلك ولا شاركوا الشاكرين (طبعا) ثم عفت الحكومة عما عجزت عن

تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

« ثم نظم برنامج الايراد والمنصرف من مال الحكومة (ميزانية) وشكلت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهم ووضع نظام للتحصيل في الاوقات المعينة على حسب مواسم الزراعة وعرف الفلاح ماله وما عليه» وضع هذا طبقا لما أشارت به لجنة التفتيش العليا

ثم ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الاغنياء والفقراء والوطنيين والاجانب في التحصيل ، وكان الاغنياء والاجانب يماطلون عدة سنين ، وكثيرا ما يعفى عنهم بعد ذلك . وظهر عند التنفيذ ان بعض أغنياء الاجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين فحصلت منه بقوة الحكومة . وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل

ابطال الكرباج

صدر الامر بابطال الضرب بالكرباج في تحصيل الاموال الاميرية فعجب كثير من الناس لذلك وقالوا: كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب؟ وأنكره كثير من المديرين وظنوا انه قد هدم ركن عظيم من سلطان الحكومة

ابطال الحبس في تحصيل الحقوق

صدرت الاوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء كانت أميرية أو شخصية. ولقي تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن الميل الى الظلم من أنفس أكثر الحكام، ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان قد محي الا ما ندر. قال : ومن غرائب آثار تعوّد الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر ان الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق — سواء كانت للحكومة أو للافراد — كانوا يعدون تلك الاوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به وأنه لا يفيد الا الكرباج ، كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزءون بتلك الرحمة ، اللهم الا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ، ووصل الى ابصارهم شعاع الاحساس بما للانسان من حق التكرمة التي خصه الله بها

قانون التصفية

(قال) « بعد مخابرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخيمة قبلت الدول تشكيل لجنة لتصفية الديون المصرية التي استدانها شخص اسماعيل باشا ولا يعرف فى البلاد من آثارها في المنافع العامة الا القليل، قبلت الدول العادلة أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ولم يكن في اللجنة من المصريين الا عضو واحد . قضت عدالة الدول المتمدنة أن تصادف المخابرات في ذلك صعوبات حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الامر بتشكيلها تحت رياسة السر ريفرس ولسون في ٢١ مارث سنة ١٨٨٠ و بعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذي اشتهر أمره ولا يزال من أصول الحكومة المصرية الى الآن »

ثم ذكر الاستاذ أهم مسائل هذا القانون ، وكيفية توزيع دخل الحكومة ودخل بعض الاملاك على الديون ، ومنها أنه قدر لنفقات الحكومة أربعة ملايين و٨٩٠ر٨٩٧ الف جنيه وفيها ويركو الاستانة وفوائد قنال السويس وتكميل النقص الذي يحصل في الايرادات المخصصة وسنوية المقابلة ، وما بقي من مالية القطر المصري فهو للدين وفوائده

و بعد أن أطال في مسائل هذا القانون ذكر أن تأثيره كان حسنا على ما فيه من غبن الدائنين الحكومةَ وجعلها تحت مراقبة الاجانب وتصرفهم فقال :

« كان يوم أمضي هذا القانون من الايام المعروفة في تاريخ مصر وقد احتفل له في الاسكندرية جماهير من أهالي القطر المصري ، وعد الناس ذلك اليوم من الاعياد الوطنية في ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمأنينة وضمان من الاضطراب الذي كان يخشى منه ، وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه و بين مستقبل واضح معروف — كما تمنى الجناب الخديو وصرح مرارا من أنه يريد فصلا بين الماضي والمستقبل — وأهم ما غنمته الحكومة منه رضاء أوربا عن الحالة التي قررها، واطمئنان الاهالي والجناب العالي على مسند الخديوية، وانقطاع المخاوف التي كانت المشاكل المالية تثيرها في الاوهام عند ما

يخطر بالبال حادثة فصل اسماعيل باشا، و بتلك الطمأنينة كان الفرح لها كالاحتفال »

*

عمل المؤلف في المطبوعات (١)

قال « كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب، ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه و يجبر على دفع قيمتها بالوسائل التي كان يجبر بها الممولون على الدفع، فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها، تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ماتضمنته من الاوامر واللوائح فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك، وكان قد أحس بتوجه الافكار الى طلب شيء من طلاوة العبارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد . أما أوامر الحكومة وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها في الجريدة الرسمية لان المأمورين يعرفونها من طريق أخرى، والاهالي لم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره ، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب و ينشر بوجه رسمي، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عند ماتحده في أوامرها، لهذا لم يكن لهم اهتمام في الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه . ولم يكن في الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدائح للجناب الخديو وبعض كبار المأمورين على الطريقة القديمة، وهذا مما كان ينفّر من رؤيتها، فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير وتحريرها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها ، ورغب مع ذلك أن تكون يومية، فهداه بحثه الى تعيين [الكاتب] في تحرير تلك الجريدة ، وكان الجناب الخديو في انحراف عنه لأسباب غير معروفة ، وانما قيل عنه انه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين، فاجتهد رياض باشا في استرضائه فرضي بتعيينه فعين محررا ثالثا، و بعد أشهر ذاكره في الطريقة التي يمكن بها اصلاح الجريدة

(١) كان ينبغي أن ينشر ماكتبه الاستاذ الامام عن نفسه في هذه المسألة في المقصد الثالث الذي قبل هذا و يشار اليه هنا بالاختصار مع الاحالة على ماسبق من التفصيل، ولكننا كتبنا ما تقدم قبل الاطلاع على ما هنا كما وعيناه مما سمعناه منه رحمه الله تعالى

فعرض له ما رآه في تقرير وافٍ فأمر بأن ينظر في التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير ، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فوضعت اللائحة في قليل من الزمن وأمضاها رياض باشا، وعين صاحب التقرير رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم ، وتنبعث الرغبات الى النظر فيما يقولون ، فتحول حال الجريدة الرسمية الى ماحمده العامة والخاصة

« وقد يقول غير العارف بسير الحوادث " وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر — سعادتها أو شقائها، طمأنينتها أو قلقها، تقدمها أو تأخرها؟ "، فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث شعب له حياة سياسية وأدبية وعقلية فلتغيير سير الجريدة الرسمية وتحرير ادارتها مكان رفيع من تلك الحوادث ، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتغتذي وتموت، فالبحث فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعي ولا علاقة لنا به الآن وربما تبسم استخفافا بالامر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقي الامم ، ولا يحرك احساسهم الا الصدمات الصادعة ، والقواصف القارعة، وهم من موضوع التاريخ الطبيعي كما قلنا

« واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية لم يكن من أرباب المنازل السامية في مصر، ولكنه نبت في تربتها واتصلت حياته بحياتها ، وأشربت مداركه الاحساس بحاجاتها، فكلما تناول عملا مما له علاقة بشؤونها العامة فتح له هذا الاحساس بابا من المعرفة بطريق ايصال منفعة من المنافع اليها، فالداعي لوضع اللائحة أودعها أحكاما غريبة في بابها يعجب لها الناظر فيها، خصوصا اذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو من المقلدين للمتمدنين ، ولكن لكل بلاد طبيعة خاصة بها، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

« تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم (المجالس الملغاة) ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع مالديها من الاعمال المهمة التي تمت أو شرع فيها على أن تتم، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها، وان لادارة

الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أي عمل من الاعمال عند ما ترى له وجهاً حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التي كانت الادارة جزءاً منها، واذا رأت في الجرائد التي تنشر في مصر عربية أو أجنبية ذكراً لخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التي يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة ، فان كان حقاً ما نشرته الجريدة أوخذ المخطىء بواسطة رؤسائه، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ونشر في الجريدة الرسمية ، وإن كان باطلا كلف صاحب الجريدة إثبات ماذكره وإلا أنذر مرة بعد أخرى وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائما على حسب الاحوال، وان من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيهـا تحت عنوان قسم غير رسمي مايعن له أو ما يرد اليه من الفصول الادبية مما له مساس بالاحوال العامة ، وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة إما ثقة منه بالعامل فيهـا وهو واضع اللائحة ، وإما علما منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجاتها الحاضرة

« وأول مابدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة واقتضائها لطول المخابرات في الاستفهامات التي لا طائل تحتها، ثم ترسم الطريقة الفضلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوي الالمام باللغة العربية من موظفي الحكومة، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الادارات واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديريات كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير في مصالح الحكومة ولا زال يتقدم الى اليوم ، وهكذا كان شأن الجرائد ، كانت تتسابق الى اظهار مزاياها في التحرير حتي تعجب ادارة المطبوعات أو العامل فيها، وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات، وتسابقت الاقلام في تنقيح الالفاظ وضبط المطالب، فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين قبل هذا ، وكان الضعف يقعدها ، والخوف يرعدها، فقضي لها أن تظفر على يد من كان له دخل في نشأتها

« سهلت بذلك المواصلات بين الانفس في الافكار، وخف عليها التعبير عما في الضمائر، كثر الكاتبون، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسر التعارف بين المتباعدين، ونشأ في الناس نوع من الالفة ، أحدثه الشعور بجامعة اللغة، وبعد أن كان نظر الواحد منهم لايجاوز شخصه ، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بني أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص، وفي هذا من تواصل اللذائذ والآلام مالا يخفى على عاقل ، وله من الاثر في إنهاض النفوس الى طلب مايصلحها مالا يذهب إلا على غبي جاهل

« كانت تبحث ادارة المطبوعات، أو دائرة التحرير فيها في جميع منشورات الحكومة ولوائحها. وأعمال المديريات وأحكام المحاكم وتبدي رأيها في جميع ذلك وتنشره في الجريدة الرسمية ، وكان ماينشر من الآراء يأخذ مكانا من الاهتمام عند رجال الحكومة ، ويوضع موضع البحث، ويبنى عليه التعديل أو التغيير ، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية

« كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة ، وما كان فيها متعلقاً بانتقاد بعض عمال المصالح كتب عنه من إدارة المطبوعات الى المصلحة التي كانت موضوع القول، وسئل العامل عما نسب اليه ، فاما أوخذ إن صحت النسبة أو أنذر صاحب الجريدة إن لم تصح عملا بنصوص لائحة إدارة الجريدة الرسمية كما سبق، فارتفع شأن الجرائد في أعين المأمورين والناس عموماً من جهة ، واشتد حرصها على تحري الصدق من جهة أخرى، أما القدح الشخصي فكان ممنوعا على وجه الاطلاق سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتك، لاخلاله بالآداب العامة ، فكان ذلك من أسباب تأديب المأمورين وحثهم على السير في طريق الكمال، والمنافسة في محاسن الاعمال ، ومن وسائل تهذيب الجرائد وإلزامها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب ، مع اطلاق الحرية لها في تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطا والصواب بدون خوف ولا تعتعة ، لم يبق عامل ولا رئيس مصلحة، بل ولا ناظر إلا كان يجب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ويخشى أن تكون له سوأة فتبدو بنفثة من نفثاتها

« ومن فكاهات ذلك التاريخ ان مدير بني سويف (إ. بك) بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ومؤاخذة نظارة الداخلية له على بعض خطئه أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته ، و كتب بذلك محرراً غير رسمي الى صديقه مدير المطبوعات، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لانه كان العامل وحده في الادارة، فنشرت تلك الفعلة في منشور عام له ولجميع المديرين، وأدرج المنشور في الجريدة الرسمية. فانظر الى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة. وهذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة، وأفهمهم انها قد اقامت من نفسها مراقباً عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد إلي طرق التدارك لما يقع من الخلل، وهو مما يرفع الهمم الى إعمال الفكر في معرفة الحق ويسوق العزائم الى طلبه

« لم يضيع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف وسير التعليم وإظهار معايب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الاصلاح ، فغضب لذلك ناظرها (ع. إ. باشا) وكان بطيء الحركة خامد الفكر، بعيداً عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اقتفاء الجريدة الرسمية له وتنقيبها على مواضع الخلل من اعمال نظارته ، فلم يسمع منه بل اجيب الى ان الحق أولى بالتأييد ، فان كان ماذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك وهي مستعدة لنشره ، فسكت لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد في سبيل انتقاده وبعد ان تكرر النقد ووجد رياض باشا ان السكوت عن الخلل ضرب من الاهمال الذي لا يغفر ، ذاكر يوما رئيس التحرير في ذلك، وفي الوسيلة الى اصلاح نظارة المعارف، وقال أما تغيير الناظر فغير ممكن [1] لان له مكانة في نفس الجناب الخديوي من جهة، ومن جهة اخرى فنحن كحزمة ضُمت اعوادها برباط واحد فلا يحسن البدء من الآن بحل ما اعتقد بيننا، فلابد من النظر في طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلساً اعلى يكون هو القاضي في ادارة المعارف العمومية وما على الناظر

(١) انما قال هذا جوابا لا ابتداء فقد تقدم أن الاستاذ عرض عليه اولا ان يستبدل بناظر المعارف غيره ، ويوشك أن يكون قد سقط من الاصل هنا ما هو بمعنى ما تقدم لاننا تلقيناه عن الاستاذ نفسه

إلا التنفيذ ، فلم يمض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الامر بتشكيل مجلس المعارف الأعلى، وعد في أعضائه كثير من اكابر الاجانب والوطنيين وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه ، ولم يخل تشكيل هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك ان تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الاجنبية ذات النفوذ في مصر فيسهل تنفيذها بدون معارضة من المراقبين ولا غيرهم فيها خصوصاً إذا اقتضت بصرف النقود وتوسيع النفقات. وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لاينكر أثرها في حالة المعارف العمومية ولم تضر به كثرة الاجانب فيه فان حمية بعض الوطنيين من اعضائه كانت تحبس بعض الاغراض السياسية في نفوس أربابها، فإن بدت وجدت من المقاومة مايبددها ، وكانت القرارات تصدر جميعاً في مصلحة البلاد وما يجب ان يتبع في سير التعليم فيها

« فلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الاعمال العمومية، أو طلب إصلاح عادة من العادات الرديئة، أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التي بني عليها العمران ، وكانت تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة ، لهذا كان لكلامها من الاثر في الانفس ما لم يكن لكلام غيرها من الجرائد . ومن يطلع على أعداد تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الاثر حتى اليوم ، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة بل كان يكتب مايكتب انتظاراً لاثره في الانفس لاغير، وما كان الاثر يتخلف عنه

« بهذا وبما سبقه تنبهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب في جسم أمة فرقها الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ماشعرت به من حاجاتها، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ، ولم يكن يسمع بمثل ذلك في مصر من قبل »اه ثم قال

دار الكتب العربية ودار العلوم

« اتجه عزم نظارة الاوقاف إلى الاخذ بوسيلة من أجل وسائل الاصلاح وهي تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الازهر وتوسيع نطاق المدرسة الى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ ، وأن يرتب التدريس فيها على طريقة

تؤدي الى تكثير الاساتذة المهذبين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الامة ، ولكل طبقة من طبقات المدارس ، بل الى إعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الاعمال الادارية والقضائية في البلاد ، وقد قدرت فوائد هذا المشروع في عشر سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره الهاترون في هذه الاوقات ، وبهذا كان يتسنى لنظارة الاوقاف أن تقدم للامة المصرية خدمة لاحقة بذمتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين ، وبناء معابد قلما يوجد فيها أحد من المصلين ، بل بهذا كانت تتيم الهياكل الالهية في قلوب المؤمنين ، وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين ، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها . وإقامة ماتدعو اليه الحاجة منها ، وكان توجه نظارة الاوقاف الى هذا المشروع بناء على ماعرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضاً » ثم قال

اصلاح نظام العسكرية

« وجهت الحكومة عزيمتها لاصلاح في نظام العسكرية فبعد أن قررت مدة الاقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكري الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية ، رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من العساكر المقترع عليهم لان المدة المقررة للخدمة لا تكفي في أن يصل العسكري الساذج الخالي من المعارف الجندية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا . فلابد أن يحصر تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير . وهو رأي معقول في نفسه لا يخطىء مصلحة البلاد في شيء »

اصلاح المحاكم

وذكر الاستاذ هنا اهتمام الحكومة باصلاح المحاكم القضائية وإعداد الوسائل لذلك ، ودعوة القناصل الى المداولة في أمر المحاكم المختلطة لتنال شيئاً من حق

المساواة بين الوطنيين والاجانب

سيرة الحكومة بالاجمال

﴿والخديو توفيق باشا والوزير رياض باشا بشيء من التفصيل﴾

بعد هذا بين الاستاذ سيرة الحكومة بالاجمال، وانها كانت موجهة الى مافيه الخير لمصر وأهلها، ولم يكن بناؤها على أساس الاثرة وقاعدة الاستبداد بالسلطة لقضاء شهوة الحاكمين وأعوانهم، وذكر من مناقب الخديو توفيق باشا: العفة واللين والتحبب الى الرعية، وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن الشهيرة، وبعده عن السرف، واكتفاءه من النساء بأميرة واحدة، وترفعه عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره ... من الامور الفاضحة. وذكر نتيجة ذلك بقوله: فاجتمع له في أنفس الرعية: المحبة والمهابة، وهما أقوى سند للحاكم وأشد ركن يعتمد عليه، وهما البقية التي تحفز اليها الهمم، وتحث نحوها العزائم، وتطير دونها الرقاب، والسعيد كل السعادة من الحاكمين من هيأ له القدر أن ينالها

وذكر من سيرته في حكومته اتفاقه مع نظارها وسائر كبارها على مايخفف عن الرعية أثقالها، ويرقي عقولها وآدابها، ويفتح أبواب السعادة في المستقبل لها، مع شدة تمسكه بحفظ مسنده، وتقوية سلطته، وان هذا رفع قدره في نظر الاجانب أيضاً، وان الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه في اول حكومته من النفي بغير محاكمة والمسارعة الى تعيين المراقبين من الاجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة، وكادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعة الخطأ فيها على غيره

ثم ذكر من سيرة النظار العمل فيما يعود على البلاد بالمنفعة أيضاً (قال) « ولم يكن لأحد منهم شهوة الاستبداد بالامر في عمله لمحض إعلاء سلطته ووضع من دونه تحت قهره، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وإرادته، وجمع ماتيسر له أن يجمع مدة استعلائه على كرسي الوظيفة » وقد استثنى منهم واحداً قيل انه كان يمد يده الى بعض الحطام في بعض الاعمال الجزئية التي لا يظهر لها أثر في كلياتها، وآخر كان يطيع العصبية الجنسية، وسيأتي ذكره

ثم بين الاستاذ حسن تأثير هذه السيرة في الناس في نشاط العقول وتحفز الهمم والاحساس بالجاذب الى مطلب البلاد «وهو أن يكون فيها من قوة الارادة ونفاذ البصيرة ما يمكنهم من حفظ ما بقي لهم، واسترداد ما ذهب منهم على مدى الزمان. وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى البلوغ بها اقصى أمانيها، مع نفوذ البصيرة في شؤونها - رضي هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل اليها، وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العلل اختياراً لأخف الضررين، وخضوعاً لحكم الضرورة مع قوة الامل في الشفاء»

وذكر ان ضياء الآمال كان يسطع على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة إذ أحس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة وان مطالبهم على ما فيها من الطيش سهلة المتناول.

(قال) «وكان أهل الاصابة في الرأي يتمنون لو استمر سير الحكومة في سبيلها ذلك عشر سنين على الاقل، فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه، ويستوي سلطان الارادة السليمة على عرشه، وترسخ الملكات الحسنة في نفوس المستبدين بمقتضى (ميل) الفطرة لاقتنائها — وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعدهم له الكرم الالهي — وتعود الى النفوس سكينتها بعد ذلك الاضطراب الشديد، وعند ذلك كان يتهيأ لاهالي البلاد أن ينزعوا الى نظام أكمل مما أعطي لهم، وأن يطلبوا سبيلا الى تخفيف شيء مما كان لا يزال يثقل عليهم

« ولكن وا أسفاه! حال دون بلوغ تلك الاماني أمور (منها) ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار (ومنها) ماله علاقة بالجناب الخديو (ومنها) ما سببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة (ومنها) نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا في ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا

شمائل رياض ومعارفه وأخلاقه وأعماله

عقد الاستاذ في رياض باشا فصلا وذكر فيه ماله وما عليه، وقال انه استعمل غاية الرأفة في الحكم عليه، وأن الذي قد حمله عليه ضرورة بيان أسباب الفتنة القريبة، وقد بدأ هذا الفصل بقوله: « رياض باشا خير من طبقته من المصريين

بلا نزاع ، والمنازع في ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات مالا ينكره العدو المنصف ، ولكن يصحب هذه المزاياماقد يؤاخذ عليه » ثم بين ذلك بما نختصره على ايجازه واختصاره ، قال :

رياض باشا ذكي بالفطرة وقد اكتسب بالتجربة في الاعمال الادارية مالم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلي يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليها الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئي على مثله وربما لايكون جامع الشبه بينهما تاما فيقع في الخطأ

فيه همة وقوة عزم لاتنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب مايكره منها

صادق النية مخلص السريرة في خدمة البلاد ، ولكن لايبالي في تأدية مايراه واجباً عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن ان من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته وإن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر الغاية الصالحة منه . . . .

له نشاط في العمل ، لايصحبه كلال ولا ملل، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكليات

فيه مزية التفويض للعامل في عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، ولكن ليس عنده قاعدة يبني عليها ثقته. فتارة يثق بالاذكياء العارفين وبالصادقين وتارة باضدادهم

اذا غضب على أحد مزج في غضبه بين احساسه الخاص وما يتعلق بالعمل العام ، فيسقط من نظره وإن كان فيه من الفضيلة مايعترف به العالم أجمع، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويذم المتعصبين للاوهام ويجل الكثير من أفرادهم

يحب المصريين جملة وليس في طبقته من يحبهم مثله، ولكنه يحب أن يراهم في أعلى درجات الكمال المنتظر فينادي عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة، لانهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الايام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد

من ذلك والخروج منه — وشبهه بالاب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدى المسالك وأقربها

نظيف القلب بعيد عن الحيلة ، اذا مال الى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحركات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه تحاول اظهاره فتكون الغالبة

يهاب ذوي النفوذ من الاجانب ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من آخر سندا ، وهو أمثل طبقته في ذلك

جريء مقدام في الاعمال كأن لا شيء يخيفه فاذا عرض له مالم يستطع تذليله رجع الى أقصى مايمكن أن يبلغه الاحتراس فينقطع العمل . . .

لم يكن يخالج فكره ريبة في سكون المصريين الى الطاعة في كل مايؤمرون به حملا لهم على سالف عهدهم فكان في غاية الطمأنينة من ناحيتهم فلم ير انه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة و من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب

ثم خص الاستاذ عثمان رفقي باشا الذي كان ناظراً للحربية من دون سائر نظار الوزارة الرياضية بذكر كلمة موجزة من صفاته لان سيرته من أعظم مقدمات الفتنة العرابية فقال

عثمان رفقي باشا

« كان رجلا ساذجا محدود الادراك بعيداً عن التبصر في العواقب لم يكن يهمه بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضي ميله ويروي ظمأه الى حصر السلطة العسكرية في بني جلدته من الجراكسة وتجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار. كان يطيع في ذلك تلك العصبية الممقوتة التي يبطنها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين في مصر كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تعقبت أدبارهم ، أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، أو منعوهم حقاً كانوا أهلا لان ينالوه »

تأثير سيرة رياض باشا وشمائله في مقدمات الثورة

قال: « بعد ماتبين من موجز سيرة رياض باشا وهذا البعض من نظاره يمكنك

أن تسمع بعض ماأثمرته تلك السيرة » ثم قال ماملخصه

١ — ان إبطال رياض باشا للسخرة كان عدالة لاتنكر ولكنه أحنق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالها، ولم يكن ذلك ضاراً لولا ماصحبه من استعلائه عليهم وتعريضه بسوء ماضيهم ، حتى رأوا انه ينبغي لهم التخلص مما يمس كرامتهم، فشكلوا لمقاومته جمعية تسمى جمعية حلوان كان فيها م.ش باشا وش باشا وع . ل باشا وغيرهم فلما خاب سعيهم تربصوا به الدوائر. وكان قد اشتد على بعض الجرائد فألغاها باسباب لم تكن بالقوية فمنح بذلك خصومه آلة تهييج الآراء لمقاومته فذهب [أديب إسحاق] أحد محرري تلك الجرائد الملغاة الى أوربة وأنشأ جريدة سماها القاهرة لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد الى الاجانب حتى كانت تسميه [رياضستون] وكان ينفق على تلك الجريدة الخديو الاسبق (اسماعيل باشا) و ر . باشا و م .ش باشا وع . ل باشا وغيرهم ، وكان الكثير من الساخطين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية عاته ووسائل شفائه

٢ — زاد حنق أكثر الاغنياء عليه بزيادة مئة وخمسين ألف جنيه في أموال الاطيان العشورية وهو لم يبين الضرورة الداعية اليها ليتضح عذره فانتهز الفرصة نوبار باشا وألب كثيراً من الاعيان المظاهرة بالشكوى من الظلم والخسار الذي يحل بهم — وكبر الاجتماع لذلك ونفي من كان واسطة في إثارة المتظلمين وهو حسن موسى العقاد ، وبرح نوبار باشا مصر بتنبيه يقال انه صدر اليه ، ولكن جرح الاغنياء لم يبرأ ألمه بذلك

٣ — وثق بمن لم يكن أهلا للثقة من المديرين فأساؤا الى وجهاء البلاد ولم يكن يسمع الشكوى فيهم لاعتقاده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد. وهذا صحيح في الاغلب ولكن ليس من الحزم جعله عاما . ولهذا وقر في نفوس الاعيان ان رياض باشا عدو لهم يريد اسقاطهم واقامة من دونهم مقامهم

٤ — اهتم بتقرير الامن كعادته في كل وزاراته كأن البلاد في حرب دائم، وأعطى المديرين في ذلك سلطة أساؤا في استعمالها فأخذوا بالظن ونالوا من كثير

بالشبهة فأزعج ذلك نفوس الباقين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل

« اذا ضربنا النظر الى مادون المرتبة العليا من مراتب الانسانية وهي المرتبة التي يصل فيها الى منازل الملائكة في كمال الصفات، وأخذنا الانسان من وجهته البشرية، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها وعم أثرها لاتصرف الشخص عن نفسه، ولا تنسيه منافعه ومضاره الخاصة به، فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعوزهم البصيرة، وقد شعروا بشيء من القوة لايدركون كيف يستعملونه؟ فمن مسه ظلم المأمورين ولم تسمع شكواه — ومن يترقب أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محاكمة عادلة — ومن نكبته شبهة مخيلة لاحقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل في خيال حاكم جاهل بصورة لاتعجبه فيناله مانال صاحبه — كل أولئك وإن كانوا لاينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الاصلاح كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو أدعى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع. وأنزه الناس غرضا كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل. أما الضجرون ومن لاتبلغ المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلا عن أقصاها فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها مهما استطاعوا

« تلك الرغبة التي كانت تلعب بالنفوس وتجيش في القلوب آخر عهد اسماعيل باشا والايام الاولى من حكومة جناب الخديو السابق رحمه الله — تلك النزعة الى تأسيس الحكومه على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من الاهلين حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة — ذلك الظمأ وجد مسكناً من مباديء الاصلاح فاطمأنت النفوس الى عدل الحكومة في القضايا العامة وفترت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضاً عن اشتراك الرعية في الحكم. لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الاسباب التي سبق ذكرها ولاسباب سنذكرها فرجع التحدث بين الناس الى ما كان عليه. وأخذ الناس يقولون لا صلاح في الاستبداد بالرأي وإن خلصت النيات. فرأي واحد عرضة للخطأ. وإن تحققت نزاهته من الغرض »

رياض باشا لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب هذا الامر طلباً صحيحاً لانه لم يختبر الناس ولم يصغ حق الاصغاء الى ما كان يدور بينهم . وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقاً عن الاصلاح المطلوب لان أعضاءه تعوزهم الخبرة بالاحوال السياسية والادارية فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث في أمور تجب فيها السرعة . وكان يوافقه في هذا الرأي كثير من العقلاء ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتشكيل المراقبة الثنائية وبتّ أهم المسائل السياسية ، إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشؤون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تخويل المجلس بعض الحقوق التي منحها الامر العالي من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضاً باتاً فكان ذلك مما زاد الرغبة « ولو أنه أجاب بالرفق ووضع المسألة موضع البحث وطاول في بتها سنين ــ لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه ، ويثير الاحقاد حواليه »

سيرة الخديو توفيق باشا

(المفضية الى الثورة)

قال « بعد امضاء قانون التصفية واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم وجد الجناب العالي فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التي كان ينبغي أن تكون له من جهة ماهو خديو وحاكم أعلى في مصر «ابين عريكة الجناب الخديو أو رعايته لجانب والده أو حسن ظنه فيمن سبقت لهم أعمال في خدمة العائلة الخديوية ــ شيء من ذلك حسن لديه إبقاء الكثير ممن كانوا في خدمة حضرة الخديو الاسبق في معيته السنية وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ولم تألف قلوبهم وجدان المرحمة والشفقة على الاهالي ، ولهم مطامع لا تهدأ بعد ماذاقوا من لذائذها الماضية ماذاقوا . هؤلاء يغث عليهم أن يروا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت . وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات ، ولم يبق لهم التصرف المطلق في الاعمال والمصالح

كما كان لهم من قبل، بل أحسوا بأن من الاحكام العمومية مايجري عليهم كما يجري على أفراد الاهالي، وهذه غضاضة في نفوسهم لايسهل عليهم الصبر عليها، فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظناً منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

« ميل الجناب الخديوي الى أن يكون محبوباً من رعيته كان يبعثه على إفاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم اهلا لولاه أو على الوعد باجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوي وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة، وعهد جنابه بالسلطة الخديوية أن لاتعارض في مجراها خصوصاً إذا كانت متجهة الى مالاضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الاجانب. لكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك موضعاً للمعارضة وهو مع خلوص نيته في خدمة الخديويين لايستطيع إخفاء ما في نفسه من غيظ أو ضجر مما لايراه حسنا فكان يظهر في أقواله ما ربما يخدش نفس الجناب الخديو. وقد كان يأتي في بعض مقاله ما يشير الى التهديد بالاجانب وو كلائهم كما اخبرني به الصادق في روايته. ورأى الرابضون حول الاريكة الخديوية لوائح الانفعال تظهر مرة بعد اخرى على وجه جنابه ففتح لهم بذلك باب يلجونه لشفاء مافي نفوسهم، فأخذوا يستنزلون الجناب الخديوي الى بث مافي نفسه فيفيض بما كان يجده، وهم يفيضون في شرح الاقوال وتوسيع دائرة المقصود منها وتحميلها مالاتحتمله، كأنهم مشايخ محققون، يلقون دروسا على طلبة في الازهر مدققين، والجناب الخديو يسمع منهم ويستريح الى مايقولون. وقد انتهى به الامر رحمه الله الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحركاته أثناء خطابه وهيأة جلوسه وما يرى في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم، وما شابه ذلك. وكان رحمه الله يجد في ذلك نزهة لخاطره، ونوعا من التسلية تسر بها نفسه، وتمضي بها وقته. وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت منه معارضة في أمر صغير او كبير مما كان يصوره أولئك المتملقون. وكلما رأى رياض باشا علائم الانفعال اشتد ضجره وكلما اشتد ضجره وظهر في قوله أوفعله التهب غضب الجناب الخديوي عليه وان لم يكن يظهره له، فوصل الامر في اقل من سنة بعد إمضاء قانون التصفية إلى ان الجناب الخديو لم تكن له أمنية إلا عزل رياض باشا، لكنه كان يظن ان قناصل الدول خصوصاً

قنصلي فرنسا وانكلترا يعارضان في عزله لو أراده. فأخذ يلتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضاء به بدون معارضة، فاستافت بعض من حوله نظر جنابه إلى الحادثة القريبة العهد التي كانت سبباً في عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو الاسبق فرآها أنجح الوسائل»

إثارة الخديو الضباط على رياض

« أخذ الجناب الخديوي من ذلك العهد يستدني منه أمير الألاي الاول الذي كان يحرس السراي وهو علي بيك فهمي ويستدعيه الى مجالسه الخاصة ويمازحه ويمزح به في الحديث على اختلاف شؤونه ويظهر له أمانيه في الاحسان عليه وعدم وجود السبيل إلى ذلك حتى قال له مرة: اني أردت الانعام عليك بألف جنيه ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا . ومرة اني أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا . وأمثال ذلك حتى اعتقد علي بيك فهمي ان الجناب الخديوى ساخط على رئيس نظاره وان رئيس نظاره عدو منفعته ومنفعة إخوانه، وعلى المألوف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجري حولهم

« كل هذا والمرحوم عثمان رفقي باشا يشتد في معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم في مصر ويهيء المشروعات لاراحة القوة العسكرية منهم، فماذا كان يدور من الحديث بين علي فهمي وبين اخوانه الضباط الفلاحين؟ وماذا يتصورونه في منزلة رياض باشا من الخديو؟ وماذا يتخيلونه في ميل جنابه الى فصله؟ وماذا جسمته أوهامهم من معاداة رياض باشا للضباط حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفقي فانما هو من رئيس النظار؟ ولينظر ماذا يهجسون به من وسائل التخلص من رياض باشا ورفقي باشا معاً على ظن انهم لو فعلوا شيئاً من ذلك فانما يفعلون مايرضي خديويهم، ثم تأمل في الاعاليل التي يمكن أن يتخذوها حجة على ان ما يعملونه في هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع

سيرة الاجانب من أسباب الثورة

عقد الاستاذ ههنا فصلا في بيان كون نفوذ الاجانب كان من أسباب الثورة

بدأه ببيان أن الضباط وغيرهم لما استروحوا من بعض المظالم انفسحت آمالهم في استكمال الشفاء مما بقي من عللهم والتنبه لما وزيادة التألم منها كالمريض يشعر بالألم بقدر الامل في الشفاء . وبهذا التنبه ظهر لهم أن قانون التصفية وضعه الاجانب لمصلحة الاجانب وأنه حرم البلاد حريتها، وأن الاجانب يتقاضون رواتب فاحشة من الخزينة في إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح التي وظفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد . وانهم هم اصحاب الكلمة النافذة في الادارة والمالية وانما يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد، فالحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لاتهتم بسعادتها ولا شقائها إلا من وجه ماتبقى قادرة على تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة الى المندوبين من قبلها، فقسوة الاجانب الربويين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع في خواطر الملهين بذلك «ان حقيقة الظلم واحدة وانما طورها الجديد أرسخ أساساً وأضبط نظاما وأظهر استعداداً للخلود فلا محيص عنه . فلو استفحل سلطانه وامتد من دائرة الى أخرى آل الامر إلى وقوع البلاد في شدة منظمة وضيق محكم الحلقات »

وذكر في هذا الفصل أن ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وماينشرونه في الجرائد التي تطبع في أوربا وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن الحزب الوطني يرى ماقررته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لاينطبق على رغبته وأمانيه للبلاد ـ كل ذلك كان يهيئ الفرص للناقمين على رياض . وذكر أيضاً أن الاجانب لم يكونوا راضين عنه لان ربحهم من البلاد قل بحسن سيرته. وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطة إذ كان الباشا يريد تخفيف امتيازات الاجانب فيه والبارون يأبى ذلك فأخذ يسعى في ايجاد الطرق لفصل رياض باشا

﴿ أسباب تألب الضباط الذي أفضى الى الثورة ﴾

تقدم أن بعض الضباط رفعوا عريضة الى وزارة شريف باشا التي سبقت وزارة رياض باشا يلتمسون بها عزل ناظر الجهادية لعلة برداءة الطعام وعدم النظر في

أحوال المستودعين وأرباب المعاشات . فناظر الجهادية لم يهتم بالبحث في ذلك ولا في أسبابه ولم يسع لتفريق من جمعتهم تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاها بأن يحمل العسكر على الأخذ بالاعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم الضباط إحياء الآداب العسكرية وإعادة النظام السليم اليها ، بل اشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصبري والجركسي وترك كبار الضباط هملا بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش في أواخر سنة ١٨٨٠ ميلادية وحصر ترقي الضباط في المتعلمين بالمدارس الحربية اضطربت أنفس الضباط المصريين واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام إنما أحدث لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور في أمرهم

عبد العال بك وعلي فهمي بك

وبينما هم كذلك أحال عثمان رفقي باشا عبد العال على الاستيداع وأقام أحمد عرابي مقامه . واتفق أن انحرف الخديو عن علي فهمي أمير الألاي الاول وأبدى رغبته في نزع سلطته عن بلك الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة ـ وهو يعلم من سخطه على رياض باشا مايعلم ويعتقد أن سلطته لاتنهض بالتخلص منه ـ فخاف أن يحل به ماحل بعبدالعال وأن يبدل بجركسي فانضم الى من مسهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

أحمد عرابي بك

قال «أحمد عرابي بك كان ينظر الى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو إلى عدوه، وكان يحتقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون بروائها ونفاذ الكلمة فيهـا ، وربما لم يكن مخطئا في الكثير منهم، وكان أجرأ اخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة، فلما شرعت نظارة الجهادية في عملها الجديد وبدأت باستيداع عبد العال غلب على ظنه أن مايصل الى عبد العال اليوم يصل اليه غدا فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به ، ووجد هو وإخوانه فيما كشفه علي فهمي من النفرة بين الخديو ورياض باشا سبيلا لاجراء

على مقاومة تلك المشروعات ففزع الى رئيس النظار وشكا اليه مامس عبدالعال فقبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقي كل في وظيفته »

أحمد بك عبد الغفار

كان [قائمقام سواري] وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لامور أهمها تقاربهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة فكان كل يطلب الخلاص من الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما وشكا اليه عثمان رفقي تصرف أحمد عبد الغفار معه فكان من ثمرات ذلك أن الخديو كان يستدعي احمد عبدالغفار في طريق منتزه الجزيرة ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهراً ميله اليه ويسمع شكواه من عثمان رفقي ويعده باشكائه ورفع ظلامته . وهذا مما كان يشجعه على مناوأة رئيسه ويزيد في حقد رئيسه عليه (وذكر الاستاذ حادثة ضاعفت العداوة).

وبعد أيام كان عرابي وبعض شركائه في الخوف من نظارة الجهادية في وليمة ببيت نجم الدين باشا دعاهم اليها إثر قدومه من الحج . وبينما هم على المائدة قال اسماعيل كامل باشا : ان ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لا يحمد عليه . عزل أحمد عبدالغفار من قائمقامية السواري وعين بدله محمد شاكر بك . فلم يتم أحمد عرابي عشاءه بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى بيته وكان فيهم علي فهمي وعبدالعال ودعوا احمد عبدالغفار وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل احمد عبدالغفار بلا محاكمة على خلاف القانون . وذكروا أشخاصاً آخرين عزلوا واستبدل بهم شيوخ فانون أو جهلة دونهم في المعارف العسكرية ، وعددوا من سيق من الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك. وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكري ينظر في جميع أطرافها ، فان كان لهم حق منحوه ،وإن استحقوا عقوبة قبلوها .

وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال اعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص

رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو وأخرى الى رياض باشا بامضاء أحمد عرابي وعلي فهمي وعبدالعال حلمي بالنيابة عن جميع الضباط المصريين فبقي التقرير ١٧ يوما تحت المداولة بين الخديو ورئيس نظاره وكان من رأي رياض باشا أن يجاب طلبهم في تشكيل المجلس العسكري ولكن الخديو لم يقبل ذلك

مظاهرة الملأ المصري للضباط

« شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر ، علم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره، فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب العالي واتحدت وجهتهم في الغاية وإن اختلفت الدواعي والبواعث، فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تشكيله، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وأمناً على أنفسهم، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم، والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون في ارضاء شرههم ؛ والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية، وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى في الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتي خلف له يمكنه مجاراته في مطالبه ، والجناب الخديو لايكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظار بل تلك أمنية من أمانيه

« فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح في الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتيه ناظر الحربية لايمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأتيهم الاخبار بأن الجناب الخديوي لايأبى إجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذي لايريد ذلك ، والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الاخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ماطلبوا في تقريرهم كما قدمنا

« زاد هذا كله في جراءة الضباط وكلما طالت مدة التردد في حسم المسألة كثرت الاشاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضعف الحكومة وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم قال دولته في إحداها لعرابي ومن كان معه إن ماأودعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجا عما حدده لكم

القانون وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يعد الاجانب ذلك سبيلا لزيادة تداخلهم في الحكومة واشتداد وطأتهم عليها

« وأحس بذلك البارون درنج فأرسل الى أحمد عرابي واخوانه يقول لهم انه يسره مايراه من صلابتهم في عزيمتهم، واشتدادهم في المطالبة بالعدل فيهم، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولا يضعهم مايهددون به، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة وليس في الامكان ان حكومة متمدنة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم، الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولابناء بلادهم

بدء الثورة بحادثة قصر النيل الشهيرة

جعل الاستاذ لهذه الحادثة تمهيداً بين فيه ان الضباط كانوا يتوهمون ان رياض باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر — وان الخديو نفسه كان يظن ذلك — ونتيجة ذلك ان مقاومة وزارته مقاومة للدول فلا يتعرض لها الا بوسائل الرفق واللين، فلما قال قنصل فرنسا الجنرال لعرابي ما قال « انكشف ذلك الوهم، وتحول السير من سؤال الخاضع، الى إلحاح المضارع» فاخذ أحمد عرابي وعبد العال وعلي فهمي يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ماتسنه نظارة الجهادية من نظام ضار بهم وطلب عزل ناظرها مثار تلك المخاوف

علا نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب فانعقد مجلس النظار برياسة الخديو للاسراع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية «فكان من رأي رياض باشا أن يحال تحقيق مافي التقرير على مجلس عسكري. وكان من رأي ناظر الجهادية القبض على الضباط الثلاثة عوامل هذه الحركة والحكم عليهم بالعقوبة التي استحقوها بجرأتهم هذه. ووافقه بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية، وكان الجناب الخديوي من هذا الرأي. واستمر الجدال ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء فقاموا الى المائدة، وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع إلى المداولة جاء أحد رجال المعية (طلعت) باشا الى رياض باشا وأسرَّ اليه ان بعض الناس يتهم دولته بمجاراة الضباط والاخذ بناصرهم طمعاً في ان يملك قلوبهم ثم يستخدمهم في

الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا ساكتاً وصارت الاغلبية على رأي الجناب العالي وانما سأل رياض باشا ناظر الجهادية: هل تتحمل تبعة هذا الامر ؟ فقال نعم . وصدر الامر بالقبض عليهم وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثني به أحد النظار في ذلك الوقت ولا أظنه إلا صادقا»

« لم ينفذ الامر الخديوي بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر »

ثم بين الاستاذ ذلك بما حاصله ان ناظر الجهادية كتب الى الضباط الثلاثة يدعوهم الى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الاميرة جميلة شقيقة الجناب الخديوي أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — وهو اليوم التالي ليوم صدور الامر العالي بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لان موضوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الالايات ولا مثله بمعتاد ففطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ فدعوا من يثقون به من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة فقنع الجميع بان خطراً سيحل بالثلاثة ثم بكل من يشايعهم — أو بكل ضابط مصري على ما كان يخيل اليهم — « فحملهم الحرص على وظائفهم وأقدمهم العلم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم لمكان الاختلاف الواقع في أمهات عناصرها، وما هاجهم من وساوس ذوي الكلمة في مصر وما كانوا يتخيلونه من رضاء الكافة عما يفعلون — على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك غير مبالين بعاقبة وكان في الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد بكباشي في الالاي الاول - ألاي الحرس - وخضر خضر بكباشي في ألاي السودان فأخذا على عهدتهما إنقاذ الضباط الثلاثة إذا سقطوا »

بعد هذا التمهيد ذكر الاستاذ حادثة قصر النيل المشهورة وملخصها ان الضباط الثلاثة جاءوا قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الالاي الاول فاذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية فلما وصلوا الى حيث الناظر تلي عليهم الامر الصادر بسجنهم وجردوا من سيوفهم وألقوا في السجن « وتقاذفت عليهم الشتائم وكان أكثرها وأبلغها في التحقير كلمة (فلاح) فعاد المقتفون لاثرهم وبلغوا ضباط الالاي

الاول مارأوا فنهض محمد عبيد بالعسكر الذى تحت قيادته لانقاذهم فاعترضه القائمقام [خورشيد بك بسمي] فلم يسمع له قولا وشاهد الخديو حركتهم فأمر [بروجي الحرس] بأن يدعو ضباط الحرس الى السراي فدعاهم فلم يستجب له أحد . وانطلق بهم محمد عبيد الى قصر النيل فهجموا على الديوان فيه فأطار الرعب قلوب الامراء فيه ومنهم الناظر والوكيل ووثب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه فمنهم من كسر ومن جرح وفتح الجند مستودع الضباط الثلاثة عنوة فخرجوا ظافرين . وأرسلوا الى ضباط ألاي السودان وكان في طره فحضر حالا وإلى ضباط الاي العباسية وهو ألاي عرابي وكانوا قد قبلوا أميرهم الجديد الذي خلفه بعد حبسه والتمسوا العفو عنهم ثم بلغهم ماحصل فوقعوا في حيص بيص . وقد خطب عرابي في العسكر والضباط المجتمعين وأثنى على اخلاصهم في حب أمرائهم ثم أمرهم بوضع السلاح وأخذ يكتب الى القناصل ويستعد لمخابرة سراي عابدين

(قال الاستاذ) « كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية فجاء الى سراي عابدين — وعرابي يرسل شكواه إلى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل ان الضباط لم يأتوا عملا إلا مايقي أرواحهم ويضمن لهم اقامة العدل فيهم، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف وبسط له الحيلة التي دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم . وشرح له ماحصل لهم من سلب السيوف والحبس على انهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية وهو طلب عادل لسوء تصرفه . فورد له الجواب من [البارون درنج] بالثناء على عزيمته وثباته في مطالبه العادلة وبشره بأنه لا خوف عليه مادام الحق في جانبه . فسر عرابي بذلك . أما باقي القناصل فلم يجيبوه بشيء »

ثم ذكر ان الخديو أرسل الى عرابي يسأله عن سبب هذه الفتنة فاجابه بانه لايريد إلا عزل ناظر الجهادية فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون أحدهم خلفا للناظر فلم يقبل أحداً الى أن عرض عليه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف فقبله فعين في الحال ناظراً للجهادية . فارسل عرابي يشكر الخديو على ذلك وطلب العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا فعفا عنهم . وصدر اليه الامر بان يصرف

العساكر في الحال فلم يمتثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد وانتهت بذلك الحادثة التي تعرف بحادثة قصر النيل

(نتيجة ما تقدم وتباين أفكار عرابي ومشايعيه ورياض باشا والخديو فيه)

« كان يمكن لعرابي أن يطلب فصل رياض باشا بل وأكبر من ذلك لاستكمال الضعف في ذلك الوقت وانحصار القوة فيما بيده ولكن الامر كان غير مدبر فان طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه حتى كانوا يفضون اليه بما يريدون بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه بالقوة يكفي في أن يقدم رياض باشا استعفاءه ولا حاجة الى التصريح به لعرابي ومن معه خوف الاخفاق فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم فكانت الوساوس منحصرة في تزيين ماهمّ به الضباط من طلب حقوقهم

« أما عرابي فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به في منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذي أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا ، فلم يكن له هم سوى الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدو والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لانه هو وإخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم

« وجميع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ولم يستلفتوه الى أمر آخر فظن أن مقال الاعيان والذوات الفخام وما يأتيه من الجانب الاعلى وما يسمعه من العامة ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات عليه انما هو لعدالة الطلب واعتدال الرغبة ، فخيل له أنه بعمله هذا يرضي الجناب الخديو والكافة وقنصل فرنسا أيضاً بتطهير الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فانحصر طلبه في عزل عثمان باشا ، وما بقي من سلطة الجراكسة تسهل إزالته بعد ذلك فانقضى أرب عرابي ولم يستعف رياض باشا

«أجال رياض باشا فكره في أسباب هذه الجرأة التي أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة مع أنهم ليسوا إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة وتنزيه الحاكم عن أن تتطاول اليه الاوهام بالمقاومة فضلا عن الالسن والايدي، فانحصرت كل الاسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال وأن صفته هذه وجهره بتعضيدهم هو الذي نفخ فيهم هذا الروح ولولاه لم ينبض فيهم عرق، ولم ينطق لهم لسان، لهذا سعى لدى الجناب الخديوي في أن يطلب من رئيس الجمهورية استدعاءه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفاً له موسيو ستكوفيش

«لم يدر في خلد رياض باشا ان البارون درنج كان العلة المتممة وان هناك أسبابا أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب، وان الفتنة لا تسكن مادام في الوزارة غير مرضي للجناب الخديوي، مضايقا لمن يحفون به، آبياً البحث في تشكيل مجلس النواب، واثقا ببعض ضعفاء العقول من الحكام، مناصباً للذوات الفخام بلا مجاملة، غير ناظر إلا إلى مايراه حسناً، وما يعده خيراً للبلاد بدون التفات الى ما يخفف مرارة الحق ان كان محضا، ويجلو جمال النية ان كانت صالحة، ولهذا قد اكتفى بعد إبعاد البارون درنج بالتفويض لناظر الجهادية الجديد في إزالة أسباب الشقاق المخيم في المراكز العسكرية والاخذ بزمام هؤلاء الضباط وردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم الى الطاعة، وأما مابقي من الاسباب الحقيقية للفتنة وهو ما في نفوس أهالي البلاد من الميل إلى تغيير شيء من السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجناب الخديوي من النفرة منه فلم يلتفت اليه لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفس رياض باشا

«لم يكن يخطر ببال الجناب الخديوي في ذلك الوقت أن الامر يصل الى هذا الحد، وانما كان يظهر لبعض الضباط انحرافه عن رياض باشا ويلمح إلى ان رئيس النظار هو عدوهم وهو الساعي في تقليل القوة العسكرية وفي إيجاد النظامات التي تحرم كثيراً من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم في الجندية ونحو ذلك، ثم يميل في مجلس النظار الى أخذ الضباط الثلاثة غيلة وتجريدهم من سيوفهم قبل محاكمتهم، كل ذلك

حتى يحدث شيء من الالزام يعز على رياض باشا قبوله فيستعفي . كان الجناب العالي ينتظر أن يستعفي رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الامر بحبس الضباط الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، كان يظن بعد ذلك أن غاية ما يؤدي اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجمهروا حول رئاسة النظار يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصروا على ذلك فيستعفي رياض باشا كما استعفى نوبار باشا في حادثة الخديو الاسبق ثم تنتهي بذلك الحادثة ويعود النظام الى مقره

« وغاب عن الافكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا كانت لم تزل تشاهد في الجندية تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الاحوال كما يعرف من العريضة التي قدمت في وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض ، ثم لو كان الجناب العالي اظهر رغبته في عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ودبر الامر معهم وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه فلابد من ايجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره لكان ما أتاه الضباط صادراً عن أمره ولبقيت هيبة المسند الرفيع في نفوسهم مع اطمئنانهم على أرواحهم ومراكزهم من ناحية جنابه ، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئاً جديداً سوى الامتثال لأوامر الحاكم وان كانت سرية ، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول دائما بين النظام والفوضى . نقول ان ذلك كان اقل خطراً فقط ، أما سوء عاقبة مثل هذه الافاعيل فمما لا محيد عنه غالباً

« ثاني يوم الحركة استشعر الجناب العالي أن في الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في همين عظيمين بعد أن كان في هم واحد — هم رياض باشا وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياط لأهمها خطراً وأشدهما وهو الثاني ، فاستدعى علي فهمي أمير الالاي الاول وذكره بما كان له من الزلفى عنده ، وأظهر له غاية الرضى عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الالاي الى سراي عابدين ليقسموا للجناب الخديوي يمين الطاعة والفداء ، ويقسم لهم جنابه يمين التأمين من كل عقوبة على مامضى

« إراد بذلك الجناب الخديوي أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف

بها مابقي منه ، فاذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلا ، لم يستطع ألايه أن يفعل مثل مافعل الألاي الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه ، وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي . ثم إذا استراح من كليهما رجع على علي فهمي وضباطه ، وبذلك ينتهي القلق ، لكن عرابي أحسن بالامر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه علي فهمي من يمين الامان ، فدخل برضاء الجناب الخديو - أو على غير رضاه - في رابع يوم الحادثة وتقاسما الايمان

« الى ماقبل الحادثة بيوم كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية ويخشى شماتة أعدائه من الجراكسة مضطهديه فكان كل همه كما قدمنا ، أن يأمن على وظيفته ويتقي من عدوه ، ومع هذا فقد رفعه طلاب تغيير الحال إلى إعداد الضباط لفعل مافعلوا يوم قصر النيل . أما وقد هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ، وحولها عن وجهها ، وجعل الآلة فاعلا ، والفاعل آلة ، وذلك مما يعد جرما في نظر كل واحد حتى إن سريرته مهما عميت لايمكن أن تغفل عنه ، ثم رأى من الجناب الخديوي تخصيصا لعلي فهمي بتقاسم اليمين معه - فقد ولت عنه السكرة ، وآبت اليه الفكرة ، ومثل له جرمه ، وشعر بان حاكمه لايسمح له بقوة تعلو قوته ، والنظام يقضي باهلاك هادمه ، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولا ريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشماتة بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله في يمين الخديو لايكفي في وقايته ، لانه لم يكن يجهل قيمة الايمان ، ولو كان اليمين(؟) عنده يلزم الحالف بما حلف عليه لما جاء هو بما نقض الايمان العسكرية التي حلفها عند استلام علم الامرة على فرقته ، فاخذ يحتاط لنفسه ولمن شاركوه في الجرم ، ويلتمس العضد من كل طرف ، ويفر من الموت في كل سبيل

« ركب به الجبن طريقا عمياء ، يخبط فيها خبط العشواء ، يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمده ، والرغائب الخرقاء تساعده الى أن أودت به وبالبلاد خطيئته

« أول ماأخذ به من الاحتياط أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلا ليحموهم من الغيلة المبتذلة في أرض مصر ، علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقي

ماقد يوجه اليه من سلطان الحكومة فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليـه واخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صغار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضـابط لهم، وكيف يتداخلون فيما ليس من شأنهم ان يتداخلوا فيه كما ستراه فيما بعد »

ثم بين الاستاذ ما طلبه عرابي باشا لاستمالة الضباط والعسكر اليه ومنـه زيادة رواتبهم زيادة كبيرة وصدور أمر عال بتشكيل لجنة مؤلفة من عشرين اميراً من كبار الضباط هو احدهم للبحث في انظمة العسكرية والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية احوال المستودعين، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بجعل ناظر الحربية هو الذي يعرض ذلك على الحكومة بل كانت العرائض تكتب في بيته او بيت احد شركائه « ثم ترسل الى الالايات ليختم عليها الضباط صغاراً وكباراً وبعض الصف ضباط ثم تقدم من قبل ضابط ألاي إلى نظارة الجهـادية أو الى رياسة مجلس النظار — فلينظر بم كان يشتغل الضباط والعساكر وفيم يصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الاعمال العسكرية ويتولد فيهـم حب التطاول الى ماهو خارج عن الحق المخول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام »

ثم ذكر أن محمود سامي باشا أراد أن يتخـذ سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر مامنحوه وسيلة لازالة ماوقر في انفسهم من معاداة الحكومة لهم، وما يحوك في صدر الحكومة من الريب في مسالكهم ،فاحتفل لتلك المنحة احتفالا باهراً في نظارة الحربية بقصر النيل دعا اليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الاصلاح ونسب ذلك إلى همة الخديو وإخلاصه، وصدق عزيمة رياض باشا وجده، وسائر النظار ورجال الحكومة، وبين ان هذه النعمة لاتحفظ إلا بالشكر وهو الطاعة والخضوع للاوامر. ثم خطب رياض باشا فبين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها وخاطب الضباط فذكر لهم مانالوه وذكرهم بوظيفتهم من حيث هم قوة الحاكم وآلته في تنفيذ أوامره ،وقام بعدهما عرابي فصدق ماقالا وقال بلسان الجند والضباط انهم مقيمون على طاعة الحاكم الذي هو مصدر هذا التقدم وانهم آلته

للنفذة في قبضة يده يديرها كيف شاء[1] — ثم قال الاستاذ

« كل مطلع على ماقيل في ذلك الاحتفال يجد منه ان الحكومة كانت تريد أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة ، وان عرابي كان يعدها بذلك بنفسه وبالنيابة عنهم، وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمراً الى ذلك الوقت ، أي مابعد حادثة قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر ، وقد كان يؤخذ من حالة عرابي عند ما كان يجيب رياض باشا ومحمود سامي باشا انه كان ينطق بخلاف مايضمر ، وان حجاب الطمأنينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب

مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط

« قلنا إن الجناب الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيل يطلب الخلاص من أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه ، فشغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل لكن لا مع وزرائه والمسؤولين عن الأمن في حكومته ، بل مع حاشيته وبعض رجال معيته ومن كان يختصهم من خدمه — ذلك مهب البلاء على كل حاكم ، ومنبع الشقاء لكل أمير : أن يتخذ لنفسه عمالا في الخفية غير الذين أقامهم على الاعمال في الجهر . نعم للحاكم بل عليه أن يستشير كل من يراه أهلا لان يشير متى وثق من عقله ، واتضح له حسن السابقة في أعماله ، ولكن من المفروض عليه أن يكاشف بذلك رجال حكومته الذين ألقى اليهم مقاليد أموره وفوض اليهم تدبير شؤونه في رعاياه ، فاذا أقروه على العمل بما أشير به عليه ورآه حسنا مضوا فيه بالاتفاق وإلا نبذوه أو ادخروه لوقت آخر ، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ أوامره المنطبقة على مصلحة البلاد ، بعد التروي في جميع ذلك والثقة بسلامة العاقبة فإن اختلس لنفسه شيئاً من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم زمام الامر من الحكومة تباينت المسالك ، واختلفت الغاية ، وفسد بذلك نظام الاعمال ، وسقطت البلاد في الفوضى وهجرتها الطمأنينة ، وتولاها القلق وظهر ضعف الحاكم ، وباد سلطانه — عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها القوى وتخالفت النيات ، واستبد كل من الوازعين فيها برأيه ، ومضى على ماتزينه له نفسه ،

(١) تراجع هذه الخطب في كتاب مصر للمصريين

« لم يأخذ المرحوم الخديو السابق بذلك الاصل الذي وضعه الله نظاما لكل حكومة، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول الى ماهمه من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت أمرتهم، فبدأ بعبدالعال ظنا منه انه كان أجرأهم وأشدهم نفوذاً في عساكره، وأفضى بسره في ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال و كان ناظر دائرته الخاصة ، فأخذ يوسف باشا على عهدته موافاة إرادة مولاه

« استخلص يوسف باشا من صف ضباط ألاي السودان باشجاويشاً شركسيا ودعاه الى بيته في أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ وأكرمه و كلفه أن يلوي العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمرونهم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل ،وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً، فاذا صدر الأمر بنقل أمير ألايهم أو غيره من كبار الضباط الى ألاي آخر فعليهم أن لا يعارضوا في ذلك وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم . فذهب الاحمق و كتب عريضة ضمنها ان العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم، واذا نقل أي واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمراً من الاوامر التي تصدر بذلك، وطلب من افراد الجند ان يختموا عليها قائلا انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم فختم الكثير منهم عليها لانه لا علم لهم بالقراءة والكتابة ، وقد ألفوا تلك العادة التي عودهم عليها رؤساؤهم من ان المطالب التي يطلبها الجند من الحكومة تكتب بها عرائض ويطلب من الضباط أو العساكر إيقاع الاختام عليها، غير أن أمين أحد البلوكات اطلع على العريضة فأخبر بها اليوزباشي سليم افندي الزيدي، وسلمها اليه وهو سلمها الى عبدالعال ،فقدمها عبدالعال الى نظارة الجهادية. فأوصلها الناظر الى الجناب الخديوي فامر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد فصرح الباشجاويش بأن يوسف باشا كمال هو الذي أمره فصدر أمر الجناب العالي بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظناً منه ان ذلك ينفي الشبهة في ان لجنابه يداً في الحادثة ، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من ان ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملا إلا بارادة مولاه ، ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبد العال ومساعدة عرابي له

« قال بعض كتاب الحوادث في تلك الاوقات ان العريضة كانت تحتوي على

التماس العساكر والصف ضباط أن يعفو الجناب العالي عنهم فيما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل، وان ما فعلوا من ذلك انما كان باغراء ضباطهم لهم، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لا ينطبق على الحقيقة، على انه ظاهر السخافة، لأن الجناب الخديو قد أصدر أمر عفوه عما وقع في تلك الحادثة عن جميع العساكر والضباط وانتهى الامر فيها، ولم يكن يخطر بالبال ان أحداً سيؤاخذ على ما فعل ولم يحدث من جانب الحكومة ما يوجب الريب في ذلك حتى يلتمس العفو، بل كانت الظواهر جميعها متضافرة عن ان الرضاء من جانب الحكومة على الجند ورؤسائه تام عام

« وفي أوائل شهر ابريل سنة ٨١ حدثت حادثة أخرى، وذلك أن رجلا يسمى فرج بيك الزيني من أمراء الألايات المستودعين كان يسكن في طره بجوار مركز آلاي السودان، وكان من خدم جناب الخديو السابق رجل يسمى ابراهيم أغا التوتنجي فكان من رأي ابراهيم أغا أن يلقي الخلاف بين العساكر وبين أمير الالاي عبد العال بواسطة فرج بك الزيني، فاتفق معه على الامر، وكان لفرج بك صهر يساكنه في بيت واحد فاتخذه آلة لتنفيذ ما يريد، فتعرف الى شاويش يسمى عبد الخير فدعاه الى فرج بك فأكرمه وطلب منه أن يكثر من التردد عليه هو واخوانه فذهب عبد الخير وأخبر البكباشى خضر خضر بما وقع له فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون ففعل، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صغار ضباط السودان في ليلة من ليالي شهر ابريل سنة ٨١ فأبلغهم فرج بك سلام جناب الخديو وان جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميراً سودانياً منهم (وهو فرج بك) وانه متى صار الامير منهم رقى الباشجاويش الى بكباشى، والجاويش الى قول أغاسي، والاونباشى إلى ملازم، ولا يتم ذلك إلا أن تعملوا على ما أشير عليكم به وموعدنا للكلام في ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطىء البحر، فتلقوا ذلك منه بالقبول وانصرف عبد الخير وأفضى بالامر إلى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة فعليهم أن يحضروه اليه، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قمح على مقربة من البحر فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم الى الحضرة الخديوية ليبنى عليها ذلك التغيير، فعند ما سمعوا ذلك قام

واحد منهم وقال هذا لا يريد بنا خيراً وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنا في الحال، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى فاحتمله عبد الخير وساعده اخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر، فكتب الواقعة بالتفصيل الى أمير الألاي لخضر وطلب محاكمة فرج الزيني فحوكم وظهرت معه رسائل من ابراهيم أغا تدل على انه مصدر هذا الشغب، وحكم على فرج بيك بانزاله عن رتبة القائمقام الى رتبة البكباشي و بنفيه الى السودان، فعفا عنه الجناب الخديوي وأرسله الى السودان موظفا في وظيفة تليق به

تأثير دسائس الحاشية الخديوية في عرابي

« قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابي بعد حادثة قصر النيل، ودخوله في يمين الأمان مع علي فهمي لم يخفف شيئا من قلقه، وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث والوقوف على مصادرها وان خاصة الجناب العالي هم العاملون فيها وهم لا يصدرون إلا عن رأيه السامي، فأيقن ان العفو الصادر واليمين السابقة لم يكونا إلا ألفاظا قصد بها إلهاؤه وإلهاء اخوانه عما يراد بهم، وأن الانتقام على ما صدر منهم ضربة لازب، وأن جميع ما اتخذه من وسائل جاب الجند اليه، وجمع كلمتهم عليه لا يحميه من الغيلة، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة

« لهذا أخذ ينقي الجيش من كبار الضباط الذين لا يثق بهم ويخشى أن يكونوا عونا على تدبير كيد يكاد به، فأوحى الى ضباط الاي العباسية (ألاي عرابي) أن يخالفوا أوامر البكباشي (ألفي افندي يوسف) وأن يهينوه اذا عرضت الفرصة فتجاوزوا الحد في سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يوما بتقديم استعفائه فأبى، ودافع عنه يوزباشي يسمى خليل افندي علي، وانتهى الامر إلى عرابي فألزم البكباشي بان يستعفي وحوكم اليوزباشي فحكم عليه بالسجن مكبلا بالحديد، ثم استودع مع القضاء عليه بأن لا يعود الى الخدمة العسكرية أبدا، وكذلك أشار إلى ضباط الاي القلعة فطلبوا الى النظارة عزل أميرهم حمد بك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بك حيدر، وكذلك فعل ضباط ألاي الطوبجية فعزل حاكم الالاي حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبري، وحصل كثير مما يماثل ذلك ولا فائدة في الاطالة بذكره

« أفراد الجند كثير، وعدد الضباط عديد، وقوة الجناب الخديوي أعلى من قوة عرابي ، وليس في الامكان لضابط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها في جند مثل هذا مهما قل عدده ، خصوصاً بعد أن ألف أفراده وضباطه مناوأة أرباب الامرة فيهم ، وعرفوا في انفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى منهم بحق وبغير حق ، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسعون اليه من ذلك ، فمن الممكن القريب أن الحضرة الخديوية أو الحكومة نفسها توحي إلى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابي وصاحبيه وأن يأخذهم في مأمنهم على غرة منهم ، فان لم يكن ذلك بازهاق الارواح كان بافساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون ، ولو اتفق الجناب العالي مع حكومته على ذلك لتم لهما ما أراداه ولكن كان القضاء وسوء التدبير يسوقان البلاد إلى ما صارت اليه

طلب عرابي مجلس نواب وسببه

« تلك المخاوف استلفتت عرابي الى أن يخرج من حوله وقوته الشخصيتين وأن يلتمس قوة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معاً ولها من الشأن في مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجا عن الدستور أو مخالفا للعدل مما تخشى عواقبه وتتقي مصايره ، وكان يطالع في الجرائد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الاوربية ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك اوربا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ اصول النظام ، وهي القاضية على كل حاكم بالتزام حدوده ، وبها محي الاستبداد في الارواح والاموال ، وحفظت الحرية الشخصية في الاعمال ، ولعب بعقله هذا الخيال ، وظن انه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية ، ولو أن حكومتها كانت حكومة شوروية ، لكانت الشورى أو مجالس النيابات عاصما لحياته ، حافظا لحقوقه في وظائفه ، ومأمناً يلجأ اليه ، إذا حوم طائر الانتقام عليه ، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضي فيها القانون ولا يستبد فيها الرأي لأوخذ عرابي ومن معه أشد المؤاخذة ، ولقضي عليهم بجزاء ما هتكوا من حرمة القانون ، وما أدخلوا في الجند من الميل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العلياء

وانما الذي استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الافاعيل هو ضعف سلطة القانون وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه، وميل صاحب الرأي الاعلى في الحكومة الى تلافي الامر بما ظنه أسد وأنجح مما حده النظام، ولو كان ذلك الحاكم مقيداً بدستور أو بآراء نواب امته لامتنع عليه ان يذهب الى ماذهب اليه، ولقامت الامة بلسان نوابها تطالبه أن يحل اشد العقوبة على من اعتدى على حدود ما شرعته لجندها، ولكانت قوة الامة قد قضت على قوة الجيش وأبادتها لو خالفتها، لكن تلك معارف تعلو أن يتطاول اليها فكر كفكر عرابي ومن كان معه، وغاية ماتوهم ان مجلس النواب هو من ابناء البلاد وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم او يعزل من وظيفته وإن تمدى حدود كل نظام ما دام يطلب طلباً يظنه هو عادلا. لهذا اراد أن يستعمل مابيده من السلطة على الجيش في المطالبة بانشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات في اوربا، ثم تخيل انه اذا أنشىء هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنيبوهم فضل من كان السبب في تشكيله فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون، بل وثق بانه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم إلى الغاية التي يريدها منهم. ولم يخطر بباله انه إذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التي يلجأ اليها إلى هاوية العدم، فانه إذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بامرها، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها، وإذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطانا في نظر الامة أن يكرهها على عكسه فتنقلب عليه بعد ان كانت له، واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند فما الفائدة من إنشائه مع وجود الجند، فليستغن عنه بالقوة العسكرية ولتكن هي الملجأ دونه، فكيف يتصور أن يطلب تشكيله ليكون واقياً مما لم يقو الجند على الوقاية منه؟

«هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي تمثلت له جنايته في صور أغوال فاغرة الافواه محددة الانياب، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه، فهو في فزع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا سيوفا مسلولة، أو حبالا منصوبة، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة: الخلاص الخلاص الهرب الهرب. ولم يتمثل في مخيلته مهرب اوفى له من

طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه

« وشد أمله في نيل أمنيته ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس كـكثير من أهل الطبقة الوسطى يهمسون بما يدل على القلق ويشعر بالملل من ادارة رياض باشا لأعمال البلاد وسياسته فيها للمآرب التي بيناها ، فأخذ يتحسس ما في النفوس ، ويتسمع ماتنطق به الالسن ، فوجد ان أمنية تغيير الحال لم تزل تجول في صدر كل واحد ممن كان يفتابه ، ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه إلا باستدعاء جناب الخديوي الاسبق اسماعيل باشا أو استحياء اسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب ذلك بعد ماذاقوا على عهدهما ماذاقوا . فقد نسي الماضي واحتدمت الشهوة في التملص من الحاضر ، وكلة [مجلس النواب] كانت لم تزل دائرة على الالسنة ، وفي وهم الكثير ممن نظروا في سير الامم الاوربية ، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق معنى هذه الكلمة [تشكيل مجلس نيابي وحكومة شورية] فلما نطق عرابي وهو صاحب النفوذ في الجند بانه يريد انشاء مجلس النواب سمع دوي الاستحسان من كل جانب ، وصفقت له الاحشاء بين الجوانح قبل أن تصفق له الايدي ، فاشتد بذلك عزمه وازداد طمعه ، وخيل له أن الامة ستكون سنده

« ولعلمه أن علاقة مصر بالدولة العثمانية قد لا تسمح له أن يجاهر بايجاد شكل في الحكومة المصرية ليس معروفا عند السلطان العثماني بدأ بتحرير عريضة أمضاها هو وعدد كبير من الضباط ختمها بالشكوى من استبداد الحكام في الاقطار المصرية وأن ذلك الاستبداد قد أضعف الامل في الامن على الانفس والارواح كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب حتى أصبحت مصالح البلاد في أيديهم وتحت تصرفهم وكاد اسم [الدولة العثمانية] ينسى ، وأشرفت علاقتها بمصر على الاندثار والانمحاء . فورد له الجواب من بعض رجال [المابين] يحمل اليه تحية الخليفة العثماني ويحكي له أقاصيص رضاه السامي عن كل مايجري في مصر لمقاومة نفوذ الاجانب في ادارتها ومصالحها

« أخذ عرابي بعد ذلك يجهر بطلبه هذا وخاطب رياض باشا في شانه فاباه عليه ، فاخذ يخالط بعض العلماء ويكاشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الاجنبي وردما

سلبته أيدي الاجانب إلى أربابه ، وفي أثناء ذلك كان يصور لهم السلطة الاجنبية الحاضرة إذ ذاك كأنها نسر حوم في جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالبه فيها، وانه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضي على الدين وسننه، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذي شهوة منهم ماتميل اليه نفسه ويمنيه بنيله اذا تغيرت هياة الحكومة الحاضرة، فوجد من [حضرات المشايخ)وهم على ماعهد من السذاجة والبعد عن معترك السياسات اصغاء لقوله وتاييداً لرأيه ، وكذلك كان يخالط بعض الاعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لاسبيل لمبتغاه الا بتاييده في طلب مجاس النواب فيجد ذهاناً مقتنعة ، وارادات مستسلمة ، وذلك لان القوة في يده ولان نفوسهم تظن منتهى راحتها في التغيير على أي صورة جاء

« استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضي به الى ضباط الجيش وأن يثير في أحلامهم الضعيفة تماثيل الاماني من العزة والسلطان ، والصعود إلى أعلى مراقي الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لاينال الا بمجاس النواب ، ولم يكفه أن يكون ذلك مطلباً لهم يشتهونه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب الى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة انشاء المجاس وانما يقام الدليل على تلك الضرورة بالطعن في هيأة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الامن على الانفس والاموال والاعراض ، وبينما هو في ذلك إذ أحس الجناب الخديوي بسعاه وعرفه بعض حاشية جنابه الكريم ، وبعد قليل ظهرت مسالة تسمى [مسالة التسعة عشر ضابطا]

مسألة الـ١٩ ضابطا

« كتب البكباشي عبد الله افندي الكردي تقريراً أمضاه هو وضابط [قول أغاسي] وستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه الى ناظر الجهادية ومحصل مافيه الشكوى من تصرف عرابي ومخالفيه وتعديهم حدود القانون واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش وحملهم على تقديم عرائض للجناب العالي يطلبون فيها فصل وزارة رياض باشا وتشكيل مجاس للامة وزيادة عدد الجيش والتصديق

على القانون الجديد، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه «ان القوة في يدنا، والعلماء والاعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا. فان لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة» فلما وقف الناظر على مافي التقرير أمر بتشكيل مجلس عسكري لتحقيق ما زعمه الضباط فقالوا إنهم لم يكتبوا إلا ما سمعوا وزادوا على ذلك ان في الجيش كثيراً من المظالم والخيانات وطلبوا تحقيقها، ثم قدمت إلى المجلس العسكري تقارير من ضباط الالايات تنسب فيها تهم كثيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف المخاصمة مع عرابي وجماعته، وانتهت المحكمة باثبات انهم كانوا مدفوعين من إبراهيم أغا التتنجي على كتابة ذلك التقرير فحكم عليهم بعقوبات شديدة قابلها الجناب الخديو بعفوه الكريم غير أنهم فصلوا من الجند

« وفي أثناء هذا الاضطراب كان محمود سامي ورياض باشا يخطبان فيما يجب على الجند ان يؤدوه للحكومة وعرابي يجيبهما بتصديق ما قالا وينادي بان الجيش آلة الحكومة المنفذة: كلا الطرفين خادع مخدوع:

« في حوالى تلك الايام كان قيام ضباط الالاي الرابع (ألاي عرابي) لطلب انفصال (ألفي بك) البكباشي لانه المانع للالاي من الالايين الآخريين يوم حادثة قصر النيل فحملوه على الاستعفاء فاستعفى وأحيل على الاستيداع وكذلك فعل ضباط ألاي القلعة في طلب عزل أميرهم محمد بيك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بيك حيدر، وتبعهم ضباط ألاي (الطبجية) في طلب فصل قائدهم حسين بك ففصل وعين بدله اسماعيل بيك صبري — كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه وليأمن على ان القوة الجندية باسرها معه

« على ان ذلك لم يفتر عزيمة المخاصين من حاشية الجناب العالي فقد قيل ان بقية مما ترك جناب الخديو الاسبق اسماعيل باشا من الجواري السود كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم فاخذوا يزوجوهن ببعض العساكر والضباط من ألاي السودان، وكان أغوات سراي الاسماعيلية يدعون أولئك العساكر ويمنحون الواحد منهم نقوداً لا تعطى عادة لامثالهم بحجة ان ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي ولكن العساكر كانوا يقولون لضباطهم ان الاغوات يغرونهم

بقتل رؤسائهم فيهيج غضب الضباط وتضعف ثقتهم في الامن على أنفسهم ويشتد الرعب في قلب عرابي ومن معه وسواء صح قول العساكر أو لم يصح فاثره في ازدياد القلق والاضطراب لا ريبة فيه والاشاعات التي تتولد عنه لا تقل قيمتها عن الحقائق الثابتة وانما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل.

« في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن عجلة (عربة) لاحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربي كانت تمر في الشارع المؤدي الى سراي رأس التين فصدمت جنديا من عساكر الطبجية فقتلته فاجتمع رفقه على ان يحملوه الى السراي حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا منه الاهتمام بمعاقبة الجاني فحملوه مخالفين في ذلك رؤساءهم وساروا به في ضجة وولولة، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل، فكبر الامر على الخديو ورآه تطاولا مخالفا لآداب الجندية ـ وله الحق فيما رآه ـ فامر العساكر بالانصراف فانصرفوا ظانين ان شكواهم قد قبلت، وبعد أيام صدر الامر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمتهم وحوكموا وصدر الحكم على الجندي الذي بدأ بدعوة رفقائه الى الاشتراك في حمل الميت إلى السراي بالاشغال الشاقة مدة الحياة وحكم على رفقائه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات، وبان يقضوا مدة العقوبة في السودان ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجند في الاقطار السودانية. ثم قدم الحكم إلى ناظر الجهادية فرفعه إلى الجناب الخديو فامر بانفاذه وسيق المذنبون إلى السويس ومنها إلى سواكن ثم إلى داخل البلاد السودانية.

« بعد هذا كتب عبد العال حلمي أمير الفرقة السودانية تقريراً طويلا يشكو فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من قسوة الحكم ويبين قلقه من الحوادث التي تجري في الآيه والفتن التي لا تنقطع ولا تجف ينابيعها واظهر استغرابه لشدة الحكم في حادثة مثل هذه مع مقابلة الجانين بالعفو فيما هو أعظم منها واهم كحادثة فرج الزيني وغيرها)

« قدم التقرير إلى ناظر الجهادية، رفعه الناظر إلى الحضرة الخديوية، اشتد كدر الخديو لذلك وعده جرما لا يقل عما اجترمه حاملوا القتيل وملتمسو عقوبة القاتل، فاستدعى النظار من القاهرة بالتلغراف فاجتمعوا في حضرته وتداولوا في الامر

بوقرر (أي جنابه) ووافقه الاغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه هو منشأ هذه الفوضوية، وان لا سبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا الى الحد الذي رسمته لهم وظائفهم الا عزل محمود سامي ، فقدم استعفاءه فقبل في الحال ، وعين [داود باشا يكن] ناظرا للجاهدية وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل [أحمد باشا الدره ملي] من ضبطية المحروسة وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها.

«هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو ان من أسباب ميل الجناب الخديوي الى استعفاء وزارة رياض باشا انه كان ينتهز فرصة لتعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة، وانه لما لم يتمكن من ذلك في حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له ان ينفذ ما عزم عليه من هذه الحادثة التي لا تمتاز في شيء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا وأشيع في الاسكندرية بل وفي القاهرة أنه قدم استعفاءه لتحققه من عدم رضى مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراي رأس التين بضجر الخديوي من بقائه على ما أخبره به بعض الاوروبيين ، فرجع اليه وسأله في ذلك فأكد له ان لا صحة لما سمعه ، وأنه في المحل الاعلى من رضاه ، فأظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الادلة على ما يخالفه

« من العبث ان يقال ان رياض لم يكن يحس بوجد الخديوي عليه ورغبته في اعتزاله للسلطة ولكن لذة المنصب والشغف بالرئاسة وثقة دولة الرئيس بنفسه وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شؤونها ، كل ذلك كان يغالط احساسه ويدافع وجدانه ، ويلتمس له العذر في البقاء ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه على قوتها، ويقبل به على موهمات الركون اليه على ضعفها، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لانصرف عن مقام السلطة مختارا قبل أن ينصرف عنها مكرها، فقد كان من المحتمل ان لا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت اليه، أو لم يضطر الضباط الى حشد الجنود في ساحة عابدين لاكراهه على التنازل عن رئاسة النظار

« أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام او يرمم ما تقوض منه فأخذ يصدر الاوامر الشديدة إلى الالايات يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع في المنازل، والتردد على المحافل ، ويطالبهم بايفاء الاعمال العسكرية حقها من الدقة ، وأمر بانشاء مكاتب في مراكز الالايات لتعليم القوانين العسكرية ظناً منه بأن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلوا على طاعته ،وتأخذهم الرهبة من مخالفته، وكان يذهب بنفسه إلى ثكنات العسكرية ليلا ونهاراً ليراقب تنفيذ تلك الاوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية بمعرفة حركات ضباط الجيش خصوصاً الرؤساء منهم وهم عبد العال وعرابي واحمد عبد الغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ولم يخف شيء من ذلك على عرابي ورفقائه

القوة التي اعتمد عليها ناظر الجهادية ومأمور الضبطية

«ما القوة التي كان يستند إليها ناظر الجهادية في إصدار اوامره ومأمور الضبطية في بث جواسيسه؟ هي القوة التي يشير اليها اسم الوظيفة (ناظر جهادية . مامور ضبطية) وهي من القوى المعنوية التي لا يظهر أثرها إلا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الامور عليها ، كسائر الوظائف في الحكومة لاتخضع الأنفس للقائمين عليها إلا ومثال القوة القاهرة منتصب أمامها ،وماتلك القوة القاهرة إذا لم تكن سلاح الجند ؟ فان كان الجند وهو حفاظ الوظائف في كل حكومة خصماً لها أصيبت بالشلل كما يصاب به المخ تمزقت عنه عظام الجمجمة . غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية عن هذا الاصل المعروف عند الامم كافة، وظنا ان اسم الوظيفة له من السلطان في إنفاذ الاوامر مايغلب قوة الجيش ويخمد نيران مدافعه وبنادقه ، وربما صار هذا السهو منهما مثالا حذا حذوه كثير من السذج في مصر فيما تأخر من الزمان . نعم قد لا يبالى بقوة الجيش متى استعصى على النظام إذا قامت الامة بأسرها للمحاماة عن دستورها، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائه واستعاض الحاكم بقوة الرعية عن قوة بعض أفرادها(وهم الجند) وأخذ لذلك من

الوسائل ماهو أشد أثراً من كتابة المنشورات، ونشر الوريقات، ووسوسة الجواسيس، وحشد الاخبار يتراكم كاذبها على صادقها، ويغلب باطلها على صحيحها، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح

« لكن الأمة كانت لاتزال في النقاهة من مرض التفرق وشلل الارادة (وأرجو أن تكون اليوم قاربت الشفاء) فهي ان حكمت على متمرد فانما تحكم أفذاذاً، كل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو أن لا يسمعه ثالث، وقد يبالغ الاغلب فلا يقضي قضاءه إلا في نفسه، وإن جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان، قد لا ينطق به لسان، وإن نطق كان على طريقة القائل: فربما اجتمعت أصوات، وعلت ضوضاء، ولكن كل في مكانه لا تتحرك قدماه، ولا تمتد يداه، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الالسن وتخفت جميع الاصوات، ويتبدل الزئير بالانين.

ذلك شأن كل أمة لم تقوم نفوسها بالتربية السليمة. ولم تثقف عقولها بالمعارف الصحيحة، ولم يبالغ بها حب وحدتها الملية أو الشعبية الى حد أن يسهل عليها بذل المال والروح في سبيل صيانتها. كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها. ويلهيها العاجل عن الآجل. ويذهب بها الحاضر عن المستقبل. فلا سبيل للاعتماد عليها في دفع غائل، ولا في مقاومة صائل، وعلى ولي أمرها أن يبتدىء فيها قبل كل عمل بتهذيبها واصلاح طباعها، حتى تنشأ فيها الثقة بنفسها، وتعلو منزلتها في نظرها، ويغلب لديها أمر عامتها على أمر خاصتها، عند ذلك تكون ينبوع سعادته في السلم، وسياجه المنيع اصد عدوه في الحرب

« كان الجند طوع عرابي ورفقائه لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور، وكانت الامة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا، فالجند والامة كلاهما كانا في جانب عرابي. أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير، فاشتد جزعهم، فاستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم. وكانت الليالي ليالي رمضان تكثر فيها الزيارات، وتتيسر الاجتماعات، وتنتشر الاشاعات، فازداد عرابي ومشايعوه من الحراس تحفظا مما عساه يقع من الغيلة، وواصل اجتماعه مع اخوانه ومع كثير من أعيان القاهرة، وتابع

وسائله الى بعض من يظنهم على ولائه في الاطراف، وهو في كل ذلك يدعو إلى تشكيل مجلس النواب، لتوهمه انه الوسيلة الباقية لاتقاء شر الحكومة، وكان يتردد في أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ويستمد منه المعونة بالقول والفعل

« سلطان باشا لم يكن من أغبياء الاغنياء في هذه البلاد ، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الغنى وتعلي قيمته مظاهر الثروة ، كان يفهم مايقال ، ويرضي السامع اذا قال . ولكن هيهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصاير الانقلاب في الحكومات وتغير الاشكال عليها وما يصيب الأمم في مجاري الحوادث من تقدم وتقهقر — أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت — حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله، فكان ينتاب منزله الاعيان والعلماء وأرباب المناصب، وكان يجد في نفسه لهذا علواً على أقرانه . كان مثله مثل الكثير من الاعيان في استثقال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة، وفي استنكار تلك البدع التي جاء بها في وزارته خصوصاً ابطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الاقوياء، أن تطاول الى استخدام الضعفاء رغم إرادتهم ، ووضع حدود يلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علائقهم مع غيرهم فكان ممن يألم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه. توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلو فيه كلمته على كلمة مثل رياض باشا ، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده، عند ما لاحت له بوارق الثورة ولمع في عينه شرر الفتنة — عندما أحس ان عرابي يتلمس المعين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه — ظن وصدق ظنه ان عرابي لابد أن يصل الى ما يريد يوما ما فمن الحزم أن يتفق معه في البداية ، ليكون له النصيب الاشرف من الفائدة في النهاية ، فكان أول من مدَّ يده اليه وواثقه على التعاون في طلب مجلس الشورى، وأخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلي والبحري في رأيه ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويلح عليه في الطلب أن يستصدر من الجناب الخديوي أمراً باستدعاء مجلس النواب وتخويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في

حقوقه حتى يكون كمجالس النيابات في أوربا ، ثم يكون ذلك دستوراً للبلاد تمضي عليه حكومتها ، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم ير من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب إلى عرابي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحري والقبلي وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى

« كنت معروفا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكري وتسوئة رأي الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمق ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا فأري من لدن الباب عرابي وبعض رفقائه جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ ، فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمي أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . مررت ببيت (طلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عرابي وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية (ل بيكس) وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث في وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وان لا سبيل للامن على الارواح والاموال إلا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفا من البحث ، فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات كان عرابي والاستاذ من طرف ، والكاتب من طرف ، هما يقولان : ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شورية ، والكاتب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وان نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وان نبدأ بترغيبها في استشارة الاهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من اللائق أن نفاجئ البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ويفضي إلى الهلكة ، وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة لان تشارك الحكومة في إدارة شؤونها

فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع ،فلو تم للجند مايسعى اليه ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعي فلا يلبث أن يتهدم ويزول، وأرى أن هذا الشغب قد يجر إلى البلاد احتلالا أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببه الى يوم القيامة، فتبسم (عرابي) ابتسام الساخط وقال: أبذل جهدي في ان لا أكون مورد هذه اللعنة ، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب وانما هو مؤيد لطلب الاعيان ووجوه البلاد .فسألته! وعلى من تعتمد؟ وممن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس إلي بصوت لا يسمعه إلا ثالثنا : ان سلطان باشا قد عاهدني على ان يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا، ثم انصرفنا

« بعد أن استوثق عرابي لنفسه من سلطان باشا وأيقن بما وعده ان أهالي البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه ، وبذلك يتحول عمله من عصيان غير مشروع الى طاعة للامة غير ممنوعة . فقد تخيل ان يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الامة، كأن الامة هي التي استعملتهم، فالثورة ثورة الامة لا ثورة الجند، وكل ماتأتي به الامة في سبيل حريتها وتقويم ما اعوج من حكومتها لا يصادف منكراً ولا يستوجب عقابا . هـذا هو الحجاب الممزق الذي كان يسدله على أعين الناظرين اليه ، والحجة الساقطة التي يقيمها للناقدين عليه، وبعد أن استحكم هذا الخيال من نفسه أخذ يترقب الفرصة لجمع رجاله لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه ، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع إخوانه ، وكلما عقدوا عزما على شيء عرض لهم ماينقضه

« كل ذلك والجناب الخديوي بالاسكندرية وهم ينتظرون عودته، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من ان الجناب الخديوي استمال ألاي الحرس وأميره علي فهمي وعاهده على ان يكون قوة تقضي على من يخالف الاوامر من بقية الالايات ، وقد كانت الاشاعات في ذلك لا تخلو من صحة ، فقد اخبرني المرحوم علي باشا مبارك يوم مجيئه من الاسكندرية في ممية الجناب العالي ان افتراق ألاي الحرس عن بقية الالايات واستعداده لتنفيذ مايصدر اليه من الاوامر مما لا ريبة فيه، وانه عما قليل سيؤخذ في تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة وتباد بجراثيمها

« عاد الجناب الخديوي من الاسكندرية في أوائل شهر شوال وبعد عودته بأيام تجلى ذلك الامر الفاصل الذي سمعت خبره من علي باشا مبارك ، فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك أن الحضرة الخديوية بعد أن استمالت علي فهمي ورجاله وأعدتهم لمغالبة من يستعصي عليها من سواهم، استمالت أيضا أمير الالاي الخامس الذي كان مقيما في الاسكندرية بجهة [باب شرقي] فأرادت أن ينقل الالاي الثالث الذي كان مقيما بقلعة المعز بالقاهرة الى الاسكندرية، وان يؤتى بالالاي الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون في مصر ألايان تحت طاعتها ، والله أعلم ما ذا أرادت الحضرة الفخيمة بعد ذلك ان تفعل بهذين الالايين بعد استقرارهما في مصر

« هل كان الخديوي يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الطائعين والعاصين ؟ ما أظن أن ذلك خطر بالبال ، ولو مر ذلك بذهن جنابه لسهل عليه حسم الفتنة ثاني يوم واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت تجول في الاذهان ، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها ؟

« ولما استحكم اليأس من نفس عرابي وظن ان الخطر حائق به كتب هو وجماعة من الضباط عريضة الى السلطان يشكون فيها من الظلم ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه ، وكان ذلك قبل حادثه عابدين بثلاثة أيام

حادثة عابدين

« أصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد أحدهما الى ابراهيم بيك حيدر أمير الالاي الثالث الذي كان يقيم في القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بيك مظهر أمير الالاي الخامس ان يبارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الالاي الثالث ، ثم أصدر أمراً الى أمير الالاي الثاني أن يرسل من الضباط من يستلم المخافر من ضباط ألاي القلعة عند سفرهم ، فعند ماوصل الامر الى ابراهيم بيك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابي وأخبروه به،

ففزع لذلك هو ومن معه وهالهم الامر وتمثل لهم سوء العقبى،وأيقنوا ان في ذلك القضاء عليهم . فأمر عرابي أولئك الرسل أن ينادوا في ضباط ألاي القلعة بعدم التسليم وبالاقامة في مواقعهم وان يمسكوا من يأتي اليهم من الالاي الثاني للاستلام ففعلوا واجتمعت كلتهم على ذلك . وعند ما حضر ضباط الالاي الثاني كتب محمد أفندي الرملاوي ومحمد افندي السيد الى عرابي بما محصله ان اربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الالاي. وأمتعة ابنائكم قد ربطت فاحضروا بنصف الايكم والافنحن قائمون . أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندي الزمر الى العصر ثم يحضر

عند ذلك كتب عرابي «إلى نظارة الجهادية ينبئها بان جميع الألايات ستكون في ميدان عابدين في نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم وهو يوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ بعد ان كتب الى جميع الالايات ان توافيه في الموعد وكتب إلى الجناب الخديوي يحيطه بذلك علما . والى قناصل الدول يؤكد لهم ان الغاية من جمهرة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم

« أرسل الجناب الخديوي رضا باشا ليسأل عرابي عن السبب في اجتماع العساكر بساحة عابدين فأجاب عرابي أن للجند مطالب يريد انفاذها . فجاء رضا باشا وعرض الامر على الخديوي فارسل طه باشا ليطلب إلى عرابي أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة . فكان الوقت قد حضر فقام الالاي بحضرة طه باشا وقام معه ألاى الطبجية . أما الجناب الخديوي فقد توجه بنفسه إلى ألاي الحرس (الالاي الاول) واخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناؤه وحرسه الخاص وينذرهم بعواقب مثل هذه العصبية عصبية الجاهلية فصاحوا جميعاً : نحن جميعا فداء لولي نعمتنا» . فعند ذلك امرجنابه أمير الالاي أن يوزع العساكر داخل السراي وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجمين عليها . ثم استصحب رياض باشا وذهب الى القلعة . وعند وصوله طلب الضباط وسالهم عن الحامل لهم على مخالفة الامر الصادر اليهم فأنكروا المخالفة فالتفت إلى امير الالاي ابراهيم بيك

حيدر يستفهم منه فأجابه أن [فوده بيك حسن] هو الذي أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم وكان فوده بيك على القرب من رياض باشا لجذبه من طوقه وقال له : مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ وبينما هم في الكلام اذ ضرب أحد البروجية نوبة [سنكي ديك] فأسرعت العساكر الى تركيب الحراب على البنادق وأحاطوا بالخديو ورئيس النظار وصاحوا « أطلق البكباشي » فأمر الخديو بتركه وأخذ يخاطبهم : ألست خديويكم ؟ ألست ولي أمركم ؟ هل تأخر لاحد منكم راتب ؟ أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه في ملبس أو نحوه ؟ فلم جهرتم بالعصيان وخالفتم اوامري ؟

« فأجابوه بقولهم نحن جميعاً مطيعون لاوامر ولي نعمتنا ولكن قيل لنا ان الغاية من الامر بسفرنا هو اغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري كفر الزيات فأسف الخديو لذلك وانصرف على ان يذهب الى العباسية لمنع عرابي من المجيء الى ميدان عابدين فبلغه وهو في الطريق ان الالاي قد سبق إلى ساحة السراي فرجع هو ورياض باشا فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقي

« واول من حضر من الالايات الاي السواري تحت قيادة احمد عبد الغفار ثم ألاي عرابي وألاي الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك صبري ثم الالاي الثاني تحت قيادة البكباشية لان أميره محمد بيك شوقي أبى أن يحضر معه ، ثم ألاي عبد العال ، وهو ألاي السودان تحت قيادة امير الالاي ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم بيك فوزي واجتمعوا جميعاً في مبتدأ الساعة التاسعة حسبما كتب عرابي

« وصل عرابي يقود ألايه ومعه ألاي الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهر سيفه ويحيط به عشرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له . أنبأه بعض الضباط أن علي فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك فاستدعى علي فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة فاعتذر بأنه فعل مافعل مداراة

منه للخديو وتدبيراً لحيلة سياسية، ثم أمر بالنداء في الالاي بالنزول فنزلت العساكر جميعاً واصطفت في الساحة مع بقية الجنود

« كانت قناصل الدول ومستشاروا الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراي عابدين وعند مارأى عرابي أن الجيش قد اجتمع بأكمله ماعدا ألاي القلعة فانه بقي في مقره بأمره — أمر باقامة الخفر على أبواب السراي لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

« أشرف الجناب الخديوي على العساكر وأمر باحضار عرابي فحضر راكباً جواده سالاسيفه محفوظا بضباط السواري يحرسونه فأمره باغماد سيفه والنزول الى الارض وابعاد الضباط عنه ففعل ثم أخذ يخاطبه "ألم أك سيدك ومولاك ؟ ألست الذي رقيتك الى رتبة أمير آلاي ؟" فيجيبه عرابي "نعم" ثم سأله "لم حضرت بالجند إلى هنا ؟ فقال لطلبات عادلة ، وهي عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام (الشيخ العباسي) فقال الخديو كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها فسكت عرابي ولم يجب بشيء

« ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع إلى داخل السراي خوفا مما عساه يعقب هذه المخاطبة مما لايحمد، ثم تولى [المستر كوفني] المستشار الانكليزي في المراقبة الثانية وقنصلا انكلترا والنمسا أمر المخابرة مع عرابي في مطالبه ومطالب الجند فقال المستر مالت قنصل انكلترا لعرابي ان عزل الوزارة من خصائص الخديو وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الامة لا الجند، ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش فان البلاد آمنة مطمئنة وليس في الامم من يريدها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فقد يحصل بعد بيان أسبابه "

« أجاب عرابي ياحضرة القنصل ان مايتعلق بالاهالي من هذه المطالب لم أنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائباً عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه

العساكر الذين هم أبناؤهم واخوتهم، واعلم اننا لانفارق هذا المكان مالم تنفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها

« قال القنصل تصرح بانك تريد الوصول الى ماتطلب بالقوة وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر إلى بلادك وربما تفضي إلى ضياعها . فقال عرابي وكيف ذلك ومن الذي يعارضنا في شؤون داخليتنا ؟ ولئن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل مالدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فنائنا عن آخرنا . فقال مالت وأين تلك القوة التي تكافح بها وتناضل عن بلادك ؟ فقال أستطيع أن احشد في زمن قصير مليونا من العساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون إشارتي، فان كانت دولة انكلترا هى التي تستعد لخصامنا فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقضي على حياتها فيه، فقال القنصل وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك ؟ فقال كلمة واحدة أقولها ، فأجاب مالت: ماهي؟ فقال عرابي أقولها عند اليأس والقنوط

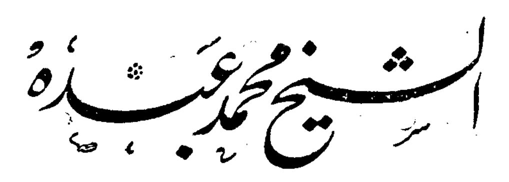
« ثم انقطعت المخابرات بين الجناب الخديوي وعرابي مدة ثلاث ساعات استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم وظنوا ان من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب ، وحربا تنتشب ، ولذلك أفضت مداولاتهم الى التسليم والرضى باجابة عرابي إلى مايطلب لكن على شريطة التدريج في التنفيذ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ماعرض عليه واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر فجاءه الخبر في الحال بقبول استعفائها فطلب أن يعين شريف باشا رئيساً للنظار ومحمود سامي باشا ناظرا للجهادية فقبل شرطه وانصرف العساكر

« استدعي شريف باشا لقبول رئاسة النظار فتردد في ذلك أياما لاحساسه بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة اذا استمر الجند على مناوأته للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب و استعداده عند الابطاء في موافاة مطلبه الى إحاطة كرسي الحاكم بالسلاح ،وتهديده بالوثبة عليه،اذا لم يسارع في سوق رغائبه اليه،ولظنه ان دولتي

فرنسا وانكلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا ويهمهما أن يبقى في مسند الوزارة، فاذاتولاهاغيره خشي أن تنصباله المكايدوتقيما له العثرات في سيره، ولسابق علمه بالمخابرات التي كانت بين الضباط وبين الآستانةوبما في بعضها من الثناء عليه وأنه ورياض باشا على طرفي نقيض فرياض باشا هو ممثل النفوذ الاجنبي في مصر وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ويخشى أن تظهر الحوادث عجزه عما يؤمل فيه

«كان شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة، كان من القائلين بأن النفوذ الاجنبي قد بلغ حداً لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للاجانب في كل مايطلبون . كان شريف باشا يقنع جلساءه بانه اذا ملك فيها أو قف الاجانب عندحدودهم وسار بالوطن شوطا عظيما في مجده، كان هوورؤساء الفتنة يتراسلون ويتواعدون، ولهذا طلبوه رئيسا للنظار ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه. كان وجه الرئاسة يهش له على بعد، وجمالها يخدعه وهو منها على موعد حتى اذا دنا منها ألفاها شكسة شرسة

إنتهى مالخصناه مما كتبه الاستاذ الامام من كتاب (الثورة العرابية) الذي لم يتمه وهانحن نثبت ما كتبه المحامي الانكليزي الشهير (المستر برودلي M. Broadley) في كتابه (كيف كان دفاعنا عن عرابي How we defended Orabi) في ترجمة الاستاذ وهو نفسه الذي تولى الدفاع عن الاستاذ الامام، وفيما كتبه ترجمة اللائحة التي كتبها الاستاذ الامام دفاعاً عن نفسه (أنظر ص ١٤٩) قال — :



انعالم الصحفي — المحرر — (*

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين وقد أثر في الطبقة المهذبة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً لانه كان كاتباً لطيفاً، وعالما بالعربية ضليعاً، وخطيباً فصيحاً يعمل في القلوب. ولا شك أنه ساعد من قبل كثيرا على جعل الرأي العام عاملا حقيقياً في الترقي المصري. ولم يكن متعصباً ذا خطر أو متهوساً في الدين، بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد. وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأي الجمهوري الحر، وكان رئيساً نشيطا من رؤساء الرازة ووطنيته التي لا شائبة للانانية فيها هي التي منعت بعض رفقائه المتحمسين من استيائهم من خطته الدينية الشاذة استياءاً علنيا، حتى ان عرابى باشا صديقه قال مرة « ان رأس الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للعمامة »

وتعد أخلاق الشيخ محمد عبده كلها مثلا للقوة العقلية العظيمة التي تلبدت عليها سحب من ضعف البنية والاخلاق مدة من الزمن. والظاهر أن عقله وجسمانه معاً سحقا سحقاً لا أمل بشفائه بعد انفعاله الشديد الناشيء عن الآمال الضائعة وغصص القنوط [1]. وقد سب وأهين في السجن مثل رفقائه لكنه يختلف عنهم بحيث أن أخباره عما أصابه من المحن ضعيفة مبهمة اذا قيست بأخبارهم. والظاهر أنه

*) هذا الفصل ترجمة ما كتبه مستر برودلي تحت هذا العنوان

١) أخطأ هذا المحامي الانكليزى في قوله : ان الشيخ قد سحق جسمه وعقله من غصص القنوط . فقد دلت قصيدته التي نظمها في السجن (ص ١٥٠ من هذا الجزء) وكتابه المطول الذى نشرناه في جزء منشاته من هذا التاريخ (ص ٥٢١ ج ٢) على ضد مازعمه هذا المحامي وهو أن المصائب لم تذهب بأمله ولم تزد أخلاقه إلا كمالا ثم ثبت هذا بسيرته بعد السجن في منفاه وبعد عودته الى وطنه أى في سائر عمره. ولكن أكثر الافرنج لا يستطيعون أن يقدروا الشرقي الكامل حق قدره

لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا في أواخر أيامه في السجن — حينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التي سعينا لاستحقاقها . . وكاد يتعذر علينا في بعض الاحيان أن نصدق أن الشيخ محمد عبده هو كاتب تلك الايضاحات البراقة الدالة على غايات الوطنيين المصريين التي كان قد أرسلها إليّ المستر بلنت قبل ذلك بستة أشهر فقط . وكذلك يتعذر على البريطانيين وهم في بلادهم أن يفقهوا الانحطاط الاخلاقي التام الذي يفعله الفشل مع التهديد والتعذيب في نفوس المصريين حتى في أقواهم عقلا وأجرئهم أدبا [١] . ولا شك في أن مرتب الزيارات الليلية المنزلية للمعتقلين السياسيين بعد نقلهم للسجن المصري كان شاعراً بعقامها وشأنها في نظر الشرقيين وعارفا قدرها من حيث النجاح في المرافعة القادمة . إلا أن هذه الزيارات أدت الى نتيجة مضادة كل المضادة للغاية التي وضعت لها

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة في الدفاع عن نفسه بلغة عربية فصحى كانت باعتبارها علا أدبيا إيضاحا عظيما نور أفكار ترجماننا (المستر سنتلانا) لكنني أراها ويا للأسف قريبة جداً من نوع الاعتذار [٢] والنقطة التي يستند عليها استناد النبهاء الحكماء هي من حيث الشريعة والصناعة تكاد تكل دونها الابصار . وكان سلوكه في رواية الثورة المصرية من أولها الى آخرها سلوك التابع الطائع المخلص [٢] وأصبح قبل أن رفع الستار محرراً للجريدة الرسمية وأظهر في هذه الوظيفة من أولها الى آخرها الطاعة لأوامر من تقدموا عليه بالحق الواحد تلو الآخر [٢] ولا تصير اخباره لذيذة إلا حينما تتصل بآرائه وتجاربه الخاصة . أما مايختص بقيامه بواجباته العامة فان المسوغ الذي استند عليه هو طاعته التامة للعمدة من ذوي الاقتدار، ويتحول

(١) يقول مؤلف هذا التاريخ : ان هذا المحامي قد تعذر عليه وهو في مصر مازعم انه تعذر على قومه في بلادهم. بل كان أجهل منهم فيما ادعاه من فقه ماأثر التهديد والتعذيب في نفس صاحب الترجمة . وكان جهله مركبا لانه يحسبه علماً وفقها . وكذلك شأنه في كثير من القضايا التي استنبطها من تقريره كما يعلم من مقابلتها بما في هذا الجزء من تاريخه (٢) قضايا باطلة ، وقد علم مما تقدم انه كان مسيطرا على الحكومة كلها حتى رؤسائه فيها

محور دفاعه عن سلوكه الوطني الى قضية منطقية مبتكرة مقنعة كما يأتي :—

« ان وطنيتي ووطنية سلطان باشا واحدة وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، وقد أصبح سلطان باشا ذا لقب «سير» وحصل أيضاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة وأهلا لثناء عليها. إذن يكون سلوكنا كلينا أهلا للثناء عليه . فلماذا ياترى أزج في السجن منتظراً محاكمتي على وطنيتي بينا يصبح سلطان باشا حائزاً رتبة الشرف الانكليزية وحاصلا على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ؟ »[١]

« ان ماذكره الشيخ من شدة الارتباط بين سلطان باشا وعرابي باشا فصل مهم في تاريخ الحركة الوطنية. وقد كانت آراؤه الى يوم عصيان عابدين مخالفة كل المخالفة لآراء عرابي المعتبرة عنده مثلا لآراء عسكرية صرفة ، ويقول ان الاجتماعات العامة المتنوعة التي عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برآسة سلطان باشا حولت في الحال مقام عرابي من قائد جيش الى قائد مصر . وإليك ماقاله الشيخ :—

«وحينئذ أصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابي» إلى آخره » وهاك ماكتبه الشيخ عبده في حوادث الحرب :—

«هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنياً صرفا بعد أن آزره رجال من جميع الاجناس و الاديان فكان يتألب المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب و بكل ماأوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز ؟

«اني لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره — وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ماعلم الناس أنه أقال عرابي من منصبه لانه لم يمتثل امره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاءاً لنزول غزاة من البحر

« وفي أثناء ذلك طفق العلماء يقرءون البخاري في الازهر ومسجد سيدنا الحسين

---

١) في مذكرات الاستاذ الخاصة بحوادث الثورة بيان لسبب مانا له سلطان باشا من اللقب والمكافأة وهو خيانته لوطنه وخدمته السرية للانكليز كاسيأتي :ولا ندري أكان في مذكرته التي قدمها للمحامي شيء من ذلك كتمه المحامي أم لا ؟

ويدعون بالنصر لعساكر عرابي والهزيمة للانكليز ـ وكان إمام الخديو الشيخ الصالح العالم الابياري في طليعة الملتهبين غيرة ووطنية، فنشر قصيدة ابراهيم دريد في غارة التتار على بغداد في أيام الخليفة العباسي المعتصم، وهي عبارة عن دعاء وابتهال، وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخاري. وقد طلب إليّ أن أنشرها في الجريدة (الوقائع) حتى يطلع عليها الجيش أيضاً ـ وقد كان عمله هذا مشروعا إذ أن المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب إسلامية ضد الكفار — وعند رجوع الخديو الى مصر بعد انتهاء الحرب خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته—

« وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية ـ حتى النساء — بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش — وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحمية في جمع الميرة المطلوبة وحشر المتطوعة للجيش ولسائر الاشغال العسكرية ـ

«وقد أرسل عثمان باشا غالب مدير اسيوط في ذلك الزمن ورئيس شرطة (بوليس) العاصمة الآن بضعة ألوف من ارادب الحبوب من مديريته ماعدا الخيول وغيرها من الحيوانات، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية ـ وهاهوذا كما قلنا آنفا (رئيس بوليس العاصمة) بأمر الخديو

« وهذا شأن خليل بك عفت الذي تعين مديراً بأمر وزير الحربية فأظهر غيرة ونشاطا استحق عليهما الشكر الجزيل في الجريدة الرسمية ـ وهاهوذا نراه الآن مدير المنيا بامر الخديو

«وقد بذل من اذكر اسماءهم فيما يلي اموالهم بسخاء في سبيل الحرب إما مباشرة وإما بواسطة دوائرهم وهم :

البرنسس جميلة	اخت الخديوي وحرم المرحوم سعيد باشا
خيري باشا	الامين الاول
علي باشا مبارك	وزير الاشغال العمومية الآن
يوسف باشا جددي	احد اعضاء لجنة التموين

محمود بك كاتب (أو أمين) أسرار الخديو
علي حيدر باشا وزير المالية (الفعلي)

« وأسماء هؤلاء وردت في أعداد الجريدة الرسمية . واذا كانت سجلات المديريات لاتزال موجودة فيمكن استقراء ماتبرع به كل واحد منهم بالتحديد

« وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانكليز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يمرحون في المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابي وفي أي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا »

. . . .

[قال المحامي]

وكتب الشيخ محمد عبده بعد حين مذكرة في حوادث الاسكندرية التي حدثت في الحادي عشر من يونيو كانت هي وعبارتان أو ثلاث على نمطها سبباً لامتعاض شديد ، ربما لايرجح تحقيق الحق وابرازه، لكن ثمة مسألة في البحث ناصعة لاريب فيها ، وهي أن مثل هذه المصيبة التي نزلت كانت مخالفة كل المخالفة لمصالح عرابي للمهمة ، وتكاد تكون بالنسبة اليه فشلا سياسياً وخذلانا قومياً تاماً، واذا كانت قد تمت باشارته فانها تعد حينئذ انتحاراً أدبياً حدث عمداً ، على أن نتائج هذه الحادثة من الجهة الأخرى تكون ربما عظيما لاعدائه ، ويتخذ هذا الموضوع شكلا مختلفا جدا باختلاف النظر اليه من الوجهتين السياسيتين المتباينتين ـ السياسة الغربية والسياسة الشرقية ـ فالاولى تعتبر العمل السائق الى المذابح بل المحرك على تجمهر الغوغاء جناية لاتغتفر، على حين تعتبره الثانية جائزا ، أو ربما حسبته « نقلة » في الشطرنج السياسي حاذقة ، وبعد ما أصبح عرابي الحارس المسؤول عن الأمن العام لا باختيار مصر وحدها بل برضا أوربا كلها رأى الشيخ عبده بصورة واضحة ان سياسة الخديو ورجال قصره في سلب الثقة به هي سياسة موت أو حياة لهم، واعتقد انهم لم يحجموا عن التوسل بهذه الوسيلة المشتبه فيها كثيرا للقضاء على خصمهم المفرط في النجاح

والقوة . ويوجد رجال آخرون ذهبوا هـذا المذهب أيضاً وصرحوا به . وإلى القراء ماقاله الشيخ محمد عبده

« لما وقع الخلاف بين الخديو ووزارة محمود سامي باشا شاع في القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً في نفس القاهرة الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت في ذلك طول مدة قيامها باعباء الامر ، واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه ـ ففعل ـ وبالغ الخديو في حسن استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوي وباحضارهم الى العاصمة بطريق الجيزة ليحدثوا فتنة في البلد لعدم وجود النظام بينهم ولكنه تعذر على المشايخ حشد العـدد المطلوب من البدو فخذف هؤلاء من العسكر ـ ولما فشل مسعاه هذا أرسل تلغرافا رمزيا (شفره) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه:

« قد ضمن عرابي أمر الامن العام ونشر ذلك في الصحف وجعل نفسه مسؤولا لدى القناصل واذا نجح في ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا ـ أما الآن وأساطيل الدول في مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقوع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم أمر محتمل فاختر لنفسك إما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا »

« وفي يوم هذه الحادثة توجهت الى السراي فرأيت موظفيها في جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون في رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على الامن العام ـ ومن المعلوم ان موظفي السراي لايقولون إلا مايسر الخديو، فاذا كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم ـ

« وبعد ١٢ يوما من هذا التاريخ كنت في الاسكندرية فسمعت الناس أجمع يقولون ان المحافظ (عمر لطفي) سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقيما في البلد ولم يصدر أمراً بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع انهم كانوا على مقربة منه ـ وأجمع الناس على ان عمله هذا موعز به من الخديو ـ وعلمنا أيضاً انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر واذا بأوربي في شباك وفي يده

مسدس فقال أحد البدو : أأرمي هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له « ارمه » فأطلق البدوي عليه الرصاص فقتله — وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه في ذلك اليوم الاسود —

وقد سمعت أيضاً انه حرض بعض النـاس أثناء المذبحـة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى البوليس [المستحفظين] أن لا يتداخـلوا قائلا « دعوا أبناء الـكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التي تألفت للنظر في أسباب هذه الفتنة عمر لطفي عن شيء مما حدث مطلقا ، بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستعفي بدعوى المرض

« كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية زمن الفتنة وقد أهمل امر القيام بحفظ الأمن العام على انه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم نقل انه هو المحرض عليها ـ فاذا كان فعل ما فعل إطاعة لامر عرابي كما ادعى مع أن وظيفته تابعة رأساً إلى الخديو ـ لان الخديو أصدر أمراً مخصوصا صرح فيه انه بعد استعفاء وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشؤونها الى السراي ـ فكيف نعلل تعيينه (أي عمر لطفي باشا) وزيراً للحربية جزاء لطاعته لعرابي وعصيانه لسيده الخديو ؟ واذا كان الامر اهمالا منه فكيف يصح مع إهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيراً للحربية ؟ ولماذا لم يسئل سؤالا واحداً عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسئل ؟

« لا ريب في أن استقراء سير هذه الحوادث يظهر أتم الظهور ان الخديو بالاشتراك مع عمر لطفي كانا سبب هذه الفتنة — أي مذبحة الاسكندرية اهـ

هذا وان الحذر والاحجام الباديين على الشيخ دائما يزيدان في قيمة تصريحه وهي قيمة لا أكاد أضعها على تصريح يقوله اي رجل من درجته . وما لم يحدث انقلاب جوهري في الحالة الاجتماعية المصرية فان حل لغز الحادي عشر من يونيو يبقى مستحيلا ، وكل التصورات التي تحوم حوله تبقى أبداً من باب التخمين والترجيح على انه يصعب علينا ان نقول ان رجلا كالشيخ عبده وضع لكتابته التي شكا فيها من البصق عليه في الحبس مقدمة معتبرة أهداها لسمو الخديو يذهب هذا المذهب النظري مالم يكن مطلعا أشد الاطلاع على الخفيات في دسيسة « السراي المصرية »

وانني أشهد شهادة عرفتها بنفسي ان جماعة آخرين : أثبتوا هذه الرواية ولم يكن لهم اتصال ممكن بالشيخ

وفي مساء اليوم الاول من يونيو سنة ١٨٨١ ودعت في الظلام محمد عبده الذي ذهب أخيراً منفياً عن القطر المصري مدة ثلاث سنوات . وعلمت منذ ذلك الحين نه يعيش عيش الفقر والشقاء في بيروت [هذا غير صحيح كما يعلم مما يأتي في هذا التاريخ]

واذا جاز لمصر ان تسير منفردة أو يكون لها بداءة خير يوما من الايام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر

[المؤلف] هذا ما كتبه محامي العرابيين الانكليزي في كتابه وكنا نود أن نقف على تقرير الاستاذ الامام الذي ذكره المحامي بنصه العربي الاصلي، ولكننا نفهم من هذه الترجمة عين ما فهمه المحامي الانكليزي لدقة ترجمته، ويمكننا أن نجزم بأنه أخطأ فيما فهمه من التقرير من انه أريد به الاعتذار لما اعترى كاتبه من ضعف النفس وشدة اليأس، ليس الكلام اعتذاراً عن نفسه ولا تنصلا من عمل عمله وندم عليه، وانما هو إقامة حجج وبراهين على ان مؤاخذته وحبسه مع زعماء الثورة ومحاولة الانتقام منه انما هي إغراء من الخديو توفيق باشا به لانه يكرهه كراهة شخصية من حيث هو خليفة السيد جمال الدين في نشر الافكار الحرة ودعوة ترقي الامة في مصر . وكان الخديو يعلم انه كان خصما لعرابي وحزبه العسكري إلى ان أصبح عرابي صاحب الامر والنهي وقائد الجيش الوطني المدافع للاجانب عن البلاد . وفي هذه الحال لم يكن له أن يقاوم عرابي إن استطاع وأنى يستطيع؟

اذا كان هذا الرجل قد لز مع زعماء الثورة لانه منهم فلماذا ترك سلطان باشا؟ بل لماذا كان أقرب المقربين الى الخديو والانكليز جميعاً وهو الزعيم الاكبر للثورة بعد عرابي أو معه أو قبله؟ هذه حجة بالغة أراد الاستاذ أن يلقنها للمحامي البارع فلبسها

مقلوبة كما يلبس الفرو ، وكأنه توهم عن فهم أو عن غير فهم ان الشيـخ اعتذر بها عن نفسه،وأحب أن يكون من الخديو والانـكليز في مكان سلطان باشا ، ولو انه كاشف المحامي بكل ما يعلمـه من خيانة سلطـان باشا لمـا كان لذلك التوهم الى عقله من سبيل

خيانة سلطان باشا لمصر

كان الاستاذ الامام يعتقد ان أكبر المصريين خيانة لوطنهم سلطـان باشا ويليه في الخيانة عمر لطفي باشا محافظ الاسكندرية في ذلك العهـد ، سلطان باشا كان موقد نار الفتنة ومحضاء نارها، حتى إذا ما اشتعلت نار الحرب بين أهل وطنه بتحريضه وبين الانكليز نكص على عقبيه،وكان أكبر مساعد للانكليزعلى قومه بالرشوة مع أنه من أكبر الاغنياء ، وأما عمر باشا فهو الذي مهد السبيل لمذبحة الاسكندرية ونهبها ليقيم الاجانب الحجة على عجز عرابي عن حفظ الأمن كما جاء في آخر ما نقـله المحامي الانـكليزي عن الاستاذ آنفـا وأقره عليه وعلى سببه،وهوانه تنفيذ لارادة السراي وسيأتي بيان ذلك نقلا عن مذكرات الاستاذ اليومية المحفوظة عندنا بخطه وفيه النصوص الصريحة بتعمده لذلك ، وبأنه كان يمكنه أن يمنع الشر ، ويحفظ الأمن ، وبأنه طولب بذلك فامتنع بل كان هو الذي طلب من قائد الاسطول الانكليزي التدخل بقوته العسكرية . وهو انما كان عبداً مأموراً ، لذلك كان سلطان باشا شراً منه لانه كان منافقا مذبذبا

والذي زاد في استياء الاستاذ من أعمال سلطان باشاغير الخيانة انها كانت على عكس أعماله هو ،فالاستاذ كان ينهى عن الثورة ويسعى لمنعها الى أن نزل الجيش الاجنبي في البلاد محارباً لأهلها حينئذ صار عوناً لهم على قتال عدوهم ، وسلطان كان داعية الثورة وزعيمها، وعدو أمير البلاد المحرض على قتله واتهامه ببيع البلاد للاجانب — الى أن جاء الاحتلال الاجنبي فصار نصيراً له وعدواً لوطنه وخائناً له يشتري به ثمنا قليلا

﴿ مذكرات المترجم في الثورة العرابية ﴾

كان لدى الاستاذ صاحب الترجمة معلومات واسعة لم يتيسر لغيره الاطلاع عليها ، اذ كان على امتيازه بالذكاء والفطنة مديراً للمطبوعات ، ومفوضاً من الحكومة بالاطلاع على كل شيء ، وكان لديه مذكرات عن الاحداث والوقائع ، يمدها اذا شاء أن يكتب بما يحفظه حفظا كما يرى القاريء مما كتبه في أسباب الثورة العرابية . وقد اطلعت على دفتر جيب له بخطه من هذه المذكرات كان يكون من مادته لو أتم كتابا بهذا ، فرأيت أن أثبته في هذا التاريخ ، والظاهر انه كان تابعا لدفتر قبله ، وفي أوله تقديم وتأخير في التاريخ ، ووجدت ورقة مفردة من هذه المذكرات سابقة التاريخ على ما في دفتر الجيب المذكور مبدوءة بما يدل على انها تابعة لشيء قبلها . وهذا نصها بخطه منقولا بعكس الاشعة

وهذا بيانها

سلطان باشا

فهذا الهمام الوطني الذي أوقد نار الفتنة في البلاد، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهبها وعم جميع الأنحاء، ثم هرب من طريقها عند ماخاف أن يلذعه لسان لهبها = جاء في آخر الامر نائباً عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الابرياء وغيرهم . نال المكافأة [1] من الجناب العالي بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها، ليتعلم كل مصري هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولا وآخرا

إلا أن العدل الالهي سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ماصدر منه أول الامر وآخره (يوم يعض الظالم [2] على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا) وكما ان العدل (الالهي) سيأخذه بما قدم من عمله، أظن ان محاكم العدل والانسانية تبين له خطأه في زعزعة راحة البلاد المصرية في أول الامر

في رمضان سنة ١٢٩٨ دعا شريعي (باشا) للتوجه معه الى الخديو لطلب مجلس النواب، فامتنع ونصحه بأن لا يسعى في ذلك (حاكي الحكاية سليمان أباظه وكان فيمن دعاهم لذلك)

قال سلطان فى بيت علي باشا مبارك بحضوري : ان مصر يمكنها أن تجمع ثلاثمائة ألف عسكري فتحارب أي دولة كانت . وأجابه علي (باشا) بعدم كفاية المالية ، وانتهى الامر بقوله « نسمع المغني أحسن »

علي باشا رأى الضباط يهربون من أودة (أي حجرة) إلى أودة في بيت سلطان ، وحكى لي الحكاية ثلاث مرات

---

١) أنعم الخديو توفيق باشا على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة آلاف جنيه من المالية جزاء إخلاصه كما في كتاب (مصر للمصريين) وهل هذه هي المكافأة التي عناها الاستاذ أم غيرها؟ فهنالك مكافآت (٢) الاستاذ لم يكتب تتمة الآيات هنا الخ

جاء شواربي (باشا) عند محمود سامي (باشا) وهو ناظر الداخلية وقال ان جميع النواب متكدرون من تعيين فريد باشا مأموراً للدائرة البلدية

تكدرت النواب جداً لاني أشرت بانتخاب سليمان باشا أباظه وكيلا للداخلية وذكر لي ذلك أحمد محمود فتبت على يديه الخ

تعدى مجلس النواب ماضرب له من الحد ،وتذاكر في إبطال مصاريف الابراهيمية، معانها داخلة في إيراد مديريةاسيوط المرهونة للدين الموحد، وردت المالية القرار، ثم حكم المجلس بتوقيف الاطباء الذين كانوا في الكورنتينة بناء على عرضحالات قدمت اليه، وظن سلطان أنني الذي أبين هذا الخطأ للنظار مع انه كان بحيث يفهمه الصبيان ، فاشتكى سلطان باشا الى ناظر الداخليةمني، وقال له قل للشيخ محمد عبده لايبدي ملحوظات على محاضر النواب[1]

كتب سلطان وهو رئيس النواب كتابة رسمية يطلب فيها من إدارة المطبوعات أن تعترف أن جريدة الطائف هي لسان النواب المعبر عن أفكارهم ، فاعترفت الادارة بذلك تنفيذاً لامره، ونشر ذلك رسمياً بامر ناظر الداخلية (وزارة سامي)

ثم إنني عطلت الطائف[2] شهراً لتهييجه ،ومع ذلك لم يكتب الباشا ما ينقض ما كتبه أولا ، وهو الذي حمل النواب على الاشتراك في ذلك الجرنال، واكتتبوا له بمبلغ كبير

إشارتي بعدم الاهتمام بمسألة الجراكسة — تقرير راغب باشا بطلب العفو عن جميع من اشترك في الحوادث ماعدا الجانين في مذبحة الاسكندرية — وقبول الخديو وصدور العفو —

---

(١) يعني في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية)

(٢) جريدة الطائف كان يصدرها السيد عبد الله نديم المهيج الشهير بمقالاته وخطبه ، حدثنا أحمد فتحي باشا زغلول قال كنت في عهد الثورة تلميذا في مدرسة رأس التين الاسكندرية فبلغنا ان السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور في مكان كذا ، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان مما قاله ماخلاصته : إن طوابي الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ومدافع الاستانة اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر ـ فكيفما جالت الاساطيل الانكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا ـ فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له ! ! !

يوم الحرب ذهبت للتكلم مع ناظر الداخلية في طريقة نشر جريدة المونتيور الفرنساوية الرسمية لسفر محررها . اه

﴿هذا كل ما في الورقة المفردة وهو عناوين كان الغرض منها تفصيل الكلام فيها في فصول تفيد العبرة بها ويليها مذكرات الدفتر أسردها بنصها الا انني أضع لها أرقاماً تضبطها بالعدد﴾

(١) الدائنون يريدون أن تدفع لهم الفوائد على فداحتها فعدل سير الادارة على أن يؤدي الى هذا الغرض . ورسم على المصري أن يخضع لاستبداد إداري مختلط ، بل هو في الحقيقه أوربي لا شائبة للعدل فيه ، وهو الاستبداد الذي اقتحمه الخديو المعزول

(٢) كل الامم من كل الاديان تغتني من عمله (أي الفلاح المصري المشار اليه في الجملة الاولى) وعلى نفقاته وهو في ذلة الفقر والفاقة

(٣) ما يقصر من أداء الديون من الدومين والدائرة السنية يوفى من الخزينة (تدبير ولسون)

سنة ١٨٨١

(٤) في أواخر سنة ١٨٨١ قصد غمبتا إرسال ٢٥ ألف عسكري لتقرير النظام في مصر مع انه لم يكن حصل فيها شيء وكان ذلك في وقت المخابرة بين فرنسا وانجلترا في عقد معاهدة تجارية

(٥) البارون درنج رأى الفرصة مناسبة لتقرير نفوذ فرنسا في وادي النيل لكنه لم ينجح في إعداد المراقبة الثنائية لقبول خلع الخديو وإيجاد نظام جديد وكان قد عرض على حكومته خطر استقلال المراقبة الثنائية وخطر مركز الخديوية (لعل غمبتا قنع بما قاله درنج أخيرا)

(٦) في ٤ فبراير سنة ١٨٧٩ نشر منشور ضد رياض باشا طبع منه عشرون ألف نسخة وفيه مطالب وطنية ، ولم يعثر على ناشره وكاتبه . ونسب الى الجمعية التي تألفت لمعارضة رياض باشا (جمعية حلوان) شريف . شاهين . عمر لطفي .

راغب . ويقال ان سلطان باشا كان فيها

(٧) يقول شريف باشا بعـد حادثة عابدين انه لايقبل الوزارة حتى تكون لديه ضمانة تكفل انه لايعتدي الضباط أو الجند على النظام مرة أخرى — كأنه لم يعلم بسير الفتنة مع انه كان من مدبريها

(٨) حصل سلطان باشا على عرائض ممضاة من الاعيان والعلماء قبل حادثة عابدين وأطلع عليها عرابي وأبى عرابي إلا أن تكون تحت يده ، فهرب سلطان الى المنيا ، وبعد الحادثة ظهرت العرائض والمحاضر

(٩) لم يبق داع لبقاء أديب (إسحق) في أوربا ، فألغيت (جريدة) القاهرة وأعيدت على هيأة جديدة وفي موضوع جديد ، وكوفىء محررها بتعيينه رئيس قلم ترجمة أولا ثم سكرتيراً لمجلس النواب بعد ذلك

وصاح الخديو عند إمضاء الأمر بتعيينه من شدة الفرح : « الحمد لله الذي خلصني من رق شخص كنت أبغضه »

خلاصة خطاب سياسي لعرابي

(١٠) لم يذهب عرابي الى رأس الوادي إلا بعد أن صدر الامر بتشكيل مجلس النواب على طريقة جديدة . وقد كان الخديو حاول أن يستدعي أعضاءه على مقتضى النظام القديم فأبى إلا نظاما جديدا ، وعند سفره ألقى على مودعيه خطابا طويلا شكا فيه من العقبات التي تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له الحرية ويؤمنه من الاستبداد . وصرح فيـه بأن الخديو والنظار ومن على شاكلتهم كلهم لايميلون إلى مساعدة الأمة على ماتطلب،وبأن أعداء الامة هم الدائنون ومعاونوهم من الاجانب ، يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد الرزق في مصر ، وان من الافـتراء أن يقال ان البـلاد تريد سلب الأموال والاستئثار بالمنافع وسلب حقوق الدائنين . وانما الحق ان هناك شعباً يطالب بأن يكون على اثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الاشخاص والاموال

تواطؤ فرنسة وانكلترة على المصريين

(١١) قال غمبتا في محادثته مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب « قلبي ممتلىء رعبا ، ليس من الممكن الحزر والتخمين على ماعساه يقرره مايسمى بالحزب الوطني، من الجائز أن يعمد الى تقرير طريقة مختلة تخالف مصالح الاوربيين، لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين ان انكلترة وفرنسا لايمكنهما أن تحتملا شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات »[١]

اتفاق غمبتا واللورد ليون من التعصب إذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا واليونان مع كثرة ديونهما وانهما أحط شر ، (؟) في الوفاء من مصر

سنه ١٨٨٢

(١٢) في ١٢ ينايرسنة ١٩٨٢ سأل اللورد غرانفيل مالت: اخبرني بالتلغراف ماهي حدود سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب ماقررته الجمعية العمومية والشروط التي تطلبها ؟

فاجابه في ١٣ منه

مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس وعلى ذلك يمكنه أن يلغي مصلحة المساحة مثلا لانها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي، ويمكنه الاستغناء عن عدد كبير من موظفي الاوربيين في الادارة المصرية

(١٣) قال مالت (في دسمبر سنة ٨١) اذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة سطوتها في الامور المالية

(١٤) في ١١ ينايرسنة ١٨٨٢ قال مالت. انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقة الدستور وان اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجالس شوراهم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله ولا أن يلغيه إلا أن يكون تداخل وهو آخر ماينتهي اليه العمل

(١) ليعتبر المصريون والشرقيون عامة بهذه الاثارة التاريخية

مقاومة فرنسة وانكلترة لمجلس النواب في تقرير الميزانية

(١٥) سلطان اكد لقنصل انكلترة أن النواب لم يوافوا الا آمال الشعب وليس من ضغط عسكري ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافي رغبة الاهالي

فاجابه : لاانتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير الميزانية) لما في ذلك من الخطر وما تقولونه ومايطلبه النواب لاطريق لنيله الاالقوة واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انكلترة وفرنسا فيما يتعلق بذلك

(١٦) في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ في مجموعة اعمال البرلمان نمرة ٣،٢٣٠ تلغراف من مالت في ٢٠ يناير سنة ٨٢ اذا تمسكنا بابائنا على مجلس النواب ان ينظر في الميزانية كانت المداخلة العسكرية امرا اضطراريا فان اصرار مجلس النواب على رأيه في ذلك جزء من مشروع تام أعد للثورة

(١٧) في ١٧ سنة ٨٢ يناير قدم المراقبون طلبهم فيمايتعلق بمجلس النواب ومطالبه قائلين : إن الاوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتي فرنسا وانكلترة فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق إعطاء رأيه في الميزانية وعدمه وهما لاتسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في تنقيص عدد الموظفين الاوربيين وفي ٢٧ منه امضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين [١]

(١٨) في ٢ فبراير سنة ٨٢ استعفى شريف وعين محمود سامي

(١٩) مجلس النواب قرر تعيين لجنتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل في أعمال الموظفين الاوربيين، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس، وقد رفض موسيو كاليار مدير الجمارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله

(٢٠) وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفي الدومين المسمى

---

(١) ليعتبر بهذا كله من يمكنون أي أوربي من الدول الاستعمارية من أي منصب أو عمل في بلادهم وخلاصته أن هؤلاء الموظفين يعملون لسلب استقلال البلاد بطريقة ادارية سلمية حتى اذا ماعاقهم عائق برزت القوة العسكرية من ورائهم تؤيدهم

(روفسل) يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالا في أن يصلوا بالطفرة الى مايقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لايحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن ان كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتلغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يُسأل المدير عن السبب في الحبس. وهذا تظاهر من الاهالي بالاحوال الجديدة التي يبنون عليها حريتهم وخلاصهم

(٢١) غوردون باشا يكتب الى التيمس في يناير سنة ١٨٨٢ :

يقال ان مصر تسرع في الغنى والسعادة وانه (كذا) فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئاً قد تغير عما كان الا ما كان من ضمانة الدين فانها اليوم أوثق اما الحبوس (السجون) فغاصة بأولئك المساكين من الفلاحين

مسألة الشراكسه وغش القنصلين للخديو

(٢٢) في مسألة الجراكسة قدم عرابي الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة فأرسل الخديو (الحكم) إلى الآستانة فطلب السلطان الاوراق. وكان مافعل الخديو بناء على نصيحة القنصلين. ساء الوزارة ذلك وبدأ الخلاف ، وطلب من الخديو تسوية المسألة فأشار عليه القنصلان بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة

(٢٣) في ٢٠ مايو — أرسل موسيوسنكوينس (؟) احد موظفي القونسلاتو موسيو مونج عند عرابي ليذاكره في المسائل الحاضرة فكان من قول عرابي ان المجلس الآن هو الحاكم وهو أول خاضع له ، ونقل هذا مسيو مونج الى رئيسه . وعند ذلك ابتدأ القنصلان في المخابرة مع سلطان باشا

وفي ٢٥ مايو قدموا المذكرة التي ذكر فيها ان المجلس بلسان رئيسه نصح عرابي بالابتعاد عن الاقطار المصرية حينا من الزمن

سألت النظارة سلطانا فأنكر

ولكن الخديو قبل المذكرة فاستعفت الوزارة بعد إقامة الحجة على كل ماجاء فيها . لم يقبل أحد النظارة فرجع عرابي ناظراً للجهادية وأحيلت أعمال بقية النظارات على وكلائها

﴿ ما يتعلق بالمذكرة التي استعفت الوزارة عقبها ﴾

(٢٤) جاء في الكتاب الازرق الانكليزي ان مستر ماليت كتب أولا أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه فان كراهتهم لكل تداخل أجنبي تزداد كل يوم عما قبله

ثم يقول في رسالة أخرى ان المذكرة التي قدمها لم يطلب فيها إلا تنفيذ ماأراده أعضاء مجلس النواب، وقد صرح المجلس بارادته على لسان رئيسه سلطان باشا

(٢٥) يقال ان قنصل الروسيا موسيو ليكس نصح مراراً ان أحسن طريقة لمعاقبة الشره الاوربي كان امتناع الاهالي كافة عن إعطاء الضريبة الخ

لكن كان عرابي ورفاقه يثقون بالدول غروراً ولا يعلمون ما كان يجري حولهم (كذا يقول القنصل) فقد كتب موسيو مالت في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ قبل وصول المراكب يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أي حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد »

(٢٦) حصلت مذاكرة في المذكرة التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال: هل يمكن لنا ان نجمع المجلس؟ فأجاب سلطان أظن أن ذلك لايكون الا بأمر الخديو فنسأله في ذلك ولاريب انه يوافق عليه . فقال له أحد النظار : الخديو الذي كنت تطلب خلعه إن لم يمكن قتله قبل أيام؟ (قبل هذا[1] جاء كلام في الخديو في جلسة فطلب سلطان باشا قتله وأبى عرابي وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للاجانب)

هذا هو سلطان الذي كان رئيس الحزب الوطني وهو لا يريد الآن إلا

(١) هذه الجملة كتبها النقيد في حاشية المذكرة لانه تذكرها بعد كتابتها فوضعناها بين هلالين لذلك

مجاملة الخديو — ذلك الخديو الذي لا يبغي إلا بيع البلاد للاجانب[1]

اجماع مجلس النواب حق للشعب ونحن نوابه ولابد لنا أن نطلب النواب إلى القاهرة حتى لو أراد عرابي أن يوافي ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة الاجنبية فليفعل، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى اليه الخلاف

سلطان رجع عن رأيه الى رأي الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو والقنصلين وفيما اضطر اليه من موافقة الثائرين

(٢٧) يؤكدون أن ضرب الاسكندرية لم يكن خطر ببال الوزارة الانكليزية ولا وضع في مداولاتها إلى الرابع من شهر يوليو سنة ٨٢ وانما وضع بعد ذلك انتقاما من مؤتمر الاستانة وليس من البعيد أن يكون السبب صلات عرابي مع الاستانة

﴿ المشير درويش باشا مندوب السلطان ﴾

(٢٨) مقاصد الاستانة من إرسال درويش باشا (١) إطالة زمن المخابرات (٢) أن يطمئن قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو (٣) أن يستمال قلب عرابي واخوانه بطريقة أبوية الى زيارة الاستانة قصد التنزه على شواطىء البوسفور (٤) تقرير سلطة الباب العالي بمصر. وكان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت من هو أقوم من درويش الخ

(٢٩) درويش يذكر بسلطة السلطان ويثني على الخديو وينصح بالخضوع للنظام. واذا جاء الكلام في النهضة المصرية يقتصد في القول ويقتصر على قوله ان السلطان مولانا وأبونا وهو الذي سينظر في ذلك

(٣٠) أرسل الخديو لاستقباله ذو الفقار باشا، وأرسل عرابي من قبله يعقوب سامي، وقد حصل خلاف بين الرسالتين في المركب (الباخرة) عند المقابلة لتكدر ذو الفقار. لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

---

(١) أي بحسب رأيه. فيقابل هذا وأمثاله بما ذكره مستر برودلي المحامي عن الفقيد في سلطان باشا ليعلم انه رحمه الله تعالى لم يكن حاسداً لسلطان باشا بل كان محتجا عليهم باتباع الهوى السياسي في ترك محاكمته وهو أساس الفتن كلها

جاء الاسكندرية في ٦ يونيو وسافر إلى القاهرة في ٨ منه

(٣١) أقوال بعض العلماء في إظهار مطاليب في رأيهم وتصريحهم لدرويش بما يجب أن يفعل أغضبه ، ومن ذلك الوقت مال الى توفيق فلما أحس بذلك (أي الخديو) أرسل اليه ما يزيده إقبالا (*)

(المحاورة المهمة بين درويش باشا التركي وعرابي باشا ومحمود سامي باشا)

(٣٢) في يوم السبت ١٠ يونيو قابل درويش باشا عرابي ومحمود سامي لأول مرة فجرى الحديث بينهما على ما سنذكره

(قال درويش) نحن جميعاً رجال جند يحترم بعضنا بعضا وأنتم اولادي لمكاني من السن . وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته المصرية العزيزة ، وستسهلون عليّ هذا العمل ، انا اعلم شكواكم ستشكون (١) صبراً قليلا ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدونانمتين (٢) اللتين تضايقاننا جداً ، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادهما، هذا ما أتكفل به لو عضدتموني فيه ، انا ارى جيداً من جهة وقع الخطأ ليس الخطأ من قبلكم ، يجب التوسل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة

ثم التفت الى عرابي وقال له : أنت أنت وحدك الآمر الناهي في مصر . أنت مع كونك لست الا ناظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ما أغضب الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهلة معهن . وما بقي بعد هذا عملنا فيه بيننا وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضوري حيث إني مشير مرسل من قبل السلطان ، وكن نائبا عني مأمورا تحت قيادتي ، لكي تسهل عليّ المخابرة مع الاجانب عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الآستانة حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مفاوضته معكم

(*) أي أرسل اليه رشوة قدرها خمسون ألف جنيه وحليا قدر ثمنه بخمسة وعشرين ألف جنيه

(١) تشكون بضم التاء وفتح الكاف أي ستقبل شكواكم و يزال ما تشكون منه

(٢) العمارتين من الاساطيل الانكليزية والفرنسية اللتين في الاسكندرية

فأخذ محمود سامي يترجم المقال وعرابي يسمعه ، ثم قال

(عرابي) مشروعكم هذا في غاية الحسن ، وانا نختاره مع الشكر ، لست حريصا على السلطة التي تريد ان تنسبها الي . هي سلطة غير مغتصبة ، الامة هي التي أفضت الي بها ، فالواجب ان ينظر الى الامة ويفكر في شكواها

أعترف بأن يديك ابرع من يدي في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا الآن . سيفي ووظيفتي تحت تصرفك . انا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك انما اشترط شرطا واحدا : أعطني باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا في كل ماجرى الى الآن ، كائناً ما كان ، سواء كان ذاك مني أو من إخواني ، وحيث إني تعهدت للقناصل بحفظ الامن في الديار المصرية وتحملت ثقل ذلك على كاهلي فأرجو ان تعفيني من ذلك بطريقة رسمية معروفة

أطلب ذلك لان الاحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنافيها صنيع وان جرت على العكس من ذلك كنا الجانين

مالت وكولفني وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام وذلك في بلادنا وهم الاجانب الذين لايحترمون لناشيئا ونحن نحترم لهم كل شيء

فوعده درويش بانالته مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد لجلسة يحضرها درويش باشا تحت رياسة الخديو . وانما طلب أن يعلن هذا القول الذي جرى بينهما من قبلهما جميعاً وطلب من عرابي أن يكتب إلى الاسكندرية ذلك بالتلغراف فأبى عرابي أن يعلن شيئا إلا بعد أن ينال ذلك الامر الخاص له من كل تبعة

(استعداد الاوربيين وتسلحهم استعداداً للمذابح)

(٣٣) مسألة تسلح الاوربيين وإيهام موسيو كوكسن ان حوادث ستحدث (*

(٣٤) مالت أخبر حكومته نقلا عن سكرتير الخديو الاوربي (كودار بك) ان محمود سامي وعرابي دخلا ثاني يوم استعفاء وزارة سامي والسيف في يد كل يهدد الخديو بفقد حياته

(*) كوكسون هو قنصل الانكليز في الاسكندرية

(٣٥) سمع مكاتب التيمس من عرابي قبل ضرب الاسكندرية انه يحترم القتال مالم يخرق العدو حرمة البلاد وإلا هدمه ،ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب

(٣٦) أكثرت الجرائد والتلغرافات من الاشاعات التي أفزعت الاوربيين وأخافتهم من المصريين وطلبوا من مديريهم في الاعمال أن يأذنوا لهم بالتسلح فمنهم من أبى ومنهم من أذن

(٣٧) خدمة (لاسترن تلغراف) طلبوا التسلح فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها على رئيس (الكمبانية) في لندرا فاذن بذلك وسمح بثمانية وثلاثين (لوفلفير) وعائلات الموظفين أرسلت إلى قبرص على نفقة الكمبانية

(٣٨) الاوربيون أصبحوا متأكدين من عداوة الشعب لهم لاحساسهم من ضمائرهم بسوء أعمالهم اليه

بدء المذبحة في الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

(٣٩) ١١ يونيو سنة ٨٢ كان يوم الاحد والقهاوي كانت غاصة بطالبي الراحة من الاشغال الطالبين للهو باللعب والسكر . فحدثت مشاجرة على قرب من قهوة القزاز في آخر شارع البنات نحو الساعة واحدة بعد الظهر حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسي والطرابيزات وأشخاص منهم القائم والقاعد :مالطي يقال انه خادم مستر كوكسن أخذ (ركب) عربة وطاف بها من محل الى محل يشرب ويتنزه إلى أن وصل الى خمارة أحد مواطنيه وهو سكران فطلب منه العربجي الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشاواحداً ودخل القهوة (الخمارة) فتبعه العربجي وتبادلت الكلمات بينهما فتناول المالطي سكينا كانت معلقة في مائدة الدكان معدة لقطع الجبن وطعن بها العربجي فسقط لاحراك به ،فاجتمع بعض الوطنيين وحمار من أقارب العربجي وأرادوا القبض على القاتل فجاء يوناني خباز مجاور للخمارة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين من قراقول اللبان

أول من جاء منهم مع المعاون قتل ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية

ولكن لم يتداخل العساكر في القبض على الجناة فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطية) وكان يكفي لحسم المعركة تداخل المحافظ لو اهتم بذلك لغيبة الضابط لمرضه

وبعد نصف ساعة حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين فتفاقم الخطب لان كلا منهما كان يريد ان يفترس الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لكن مسألة الجانين لم يبق لها ذكر في أذهان المتنازعين وانما بقي النزاع

(٤٠) والمسلمون والمسيحيون دخلوا في خصام حقيقي بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع انهم كانوا في مأمن من وصول الشر اليهم. وعند ذلك أخذ المسلمون يفدون من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصي والبعض بأرجل الطرابيزات أوهشيم الكراسي وبعضهم بالنبابيت اشتروها من المخازن القريبة خصوصا من السوق الجديد

في هذه الحالة رؤي موسيو كوكسون نازلا من بيت أحد المالطيين بلباس ملكي ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عند ما أراد أن يركب

العربة ففر ونجا منهم - وصحبه ﴿عمر لطفي﴾ في أثناء الطريق

(٤١) لم يكن المسيحيون مدافعين بل كانوا يهاجمون أيضا. وقد طارت الغوغاء، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين. وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الاوامر المعطاة لهم وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز

ولم يأت أحد من العساكر ولا من البوليس ﴿ولا المحافظ﴾ لاطفاء الثار

(٤٢) على القرب من تمثال محمد علي حيث لم توجد مقتلة وجد نحو اثني عشر قتيلا ليس فيهم أوربي إلا واحد

---

(٤٣) وعلى القرب من زيزينيا رؤي ﴿عمر لطفي﴾ فسأله سائل كيف

تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟ فقال لست بقائد وهذا لا يعنيني. فسأله

لم لمْ تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهراً سيفك في خمسين من عساكر

المحافظين وبذلك كان الامر ينتهي ؟ فاجابه انصرف ليس هذا من شانك ،
وهل أنت محافظ البلد ؟

وبعد ذلك مر أحد موظفي المحافظة فسئل ماذا يفعل الضابط ؟ فقال انه مريض وقد طلب من المحافظ مراراً ان يرسل العساكر فلم يفعل (١

(٤٤) سليمان سامي كان مستعداً لارسال العساكر إذا ورد له الامر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لان الامر بيد المحافظ وقد بدأ في المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولاجواب على مايظهر

(٤٥) ذهب نينه عند قنصل الروسية وحدثه بما رآه من المحافظ فعجب وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابي وكانت الساعة ٤ بعد الظهر

(٤٦) نحو الساعة ٥ بعد الظهر قابله من اخبره ان عرابي ارسل الاوامر لاعادة النظام ، كانت الشوارع غاصة بالرعاع والاوباش يحملون الاسلاب ويصيحون ويسبون وبعد نصف ساعة عاد النظام الى ما كان

(٤٧) لم تقتصر المذبحة على شارع البنات بل وقع ذلك جهة الجمرك وشارع رأس التين وأبو العباس (أيضاً) . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين في هذه الحالة خاصوا نساء أوربيات وأوصلوهن إلى بيوتهن

(٤٨) يقال ان أخوين انكليزيين كانا مسلحين بلوفرفير (مسدس) ولم يكونا يحسنان استعماله قتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده

(٤٩) ظهر في اليوم الثاني أن عدد القتلى الوطنيين كان ١٦٣ غير من أخفاهم المتشاجرون اذ حملوهم سراً من وسط المعركة

ومجموع ماوجد من جثث المسيحيين أوربيين وغيرهم ٧٥ كثير منهم مصاب برصاص في قمة رأسه (* فجموع القتلى ٢٣٨

---

*) لهذا كان عمر لطفي باشا وسلطان باشا أبغض البشر الي صاحب الترجمة رحمه الله

*) هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذي كان يلقيه الاروام والمالطيون من أعلى بيوتهم بغير حساب

(٥٠) لم يصل الخبر عرابي الا الساعة أربع وربع بعد الظهر مع أن القليل من موظفي التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا في تلغرافات ﴿ المحافظ ﴾ حتى ان رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات في اسكندرية لم تقبلا لاشتغال العدة بتلغرافات ﴿ المحافظ ﴾

(٥١) عمر باشا لطفي طلب إنزال عسكر انكليزي لعجز عرابي عن الامن

(١٢ يونيو سنة ٨١)

(٥٢) موسيو كليكن كويسكي القائم بأعمال قونسلاتو فرنسا رجع الى عقله وأخذ في طلب تحقيق عن أسباب الحادثة فصدر الامر في الحال بذلك

وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل . وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض في ذلك مندوبو اليونان والانكليز وأبى مندوب فرنسا الحضور[1] وطلب بعض وكلاء الدول شنق عشرين شخصاً من المذنبين وبهذا تنتهي المسألة في رأيه

(١١ يونيو)

(٥٣) جيش صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) لم يمكنه أن ينفذ شيئاً من تعليمات الضبطية لأن ﴿ عمر لطفي ﴾ كان يعمل بعكس تلك التعليمات وبعد ذلك عين وكيل حكمدارية السودان بناء على توصية ﴿ عمر لطفي ﴾ فهل لابعاده حتى لا يشهد أو مكافأة له على المشاركة في الجناية ؟

(٥٤) بعد الحادثة نبه القناصل على الرعايا بالهجرة مع الطلب من كل ان يكتب ماعنده فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ماشاؤا . ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب وأرادوا أن يربح رعاياهم مايشاءون[1]

(١) ليعتبر الشرقيون بهذه الذمم وبهذه التصرفات ولاسيا الذين يعرفون مايمدح به هؤلاء الافرنج انفسهم وما يذمون به المصريين وسائر الشرقيين وما يصفونهم به من التعدي والتعصب

(٥٥) في الاسبوع التالي للحادثة اشيع خبر ان سيمور لا يعتقدان للحزب الوطني دخلا في الواقعة فاهتم الخديو وأمر عمر لطفي ان يخبر سيمور ان تعهد عرابي بالأمن أصبح لا يعتد به ويخشى من مذبحة أخرى ـ ففعل ولكن لم ينل جوابا شافيا (أخبر الكاتب ننيه عرابي بذلك وطلب منه عزل «عمر لطفي» ولم يتيسر)

(٥٦) ثم عينت وزارة راغب واصدرت عفوا عن الجرائم السياسية غير ان القناصل لم يعترفوا بها تبعا لقنصلي فرنسا وانكلترا

(٥٧) بعد ضباط سيمور خبر الطوابي [1] وانها ليست بشيء (هذا الباعث له على الضرب)

(٥٨) عساكر الطبجية كانوا في بلادهم بتعلة الاقتصاد ، كان في الطوابي مائة مدفع وواحد ، منها ٦٩ كانت في مواضعها الحربية والباقي كان مرمياً بعضه بجانب بعض وذلك من نحو اثنتين وثلاثين سنة قبل الواقعة

وأما البمب (أي القذائف أو القنابل) فلم يفارق مخازن الترسانة ، قبل الضرب بيوم واحد لم يكن جهز مدفع من المدافع بما يلزمه من بارود وبمب

غيرة الاهالي يوم الضرب

(٥٩) تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالي الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله

(٦٠) لورد نورثبروك أرسل البروفسور بلمير (بالمر) ليغوي قبائل عربان غزة من شهر يونيو وقابله ننيه وكان لا يذكر اسمه لتنكره . وقال له يوما قبل الضرب بمدة : ليهاجر فان المدينة ستضرب

(١) المؤلف : هذه الجملة ليست واضحة في مسودة المذكرات وتدل القرينة على سقوط شيء منها ، والمراد منها أن سيمور قائد الاسطول الانكليزي عرف حقيقة حال طوابي الاسكندرية بالاختبار وأنها غير مستعدة لضرب بوارج الاسطول ولكن لا يعلم من أخبره بذلك . وكلمة بعد في أول الجملة لا يعلم متعلقها ، ويحتمل أن يكون أراد بها « بعض » أي ان بعضهم اختبر الطوابي . ولكن كيف كان ذلك

(٦١) قبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة التلغرافات الانكليزية بتعديل في بعض الخطوط وطلب وكيلها في مصر مد خطوط إلى بورسعيد والسويس تحت الماء ، وأذن له عرابي ولكن لم يتم

مدير الشركة في لوندرا طلب من وكيله بمصر في شهر مايو أن يتغيب بالاجازة إلى أن تنتهي الحوادث فان ميله إلى الوطنيين قد يضر به عند الغالبين إذا حدث حرب

(٦٢) قنصل الروسية أكد لنينه ان الاسكندرية ستضرب وسأله أن يسعى على الاقل في عزل عمر لطفي . عزل عمر لطفي وعين ذو الفقار وهو لا يريد إلا ما أراد الخديو

﴿ شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ﴾

تحرش الاسطول لضرب الاسكندرية

(٦٣) في ٩ يوليه : كتب سيمور لطلبه (باشا) في شأن وضع المدافع وتجهيز الدفاع وتوعد بالضرب

(٦٤) في ١٠ منه : كرر ذلك الاشتكاء وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طابية رأس التين لتجريدها من السلاح (لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم) فارسل اليه قرار من مجلس النظار تحت رياسة الخديو حضره أيضا كثير من الاعيان محصله ان مصر لا يمكنها تسليم موقع من مواقعها إلا قهراً ، وان شيئا مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل (فهو) من الترميمات السنوية . وان المدافع لم تزل على حالها من سنين

وصل الجواب اليه ضابط قال له ان شاء فليزر بنفسه الطوابي وليتحقق مما يدعيه . فأجاب بانه مصر على وعيده ، وان عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ

﴿ رأي الخديو توفيق باشا في ضرب الاسكندرية واحراقها ﴾

(٦٥) ١١ يوليه : أحد الميرالايات الذين في معية الخديو قال له : ما مصير الاسكندرية لو ضربها الانكليز؟

فأجاب (أي الخديو) ستين سنة !! وهز كتفه

فقال الضابط . لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الاميرال

والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية

فأجاب (اي الخديو) فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبه على طوبه

حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رءوس أولاد الكلب

الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون اللاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب

(٦٦) الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا

﴿ حرق الاسكندرية وضربها والمهاجرة منها ﴾

(٦٧) بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد علي ممن كانوا على صلة بالخديو ـ ومنهم من أهالي الاسكندرية ـ ومنهم أوربيون بقصد المبالغة في التعويضات . وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم

(٦٨) في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ، وكان قد أوصى عرابي ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة من المراكب

(٦٩) قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن على ايديهن ومات الاطفال أيضا ، وحمل النساء والاطفال وهن على هذه الحالة .

(٧٠) هدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمداً وجهت اليه النار على قصد

المهاجرون من الاسكندرية

(٧١) نحو مائة وخمسين الفاً من السكان مجردين من كل شيء أخذوا في الحركة لغير قصد ولا لمأوى . الموت والفزع ملء نفوسهم . على شطوط المحمودية . الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة ،

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة في كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة

عود الضرب ثاني يوم .

(٧٢) في ثاني يوم الساعة ٨ صباحا عاد الضرب إلى الساعة الحادية عشرة وأصاب الاسبتالية وهجرها كثير من المرضى والجرحى وكان عليها العلم الابيض بالهلال الاحمر.

(٧٣) طلبة (باشا) بعد ان رفع العلم الابيض على نظارة البحرية ذهب الى الاميرال يسأله عن سبب عودة الضرب فاجابه أحد الضباط عن لسان الاميرال أنه يطلب تسليم الطوابي والقشلاقات أيضاً . طلبة اراد المخابرة مع مجلس النظار ، انتشر الخبر في المدينة ، أخذ العساكر في اخلائها ، هلع الناس وأخذوا ثانية في الهرب

(٧٤) دخل اولاد علي للنهب . سليمان سامي سلم محافظة محلة الاوربيين إلى عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان فانضموا اليهم في النهب آخر النهار .

﴿ عود الى وصف المهاجرين من الاسكندرية ﴾

(٧٥) اما الهاربون فكانوا كالاعاصير أو كماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكبين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين امامهم أو حاملين على ظهورهم ماخف حمله من امتعتهم : حيوان ، اثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التي لاقيمة لها .

في هذه الحالة ـ حالة شعب طرد من بيته ـ كان الحر شديدا وغيم من الغبار سد الافق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن ، في أخلاط لا يمكن التعبير عنه — عربات بلا عجل استعملت مساكن ـ عربات من كل نوع بعضها ساقط في المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ، بعضها بغير خيل — روائح شي اللحم ـ صياح على المارة: الخبز الخبز

(٧٦) ابتدأ الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثاني يوم الضرب

(٧٧) في ١٣ يوليو توجه الخديو من الرمل الى رأس التين ، وعسكر عرابي في كفر الدوار

(٧٨) في ١٤ يوليو عندما وصل عرابي لكفر الدوار اجتمع عليه النساء والرجال يلعنون العالم ويطلبون الخبز ، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجانا الى داخل البلاد وقد أرسلوا امع تواصي للمديرين ليقيتوهم ويضعوهم في أعمال بقدر الطاقة

﴿ كتاب تاريخي من الخديو إلى عرابي ورد عرابي عليه ﴾

(٧٩) في مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو) ورد لعرابي كتاب من الخديو محصله بعد العنوان .

سعادتلو عرابي باشا ناظر الحربية في معسكر كفر الدوار —

«إنك تعلم ان الاميرال الانكليزي لم يرد حرب مصر وانما اطلق المدافع على الطوابي بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما انذر به ، وقد اعلننا أنه يجب اعادة العلائق معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان لم يكن فالى جيش عثماني ، وقد قرر مؤتمر الاستانة ان للسلطان وحده حق المداخلة بقوة السلاح في المسألة المصرية . فعليك ان تحضر مع رفاقك الى رأس التين للمداولة في ذلك ، وآمرك بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منها بعد الآن»

فاجاب عرابي بعد التعظيمات

« ان الاميرال انما اطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بانه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا (وسموكم معنا) ان انذاره بالضرب اهانة لمصر واعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطوابي كما قال بل قذف قنابل مفرقعة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيراً ، وان عسكركم المنظم مستعد لان يأتي المدينة عند الاقتضاء ، وانا لا ارفض أي مخابرة في الصلح ، لكن يلزم ان يتذكر ان التمدي وخرق سياج السلم وتدمير المدينة انما جاء من المراكب الانكليزية ، وان الطوابي لم تجاوب إلا بعد خامس ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا

« ومن المعلوم ان انكلترة أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق النيران اثنتي عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة وإشغالها بعساكر انكليزية لا يمكن ان يقال ان البلد في غير حرب

« سموكم يعلم أنه في هذه الحالة لا يمكن ان تكون مداولة حرة ما دامت المراكب الاجنبية في مياه الاسكندرية بل يجب ان تبعد عنها ، فاذا حصل ذلك فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . اما التجهيزات فيجب ان تستمر الى ان تبعد

المراكب عن الاسكندرية. تلك التجهيزات التي يشير اليها سموكم وهي جمع ٢٥الف مقاتل هي التي امرتم بها وما انا إلا منفذ لامركم ؟

﴿عزل الخديو لعرابي باشا﴾

(واتفاق الناس على مخالفته واستمرار الاستعداد للحرب)

(٨٠) بعد أيام صدر الامر بعزله ووزعت بذلك منشورات لهذا السبب وصرح فيها بانه كان ناظر الحربية إلى تاريخ الدعوة إلى رأس التين

(٨١) طبعت نسخ من تلك المخاطبات ووزعت في البلاد فجاء الناس لعرابي طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات ، وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن يعمل شيئا

﴿الجيش المصري والمتطوعون فيه والجيش الانكليزي﴾

(٨٢) كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب. وكان يوجد في أبي قير ثلاثة الاف وخمسمائة ، والفان وخمسمائة في رشيد ، وخمسة آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر الفاً[1] اما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلا

(٨٣) كان من عمل المراكب ان تهدد في حركاتها النقط المذكورة لتمنع عرابي ان يرسل جيشا إلى الوادي

(٨٤) أدخل العربان في الجيش على علم من عرابي بمضرة دخولهم .شرع في جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء . شرع في جمع غيرهم. ودخل كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفي لجعلهم جيشا صالحا للدفاع وراء الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ،واما في الفلا فلا أقل من سنة لعسكري ألماني ومن سنتين لعسكري انكليزي

---

١ أى مجموع العساكر التى في الثغور المذكورة فتكون مع الجيش المنظم الذى يقوده عرابى ١٩ ألفا

(٨٥) قالت التيمس : أرسلت الحكومة الانكليزية ٣٥ الفاً وستبلغها ثلاثين الفاً لمقاتلة الجيش المصري

﴿ طلاب التطوع في الجيش المصري من الاوربيين ﴾

(٨٦) كثير من ضباط التليان والالمان والسويس عرضوا انفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين والبعض كان يطلب وسيلة للنقل والبعض لم يكن يطلب (كالالمان) إلا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع في الجيش . أما الفرنساويون فجاء من بعض المفلسين منهم شيء لا يلتفت اليه

غير أن البحر كان مأخوذاً تحت مراقبة المراكب الانكليزية، والمواصلات كانت منقطعة تقريبا بين مصر وأوربا

﴿ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنساويين ﴾

(٨٧) لم يكن يهم عرابي عند ما رأى في بعض الجرائد الفرنساوية والانكليزية تلقيبه بعاصي إلا مخافة أن يصدر بذلك أمر، وكانت له ثقة بالسلطان إلا إذا أكره. وتذكر البارون درنج وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفا في خارجيتها. ثم بعد ذلك أخذ يذكر مصائب الاحتلال الفرنساوي في مصر أيام نابليون وما احتال به هذا ومنو *على المصريين من الاكاذيب، وما حصل من الفرنساويين في تونس، واستنتج أنه لا يمكن الاعتماد على فرنساوي في شيء (١)

(٨٨) عند ما ضبط الاسير الانكليزي واستنطقه عرابي وسأله [2] عما كان مكتوبا على بعض الكلل [3] من اسم « اسكندريا » فأجابه حصل تحريف والحقيقة « اسكندرا » اسم المركب، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانكليزية . ثم قال له

---

*) هذه كلمة مبهمة لم نستطع قراءتها قد تدل القرينة عليها

(١) المؤلف : ولكن عرابي الفر اعتمد بعد هذا على دلسبس الفرنسي في حماية القنال من الانكليز كما تراه في عدد ٨٩ (٢) وقوله واستنطقه عرابي وسأله الخ لا بد أن يكون أحد الفعلين بغير واو العطف (٣) الكلل تنطق بالكاف المفخمة واصلها قاف ولعلهم كتبوها بالكاف حتى لا تشتبه بقلة الماء واصلهما واحد

لعلك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ فأجابه نعم ولكني عسكري
ما علي إلا أن أطيع

﴿ انخداع عرابي بغش دلسبس في تركه القنال ﴾

(٨٩) عرابي اعتمد على دلسبس في حماية القنال وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعند ما أحس دلسبس بأن الجيش المصري قد يتحرك ناحية القنال كتب تلغرافا لعرابي يقول له من المستحيل ان عساكر الانكليز تمر من القنال

وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقبها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت إلى القنال فورد تلغراف من دلسبس يقول : لا تشرع في شيء يمس القنال ! لا يمر عسكري انكليزي الا ومعه جندي فرنساوي ! أنا مسئول عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كاف وتقرر ارسال جيش ثم أرسل الجواب ببطء وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القنال كان الجيش الانكليزي قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة في مخابرة دلسبس ، ويظهر أنه كان في الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا في المخابرة

(٩٠) قال ولسلي لو قطع عرابي القنال كما قرر لم يكن لنا إلا حصر مصر، والضرب في البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

﴿ أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه ﴾

(٩١) في ٢٣ و ٢٤ أغسطس كانت واقعة نفيشة وأسر محمود فهمي (باشا) فجاء سامي (باشا) بنفسه وطلب من عرابي أن يذهب الى ناحية الوادي

(٩٢) جيش الجهة الشرقية كان أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التي لا تساوي شيئا . خسارة محمود فهمي كانت جسيمة لا تعوض وليس من السهل تعويضه . عرابي وجميع الضباط ومحمود سامي شعروا بالضعف والوهن عند ذلك

(٩٣) قررت مشورة حربية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق .

ذلك أخاف عرابي وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط ورشيد وارسال مثل عبد العال إلى جهة الوادي ، فنفذ شيء وأوقف شيء ولم يحضر عبد العال وكان حضوره مفيدا

(٩٤) ذهب عرابي الى الوادي في حزن وانكسار قلب . وقد اعترف أنه في مدة الستة أسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر الى الوادي وجاء الى كفر الدوار من عساكر الرديف الهرمون والمؤفون (١)

(٩٥) مع حركات الجيش المتوالية ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع.

﴿ عود الى خيانة سلطان باشا ﴾

(٩٦) في ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد علي من عائلة شهيرة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم إلى ترك عرابي والالتحاق بالجيش العثماني الذي جاء لاخضاع العصاة استنطقوا فاعترفوا بكل شيء : وذكروا أن جنديا بحريا انكليزيا يسمى (جيل) حمل ثلاثين الف جنيه من سيمور ليلحق بالاستاذ (بالمر) يستميل معه عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان في الشرقية ـ وان مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانكليزي إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس لمقابلة (بالمر) وقد قطع سلك التلغراف الذي يصل بين مصر والآستانة . وكان

(١) أي الذين ادركتهم الهرم والمصابون بآفات العاهات فلا يستطيعون عملا . فمؤفون جمع مؤف وأصله مأووف اسم مفعول من ايف الشيء أو الشخص أي أصابته آفة أو عاهة

كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية في القنال أخذ المبلغ من (جيل) وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى (بالمر) وحجز الباقي على حسابه وأرسل معه جيل وضابطا آخر فقتلوا جميعاً بين العربان

(٩٧) مركز الدسائس والمخابرات كان في اسكندرية في مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من الانكليز من موظفي الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا

(٩٨) عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانكليز لايفيد ، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح ، فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان ، واختار ابث الافكار الحاوي الطحاوي أحد ثقاة عرابي ، فكان الحاوي يعظ اخوانه العربان بعصيان عرابي وقوة الجيش المحارب ونحوذلك ، وكانت القيم التي تدفع إلى الافراد تتفاوت من جنيهين إلى ثلاثة . ولم يكن عرابي يقتنع بخيانة العربان وكان الحاوي مع ذلك يخبر عرابي ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابي كان يفضي اليه بجميع ما عنده

(٩٩) في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانكليزي ، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانكليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق في الساعة واحدة . وجرح علي فهمي وراشد باشا وانهزم الجيش ، وما ذاك إلا من الجواسيس العربان . وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب الجيش وإلى كثير من الضباط بسعي سلطان باشا ومراسلة العربان

(١٠٠) في ١١ سبتمبر جاء عرابي مراسله ينبئه بخيانة العربان . فأبى قبولها قائلا انهم مسلمون (! ! !)

(١٠١) في ١٢ سبتمبر أنبيء عرابي من المنبع نفسه (بعض رؤساء العربان

أيضا) بأن الانكليز سيضربون التل الكبير ويرمون إلى بلبيس (جهة حصنها الفرنساويون من قبل) ليأخذوا هـذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة . اقتنع عرابي بصحة الخبر فأرسل إلى طلبة يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر . جاءت الفرقة ماشية، وصلت الزقازيق في صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

(١٠٢) يقول أحد الضباط إنه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا إلا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ، ووقع الاضطراب العام ، والجيوش الجديدة انهزمت فكان الانكليز يقتلونهم كأنهم في الصيد ، وقاوم ثلاثة آلاف في نحو نصفهم . وبعض الضباط كان في عجز عن المشي عن الفرار (لعلها عند الفرار) لثقل النقود التي كان يحملها فنهب من بعض السودانيين

(١٠٣) يقال ان عرابي كان يحب اطالة زمن الحرب (أي رجاء أن تتدخل الدول في المسألة كما قاله الاستاذ في موضع آخر — المؤلف)

[يقول المؤلف محمد رشيد رضا] هذا ما عندنا من المذكرات الخاصة بالفتنة العرابية أثبتها بحروفها كما كتبها رحمه الله في تلك الايام الحالكة الظلام، المشتبهة الاعلام ، المثيرة للاوهام ، حتى إنني لم أصحح ما أقطع بانه من عثرات القلم وان كتب في بعض المواضع على الاصل الصحيح ، وفي بعضها على المشهور الدائر على السنة الناس كلفظ الاسكندرية واسكندرية وسكندرية . وانما وضعت قليلا من العناوين لبعض المسائل المهمة في سطر مستقل للتنبيه والتروي فيها وبعض الخطوط على بعض الاعلام أو الجمل من فوقها وقليلا من الكلمات المفسرة والموضحة بين علامتي الادراج هكذا (   ) وأما الجمل التي وضعت بين هاتين العلامتين فهي له رحمه الله تعالى الا الاخيرة منها التي ختمنا بها كلمة المؤلف وفي هذه المذكرات عظات وعبر لو اتيح لاستاذنا رحمه الله تعالى اتمام تاريخ الفتنة العرابية وشرحها لاستفاد قراؤه منها مالا يوجد له نظير الا في كلام حكماء المؤرخين الاعلام الذين يقل عددهم حتى في الامم الحية العزيزة ، وكان لدى الاستاذ ملخصات مترجمة من

الجرائد الاجنبية فيما كانت تكتبه من الاخبار الآراء في المسألة المصرية في أثناء تلك الفتنة، كانت تترجم بأمره لادارة المطبوعات التي هو رئيسها ولدينا بعضها ولكن لاحاجة لنا بنشره لاننا نكتب تاريخ الرجل لاتاريخ الثورة العرابية، وقد جئنا بما ثلم به رأيه في اسبابها ونتائجها وسيرته في اولها وآخرها .

ولما كان غرضنا من كتابة تاريخه استفادة الامة مما فيه من العبرة حسن منا أن نذكر القارىء ببعض الفوائد التي تؤخذ مما كتبه في هذه المسألة كتابة المؤرخ الصادق الحكيم والوطني الصميم .

﴿ بعض فوائد ما كتبه في المسألة العرابية ﴾

(الفائدة الاولى) ان الاوربيين كانوا يتصرفون في الدولة المصرية و البلاد المصرية أسوأ التصرف وأشده إفسادا للنظام ، وكلبا في جمع الحطام ، ويسوقون الحكام والرعية كما تساق الانعام ،

(الفائدة الثانية) ان أمراء البلاد لم يكن عندهم من العلم بطبائع الامم وحقوق الدول و أخلاق البشر وتاريخهم وسنن الاجتماع مايهديهم الى السياسة المعقولة والادارة القويمة في حفظ ملكهم الاستبدادي، لذلك كان اسماعيل باشا هو المجتاح لثروة الامة والدولة، الممكن لنفوذ الاجانب فيهما ، والممهد للثورة التي هي موضوع بحثنا ، وهو يظن أنه سيجعل مملكته كممالك أوربة. و كان توفيق باشا هو الموقد لنارها ، والداعي للانكليز إلى احتلالها ، من حيث يظن أنه يحفظ سلطته من عبث الرعية بها.

(الفائدة الثالثة) إنه لم يكن في رجال هذه الدولة وأصحاب النفوذ فيها أوفي الشعب رجل كبير العقل بعيد الرأي قوي الاخلاص والعزم يتلافى الثورة على علم وبصيرة ، بان يحقق ما حققه الشيخ محمد عبده من أسبابها ، ويقنع الخديو توفيقا بما يجب فعله في امرها ، وقد كان هذا ممكنا مع توفيق لما كان عليه من الدماثة وضعف الارادة ، مع حب الخير والتدين ، ولو كان لهذا الشاب الازهري محمد عبده مدير المطبوعات ورئيس تحرير الجريدة الرسمية ما كان لرياض باشا وشريف باشا من المكانة في الدولة أو ما كان لسلطان باشا من الجاه والثروة في الامة، لقام بهذا

الواجب. كان سلطان باشا يعلم ان عرابي وأخوانه الضباط المصريي العرق مافكروا قبل تفاقم خطب هذه الحوادث بالخروج على الخديو ولا في تقييد سلطته الاستبدادية بمجلس نواب ولا بغيره ، وكان يعلم ان غرضهم الاول من طلب المجلس الامن على أنفسهم ثم على وظائفهم العسكرية ، وان غرضه هو من المجلس الذي اتخذهم وسيلة له ان يكون وزيراً أو رئيساً له ، فكان يمكنه بعد استفحال الخطب وقرب وقوع الخطر على البلاد بالاحتلال الاجنبي — وقد رست بوارج الاسطول أمام مدينة الاسكندرية — ان يقنع الخديو توفيقا بحقيقة أمر العرابيين وان اخضاعهم ممكن، وأنه خير له وللبلاد من الاستعانة عليهم بالانكليز ، فان هؤلاء اذا احتلوا البلاد احتلالا عسكريا بظهورهم على قوتها العسكرية فان سلطانه الحقيقي يزول ، وانما يبقيه الانكليز كالشبح الماثل ليستعينوا باسمه على حكم البلاد كما يريدون، كما فعلوا في بعض الممالك الهندية أو دون ذلك ، ولكن سلطان باشا كان أصغر نفسا وأقل علما واضعف وطنية من ذلك ، بل كان خائنا خان اميره أولا بشبهة خدمة الامة وجعل حكومتها مقيدة بالشورى النيابية ، ثم خان أمته بشبهة خدمة أميرها والمحافظة على امارته ، وانما خدم الانكليز وحدهم

فاين هو من الشيخ محمد عبده الذي كان ساخطا على عرابي وجماعته منكراً عليهم افتياتهم على حكومتهم وأميرهم، محذراً اياه من سوء العاقبة بانتهاء فتنته باحتلال عسكري يوجب لمسببه لعنة التاريخ الى يوم القيامة ، ومنكراً عليه وعليهم التعجيل بطلب الحكومة النيابية قبل إعداد الامة لها ، على أنه كان هو واستاذه السيد جمال الدين أول من نبه الافكار ووجه القلوب اليها ، ثم لما آل الامر الى تدخل الاجانب في أمر البلاد بطلب الخديو اضطر إلى ان يكون مع الامة عليه ويساعد الامة ما استطاع من رأي، وقد تقدم مايثبت ذلك بالتفصيل

(الفائدة الرابعة) ان من أهم أسباب هذه الفتنة ،وما آلت اليه من المحنة احتقار الخديو ورجال بلاطه وكذا وزراؤه وكبار ضباط جيشه من الترك والجركس للمصريين الخلص ، والتعبير عنهم بالفلاحين للتحقير والتعيير . وعدهم غير أهل لمناصب الدولة، ولذلك عظم على توفيق باشا ان يطلب منه هؤلاء الفلاحون حقوقا

خلقوا على رأيه ورأي البيئة التي تربى فيها ليكونوا عبيدا ،حتى آل به الامر الى الاحتفال بانتصار الانكليز على جيشه وقبوله التهاني من الوجهاء على احتلالهم لبلاده وسلبهم لملكه ! كما يراه المطلع على كتاب (مصر للمصريين) وعلى جرائد تلك الايام.

والواقع أن البلاء وقع على رأسه هو لانه سلب منه ملكه الاستبدادي ، وان الفلاحين كانوا في عهد الاحتلال آمنين على أموالهم من السلب ، وعلى أنفسهم من الاهانة والضرب ، مما كانوا عليه من قبل ،وهذا من أكبر ما أصاب الشعوب الاسلامية بعد زوال ملك العرب العادل ، الذين كانوا يعدون جميع المسلمين أخوة لهم في الاسلام ، وكانوا يساوون في العدل بين جميع رعاياهم على اختلاف مللهم ونحلهم واجناسهم ، وملاحدة الترك يعدون هذا من عيوبهم، جاهلين انهم لولاه لما تم لهم إخضاع تلك الشعوب الكثيرة لسلطانهم: وإدخال تلك الملايين في الاسلام باختيارهم.

(الفائدة الخامسة) ان الشعب المصري في جملته قد قام بكل ما يجب عليه من الحقوق الملية والوطنية،فقد بذل كل ما استطاع من المال والرجال في سبيل الدفاع عن بلاده ، وانما خانه بعض كبار رجاله كسلطان باشا وبعض الضباط وهمج البدو ، لارجال الحكومة والقصر (السراي) من الاعاجم الاصل وحدهم .

وقد استفاد الشعب المصري من هذه الفتنة أن شعوره بوجوده وبحقوقه قد انتشر في المدائن والقرى ، وضعف به ما كان مستحوذا على القلوب من هيبة الأمراء والحكام ،بعدما كان من جراءة العرابيين عليهم فان الاسباب الخفية الخاصة التي جرأت ضباطه على المطالبة بحقوقهم التي هي حقوق لشعبهم لم تكن معروفة للجمهور، على انها كانت أسبابا شخصية،دخلت في طور الحقوق العامة ، فكانت كما قال بعض أئمة العلم : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله واستفاد عقلاء الشعب من الحكام وغيرهم أنه لاقوة في هذا العصر للدولة الابالامة ، وان الحكومة الشخصية الاستبدادية اذا لم تسقط بقوة الامة فانها لا بد ان تسقط بقوة الاجانب،وتكون آلة لهم يذلونها ويذلون الامة بها، وأنه لايرجى استقلال لهذه البلاد الا بعد تمكن هذه العقيدة فيها ، وعملها بمقتضاها .

(الفائدة السادسة) ان الدولة العثمانية العريقة في الحكم وممارسة السياسة

الدولية لم تحسن التصرف في المسألة المصرية ، وكان يسهل على مندوبها المشير درويش باشا دره الخطر ، وحل الاشكال ، ولكنه كان خائنا أيضا فاخذ الرشوة من توفيق باشا ووافقه على هواه ، فاين هو من فؤاد باشا في حل مشكلة سورية ولبنان سنة ١٨٦٠ واخراجه للجيش الفرنسي منها بدهائه وحكمته

(الفائدة السابعة) أن الاستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجى أن ينهض بالامة في مدة خمس عشرة سنة كما بين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء في الجزء الثاني من هذا التاريخ ، وكان يفضلها على إنشاء حكومة نيابية قبل استعداد الامة لها . وإن كان اول من نبه الامة لها هو وأستاذه السيد جمال الدين ودعواها اليها كما تقدم.

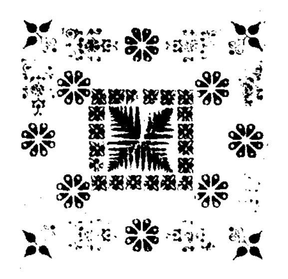
ولكنه كان يرى ان رياضا قد افرط في العدل والاصلاح بعدم مراعاة استعداد الخديو ورجاله وأركان حكومته الذين استمرؤا مرعى الاستبداد وطبعوا على الاسراف في استعباد الرعية الضعيفة الجاهلة ، وأنه كان ينبغي له مداراتهم والرفق بهم ، وأنه لما علم بسخط اميره عليه وكراهته له كان ينبغي له ان يستقيل من منصبه أو يرضيه ان أمكن ، لأن طاعة الأمير واجبة عقلا وشرعا مادام أميراً، فان ظلم وفسد وتعذر اصلاحه جاز السعي لاسقاط إمارته بالوسائل التي سنها الخالق الحكيم للاجتماع البشري، ولكن لا يجوز الاستبداد عليه والعصيان له مادام أميرا ،

(الفائدة الثامنة) أنه كان يعتقد أن عمل عرابي خطأ وخطر على البلاد ، لان تصدي رجال الجيش لادارة الحكام وإرغام ممثل السلطة العليا ومن دونه على ما يريدون، قلب للنظام ، وافساد للحكم ، وافضاء بالدولة الى الفوضى ، ولان الثورة العسكرية في مصر قد تفضي الى احتلال أجنبي يذهب باستقلالها ، وكان يعلم مما تلقاه عن السيد جمال الدين ما كان من سيرة الانكليز في الاستيلاء على الممالك الهندية ، ويعلم أنه ليس في البلاد من القوة العسكرية المنظمة ومن الثروة ما يمكنها من الظفر بدولة قوية غنية كالدولة الانكليزية — وقد تقدم عنه التصريح بهذا

وكان مع هذا كله يعتقد أن عرابي باشا غرّ ساذج ينخدع للاجانب بما لا يصح أن يخفى على رجل متعلم في الدرجة الوسطى ، وذكر عنه أنه انخدع

جنصل فرنسة الجنرال أولا وبموسيو دلسبس آخراً ، وإنما فهم بعد خراب البصرة أنه لا ينبغي لاحد ان يثق بفرنسة ولا باحد من رجالها — وأنه انخدع لأعراب أولاد علي وكان يطلع الحاوي جاسوس الانكليز على أسراره العسكرية ولا يتصور وقوع الخيانة منه ولا من احد منهم «لانهم مسلمون» فيالله العجب من فهمه لاسلامهم ومن ارتقائه بانفسهم فيه الى مقام الصحابة من المهاجرين والانصار ، والى درجة الاولياء والابرار ، بل عرج بهم الى أفق الانبياء المعصومين عليهم السلام. وأكثرهم لم يعرف من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، كما يقول خطباء الجمعة في مسلمي هذا الزمان من أهل الحضارة ، بله همج البداوة . فهل يرجي الجيش ان ينتصر على مثله أو ما دونه في العدد والعدد اذا كان قائده يبني أحكامه وأعماله الحربية على هذه الاوهام ؟ كلا ، فكيف يرجي ان ينتصر على جيش يفوقه في كل شيء من الاسباب كالمدد والعدد والسلاح والنظام ؟

وانما كان الاستاذ مع هذا كله يشد أزرهم بما استطاع بعد وقوع العداء بينهم وبين الانكليز لان هذا واجب شرعا ووطنية ، ولو استطاع درء هذه الفتنة بمنع الثورة قبل استفحالها . و بصلح شريف بعد وصولها الى آخر حدها ، لفعل . ولله في خلقه سنن مطردة ، والموفق من الافراد والشعوب من اعتبر بها وراعاها في عمله ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾



خاتمة هذا المقصد

(في اتهامه وسجنه ، وماكان من تأثير السجن والوشاية في نفسه ، والحكم عليه بالنفي من بلاده)

لا تكمل تربية الرجال ، إلا بمكافحة الاهوال ، فمعادن الانفس لا تصفو من شوائب الضعف في الحق ، ولا تتمكن من مقعد الصدق ، إلا بعد ان تعرض على نيران المحن ، وتذاب في بواتق الفتن (فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) ولذلك يبتلي الله سبحانه وتعالى عباده المصلحين بفتن المفسدين ، ليعلم الصابرين والصادقين (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فالفتن والكوارث تمحص أنفس المؤمنين بالله السائرين على سننه فتزكيها وتعليها ، وتمحق الكافرين بنعمه ، والمتنكبين لسننه ، فتدسيها أو تفنيها .

وقد اتهم الاستاذ الامام في الثورة بما هو بريء منه ، وتفنن المنافقون يومئذ باخبار السوء عنه ، وتقديم تقارير السعاية فيه ، فسجن وأهين كزعماء الثورة الذين كان يعارضهم ، ويحذرهم وينذرهم عاقبة جهلهم ، وحوكم كما حكموا بجريمة العصيان ، ولكن ظهر بعض حقه في المحاكمة فحكم عليه بعد سجن ثلاثة أشهر وأيام ، بالنفي من القطر المصري مدة ثلاثة أعوام ، وقد زعم مستر برودلي محامي العرابيين الانكليزي ما تقدم عنه من سوء تأثير السجن في نفسه ، وحكمنا عليه بالخطأ في زعمه ، وقد نشرنا قصيدته التي نظمها في السجن ، وبين فيها رأيه في الثورة ورجالها ، واننا ننشر هنا ما كتبه رحمه الله لبعض أصدقائه وهو في السجن لا يدري ما الله صانع به ؟ ففيهما الحجة البالغة على خطأ برودلي بما كشف من الحجاب عن كبر نفسه ، وعلو همته ، وصفاء سريرته ، وحسن نيته ، وبعد آماله ، وثقته بمواهبه ونعم ربه . لانه كتب ونظم تحت سلطان تأثير السجن واحتمال القتل .

﴿ الكتاب الذي أرسله من السجن الى احد اصدقائه اومريديه ﴾

وفيه من وصف حاله فيه ومابلغه من الوشايات فيه ممن كان يعدهم من أصدقائه أو مريديه ويحسن اليهم، وتأثير ذلك في نفسه ـ ومن وصف شعوره و آماله و نيته ـ ماهو أصدق تعبير عنها . قال :

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠

عزيزي

تقلدني الليالي وهي مدبرة　　كأني صارم في كف منهزم

هذه حالتي : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الارض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين، فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس، اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية ، فاصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتثرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموس والاقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هـذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت السلطة لآلهة الشر ، فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين * (١)

---

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر ـ يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما ويخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين، كما يقال اغتالتهم الغيلان ـ فيمن هلكوا باسباب مادية تجوزاً مبنيا على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » — كما في البيضاوي وغيره وتوهم بعض أدعياء العلم باللغة وفنونها وبالشريعة ان ذكر الآلهة ولو باسلوب الحكاية اثبات لها، كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية عن العرب واستقلالا، ومن الثاني قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لايأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ،غطي فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ، لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقا، ولا أتوهم مجيباً ، أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزأر ، وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله، فهو بلاريب من الهالكين *

تقطع حبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالاولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الارض لعنه الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء، وطمست معالم الحق، وحرفت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لايهدي كيد الخائنين *

ذهب ارباب السلطة في بحور الحوادث الماضية ،يغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ،وسواقط من اللمم، ليموهوها بمياه السفسطة، ويغشوها بأغشية من معادن القوة، ليبرزوها في معرض السطوة ،ويغشوا بها أعين الناظرين *

لايطلبون ذلك لغامض يبينونه، أو لمستور يكشفونه، أو لحق خفي فيظهرونه، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدي الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لانفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الاباطيل، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ،ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ،غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالما بان كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لان الله يعلم — كما

أنت تعلم — أنني بريء من كل ما رموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً أو كنت من الضاحكين *

نعم خنقني الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة ، عند ما رأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين* لكن اطمأن قلبي ، وسكن جاشي ، عند ما رأيت تواريخ التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح باباً لا يذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان (١) تقريرين جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم يتركا شيئاً من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أعدهما من المجانين *

ولم أتعجب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب ، غاية العجب ، بالغ ما شئت في عجبي ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (٢) الذي أرسلت اليه السلام ، وابلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير.... ولكن سيصل إلي ، انما فيما بلغني أنه شهادة باقبح شيء ، لا يشهد به الاعدو مبين *

هذا اللئيم الذي كنت أظن أنه يألم لألمي ، ويأخذه الاسف لحالي ، ويبذل وسعه إن أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة في قلوب الحاكمين *

كم سمعني أقاوم هيجان (٣) الجرائد ، واوسع محرريها لوماً وتقريعاً ، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان عليّ في بعض أفكاري هذه من اللائمين *

كان ينسب فلاناً لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم

---

١) هما : رضوان : و : ه (٢) سعيد البستاني (٣) وفي نسخة هجاء

لم أنقض له عهداً ، ولم أبخس له وداً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده . وظفاء فأباله أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملي هذه الاحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الاولياء ، ما أثبته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصاب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب من الايذاء ، ولو للاعداء ، ما أشده رعاية للود ، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذمم الطاهرة ، ما أقواه إقداماً على العمل الحق ، والقول الحق ، لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين *

هذا القلب الذي يؤلمونه با كاذيبهم ، هو الذي سر قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحاً بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطيف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً ــ خصوصاً هذا الاثيم ــ أفنشرح "صدور وهم يحرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحها وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الاسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين *

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة ، وان جاروا في تصرفهم ، ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز ، إذا اتصل بذي الود ، وان كان خشناً فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وان هذا القلب في علاقته مع الاوداء ، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما

كيماوي يدقق، لا يجد للتحليل بينها سبيلا ، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلني تقرير اللئيم ، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني ، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا ، ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة ، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

*
* *

رددت على التقرير ، وكان كل مافيه الغش والتغرير ، وذكر فيه فلانا... باشنع ما يؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخبيثان قبله ، ولكن دفعت ماقاله في جانبه أيضاً . وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فما عليكم ان سئلتم الا أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من افكاري وأقوالي التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ، ومن كانوا الهامن الطالبين * إلى هذا الحد قفوا ، فان سئلتم فقولوا اما نحن بتأويل الاحلام بعالمين *

في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشراً ببقائكم في مركزكم ، فقمت ورفعت يدي ورجلي وناديت : الحمد لله رب العالمين * وأخذني الاسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين *

ياعزيزي ، أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم ، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم ، فغشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم ، فقاموا ينطقون بما لايعون ، ويتكلمون ولا يفهمون ، مابالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقذر من البلغم . وامر من الصفراء ، وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث مايحملون *

مابال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر برهوت ، تقذف بسائلات

بشعة الطعم، خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، تضطر معانيها للفرار منها؟ لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون *

هل بطل ياعزيزي ماجاء على لسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يغرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنيعة؟ هل كان خرافا ماقرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ماحوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟ *

هل أتأسف أن كنتُ سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنتُ مقداماً في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أبياً أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتي؟ هل استحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون؟ *

كلا والله لن يكون ذلك، لم أزدد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزدد في المحافظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لأصنعن المعروف، ولأغيثن الملهوف، ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولأتجاوزن عن السيئات، ولأتناسين جميع المضرات، ولأبينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون *

ولأظهرن الصديق في أجمل صوره، ولأجلونه للناس في أبهج حلله، ولأثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا غسق دجى الهموم، تستضيء به في حل ماانعقد، وتستعين بقوته في تيسير ماعسر، وتذهب به الى أوج المعالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنني اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف. وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن. فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاه، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد عن نيل المطلوب. ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض. ويسئمهم ان طال زمن

معاناة العلاج ، فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل ، وقد كان ربالهم وهم له ساجدون * يذهب عنه البهاء ، وينكسف من وجهه الضياء ، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق ، وتمجه طباع ذوي الاذواق ، وتمحى من جبينه تلك الاسطر الجلية العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : ههنا كنز الرغبات ، ههنا منال الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس ، ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ، ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن أقول لكم : ان الحوادث الربعة سوف تنسى ، وإن هذا الشرف سوف يرد ، ولئن أبت طبيعة هذه الارض بخستها ان يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها ، ولاجذبن الى المجد أحبتي ، ومن إلى المجد ينجذبون *

كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم . ولا أطلب شيئا فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس ، وبعضهم له منكرون *

أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب مني اليك في السجن إلا ان يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكى ، والا كانت المراسلة أجل وأعلى . ولا تجزع ، فليس في الامر مايفزع ، وهو أهون مما يتوهمون * وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من نكاية الخائنين ، ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين * اه

[يقول محمد رشيد] لولم يكن لنا من فائدة سجن الامام الذي كان نعمة في صورة نقمة ، ومنحة في جلباب محنة ، إلا كتابة هذا الكتاب البليغ الذي وصف به نفسه الزكية ، وسريرته الصديقية ، أصدق الوصف وأبلغه وأجمله — لكفى بها فائدة . وما كان لولا تلك الشدة العاتية ليكتب هذا أو يقوله وقد عهدناه ينأى عن الفخر بجانبه . ولعمر الحق لقد صدق فيما قال عن نفسه وصدقه فيه الزمان ، وكل من عرفه من الناس ، حتى أسوأ الناس ظناً بالناس وأشدهم انتقاداً لهم . ومن كلام ابراهيم بك المويلحي الكاتب النقاد الشهير فيه : « باطنه خير من ظاهره »

الفصل الخامس

في الطور الثاني من حياته العملية

وهو ما عمله في اثناء النفي

وفيه مقدمة في بيان تلقي سورية له بالتكريم ، وأثر ذلك في مريديه وأصدقائه بمصر — ومقصدان (أحدهما) في عمله السياسي في اوربة مع السيد جمال الدين و (ثانيهما) في عمله العلمي الادبي في سورية

المقدمة :

حكم على الاستاذ الامام بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين و كان ذلك في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وحكم كذلك على كثيرين من الذين اتهموا في تلك الحوادث المعبر عنها بجريمة العصيان بالنفي إلى خارج القطر إلى مدد مختلفة من سنة الى ٢٠ سنة و كان ممن حكم عليهم مثل الحكم على الاستاذ ابراهيم بك اللقاني وكان من أصدقائه وأخوانه الجماليين بل كان يعد المريد الثاني للسيد جمال الدين ، ومنهم الشيخ امين أبو يوسف من أصدقائه أيضا. وقد سافر هؤلاء مع كثير من رفاقهم من ازهريين وغيرهم إلى سورية فطاب لهم المقام فيها لما قابلهم به كرام أهلها من العلماء والادباء والوجهاء من الحفاوة والاكرام ، فكأنهم استبدلوا اهلا باهل وجيرانا بجيران ، وخلانا بخلان ، وأقام الشيخ محمد عبده واللقاني وكثيرون من أصدقائهم في بيروت ، ثم سافر الشيخ إلى أوربة وكان سبقه اليها السيد جمال الدين ، وكان من عملهما فيها مانبينه في المقصد الاول من هذا الفصل ، ثم عاد الى سورية وأقام في بيروت وكان من عمله فيها مانبينه في المقصد الثاني منه .

مقدمة الفصل

قلنا ان أهل سورية الاكارم قد تلقوا الاستاذ الامام ، بما يليق بمقامه العلمي والادبي والعقلي من الاجلال والاكرام ، حتى كان فيهم وهو منفي من بلاده ، بعيد عن صنائعه ومريديه وتلاميذه ، اعز مما كان في وطنه ، على ما كان

له في عهد الوزارة الرياضية من النفوذ الذي شرحناه في المقصد الثالث من الفصل السابق، كما كتب بذلك لتلميذه النجيب، ومريده الصادق، وصديقه الوفي (سعد زغلول) وتأثير ذلك في أنفس خلانه بمصر كما يعلم مما كتبه اليه هذا جوابا عن ذلك. وهاك الجواب الاول من اجوبته، ومنه يعلم بالاجمال ما كتبه الامام له:

﴿ بعض مكتوبات سعد زغلول الندب الهمام إلى الاستاذ الامام ﴾

(الكتاب الاول وهو مرجوع اول كتاب كتبه اليه من بيروت عقب وصوله اليها)

من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ إلى بيروت

مولاي الافضل، ووالدي الاكمل، أحسن الله معاده

بعد تقبيل الايدي الكريمة: قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا اليه، فتلوناه ووعيناه في الفؤاد، وحمدنا الله تعالى على أن شرفتم تلك الديار سالمين، مبالغاً في اكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد شبانها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء

ولهم منا معشر أتباعك ومريديك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الاجلال، ألسنة مرطبة بالثناء عليهم، وضمائر مطوية على مزيد احترامهم وفائق تعظيمهم

صحتي البدنية معتدلة، أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التي كنت تجلو مطالعها معان، نعرفها أوهاما يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب وسألته إعارته فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ولم يرده اليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسياً كان أو معنويا. وسأتحرى هذا الكتاب في كتب سامي عند بيعها فاذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر

الحال العمومية على ماتركتها ، غير أن الناس أخذوا في نسيان مافات من الحوادث وأهوالها ، وقلت قالتهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ، وأصبح المادحون للانكليز من القادحين فيهم ، وبالعكس. والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً والله أعلم بما يكون

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحاً وتلويحا فتقبلوها بمزيد المسرة والانشراح . يسلم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فراراً من شروره ، آسفاً على ماوقع لجنابكم أكثر من أسفه على نفسه . الشيخ محمد خليل والشيخ عامر اسماعيل والشيخ حماده الخولي والسيد عثمان شعيب والشيخ حسن الطويل ووالدي عبدالله وأخواي شناوي وفتح الله (هو أحمد فتحي) وكثير غيرهم يقبلون يديكم ، ويسلمون عليكم ، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الاماجد الذين أحسنوا وفادتكم وأكرموا مثواكم ، زادهم الله كرما وكمالا

مولاي : ذكرت لحضرتك ان الضعف ألم بفكري فبالله إلا ماقويته بتواصل المراسلة غير تارك فيها ماعودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي نهتدي بها إلى سواء السبيل ، ونتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقائقه ، وعرفت خلائقه ، وما يناسبهـا من ضروب المعاملة . وفقنا الله لمتابعتك ، ولا أطال على بلادك مدة غيبتك ، انك إمامها وإن اقتدت بغيرك ، ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك ، والسلام ولدكم

سعد زغلول

﴿ كتاب آخر جوابي منه اليه في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الافضل ، ووالدي الاكمل ، أحسن الله مآبه

أكتب إلى السيد الاستاذ بعد تقبيل يده الشريفة عن شكر مزيد لمكارمه التي لم يمنع من تواترها على صنائعه تباعد الديار ، ولا تنائي البلدان ، معترفا بالعجز عن وفاء واجب الحمد ، مع الاعتقاد بأن هذا لايثنيه عن المكرمات يوليها ، والمبرات

يسديها ، فما يفعل الخير التماس الثناء ، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء ، إنما يحسن محبة في الاحسان ، ويبر شفقة بالانسان

تفضل أدام الله فضله على خريج حكمه ، الناشيء في نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالته ، الشافي لما في الصدور ، الكاشف لحقائق الامور ، الهادي إلى سبيل الرشد وإلى صراط مستقيم ، فسر لمرآه ، سرور العليل بالشفاء وافاه ، وتلاه متدبراً دقيق معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد إيمانا بفضل مولاه ، ويقيناً بجلالة من أوحاه ، وشكر الله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال .

وتكرم أبقى الله كرمه ببيان بعض أسماء الكملة الكرام الذين دارسوه فصولا من المروءة ، وأبوابا من النجدة ، وما لهم من كمال الفضل ، وما فيهم من تمام العقل فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب ، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور ، وتشوقنا لان تتشرف أبصارنا برؤياهم ، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم ، وما يحتاج في اقناع النفوس بضعف تلك الحجة وإن كانت تمكنت في الاذهان ، إلى قوة البيان ، فمعرفتهم بمقام فضله ، ومقدار حكمته ، ونبله ، كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وغزارة فضلهم ، وسمو عقولهم ، ورجاحة هممهم ، وسجاحة شيمهم ، وفي توجيه ما ثبت من الفساد في أخلاق غيرهم ، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الاستاذ الجليل في كتاب مخصوص اذا وجد من الوقت مساعداً ، انما نحتاج إلى قوة البيان في هذا الموضوع لنتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الافاضل ، وتداول النجدة بين الكرام الاماثل فما رايتنا(١) من قبل لدينا إلا فاضلا كريما يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً ، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً

ولقد زادني ميلا في السفر ، وبغضاً في الحضر ، ما جاء في وصف أولئك الاماجد ذوي النفوس الزكية ، والمحامد العلية ، وما تلاه من بيان حقيقة غوازي

(١) الكلمة في الاصل هكذا «رايتنا» ولعل المراد فما رأيناك الخ والخطاب للاستاذ الذي بث الفضيلة بالعلم والعمل في جماعة نكثوا عهده وخانوا وده ، ووشوا

* بتشديد الشدة

الامم، ساقطي الهمم ، سافلي القيم ، جاهلي مقادير النعم ، غير أني عدلت عن داعية هذا الميل امتثالا للأمر، وفي النفس حسرات لايقاومها صبر ، وبها الى السفر أشواق لايتناولها حصر

وأحسن خلد الله احسانه على صنيع آدابه ، اليتيم في اترابه ، بحكم من مثل التي تعودها غذاء للعقل ، ونوراً للفكر، فتلقاها بقلب شاكر ، وتقبلها بفؤاد حامد، وحفظها في الوجدان ، راجياً من الله التوفيق الى الاخذ بمعانيها ، والهداية إلى اتباع ما فيها ، آملا من مكارم موليها، دوام تواليها

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل (١) ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين ، ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم ، ومن وثوقه بي فيما أرويه لكان الاسف مضاعفاً

إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه مايقصد به مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف إلا بما معناه الاسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف ، فلعل ما بلغ المسامع الشريفة من هذا القبيل ، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الاسف من فؤادهم مبلغه انصرف خاطرهم عن رعاية مقام القول فتوجه ذهنهم إلى مفهوم الكلام الحقيقي وطبقوا المقام على ما فهموه، ولهم العذر ، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضرتكم ولو مراداً به غير حقيقة معناه ، ولم يألفوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها ، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده ، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها إلى غير المتبادر للافهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهرياً متعوداً من الشيخ سماع أفظع منها مفهوما وأشنع تركيباً

(١) ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله أيام غضب الشيخ عبد الكريم سلمان علي أنه كان بلغه في أثر الفتنة العرابية أنه طعن فيه يتبرأ من كونه من حزبه فكتب في ذلك كلمة في كتاب لآخر — قال فيه : أكننته كني وأدنيته مني ، وجعلته في مكان النحو من ان جني، ثم هو يصرح بسبي ولا يكني اه فظهر أنه كتب بهذا الى سعد وان سعداً دافع عنه بهذا الكتاب

وكيف يتأتي له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل ؟

أنسى ما أوليته من كرائم النعم ، وجلائل الامم (؟) التي لا يزال متمتعاً بها متفيئاً ظلالها ، وانك المؤرق أسفاً ، المحترق حزناً ، المشفق عليه يوم وجدت اسمه مكتوبا في تقارير اللئام ، حتى شغلك همه عن همك ، وسعيت وأنت مسجون في تنجيته من التهمة بواسطة المحامين

ما نسي كل هـذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولاءك ، ويبتكر هجاءك ، ويمس مقامك . في بيت أواه . ومنزل طالما رتع في بحبوحة نعماه

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شيء وراء إعلان الاسف والاشفاق ، أما كونه لم يرسل خطابا فمولاي يرى انه من الادلة الصادقة على كون ذلك الشيخ الفاضل صادقا في ولائه ، حريصاً على دوام تذكر أوليائه ، إذ لم يدعه الى ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة على النعمة التي غرستم أصولها ، وأنميتم فروعها ، ليكون على الدوام متذكراً لحقيقة مبدئها ، متصوراً صورة منشئها

أما كتاب الشيخ محمد خليل ، فقد علمت ما في إرسال صورته من حسن التعليل وكمال التلطف في التأديب ، على ما جرت به عادتكم الشريفة . وقد طالعت هذه الصورة فرأيت انها من أقوى الادلة على شدة ميل صاحب الاصل الى الصدق ، ورغبته عن التمويه ، حيث أوضح حاله صادراً في الايضاح عن الحق برهانا على شدة إخلاصه باثبات العبارة التي نفيتها بين يدي حضرتكم في الدائرة

فان إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه ، ومن هنا يتبين لحضرتكم سلامة نيته ، وحسن طويته

أما عنوان الجواب فما أداه إلى نسجه على ذلك الاسلوب الا اعتماده على معرفتكم بكونه من الصادقين المعظمين لجنابكم الكريم . وعلى كل حال فنحن لا نستغني عن كريم عفوك ، وجميل صفحك ، فان لم تعف عنا وتصفح كنا من الخاسرين

ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق .

لحضرتكم السرور بما نال ولدكم (١) فهو المتربي في نعمتكم، المغترف من بحار حكمتكم، المحفوف بعنايتكم، المشمول بعين رعايتكم. البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجهاتكم، وكريم تعطفاتكم، أدامكم الله لكل خير مبدأ

رفعت تحيتكم إلى حضرات من ذكرتم أسماءهم وأشرتم اليهم فتقبلوها بالاحترام وهم جميعاً يقبلون يديكم. ويسلمون عليكم، وأخص بالذكر منهم منبع الصفا، ومصدر الوفا، الذاكر لفضائلكم في كل حين، والدي حسين افندي. وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر اساعيل الذي امتن غاية الامتنان بما اختصصتموه به في كتابكم الشريف، وحضرة الشيخ سلمان العبد، والسيد أمين أفندي. ونحن جميعاً نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا بمعرفة أسمائهم من الذين دارسوكم فصول الكرامات ونقدم لهم واجبات الاحترام أدامهم الله مثالا للفضل وعنوانا للكمال. ونسلم على حضرات أخينا الفاضل ابراهيم افندي اللقاني وابراهيم افندي جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله

أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها. نرجو تفصيل أحوالكم وما تشتغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك

كتب سامي لم تشهر إلى الآن في المزاد ولا زلت مراقباً لاشهاره

حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم الى البلد ولم يحضر الى الآن. وعند العلم بحضوره أتوجه اليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم دامت معاليكم. أفندم م ٨ جا سنة ١٣٠٠ صنيعكم — سعد زغلول

أرجو عدم انقطاع المراسلات وأتمنى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطميناً للخاطر وترويحاً للفؤاد. ولمولاي في إجابة هذا الرجاء النظر العالي (سعد)

---

(١) يعني سعد نفسه، والخبر المشار اليه هو اشتغاله بالمحاماة

المقصد الاول من الفصل الخامس (*)

عمله في أوربة مع السيد جمال الدين

تقدم في ترجمة الحكيم الاكبر ، والموقظ الاعظم للعالم الاسلامي ولسائر شعوب الشرق الادنى والاوسط ، (السيد جمال الدين الحسيني الافغاني) أن حكومة الهند البريطانية حجرت عليه في كلكته (عاصمة الهند) مدة الفتنة العرابية ، وأنها أطلقت له الحرية بعد انتهاء الفتنة واحتلال الجيش الانكليزي لمصر وأنه ذهب بعد ذلك إلى أوربة ، وأن الاستاذ الامام سافر اليه ، وانهما أنشئا هنالك جريدة العروة الوثقى وقاما بعمل عظيم

وهذا العمل هو الذي نبسطه في هذا المقصد ونبدأ القول بسفر السيد من الهند واستئناف اتصاله بالشيخ فنقول :

كان سفره من الهند بحراً من طريق البحر الاحمر ، ولما وصل إلى بورسعيد كتب إلى الاستاذ الامام كتابا أخبره فيه بسفره وأين يقصد وفتح باب المراسلة معه ، وترتب على ذلك سفر الاستاذ إلى أوربة بدعوته ، وانا ننشر هنا نص كتاب السيد لانه أثر تاريخي من موضوع هذا الكتاب ، وهذه صورته بخطه منقولا بعكس الشعاع الشمسي مع بيانها بحروف الطبع

(*) قد كتبت الفصول الاربعة السابقة عقب وفاة الاستاذ رحمه الله تعالى وطبعت كلها ماعدا مذكرات الثورة العرابية ، ولما كان يتعذر نشر الكتاب في تلك السنين أمسكت عن اتمام تأليفه وطبعه ولم يتح لي ذلك إلا في أواخر سنة ١٣٤٨

كتاب السيد جمال الدين الى الشيخ محمد عبده

٢٣ سبتمبر برط سعيد

إلى الشيخ الفاضل الكامل الشيخ محمد عبده أطال الله بقاءه

الابتهاج بجميل الصنع جزاء تفيض به جامعة الكون على النفوس، كلما قامت بوظائف الوجود، والحمدة شهادة تبعث ملكوت وحدانية الهيئة على بثها متشخصات الطبيعة في مشهد العالم، تخليداً للجزاء وتعظيما للأجر، فلك بجميل صنعك مع (العارف)[1] الجزاء الاوفى. وأنا أحمدك على البر والمعروف أداء للشهادة، وأشكر صنوك الفاضل الكامل الشيخ عبد الكريم، وأثني على الشابين الأديبين السيد ابراهيم اللقاني والشيخ سعد ازغلول[2] والافندي الكريم الذي أنساني اسمه الزمان، وأذكر كلا بالخير في مشهد العالم قياما بفريضة الشكر على الصنع الجيل والعمل الصالح

وأنا الآن في (برط السعيد) أذهب إلى لندره - ترسل جواب هذا الكتاب إلى إدارة جريدة (الشرق والغرب) أو إلى (مستر بلنت)

ان أخبار العالم وحوادثه كانت انقطعت عني مدة سبعة أشهر، ولذا لا أدري مستقر (العارف) الآن. أخبره بسفري. والتفصيل في مكتوب آخر يصلك من لندرة إن شاء الله

سلم على كل من عرفنا وعرفناه، واعترف بنا وسلمنا له. والسلام

جمال الدين الحسيني الافغاني

(حاشيتان)

تسلم على صاحب النفس الزكية، والهمة العلية، دولتلو رياض باشا أيده الله تعالى

أرسلت مضمونا[3] الى صديقنا الحاج المرزا علي اكبر والغرض درجه في الجرائد المصرية بعبارة فصيحة. وأرجو الاهتمام في هذا الامر لانه ضروري جداً

البدار البدار

---

(١) هو عارف أبو تراب خادم السيد الذي جاء معه من بلاد الافغان وكان بقي في مصر بعد نفيه منها وكان السيد يحبه حبا جما ولقبه بالفيلسوف الامي

(٢) كان السيد كثيراً ما يحلي الاعلام بالالف واللام كأكثر علماء الاعاجم

(٣) أي كتابا أو مقالا مضمونا يعني مسجلا

الشيخ الفاضل الشيخ محمد عبده دام بقاه

أهديتني نسخة من جريدة تفيض بجامعة الكون على المقدس كلها
قائمة برهان الوجود والمجيدة شهادة تبعث حركات وحدانية إلهية
مع شهادة شئونات الطبيعة في مشهد العالم تكليفاً للجزاء وتعظيماً للأجر
فكتب نسخة منها مع (المعارف) الجزائرية عدد [illegible] ولأن أحمدك على [illegible]
والمعروف أداء الشهادة وأشكر صنيعك الفاضل الشيخ عبد الكريم
وأثني [illegible] بين الفاضلين السيد إبراهيم اللقاني والشيخ سعد زغلول
والأفندي الكريم الذي أنت رشيد الزمان وأذكر كلا بالخير في مشهد العالم
فبأ بعد بعضه شكراً على الصنع الجميل والعمل الصالح — وأما الدخل في (بلد
سعيد) لذهب الندرة — ترسل جواب هذا الكتاب إلى إدارة جريدة
(المشرق والمغرب) أو إلى (ستربلنت) — الآن أخبار العالم وحوادثه
كانت انقطعت عني منذ ستة أشهر ولذا لا أدري ستعقر (المعارف) الآن
أخبره بمصر — والتفصيل في مكتوب آخر يصلك من لندره إن شاء الله
سلم على كل من عرفنا وعرفناه وأعرف [illegible] والسلام

جمال الدين الحسيني الأفغاني

أرسلت مصورها إلى صديقنا الحاج محمد علي [illegible]
والغرض درجه في الجرائد المصرية بعبارة فصيحة
ودرجه الاهتمام في هذا الأمر
منه ضروري جداً
المبدأ [illegible]

[illegible]

جمعية العروة الوثقى السياسية

السرية

كان الاستاذ في تلك الاثناء في سورية ولا أدري مادار بينهما من المكاتبة بعد وصول السيد إلى لندن ولا تاريخ سفره اليه بالضبط، وأما (جمعية العروة الوثقى) فهي جمعية سياسية سرية قد بينا مقصدها في مقدمة العدد الاول من الجريدة ، ولكن لم يطلع أحد على قانون الجمعية الاساسي ولا على اليمين الذي كان يقسمه الأعضاء إلا خواص رجال الجمعية و كلهم من خواص المسلمين

أعلم أن الجريدة كانت ترسل الى كبار العلماء والامراء والزعماء في جميع الاقطار الاسلامية وقد كان من أعضائها الأمير عبد القادر الجزائري ومن اختار من انجاله ورجاله ، وقد وجدت بعض أعدادها في محفوظات والدي ووجدتها كلها عند استاذنا الشيخ حسين الجسر في طرابلس

وانني أذكر هنا مالم ينشر من تعاليمها ويمينها ، ولم يذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى شيئا عن القانون الاساسي لها، وقد فاتني أن أسأله عنه ، وأظن أنه لم يكن مكتوبا لئلا يقع في يد غير أهله

وانما كان الغرض البعيد منها إعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الاول ، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم. وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال

وكانت الجمعية مؤلفة من عقود وهذا ما كتبه نائب الرئيس وهو الاستاذ الامام نفسه من الاصول العملية الداخلية للعقد الرابع ونص اليمين الذي كان يحلفه كل من انتظم في عقد من عقودها

﴿ بعض الاصول العملية ، لاعضاء جمعية العروة الوثقى ﴾

العقد الرابع للعروة الوثقى

(١) ينعقد بثلاثه يقسمون اليمين المعهود

(٢) مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون في أمور : التذكير بآيات الله ــ النظر في حالة الاسلام عند بدئه وما كان عليه النبي وخلفاؤه فقط ــ البحث في السبب الذي امتدت به سطوة الاسلام حتى صال على جميع الاديان وكاد يبتلعها في زمن قصير ــ كيف انقلب الحال وآل إلى ماتراه ؟

(٣) يلاحظ كل باحث أن ذاته في موضوع البحث فيطلب العلة من نفسه قبل أن يطلبها في غيره، ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة و الانصاف

(٤) مدارسة أحكام الجهاد وحقوق المسلم وما هو مكلف به في معاملة غيره وما يفرض عليه اذا زحف الاعداء لخضد شوكة الاسلام

(٥) النظر في حال المسلمين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم الوقوف على احساسهم الديني ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به .

(٦) كتب كل فكر وتدوينه مفصلا ثم مجملا مع ماتستقر عليه الآراء

(٧) العمل في الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال في مساعدة من يقوم بنصر الدين و حمل السلاح المقاتلة بين يديه عند المكنة

(٨) كل واحد من أهل العقد مكلف بالعمل واعداد أسبابه وما لايتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام من كل مايفيد أن هناك عقداً . والثقة بمريد الانضمام انما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها

(٩) يكون معظم الاهتمام بضم الصالحين للأمر من ذوي المكانة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمراء ورؤساء عشائر وغيرهم . وفريضة

كل منهم أن يعمل للاسلام فيما خوله الله

(١٠) في كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد ان مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا . العمل بذل المال والروح ، والاول أقرب الدليلين .

(١١) على أهل العقد أن يرسلوا رسلا إلى نواحي الوطن الحالين به وإلى المواطن المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك

(١٢) لايكون الشخص رسولا حتى يكون سير العقد ملكة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة في تصريف القول ، وتوفيق النصح مع طباع المنصوحين وحالة السلطة العارضة عليهم ، فيكون حكيما في عمله لايحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم يلاحظ عمله

(١٣) يسمح للعقد أن يبعث رسلا من الخارجين عنه على انهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ويؤيدون منطيق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً .

(١٤) على الرسول إن كان من أهل العقد أن يكاشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد .

(١٥) من استحق باستعداده الدخول في العقد فعليه أن يقدم رسما مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لايستطيع اداء على شريطة أن يبذل العالم وسعه في تبيين الحق وبثه ، والمعتقد جهده في حمل معتقديه على العمل في مقاصد العقد ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها

(١٦) يجتمع أهل العقد في كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه في الفصل الاول وما بعده .

(١٧) يجب على كل واحد أن يؤدى في آخر كل جلسة مقداراً من النقد على حسب استطاعته قليلا أو كثيراً يدور على الحاضرين من أصغرهم سناً بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ماتيسر خفية حتى لايعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . لا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق صندوق التبرع

(١٨) يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عند من ينتخبه العقد أميناً

(١٩) يودع في ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هـذا مال حق التصرف فيه لعقد الاخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس)

(٢٠) يستعمل هذا المال في النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفي سبيل نشر المشرب وارسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفي إغاثة المقصرين مما ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) اما مباشرة أو على يد أحد نوابها

(٢١) يكون للعقد أربعة دفاتر (أحدها) لحصر أسماء رجاله (ثانيها)لاسماء رسله (ثالثها) لحصر النقد المجتمع (رابعها) لاحصاء النفقات

(٢٢) إذا توفر في الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعي مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يديروا أمر نموه

(٢٣) على القائم بضبط الحساب في الايراد والصرف أن ينهج الطريقة المعهودة في مركز العقد أن يضعوا لها نظاما حسب المعروف في بلادهم

(٢٤) لايصرف شيء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم

(٢٥) اذا قضت الحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات الفرصة بفوات الوقت واحتيج إلى نفقة تقتضي زيادة عن الموجود وجب على أهل العقد أن يبذلوا مافي وسعهم لاتمام العمل .

(٢٦) لايباح لاحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده في شيء ، بل لا يباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد

(٢٧) على رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضا ويعين كل منهم باقيهم بقدر الاستطاعة

(٢٨) الاستطاعة لا تفسر بالاهواء حتى بعد كل وهم عجزاً وانما هي المعروفة عند المخلصين التي لا يعدمها الانسان مادام حياً قادراً على الحركة

(٢٩) اذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعليهم مخابرة من يتولى مواصلتهم فيما يريدون

(٣٠) القانون الداخلي للاجتماع يضعه أهل العقد

اليمين الذي يحلفه المرتبطون بالعقد

أقسم بالله العالم بالكلي والجزئي ، والجلي والخفي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت، لأحكمن كتاب الله تعالى في أعمالي وأخلاقي بلا تأويل ولا تضليل

ولأجيبن داعيه فيما دعا اليه ولا أتقاعد عن تلبيته في أمر ولا في نهي، ولأدعون لنصرته ، ولأقومن بها مادمت حيا ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا

أقسم بالله مالك روحي ، ومالي ، القابض على ناصيتي ، المصرف لاحساسي ووجداني ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلن ما في وسعي لاحياء الأخوة الاسلامية ، ولانزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها ، ولأراعينها في غيرهم من المسلمين ،إلا أن يصدر عن أحد مايضر بشوكة الاسلام ، فاني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسي في أثره مثل ما آخذ عليها في المدافعة عن شخصي

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ماقدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدماً واحدة أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كليا ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين في شيء يتفق رأي أكثرهم عليه ، وعليّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه

من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر مايسعه امكاني الوجودي . وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الامل ، وتأييد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه ، آمين.

النائب

محمد عبده

[المؤلف] من تأمل هذه الاصول وهذه اليمين حق التأمل تجلى له ان كاتبها الداعي اليها المجاهد في سبيل غايتها من أقوى المؤمنين بالله وبما جاء به محمد رسول الله وخاتم النبيين ايمانا ، وأشدهم في ايمانهم ايقانا ، وأرسخهم وجدانا ، وأعلمهم بمقاصد هذا الدين وتاريخه وإصلاحه لامور البشر ، وأعظمهم غيرة عليه وجهاداً في سبيل الله لاعادة مجده ، وتجديد ملكه ، وإحياء شرعه ، وانقاذ أهله من الذل . . .

ومن قرأ مكتوباته قدس الله روحه لبعض العلماء والكبراء من المنتظمين في سلك العقد في الفصل الاول من الباب الخامس من منشآته المصدر أكثرها بكلمة شعاره « لا إله إلا وحده لا شريك له وبه الحول والقوة » رأى فيها شرحا جليا لهذه الاصول الجليلة – وعلم من هذا وذاك إن خدمة الجم الغفير من كبار علماء الازهر وغيرهم من المصنفين في العلوم الاسلامية المختلفة منذ عدة قرون للاسلام لتصغر وتتضاءل في جانب خدمة هذا الرجل وأستاذه فان علومهم ومصنفاتهم كانت في العهد الذي تهدم فيه ملك الاسلام وضعفت هدايته ولم يكن لها أقل تأثير في العلم والعمل ، لأنها كلها مباحث لفظية ، ومناقشات في عبارات بعض كتب المقلدين . وليس لأحد منهم فيها كلمة تدل على الشعور بذلك ، فضلا عن الدعوة إلى تداركه ، والجهاد في سبيله .

ولو شئنا شرح هذه الاصول وما أدمج فيها من الحكم والعبر لزدنا القاريء إعجابا بأمر هذين الحكيمين وجهادهما ، ولا تظن أن بين مافي الاصل الثاني من التذكير بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه فقط ، وما في الاصل الثالث من الاعتبار بسيرة السلف ، وما في الاصل الرابع من الاشارة إلى أحكام الفقه – لا تظن أن بين ماذكر شيئاً من التعارض فان لكل نوع منها غرضاً خاصاً . فالاول للاعتبار بنشأة الاسلام وتأسيسه ، وما بعده ظاهر لايحتاج إلى بيان

ولقد كان هو ومرشده الحكيم على هذه الخدمة الاسلامية الخاصة يعطيان

للجامعة الشرقية حقها، والرابطة الوطنية حقها، حتى ان الاستاذ دافع عن بطرس باشا غالي حين طعنت فيه بعض الجرائد المصرية ونسبته الى التعصب للقبط في بعض أعماله وكان الاستاذ يومئذ منفياً في سورية (راجع الجزء الثاني ص٣٦١ من الطبعة الثانية)

وقد كان: السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الاسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك وكذلك الشيخ محمد عبده معه ومن بعده

وقد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الاسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فازالا هذه الشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن الذي صدر في باريس في ١٨ رجب سنة ١٣٠١ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤) وهذا نصها:

(العروة الوثقى) لا يظنن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل اليه، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا. ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم، والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها. وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب ان شاء الله تعالى اهـ

أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى).

وأنبأني الامير شكيب أرسلان أنه سمع الاستاذ يقول ان الافكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي منها فكرة واحدة، والعبارة كلها لي ليس للسيد منها كلمة واحدة.

وإنني أنشر هنا فاتحتها وما يليها من بيان منهاجها، ثم أذكر بعده ما كان من تأثيرها ومقاومة الانكليز لها، ثم أبين تلخيص ذلك المنهاج وحصر مقاصده وتطبيق القول والعمل عليه للاسلام والشرق عامة، ولمصر والسودان خاصة.

فاتحة العدد الاول من جريدة العروة الوثقى

ويليه بيان منهج الجريدة وخطتها

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ماتمده العناية الآلهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله المتكل ، في نجاح العمل

خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لاتنكرها الأنفس ثم التوت ، أوغل الاقوياء من الامم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لاتحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى مايسوله الوهم ، ويغري به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بانه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها ، فلم يجز في زمن من الازمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى مايمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم ، أن الامم الكبيرة اذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لاتحمد ، أو ركون إلى راحة لاتدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها

قوة أجنبية ، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه ، فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها، فزعت إلى استبقاء الموجود، ورد المفقود، ولم تجد بداً من طلب النجاة من اي سبيل، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ماتكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها إلى أن لاحاجة لها إلى ماوراء هذا الأتحاد وهو أيسر شيء عليها[1]

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة مابلغت اذا كثر تديدها تحت جامعة معروفة لاتحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان، فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها ، واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها، والتمست خلاصها ، ولن تعدم عند الطلب رشاداً .

ربما تخطىء مرة فتكون عليها الدائرة، لكن مايصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك مافرط والاحتراس من الوقوع في مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة.

وإن الحركة التي تبعث لدفع مالا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر سيرها ، لايكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذلك القيم واهلاك ذلك المدبر، فان العلة مادامت موجودة لاتزال آثارها تصدر عنها، فان ذهب قيم خلفه آخر وسعمه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته بازالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الامم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعادات والمشارب ، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به ، لاريب أنها تستنكره ، وإن كانت تستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الامم مابينها من الاختلاف في

---

(١) أن هذا العلاج لاكبر الاوهام التي أذلت الامم الكبيرة للعدد القليل من أصحاب القوة الآلية قد كانت تجهله هذه تلك الامم وقد بدأت تعتمد عليه في هذه الايام ، وان مابعده من القواعد الاجتماعية بيان لوسائله وشدة الحاجة اليه ، وإزالة الموانع من طريقه

الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطر، ألزم من التحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة .

أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسسنا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام ؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب مايصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن ، وان العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جمع القوى المتفرقة في قوة واحدة يتمكن لها القيام بحقوق الكل (١)

بلى ، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وإن عمي عنه الطامع، وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ، ولكن مايأتي به الزمان من عاداته في أبنائه مل مايجري به القضاء الالهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

*

بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً، وذوو حقوق في الامرة حرموا حقوقهم ظلما ، وأعزاء باتوا أذلاء ، واجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، واسود تحولت انعاما ، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطماعهم ، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بايدي ذوي المطامع فيها

حملوا إلى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لاتألفه فحارت ألبابها ، والزموها ماليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع، فكانت الحركة العرابية المشؤومة ، فتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين، فاندفع بهم سيل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن اخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا

(١) هذا تنبيه لوجوب تأليف جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يكن يفكر فيه أحد قبله

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلفتها حركة اخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقام قائم بدعوة لها المكانه الاولى في نفوس المسلمين ، بل هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة، وربما يوجد من يدري ان مسببيها في حيرة من تلافيها ، نعم انهم غرسوا غرساً إلا انهم سيجنون او هم الآن يجنون منه حنظلا ، ويطعمون منه زقوما . لاجرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغلغل في حرصه ، ولو انهم تركوا الامر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته ، او اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصالحهم، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ماوجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء وهو أنفذ عواملهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب . وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الامة وعوفي منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية المصابين ، وحجاب غفلة للسالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون إلى ما فيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

*

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية

ان الخطر الذي ألم بمصر نغرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم مادام الجرح نغارا ، وما هـذا بغريب على المسلمين ،

فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجيعة بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحزانا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نفيراً عاما ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته إلا المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ماتمتد اليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الالوان ، متقاربة الاشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقي مصالح المغلوبين ، فكان أول مايجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هـذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر . وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت ، وليس له أن يغتر بعـدم مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لاتعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شـديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير[1] الممتد من مصر الى مكة ، ومن مكة الى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

---

(١) الكرير صوت في الصدر كصوت المختنق أو المجهود وقد استعارها هنا المراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسن موقعا وأشد تأثيراً فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالمركبات لكن عند وقوعها في التركيب

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ماهم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعالل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض مافقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وان في الحاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت على فكم في الغيب من مثلها ، والى الله عاقبة الامور

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصاً البلاد الهندية والمصرية، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لاينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى مايشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يصارعهم في مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ، ومناط اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في مواقفها الطاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل

*

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم في هذه الايام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم ،

الى الاقطار القاصية ، تنبيهاً للغافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسيني الافغاني أن ينشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقا واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ماحمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الاحوال .

الجريدة ومنهجها

ستأتي في خدمة الشرقيين على مافي الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك مافات ، والاحتراس من غوائل ماهو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الاسباب ومناشىء العلل التي قصرت بهم الى جانب التفريط ، والبواعث التي دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخرّيت(١) وضل المرشد ، حتى لايدري السالكون من أين تفجمهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القاتلة

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين ، حتى أورثتهم اليأس من مداواة عللهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العلة بلغت حدها

وتحاول إشراب الافهام أن لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة الى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم . وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة انما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، يكفي في الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة .

وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض

(١) الخريت بكسر الخاء المعجمة وتشديد الراء الدليل الحاذق بخرت الارض وهو معرفة طرقها ومضايقها

بالاصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ماتمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها (١) ولا ضرورة في ايجاد المنعة الى احتياج الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجيء للشرقي في بدايته ، أن يقف موقف الاوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها

وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فمن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف . وتجمل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة ، المدبج بأشكال المجاملة ، شفافا ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الطامعون في دياجير الغفلات

وتهتم بدفع مارمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي وجهها اليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لايتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الاولون

ولا تهن في تبليغ الشرقيين مايمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والحاملين عليها ، لا تظهر اذا أدلجوا ، ولا تنجد اذا أغوروا . وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الامير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريده والله الموفق اهـ

---

(١) يريد الدولة الروسية التي جمعت كلمة شعوبها وعنيت بجعلهم أمة حربية مسلحة بأحدث آلات القتال وآخذة بأحدث نظمه كما هو مبين في مقالة أخرى

رعب الانكليز من العروة الوثقى
ومقاومتهم لها

لما استقرت قدم السيد جمال الدين في مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وأنشأ يربي التلاميذ والمريدين لاعدادهم للعمل السياسي الذي هو غرضه من الحياة كان من أول مانشره في جريدة مصر التي أنشأها بعض مريديه من السوريين مقالات عنوانها « البيان في الانكليز والافغان » وصف فيها قومه الافغانيين بقوله :

« هذه الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الحضجر (١) المبتلى بجوع البقر والاستسقاء الذي لم يشبعه ابتلاع مائتي مليون من النفوس (٢) ولم ترووه مياه الكنج والتيمس ، بل فغر فاه ليلتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون » اهـ

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الانكليزية وأظهرت الاعجاب به وبها وردت عليها كما تقدم تفصيله في ترجمته من هذا الكتاب فكان أول كاتب شرقي اهتمت الجرائد الانكليزية بكلامه

ولما عزم على نشر جريدة العروة الوثقى في باريس كان قد اشتهر أمره عند ساسة الانكليز بما كان له من الاثر الفعل في السياسة المصرية في آخر مدة اسماعيل باشا حتى كان قنصلهم الجنرال هو الذي أغرى توفيق باشا باخراجه من مصر بعد أن كان من مريديه - وحتى ان حكومة الهند حجرت عليه في كلكته مدة الثورة العرابية وحجبت عنه اخبارها كما تقدم ايضا

لهذا كله حسب الانكليز لجريدته كل حساب وجهر بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها قبل صدور شيء منها كما بينته في العدد الخامس الذي صدر في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ (١٠ ابريل سنة ١٧٨٤) وهذا نصه :

(١) الحضجر بكسر ففتح الواسع البطن وهو من اسماء الضبع

(٢) يعني اهل الهند وكان هذا إحصاءهم في ذلك الوقت واما الآن فهم ٣٢٠ مليونا او يزيدون

الجرائد الانكليزية والعروة الوثقى

لو نادينا الغافلين أن انتبهوا . والنائمين أن استيقظوا . واللاهين بحظوظهم او أمانيهم او أوهامهم ان التفتوا ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت أقدامهم في ديارهم ، لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم . بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم ـ لقال الناس اننا نبالغ في الانذار ونغرق في التحذير . ولو بينا لهم أن الانكليز يؤآخذون الابناء . بذنوب الآباء ، والاحفاد بجرائم الاجداد ، ويطالبون الذراري بدفائن اسلافهم ـ وان لم يكن للخلف علم بما ترك السلف ـ لعدوا هذا البيان مناشطا في المقال ، وميلا عن الاعتدال

ولو روينا لهم أن في قلوب الانكليز حقداً وضغينة على كل ايراني سواء كان من الافراد او الوجوه ، ويسيئون معاملتهم حيثما وجدوا من بلاد الهند ، ويمقتونهم مقتا شديداً لان نادر شاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحا على عهد السلطنة التيمورية ، واستولى على خزائن الاموال في دهلي ، وأخذها إلى بلاده قبل استيلاء الانكليز على تلك المملكة بما ينيف عن قرن . ويعضون الانامل من الغيظ ويحرقون الأرم من الاسف على ما أخذه نادر من أموال دهلي ، وحرمانهم من تلك الاموال ، ويحملون هذا الوزر على عاتق كل إيراني ـ لحسبوا ذلك منا تغاليا .

ولو قصصنا عليهم مايعامل به الانكليز رعاياهم في الهند عموما والمسلمين خصوصا ، وأنه يكفي لنفي عالم من علماء المسلمين إلى جزائر (اندومان) أن يعترف بانه معتقد ببعض آيات من القرآن ـ لانكروا علينا مانقول ، لبعدهم عن تلك الاقطار وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد اقناع المصريين بما نعلم من أحوال الانكليز ولا نريد إقامة الدليل على مانعرفه من أحكام سلطتهم ، فلا نذكر ولا نبين ولا نحكي ولا نقص . ولكن نعرض عليهم نموذجا من المعاملة لعله يكون للمتبصرين مرآة تحكي مايغيب عنهم من لوازم السلطة الانكليزية

عزمنا على إنشاء جريدتنا هذه فعلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنساوية. فكتبوا عنها قبل صدورها، غير مبينين لمشربها، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها. فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة، واحتدمت فيهم نار الحمية، وانذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد الشرقية. ولجوا في إغرائها بها، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية. بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها. كل هـذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسي. مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لاثارة الخواطر، ولا لايقاد الفتن، وانما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما، والمسلمين خصوصا. وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم. ولقد صدرت سالكة جادة الاعتدال، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل، كما يظهر لكل من اطلع عليها.

فليعتبر المعتبرون بهذا الاجحاف. والاعتداء والقصاص قبل الجناية، ومن كان سمندلي الطبع فليهنأ له العيش (في ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب*) ولكن فلتعلم الحكومة الانكليزية أنا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد المشرقية سواء كان بهذه الجريدة او بوسيلة أخرى إذا دعا الحال. فان أنصار الحق كثيرون. اهـ

[المؤلف] قوله سمندلي الطبع في الاصل سمندري بالراء وهو محرف، والسمندلي نسبة الى السمندل (كسفرجل) وهو كما قال في القاموس: طائر في الهند لا يحترق بالنار. وهذه استعارة والمراد ان من كان لا يشعر بألم نار الذل والامتهان بان كانت طبيعته النفسية كطبيعة السمندل الجسدية الذي لا يألم من مس النار فليهنأ له العيش في ظل الاجنبي الذي يشبه ظل يحموم جهنم الذي وصفه الله تعالى بقوله للمجرمين (انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب) الخ

فاذا كان هذا شأن خوف الانكليز منها قبل صدورها فهل يستغرب من الحكومة البريطانيـة بعـده أن تمنع دخولها في مصر والهند؟ وهذ ماورد في منع الحكومة المصرية لها في العدد التاسع الذي صدر في ٢٥ رجب ١٣٠٢ (٢٢ مايو ١

العروة الوثقى

انعقد مجلس النظار المصري في القاهرة واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بان تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الاقطار المصرية، وتراقب جولانها في تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة في ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الاوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الانكليز في مصر)

أما نحن فلا نظن أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار، بل لا نتوهم في المستوي على كرسي الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم، ولا يختلج في صدورنا أن مصريا من أي مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل

هذه جريدة قامت بالدفع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سعي بل كل السعي لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا القدح في عمرو، فان القصد أعلى وأرفع من هذا، وانما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد. تلتمس من أبناء الامم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الامن من طروق الناهب

هذا منهاج العروة الوثقى عليه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها الى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره. ولكننا نعلم أن حركات الآمرين في القطر المصري هذه الايام قهرية لا يخالطها شيء من الاختيار، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الانكليز

ولا نريد أن نقول للانكليز إنهم ظلموا في هذا الحكم فان الجريدة لم يوجد فيها الى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والاجنبية من كشف مساتيرهم، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم. لانهم الانكليز الذين إذا

أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعوا بجلبه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليها يفتح له الضابط مصحف قرآن أو كتاب حديث من الكتب المشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو حديث مما يدعو اليه، ويسأله هل أنت معتقد بهذه الآية أو الحديث ؟ فاذا قال نعم. قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا. فاذا أجابه بأنني درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لانه كتاب ديني، ضرب له الضابط أجل أربعة ايام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث، فان مضى الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بارسال تحريفه وتبديله وخروجه عن دينه الى مطبعة من المطابع ليطبع وينشر ـ بعثت به الحكومة الى جزيرة (أندومان) نفياً مؤبداً. ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأمثال هؤلاء المظلومين

فدولة الانكليز التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم، وما عكن أن يهجس في حديث نفوسهم، لا ريب أنها تعد وجود لفظ الاسلام في جريدة كافياً لمنعها عن الدخول الى بلاد لها فيها قدم ثابت، أو تسعى في تثبيته، بل تحسب أن من ألد أعدائها شخصاً علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان. فلا غرابة في صدور مثل هذا الجور منها، غير أننا نعلن لها أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوطها السلطة الانجليزية الظالمة، ذلك بعزائم أولي العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى

بلغنا أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويشحذ سنانه لمناضلة الولي الحميم، ويقابل ثناءه بالذم، ومدحه بالقدح، واحسانه بالاساءة، ويواجه نصيحته بالظنة. ولا نظن أن هذا منه عن عمد ولا اغراء عدو، وانما هو لشبهة حجبت نظره عن درك الحقيقة واذا كشفت له الايام عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب

لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصري وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع، فان حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شيء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين، وانما منشؤه حكومة انجلترا وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها. اهـ

تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي

اني لا أزال أتذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام (في سنة ١٣٠٢) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العرابية فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء فأخذها الاستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المشهور ، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت البترول ، وأنشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب ، وإنما كان يقف عند بعض الجمل ، ليعبر عما يخالجه من شعور العجب ، ولم يتركها حتى أتى على آخرها ، ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء مثل هذا بل كانت تلك السنة هي السنة الثانية لاشتغالي بطلب العلم .

ثم انني رأيت في محفوظات والدي بعض نسخ الجريدة فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال ، والحرارة والاشتعال ، ماقذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال ، وقد سبق لي وصف تأثير الجريدة في نفسي بوجه الاجمال (١) وإنما كان الاثر الاعظم لتلك المقالات الاصلاحية الاسلامية ، ويليه تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية ، والذي علمته من نفسي بالخبر ومن غيري بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب ، والاقناع من العقل ، ولا حد للبلاغة إلا هذا

وكأن هذا التأثير هو الذي أوحى إلى صديقنا الامير شكيب أرسلان قوله في مدح السيد جمال الدين الذي أفاض الله تعالى حكمها على جنانه

ومعان لو أوحيت لجماد هزه الشوق نحوها والغرام
حيرت كل ذي حصاة إلى أن قيل لاشك انها إلهام

وقوله في كلام الشيخ محمد عبده الذي أبرزها بأجمل الحلي والحلل من بيانه

« ١ » هو ماذكرته في ترجمة السيد من هذا الكتاب ص ٨٤

كلام إذا ألقيتـه في جماعة غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب يذ. ق
عليـه من النور الالهي مسحة تكاد على أرجانه تتألق

كذلك كان تأثيرها في نفس كل من كان يطلع عليها ، وناهيك بالمطامين عليها في زمن صدورها،

ذلك بانها قد تجلت فيها تلك الأفكار الجمالية السامية ، بتلك العبارات العبدية العالية، وجمعت بين الحكمة وفصل الخطاب ، والاخلاص في تحري الحق ، ومخاطبة القلب للقلب، فلا غرو أن يكون لها ما علمنا من عجيب التأثير ، الذي لم يعهد له بعد ما كان من تأثير القرآن في العصر الاول نظير ، وانما كان تأثيرها مستمداً من تأثير القرآن، فهي قد أحيت تدبره والجهاد به ، والدعوة اليه والدعوة به ، والمعاني الاجتماعية والسياسية من تفسيره، فكان قارئها يشعر بالروح العلوي الذى كان يفيض من نور على ذينك القمرين النيرين، وينعكس من فلكهما على العالم الاسلامي فيحدث فيه من قوة التأثير ما كان يجزم أهل الرأي في الاقطار المختلفة بانه سيحدث ثورة اسلامية قريبة في العالم يعقبها انقلاب عظيم في الشرق

سمعت أستاذنا الشيخ حسينا الجسر عالم سورية الوحيد في الجمع بين العلوم الاسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول: ما كان أحد يشك في أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابا عظيما في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان

وسمعت محمد بك علي المؤيد يقول كنت في بغداد في عهد صدور العروة الوثقى وكانت ترسل إلى الزعيم العربي الاكبر في العراق السيد سلمان الكيلاني نقيب السادة الاشراف وكان يقول كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هـذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا . وكان السيد سلمان من زعماء المسلمين أصحاب النفوذ الـكبير في قبائل العراق المسلحة التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية — وأما نفوذه الروحي في الملايين من مسلمي الهند فهو يشبه العبادة أو هو ضرب منها .

وانما أعد القلوب لذلك التأثير سوء وقع احتلال الانكليز لمصر والامل بانقاذها منه بسعي هذين الزعيمين الحكيمين ، فلا غرو أن يكون لذلك الزمان، ولاختيار ذلك المكان ، ولتلك الآمال والآلام ، من السلطان الروحاني على ذينك

المقالين الملكيين ، والقلمين الخاصين ، ماتجلى نوره في مرآة العروة الوثقى وانعكس عنها على الشرق ، فأضاء مافيه من ظلمات بعضها فوق بعض ، ظلمة الجهل بالقرآن ، والجهل بتاريخ الاسلام ، وظلمة استبداد الحكام ، وظلمة فساد الاخلاق العام ، ولقدعاد المسلمون بعدها يتسكعون في تلك الظلمات الحالكة ، وتلك المصابيح بين أيديهم ينظرون اليها ولا يبصرونها ، فأنى لهم الاستضاءة بنورها ؟[١]

وقد رأينا لكل من هذين الحكيمين مقالات كتباها بعد ذلك فلم نر لها من الروعة والدهشة والسلطان على الارواح مالمقالات العروة الوثقى ، بل قال لي الاستاذ الامام نفسه : إنني لا أستطيع الآن أن أكتب مثلها ، وعلل ذلك بما أشرت اليه من تأثير الزمان والمكان والحال والانفعال والآمل ولو عادت تلك المؤثرات لكتب ماهو أبلغ منها ، لانه قد ازداد علما وإيمانا وبيانا ، ألم تر كيف كان ما كتبه من الفصول في آخر رسالة التوحيد من ذلك الطراز العبقري ، والالهام الالهي ، ولكن موضوعها اعتقادي لاعملي ، وسبب ذلك أنه كتبها في حالة وجدانية استولت على النفس ، فجذبتها من عالم الحس الى عالم القدس

زرته رحمه الله تعالى في ضحوة يوم من أيام رمضان سنة ١٣١٥ بداره التي كانت بحي الناصرية فقيل لي انه موعوك لم ينزل من سريره . قلت أخبروه بمجيئي فأخبروه فأذن لي فسألته عن شكاته فقال انني أطلت الفكر ليلا في حال المسلمين وما أصابهم من الشقاء بترك دينهم فساورتني آلام عصبية يعتادني مثلها كلما أطلت الفكر في هذا الامر ، حتى خطر في بالي أن أنزل من الدار وأذهب إلى مجامع لهوهم وفسقهم العامة في حي الازبكية وأصيح بهم : أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم .. حتى تركتموه ؟ ثم انني لم أجد لنفسي إسعافا يسكن الالم إلا الكتابة فكتبت هذا الفصل الملحق برسالة التوحيد ، « انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ » وما يليه من الايراد والجواب عنه

---

١) اني لاعجب لغفلة معلمي الانشاء في مدرسة دار العلوم وغيرها من المدارس العالية ، كيف لا يلقنون الطلاب هذه المقالات ، ولا يرشدونهم إلى مطالعة غيرها مما اودعناه جزء المنشآت ، ثم يزول عجبي بتذكر إحاطة هذه الظلمات وكان بعض من أنار الله بصيرتهم من أساتذة مدرسة المعلمين العليا قد طلبوا من وزارة المعارف تقرير هذا الجزء لمطالعة الطلبة فيها فقررته ، ثم طلب غيرهم أن تستبدل به كتاب مقامات الحريري فاستبدلته !!! وانما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

مقاصد العروة الوثقى

الموضوعات التي تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الاسلامية، الرابطه الشرقية ، المسألة المصرية ، المسألة السودانية ، والرابطة الشرقية مرتبطة بالجامعة الاسلامية في مذهبها ، فليس فيها فصول خاصة بها وقلما تخلو مقالة في الجامعة الاسلامية من ذكرها ، ووجوب الجمع بينهما . وكذلك المسألة السودانية مع المسألة المصرية إذ السودان جزء من المملكة المصرية . ولكن كان للحكيمين سياسة خاصة بالسودان سيأتي بيانها وانني ألخص مذهبها في هذه المسائل الثلاث

الجامعة الاسلامية

كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الاسلام الاولى إلى وحدته، وسيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين في اقامته وتأسيس حكومته ، وسيرة السلف الصالحين في هدايته . وسيرة القواد الفاتحين في تشييد صروح سيادته ، ومذاهب الأئمة المجتهدين أي طرقهم العلمية الاستقلالية في تدوين شريعته ، ومناهج الحكماء والفنانين في تكوين حضارته، وتوجيه جميع شعوبهم الى استقلال بلادهم واتحادها وتعاونها على إحياء مجده، بترك عصبيات المذاهب والجنسيات المفرقة لكلمة أهله

واما مااشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم أره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيرها مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله ، بل قال في المقالة التي وضعنا لها عنوان (الوحدة الاسلامية) التي نشرت في العدد التاسع من العروة الوثقى « لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخصاً واحداً فان هذا ربما كان عسيراً . ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، الا إن هذا بعد كونه

أساسا لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات » اه (راجع المقالة في ص ٢٧٦ من الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية)

وضرب لهم في المقالة التي أنشأها لدعوة الايرانيين والافغان للاتفاق والاتحاد مثلا الشعوب الجرمانية الذين كانوا مختلفين في النصرانية على نحو من اختلافهما وقال : فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الامة الالمانية وكثرت عليها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة في سياسة أوربة . وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية ، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، رجع اليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام اوربا وبيدهم ميزان سياستها اه (راجع ص ٣١٦ ج ٢ طبعة ثانية)

والظاهر أنه كان يكتفي بالوحدة الدينية وتجديد الاصلاح الاسلامي المدني والحربي في كل شعب له دولة او تصير له دولة ، وعقد المحالفات بين هذه الدول (كالترك والفرس والافغان في ذلك الوقت) ثم الاعتراف لاقواهن برياسة الحلف بتمثيله للخلافة الاسلامية ، كجعل الدول الالمانية ملك بروسية امبراطورا للمملكة وعاصمته مركز الوحدة العامة ، مع بقاء كل دولة مستقلة بنفسها في بلادها

أنشأ لهذا الغرض بضع عشرة مقالة صدر أكثرها بآيات من القرآن وأقلها بحديث أو عنوان يناسب موضوعها ، ولم يضع لأكثرها عناوين غير هذه الآيات وقد نشرناها ومقالات أخرى أدبية واجتماعية في الفصل الثالث من الجزء الثاني (منشآت الاستاذ الامام) وجعلنا لها عناوين تليق بها

وأرى أنه لا يتم لقاريء هذا التاريخ ما كان الحكيمان يريدان من فكرة الجامعة الاسلامية والاصلاح الديني إلا بقراءة تلك المقالات ، التي نشرناها في الفصل الثالث من جزء المنشآت ، وحسبي هنا أن أصف بعضها ، وأذكر بعض الشواهد منها .

مقالة (١)

الجنسية والديانة الاسلامية

بدئت هذه المقالة ببيان ضاف في عصبية الجنس ونعرته ومكانتها في الامم والحاجة اليها في الاجتماع ، وتجاوز الناس حد الحاجة فيها إلى الانفة من سلطان المخالف في الجنس وان كان عادلا مصلحا ، لان في قبول حكمه مهانة وذلا ، واستثنى من هذه الضرورة للعصبية الجنسية ماتزول بهفائدتها ، بوجود عصبية أعلى وأنفع وأعم وأشمل منها ، وهي العصبية الدينية ، ووصف سلطانها على النفس ، وأثرها في الوجدان والحس ، وضرب لها عصبية الدين الاسلامي مثالا وبين حال المسلمين فيها ، وعللها بما ينقض دعوى بعض ملاحدة هذا الوقت أن الاسلام رابطة روحية ، ليس له تشريع ولا سياسة مدنية اجتماعية ، وفيه بيان قاعدته في السلطة العليا وهي الخلافة فقال :

« لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الادنى إلى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئيها ، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها ، حتى لايكون القابض على زمامها الا من أشد الناس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس او قبيلة او قوة بدنية ، او ثروة مالية ، وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ، ورضاء الامة . فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم الالهية المقدسة التي لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الامة ، وليس للوازع أدنى امتياز عليهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها »

ثم استدل على ماذكر بشيء من الكتاب والسنة ، وذكر جريان المسلمين على ذلك في القرون الخالية ، واستقامة أمورهم باستقامة الوازعين فيهم على ماذكر واختلالها باختلاله ، ومنه قوله :

---

(١) نشرت في العدد الثاني الذي صدر في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ١٣٠٢

« وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهته ورفاهة معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد ، رجعت الاجناس إلى تعصبها ، ووقع الاختلاف ، وانقبضت سلطة ذلك الوازع »

(ثم انتقل من هذه المقدمات إلى المقصد الاسمى ، وهو تأسيس حكومة إسلامية تكون مركز الجاذبية العامة للوحدة فقال) :

« ان المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والاسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكما صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها ، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك أتعابا ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية ، ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية . ومن سيره هذا تنبعث القوة ، وتتجدد لوازم المنعة » ثم ختم المقالة ببيان مايخالف هذا المقصد فقال

« ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب ان بعضا من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجؤن للدخول تحت سلطة أجنبية ، على ان الندم يأخذ بأرواحهم عند اول خطوة يخطونها في هذا الطريق ، فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالالم رجع واسترجع . وان بعض مايطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن مناهج اسلافهم الاقدمين ، فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد مايكون ضررها بالسلطة العليا

« فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض إلا قليل من الزمان الا وقد أتاهم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين، وفقنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد » اه

مقالة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (١)

مقالة طويلة تزيد سطورها على ٢٣٠ سطراً ، تزين ٩ ص ونيفا ، افتتحها بآية (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ثم قال

«أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم، فاذا هي بجمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد في ساحتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل ، نمت فيها افنان العزة بعد ماثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ماكان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بان لاسعادة لها إلا بانتهاج منهجها، وورود شريعتها ، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر، وهو لها بدن عامل

« وبعد هذا كله وهى بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الاهواء ، وانشقت العصا ، وتبدد ماكان مجتمعاً ، وانحل ماكان منعقداً ، وانفصمت عرى التعاون ، وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية »

« ١ » نشرت في العدد الثالث المؤرخ في ٢٩ جمادى الاولى

وأخذ بعد هذا في وصف حال هؤلاء الافراد الذين فقدوا السلك الذي به كانوا أمة في حياتهم الفردية وما فعلت بهم قناعة البهم ، وما حشا أدمغتهم من جهالة الوهم، حتى حاق بهم القنوط واليأس ، فـلك أعناقهم في سلاسل الجبن وحبس أرجلهم في مقاطر العجز، وغل أيديهم عن العمل، وأقدامهم عن السعي، ثم قال

« نعم رأيت كثيراً من الامم لم تدن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت ، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وا أسفاه ! ما أصعب الداء ! وما أعز الدواء ! وما أقل العارفين بطرق العلاج ! » ثم طفق يتساءل عن الدواء وطرق العلاج :

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لان كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ، ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه....

« كيف تبعث الهمم بعد موتها ـ وما ماتت إلا بعد ماسكنت زمانا غير قصير إلى ماليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم ـ وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه ؟ خصوصاً بعد ما استدبر القصد ، وفي كل خطوة ، يظن أنه على مقربة من الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المبتهج باحلامه ، وفي أذنيه وقر ، وفي ملامسه خدر ؟ هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها ، وتتناءى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائعها ؟

« هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل وران غين وخيل لعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر ؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير

(وههنا أخذ يبحث في حقيقة الدواء ومرض الامة والفرق بينه وبين معالجة مرض الافراد الجسدي ويستعرض الآراء في ذلك، ومنها ذهاب بعض الناس إلى فائدة الجرائد .وآخرين إلى الاعتماد على إنشاء المدارس على نحوها في أوربا ويبحث في كل منها من حيث الامكان والاتقان ومسالمة الزمان ووضع تلك العلوم الغريبة في مواضعها على الوجه الموصل إلى مقاصدها مع مراعاة استعداد الامة وطبائعها .

وضرب المثل لقلة غنائها في ذلك بما في مصر والدولة العثمانية منها وما كان من سوء تأثيرها في توسيع مسافة التفرق والانقسام وتبديد بقايا الالتئام وجعل النوافذ والخصاص في بنيان الامة أبوابا « لتدخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير »

(وانتقل من ذلك إلى وصف المتخرجين في هذه المدارس المصرية والعثمانية الذين أضعفوا الامة بدلا من أن تنال بهم من المنعة والقوة مايرد عنها الطامعين فيها خاسئين ، وتهكم بما يتفيهقون به من ألفاظ الحرية والوطنية ، وسخر بما يفخرون به من الاسراف في الانفاق والزينة محاكاة للاجانب في بداية تقاليدهم لهم بما هو ثمرة ونهاية لعلومهم وفنونهم لاوسيلة لها ، وأشار إلى مانسفوا بذلك من ثروة بلادهم إلى غيرها وما أماتوا من الصناعات الوطنية وأبادوا من أهلها ونمت هذا التقليد السيء التأثير بانه « جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هكذا إلا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وجاءتهم قبل أوانها » ومما قاله في هؤلاء المتفرنجين المقلدين :

وصف المتفرنجين المقلدين

« علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث ، بان المقلدين من كل أمة المتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثالهم ، شؤما على أبناء أمتهم ، يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم ، وإن جلت — إلى أن قال — ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بانهم لايعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم »

(وههنا ذكر أنه لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ماتغلب الانكليز على بعض أراضيها (حتى عاصمتها) لما بارحوها إلى أبد

إلا بدين ، لأن الاجانب ماطرقوا أرضاً لأية أمة إلا أقبل هؤلاء المتعلمون عليهم يعرضون أنفسهم لخدمتهم ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم ويعدون الغلبة الاجنبية مباركة عليهم وعلى أعقابهم)

(ثم أجمل مافصله من تفنيد ماقيل من علاج هذه الامة وانتقل منه إلى العلاج الصحيح الذي قال فيه إنه سبب يجمع كل الاسباب ووسيلة تحيط بجميع الوسائل وحصر ذلك فيما أشار اليه في أول المقالة من حياة هذه الامة وقوتها وعزتها في نشأتها الاولى فكان ذلك شرحاً لقول الامام مالك : لايصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها .

مقالة

النصرانية والاسلام والمقابلة بينهما في طلب السيادة والسلطان والقوة العسكرية والنظام (١)

عنوان هذه المقالة (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ويليها مقدمة فلسفية في « خلق الله الانسان عالماً صناعياً » في أطواره المعاشية والعلمية والادبية والاجتماعية، ليس فيه من تأثير الطبيعة في شخصه ولا فيما يحيط به إلا مايكون في الاستعداد والقابلية فكل مايناله من علم وعمل « فهو ثمرة ماغرس ونتيجة ماكسب فهو مصنوع بتبع مصنوعاً . فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي » ثم انتقل إلى مكان الدين من نوع الانسان وما له من الكسب فيه فقال

« هذا مالا يرتاب فيه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحيه ؟ وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لاتحتاج فيه إلى تذكير لانه مما لا يعزب عن

(١) نشرت في العدد الرابع بتاريخ ٧ جمادي الآخرة

الاذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن أن منكراً يجحدها :

« إن الدين وضع إلهي ومعلمه والداعي إليه البشر تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الامم أول مايمتزج بالقلوب ويرسخ في الافئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن الابدان على ماينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ماتدبر به بدنها وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل وأول مايخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات حتى تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال »

بعد هذا شرع في الموضوع « وهو الملة النصرانية والملة الاسلامية » فاثبت ان الاولى بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت باطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية وكذا الدينية » الخ وأشار إلى بعض الشواهد على ذلك من الانجيل وانتقل منه إلى التعجب أو التعجيب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي في المفاخرة بزينة هذه الحياة واستيفاء لذاتها والمسارعة إلى افتتاح الممالك والمسابقة إلى اختراع آلات الحرب والتوسع في فنونها والمبالغة في تنظيم الجيوش وسوقها الى ميادين القتال « حتى صار الفن العسكري من اوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى غيرها »

(وقفى على ذلك بالكلام في طبيعة الديانة الاسلامية فقال)

« الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لايكون القائم بها صاحب

الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لاريبة فيه بان المعتقدين بها لابد أن يكونوا اول امة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها

« ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن ان من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى مايسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه»

(ثم انتقل من بيان هذه الاصول الى بيان حال المنتمين إلى هـذه الديانة في هذا العصر من تهاونهم بالقوة وعدم عنايتهم بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع آلاته، ودهشته من اضطرارهم إلى تقليد اولى الديانة السلمية فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وبنى على ذلك أسئلة كثيرة نذكر بعضها)

« لم لايحار الحكيم وان كان نطاسيا ؟ لم لايقف الخبير البصير دون استكناه الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، او ألقي شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم، عند مايتربعون في محافل دروسهم ؟

« هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هـل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ او وجد للارواح دبير سوى الفكر والخيال؟ أو انفلتت الافكار من سلطة الدين ؟ او تعاصت النفوس على الانتقاش بنقشته وهو اول حاكم عليها واقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟ »

(وههنا فند نسبة هذا التباين الى اختلاف الاجناس او طبائع البلدان ، واحتج

عليه بما حفظه التاريخ للعرب والفرس والترك عند ما كانوا في شبيبة دينهم من الاعمال العسكرية التي ادهشت الالباب) ثم قال

«كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها ، وذكر ملكام سرجم (انكليزي) في تاريخ فارس ان محمودا الغزنوي كان يحارب وثنيي الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها

« فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن من قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة وموضع للعجب، ويظن أنه لابد لهذا التخالف من سبب، نعم وتفصيله يطول ولكننا نجمل على ماشرطنا »

أجاب عن الاول بما نلخصه في القضايا الأربع الآتية

(١) ان الدين المسيحي انما نشره في أوربا أبناء الرومانيين الذين ورثوا ملكات الحرب والقتال عن آبائهم فجاء مسالماً لعاداتهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم شيئا مما ورثوه عن أسلافهم

(٢) ان صحف الانجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن مما يتناوله الناس كافة ، بل كانت مذخورة عن الرؤساء الروحانيين

(٣) ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا لقومهم حرب الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول

(٤) ان هذه الحرب أعقبتهم زعزعة في العقائد المسيحية [فافترقوا شيعا ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراما] الخ

وأجاب عن الثاني بأربع قضايا يجمعها أمر عام هو الاحداث في الدين (الاولى) عقيدة الجبر التي اخترقت الاذهان وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن

الاعمال (الثانية) ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع — وشرهم فرقة الباطنية — من البدع في الاسلام (الثالثة) شبهات السفسطائية (الرابعة) الاحاديث الموضوعة [وفيها السم القاتل لروح الغيرة وان ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم، وفتوراً في العزائم]

وعزز هذه الأربع بخامسة لولاها لم يكن لهن ذلك التأثير في تشويه الاسلام وإضعاف المسلمين وهي [النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم، بل الموجب لتقهقرهم، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه]

وهذا نص صريح من نصوص كثيرة في إثبات أن الاصلاح الديني الذي كان يدعو إليه الحكيمان كلاهما هو الرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه (رض) قبل حدوث البدع والمذاهب

ثم ختم المقالة بموضوع الدعاية فقال « الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته — وان كان حجابها كثيفا — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم، وتغالب لا ينقطع، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج، وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة فلا بد يوما أن يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الاغيان

« وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجها ولا يخصص لها طريقا، فاننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم، فيتقدمون على سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة، حفظاً لحقوقهم وضناً بانفسهم عن الذل، وملتهم عن الضياع، والى الله تصير الامور » اهـ

مقالة

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

جعل عنوانها آية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهي تفصيل او كالتفصيل لخاتمة المقالة التي قبلها. وبدأ القول فيها ببيان ما امتاز به المسلمون من الشدة في دينهم والقوة في ايمانهم وارتباط بعضهم ببعض بمقتضى عقيدتهم وغيرة القريب منهم على البعيد بحيث لو سمع أي مسلم في أي بقعة من الارض أن مسلما ارتد عن دينه لعد ذلك من أعظم المصائب وان طال عليه العهد وانطوت عليه القرون، — وذكر ما يوجبه الدين عليهم من حفظ ملكهم وبذل المال والروح في سبيله ومن الهجرة من دار الحرب التي يكون فيها السلطان لغيرهم

وانتقل من هذا إلى بيان حال مسلمي هذا العصر في التقصير بهذه الواجبات وضرب المثل له بما كان من اعتداء الانكليز على أفغانستان ورؤية جيرانهم من أهل بلوجستان ذلك — ومن اعتدائهم على بلاد فارس ورؤية جيرانهم الافغانيين لذلك — وعدم تحرك النعرة الدينية من هؤلاء ولا أولئك. ثم ضرب مثلا آخر ما جرى في مصر في ذلك العهد فقال

« ان جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهابا وإيابا تقتل وتفتك ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم ، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وشمائلهم »

وقفى على هذه المقدمة بالتعجيب من الجمع بين هذه الحال وما ينافيها ولا يتفق معها من عقائد المسلمين . وأشار الى القاعدة التي بينها في المقالة التي قبل هذه من سلطان العقائد الدينية على النفس الباعثة لها على أعمالها ، وقيدها بقوله

---

*) نشرت في العدد الخامس بتاريخ ١٤ جمادي الآخرة

في شرط تاثيرها «لكن الاعمال تثبتها وتمويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التي تلائمها»

وشرح هذا الموضوع شرحاً علمياً فلسفياً بين فيه أن شأن جميع الروابط الطبيعية والجنسية كشأن الرابطة الدينية والافكار العقلية في تأثير كل منها في النفس بما شأنه أن يبعث على العمل، وأن ذلك لا يتم إلا بالتربية والعمل بمقتضى تلك الشؤون النفسية، فاذا لم تدع الضرورة الاجتماعية إلى العمل بها ضعف أثر الرابطة «ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات» ثم قال

«بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك سبب سكون المسلمين الى ماهم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطئهم عن نصرة إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين إلا في العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الاعمال، وانقطع التعارف بينهم، وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل.

«فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن العالم الحجازي فضلا عمن يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا. بل العلماء في قطر واحد لا ارتباط بينهم.... (الى أن قال)

«كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة، وتضمحل هيئة الجسم

«بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما اقتنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين، والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم

«كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان. ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام: خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس. تفرقت بهذا كلمة الامة وانشقت عصاها، وانحطت رتبة

الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة
ثم ذكر ما كان من ظهور جنكيزخان وأولاده ، وتيمورلنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا ، وما كان من انفصال عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعا ، وافتراق المسلمين فرقا كل فرقة تدعو الى ملك أو مذهب ، «فضعفت آثار العقائد التي تدعو الى الوحدة ، وصارت صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلحظها الذاكرة عند عرض مافي النفس من خزائن المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل بعض المصائب بالمسلمين. بعد أن ينفذ القضاء ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت لا يدعو الى تدارك النازلة.
ثم عطف على العلماء فذكرهم بما يجب من العمل لتأسيس الوحدة الذي هو موضوع جمعية العروة الوثقى وسيلة ومقصدا فقال :

« وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين . ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر. «ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم . ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر — ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان والقيام بحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها، ويكون ذلك أدعى الى نشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع ... فلو أبدع مبدع امكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة الخ

مقالة التعصب (*

جعل عنوانها آية (اتبعوا ماأنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)، وكانت الحاجة اليها شديدة لان الجريدة قامت بدعوة قوية إلى عصبية اسلامية عامة لم يعهد لها في الاسلام نظير بعد العصر الاول ، وكانت سبقتها في التاريخ دعاية صليبية في أوربة استنفرت جميع شعوبها لقتال المسلمين وابادتهم من البلاد المقدسة بل من الشرق كله، فنفروا خفافا وثقالا ، واستعرت نيران تلك الحروب قروناً وأحرقت أجيالا ، كما أن التعصب المذهبي في النصرانية نفسها أثار حروبا أخرى لم يخمد سعيرها إلا بتوازن القوى بين الدول التي تدين بالكاثوليكية والدول التي تدين بالبروتستانتية، وما تلا ذلك وأعقبه من الحرية والالحاد في الدين ومناهضة عصبيته واللهج بذمها والتحذير من ضررها

ثم ظهر السيد جمال الدين بسياسة جديدة في الشرق كان الغرض منها احياء جميع شعوبه وتعاونهم لدفع استعباد الغرب لهم، واستقلال بلادهم بنفسها، وعمرانها بأهلها ، ولما كان دين الاسلام هو الغالب في ممالك الشرق الادنى كبلاد الترك والفرس والافغان والعرب وشطر افريقية الشمالي كله وكان أعظم أسباب ضعف شعوبها التفرق والتعادي باختلاف المذاهب والاجناس المحظور في دين الاسلام ، وكان سبب هذا الاختلاف والتفرق الجهل بحقيقة الاسلام نفسه والابتداع فيه ، وكان السعي لتلافي ذلك فرضا دينيا — لما كان ماذكر كما ذكر — كان من مقاصد السيد جمال الدين الاساسية ، بل أهمها تجديد الاسلام واصلاح ماأفسدت فيه البدع والعصبيات المذهبية والجنسية باحياء الرابطة الاسلامية الاولى التي عنوانها قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) كما تقدم بيانه في أصول جمعية العروة الوثقى وفيما لخصناه من المقالات الخمس من جريدتها

وكان من حكمته البالغة التي جري عليها بالقول والعمل الجمع بين الرابطة الاسلامية والرابطة الوطنية في البلاد التي تتعدد فيها الملل بحيث لاتجد

*) نشرت هذه المقالة في العدد السادس الذي صدر في ٢٨ جمادي الآخرة

الاقليات غير المسلمة أدنى امتعاض ولا شكوى من الاصلاح الاسلامي الذي جرى عليه كما كان شأنه وعمله في مصر بل أجمع أرباب الاقلام على تلقيبه بفيلسوف الشرق ،

ولما كانت ضيحة الدعاية الاسلامية في هذه الجريدة شديدة كالصاعقة وكانت تشتبه بما عرف عنه وتعارض ماذكره في بيان منهاجها من الجامعة الشرقية العامة، والرابطة الوطنية الخاصة، أجاب المشتبهين عما تقدم بيانه بعد بيان أصول جمعية العروة الوثقى وبقي عليه أن يبين بطلان ما اشتهر بين الناس من معنى التعصب ومن تخصيص الديني منه بالذم والمقت ويجلي حقيقته ويشرح فائدته وهو ماعقد له هذه المقالة في العدد السادس من الجريدة فكانت هي الحكمة وفصل الخطاب ، وقوبلت بالحظوة والقبول من أولي الالباب . ولم يعترض عليها أحد من أهل الاهواء ، وتلخص في بضع مسائل :

(١) تجهيل الذين يتفيهقون بذم التعصب والتهكم بهم

(٢) بيان معنى التعصب في اللغة وفي الاجتماع البشري

(٣) بيان كونه من الصفات والروابط البشرية النافعة التي لها وسط هو الكمال الذي لايقوم أمر اجتماعي عام في تكوين الامة وحياتها بدونه — ولها طرفا أفراط وتفريط كلاهما نقص ضار ، فالافراط فيه مايحمل أصحابه على الدفاع عن الملتحمين معهم بلحمة العصبية بحق وبغير حق ، وعلى هضم حقوق غيرهم . والتفريط هو اهمال ماتدعو اليه من التعاون والتناصر على حفظ حقوقهم والدفاع عنهم الذي يفضي إلى اضمحلال الامة لعدوان غيرها عليها .

(٤) الرد على الذين يخصون التعصب الديني بالمقت والذم من الافرنج ومقلدتهم ، وبيان عدم الفرق بينه وبين التعصب للجنس في حقيقته وفائدته في حالة الاعتدال ، وفي ضرره في حالتي الافراط والتفريط

(٥) في سيرة المسلمين وتاريخهم في هذا التعصب واثبات كونهم أدنى الامم الى الاعتدال والانصاف مع المخالفين لهم وشهادة التاريخ لهم بذلك

(٦) عناية الافرنج الطامعين في بلاد المسلمين ببث الدعاية لتنفيرهم من العصبية الدينية لعلمهم أنها لاتكون إلا بالعقيدة فهم يزينون لهم « هجر هذه

الصلة المقدسة وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً » — إلى أن قال « وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً ، فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد مافقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها حمقاً منهم وسفاهة . فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فاضطر إلى الاقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته »

(٧) نصب الدول الاوربية الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها لاصطياد من يساعدها على سياستها هذه (قال) « ولم تعدم صيداً من الامراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة استعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم « وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويهجرون [1] في رمي المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين » الخ

(٨) بيان عصبية الافرنج الدينية ومنها أن من قواعدهم الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، « واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحا وعويلا ، وهيعات ونبآت ، تتلاقى أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية ، وينادى جميعهم : ألا قد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الامر ، وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها ، حتى لا تنخدش الجامعة الدينية (وذكر أن دولهم تتفق على هذا مع اختلافهم فما عداه وتحاقدهم ثم قال)

« أما لو فاض طوفان الفتن وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في

---

١) يهجرون من هجر القول بالضم وهو فحشه وقبحه

الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله و كتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني الخ (أي لان الدين رابطة اجتماعية وسياسية فهؤلاء يتعصبون له من هذه الجهة) وضرب للمتدينين منهم مثلا الوزير غلادستون رئيس أحرار الانكليز الذي لا تخلو خطبة من خطبه من نفثة من نفثات بطرس الناسك مضرم نيران الحروب الصليبية

وختم المقالة بوصية المسلمين بالاعتصام بالرابطة الدينية التي يجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمغربي فتحفظ بها حياة الجميع الملية مع العدل ورعاية الرابطة الوطنية والتزام أوامر الله « في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام في المنافع الوطنية بينهم وبين جيرانهم من أرباب الاديان المختلفة الذين لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحهم الخ « وبمباراة الامم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية »

مقالة القضاء والقدر (١)

كانت الحاجة داعية الى هذه المقالة كما كانت داعية الى مقالة التعصب أو أشد . ذلك بأن الافرنج والمتفرنجين يزعمون ان عقيدة القضاء والقدر من العقائد الضارة التي كانت أهم الاسباب لضعف المسلمين وتخلفهم عنهم في الكسب والعلوم والفنون والملك والغلب ، لانها تعطل المدارك والقوى بجعل صاحبها ينتظر نيل كل مطالبه وحاجاته الشخصية والقومية من الله تعالى فيقعده ذلك عن علو الهمة في العمل . والامر بضد ذلك فان هذه العقيدة تعلي الهمة ، وتنفخ في الانفس روح الشجاعة ، وتصغر عندها العظائم ، وتهون عليها مصارعة الشدائد ، وانما

(١) نشرت في العدد السابع بتاريخ ٤ رجب ١٣٠١ ه اول مايو سنة ٨٨٤ »

العقيدة التي لها ذلك الأثر الرديء عقيدة الجبر وهي بدعة حدثت في الاسلام كما بين هذا في مقالة المقابلة والموازنة بين الديانتين الاسلامية والمسيحية في طلب السيادة والاخذ بأسباب المنعة والقوة الحربية .

فالغرض من هذه المقالة بيان حقيقة عقيدة القضاء والقدر والاستدلال على حقيتها بالبرهان ، والفرق بينها وبين عقيدة الجبر، ودحض شبهة من سوى بينهما ، وبيان ما كان للايمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم في رفعة المسلمين وعلو مكانتهم ، والدعوة الى سلوك سبيل الله فيها ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة الحجة على المسلمين الحاضرين المستضعفين، بما كان من عظمة سلفهم الأعزة الغالبين ليحيوا سنتهم ، ويبنوا بناءهم ، وقد وفت هذه المقالة هذه المباحث حقها من البيان والتحقيق بما عجز عن مثله جميع العلماء المتقدمين والمتأخرين ومما قاله في هذا :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور ، هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال، ويحليها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل مايعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة الحياة ، كل ذلك في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

« الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول، والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته . والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية »

(وذكر ههنا بعض آيات القرآن في بعض الغزوات النبوية وقرن بها وصف الفتوحات الاسلامية بعبارات خطابية شعرية ولكنها حقيقية ، ثم قال)

« بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم، لايخشون فقراً ولا يخافون فاقة

«هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون إلى الحدائق والرياض، وكانهم أخذوا لانفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول إلا بحمل السلاح، ولا تاخذ النساء رهبة، ولا تغشى الاولاد مهابة

«هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الاكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم»

وختم المقالة بما ظهر من بوادر الرجاء في عودة المسلمين إلى ما كانوا عليها عند ما كانت تلك العقائد الاسلامية سليمة من مخالطة البدع لها، وطروء الوهن والزلزال عليها: واستدل على ذلك بازدياد أنصار جمعية العروة الوثقى يوما بعد يوم (وقال بعد الدعاء لها) ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما، والمسلمين خصوصاً » اه

مقالة الفضائل والرذائل

وأثرهما في الافراد والأمة (*

عنوان هـذه المقالة آية (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) والكلام فيها منتظم في سلك الدعاية بالحكمة ، لا سلك القضايا العلمية الفلسفية المحضة ، فهو يصور للقاريء تأثير الاخلاق في الافراد ويجعلها مع المشاعر مثالا لتأثيرها في الأمم، وينتقل من الكلي الى الجزئي فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الاسلامية في المسلمين ، وما نالوا بها من الملك والعظمة العلميـة والعملية ، وما آل اليه أمرهم بعد

*) نشرت في العدد الثامن بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٣٠١

طرأ على أخلاقهم ويصف العلاج له ،ومما ابتكره في تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الانسان الفردية والنوعية والقومية وتشبيه الفضائل في الأمة بقوى الحياة في الفرد المخصصة لكل حاسة وجارحة بوظيفة تؤديها لحياة البنية كلها قوله

« وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ،حتى تمت حكمة الله في وجود الاكوان وبقائها — كذلك شأن الفضائل في الاجتماع لانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله »

(ومما قاله في سوء تأثير الرذائل في إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها في إفساد الافراد قوله) :

« هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضاءها ،وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الامة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في الاعمال بالقسر ، فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لايمكن مع هذه الاوصاف (أي الرذائل التي ذكرها ومنها الجبن والمهانة والفحش والبذاء الفاشية الآن) ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للاجنبي عنهم ، يمهدون السبيل للغالبين إلى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من احشائهم ،ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل حقيراً » الخ

وختم المقالة بالرجاء في همم العلماء الراسخين وغيرتهم أن يتداركوا ماعرض للمسلمين من الضعف في أخلاق دينهم واهمال فضائله ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ... ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق — في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

مقالة الوحدة الاسلامية (*

عنوان هذه المقالة في العروة قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ويليه وصف لما بلغته دولة الاسلام وفتوحه في نشأته الاولى وبيان حدودها في خريتة الارض ، وما كان فيها من العمران والعلوم والعلماء ، وما كان لها من الجيوش والاساطيل ، ويليه وصف لحالهم في هذا العصر على كثرة عددهم وبيان سبب هذا الهبوط والسقوط والوهن ووصف علاجه وقد نوهنا بها في أول هذا البحث عند الكلام على بيان المراد من الجامعة الاسلامية ونقلنا شاهداً منها

ومماقاله في هذا

«نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم وللضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لانا بينا أن لاجنسية المسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلاطين في جنس واحد، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ،فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصناعات فضلاعن التقصير في طلب مالم ينالوا منها،والاغسار(١)دون الترقي في عواليها ونشأ من هذا مانراه من الفاقة والاحتياج،وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فالهوا بأنفسهم عن تعرض الاجانب بالعدوان عليهم

«هذا كان من أمراء المسلمين مع مافيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين في ميادين الوغى لايجاريهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب

«١» الاغسار جمع غسر ككتف وهي الامور الملتبسة المشكلة

الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة ، وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل

«هذا الذي أباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا اطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية ، ودهورتها أمانيهم الكاذبة في مهاوى الضعف والوهن، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الاعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيها

«ألا قاتل الله الحرص على الدنايا والتهالك على الخسائس، ما أشد ضررهما، وما أسوأ أثرهما، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الاباعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم. ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف ؟ افادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاء أبديا بعد الممات ، وسوء ذكر لا تمحوه الايام

«أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم، وائتلفت آحادهم، ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير او ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي ،هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله ، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب . » الخ

مقالة الوحدة والسيادة ، أو الوفاق والفلب

عنوان هـذه المقالة حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » تكلم فيها عن الوحدة والسيادة والطريق الموصل اليهما ، وما يرجى من علماء المسلمين من السير بهم في هذا الطريق ، أثبت فيها أن هذين الامرين هما السببان لنشأة الدول ، وبقاء الامم ، وانهما يحصلان باحدى ثلاث علل : الضرورة أو الدين أو التربية والتعليم ، وأثبت أنهما ركنان من أركان السياسة والاجتماع للملة الاسلامية فرضهما الدين ، وجعل العقاب على إهمال هذه الفريضـة خزي الدنيا وعذاب الآخرة . وأورد بعض النصوص على ذلك مع شرح كل ذلك بما لا يستغني مسلم عن تدبره

مقالة استعانة الفاتحين على الامم بأمرائها

وهي أخصر المقالات لما تقدم من بيان هذه الرزية في المقالات السابقة ، وينبغي لقارىء هذا الجزء اذا بلغ هذا الموضع أن يرجع إلى الجزء الثاني فيقرأها فيه . وهي المقالة الحادية عشرة من مقالات العروة الوثقى (ص ٢٨٨ ج٢ طبعة ثانية) وحسبنا مالخصناه وما أشرنا إلى موضوعه من تلك المقالات ، واني أنصح لشبان المسلمين أن يطالعوها كلها ، ويكرروا ذلك حتى يتمكن من قلوبهم كل مافيها ، فيزدادوا إيماناً وحكمة ، وعلما وبلاغة ، وعلوا في الهمة ، وغيرة على الامة ، واعتصاما بحبل الملة .

وليعلموا أن كل ربح يربحه الانسان في الدنيا فهو دون ربح نفسه ، وكل خسار يرهقه فهو دون خسران نفسه ، وانه انما يربح نفسه بتزكيتها وجعلها أهلا لجلائل الاعمال ، التي تنال بها الامم معالي الآمال ، ويبلغ بها الافراد مقام الكمال



المسألة المصرية

بنيت سياسة جريدة العروة الوثقى في المسألة المصرية على ثلاثة أمور (أحدها) ان الدولة صاحبة الحق الرسمي في مصر هي الدولة العثمانية صاحبة السيادة المعترف بها من جميع الدول على هذا القطر (ثانيها) ان هذه المسألة من الامور الدولية التي تهم جميع دول أوربة لما لها من المصالح المالية فيها ولان مصر الطريق البحري الاعظم الاقرب بين الشرق والغرب (ثالثها) ان في الدول العظمى دولتين ثنتين ترجى مساعدتها لمصر وللدولة العثمانية على حمل الانكليز على الجلاء عن القطر المصري (أولاهما) فرنسة ذات المصالح المالية الكبرى فيه وذات النفوذ الادبي والسياسي الذي يعز عليها زواله (والثانية) الروسية التي تعد الدولة البريطانية أقوى خصم لها في سياستها الشرقية ومقاصدها البحرية ،

فكانت مقالات العروة الوثقى في الدفاع عن مصر والسعي لانقاذها من الاحتلال الانكليزي تنحصر في خمس وسائل (١) تهييج مصر والهند والرأي الاسلامي العام عليها ـ (٢) حث الدولة العثمانية على السعي لاخراجها من طريقي السياسة والقوة معا ـ (٣) محاولة إقناع فرنسة بمساعدة مصر والدولة على ذلك حفظا لمصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسي والادبي ـ (٤) إغراء روسية بالزحف على الهند والاعتماد في ذلك على نفوذ الدولة العثمانية الديني هنالك باستمالتها اليها ، وعلى مساعدة دولتي الافغان وإيران على ذلك باتفاق يعقد بينها وبينهما إذا أمكن وإلا انفردت بالعمل . وهنالك أمر آخر عظيم الشأن ، وهو (٥) تعظيم خطر ادعاء محمد احمد السوداني للمهدوية ، وما يتوقع من تأثيره في العالم الاسلامي كله

وكان الغرض الاول من هذه الوسائل كلها إقناع الدولة الانكليزية نفسها بالجلاء عن مصر وتسليم حكومتها الى « اولي العزم من المصريين » والاعتماد على صداقتهم في حفظ طريق الهند (قنال السويس) وقد جاء في بعض مقالات العروة وصف الانكليز بانهم على طمعهم الشديد وصلابتهم يراعون طبيعة العمران وتطور

الزمان . وأما إيقاد نيران الثورة عليهم في مصر وبلاد العرب والهند فهو الذي يلجأ اليه اذا تعذر الغرض الاول

وانني أذكر هنا بعض الشواهد في المسائل الاربع على إدماج بعضها في بعض ثم أذكر لدعوى المهدوية شواهد أخرى عند الكلام على مسألة السودان التي هي فرع المسألة المصرية ، إذ كان للحكيمين سياسة خاصة كما كان للانكليز سياسة خاصة فيها ، وأبدأ القول في المسألة الاولى بتلخيص مقالة في وصف حال مصر نشرت في العدد الاول من العروة في (سياسة انكلترة في الشرق) لما فيها من بيان مكانة مصر وما يرجى لها من الاستقبال المجيد وسبب طمع الدولة الانكليزية فيها ،

الوسيلة الاولى اثارة العالم الاسلامى

﴿ مقدمة في ملخص وصف حالة مصر وسبب طمع الانكليز فيها ﴾

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الاول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الاشراف ويحسبها المؤرخون في تلك الاوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ، ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفا في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أعجب الدهر فيها بغرائبه بعد مافوضت أمورها لمحمد علي باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقيـة بلا استثناء ، وعد هذا التقدم السريع من عجائب الامور

هل كان في حسبان أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعه

الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل اليه ؟

بلى ، كان هذا في الغيب وابرزه القدر الالهي ، ونالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم ، وعهد خلفائه من بعده ، ما كانت تقف دونه أفكار الناظرين : طرقت أبواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدما غريباً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادىء المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحاؤها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشيء فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، وائتلف الجنوبي بالشمالي ، والشرقي بالغربي ، وقوى فيهم معنى الاخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعد الشقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدلت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ماجالت فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع الثروة وعمت بقاعها ، وطفحت ففاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى اقاصي البلاد الغربية ، وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا اخفق فيها سعي ساع ، فأثرى في مغانيها الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لآمال كثير من الغربيين ، ومحط رحال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد اليها يجد اهلا خيراً من اهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغريبة ، حتى كان الداخل اليها يخيل له انه تحت برج بابل يوم تبلبلت الالسن

وساد بها الامن وعمت الراحة ، وضارعت في كل أحوالها نوع ماعليه الممالك الاوربية العظيمة ، وكان المتأمل في سيرها هذا يحكم حكماربما لم يكن بعيداً من الواقع ، ان عاصمتها لابد أن تصير في وقت قريب او بعيد كرسي مدنية لاعظم الممالك المشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقرراً في أنفس جيرانها من سكان

البلدان المتاخمة لها[1] وهو أمامهم الفرد ، كلما ألم خطب أو عرض خطر، غير ان الايام كأنها حسدتها على مامنحته، فعثر العاقل ، وفرط انالك ، واغتر المعجب، وتهور الغبي ، وخار الافين ، فتقرب البعيد ، وبعدالقريب ، ونزل بمصر مالم يكن له أثر إلا في حواشي طوامير الاوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس ابواب، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات، فتفرق اتصال، وتقطعت أوصال ،فضعفت السلطة الوازعة، ونبذت الطاعة، والتهبت نيران الفتن

قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الاول إلى رأي قويم وعزم ثابت، ووازع قوي تدين لسطوته النفوس. وان من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الاوصاف وله من القلوب المكانة العليا، وكان يسهل عليه القيام بما يعهد اليه، لكن تحكم طمع واخطأ ظن ،فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة

أشفقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال اوظنت ان آن التقدم بعض خطوات قد آن ، فرأت ان اعادة الامن وتثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شاكل ذلك ما لاحاجة لبيانه ، وعم بعض انواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضرمه ، ماخلا أشخاصا قلائل، وهذه المرهبات على مابها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

اليست المالية هي مرمى أنظار دول اوربا وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء مايتعلق بها من

---

(١) يعني البلاد العربية ولم يصرح بذلك لانه يسوء الدولة العثمانية ، ومن الثابت انه لولا الاحتلال الانكليزي لانتهت النهضة المصرية بتأسيس دولة عربية كبيرة تعيد الحضارة العربية سيرتها الاولى وما عرض لها من العناد باسراف اسماعيل وافن توفيق كان من المرجو تلافيه

الحقوق الاوربية؟ اليوم رزئت بالنقص في الايراد، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحلول وحرب السودان ومصاريف اخلائه ،وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل ،فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات، وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازلها الحاضرة ؟

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني وهو قوة البلاد وبه فخارها ، وكأنه لم يوجد وسيلة لتنظيم عسكر مصري ، وقصر الجهد عن مجاراة محمد علي باشا ، وابراهيم باشا ، اللذين دوخا كثيراً من الاقطار بجنود مصرية

(وبعد أن أطال في وصف حالة الحكومة وموظفيها وماليتها والاهالي وفقرهم ومخاوفهم وارهاقهم بالضرائب وطرق تحصيلها بالقوة قال)

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية ، والاخذ بالشبه وإن ضعفت ، واتباع بواطل التهم وإن بعدت ، او استحالت ، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبلغه ، فلا ترى ماراً بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق باثوابه شرطي يقوده إلى السجن ، او يقتضي منه فداء، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة ، وفي كل نهضة سقطة ، وله من كل شاخص دهشة ، ومن كل طارق لبابه غشية ، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا ؟

هذا ماتنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري . هذا بعض مايضيق به الصدر ، وتنقبض له الانفس ، مما رزئوا به بعد ماتكفل أحباؤهم الاولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضوية السابقة ، هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على ألسنة رسله ، أصبح الاهالي حيارى في أمورهم ، تائهين عن رشادهم ، لايعلمون ماذا يحل بهم ، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الاوربية تسميه ضيقا وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيحنون اليه ويودون لو رجعوا اليه ، ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها . الخ الخ

الشاهد الاول

في تحريض المصريين على الانكليز

(بعد اثبات مايريدون من الاستيلاء على مصر)

ذهب الاستاذ محرر العروة الوثقى الى لندرة ولقي فيها كثيراً من رجال السياسة الرسميين كالوزراء وغير الرسميين كمحرري الصحف بمساعدة صديق مصر وصديقهم (مستر بلنت) وقد نشرت الجرائد الاوربية من انكليزية وغيرها بعض مادار بينه وبين أولئك السياسيين من المناظرات

ونشر في العدد الرابع عشر من العروة مقالة في ذلك ذكر فيها مادار بينه وبين وزير الحربيـة البريطانية وما في ذلك من العـبرة ولكن بلسان السـيد مدير العروة وهذا نصها

هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم

تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة مامسنا من ضعف في المزاج مع مصادفة رداءة الهواء في البلاد الفرنساوية في هذه الايام والحمد لله على زوال المانع . إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قمنا به في المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ونرجو من ديان السموات والارض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث في زمرة السالكين فيها

رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الاول لهذه الجريدة) إلى لندرة اجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لمتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية — وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي مامرت عليها قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه — وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التي لايدرك منتهاها — تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة ، وطوّقت كرة الارض بالفتح والاستهلاك

لم تزل في مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في قرم شديد لابتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطراً طلبوا اليه آخر - وليستطلع خفايا المقاصد من أثناء الافكار وغضون الاقوال - وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلون ويتبين كيف يتمكنون من ابراز محاسن الاعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها واظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين ، حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كي لا يغتر الجاهل ولا يزل العالم .

لاقى (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الانكليزية وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الاحوال المصرية ، ومن محادثاته الابتدائية مانشر في بعض الجرائد الانكليزية كجريدة «البال مال غازيت» وجريدة « الترون » التي يحررها النائب الشهير (مستر لابوشير) وجريدة «التيمس» وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الاكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً . وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مرامي أفكارهم .

أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الانكليزية ليأخذ كل مصري منها حظه ، ويصيب كل شرقي سهمه ، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار رجال الحكومة الانكليزية

سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ أو لا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا وفلان باشا[1] ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور هذا الميل في المصريين .

---

١) المراد بهذين اسماعيل باشا وتوفيق باشا

فقال الوزير: هل تنكر ان الجهالة عامة في أقطار مصر وان الكافة لاتفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني ، وان ماذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الأمم المهذبة ؟

فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لايتهاون في أداء مافرض الدين وأوجبته حقوق الملة وقال (أولا) ان النفرة من ولاية الاجنبي ونبذ الطمع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بمحتاج لى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا (كالزولوس) الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم في الدفاع عن أوطانهم .

(وثانيا) ان المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لايصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير، فان الأميين منهم ومن لايقرءون ولا يكتبون لايفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم أن لايدينوا لمخالفيهم فيه ، وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم مايقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع مايتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية مالا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ماأودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم

(وثالثا) ان أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ماهو موجود في بلاد أوربا ، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والاخبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبيء الاخبار من القارئين ، فبهذا أضافوا الى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميلان الاولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الامم

أين العلماء الاذكياء ، أين الجهلة الاغبياء ، أين الأباة الاعلياء ، أين السفلة الادنياء ، ليرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية؟

كل ذي شكل انساني وصورة بشرية يدرك ماوراء هذه الاسئلة وما تشف عنه هذه الظنون العجيبة .

هذا اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية يظن ان الجهل يبلغ من المسلمين عموما والمصريين خصوصاً الى حد سلب عنهم كل احساس انساني ، وانهم في حضيض من الجهل لايميزون فيه بين الغريب والقريب ،ولا بين العدو والحبيب

هذا دليل على ان الانكليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون ان الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة، والدواب الراعية ، لاتتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعرف من شؤونها إلا مابه تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها والعامل عليها ومستخدمها في اي عمل من الاعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاما وشرابا ، وانها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداءها وعشاءها ، وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتغذى بلحومها :

* ألا فاعجبوا *

ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الامم التي يتسلطون عليها فأي معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونهم معاملة العجماوات والحيوانات الرتع؟ بلى ، وهكذا يعاملون وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على مايعملون ، فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما : إما ان يتكاتفوا ويتضافروا ويبذلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكانتهم العربية ، واداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لاينظرون اليهم إلا كما ينظرون الى البغال والحمير ، وإن هموا بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين أنصاراً ينتظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الامرين

وإما ان ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الايمان ،

ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليحملوا ناف العبودية على أعناقهـم ، وليقاسموا الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر الامرين وأدناهما ، وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، ولئن اختاره (معاذ الله) فسيذهب الله بهم ويورث الارض قوما آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور على العدل ، منتقم من الضالين ، وانا لله وانا اليه راجعون اه

الشاهد الثانى

(في تحريض العثمانيين والمصريين والهنود)

الوهم *

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا ستار الاوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا نضل ونشقى ﴾

ألا قاتل اللهم الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلا للمسرات ، حاكيا للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والمؤئل مهلكة ، الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لايدري ماذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق تحكمت الاوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهلها ، لايهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق

*) مقالة نشرت في العدد ١٧ المؤرخ في ٦ ذي الحجه سنة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤)

كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد ، مستعدة للفتوحات ، وذلك في زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفرق الكلمة ، واختلاف الاهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة، فانتهز الانكليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الاوربية التي أثارت فيهم خواطر الاوهام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانكليز من حبائل الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ؟ فسلبوا أموالهم ، وانتزعوا منهم اراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ،

فاستغنت الامة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفهت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الاقطار متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزراً من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لاتستطيع ذوداً ولا دفاعا ، وان أخف حركة في تلك الانحاء توجب زعزعة في تلك القوة أوهدمها بالمرة ، وقد ظهر هذا الامر على أنفس الامة الانكليزية ، فهي دائما في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لاية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب بحدوثها زلزلة في قوى الانكليز المتوزعة في الانحاء الضعيفة في جميع الارجاء .

ومع هذا كله نرى الامر لم يزل خفيا على الشرقيين ، محجوبا عنهم بحجاب الوهم ، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانكليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم فمثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعا ضاريا ومفترسا قويا فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفا، أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشتبه عليه مسالك الوصول إلى غايته ، وربما صادف مهلكة في ضلاله ومتلفة في غيه ،

بل لانخطيء ان قلنا ان هـذا الوهم كان متسلطا على الغربيين كما هو متسلط على الشرقيين ، فلاوربيون كانوا ينظرون إلى انكلترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون اليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انكلترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية ، متربعة على عرش هذه العظمه الخيالية

يحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتهدون دائما في ستره ولاستار أكثف من الوهم ، ولهذا تراهم في كل حادثة يجلبون ويصحون ويزأرون ليثيرو بالضوضاء هواجس الاوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتعشى بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز

ذهب الانكليز الى الهنـد في قوى مجتمعـة وتسابقوا مع الفرنساويين وهولاندة والبرتغال في ميدان الاراضي الهندية الواسعة، فحازوا في هذه المباراة قصب السبق ، بما امتازوا به من الدهاء والمـكر ، وبما ساعدهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد او طيب قلوبهم ، فمالت النفوس إلى الانـكليز اغتراراً ، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا ، وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضايق من الارض لاتذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة ، قولهم اننـا نريد تخليصـكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندة وبورتغال) فانها تريد التسلط على ممالـكـكم ، أما نحن (الانكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالـكم. ثم انا ترى للانكليز الآن في الهند الاصلية والهند الصينية والبرمان سلطة على نحو مائتين وخمسين مليونا من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانـكليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الامم انه لاتوجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانـكليز ، ولا تصل إلى ماوصل اليه الانكليز في الكبرياء والجبروت ،

ولـكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميلهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لايوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحـكومة المبغوضة إلا خمسون ألف جندي انكليزي ، معانه

يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال مابقى لها مالو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندى ، هذا فضلا عما يمكنه حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الانكليزية وزال استقلالها بالمرة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها بل عما هو موجود فيها ، مابقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفائقة القوة في قبضة قوم ضعاف ، يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين أنفسهم لمحه اعتبار ، وأدركوا ماآتاهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف الانكليز في الحالة الحاضرة ، لرأوا موئل الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة تحت أرجلهم ، وعلموا أن استنقاذهم لأنفسهم وبلادهم لايحتاج الى تجشم تعب ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة .

يوجد في الدول الاوربية من يهاب دولة الانكليز اعتباراً لما في سلطتها من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يبلغ عدد رعية دولة من الدول ويقيس شأنها وقوتها في تلك الاطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا، ويظن أن لها قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها ولم يلتفت إلى ان جسم الانكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بسيط الارض حتى لم تبق لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لامزيد عليه ، يترقبون في كل آن زحفا من خارج يعينهم على مايقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين . لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترا إلى حقيقة الامر لما احتاجت في معارضتها ومنازلتها الى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور إلى حد لايحتاج إلى دقة الفكر ، لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم.

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع ملاحظة ان دولة انكلترا تحكم على مائتين وخمسين مليونا من النفوس فيظنون لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، وليتهم مدوا أنظارهم إلى ماوراء ذلك ليتبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى

ميادين القتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لااعتداء بها في قوة دولة انكلترا ، فانما هي في الحقيقة قوة لأعدائها عليها ، وهي في ارتكاب الفرص لخلع طاعتها ، فمتى ارتبكت دولة انكلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليونا تقاتل عساكر الانكليز ، خصوصاً خمسين مليونا من المسلمين في حكومة انكلترا يعدون الدولة العثمانية قبلة لهم وملاذاً يلجؤن اليه ، وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة انكلترا انما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها . أما والله لو علم العثمانيون مالهم من السلطة المعنوية على رعايا الانكليز واستعملوا تلك السلطه استعمال العقلاء لما تجرعوا مرارة الصبر على تحكمات الانكليز وحيفهم في أعمالهم ، وتعديهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية ، التي هي في الحقيقة أهم مسئلة عثمانية أو اسلامية .

ان سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين : قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند مابرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل باحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم . فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره ولا عزيمة مع الريب . والقسم الاول مخلد إلى الفشل ، فدخل الانكليز بلا حرب حقيقية ، نوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس صادف قلوبا مستعدة فأخذ منها مقاما فانحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانكليز يبتغون من البلاد شيئا سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من الثائرين عليه ، فتساهل المصريون في الامر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز مع ماجاءتهم به من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها ، بهذا فاز الانكليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكافي لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالي المصريين من يميل اليهم ، بل لا يوجد إلا من يبغضهم ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملا لهلاكهم ولكن الوهم يجسم المخافة ويكبح العزيمة

ان أهالي مصر ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كلمة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وان الانكليز مادخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب

ان الذين كانوا من مدة سنتين سببا في تغلب العساكر الانكليزية وحلولها في وادي النيل ولولاهم ما استقر لها قدم فيه ـ يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الاهالي عموما وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرها، ويجاورنهم في أهوائهم نفاقا ، هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانكليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين الف جندي ، ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانكليزي بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانكليز وخارت عزائمهم والتجؤا الى ترك البلاد لاهلها ، ألا قاتل الله الوهم

ان للانكليز قوة حربية بحرية لا تنكر ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن ، لايمكن أن تعمل عملا فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانكليز أطلقوا قنابرهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابر إلى أبد الآبدين إذا كان الاهالي في داخل البلاد يناوؤنهم، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة ؟ ليس في الامر شيء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا ماهو الانكليز ؟ ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء ، صوت عال، وشبح بال، قامت الدول على معارضتهم لعلمها ان الانكليز صاروا للامم كالدودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بامورهم، ولا ينتقلوا من عبودية الى أخرى ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبيا بسيد آخر ، اللهم ارفع عنا حجب الاوهام، وهيء لنا الرشد في أمورنا، واحفظنا من الغواية، واهدنا إلى خير نهاية اه

الشاهد الثالث

(في تحريض مشترك بين الروس والعثمانيين)

المسألة المصرية دولية (*)

انا أنذرنا الانكليز خطراً قريبا على الهند ، ونبهنا في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تفيؤ التركمان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم وبما يحمل تركمان سرخس على الاقتداء بهم ، وأشرنا الى مايتبع ذلك مما عاقبته نكال على الانكليز ، واليوم وقع ماتوقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخمت بحدودها حكومة الافغان ، وارتعدت فرائص الانكليز وغشيهم الفزع والقلق ، واعولت جرائدهم نحيباء ورددت نشيجا ، وأحست بقرب الاجل ، ولم يسكن روعهم ماذكرته جريدة بطرسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم مشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وانما دخل في حوزة الروس أولاهما ، فان الانكليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لايفصلهما إلا ترعة صغيرة « نهر تجند » عرضها عشرة أذرع بالتقريب ، على أن سرخس ــ التي حكم مهندسو حرب الانكليز انها باب الهند من طرف الشمال ، وأنها ممر فتحيه من زمان قديم ، ومن طريقها طرق الهند اسكندر الاكبر ونادر شاه الايراني ، وان وصول الروسية اليها مما يخرق سياج الهند ــ انما هي سرخس القديمة . ومما زاد الانكليز فزعا واضطرابا أن التركمان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعا واختياراً ، وبعثوا وفداً منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندوكوف حاكم ماوراء بحر الخزر من الولايات الروسية ، ووصل الوفد الى عشق آباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس اليها

وقع الانكليز الآن بين شرين عظيمين ، خطر عاجل ، وحتف آجل ، أما الثاني فهو أن الروسية اما أن تتحد مع الافغانيين وتحالفهم على مطاردة الانكليز وهو

*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤)

الاقرب التوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانكليزية، وليس بخاف مايضمره كل أفغاني لكل انكليزي من الحقد والضغينة، والافغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيهم، فكيف ان وجدوا مساعداً قويا . وإما أن تميل حكومة الافغان إلى الانكليز-وهو من فرض المحال- فما أسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الافغان مثل جمشيدي وفيروز كوهي وبين قبائل التركمان المتاخمين لهم ويعقبها حرب بين الروسية والانكليز، لان كلا من الدولتين مضطر المدافعة عن حليفه، بل للروسية حق المناضلة عن رعاياها التركمان ، فاذا زحف الروس إلى الاراضي الافغانية تقطعت حبال حيل الانكليز، وامتنعت عليهم وسائل الدفاع ، وهذا آخر حياتهم في الهند

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروسية على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة يلتمسون في أضوائها طريقا للخلاص من الضيق والضنك الذي شملهم، وسبيلا للنجاة من الويل الذي جلبته عليهم مظالم الانكليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عند ماوصل الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الايراني على هراة، بل انتقاض الهند على الانكليز في هذه الايام اقرب، فان خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد احمد السوداني ، بل بما مكن في اهوائهم من الميل الى تصديقه، وان لهذه الدعوة حملة على الهند لايقاومها تدبير دولة بريطانيا

تريد دولة انكلترا ان تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لاتصل أخبار محمد احمد وتورط الانكليز في مقاومته الى مسامع الهنديين، ولكن سيحمل هذه الاخبار الى تلك الاقطار حجاج الافغانيين والبلوجيين الذين يسلكون الى الحج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها الى اخوانهم، على وجه أبلغ مما لو سمعوها بآذانهم .

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعليها ان تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في القلوب، وعلى السلطان العثماني ان يتذكر انه خلف لاولئك الاسلاف العظام الذين ماأضاعوا حقا ولا أهملوا فرضا ، ويقتضي من الانكليز

حقه ويسترد مصر من ايديهم ويطهرها من جراثيم الفساد، ولا يقنع بما دون الحق، ولا يدع لهم فيها شأنا إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول، ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الانكليز كما فات الايرانيين الانتفاع بثورة الهند في الايام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم، والا لكانوا أوقعوا بالانكليز ونالوا الغاية من ضرهم.

على العثمانيين ان يتلافوا الامر قبل ان يشب الانكليز حربا صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية . ليس للدولة العثمانية ان تتهاون فى مطالبها او تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة ، ولا ان تخشى في ذلك تهويل الانكليز وجلبتهم، فان كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالب الانكليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة . بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم انه لاتوجد دولة من الدول ترضى بان يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانكليز على مصر او وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس الخ

الشاهد الرابع

في دولية المسألة المصرية

وعقد المؤتمر الاوربي للبحث فيها

(أرادت انكلترة إلهاء أوربة عن مسألة احتلالها لمصر من الوجهتين السياسية والعسكرية فرغبت الى الدول الكبرى أن تعقد المؤتمر للنظر في المسألة المصرية وأمرت رجلها المالي الكبير (السر بارنج) الذي صار لقبه بعد ذلك (لورد كرومر) أن يعد لها تقريرا عن مالية مصر تجعله شغل المؤتمر الشاغل عن غيره لما للدول من الهم الاكبر في مصالحهم المالية بمصر ، ففعل ـ ولكن المؤتمر لم يشغله ذلك بل أراد طرق المسألة من سائر أبوابها ففشل

(وقد خاضت العروة الوثقى عباب هذه المسألة وكافحت جميع أمواجه ، وسبحت في مختلف خاجانه ، وأنشأت فيه عدت مقالات رئيسية نأتي على نبذ من بعضها ، لتمثيل من كان من سياستها ، وتصوير بلاغة محررها فيها

(جاء في فاتحة المقالة الرئيسية للعدد العاشر نبذة في تهويل امر المؤتمر وسياسة الانكليز وبسمارك ومطامح الدول الكبرى ومكايد رجالها فيه هذا نصها :

هذا ما ساقت اليه الحوادث المصرية وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها . العظام من الدول في يقظة لاسنة معها ، وحركة لافتور فيها ، مفاوضات متواصلة بينها قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة، يدأب فيها السياسيون من كل أمة، بعضها بالمراسلة وشيء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع نظار الخارجية من سواها ، يتهامسون ويتغامزون ، ويسرون خلاف مايعلنون ، ويذهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حملق كل بصره للآخر لعله يلمح من غضون وجهه ما ينبىء عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شيء مما ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت اليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتخييل المطامع ، في صور أبعدها عن الحقيقة أقربها إلى الخيال . يعظمون الحقير ، ويحقرون العظيم ، ويجسمون الوهوم ، ويضلون عن المعلوم، ويقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الاماني باهرة الانوار بزهور الآمال، ومانبت بهارها إلا على حبائل من المكر، وفخاخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لايشعر .

هذا يسهل صعباً ، والآخر يوعر سهلا، وكل يتبع لحاظ رصيفه ، اذا أحس منه لحا لمقصده أبرز له الواناً من الفوائد الموهومة ليستلفته عن مرامه ، واذا شعر منه بفكر يوصله الى ما يمسه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ، ويقطع سبيل فكره ، منهم من يكسب الاصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرفقاء بكف شره

ومن الناس أقوام آخرون ، على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريبة وتتلقفهم أخرى وهم عنها غافلون ، زلزلت بهم الارض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بأرزائها ، وتوالت عليهم المزعجات ، وتناولتهم عواصف المفزعات ، وهم في سكتة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والمقبل على الفوز من هؤلاء وأولائك انما هو أحزمهم رأيا وأثبتهم عزيمة ، وأشدهم بشؤونه بصيرة .

يقول الانكليز انا عدونا على الهند من زمان طويل فاغتصبناه وحقت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب . وأين ديارنا في بريطانيا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا ؟ المسافات طويلة، والشقة بعيدة، فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطىء لاقدامنا ، لنحتفظ باملاكنا ، ولنا حق في اغتصاب جل العالم لاجل الهند، خصوصاً القطر المصري، فان به السبيل التي لا يماثلها سبيل ، وليس لنا عنها غنى، وكنا في تطلع اليها من زمن قديم، وكثيراً ما تمسكنا بحبال من الوسائل اليها فرثت في ايدينا بقوة حكام تلك البلاد، حتى هيأت لنا حوادث السنين الاخيرة ما أحلنا دارهم، وأقرنا في قرارهم

انا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيته على كرسي الخديوية المصرية إلا أنه بقتال ونزال فلا تختلف صورته عن صورة الفتح فلنا حق التملك في تلك الاقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وازالة الاختلال، وكنا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه، لكن الغرض الحقيقي انما هو تأمين طريق الهند، فتسنى لنا ماقصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا ان نتركه بعد الوصول .

وحيث إننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن اخلائها لزمنا ضمان الديون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا، فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة، وتكون لنا عونا على تنقيص الفوائد ، ولا نحب ان تكون مذكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانه لا نرجو من مفاوضاتها فائدة الا فيها، وأما سائر الشؤون فعلينا تدبيرها، والينا مصيرها . ـ هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها الى برلين ويرجون أن تكون مواصلها ومعاقدها في تلك المدينة عاصمة الالمان .

وأما البرنس بسمارك وهو مدير السياسة في أوربا وبيده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقاً وينكي عدواً، وليست له علائق سياسية تحمله على المدافعة عن مصر ، ولا منافسة له مع الانكليز تبعثه على مماكستهم، بل له اليهم حاجة في ضمهم اليه وابعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لا حليف لها، وقد تكون له من صلة الانكليز مآرب أخرى سوى قطع فرنسا عن الحلفاء ينالها يوم الحاجة اليها وما هو عنه ببعيد ، فماذا يضره إذا ادخر عوناً وأساء عدواً ، والنفقة على

خزينة غيره؟ نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وايطاليا لما لهم من المصالح في البحر الابيض، ويصعب عليه ان يصيب بسياسته الجمع بين مراضاة انكلترا لنيل مصافاتها وبين التمسك بعهوده مع ذوي حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخلص من هـذا المضيق بالاشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الارنؤط (١) والايماء إلى الاراضي البلقانية وسلانيك (٢) ويجلوها لانظار معاهديه، فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاة الدولتين، ويقلم أظفار الروسية من أوربا الشرقية، ويضيع مصالح فرنسا في بلاد المشرق عموما ومصر خصوصا، وفي كل ذلك الربح له والخسارة على غيره، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها، فهي شرعته التي يرد اليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت .

وفرنسا واقعة بين مراوغات الانكليز ومكايد بسمارك . لها حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحى أثرها بمداخلة الانكليز، وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشآتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومداغسكر . لهذا تبذل الجهد لاجلاء العساكر الانكليزية عن مصر وتخفيض سلطة الانكليز فيها، ويوجد لها عون من دولة الروسية، ولها من المنعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوي العزيمة من رجالهم وميل افئدتهم لمكنها من تخليص مصر وانتزاعها من ايدي الانكليز سعياً في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها

وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الانكليز ومطاردتهم من بلادها ، فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الاوقات لتستنقذ ممالكها من طمع الطامعين، وتعيد ولايتها على الاقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين ، وان جميع المسلمين ينتظرون منها الحذق في هـذه المسئلة ولهم فيها الامل القوي والثقة الكاملة ، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون ان ينالوا بها حظهم من الغنيمة ، وليس على الدولة من بأس اذا طالبت الانكليز برد حقوقها كافة ، فانهم بالنسبة اليها أضعف من ان يجاهروها بالعدوان

---

(١) كان هذان القطران مطمح مطامع ايطاليا (٢) كانت هذه امنية النمسة

وانا نكرر ما قلناه سابقا من ان الانكليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حربا خصوصا في هذه الاوقات التي أصبحت فيها دولة الروسية متاخمة لمملكة الافغان، فان أول إشاعة لهذه الحرب توقد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية، وهذا جلي عند كل انكليزي

ان التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسئلة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وليس للمصريين في طورهم هذا ان يركنوا إلى من ليس من ابناء جلدتهم، فان النعرة التي تحمل على الحمية تكاد ان تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم، فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعينين بأفكار الدول التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في انقاذها واعادة شأنها الاول وتحقيق ما يقال من أن (مصر للمصريين)

وبالجملة فالاطماع فغرت أفواهها، والافكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتى، فمن قائل ان المؤتمر لا ينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا وانكلترا على القواعد الاساسية المداولة فيه، ومن قائل انه ينعقد على ان يضع مصر تحت حماية عموم الدول، ويقرر انشاء مراقبة عمومية مع بقاء العساكر الانكليزية مدة سنتين، وعلى اي حال فالرزية انما تصيب الغافل، والسوء انما يحيق بالمتساهل، والجبان محروم من حقوقه، والعامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة والاقدام، ويرفعوا علم الهمة ابقاء لحياتهم، وصونا لشرفهم، والامر لله يفعل ما يشاء اهـ

الحقيقة الناصعة في حلل الخيال الرائعة

(نبذة أخرى في تعمية أمر المؤتمر وحل معماه بخديعة انكلترة لفرنسة)

جاء في المقالة الرئيسية للعدد الثاني عشر ما نصه :

أصغت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية ، لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الاوربية ، من يوم دعت انكلترا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية ، إلا أنها منعت دون حجاب الكتمان ، وانما كانت تصل اليها دندنة أو جلبة ، أو غمغمة أو جمجمة ، وكل حس يصلها يثير رواكد الاوهام ، فتهيج فيها غرائب الصور والاشكال ، والمذاعون(١) من أرباب الجرائد في أوربا وهم أشبه بالداعين إلى الالاعيب والكوديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة ، ويتنافسون في التمثيل والتصوير ، للتغرير والتهويل ، حتى أبرزوا الارض في صورة السماء والسماء في صورة الارض ، خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وانكلترا ، فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمراكب والمدرعات يصادم بعضها بعضاً ، وان فضاء البر أعضل بالجيوش المتلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلا ، وتجسم الخيال لارباب الاذهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع المساكر وطرق المصاولة ، وجموع المتلاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالاً ، ويموج بعضها في بعض ، وكأنما كانت مخيلاتهم معرضا لجيوش العالمين ، وكأن في كل فوج داعياً ، وفي كل قبيل منادياً ، يقول حي هذا حي ، فهيعات تتعالى ، وزفرات تتصاعد ، وإرغاء وإزباد ، وتقطب في الوجوه وشزر في المناظر ، وفي كل ذلك هول يأخذ بالالباب.

والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حق قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحني الظهر ،

---

(١) جمع مذاع بالتشديد وهو صيغة مبالغة من مذع (من باب نفع) اذا اخبر ببعض الامر ثم كتمه وقيل قطعه . ورجل مذاع متماق كذاب لا وفاء له والذي لا يكتم سرا

قد هوى بهامته إلى ركبته، يتوارى من الناس خجلا بما ظهر من ضعفه وعجزه، وان حكومة انكلترا ستعود بالخيبة (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الارعاد) وتقوت هذه الاوهام بما يطنطن أرباب الجرائد، وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة، وانبعثت رسل الافكار تجوس خلال الشؤون والاطوار، لتصل إلى شيء من هذه الاسرار، واجتمعت الارواح في الآذان، لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداولات، وكمنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الحجاب ما ينبيء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم. والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق، وبعد طول الانتظار، كشف الستار.

فاذا عائدة الانكليز جالسة في هيكل آمون وبيدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراعنة) متهيئة أن تضعه على رأسها، والملوك العظام وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها، كأنما كانت هذه المفاوضات والمخابرات اعداداً وتجهيزاً لاجلاسها على كرسي ميناس الاول ورمسيس الأكبر « لاحول ولاقوة إلا بالله »

قام رئيس النظار الفرنساوي في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذي عقده مع وزارة انكلترا ليرى النواب فيه رايهم، وقبل ذكره أنفق مالديه من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لاقناعهم بقبول ما اجراه، تلطف في الكلام وابدع، وصوب وصعد، واتى على ترغيب يشوبه ترهيب، ويأس يحوطه امل، وادرج في طي خطابه ان فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء، وبه نالت اشياء، واومأ إلى ان وزارته لو طلبت ازيد مما حصلت لادى الامر الى ممانعة الوزارة الانكليزية، وافضى الخلاف إلى انقلابها، وربما يخلفها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر

وجاء في نطقه بما حرك الطباع ومال بالاسماع حيث قال : ينبغي للسياسي قبل ابرام حكم ان يلاحظ جميع أطرافه ولواحقه. فهذه الكلمة الرفيعة بددت في السامعين آمالا، وظنوا ان المراقبة الثنائية قد اعيدت، أو تقرر اشتراك فرنسا مع انكلترا في الحلول العسكري، أو ابرم الحكم بخروج الانكليز من مصر - وبالجملة انهم فازوا فوزاً عظيما، وبعد مقدمات طويلات بين الاتفاق فاذا

هو بعد امعان النظر على هذا النحو ! ان الانكليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون ،وليس لنا ان نعارضهم، فلا المراقبة الثنائية عادت، ولا الاشتراك في التدخل العسكري أو النظر الاداري حصل ، ولا قررت حرية القنال على أصل ثابت، ولاتحقق جلاء الانكليز على صورة قطعية ،ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين، بل كما كان يلجأ اليه الانكليز عند نهاية العجز على ما أشار اليه كثير من سياسيهم . فانقبضت صدور النواب، فلما رأى شدة تأثرهم دفعة واحدة ،واحس منهم القنوط ، حاول احياء آمالهم بقوله انا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ،ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف ، حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم .الخ

[يقول مؤلف هذا التاريخ]

(هذا ما بينه الكاتب من عاقبة المؤتمر وخيبة فرنسة فيه، ومحاولة رئيس وزارتها اقناع مجلس نوابها بتصويب ما فعلته وزارته ، وقد قفى على هذا بتخطئته وذكر دولته بما سبق من خداع الانكليز اياها في مسألة احتلال الهند واخراجها منها بخفي حنين ، أي كما خدعوها في أصل مسألة احتلال مصر، ثم قال « والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء » فذكرنا بهذا كلمة قالها أستاذ التاريخ العام في المدرسة الخديوية في أواخر القرن الماضي وقد ذكر مثل هذا الخداع الذي عبثت به انكلترة بفرنسة مرة بعد أخرى سنة بعد سنة، فقال له أحد التلاميذ انك كنت قلت لنا في العام الماضي مثل ما تقول اليوم فكيف تنخدع فرنسة هكذا لها وتلدغ من الجحر الواحد مرتين؟ قال الاستاذ الفرنسي: وهل انتهى هذا الخداع والانخداع بمرتين ؟ كلا انها ستخدعنا في المستقبل أيضاً فننخدع ! !

فلله در الحكيم الافغاني ،والامام المصري ، ما أبعد نظرهما،وأدق علمهما بامور الامم،وسنن الاجتماع في البشر ، وحقائق السياسة في الدول! !

وقد قفى على هذه المقالة بمقالة أخرى في بيان (الاتفاق) الذي عقد بين وزارتي فرنسة وانكلترة وتواطأتا على أن يكون موضوع البحث في المؤتمر وأشار إليه رئيس الوزارة الفرنسية وهذه خلاصته:

(المادة الاولى) أن يستمر الجيش الانكليزي في الاراضي المصرية الى أول يناير سنة ١٨٨٨ (أي ثلاث سنين ونصف) ثم لا ينجلي عنها الا بعد انعقاد مؤتمر جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الاخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول . فان خالفت فى ذلك دولة واحدة كان لانكلترة الخيار بين الجلاء والبقاء !

(المادة الثانية) إلغاء المراقبة الثنائية على أن يعوض عنها بتوسيع السلطة لصندوق الدين العمومي فيمنح مجلسه حق الاطلاع على نفقات الحكومة المصرية ويكون له حق الاعتراض على ما يزيد منه على المقرر فى الميزانية من أول سنة ١٨٨٥ الخ

(المادة الثالثة) حياد مصر وحرية القنال

وقد بين في المقالة دخائل كل مادة من هذه المواد وعواقبها ، وسوء سياسة الوزارة الفرنسية فيها ، وكون هذا الأود والاعوجاج فيها لا يقيمه الا حمية الدولة العثمانية ، وحرص مجلس النواب الفرنسي على المصالح الفرنسية .

وقد صدق بذلك رأي العروة في الانكليز من أنهم يبلغون مآربهم دائما بالخداع والكيد ، لا بالقوة والايد . فهي قد خدعت فرنسة وغيرها بالاجل القريب الذي ضربته لانتهاء الاحتلال - وهو ثلاث سنين - من حيث وضعت للجلاء بعده شرطا لا يمكن وقوعه الى يوم الدين ، وهو اتفاق الدول واجماعهن على أن الجلاء عن مصر لا يضر بالنظام الداخلي لها ، ولا بمصالح الدول المشتركة فيها ، ومتي اتفقت هذه الدول على رأي من الآراء وعمل من الاعمال ، في أمثال هذه المسألة التي تختلف فيها المصالح والاهواء ؟

ثم متى تكون هذه الدولة الداهية عاجزة عن استمالة دولة أو أكثر الى الخلاف في هذا ؟

-:-*-:-

الشاهد الخامس

في تحريض الدولة العثمانية (*

الباب العالى والانكليز

يهم المسلمين في كل أرض أمر ما يجري في مصر بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جنديا أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلا أو حاميا ، وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فانها بهرة الاسلام وباب الحرمين الشريفين، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه، والمسلمون في قلقهم هذا ينظرون الى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية ، يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الاراضي المصرية من تبوىء الاعداء ،وتحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الامم،وتصان بها ولاية الاسلام من السقوط في حبائل هذه الدولة الداهية « دولة الانكليز » التي أخذت على نفسها أن تبيد ولاية هذا الدين وتحول حابله على نابله * هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ماسكتها على مصر ،فان قضي فيها الامر لغيرها « والعياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر* فهذه دولة الانكليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفا لايحس به عند بدئه، ثم يذهب في البدن فيفسده ويبليه بدون أن يشعر المصاب بالالم،هكذا شأن الانكليز في لينهم وتلطفهم، وحلاوة وعودهم، وتملقهم وخضوعهم، يسلبون الممالك مالكه بل الحي حياته،وهو مأخوذ بما يشعوذون له. ولا ريب في أن الاهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب، فان كل مسلم وله الحق يعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الاقطار.

إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ،ويحسبون أنفسهم في عداد الامم التي لم تذهب سلطتها،ويعتقدون أن لهم سلطانا قويا في الدولة العثمانية، بل يرون أن خلاصهم

*) مقالة نشرت في العدد الثاني عشر بتاريخ ١٠ رمضان ٣ يوليه

من قيد الرق الانكليزي لابد أن يكون يوما ما بسعيها ، وقد أظهرت أيام الحرب الاخيرة آثار لحمتهم معها باللاحمة الملية بما لم يبق ريبة لمرتاب في شدة صلتهم بها .

لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هـذه الازمان الاخيرة عند ما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة، وتصارعوا في المفاوضات والمجادلات محاماة عمالهم في المصالح في مصر، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة ارضاء لخواطر المسلمين عموما، واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها، وحماية عن ممالكها أو أهم مملكة منها، إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرانسا وانكلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الحلول الانكليزي في مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لايكف الانكليز عن حرصهم ، وغاية مافيه أنه يستتبع مداعاة الدول والدولة العثمانية مع الانكليز، وبرهن على أن بقاء العساكر الانكليزية في مصر ليس بضروري في حل المسئلة فان كانت الدول لاترى في العساكر الاهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل فالباب العالي مستعد لارسال العساكر اليها على ماتقتضيه حقوقه فيها، كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون الاجراء موانع سياسية . فان لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فانه يعرض عليها أن يحل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وفرنساويين وانكليز وايطليان واسبانيين وإلى الدول تعيين الاجل في الوجهين وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشا لخواطر الانكليز حيث قال ان الانكليز قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان وتثبيت سلطة الخديو الا أنهم لم يأتوا في تحسين حال مصر وتقويم نظامها الا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة

وانا نقول كما يهتف به كل مسلم إن من فروض الدولة العثمانية أن لاتدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانكليز عنها، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الآستانة، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لاتعقب مطراً * ومن الحق أن نقول إن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا

البيت البلوري « بيت العظمة الانكليزية » بحجر واحد، فاذا اشتدت الازمة تيسر لهم السعي في الوئام بين الايرانيين والافغانيين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كلمتين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندها يعرف الانكليز مقام أنفسهم في الاقطار الهندية ، والممالك المشرقية .

هل تسلط الانكليز في الاراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المخاصمات المذهبية التي كانت بين الافغانيين والايرانيين ؟ ولو نظرنا اليها نظر التحقيق لمارأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ، ولا ريبة عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الامم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المكانة العليا في نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانكليز في جزائر بريطانيا والهند يقصر بالعثمانيين عن النكاية بهم لانقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد المسالك بين الممالك العثمانية والانكليزية، فان الظن يختلف عند وجود الاتفاق بين الافغان والايرانيين ،واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين

هذه طريق محمرة وبندر عباس إلى بلوجستان مفتوحة للسالك،مطروقة السابل ، وهي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . ان هذه الجولة لو كانت لاثارت في وجوه الانكليز غبرة يضلون فيها عن رشادهم . ومعلوم أن الحي لايسلم نفسه للموت بلا مدافعة مادام قادراً عليها . يكفي لقيام مليون من المقاتلة الافغانيين والبلوجيين تحرك خمسة آلاف عثماني الى أحيائهم .

لست أبالي أن أقول الحق : اذا حصل التساهل في أمر مصر انفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزت بعد هذا وسائل التلافي،فلتأت الدولة العثمانية على مافي الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم اهـ

الشاهد السادس

خاص بتنبيه الخديوى توفيق باشا ورجال دولته

(ان العروة الوثقى لم تكن ترجو من الخديوي توفيق باشا أدنى عمل ولا أدنى مساعدة لمن يعمل ويسعى لجلاء الانكليز عن مصر وانما كانت تطالب بتسليم أمر البلاد الى أولي العزم فيها، ولكن وصلت اليها اخبار من مصر بأن الانكليز استولوا على قلبه، فصار يعتقد أن بيدهم أمر بقائه في منصبه، ومما أخافوه به إمكان ارجاع والده، وانهم استمالوا بعض المصريين من المسيحيين وغيرهم الى مساعدتهم على تثبيت اقدامهم في مصر فكان هذا سببا لكتابة عدة تنبيهات منها مقالة عنوانها

﴿ عمى بعض الناس في مصر او تعاميهم عن مقاصد الانكليز فيها ﴾(١)

قال في آخرها بعد شرح طويل في تصرف الانكليز في مصر وما يعللونه به :

هذه كلها تعلات يزعمها الانكليز حجابا لما يسعون اليه من الاستعلاء على عرش السيادة في مصر وحط الرحال في حزونها وسهولها .

فلم يبق بعد هذا سوى ان ينتبه الغافل ويلتفت صاحب الامر الى مايحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم . ولا يعين الانكليز على مقاعدهم جهلا منه او اغترارا بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه او بلاده . سبحان الله هل كان مثل هذا الامر يحتاج الى تنبيه ؟ هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق ، لاتفيدهم التجارب ، ولا تربيهم المحن ولا تعلمهم الحوادث، ولا تدربهم النوازل وتناوب الرزايا والمصائب . من له ادنى خبرة بسير الانكليز في ماضيهم او حاضرهم يعلم انهم يملكون البلاد بأيدي سكانها، ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم

---

(١) نشرت في العدد الثامن عشر وهو الاخير

يرى الامير الشرقي هذا في أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره، مثلهم مثل الاغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحد الى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده يرعى ويرتع آمنا مطمئنا حتى يفنى (١)

لاعار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة اذا تغلبت عليها امة اشد منها قوة واكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح. وانما العار الذي لا يمحوه كر الدهور ولا ينسيه تطاول الازمان، هو ان تسعى الامة او احد رجالها او طائفة منهم لتمكين ايدي العدو من نواصيهم، اما غفلة عن شؤنهم، او رغبة في نفع وقتي وجزاء نقدي على خيانتهم، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية، ونوقد نيران الغيرة الجنسية، لنخيب آمال الانكليز ونرد كيدهم في نحورهم، ونقذف باولئك المغفلين الذين يميلون اليهم خارج تخوم هذه الحياة (٢) ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون، هذا اذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق في محبة الاوطان ورعاية مصالحها، فان تابوا وأصلحوا وأنابوا كان الحق ظهيرهم، وكان الله وليهم ونصيرهم، وهو نعم المولى ونعم النصير

---

(١) نظم هذا المعنى ابن دريد فقال في مقصورته الشهيرة :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلي فارتعي

اذا احس نبأة ريع وان تطامنت عنه تمادى ولها

وهكذا شان البشر في حال الادبار والانحطاط الاجتماعي . روى المؤرخون ان رجلا من التتار المخربين صادف مائة رجل في احد أزقة بغداد فذبحهم واحدا بعد آخر وهم ينظرون ! فم كانوا يخافون ؟ وهل بعد وراء هذا الذبح شيء يخاف منه؟ انا مثال هؤلاء احقر واضل من الغنم لان الغنم لاتدري مايدرون

(٢) هذا رأي السيد جمال الدين في الخائنين لاوطانهم بمساعدة الاجنبي عليها لاعلاج له عندهم إلا القتل

الشاهد السابع

في سياسة دول أوربة في المسألة المصرية ومكان العثمانية والحكومة المصرية منها

سقوط المؤتمر وسياسة بسمارك فيه (*)

حركات العقلاء على حسب المقاصد ومقدرة بقدرها ، وأولاها بالاعتبار مايصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شؤون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . على رعاة الامم في كل مملكة أن يكونوا بمرصد لكل حركة سياسية ، وبمرقب للنظر في غاياتها والتنقير عما بعث عليها . رب نهضة من سياسي عظيم تميد لها الراسيات في كل دولة ، وتضطرب لها الروابط العامة بين أمة وأمة . فليس لمحنك في السياسة أن يقصر نظره على ماعنده ، ويرد كل حادث سياسي إلى مارسم في مخيلته ، واعتقده موافقا لمصلحته ، فيضل عن الرشد بالقصور ، ويغيب عنه الصواب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الامكان ، ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التي يحمل على جلبها أو يدعو إلى دفعها طبائع الامم ، ولوازم مليتهم ، ومواقع بلدانهم ، وعلائقهم مع من سواهم ، حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظا لمداره ، واقيا لنظام سيره . يكون على غوارب أمواج الحوادث كالملاح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، في أمن من الاخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرانسا أشد الدول في دفع انكلترا عن مطالبها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في (اسكيارنيافيس) . ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول المخابرة ومعهم وزراؤهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبعد الغاية . هل كان هذا التلاقي لاطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية ؟ لا . هل كان كما

---

(١) نشرت في فاتحة العدد ١٧ بتاريخ ٦ ذي الحجة (٢٥) سبتمبر بغير عنوان

قاله بعض الجرائد للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين ؟ كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا كلصوص تقمعهم السطوة الداخلية، ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخابرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية . ماتقوله الجرائد من هذا القبيل انما يقصد به التعمية وصرف الاذهان عن النظر في الحقيقة

أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع ؟ لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محا فضيلة الايثار . قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك والبارون دو كورسيل سفير فرنسا في برلين. هل يريد البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الامبراطوري أن يجعل لفرنسا ركنا شديداً في معارضة انكلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضي إلى حرب، توهي القوة الفرنساوية ويصيب منها ما يحب ؟ هذه فائدة خاصة بدولة الالمان لو قدرت على نيلها فماذا ينال الدولتين المتنافستين لها من الاتفاق معها؟ و يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقطيب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين المانيا وتنسى الاحقاد بينهما ؟ غاية لا تطاب والشأن فيها كسابقتها . هل يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الاهانة التي لحقته في المؤتمر . ان كان هذا فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لا يمس المصلحة المشتركة . هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى مايقصده بسمارك من التملك والفتوح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهي ؟ أيصح أن يكون ذلك الامر الكبير وسيلة لهذا الغرض الحقير ؟ على أن انكلترا كانت أقرب الى ألمانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل اليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية .

هل أراد البرنس أن يختل الروسية ويلهي فرانسا بالمسألة المصرية لتنام الاعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك وبوسنه الى ماشاء الله وسمت القوة ؟ شفقة في غير موضع، وصنيعة في محل القطيعة . هل أحب البرنس أن يمتع نظره بشهود الفتوحات فبعد مافتح للنمسا بابا في الشرق من جهة هرسك رسم للروسية طريق هراة وقندهار، ومد لفرنسا خطا في حدود تونس وهو قرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وان لم تعد من ذلك

فائدة على الامة الالمانية ؟ شيء لا يأتي عليه الفكر ولا يصيبه النظر .

هذا ولا يصح لنا أن نقول إن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد الروابط بينهم لمجرد كف يد الانجليز عن مصر وابقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك على ما كانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مكاتب التان البرليني، قال ان في عزم البرنس بسمارك أن يؤيد الحجة الفرنساوية بثبات شديد وارادة صحيحة، وسيكون مع فرانسا يداً واحدة في ابقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، وفي زعم المكاتب أن هذا كان باعثا لسياسي انكلترا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين المانيا والنمسا وبين فرانسا . فان المسئلة المصرية بمجردها ليست مما يدعو الى حملة عمومية

اني أرى تحت هذا النقع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات أرزاء ، أرى تنقلا قريبا في حدود الجغرافية السياسية ، وتغيراً عظيما في الخطط الدولية ، وانقلابا في هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المبادىء الاولية لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرانسا فانه لم يجد خيراً في مناوأتها زمنا طويلا ، وكلما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعا، فيريد أن يجرب صداقتها، كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة الروسية الى آسيا فهو اسلم للدولتين الالمانيتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولي وجهها وفيما تخلفه وراءها فائدة البرنس النقدية

(ثم قال بعد تقليب الآراء ما يأتي وهو ما أردناه من المقالة)

قضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعليها التيقظ التام والاحتراس الشديد كيلا يكون خسارهما في استفادة غيرهما . اذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت حقوقها وصانت بقية ممالكها . الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة، والاخرق الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطلب نكاية الانكليز من كل وجه فما الذي يمنع الدولة العثمانية من مجاراة الدول العظام وهي أقدرهن على الاضرار بهم، فانهم في بلادها يعيثون فيها مفسدين، وسكان البلاد لا ينتظرون الا خطوة من دولتهم اليهم، فيقيمون القيامة عليهم؟

الشاهد الثامن

(في تحريض المسلمين عامة والسلطان والمصريين خاصة على الانكليز)

زلزال الانكليز في السودان (*)

نقلت الجرائد الانكليزية تلغرافا ورد إلى جريدة الستندارد من دونقلا ثم كررت ذكره وثبتت مفاده أياما متواليات ومحصله : ان الالسن تلهج في مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانكليزية بقدوم جيش محمد أحمد والحديث مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء والآخر على شطوط النيل وأنهم لابد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لاقبل لهم باحتمالها ، وقد استولى بذلك الاضطراب والتشويش على أفكار العساكر خصوصا عساكر مدير دونقلا لا خوفا وفزعا فقط ، ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا اليه من أن السلطان راض عن أعمال محمد احمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين في تلك الاطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الانكليز في منزلة العدو الالد ويقاوموهم مقاومة الآيسين اه

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي في معاكسة سير الانكليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياما بما يوجبه الدين والوطن، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر سلطاني ، فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه، بل توجبه في مدافعة الباغين عليه، وتدعو كل ذي عقل لاخذ الحذر من حيل المحتالين ، والتوقي من الارواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور منها مايخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصوري بنور الابصار، وهي منابع الشر ومصادر الفساد ، ومهب رياح الفتن والاختلال .

---

*) مقالة نشرت في العدد ١٨ بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ ـ ١٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤

تلك أرواح الاجانب ونفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد، ويخفضون شئون العباد، ويغمطون الحقوق، ويفسدون الاخلاق ويذلون النفوس

المدافعة عن الوطن أمر طبيعي وفرض معاشي يكانف في دعوة الطبيعة اليه الميل إلى الطعام والشراب ، فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه . نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مرايا التواريخ عند ما يمر الناظر اليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة ، وصيغت لهم هيا كل من اللعن الابدي، مسربلة بالخزي والعار السرمدي ، هكذا يعرف الشيء بضده

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر، وعلى أي وجه انقلب . القادر على فكر يبديه ، او تدبير يأتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن. من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان. من سوف عمل اليوم إلى غد ، وتوانى في تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على ألسنة الانبياء والمرسلين. وممقوت في نظر العالم أجمعين

ماأعظم جريمة الخيانة « المساهلة في شؤون الاوطان » يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه، إلا وصمة الخيانة، فلا تطويها الادهار ، ولا يخفيها تطاول الاعصار، محيت أسماء العظماء والملوك والسلاطين ولكن لم تمح أسماء الخائنين . لوث على وجه الزمان ، ودرن في صفحة الامكان، مكتنفة باللعنة محفوفة بالمقت إلى أبد الآبدين ، لايحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما تدانت في الادراك تشعر بعظم جرمه فلنرجع إلى موضوع كلامنا

كنا على يقين ولا نزال عليه ان الذات الشاهانية وهي الأب الاكبر لعموم المسلمين ، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الاعداء في البلاد الاسلامية ، وهي لاتألو جهداً في تعويق سيرهم واحباط

أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص الامم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية، وانه لحرج الصدر من أعمال الحكومة الانكليزية، وعدوانها على الحقوق العثمانية والاسلامية والمصرية ، بلغت غشمرة الانكليز إلى حد لا يحتمل فليس من الغريب أن تضيق بها الصدور ، وتفيض بالغيظ منها القلوب، وتبلى منها دروع الصبر، وتذوب سابغات الجلد

فياأيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا: زحف العدو اليكم تحت راية المحبة ثم قلب لكم ظهر المجن، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة من عسكرية ومالية وادارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم وأنتم أحق بها، وطالما دافعتم عنها في الايام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية، ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب اليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف به اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين؟

ماذا ترجون من مطاولته ، وماذا تؤملون في ارخاء العنان له ، وماذا تهابون في معارضته والاخذ على يده ؟ أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل، فقد رأيتم انه أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخدم ، وأفقر آلافا مؤلفة من العائلات ، ووهب من بلادكم لاعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة وتجارة وصناعة، فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص بأمور دينكم (كالاوقاف) وعمد الى خرق سياجكم وازالة قوتكم بطرد جنودكم، وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها ؟ فماذا تخشون منه؟

هل تخشون ان تنقص أموالكم وثمرات كسبكم اذا أديتم حقوق وطنكم ، ودافعتم عدوكم؟ ربما يختلج هذا بخاطر بعضكم، وهو من عجيب الخواطر، أنتم واقعون بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثمرات ، وفاضت العبرات، وزادت الحسرات، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً ، وأوسعكم خرابا ودماراً ، ان رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غني الا افتقر ، ولا عظيم الا احتقر، وإن شئتم فانظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم ، واقرأوا حالكم في تواريخ من سبقكم.

هل تخشون اذا قمتم بفروضكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟ يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة. الدول متألبة عليه يترقب منها في كل آن مطالبته بنتائج أعماله، ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول او أشد خشية. انه مسرع في سيره منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً، ومقراً أمينا، ولا يخفاكم ان المسرع في جريه يكبه على وجهه عثرة في مدرة، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، او مؤاخذة طفيفة، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم وجهرتم بذلك، لرأيتم ان ماءه سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره، واستعليتم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبحه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، وتخويلها لسلطة تحفظ بها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة، أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لمقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيوشه أعالي البلاد المصرية «لا أناله الله ذلك» صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته

إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر، فلو تمكن عدوكم بسكونكم من اظهار قدرته، وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم، فقد فاز بالسيادة فيكم، وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جوره

في امكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في امكانه أن يضر بكم، فاذا مضى زمن انعكست القضية، وأصبحتم في عجز عن مقاواته، وأصبح وفي يده عصى الجبروت لاذلالكم، ان كنتم تخافون من الموت او التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟ أليس يؤخذ منكم الابرياء بالشبه الباطلة ويهانون ويذلون، وكثير منهم يقتلون؟ ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم، وحركات دمائكم في أبدانكم، كما فعل ويفعل باخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يبقي على أحد منكم. فأنتم اليوم أصحاب أمركم، وهذا قصده اليكم، وفي امكانكم أن تستعينوا الله في التحصن من خطر آجل،

بدون ضرر عاجل ، فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فأنتم ساقطون فيما منه تخافون .

ياقوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محبب حتى لعدوه ، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه ؛ تعلمون انه ماعز قوم بالخضوع ، ولا استهين شعب بالاباء ، لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عمن سواكم ؟ ألستم تتشابهون في الخلقة مع أعدائكم ؛ ألستم تمتازون عنهم بالأيمان الصادق ؛ والعقائد الصحيحة ؟ ألستم تنتسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ؟ ألستم تدعون انكم أشرف عنصراً ؟ وأكرم جوهراً ؟ فان قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم ؛ ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبونه ، (انهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله مالا يرجون)

لأي شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه للتغلب على ماليس له ؟ ولأي سبب لاتقدمون بشيء من شهامتكم في حفظ ماهو لكم ؟ ان هذا لشيء عجاب . هل نذكركم بقول شاعركم :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

ليس هذا مقام التذكير ، وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة الى معالي الامور . انما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات المعيشة ، فان لم يستفزكم طلب العلا وسمو الهمم ، فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر ، الذي رأيتم بوادره ، ونعوذ بالله ان تدرككم أواخره .

أستغفر الله لاتزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة . لايزال دينكم يترقب منكم حمية عليه وغيرة لدفع الغائلة عنه . ان صاحب الدين ﷺ ينتظر فيما يعرض عليه ، من أعمالكم نهضة لاعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالب أعدائه ، وان الله في عزة جبروته لن يدعكم على ماأنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين (ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله * ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين * ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) اه

[المؤلف] هذه آخر ما نشر في العروة الوثقى ونشر قبلها مقالة كأنها نار جهنم سعيرا ، وتغيظا وزفيرا ، وحسبنا هذا النموذج التمثيلي ، لذلك العمل التاريخي .

مسألة السودان
وسياسة الحكيمين فيها

تقدم في ترجمة السيدجمال (ص٢٨) إشارة إلى ماكان يقصده من العمل في السودان هذا نصها

« وأما ماقصداليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندرة أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال، فقد عظما أمر محمد احمد القائم بدعوى المهدية بالسودان في نفوس الانكليز ، وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان إلى انكلترة من الاخبار، حتى أقنعا الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ماحال دون امضائها إلا مجيء البرق بنبأ وفاة محمد احمد

« وقد كان لهما من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل إلى العمل فيه بعد ترك الدولة الانكليزية له مالا فائدة في بيانه . ويجد القاريء كتب الاستاذ الامام إلى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى اشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الاصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني(*) اه

هذا ما كتبته في هذه المسألة عند البدء بتدوين هذا التاريخ عقب وفاة الامام وكنت عازما على الاقتصار عليه لعدم الحرية التي كانت تسمح بالتوسع فيه، ثم بدا لي أن أزيده الآن فأقول : يرى القاريء في فاتحة العروة الوثقى ان مسألة دعوى المهدية في السودان كانت ركنا من الاركان التي يعتمد عليها الحكيمان في حمل الانكليز على ترك السودان والخروج منه بما عظما من أمر هذه الدعوة وما كانا يتوقعان من استفحالها إذا استفحل أمرها ، وقد تكرر في العروة الوثقى ذكر هذا الموضوع ، وانني أذكر هنا بعض الشواهد منها في ذلك لما فيها من الفوائد التاريخية والادبية وآيات البلاغة ، ثم أوضح ما كنت أشرت اليه من ذلك السعي

(*) هذا الرقم للطبعة الاولى وقد نفدت نسخها وطبع طبعة ثانية يقع الرقم المذكور في ص ٥٥٥ منها

الشاهد الاول

في مقالة نشرت في العـدد الاول الذي صدر في ١٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ (١٣ مارس سنة ١٨٨٤)

سياسة انكلترة في الشرق

هلع على ما في البيت فهرع لاغلاق الباب فانخلع المصراع وانقض الجدار من ورائه هذا شأن دولة بريطانية في الهند وقنال السويس . قصارى بغيتها أن تكون هي أمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية في مسالمة أرباب الولاية عليه فيقونه بارواحهم وأموالهم ، ثم هي تفوز بفوائده إلى الابد

الا أن جيشان الاوهام ، وموحشات الاحلام ، دفعتها لمباشرة حمايته بنفسها ، فاذا الامر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم

أرادت انكلترة بعد تبوئها أرض مصر أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانكلازية ، (١) وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة ، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بانه صار من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، واقرار الراحة بينهم ـ وتسكين روع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة ان تمت لولا ما للدولة انكلترة من تقسيم الممالك التيمورية في الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الاسباب وأصغرها لاستيلائها على الاقطار الهندية

وانا لنأسف على التفاوت بين الزمانين ، والتباين بين المكانين ، فلا الاحسان الانكليزي يسهل تتميمه ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنيله ، وخطر الامرين غير يسير

(١) الفصيح في مثل هذا التركيب المشهور ان يقال : وأن تبدل العساكر الانكليزية بوطنية ، لأن الباء تدخل على المبدل منه لا على البدل كقوله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل) ولكن جرى الاستاذ على التعبير المشتهر بين الناس وفي الجرائد

ظهرت دعوى المهدوية في السودان ، واشتد أزر القائم بها بمسارعة الانكليز الى التدخل في مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعي بعد ما أراق دماء غزيرة ، ودبت روح دعوته الى سواحل البحر الاحمر وحدود مصر الطبيعية ، وأمالت القلوب اليه نفرتها من السلطة الانكليزية

يقرب من الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس أو قاربت وان هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتهانه لا تلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء . وعند ذلك يمسي باب الهند بين ألسنة النيران من ثلاث جهات . أيبعد عند العقل وبريطانية لاهية بانقاذ الباب أن تتقد النيران في البيت ؟ الخ

[المؤلف] ذكر بعد هذا في المقالة شيء من عمل غوردون في السودان وبقيتها إنذار بزحف الجيوش الروسية على الهند ، ورسم طريق الزحف من الشمال وذكر القبائل التي في هذا الطريق ومذاهبها وأساليب استمالتها وقد تقدم بيان هذا في محله

الشاهد الثاني

انتصار السودانيين على الجيوش الانكليزية (*

وتأثيره في ضعف هيبتهم الوهمية

أشد ما كانت هيبة الانكليز وملكتها على قلوب الشرقيين قبل تكتيب الكتائب وعقد الالوية وسوق العساكر لمقاتلة عثمان دجمه على أميال من سواحل البحر الاحمر

كان يخيل للسودانيين بل يلابس اعتقادهم أن القوة الانكليزية مما فوق الطبيعة ، وعن مثلها تصدر خوارق العادات ، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار أخر ان غرائب القدرة البريطانية بلغت مبالغ السحر ، تدهش الالباب وتحير العقول ، واذا خلج في صدر أمة صغيرة او كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق ، او تناوئها في مرغوب ، انشقت الارض وانفطرت السماء

---

*) ملخص المقالة الافتتاحية للعدد الرابع والعنوان لنا

عن كماة من الانكليز يصبون عليها أسواط العذاب ، ويذيقونها أليم الوبال ، ويخلعون الارواح من الابدان ، خصوصاً اذا كان مغالبوهم لايحملون من السلاح إلا نوعا من الصنع القديم مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض

إلا ان هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان ان تسوق جيشاً للايقاع ببعض العرب في نواحي سواكن فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله ، وبنى القواد في الزحف قلاعا (مربعات) من العساكر الباسلة مدرعة بلؤام[1] من حراب البنادق (السنج) مسيجة بالآلات الجديدة من صنع رمنتون وهنري مارتين على اجود طراز يكون منه ، وحصنوها بابراج من المدافع لاتدانيها من سكان تلك القفار قوة ، ولا تسمو اليها منهم قدرة

لكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصفوف الانكليزية جماعة من عراة العرب وحفاتهم ، فهدموا قلاعها ، ونقضوا بنيانها ، وقوضوا أبراجها ، وبعد تدافع وتصادم ، وتقدم وتأخر في موقعتين عظيمتين كر الانكليز إلى سواكن (ساحل البحر) وأخلوا ساحات القتال ، وتقهقر العرب إلى الجبال ، وعج الانكليز « غلبنا وانتقمنا » !

ماذا أثرت هذه الغلبة العجيبة في نفوس السودانيين؟ ثبتت أقدامهم ، وقويت جأشهم ، وجمعت كلمتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا قواهم واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فحرموا لسوء البخت أوحسن الحظ من ملاقاة خصومهم ، لان شدة الحر كانت من أعدائهم — إلى أن قال —

وما حل بغوردون قد أسقط من شأن الانكليز وقوتها في أقطار السودان عموما وجعل كلمتها هي السفلى وبعث على الاعتقاد بانه إحدى كرامات محمد احمد ولا حول ولا قوة إلا بالله

خطب يعقب خطبا ، وكرب يحدث كربا ، هذه الصدمات المتتالية كشفت بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة في قلوب الهنديين ، فكثير

---

(١) اللؤام كغراب هي التي يلائم بعضها بعضا من قولهم سهم لأم : له ريش لؤام أي متلائمة بوضع بطن كل قذة منها إلى ظهر الاخرى . استعمله في الحراب بدل السهام

التوابون والرجوات [١] عن أنيابهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلام تطول ، ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويلمح الفرص من خلال هذه الحوادث

انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيوش الانكليزية من مصيبة (هكس) إلى ما بعدها في جميع ارجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ، ويرجعون على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل ، وهم على ربوة من الامل ، يستطلعون سوانح الفرص ، خصوصاً المسلمين منهم ـ كما أنبأتنا به الرسائل الواردة الينا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونظن ان الدولة الانكليزية وعماد قوتها الايهام والتغرير يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الاولى في نفوس الشرقيين

(وههنا حرض الدولة العثمانية على الاخذ بالحزم وقوة العزم في مسألة مصر والسودان وبين لها ان هؤلاء الانكليز الذين لا يعاملونها إلا بالتهديد والارهاب لنيل أغراضهم لا يمكن أن يشهروا عليها حربا لما يعلمون من محبة مسلمي الهند لصاحب السلطة الاسلامية ويوقنون بان ذلك مقوض لسلطتهم في الهند لأول وهلة ثم قال)

الاعتقاد بمحمد احمد أخذ سبيلا الى قلوب الهنديين حتى كتب الينا أحد أصدقائنا في لاهور : ان محمد احمد لو كان دجالا لأوجبت علينا الضرورة ان نعتقده مهديا ، وأن لا نفرط في شيء مما يؤيده (ثم ختم المقالة بالنصيحة المرادة منها فقال)

فما آخر الحيل ؟ أيكتفى بحفظ القنال مع ترك الفتنة يسري لهيبها إلى مصر العليا بل إلى السفلى ؟ اني أخشى كما يخشى العقلاء من شيوع هذه الدعوى وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انكلترة وبكل من له حق في مصر ، فعلى الانكليز كما نصحنا مراراً أن يصونوا بلادهم ويحفظوا طريق الهند بتفويض الامر إلى العثمانيين وأولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت — وإلى الله ترجع الامور اه

---

(١) التوابون الامراء المسلمون والرجوات الامراء الوثنيون

الشاهد الثالث

أماني انكلترة في حركات محمد احمد (*)

صرح اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات بان المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الاحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد احمد في البلاد السودانية يريد من هذا انه لم يحمل على الثبات والترامي على الموت عدوانهم للانكليز ولا طمعهم في توسيع الفتح وانما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد احمد في السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهدوية بل لوازمها التي لا تنفك عنها، فان القائم بهذه الدعوى لا يقف في سيره عند غاية ، ولا يقنع بملك ، وانما يريد بسط دعوته في أقطار العالم، واحياء الاوامر الالهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النيابة عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقا في دعواه أو كاذبا . فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الارض سودانا كان او مصراً أو غيرهما من البلدان إلا بتقدمه الى ما وراءها ، حتى يعلي كلمة دينه، ويرد الى الحق من انحرف عنه، ويكون له التصرف التام في قلوب المسلمين ، ويأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الامم، وسواء يسر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن . ولكننا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على ما بيّنا يسقط من النظر قول اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات ان حكومته لم يرد لها خبر يحملها على الظن باستعداد محمد احمد لقبول إمارة كوردفان والاكتفاء بها ولا يعلم هل قبول محمد احمد لتلك الولاية يكون حجابا بينه وبين التقدم الى سواها، فقد علمت أن محمد احمد لم يقم بدعوى الملك ، ولا طلب حقا له في الامارة كان

---

*) مقالة وجيزة نشرت في العدد الرابع أيضاً

يرثه عن آبائه وانما قام بدعوى لانهاية لاطرافها إلا عند حدود السطوة الاسلامية فليس يكافيء قوة دعوة اسلاميـة إلا عزم اسلامي . ولن يكافح هذا المدعي ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون . يدافعون الدعوى بمـا يقوى على اضعافها أو محوها . فان لم يرد لحكومة اللورد خبر الى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه نسأل الله حسن العاقبة

بعد تحرير هذه الاحرف جاءت الاخبار مصدقة لمـا قلنا ففي تلغراف من مكاتب التيمس في خرطوم أن ثلاثة دراويش جاؤا مرسلين من قبل محمد احمد الى الجنرال كوردون وأرجعوا اليه علامات الشرف التي كان بعث بهـا الى مرسلهم . وبلغوه أن محمد احمد يرفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الاسلام فهو خير له

الشاهد الرابع

(في مقالة عنوانها (السودان) نشرت في آخر العدد السابع الذي صدر في ٤ رجب (أول مايو)

(بنيت هذه المقالة على أخبار تواترت ونشرتها الجرائد الانكليزية والفرنسية بقرب سقوط مدينة بربر في يد محمد احمد وشروع حاكمها المصري في اخلائها ، وانضمام بعض العساكر المصرية المنظمة الى محمد احمد ـ وسريان الثورة في جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر ، وعـدم امكان الانكليز من ارسال جيش انكليزي الي السودان إلا بعد أربعة أشهر مع عدم رضاهم بارسال جيش مصري ... ووصول مكتوبات إلى ضباط الحامية المصرية في أسوان من زعماء الثورة ينذرونهم بها اخلاء المدينة . . ـ وقول جريدة الطان : اذا اجتمعت قوة محمد احمد عند الشلالة الاولى فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة ثم ختم هذه المقالة بما أودع مثله في غضونها فقال)

هذا الذي كنا نتوقعه ونخشاه من قبـل وأشرنا اليه مراراً جاءته الحوادث

ونطقت به الجرائد الفرنساوية والانكليزية ، ولم يبق إلا التفات تلك الجرائد الي دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالا ، وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر ، وترشدها الى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج ، انما هو تسليم الامر لذوي الحق فيه والعارفين بطريقه من المسلمين، وسنراها بعد أيام تتبع السبيل المستقيم اهـ

الشاهد الخامس

(في مقالة نشرت في العدد العاشر الذي صدر في ١٠ شعبان (٥ يونيه) بعد استيلاء السودانيين على بربر نختصرها بما يلي) :

السودان ومصر

نشرت جريدة (البوسفور اجبسيان) التي تطبع في القاهرة خبراً ذكره توفيق باشا نفسه وهو ان الجنرال (غوردون) توعد حكومته الانكليزية بانها إن لم تمده بجيش ينقذه من الضيق الملم به فانه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الاسلام ، وضمنت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجيب)

وغرابة الخبر إن كانت من جهة انه تهديد بما لا يهم الحكومة فنحن نعلم أن الانكليز يفزعهم خروج أحد منهم عن دينهم ، وإن كانوا يرشدون الناس الى ترك الدين ويعيبون على المستمسكين به، ولكنهم أشد الناس تعصبا فيه فلا محل للغرابة — وإن كانت من جهة ان غوردون وهو من أشد قومه تمسكا بدينه كيف يجنح للاسلام؟ فهو انكليزي الطبيعة كما هو انكليزي الجنس، يتلون ظاهره بأي لون ويبرز في أي ثوب لاصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب ان قال وفعل [1]

(١) ليعتبر القارىء بانقلاب الحال فان الانكليز يدعون في هذه السنين الى تمصير السودانيين احياء لذكرى غردون ويتخذون جميع الوسائل له

(ثم قال) جاء الخبر ان أهالي جرجا في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد الى تلك المدينة رجل من أشياع محمد احمد قادما من القاهرة ودعا الاهالي للأخذ بطريقته فاذا بينهم جم غفير يجيب داعيه ، ويذهب مذهبه.وهو مما يدل على ان القائم السوداني مهتم بنشر دعوته ، محتاط لنفسه حاذق في عمله ، وله دعاة في ارجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فان ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشتد الخطب ، ولربما صار له بقوة ميل الاهالي اليه منعة يصعب على حكومة غير اسلامية أن تقارعها

أما ماذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها وبين المسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع ، لان الايام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين ذمام الآخر في جميع الاحوال التي عرضت على بلاد مصر . المسلمون والسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها . والمقاتل التي وقعت أيام الحرب المنقضية انما كان منشؤها افساد المفسدين، على انه لم يمس فيها قبطي بسوء . والاخبار الصحيحة تؤيد مانقول

الشاهد السادس

﴿ من مقالة افتتاحية نشرت في العدد الثالث عشر ﴾

(موضوع هذه المقالة الطويلة اثبات عزم الانكليز على امتلاك مصر وتحريض الدولة العثمانية على القيام بما يجب عليها من العمل لاخراجهم منها . ومما جاء فيها بشأن مهدي السودان مانصه)

وليس من المبالغة أن نقول إن حلول الجيش الانكليزي كان وسيكون من أعظم الاسباب لقوة محمد احمد ، ولولا وجود العساكر الانكليزية في مصر لما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة ، ولقد كان يتبرأ من نسبتها اليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين ، بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته ، أو يدخل تحت رايته

هذه تواريخ الامم وهذا سير طبيعة الكائنات ترشد المستبصرين الى ان مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها ، وزحف الغرباء اليها

أي حجة لمحمد احمد في دعوة الناس اليه ؟ وأي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول ان الانكليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر وهي في عداد الاراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ، ودعامة القوة الاسلامية ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم . وانقاذ البلاد من رجسهم ؟ وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء

هل يتوهم بعد سقوط خرطوم وجيش الانكليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد احمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم انه منقذ المسلمين ؟ هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق[1] شعلته إلى أقطار اسلامية يخشى الانكليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند ؟

قد نرى الحالة أقرب الى المخافة منها الى الامن ، وسيعلم الانكليز انهم أحوج الناس الى السلم ، وأفقرهم الى القناعة

أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار ، بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان ، أو يذعن لها جنان ؟

ليس لقوة أن تأتي بهذا الاثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين ، وأولي العزم من المصريين اهـ المراد منه

﴿ إيضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان ﴾

بينا أنه كان للحكيمين غرضان من سياستهما في المسألة المصرية والمسألة السودانية كما أنه كان للانكليز غرضان فيهما . أما غرض الانكليز الاكبر فهو امتلاك مصر والسودان معا والتوسل بذلك إلى امتلاك شطر افريقية الشرقي من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، فان تعذر ذلك واضطروا إلى ترك مصر اكتفوا باخذ

(١) اللياق بالكسر ما تشعل به النار

السودان وحده وهو الغرض الآخر ، وانتظروا الفرص لجعله وسيلة لاخذ مصر

وأما غرض الحكيمين الاول فهو اخراجهم من مصر والسودان معا بما شرحناه من الوسائل لذلك ، والسعي أخيرا الى اقناعهم بترك السودان بتكبير شأن دعوى محمد احمد للمهدوية ، حتى اذا تعذر ذلك وتم لهما هذا ذهبا إلى السودان خفية ونظما فيه قوة محمد احمد توسلا إلى انقاذ مصر بها ، وتأسيس دولة قوية يعتز بها الاسلام والشرق ، وتتحرر شعوبهما من الرق

وقد قلنا انهما كانا قد وفقا لاقتناع الدولة البريطانية بسحب جيوشها من السودان وتركه لاهله ، وانه ماحال دون تنفيذ ذلك الاموت محمد احمد ، وأشرنا الى ترك الاستاذ لأوربة بعد الاضطرار الى ترك إصدار العروة الوثقى بالتشديد في منعها من مصر والهند ، وانه دخل مصر مستخفيا بعد أن أمّ بسورية وتونس ، وكان غرضه الاول التمهيد فيها للذهاب الى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين اليه اذا نجح في سعيه له

كان آخر عدد صدر من العروة الوثقى وهو الثامن عشر مؤرخا في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (الموافق ١٦ اكتوبر سنة ١٨٨٤) وبعد تركها انفرد السيد جمال الدين بالسعي المراد من مسألة السودان وانا نوضح هنا ماأشرنا اليه قبل من دخول الشيخ محمد عبده في مصر وهو مافي بعض مكتوباته السرية إلى بعض أعضاء جمعيتهما (العروة الوثقى)

قال في المكتوب الاول من الباب الخامس من منشآته[1] بتاريخ ٧ جمادى الاولى من هذه سنة ١٣٠٢ مانصه بعد كلام :

« فتلقيت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، ولعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف انفس ما ادخر لها من العمل ، وتلحظ أبصار مادنا من الامل ، وتنبعث عزائم لتناول ماحضر لديها ، وابراز ما كمن فيها ، فعناية الله باسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لايصاخونها ، وغطيط من الغفلة لايسمعونها .

(١) صفحة ٥٥٣ من الطبعة الثانية

هذا ما اندفع بي الى بلاد أستعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفيقي إلا بالله ، وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عق الشباب تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها

غير انه لا يراني فيها إلا المخلصون، ولا يعرفني فيها إلا العارفون، وإن لك بينهم ذكرا يليق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، وقد أبلغت (السيد) من خبر صنيعك ماوفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه . الخ

(وكتب الى آخر من الاعضاء في هذا التاريخ نفسه من مصر وهو المكتوب السادس من هذا الفصل مانصه :)

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك، وحاشا ان يكون تساهلا في الحق ، أو تثاقلا عن فريضة الود ، وانما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فمزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها من يوم فارقتك الى الآن .

« ذهبت الى باريس فما عدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن أنحو جهة المشرق، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات ، فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (تونس) عملت في جميعها على إحكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى

بلد خلعت به عـذار شبيبتي   وطرحت في كف الخطوب عناني

وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل، وإقبال الامل.
— الى أن قال —

« واذا رأيت .... فنبئه ان قوة الاتحاد في الجنوب ، أفزعت قوة النيران في الشمال ، وان نيران القلوب ، أذابت مدافع الكروب (وما النصر إلا من عند الله) يؤتيه الصادقين ، ويوليه المخلصين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة الخ

(يقول المؤلف) وحسبي بهذين التصريحين شاهدين على ماقلت

***

هذا وان محمد أحمد توفي في رمضان من تلك السنة (١٢٨٢) وكان الجيش المصري والانكليزي المساعدله في أسوإ الاحوال، وقد عقد الجنرال غرانفيل بعد موته هدنة مع السودانيين مدة ثلاثة أشهر في كسلا وفي ٢٠ ذي الحجه منها أعلن تسليم حامية كسلا بعد حصار أكلوا فيه لحم الحمير ، ولسنا في حاجة الى بسط حال السودان في ذلك الوقت لاننا لانكتب تاريخ السودان وانما نشير اليها من بعد لئلا يستغرب بعض قراء تاريخنا تمكن السيد جمال الدين من اقناع الحكومة البريطانية في عاصمتها بترك السودان بعد ماأذاعه في الهند وسائر المشرق من تعليق الآمال بدعوة محمد احمد والتمهيد به لثورة اسلامية عامة

العبرة فى هذه السياسة

العبرة التي يجب أن تمثل لقراء هذا التاريخ ان السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده قد جاهدا في سبيل انقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطاني جهاداً لم تسم الى مثله همة أحد من أمراء هذه البلاد وعلمائها وكبرائها ولا همة غيرهم من العثمانيين وسائر المسلمين والشرقيين، ولم يكن في قدرة غيرهما أن يعمل مثل عملهما . ولكن كان في قدرة كثيرين ممن ذكرنا أن يساعدوهما بالمال وغير المال في هذه السبيل . ويعلم الواقفون على تاريخ مصر في هذا الطور الاخير أن كل ما كتب في جرائد مصر وغيرها في المسألة المصرية الى هذا اليوم لايعد شيئا مذكوراً في جانب ما كتبه الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى بارشاد أستاذه السيد جمال الدين الافغاني ، وان كل سعي عملي لذلك كان وما زال دون سعيهما. فليحفظ القاريء ما أوردنا من الشواهد في هذا المقصد الى أن يجيء الكلام في خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في مصر وعلاقته بأميرها واصحاب جرائده

خاتمة هذا المقصد

آفة الشرق أمراؤه المستبدون

وزعماؤه المرفوه

ومرشدوه الجاهلون

نختم الكلام في خدمة الامامين الحكيمين للاسلام والشرق فيما فاضت به حكمة الأول على بلاغة الثاني في جريدة العروة الوثقى بهذه الحقيقة التي وضعنا لها هذا العنوان ، فلقد كان الناس غافلين عنها فبيناها لهم أبلغ البيان ، وشر مفاسد هؤلاء الامراء والزعماء في هذا العصر غرورهم بالاجانب الطامعين في بلادهم، ولو عقلوها لتمكنت حقيقتها من عقولهم ، ولو فقهوها لرسخت عبرتها في قلوبهم ، ولما تكررت في مشرق العالم الاسلامي ومغربه تلك الرزايا التي انتزعت مما لكهم من أيديهم ، ومن العجائب انها لاتزال تتجدد ، ولايزال مدعو الايمان يلدغون من الحجر الواحد مراراً كثيرة ، وقد قال رسولهم فيما صح عنه « لايلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخاري ومسلم

فلا عجب اذا فيما يصدر عن ملاحدة المسلمين الذين لاحظ لهم من حكمة الاسلام وهدايته الصادتين عن هذا الفساد ، ورضاهم بأن يكونوا أعوانا للاجانب على استعمار البلاد ، وهذا مالانزال نشاهده في كل عام (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولا هم يذكرون) ؟

طرقت العروة كل باب من أبواب هذا الموضوع ففتح لها ودخلت منه فلم تدع في زواياه خبيئة الا واستخرجتها

انشأت له مقالات خاصة ، وجملته مضرب الامثال في المقالات العامة . وقد ورد فيما أثبتنا من الشواهد بعض هذه الامثال والاشارة الى بعض تلك المقالات ونأتي في هذه الخاتمة بشواهد وأمثال أخرى وهي

المثال الاول

﴿ استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ﴾

(قال من مقالة افتتح بها العدد الثامن موضوعها طرد الانكليز للجيش المصري وتأليف جنس صغير تولوا قيادته)

دمر الانكليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم ، وانبثوا بينهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية، فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة . ثم أغروا كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه. فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال، واضطر كل نواب أوراجا إلى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه او يتغلب بها على عدوه، فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس، ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين. وبسطوا لهم إحدى الراحتين ببدر الذهب وقبضوا بالاخرى على سيف الغلب . بدؤا قبل كل عمل بتنفير أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الاهلية، ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها، وماهم عليه من القوة والبسالة والنظام، حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الانكليزية، فأقبل الانكليز على اولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه، وفوزه بالتغلب على غيره ، بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز، ويكون بعض الجنود من الهنديين، وبعضها من البريطانيين، وما على الحاكم الا أن يؤدي نفقتها

ثم خلبوا عقول أولئك الامراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم، حتى أرضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض، وصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) ارضاء لاهل السنة والشيعة والوثنيين

ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض، وأظهروا غاية السماحة، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة، وبعضهم بدون فائدة، وينتظرون به الميسرة، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء. وبعد مضي زمان كانوا يومئون الى طلب ديونهم بغاية الرفق، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف، فاذا عجز الامير عن الاداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم، ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الارض نستغلها ونستوفي منها ديوننا، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم، ثم الارض أرضكم نردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء، وانما نحن خادمون لكم، فيضعون أيديهم على غضروات الاراضي وفيحائها، وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعا حصينة، وحصونا منيعة، كما يفعلون ذلك في ثكن [أماكن إقامة العساكر] عساكرهم على أبواب العواصم الهندية.(١)

وفي خلال هذا يفتحون للامراء أبوابا من الاسراف والتبذير، ويقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضمونها إلى الاولى، ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح، فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الامين، لكل من المتغالبين،

وبعد هذا فلهم شؤون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الاهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية، ويخرب بعضهم بيوت بعض، حتى إذا بلغ السير نهايته، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم، وغلت الايدي فلا يستطيع أحد حراكا، ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له وواقية لبلاده، وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله، ثم خلفوه على ملكه

وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك، فيخلعونه

(١) وكذلك يفعلون الآن في البلاد العربية التي يريدون أن تكون هنداً ثانية

المالك ويولون الطالب، على شريطة ان يقطعهم ارضا او يمنحهم امتيازاً ، فيحولون الملك من الاب للابن ومن الاخ لاخيه، ومن العم لابن أخيه، وفي الكل هم الرابحون.

هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوربا . ما فاجؤا أحداً بحرب، وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة، بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهليها ، ولا بما تطرف به أجفانهم

أولئك الانكليز باقعة العالم ، وأحبال الحيل، يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة، فلا تستغني عن حامية، فان تم لهم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انكليزيا يكون خادما له وحافظا لملكه، فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد، يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد، فيقيمونه حاكما خلفا لمن لم تسمح ذمته بالقبول، وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوربا . هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطني وقدحهم في سيرته بعد الثناء على حسن استعداده ، وسعيهم إلى طرده بالادلة الواهية ، والعلل الواهنة

المثال الثاني

(استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها)

(مقالة نشرت في العدد العاشر وهي التي أشرنا اليها في ص ٣٣٠ ثم حدث من الحوادث العامة ما اقتضى نشرها في هذه الخاتمة)

ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبدها وتذللها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والافكار ووجود المقاومة الطبيعية ، فضلا عن الارادية ؟ ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الامة ، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله اذا غلبه الغالبون، تحمله على

المدافعة عن أمته، كما يدافع عن بيته وحريمه، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذل الامة إلا بافنائها عن آخرها ، أو افناء الأغلب حتى لا يبقى إلا العجزة والزمنى ، هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الامة

نعم يسهل للقوة الاجنبية ان تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الامة حاكم او رئيس روحاني تجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها ، لمنزلة له في افئدة ابنائها ، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم . فلا تحتاج القوة الغالبة الا الى إيقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ما تحكم به . او نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالاماني والآمال فيذعن لما تقضي به . فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الامة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الامراء وأرباب السيادة في الامة التي يريدون التغلب عليها، فيخلعونها بالتهديد والتخويف ، اويملكونها بالخدعة وتزيين الاماني، فينالون بغيتهم ويأخذون اراضي الامم

وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند، ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز اول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الامم الهندية في احقاب طويلة.

هذه قبائل الافغان عند ما انحلت ثقتها بأميرها وصار الامر الى الامة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ما تمكنت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم، وهى ستون الفا من الجيوش المنتظمة مسلحة بالاسلحة الجديدة، واضطر الانكليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها

لا ريب انه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحدا او اشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ، ويتيسر له ان يقف على طباعهم ، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم ، ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عليه، ونفوسها في وحشة منه، اللهم إلا بالابادة والتدمير

من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أقتالهم[١] بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون[٢] بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الامة عنهم ، وما هذا الا لان قوة المغالبين داخلة تحت الضبط، وأما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاومتها، إذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها

ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الامة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها واضمحلالها ، وإنا نخاف ولا حول ولا قوة الا بالله أن يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم ، فانا لله وإنا اليه راجعون اه

المثال الثالث

رأي العروة الوثقى في معاقبة الامم الامراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للاجنبي عليها

(قال في آخر مقالة وجيزة موضوعها الامة وسلطة الحاكم المستبد ووصف فيها حال الامة مع الحاكم المستبد المصلح الحكيم وحالها مع المستبد الجاهل الاحمق المتبع للهوى — مانصه)

عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياح بزورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها ، وينقطع الامل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة . أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الامة عن هذه الدرجة

---

(١) أى أمثالهم (٢) يفرقون يخافون فهو كير هبون وزنا ومعنى

وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرها بمضض العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الامم . جزاء على مافرطوا في أمورهم . (وما ربك بظلام للعبيد) اه

[المؤلف] خلاصة هذا الارشاد ان الامم لاترجى لها سيادة ولا سعادة ولا حرية ولا استقلال إلا اذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ، وكان حكامها خدما لها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والاخلاص كافأته ، ومن خانها أو أساء اليها عاقبته ، ويجب عليها ألا تولي شيئا من أعمالها لأحد من المفتونين بحب الرياسة على قاعدة الاسلام : طالب الولاية لايولى . وقال الخليفة الاول (رض) في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : وليت عليكم ولست بخيركم فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني »

كانت هذه الحقائق مجهولة عند قراء العربية قبل بيان العروة الوثقى لها بأفصح العبارات وأقواها تأثيرا ، ثم رأوا مصداقها في مصر وتونس ثم في المغرب الاقصى ، ثم في البلاد العربية الاسيوية ، فآفة الشعوب الجاهلة المتفرقة أمراؤها ورؤساؤها وزعماؤها ، ويليهم من دونهم من المتفرنجين الذين يتخذ منهم الاجنبي السالب لاستقلالها صغار العمال لكل مايحتاج اليه من عمل في إدارة حكومتها ، لا يليق بالاجنبي أو لايوجد في أفراده من يكفي للقيام به ، ومن قواعد سياسة الاجانب انهم لايستخدمون في حكومة البلاد التي ترزأ بسيطرتهم عليها إلا من يعلمون بالاختبار الدقيق أنه مخلص لهم ولو في خيانة بلاده ، وقد سبق في العروة الوثقى ان الانكليز لو وجدوا في بلاد الافغان عند ما دخلوها محاربين واحتلوا عاصمتها (كابل) أمثال هؤلاء الرجال الذين يعرفون لغتهم ، وقد فتنوا ببهرج مدنيتهم ، لما خرجوا أو يخرجوا من الهند . ولكنهم وجدوا هم وغيرهم في بلاد أخرى من هذه البلاد ولا يزالون يجدون من لولاهم لم يستقر لهم قدم ، ولم يرفع لهم علم ، فمن من يعقل ويفهم ؟؟



المقصد الثاني من الفصل الخامس

عمله في سورية

لما عاد الاستاذ الامام الى بيروت وألقى فيها عصا التسيار ، وتصدى للتعليم والارشاد ، كنت طالب علم بطرابلس الشام ، وكنت قد عرفت شيئا من قيمته، بل كنت داعية له وللسيد الافغاني ، ولكن لم أتمكن من الرحلة اليه والتلقي عنه في المدرسة السلطانية ، وقد زار طرابلس في تلك الايام واتفق لي فيها معه مجلس واحد في المدرسة الخاتونية اذ جاءها لرد السلام على الاستاذ الشيخ عبدالله البركة أحد العلماء المتخرجين في الازهر وكان عرفه من قبل ولم يكن الاستاذ موجودا بل كنت فيها مع أحد الطلبة نذاكر دروسنا ، فتلقينا الامام بالحفاوة والاجلال، وقدمنا له شرابا مثلوجا فشرب ، وطفق يسألنا عن طلب العلم وأساليب التدريس للعلوم التي تدرس عندنا ، وتوليت إجابته دون رفيقي . ومما سألنا عنه تفسير القرآن هل يدرس للطلبة ؟ قلت لا وانما يقرؤه رجل واحد للعوام ويعنى فيه بالقصص الاسرائيلية والخرافات الصوفية إذ يقرأ تفسير روح البيان لاسماعيل حقي الصوفي

وسألته أي التفاسير أنفع لطلبة العلم؟ قال الكشاف. قلت ولكن فيه كثيرا من نزغات الاعتزال. قال تلك مسائل معروفة لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها وانما فضله لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة

ثم قلت له أما علم الاخلاق فقد اندرس فليس له طالب ولا مدرس . قال نعم واندرس معه الدين ، فاكبرت هذا الجواب وكبر شأن الرجل في نفسي لانني كنت شديد العناية بكتب الاخلاق ولا سيما احياء العلوم

وانني أذكر هنا ماوصل اليه علمي ولخصته في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار إثر وفاته (١) وأقفي عليها بفصل كتبه لي تلميذه النجيب السيد عبدالباسط

(١) قد استفدت بعض ذلك أولا من تلميذه محمود افندي الكحيل الطرابلسي ثم من غيره ولا سيما من كلفتهما ان يكتبا لي ما يعلمان فيما يلي

فتح الله رحمه الله وفصل آخر كتبه تلميذه الامير شكيب حفظه الله

نص ما كتبته في المنار (ص ٤٦٢) من المجلد ثامن معطوفا على الكلام في عمله في أوربة

وبعد الاخفاق في ذلك العمل السري ، دون ذلك الهدي النبوي ، ألقى عصا السير في بيروت أعظم ثغور سورية وأقربها من العمران ، فأقبل عليه أهل العقل والفضل ، وأرباب الذكاء والنبل ، يستفيضون منه غيث سماء الحكمة ، ويتلقون هدي الحكماء والأئمة. فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الاذكياء وعشاق المعارف، من جميع الملل والطوائف ، ومما كان يقرأ عليه فيها السيرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية ، وكان يقرأ التفسير في الجامع الكبير وفي جامع الباشورة لا يلتزم فيه كتابا، وانما يقرأ في المصحف، ويلقي مايفيض الله على قلبه وكان الناس يقبلون على درسه إقبالا لم يعرف في تلك البلاد لاحد من قبله، حتى حسد النصارى عليه المسلمين، فكانوا ينسلون اليه زرافات ووحدانا، ويقفون بباب المسجد يمدون أعناقهم، ويشخصون بأبصارهم، ويصيخون بآذانهم، لعلهم يلتقطون شيئا من تلك الدرر . ثم إنهم استأذنوه في دخول المسجد والجلوس في ناحية من حلقة الدرس فأذن لهم « فأجره حتى يسمع كلام الله »

وفي أول سنة ١٣٠٣ دعي إلى التدريس في المدرسة السلطانية لاحياء اللغة والدين فيها فلبى ولم يكن في المدرسة من العلوم العربية الا مبادىء النحو والصرف وما تسميه الترك « علم حال » وهو مايلقن للولدان من أحكام العبادات . فلما دخل المدرسة أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله : يدخل في العمل مرءوسا فيكون في الواقع رئيسا . ذلك انه أصلح إدارتها بالاتفاق مع مديرها، ووضع قانونا جديداً (بروجرام) للدروس وزاد في العلوم التوحيد ومعاملات الفقه والتاريخ الاسلامي والمنطق والمعاني والانشاء ، زادها لنفسه فكان هو الذي يدرسها حتى كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ على نحو ما ذكر في رسالة التوحيد « أمالي مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ... في أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله » الا معاملات الفقه فكان يقرأ فيه مجلة الاحكام العدلية ، التي يحكم بها في المحاكم العثمانية . وكان يكلف تلاميذ الانشاء

حفظ شيء من نهج البلاغة وديوان الحماسة والالفاظ الكتابية ويشرحه لهم. وكان له هم عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ في المدرسة (١) حتى انه كان يزورها ليلا لأجل ذلك وقد تخرج على يديه نابتة هي الآن تخدم البلاد بغيرتها واستقامتها، وعرفانها ونباهتها،

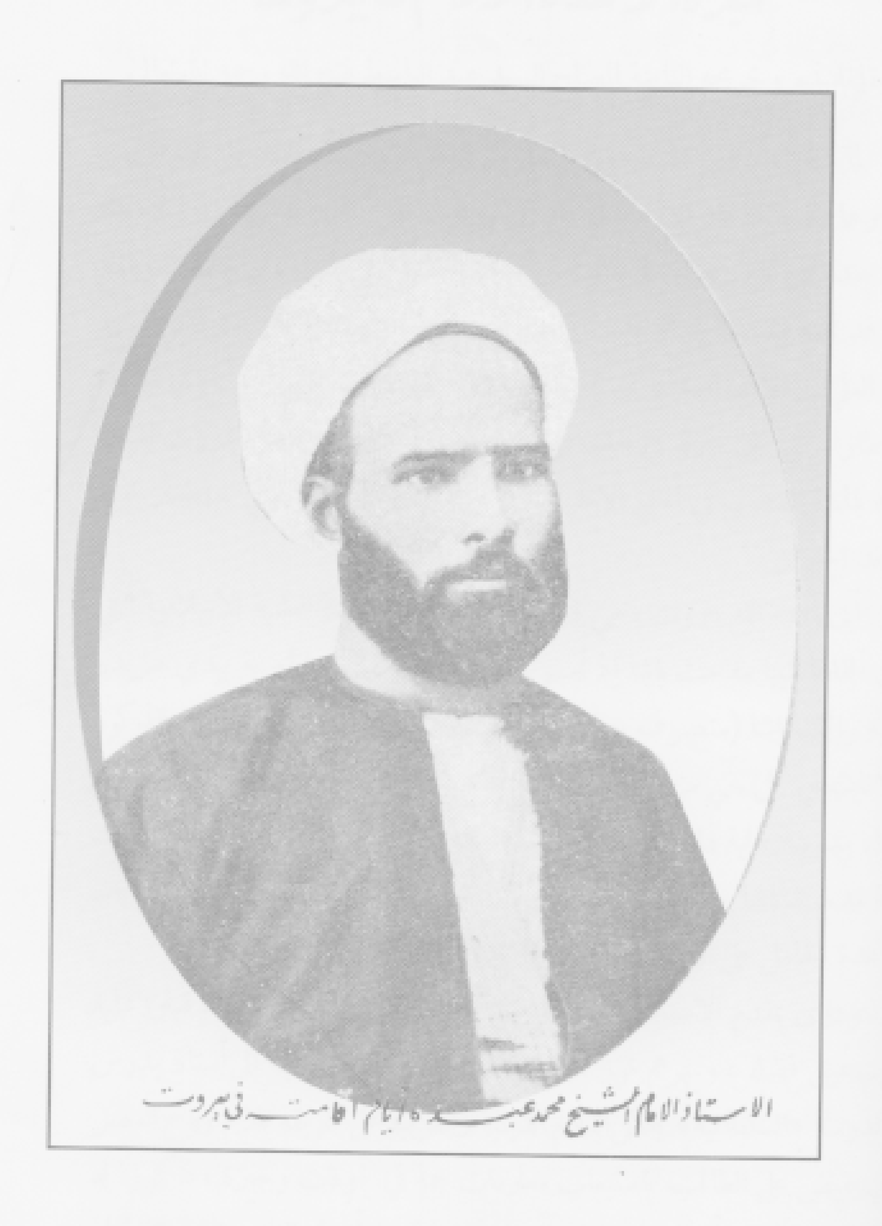
ثم انه في سيرته كان مربيا للجماهير الذين يترددون عليه ، فقد كان يجلس اليه السني والشيعي والدرزي والنصراني واليهودي فيوسع صدره للجميع: ويعامل كل واحد بالأدب الذي يليق به، لا يؤذي جليسا، ولا يغمط فضل مذاكر ولا مناظر، على أنه لم يكن يقول غير مايعتقد سواء كان القول في الدين أو في العلم أو في العادات والامور الاجتماعية، فكان رضي الله عنه نسخة كاملة من رجال سلفنا في التسامح والتساهل وجمع الكلمة واحترام العلم وأهله كما وصف في كتاب (الاسلام والنصرانية) وقد أدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته لاسيا في الخطابة الارتجالية التي لم يكونوا يعهدونها

وكان هناك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقابلة بين الايمان والكفر في العمران التي كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية . وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذاني .وقد أقبل الناس على هذه الكتب وانتفعوا بها حتى انها طبعت مراراً . وكان يكتب المقالات النافعة في الجرائد وسننشر ماعثرنا عليه منها في تاريخه (٢ ولم يكتف بهذا الاصلاح المعنوي بل كان يسعى لدى الحكومة في إصلاح البلاد الاداري فوضع في ذلك لائحة قدمها للوالي وسننشرها في تاريخه أيضا (٣ وكتب لائحة أخرى في الاصلاح الديني وقع عليها بعض الوجهاء، وقدمت بواسطة الوالي الى السلطان (٤ وكان قد جال في أرجاء الولاية واختبرها أتم الاختبار اه ما نشرناه في المنار

(١) أخبرني محمود افندي الكحيل انه لما طبع ديوان الميقاتي الطرابلسي في تلك الاثناء أرسلت اليه نسخة منه فرآه الاستاذ بيده فاخذه منه فوقع نظره على بيت يصف فيه الردف بقوله * لا يرتقي الا لتنصب سلما * فامتعر وجهه وألقاه بعيدا قائلا : أمثلك ينظر في هذا ؟

(٢) راجع الفصل الرابع ص٣٤٢ من الطبعة الثانية للجزء الثاني (المنشآت)

(٣) راجع ص٥٢٦ منه (٤) ص٥٠٥ منه وهذه هي الاولى ؛



الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ايام اقامته في بيروت

سيرة الاستاذ الامام في بيروت

بقلم تلميذه وخريجه النابغة المصلح السيد عبد الباسط فتح الله رحمه الله تعالى

لما غلقت أبواب الهند دون « العروة الوثقى » وفات بذلك جل الغرض من تحريرها ونشرها عاد الاستاذ الامام الى بيروت التي كان اختارها داراً لاقامته مدة بعده عن الوطن، واتخذ له بيتاً في ضاحيتها طلباً لنقي الهواء ، واجتنابا للمجامع التي قد تذهب بسلامة الوحدة وراحتها من غير جدوى . إلا ان بعد المقر لم يمنع نور العلم من الانتشار ، كما ان العزلة لم تحبس نشر الفضل عن التفتح في ارجاء الاقطار ، بل كان منزله في بعده عن مدار الحركة ، وارتفاعه عن مجالات القوم ، أشبه بالمنائر تنصب في أعالي الاطراف ، فيهتدي بشعاعها الساري ويطمئن اليها الوافد الحيران .

أتى رحمه الله بيروت وهي تتمخض بجهيض النهضة العلمية الاسلامية التي كان ألقاها اليها مدحت باشا إذ أسس فيها جمعية المقاصد الخيرية بيدي مريده النبيه رائف باشا (متصرف بيروت لذلك العهد) فأنشأت الجمعية مدارس للذكور والاناث في كل حي من أحياء المدينة ، ثم سمت بها الهمة بدافع الحاجة الى انشاء مدرسة عالية داخلية ، فافتتحت « المدرسة السلطانية » ، و كان ذلك بعد نكبة مدحت باشا وأيام ولاية حمدي باشا — وحمدي باشا هو الذي مد يده لمساعدة الحامل على الوضع فعجل لها الاجهاض .

ودرى بمقدم الاستاذ الامام نفر من أعضاء تلك الجمعية النبهاء فأقبلوا عليه فغمهم عبق فضله ، وبهرهم نور علمه وعقله . واذ كانوا في حاجة الى أستاذ يدرس في المدرسة «السلطانية» بعض العلوم الدينية والعربية على طريقة تلائم روح العصر الذي يفيض على الطالب باستيعاب معلومات جمة في أوقات وجيزة ، ذكروا له حاجتهم ورغبوا اليه أن يتسلى عن غربته بخدمة ملية هو أعرف الناس بجليل فائدتها . فلبى دعوتهم ودخل المدرسة في مبتدأ سنتها الثالثة عام ١٣٠٣ هـ . ولم يكن يدرس

فيها من تلك العلوم الا مباديء النحو والصرف مع شيء من فقه العبادات وقوانين الدولة، فوضع جدولا جديداً للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي، وذلك للصف الاول والثاني حتى لقد كانت تستغرق دروسه في بعض الايام ساعات النهار بتمامه . ومن الغريب ان نشاطه في آخر درس لم يكن يقل عن نشاطه في الدرس الاول، بل كان يرى في تزايد ماتناقص النهار ، وكانت دروسه كلها على نحو ماذكره في مقدمة رسالة التوحيد وأماليه يلقيها على الصفوف كل بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله» ماعدا فقه المعاملات فانه كان يقرأ فيه كتاب (مجلة الاحكام العدلية)

ولما تفتقت أذهان التلامذة وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسما من اشارات ابن سينا وفي المنطق «كتاب التهذيب» واستمر على الاملاء في التاريخ والمعاني . وجرى في الانشاء على شرح مايستظهره التلامذة من كتاب الالفاظ الكتابية « ونهج البلاغة » و « ديوان الحماسة »

لم تمض على هـذا المنوال الشهور الاولى من السنة حتى دخلت المدرسة في طور جديد لم تك تعرفه من قبل، وما كان إدراكه في تلك البرهة اليسيرة لأحد من عمدتها بالحسبان : كان يجد التلامذة المدرسة حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق، وكانت لاتمضي الايام الاولى من السنة المدرسية التي تستغرق عادة في تنظيم الصفوف وترتيب المضاجع واعداد اللوازم وتاتي أيام العمل، إلا رافقتها السآمة تبدو على النواصي والملل يتولى النفوس . وما كان يخطر لأحد أن ينظر في أسباب ذلك أو يبحث له عن دواء ، بل كان يظن أن هـذه الحال هي من لوازم المدارس الداخلية ومن مقتضى طبيعتها .

دخل الاستاذ الامام رحمه الله المدرسة معلما ولكن نفعه لم ينحصر في التعليم كالشمس تطلع مضيئة ولكن نفعها الخفي في العوالم الحية وتأثيرها في انتظام الكون باسره لو دريت أجل وأعظم — جال جولة في مناحي الادارة المدرسية وطرق التعليم، فوقف على نواقصها وصعابها فاشتملها بنظر حكمته فاكمل الاولى وذلل

الثانية،وصارت المدرسة وكأنها غير المدرسة،وأصبح علمها وكأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يألف التصور حصول مثل ذلك في مثلها .

خالط مدير المدرسة ومعلميها وكانت هممهم تقف عند القيام بالوظيفة قياما آليا ، وأنظارهم تنقطع لدى الغاية القريبة من ضبط هيأة التلامذة وتحفيظهم أشياء من قواعد العلم الجافة . فسما بهممهم الى أفق أعلى من التربية الاخلاقية ، ورمى بانظارهم الى غرض أنبل من مآثر العلم في ترويض النفس البشرية ، فأعظموا إذ ذاك شرف مهنتهم،وجدوا في إدراك مالذهم من كمالاتها،وما لبثوا أن حمدوا مراهم،وقد تبدلت سآمة تلامذتهم ببهجة بدت علي وجوههم ،وقام فيهم النشاط والرغبة في العمل،مقام الملل منه والكسل،وغدا الاستاذ وهو لايخرج من درس، إلا ليدخل في مذاكرة أو بحث . والمعلمون والتلامذة حافون من حوله يلتقطون منثور درره،ويجنون طيب ثمره . وهو يتلقاهم بمحيا طلق،وصدر رحب،متنزلا في محادثتهم الى متناول عقولهم،متلطفا في ارشادهم وتفهيمهم،حتى تغلغل حبه في خلايا قلوبهم،وصاروا يتلذذون برؤيته في غدوه ورواحه وخطراته فيما بينهم .اللهم إلا كسلان او شرس . فان برق لحظاته كان يخطف ابصارهم ، ورعد زواجره يرعد فرائصهم ويخلع افئدتهم،وبدا لتلك الغراس نفضة ازاهر دونها نور الربيع.وتفتحت اكمامها عن نثر يزري ببنات المحار،وشعر دون منظومه قلائد العقيان،مع صحة في المبادي، ونبالة في المقاصد،وتبوؤ لخدمة الملة ، ورغبة في عمل الخير: مما اعظم العقلاء الفضل فيه لصاحبه،وان غيظ اكفاف البصائر من الغيظ .

ولما انقضت السنة المدرسية وجرى الاحتفال بختامها قام احد الادباء وسأله على مسمع من المحتفلين وكانوا زهاء الالف أن يخطبهم في موضوع يختاره، فدهش الناس لهذه الجرأة ولم يسبق لهم عهد بسماع الارتجال،في مقام لايقف فيه واقف إلا بعد المبالغة في الاستحضار والاستعداد،ولكن وقفة الاستاذ الامام على ماحفه الله به من السكينة وجلالة الهيئة، أزالت وحدها تلك الدهشة،واندفع يخوض في موضوع جليل يمكن أن يعبر عنه بمثل هذه الكلمات « علة تأخر الشرق مع وجود بعض الاسباب لتقدمه في الظاهر »

فاستغرق كلامه من الوقت ساعة ونيفا حتى اختتمه مخافة الاملال بالاطالة وسامعوه يودون لولم يسكت ذلك النهار .

ومما يذكره بعض تلامذته من صفات نفسه العظيمة انه لما توفيت زوجه الاولى وتركت له بنت نفاس وليس في بيته أنثى تقوم باعبائه، وهو في دار غربة، رمي ّ محنة، وضحي نكبة، أصابه غم قطعه عن التدريس أياما، وأكبر الاصحاب مصابه واضطربت له المدرسة ، فلما استأنف الحضور تحير التلامذة كيف يقابلونه، وبأي لسان يعزونه ويخاطبونه، فما هو إلا وقد دخل عليهم فسلم وجلس والكل مطرقون منصتون، لايدرون ماذا يقولون ولا مايصنعون؟ فبادرهم بقوله أظن ان النوبة نوبة الانشاء ، فتلجلجت الالسنة ولم تبن، فحل عقدتها بقوله اكتبوا وأملى عليهم :

تعز ّ فان الصبر بالحر أجمل وليس على ريب الزمان معول

حتى أتى على آخر القصيدة ثم أنشأ يشرحها على عادته في مثل ذلك الدرس، فأدرك التلامذة انه يلقي عليهم في صورة الدرس المعتاد، درساً أبعد مرمى وأسمى غاية في الحكمة العملية والاخلاق .

هذا وكانت له غيرة على المدرسة لا يعرف قدرها إلا المخلصون، فكان اذا اتفق له أن مر بها ليلا لايغادرها دون أن يدخلها ويتفقد شؤونها ، حتى لم يطق البعد عنها، فترك منزله في « برج أبي حيدر » ونزل منزلا يقرب منها في « زقاق البلاط » يسهل عليه اتيانها المرة بعد المرة وفي الاوقات المختلفة ، حسبما تقتضيه ساعات الدروس

غير ان ارادة الله الانتقامية في هذه الامة لم تشأ أن ينعقد لعمله الثمرة المرجوة ، إذ ان إزهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال «العسكرية» على مديرها [١] الذي صار له بفضل الاستاذ وحكمة تدبيره من النبالة ولسان الصدق في الناس ، مالم يرضه له أولئك الاوغاد ، فسعوا به فبدلوه بآخر تبايل اللطافة بالخشونة، والحصافة بالرعونة، وجاء خلفه فغير وبدل واضطرب نظام المدرسة فضلت نهجها القويم وغايتها المثلى، وغلت يد الجمعية عن العمل، وفارق

١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ أحمد عباس رحمهما الله ، والظاهر أن أولئك الرجال من مبغضي العرب من الترك . . . :

المدرسة معناها المرسوم فيما تقدم ، فاستقال الاستاذ وقد اصبح العمل ضرباً من العبث، وفي غضون ذلك جاءه نبأ تبدل الوزارة النوبارية بالرياضية، وتلاه بعد قليل صدور الاذن الخديوي له بالعود الى دياره المصرية .

هذا مايتعلق من سيرته في بيروت بالمدرسة السلطانية ، وأما بقية اوقاته فلم تكن تذهب سدى :

لما ظهر من فضله ماظهر، واشتهر من علمه وعمله ما اشتهر، تسابق الناس الى معرفته، وتنافس العقلاء من اهل العلم والوجاهة والادب والنباهة في خطبة مودته، وسأله الكيسون ان يجعل لهم حظا من الفائدة فاجاب سؤلهم ، وخصص ثلاث ليال من الاسبوع يفسر لهم فيها آيا من القرآن الكريم في جامع الباشورة على مثل منهاجه (الاخير) في الازهر، هذا عدا عصريات رمضان من كل سنة، فنسل الناس الى استماع درسه من كل حدب، ولم يرض النبهاء من المسيحيين أن يفوتهم ذلك الحظ العظيم، فكان يقف فريق منهم في باب الجامع العمري على مقربة من حلقة الاستاذ ، ولكن ازدحام الخلق في الداخل وضوضاء السوق في الخارج كانت تحول دون مشتهاهم من الاستماع، فشكوا اليه ضيق صدورهم من ذلك واستأذنوا أن يقفوا لدى الباب من داخل المسجد فأذن لهم. وكذلك تقطروا أفواجا لاستماع درس المجلة (١) وفيهم الشاب عن طوق التلمذة: وصاحب الاشغال التي لاتسمح له بالانتظام في سلك المدرسة، ولا تسمح قوانينها بقبوله، ولكنهم ألحوا حتى رخص لهم في حضور الدرس في الايام المعينة فقط، ومنهم من حضر درس التوحيد أيضاً .

وأما بيته فكان كمدرسة مطلقة تأوي اليه الفئة المتنورة من كل ملة ، فكثيرا ما كنت ترى طلاب الفوائد وفيهم من نعت بالعلامة يقيدون في دفاترهم شوارد الحقائق، ويدونون في صحفهم أوابد الدقائق، التي كانت تأتي على لسان الاستاذ في غضون الحديث ، وفي ليالي رمضان كان يستقرىء خصيصاً له من تلاميذه (٢) السيرة النبوية على مسمع من الزائرين مدة ساعة من بعد العشاء ، ابتعاداً عن اللغو الذي يقضي فيه المتسحرون ساعات الليل حتى السحور ، وقرأ في بعض الايام لطائفة

---

(١) أي مجلة الاحكام العدلية (٢) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل

من طلبة العلم درساً في المنطق: وقرأ أيضاً لتلميذ له (١) بعضا من « قسم الكلام » من كتاب التهذيب

وما خلا من أوقاته عن شغل في تدريس، أو حديث في مؤانسة جليس، كان يملؤه إما بكتابة الفصول المتنوعة التي كانت تدعو اليها المناسبات الزمنية ، أو ملاحظاته الحكمية ، ومن تلك الفصول ماتربو قيمته في النفع على كثير من المجلدات، وفي ثمرات الفنون غير واحد منها (٢) وإما بتأليف تمس اليه حاجة طلاب العلم وروام الادب، أو يرى فيه فائدة للدين

فترجم أثناء اقامته في بيروت « رسالة الرد على مذهب الدهريين » لوليه الحميم الحكيم السيد جمال الدين الافغاني وصدرها بمجمل من سيرته ، وشرح « نهج البلاغة » لامير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، وكتب رسالة مسهبة في اصلاح التعليم الديني وجهها الى المشيخة الاسلامية عند ما بلغه عزم الدولة على شيء من ذلك (٣) هذا عدا عن الاجوبة والرسائل الخصوصية التي ما كانت تخلو من فائدة عمومية أو شخصية

وقد رحل خلال تلك المدة الى بيت المقدس ودمشق الشام وبعلبك وطرابلس وتجول في انحاء لبنان وهو كيفما رحل وأينما حل ينتهز الفرصة لنفع الخلق عامة، مولياً وجهه شطر غرضه السامي النبيل من نشر العلم الصحيح ونصرة الدين المبين، ورفعة المسلمين .

وهو وان لم ينج في بيروت من أذى المشاغبين إلا انه كان يحبها، ويتوسم الخير في ناس من أهلها . وان أثر فضله فيها لاينمحي ماتواصلت عقول تدرك الحق، وتعاطفت قلوب تحس بحسن الصنيع .

جزاه الله أحسن ماعمل بمنه وكرمه اه

---

(١) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل نفسه أيضاً رحمه الله

(٢) بينا فى حاشية سابقة مكان هذه المقالات في الجزء الثاني من هذا التاريخ

(٣) بينا في حاشية سابقة مكانها في فصل اللوائح من منشئاته في الجزء الثاني أيضا

نبذة ثانية من سيرته في بيروت

بقلم تلميذه ومريده أمير البيان الامير شكيب ارسلان

منذ حداثة سني كنت أقرأ الجرائد . ولما حدثت الحادثة العرابية سنة ١٨٨٢ بمصر كنت ابن اثنتي عشرة سنة فكنت أتتبع وقائعها، وأتحرق عند ضرب الانكليز للاسكندرية ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري ، وأحسب حساب بقائهم فيه . وعند ما انتهت الفتنة وشرعوا في محاكمة الذين حاكموهم ونفوهم الى خارج القطر ، قرأت في أخبار المحاكمات نص يمين قيل انها من انشاء الشيخ محمد عبده . وكانت هذه أول مرة سمعت فيها هذا الاسم ، أما نص اليمين فرأيت فيه أسلوبا عاليا غير الذي كنت أعهده، ولم أكن يومئذ بالذي يقدر أن يعرف مزايا الانشاء ولكني كنت أميز منها العالي من النازل بمحض الشعور ، فوقع في نفسي شيء من هذه اليمين، ورأيت ان منشئها الشيخ محمد عبده ليس كغيره من المنشئين الذين نعرفهم . ثم نفي العرابيون الى خارج القطر سنة ١٨٨٣ فورد منهم بيروت الشيخ محمد عبده وابراهيم افندي اللقاني وعدد من ضباط الجيش المصري أحفظ من أسمائهم مصطفى بك عبد الرحيم وأحمد بك عبد الغفار وحسن بك جاد ومحمد بك الزمر وخضر بك وغابت عني أسماء الباقين وكلهم بين أمير الاي وقائمقام وقائد ألف . وكنت في ذلك الوقت أحصل العلم في مدرسة الحكمة . ولما دخلت سنة ١٨٨٥ قرأت في مجلة الطبيب التي كان ينشئها الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتوران بشاره زلزل وخليل سعادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها « العروة الوثقى » من قلم السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده . وكنت بدأت أسمع باسم الافغاني وكانوا يقولون ان أديب اسحاق هو ممن أخذوا عنه ، وفي هاتيك السنة توفى أديب اسحاق واهتز عالم الادب لموته، وكنا أصبحنا يومئذ في المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء والادباء لا يهمنا شيء أكثر من هذا، فكنا نرى الدنيا كلها نظما ونثراً ، وكان كل ما خرج عن الانشاء

والشعر والادب لانكاد نقيم له وزنا . فلما سمعنا ان أديب اسحاق كان يغترف من بحر الافغاني صرنا في شوق زائد الى معرفة الافغاني نفسه والى معرفة تلميذه ورفيقه الشيخ محمد عبده .

ولم تمض أشهر حتى سمعنا ان الشيخ محمد عبده عاد من باريز الى بيروت . وكان أهل الفضل في سورية بدأوا يعرفون قدره ، وكثر تردد الناس عليه ولهجهم بذكره ، ومرة زارنا في المدرسة الاستاذ الشيخ سعيد الشرتوني صاحب أقرب الموارد فسألته عنه فقال لي : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد تشوقنا الى معرفته ، وفي أواخر سنة ١٨٨٦ جرت حفلة بمدرسة الحكمة كان الاستاذ الشيخ محمد عبده من جملة المدعوين اليها . فهذه أول مرة شاهدته فيها ، وبعد ذلك شاهدته في احتفال آخر السنة بالمدرسة الكلية الامريكانية، وكان معه الشيخ عبد القادر افندي القباني صاحب جريدة «ثمرات الفنون» وأحد أعيان بيروت المشار اليهم بالبنان ، وكان صديقا للاستاذ الامام، وكنت أعرفه فقدمني الى الاستاذ وسلمت عليه فظهر لي انه كان يعرف اسمي لاني أنا لذلك العهد كنت أنظم وأنثر، وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد، فأتذكر انه قال لي: « أنت ستكون من أحسن الشعراء » فأخذنا من ذلك الوقت نزور الشيخ الى منزله . وكان يسكن في حي زقاق البلاط قريباً من منازل آل حماده وآل القباني، ويسمر كل ليلة في دار الحاج محيي الدين حماده رئيس البلدية وعميد بيروت في وقته ، فكنا نحن وكثيرون نقصد السمر هناك لسماع أحاديث الاستاذ . وقد انطوى أكثر من كانوا ينتابون ذلك المجلس من الاعيان والفضلاء ، ولم يبق منهم الى اليوم فيما أعلم سوى الوجيه الكبير الفاضل الجليل الشيخ عبد القادر افندي القباني والفاضل الاديب الشيخ محمد اللبابيدي . وزارنا المرحوم الاستاذ في منزلنا بالجبل وتعرف الى والدي رحمه الله وسر والدي كثيراً بمعرفته، وقدره قدره، وصار لا ينزل مرة الى بيروت إلا يزوره. وكان الشيخ أيضا يجل والدي كثيرا وقال للاستاذ الشرتوني عنه : انه أعقل من رأيت من أمراء الجبل .ولما توفي والدي الى رحمة ربه في أواخر سنة ١٨٨٧ كان الشيخ من أشد الناس عليه حزنا ولنا مؤاساة ومؤازرة

وكان الشيخ رحمه الله يقرأ التوحيد والفقه في المدرسة السلطانية في بيروت. فحضرت عليه أنا والمرحوم أخي نسيب درس مجلة الاحكام العدلية، وأما تلاميذه في التوحيد فأذكر منهم أخاه حموده عبده الذي كان نبيهاً وكان الشيخ يتوسم فيه الخير والسيد عبد الباسط فتح الله الذي هو من انبغ خريجي الاستاذ الامام وأجل من أخرجته بيروت في هذا العصر وكل منهما قد لقي ربه .

وكانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة لأهل سورية فانه مامضت مدة إلا وقد أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصاً بالزائرين الذين كانوا يقصدون إلى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضرته، والالتقاط من درره ، وصار للناس ولوع به ، فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلدونه في لفظه، ويتابعونه في رأيه، وان كثيراً من الافكار والمباديء والالفاظ والجمل السائدة الآن في بر الشام هي من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده ، لاشك في ذلك وان كان الآن قد خفي أصلها ، وانطوت نسبتها (١)

وأجمع السوريون على إجلاله والولوع به إجماعا لم يقع مثله لأحد ، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء تزدحم حول ذلك المنهل العذب، وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم، كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم ، ونظراً لكثرة ترددي عليه أقول اني أعلم من

(١) مما يدل على قول الامير شكيب هذا ما حدثني به الاستاذ الامام قال : ألقيت مرة خطابا في حفلة عامة جعلت موضوعه (العلم للاسعاد كلمة الله للايجاد) فجاءني بعد زمن قسيس سوري من المعلمين في إحدى المدارس بمقالة لخص فيها ذلك الخطاب وقال ارجو ان تصحح لي هذه المقالة فانني اريد نشرها فصححتها له وحذفت منها عنوانها الذى هو (العلم للاسعاد كلمة الله للايجاد) وقلت له اختر لنفسك عنوانا غير هذا ، قال هذا عنوان عظيم لا يمكن تغييره، قلت اذاً لا آذن لك بنشر المقالة فانها كلها من كلامي و قد صححت لك ما أخطأت فيه من نقله، واستبقيت لنفسي هذه الكلمة فلم تطب نفسي بالسماح لك بها فان لم ترض بذلك فما انا بالذي يسمح لك بشيء من المقالة قال رضيت

هذا الامر ما لا يعلمه غيري،فطالما لقيت بمجلس الاستاذ أصناف الملل والنحل وهي تفهم منه وهو يفهم منها ، وتجلت لي هذه المسئلة(عظمة الفلسفة) بين العلوم وكيف انها تسهل فهم كل شيء،ومزية الادمغة التي حشوها الحكمة وطرازها التصوف،وظهرت لي محاسن الانظار الشاملة التي أفقها اوسع وأعلى من سائر الآفاق. فقد كان يجتمع بحضرته علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقال الدروز ، والى جانبهم اساقفة النصارى وأحبارهم من كل فريق منهم ،وكانوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً ،ويجدون فيه مرجعاً عاما

ثم انه لم تكن تلك المجالس تخلو من المباحثات الدينية ، ومن الخوض في أمور كل هؤلاء الناس مختلفون فيها ، وكان الشيخ يجول فيها، ويأخذ ويعطي ويشرح ويوضح على عادته ، وينتهي الامر بأن الجميع يكونون على وفاق، وان كل فئة منهم ترى أن الشيخ قد فهم ما أرادت وانها هي قد فهمت ما أراد

وأغرب من هذا ان ذلك المجلس لم يكن يخلو من الملاحدة والمعطلة الذين كانوا يقصدون إلى مجلس الاستاذ ليسمعوا اقواله في الالهيات والاديان ، ويروا ماعنده في الخالق والمخلوق وأشباه هذه المباحث،فكان الاستاذ يناظرهم بكل تؤدة، ويحل لهم المشكلات التي كانوا اذا سألوا عنها غيره من العلماء اعجزهم الجواب عنها ، فكنت تراهم منصتين اليه حيارى أمامه،لا يدرون ماذا يقولون،مع انهم يكونون قبل حضورهم في مجلسه قد آلوا انهم يعجزونه كما اعجزوا غيره . وبالاختصار لم اعلم احداً تمكن من ان يبدي امامه في باب الجحود أكثر من اعتراض او اعتراضين،ثم لم يلبث ان وقف حماره في العقبة ، وخرج من حضرة الشيخ إما راجعاً الى الايمان بالغيب،او باقياً على جحوده مع الاعتراف بالعجز عن الاخذ والرد مع هذا الرباني المنقطع النظير

ومن اسرار عبقرية الشيخ في العلم والادب انه كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب او عقيدة من العقائد التي اصحابها من عمار مجالسه وان كانوا مخالفين له في العقيدة ، وكان من الكياسة وحسن المخالقة بحيث لا يسمع منه احد من هؤلاء كلمة واحدة تسوءه او تشير الى تخطئة مذهبه، او اظهار ما في

الاسلام أو مافي مذهب اهل السنة والجماعة من الفضل عليه . ولكنه من المحقق ان جميع عمار ذلك المجلس كانوا لا يخرجون منه الا وفي انفسهم إما ميل اكيد للاسلام ، وإما تقدير عظيم لمزايا الدين الاسلامي — برغم الاعتقاد بغيره

وقد طال عجبي من هذا الامر حتى لم املك نفسي ان كاشفت الاستاذ مرة بما لحظته من هذا التأثير، فضحك رحمه الله كثيراً الى ان بدت نواجذه، وعلم اني ادركت هذا السر وقال لي : نعم وأنا ايضا اشعر بما تشعر به ، فقد قلت له «مالي ارى كثيرين من المسيحيين الذين اعرفهم معجبين اشد العجب بملتهم، محتقرين للاسلام في انفسهم، قد عادوا بعد ان عاشروك يذكرون الاسلام باجلال لم يكونوا يذكرونه به من قبل ، ومنهم من إخاله قد تحول مسلماً في ضميره ولو لم يعلن ذلك؟(١)

فالشيخ قدس الله روحه لم يكن يتعمد لا تصريحا ولا تلويحاً ان يظهر لغير المسلمين من زواره وسماره شيئاً من فضائل الاسلام او من خصائص القرآن(٢) بل كان يتنكب طريق الجدل معهم ، والتعرض لأي شيء يؤخذ منه الرد عليهم ، وانما كان يقول ما يعلم من القضايا التي يسئل عنها ، ويفيض في شرح الغوامض وحل المشكلات بالطريقة التي لم يعهدوا مثلها والتي عمدتها الفلسفة الاسلامية ، فكان مجموع كلامه يؤثر فيهم ، ويعلي مقام الاسلام في نظرهم، ويريهم انهم لم يكونوا يعرفون عن الاسلام شيئا تقريباً ، والحقيقة انهم كانوا يتصورون الاسلام بالصورة التي تركتها في اذهانهم كتب الافرنج من تأليف الفئة المتعصبة وهي الكتب التي لم يكونوا يقرءون غيرها في مدارسهم في هذا الموضوع ، وكانوا اذا اختلطوا مع المسلمين لم يجدوا منهم الا عامياً جاهلا، او شيخاً جامداً لا يعرف من الاسلام الا قشوره ، فكانوا يظنون ان الاسلام هو هذا ، ويقيسونه على الذين تمثل فيهم ممن لم يعرفوا سواهم ولم يحتكوا بغيرهم .

وربما وجد في البلاد فقهاء وعلماء اجلة من المسلمين ولكنه كان يغلب عليهم الجمود احيانا، وكان منهم من يخشى العامة فلا يتجرأ على تخطئة خرافات

---

(١) اظن انا ان من هؤلاء الشيخ سعيد الشرتوني وسأنشر من مكتوباته ما يشعر بذلك ولا سيما تقريظه لرسالة التوحيد (٢) بل كان يتعمد ألا يظهره وهو يقصده

الحشوية عانا ، وأكثرهم لم يكن له اختلاط بالمسيحيين ولا وقوف على احوالهم ، واذا راجعه احد من هؤلاء في شيء لم يكن إلا لاستفتائه في مسألة من مسائل الحقوق أو المعاملات الدنيوية. فالعشرة بين الفريقين كانت محدودة جداً، ودائرة الاختلاط كانت ضيقة ، والجمود كان غالباً على علماء الاسلام هؤلاء ، والمبادىء الحشوية كانت مستفيضة فيهم

على مثل هذه الحالة قدم الشيخ محمد عبده الى بيروت وظهر فضله وسطعت شمسه، فاختلط به ادباء المسيحيين وعلماؤهم ورؤساؤهم فرأوا منه غير من عرفوا الى ذلك العهد، وبعد أن كانوا يرون في الاسلام شيخاً معمما قصير أمد الفكر، او بالكثير فقيها جامداً متورعاً ، صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الاستاذ الامام اياه فقيهاً نيراً وفيلسوفا كبيراً واجتماعياً محنكا ، وهناك شاهدوا الاسلام كما كان عليه مثل الغزالي او كما كان عليه ابن رشد وكما كانت عليه تلك الطبقة العليا

وكما أن المسيحيين في سورية شاهدوا من الشيخ عالما مسلماً لم يعهدوا نظيره، كذلك المسلمون أنفسهم على اختلاف طبقاتهم كانوا مقرين بفضله، موفرين لقدره، وكان ناشئتهم معترفين بان هذا الاسلوب أسلوب لم يعرفوه من قبل . وقد كان الاستاذ يجل من علماء سورية بنوع خاص الاستاذ الشيخ حسين الجسر الطرابلسي رحمه الله لانه كان عالما مفكراً واسع النظر مهتما بالجمع بين الشريعة والاوضاع العصرية، وطالما سمعت من فمه الثناء على الاستاذ الجسر كما ان الاستاذ الجسر كان معجبا جداً بالشيخ محمد عبده معترفا بعبقريته. وقد ذكر لي ذلك إحدى المرار، ولم يأخذ عليه إلا شيئاً من حدة المزاج . فقد كان الشيخ يومئذ لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من العمر ، وكان من أصله عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، مرهف الاحساس، فربما جرى لسانه بسائق التأثر بما لم يكن يجري به لو لم يكن متأثراً

وفي سنه ١٨٨٩ ذهبت الى دمشق وكنت في السنة التاسعة عشرة من العمر فحضرت مجلس مفتي الشام العلامة الشيخ محمد المنيني ففي أثناء الكلام جرى ذكر الشيخ محمد عبده وكان المفتي يعرفه فأثنى عليه كثيراً وقال ما معناه انه مع

العلم الوافر متصف بالكياسة والرقة، جامع بين أدب النفس وأدب الدرس ، يشبه في هذا أكابر علماء الشام واستانبول

وقد زار الشيخ إذ هو في بيروت كثيراً من حواضر سورية ومدنها كدمشق وطرابلس وبعلبك وصيدا والقدس وغيرها وكان أينما حل معززاً مبجلا محفوداً محفوفا بالمستفيدين . وكانت أخلاقه تسير جنباً إلى جنب مع معارفه، فكان مثالا للعلم مع العمل، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مطعناً أو مغمزاً ، أو يلحظ منه مايخل بالوقار أو الكرامة او الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة مالم يكن إلا لكبار الشيوخ من المعمرين مع انه كان شابا . ولم يكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سمة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء المزدان بالعفة ، ومن الفصاحة المتحلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تاما، وكان عظيما من كل جهة . ولقد كان المختلطون به بصورة دائمة عدداً لايكاد لايحصى من كل الطوائف، ولم أعلم أحداً من جميعهم قدر أن يقول فيه كلمة سوء ، او أن ينتقد منه قولا او عملا يخل بالكمال، وهو لايكاد يوجد وحده إلا في وقت النوم . فأما في سائر أوقاته فقد كان محاطا بالزائرين . فالذين طعنوا فيه إن كانوا طعنوا عن جهالة بدون عمد او عن نبأ لم يتبينوه فسامحهم الله ، وإن كانوا طعنوا عن حسد أو شنآن حملهم على القول بغير علم أو بما لايعتقدون فحسبهم الله .

وقد سمعت في تلك الايام بعض أناس يجهرون بعداوتهم للشيخ لكنهم لم يكونوا يطعنون في أخلاقه ولا في دينه ولا في أدبه ، وغاية ما كان ينسب إلى الشيخ من العيوب وجل من لا عيب فيه هو الحدة فقط ، وهو عيب أستاذه السيد جمال الدين فقط . وقد كان تأهل من بيروت وأهله هي كريمة الحاج سعد حماده أخي الحاج محيي الدين حماده فكانت صلته بهذا البيت تحمله في المنافسات والمخاصمات السياسية المحلية على الذب عنه بفصاحته وقوة حجته ، مع اعتقاده التام بنزاهة مقصده ، فكان يتحمل بسبب هذه النصرة لهم شطراً من إصر العداوة وتوابعها . وكان بعض الساخطين من أجل ذلك يقولون ماللشيخ والتدخل في هذه الامور التي لاتعنينا الا نحن أهل

بيروت فكان الاولى به أن يبقى فوق هذه الاحزاب ؟ ولم يكن أحد يزيد في انتقاده على كلمة انه جاد المزاج ، وكان والدي يقول لي انه لم يجد فيه إلا عيباً واحداً وهو ان لسانه حريف اذا غلب عليه الانفعال

ومن غرائب مزاياه أنه كان مع تلك المهابة التي فيه،وذلك الشمم الذي يتجلى من جميع نواحيه،من أرق خلق الله طبعاً ، وأعظمهم وداعة وتواضعاً ، وأحلاهم عشرة ، وأحبهم للفكاهة ، وأطربهم للنكتة ، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيب وافر . وكان للطرائف واللطائف من محاضرته حظ سافر،ولكنه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كامة بذيئة ولا لفظة ينبو عنها المجلس ، ولا قصة يشمئز ذو تربية حسنة من سماعها . فقد كان جلال الاستاذ لايفارق مجلسه أبداً ،وكان وقاره يرفرف على أحاديثه دائماً.فهو نادٍ زاهر إن عرف النكتة او النادرة فلم يعرف قط اللغو ولا اللهو . وكان أحد أصدقائه الاجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومراراً صرح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة، التي تغلب على بعض الالسنة.فكان في هذا الامر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فانديك الامريكاني الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة . وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جداً هذه المزية فيهم،ويعجب بآدابهم في مجالسهم حتى آداب العوام منهم (١)

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلا انه كان سخي النفس كثير البر ، ينفق مابيده ولا يعرف للمال قيمة . وكان يمد سماط الاكل في محل الاستقبال ويدعو أي من حضر اليه،وكان يحب السخاء الدائم والسماحة الفطرية بدون تأنق ولا تصنع . وكان والده يرسل اليه مايلزم لمعيشته فلم يحتج

---

١) ذكرت في حاشية قريبة انه غاظ في الانكار على محمود كحيل من تلاميذ المدرسة أن رأى معه ديوان شعر فيه بيت في وصف الردف وألقاه بعيداً كالقذر

في أثناء وجوده في بيروت إلى شيء ولا ضاقت ذات يده ولا مرة ، وكان يوازن موازنة تامة بين الراتب الذي يأتيه من أبيه وبين نفقاته فلا تجد بودجة أحسن انتظاما من بودجته، ولذلك لم تكن تجده عائلا أبداً (١) وكان يتصدق على الفقراء ولا يرد سائلا ، ومن مزاياه انه كان لا يقبل من أحد شيئاً من شدة انفته، إلا الهدايا التافهة من خاصاء أصحابه لا غير

وكان من السياسة والكياسة بالمقام الأعلى فلا تجد زائره ولا عشيره إلا راضياً، ولم تكن تحمله شدة الالفة على اطراح التكلف فقد كان يقوم حتى لتلاميذه ومريديه ، ودخلت عليه مرة وكان عنده المرحوم منح بك الصلح فتمثل واقفا لي فقال منح بك : ماظننت الشيخ يقف لك . فقال له : أنا لست ممن يقول اذا وقعت الالفة، ارتفعت الكلفة

ولم يكن يطرأ على بيروت احد من معارفه او من الاعيان المشهورين إلا وقام بسنة السلام عليه . وقد يجله ويحتفي به ولو كان مخالفا له في العقيدة ، ولم اجده احتفل بأحد اكثر من احتفاله بعباس افندي البهاء رئيس البابية مع ان الطريقة البابية هي غير مايعتقد الشيخ وهي الطريقة التي رد عليها استاذه السيد جمال الدين رداً شديداً ، ولكنه كان يكرم في عباس افندي العلم والفضل والنبل والاخلاق العالية (٢) وكان عباس افندي يقابله بالمثل ، وكان ينصف الناس كثيرا ولا يبخس احداً شيئا من اشيائه، حتى انه ذكر لي مرة مايجده في نفسه من انصاف غيره حتى من اعدائه وقال لي : اني لأحسد نفسي على هذا الانصاف

---

١) ذكر لي رحمه الله ان أحد أصحابه المصريين توفي والده في بيروت فجاءه يقول انه ليس معه مايجهزه به بما يليق بكرامته وكان مع الاستاذ راتبه الشهري كله فبذله له كله . ولكنه ماعتم أن جاءته حوالة برقية بمبلغ من المال أكثر منه كان دينا له على بعض أصحابه قبل النفي وكان يمطل به ويسوف

٢) قد علمت من الاستاذ الامام انه يعتقد ان عباس افندى مسلم محب للاصلاح كما كان يظهر له عملا بقاعدة التقية ولا سيما عند أمثاله الباطنية . وكان عباس افندي يصلي مع الاستاذ الجمعة والجماعة وسأفصل هذا في موضعه من هذا التاريخ

ومن بعد ان صرت من مريديه لم اسمع منه كلمة تقريظ لشيء من اعمالي او اقوالي، بل كان اذا استحسن يسكت، واذا استهجن ينبه ويوقظ . وكان الواحد منا يتجنب اقل التسامح مع نفسه خوفا من توبيخه لشدة ما كنا نوقره ونهابه.

وكان من اصدقائه الدكتور ابراهيم صافي وهذا لم يكن طبيبا شهيرا فحسب بل كان فاضلا صدوقا حسن العشرة ، فكان الاستاذ يزوره في الاحايين وكنت اصحبه في هذه الزيارات، ففي إحدى المرار سأله صافي عن ادباء العصر ومن الجملة عن أديب اسحاق . فقال له عن اديب : هو كاتب لا بأس به ، فقال له صافي: والشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال الشيخ: هو اكتب من اديب بكثير بل هو اكتب المعاصرين فيما ارى ، ثم التفت صافي نحوي مبتسما وقال للشيخ : والامير شكيب؟ فقال له : سيصير في المستقبل ، فقال له صافي: اتراه سيكون مثل الشيخ ابراهيم اليازجي ؟ قال له الشيخ : لا ، قال له صافي : ألا يقدر ان يكون مثل ابراهيم اليازجي ؟ فتبسم الشيخ وقال : مرادي انه سيصير احسن احسن . وهذه هي المرة الوحيدة التي صرح امامي بتفاؤله بحقي

وقد نقلت هذه الجملة لانها من كلماته لا ادعاء بأني جئت مصداقها ، وكان في غالب الاحيان يبصرني عيوبي وينبهني الى تلافي قصوري شأن الاب مع ابنائه

ولم يكن يرغبني في الشعر، وقد مدحته بقصائد هي في ديواني الاول المسمى « بالباكورة » وقدمت الباكورة نفسها له وصدرتها بقصيدة تقدمة له (١) ولم يظهر لي الاهتمام بشيء من ذلك ، ولم يستمطر عارضي في الشعر إلا مرة واحدة وهي انه كان صديقا للمرحوم عبد الله باشا فكري وكان عبد الله شاعراً ناثراً فأشار إليَّ بأن اهديه الباكورة واصحبها بأبيات بمدح عبد الله باشا ، فنظمت ابيات رائية بعثت بها اليه مع الديوان ، فأجابني عليها من البحر والقافية بقصيدة رنانة مثبتة في ديوانه

وكان يقول : لا اقول الشعر ، واذا كان يعترف بالقصيدة الهائية التي قد وهو في السجن على اثر الحادثة العرابية وأنا احفظ منها :

(١) سأنشر بعض هذه القصائد او كلها في الجزء الرابع المتمم لهذا التاريخ ان شاء الله

مجدي بمجد بلادي كـ ت أطلبه وشيمة الحر تابى خفض اهليه

ومنهـا :

احاول الصعب في رأيي فأدركه ولا حسام ولا رمح اروّيه

وانما الفكر يغني نفس صاحبه عن الجيوش اذا صحت مباديه

ولم تكن رغبته عن نظم الشعر بالتي تمنعه من الاهتزاز لجيد الشعر والافتتان بغرر القريض . فقد كان يكاد يسكر من قراءة هـذه الطبقة العالية من الشعر لا سيما الشعر الجاهلي ، وقرأ ديوان الحماسة في اثناء مقامه ببيروت فحفظ منـه الـكثير، وكان يبلغ من شفوف حسه ورقة شعوره انه يعيد البيت الواحد مراراً متعددة وهو يترنم به ولا يرتوي منه ، وأحسبه قد فعل في نفسه سحر البيان ماتفعله الالحان في السامع ، او بنت الحان في الـكارع(١)ولشدما كان يعجبه :

اذا هزه في عظم قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك

وقوله :

يخالط ملس الصخر لم يكدح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر

وكان يعجبه في التشبيب قوله

١) أما دقة فهمه وذوقه للشعر فهو من دقة فهمه للعربية واتقانه لآدابها . وأما تأثيره في نفسه فهو من رقة شعورها وصحة وجدانها . وكنت في بعض المناسبات أذكر له بعض الشعر المؤثر في النفس فلم أره اهتز لشيء هزته لقول بثينة اذ نعى اليها جميل . ذلك ان جميلا لما حضره الموت أعطى رجلا حلة له وأمره بأن يسافر الى ربع بثينة ويقف عند بيتها وينشد :

صرح النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفول

فلما سمعته بثينة لم تملك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له : ياهذا إن كنت كاذبا فقد فضحتني، وإن كنت صادقا فقد قتلتني . فأخرج لها الحلة فانصرفت وهي تقول

وان سلوي عن جميـل لساعة من الدهر لا حانت ولا حان حينها

سواء علينا ياجميـل بن معمر اذا مت بأساء الحيـاة ولينها

فاهتز الاستاذ لسماع هذا النثر والنظم وتغير وجهه ثم صار يردد البيت الثاني مراراً وفاقا لما روى الامير عنه

وقربن اسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن أصبعا

وقوله :

أحقا عباد الله أن لست ذاهبا ولا جائيـا إلا على رقيب

وكان يفضل محمود سامي على جميع الشعراء المعاصرين ويقرنه الى كبـار المتقدمين . وهو الذي دلنـا على شعره وعرفنا بمقامه واطلعنـا على « الوسيلة الادبية » للمرصفي فحفظنا مافيها من قصائد محمود سامي باشا البارودي . وأما مراسلاتي الشعرية مع محمود سامي فيما بعد أيام كان منفياً بسيلان ثم بعد العفو عنه وإيابه الى مصر فقد كانت بعـد أن برح الاستاذ بيروت وعاد الى مصر . وكان محمود سامي من أحب الناس الى قلب الشيخ فلم أعلم أنه كان يذكر أحداً من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامي رحمهما الله وكان يتأوه على غربته ونكبته مالا يتأوه على أحد . ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة وذلك سنة ١٨٩٠ عند مازرته إلى مصر فمررنا امام دار فيحاء فوقف ونظر اليها وقال لي : هذا بيت صاحبنا، وتنهد عند هذه الكلمة تنهداً عميقا فسألته : دار من هي ؟ فقال : محمود سامي . وكأنه تنهد لا على غربة محمود سامي فقط بل على غربة مصر كلها واحتلال الاجنبي لها

وكان أيضا شديد الحب لعبدالله باشا فكري لايفتأ يذكر محامده ومتانة دينه ورقة أخلاقه ويحفظ من شعره ويعجبه منه قوله خطابا للخديو توفيق

ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ومال به الآمال أقتادها قسراً

ولكنهـا نفس فدتك أبيـة تعاف الدنايا ان تمر بها مرا

وكان يروي ان محمود سامي وعبد الله فكري كانا يتساجلان في إحدى السهرات فكان أحدهما يقول شطراً والآخر يقول الثاني فقال أحدهما

وترى المجرة في السماء كأنها

فقال الآخر رز تبعثر في طريق المحجر

وطريق المحجر طريق واسعة معروفة بمصر . وكان يروي لنا نوادر كثيرة عن مصر وأدبائها وعلمائها ورجالاتها حتى صرنا كأننا في مصر ونحن بعـد لم

نعرف مصر. وممن كان الشيخ يجلهم كثيراً الاستاذ الشيخ محمد المهدي العباسي شيخ الازهر فقد كان ينوه باستقامته وعدم محاباته في الدين. وكان يجل الشيخ حسونة النواوي والشيخ حسن الطويل ولكنه بالاجمال كان يكره طريقة التعليم بالازهر ويذكر مساويها ويتأوه من اشتغال الطلبة هناك بما يسمونه « بعلم الكراس » وما أكثره في وجوه الاحتمالات، وفي تأويل العبارات، مما أضاع أوقات الدارسين فيما لا فائدة فيه. وبقي ينوح على حالة التعليم في الازهر ويندب جمود العلماء الذين فيه وعقم طريقتهم الى أن صار هو صاحب نفوذ في مشيخة الجامع فأصلح من ذلك بقدر استطاعته

ولما زرته في مصر سنة ١٨٩٠ قال لرفيقه وخليله الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان بان يذهب معي الى كبار مشايخ الازهر كالشيخ العباسي والشيخ الانبابي والشيخ عبد القادر الرافعي حتى أتعرف اليهم فلما زرنا الشيخ الانبابي وجدنا عنده عالما اسمه الشيخ الظواهري. فلما ذكر الشيخ عبد الكريم اسمي وقال انى من جبل لبنان قال هذا الشيخ المسمى بالظواهري: وأين جبل لبنان هذا؟ أفي الغرب؟

فأجابه الشيخ عبد الكريم: بل في سورية. فأما أنا فكدت أصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ إلى هذا الحد معرفة البلدان. ولما رجعنا الى البيت أخبرنا الاستاذ بما وقع فقال لنا: نعم وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أين جبل لبنان هو من علماء الطبقة الاولى

وهذا وأشباهه كان من أسباب نعي الشيخ على جمود العلماء الازهريين ونفورهم من العلوم العصرية وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء سواها حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر بل ليسوا من أهل هذه الدنيا، ومما جعله يتأوه على فراش موته رحمه الله ويقول

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم

وكان جاء الى بيروت الشيخ ابراهيم التادلي من أكابر علماء المغرب أدى فريضة الحج أولا ومن الحجاز جاء إلى القدس ثم الى بيروت حينما كان الاستاذ الامام فيها، فذهب الاستاذ للسلام عليه وذهبنا معه أنا والاستاذ الشرتوني. ولم تكن

لي ألفة يومئذ بلهجة إخواننا المغاربة فقلما فهمت شيئا مما كان الشيخ التادلي يقوله . وانما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه ، فقال لنا انه عالم على الطريقة المعهودة بالازهر والتي ابتلي بها العالم الاسلامي كله فالازهر والاموي والزيتونة وجامع القرويين كلها واحد، ولم يفهم منه شيئا جديداً الا انه أعجبه من كلامه شيء واحد وهو ان الشيخ سأله : هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم المختلفة ؟ فأجابه التادلي : نعم يوجد مؤلفون في المغرب إلا أن العلم لا ينتشر بقوة التأليف وانما ينتشر بقوة التدريس وكثرة المذاكرة الشفوية . فاستاذنا وجد هذا المعنى صحيحا وقال لنا : هذا أحسن ماسمعته من كلامه . وثاني يوم قيل لنا ان الشيخ التادلي يريد أن يقرأ درسا في الجامع العمري الكبير فأقبلت الناس لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير وذهبنا نحن مع الاستاذ ونحن نرجو أن نسمع شيئاً جديداً أو بحثاً عائداً الى أمراض العالم الاسلامي الحاضر وطرق علاجها مما هو مقدم على كل شيء فاذا بدرس الشيخ التادلي في البسملة وماتضمنته من العلوم والمعارف والفنون مما هو مستفيض في كتب علمائنا رحمهم الله ومما لا شك في ان الاستاذ التادلي أتقنه اتقانا تاما ولكنه دل بهذا على انه غير مطلع على أحوال زمانه ولا مكانه ولا عارف بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الاحوال

وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظاً لا علما ويقول ان العلم الذي لا يمتزج بالنفس ولا يصير جزءاً من أجزائها لا ينبغي أن يسمى علماً

وقد روى عنه الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » مجلساً جرى بينه وبين جمال الدين أفندي شيخ الاسلام في الآستانة من جملة ماذكر الشيخ فيه ان أمثال هؤلاء لا يقال لهم علماء وانما يقال لهم حفاظ لانهم يحفظون عن ظهر القلب أصولا وقواعد لا يطبقون منها شيئاً على فروعها وقال أيضاً : انه جاء في تعريف بعض السادة المالكية للعالم انه الخبير بامور قومه المطلع على أحوال زمنه . اه

[المؤلف] أرسل إلي الامير بعد هذا فصلا آخر في شؤون الاستاذ الامام وآرائه وأصدقائه وتلاميذه ولاسيما سعد زغلول باشا قد استفاد أكثره من زيارته لمصر التي أشار اليها آنفا وسنذكره في موضعه اللائق به من هذا التاريخ . وموضوعنا في هذا المقصد بيان سيرة الامام وعمله في سورية .

خاتمة هذا المقصد

(في سعيه لاقناع الدولة العثمانية بالاصلاح وتعميم التعليم الديني مع التربية)

ذكرنا في أول هـذا المقصد ما كنا نشرناه في المنار ــ ثم ماأشار اليه أخونا المرحوم السيد عبد الباسط في فصله الذي نشرناه بعده ــ من ان الاستاذ الامام كتب الى شيخ الاسلام في الاستانة لائحة في الاصلاح والتعليم الديني ، وأشرنا في الحاشية الى نشرنا لهذه اللائحة في الجزء الثاني وهو (جزء المنشآت) ومن قرأ هذه اللائحة علم منها أن الاستاذ الامام قد تجدد له أمل كبـير في اصلاح الدولة العثمانية من طريق التربية والتعليم الذي لايمكن الاصلاح إلا بسلوكه ، ورأى انه وصف لها ماهي مستهدفة له من الخطر على مقام الخلافة ، ووحدة الأمة ، وقوة الدولة ، بفشو الجهـل في المسلمين وفساد الاخلاق،وسريان شبهات الالحـاد ، ثم بنفوذ الاجانب وتأثير المدارس التبشيرية في البـلاد ، حتى انه خص المدارس العسكرية بالذكر فقال (ص ٥٠٨ طبعة ثانية) ولهذا رأينا كثيرا ممن قرأوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهالا بعقائده ، منكبين على الشهوات، وسفاسف الملذات ، لايخشون الله في سر ولا في جهر ، ولا يراعون له حكما في خير ولا في شر ، وانحط بهم ذلك الى الكلب في الكسب . الخ

ان الاستاذ لم يكتب لائحة واحدة في ذلك بل لائحتين ، كان سبب الاولى منهما صدور ارادة سلطانية لشيخ الاسلام بأن يؤلف لجنة تحت رياسته لاصلاح جداول الدروس في المدارس الاسلامية وتقويمها حتى تكون كافلة لجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلاميـة على وفق الحق المطلوب ، فافترص أحسن الله جزاءه هذه السانحة لتعليم الدولة ماهي في أشد الحاجة اليه من هـذا الاصلاح ، التي لايرجى لها بدونه بقاء ، فبين لشيخ الاسلام ولجنته سوء حال المسلمين في هذا العصر، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل، ووصف سوء حال المكاتب والمدارس الاسلاميـة في بلاد الدولة ، وسوء حال رجال العـلم والدين فيها ،

وطبقات الناس الثلاثة ، وما ينبغي من اصلاح التعليم الديني لكل طبقة منها — وهو التعليم الابتدائي لطبقة العامة ، والتعليم الوسط للطبقة المرشحة للوظائف ، والتعليم العالي لطبقة المعلمين والمرشدين . وبين العلوم الدينية التي تدرس لهذه الطبقة ووسائلها وتاريخ الاسلام والتاريخ العام وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى ـ وهو علم واحد . ومنها فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل ـ وأولها تفسير القرآن.وقال فيه مانصه :

« وهو أهم مايحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا ارجاعهم اليه .ومالم تقرع صيحته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواسي طباعهم، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ماترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم . والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي. فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه. فان احتاج الى وسيلة أخرى فأولاها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمى النيسابوري ومن أخذ طريقهما[1]

وبعد الكلام في التعليم والعلوم وأسلوب التدريس وغرضه عقد فصلا للاصلاح الديني والدعاة والمرشدين الذين يناط بهم وما يشترط فيهم . وخص بالذكر خطب المساجد. ثم بحث في الكتب التي يجب أن توضع للطبقتين الاولى والثانية. وفي الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية فبين كل ذلك بعبارة مقنعة

وأما اللائحة الثانية فقد قدمها الى والي بيروت بعد تقديم الاولى الى شيخ الاسلام وموضوعها (اصلاح القطر السوري) وقد بين فيها وجه الحاجة اليه بالاجمال ثم بالتفصيل . فبدأ ببيان حالة أهالي جبل لبنان وطوائفه من الموارنة وهم الاكثرون ثم الدروز ثم المسلمون السنيون والشيعة . وقفى على ذلك بفصل

(١) راجع ماقاله لنا في تفسير الكشاف وما أجاب به عن اعتراضنا عليه في ص ٣٩٠

آخر في بيان حال أهالي ولايتي بيروت وسورية . فتكلم عن الطوائف النصرانية وميولهم الى الدول الاوربية ، وعن طائفة النصيرية فالشيعة الامامية فدروز حوران فالمسلمين من أهل السنة ، فأهل البادية من الاعراب المتنقلة . وبين علاقة كل منهم بالدولة وما يجب من الاصلاح والتعليم في الجميع الذي تستقر به سلطتها في البلاد وتتقي غوائل التعليم الاجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي

ولو ان الدولة العثمانية عقلت تلك النصائح واتبعتها لصلحت البلاد، وارتقى العباد ، وثبت سلطانها فيها ، وانتقل نفوذها الديني والسياسي الى غيرها . ولكن رجال الدين فيها كغيرها لم يكونوا يعقلون معنى لاصلاح مدني يستمد من القرآن ومن السنة الصحيحة ومن مراعاة سنن الله تعالى في الاجتماع البشري

وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحريتهم وظواهر نظمهم ، وانما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الاصاغر ، لمن فوقهم من الاكابر ، كالازياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجموا أكثر القوانين ولم يتمموا شيئا منها ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئا . وقد آل الامر بجهل الفريقين الى زوال هذه الدولة من الوجود ، وانحصار دولة الترك المغرورين في امارة صغيرة فقيرة ضعيفة

وكان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يخاف على الدولة هذه العاقبة السوءى ويخاف سوء تأثير زوالها في البلاد الاسلامية ، وقد صرح في بعض مقالات العروة الوثقى بأن خروج القطر المصري من حظيرة سيادتها يفضي الى ذهاب غيره ، وأشار في هذه اللائحة الى الخطر عليها من جهة فساد التربية واهمال التعليم الديني وحلول التعليم التبشيري محله والنفوذ الاجنبي ، وقد سألته سنة ١٣١٥ عن رأيه فيها فقال انها سياج المسلمين في الجملة فيجب عليهم أن يعملوا لانفسهم قبل زوال هذا السياج الضعيف والا صاروا أسوأ حالا من اليهود ، فان اليهود قد تعوضوا من فقد الملك والدولة بما أوتوا من الثروة العظيمة الخ وسأعود الى بيان هذا في الموضع اللائق به من هذا التاريخ

الفصل السادس

فى الطور الثالث من حياته العملية

(وهو ماعمله بعد عودته من منفاه الى وطنه)

(وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة ، أما المقدمة ففي عودته الى وطنه وسعيه للعمل الاصلاحي فيه : وأما المقاصد فهي (١) عمله في القضاء الاهلي (٢) عمله في اصلاح الازهر (٣) عمله في افتاء الديار المصرية (٤) عمله في اصلاح المحاكم الشرعية (٥) عمله في الاوقاف (٦) عمله في مجلس شورى القوانين (٧) عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (٨) عمله في جمعية احياء العلوم العربية — وأما الخاتمة ففي دفاعه عن الاسلام وتدريسه في الازهر ولا سيما تفسيره للقرآن ،)

المقدمة :

ذكرنا في مقدمة الفصل الخامس انه حكم عليه بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين وأن ذلك كان في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ٢٤ دسمبر سنة ١٢٨٢) ومقتضى هذا ان مدة نفيه قد انتهت في أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — آخر سنة ١٨٨٥ م وكان في أثناء ذلك في بيروت مجداً في عمله ، طائراً في جو أمله ، وكان أول أمله تربية نشء جديد في المدرسة السلطانية ، يوجه المستعدين منه الى ما كان ينويه من اصلاح الامة الاسلامية ، وقد كان في آخر عهده مع السيد جمال الدين في أوربة قد ضعف أمله في نجاح سياسة السيد ولا سيما بعد الاضطرار الى تعطيل جريدة العروة الوثقى وتخاذل المسلمين دون مساعدتهما الواجبة ، فقال للسيد أرى أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الارض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الاذكياء السليمي الفطرة فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح ، – فقال له السيد إنما أنت مثبط ، نحن قد شرعنا في العمل

ولا بد من المضي فيه مادمنا نرى له منفذا . أو ماهذه خلاصته من قولها .

ثم انه كان يرجو من وجوده في بلاد الدولة العثمانيـة أن يتمكن من اقناع أولي الامر فيها بما يجب عليهـا من اصلاح التربية والتعليم في المدارس بحسب رأيه ، وأن يكون له عمـل في ذلك اذا هم اقتنعوا بما بسطه لهم من وسائله، وهو ماأشرنا آنفا في خاتمة المقصد الثاني من الفصل السابق (الخامس) ولما طال الأمد ، ولم يستجب لدعوته أحد ، واقتنع بأن الدولة العثمانية غارقة في بحار جهلها، عاد الى وطنه وهو يعلم ان الخديو توفيق باشا غضبان عليه كاره له ، وان الانكليز أصحاب النفوذ الأعلى في البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه ، وصلوا من نار عصبيته الملية والوطنية مالم يعهدوا له نظيرا في الطعن فيهم ، واثارة العالم الاسلامي والشرقي عليهم . ولكنه هو الشجاع الذي لايعرف الخوف إلا من الله عز وجل .

عاد الى مصر في سنة ١٣٠٦ ولا أذكر الشهر الذي عاد فيه، فتلقاه أصدقاؤه ومريدوه بالاجلال ، والسرور والاستبشار ، إلا الجبناء منهم فانهم تجاهلوا وجوده ، وأذكر مما سمعته منه مثلا للصديق الشجاع ، ومثلا للصاحب الجبان ، أما الاول فقد أخبرني رحمه الله تعالى انه كان في محطة مصر مع المحتفلين بلقاء الخديو في عودته من الاسكندرية ، وكان معه صديقه التليد سليمان باشا أباظه ، فرأيا ان بعض الوجوه تتنكره ، والشخوص تستدبره ، فجعـل سليمان باشا يمشي بجانبه متأخراً عنه قليلا ليكون منه كالتابع مع المتبوع ، فجاءه أحد أولئك الجبناء وأسر اليه : من هـذا الذي تمشي معه متأدبا ؟ ألست تعـلم ان أفندينا غضبان عليه ؟ فأجابه رافعا صوته : ان هذا صديقنا وانا نجله لعلمه وفضله ووفائه ، ولم تكن صداقتنا له لاجل أفندينا فنتركها لغضبه عليه .

وأما المثل الثاني فقد أخبرني أنه دخل على مختار باشا الغازي يوم العيد لتهنئته فوجد عنده رجلين من الوجهاء الذين كانوا يعدون أنفسهم من الاصدقاء له ، فلما رأياه داخلا تغيرت وجوهها ، وامتقعت الوانهما ، واتخذا قيام الغازي له سببا لتوديعه والخروج من حضرته بسرعة كأنهما لم يريا الاستاذ

وقد اتخذ داراً له في شارع الشيخ ريحان بالقرب من سراي عابدين فزاره

فيها صديقه عبدالعزيز افندي سلطان الطرابلسي وسأله عن سبب اختيار هذا المكان ؟ فقال : نناطح عابدين مناطحة !

هذا وانه لم يلبث أن تسابق العظماء إلى توفيق باشا يسألونه العفو عنه ،وكان في مقدمتهم بعض أفراد الاسرة الخديوية كما قلت في ترجمته من المنار ،وأخص بالذكر هنا الاميرة نازلي هانم البرزة السياسية المشهورة، وصاحب الدولة احمد مختار باشا الغازي مندوب الدولة العثمانية السامي في مصر ، وكذا اللورد كرومر ، ولم يكن أحد من هؤلاء يعرفه قبل ذلك معرفة شخصية ، ولكنهم سمعوا بفضله ، فشكر لكل منهم جميله ، وكان لتلميذه ومريده الوطني سعد زغلول سعي حميد في ذلك

عفا الخديو عنه بشفاعة هؤلاء التي لا ترد ،وهو يعلم أنه كان خصما قويا للثورة العسكرية،وانما ذنبه عنده أنه كان الروح المدبرة لنهضة الاصلاح السياسي والحركة الفكرية ، وان الحكم العسكري عليه بالنفي لم يكن عادلا . ولذلك قال : ماعفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو الا هذا . ذكرت في المنار أن الثقة أخبر الاستاذ الامام بهذا ، وأقول الآن ان هذا الثقة هو الشيخ البسيوني مفتي المعية الخديوية في ذلك العهد ــ رحمه الله تعالى

نعم ان توفيق باشا كان يعرف رأي الشيخ في التربية الملية والوطنية،وفيما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة ، لان السيد جمال الدين هو الواضع له لذلك،وكان الخديو توفيق قد انتظم في سلك حزبه الوطني الذي أسسه لقلب نظام الحكومة في مصر،وعاهده على تنفيذ النظام الجديد الذي أرشداليه متى صار الامر بيده ،ولكنه لم يلبث بعد توليته ان نفاه من القطر المصري ونفى خليفته الشيخ محمد عبده من القاهرة الى قريته لعلمه بانه هو الذي يتم مابدأ به أستاذه كما تقدم في ترجمة السيد من هذا الجزء

ليس من الغريب غير المألوف أن يكره الامير المستبد تقييد سلطانه، بل هو المعهود من المستبدين في جميع الامم ، وانما الغريب أن يسلب الاجانب سلطة أمير من الامراء ويجعلون امارته صورية يسخرونها في سياستهم ومقاصدهم حتى الضارة بها كما يشاؤن،ثم يكون مع هذا راضيا بهذه الامارة الصورية تحت ظلهم مفضلا إياها على تكوين بها قوة في أمته لا رجاء في رفع السلطة عنها وعنه الاجنبية بدونها

الشيخ محمد عبده كان يريد تربية الامة المصرية وتكوينها حتى تكون مصدر الادارة والسياسة في بلادها ، ويكون أميرها ورئيسها ممثلا لها أشرف تمثيل ، والخديو توفيق باشا كان يكره هذا ويحول دون تمكين الشيخ منه

كان الاستاذ الامام يحب أن يكون أستاذاً لمدرسة دار العلوم - ان لم يمكن أن يكون ناظراً لها - فلما رأى ان الوصول إلى ذلك من طريق الخديو متعذراً أراد أن يحتال لنيل ذلك من طريق العميد الانكليزي ، فكتب اللائحة الثالثة من اللوائح التي نشرناها في ضمن منشآته من الجزء الثاني(١) وقدمها إلى العميد الانكليزي (السرافلن بارنج) الذي أعطى بعد ذلك لقب « لورد كرومر » وفيها من الخلابة والكياسة ما كان يمكن عقلا أن يقتنع به العميد لولم يكن كاتبه والمتصدى لتنفيذه هو الشيخ محمد محرر جريدة العروة الوثقى ،وخبرهذه اللائحة سر لم يكن يعرفه أحد، ولم أصرح به في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار ، ولكن التاريخ الصحيح يجب أن ينطق بجميع الحقائق التي لاضرر فيها على أحد، وما أخرت نشر هذا الجزء منه إلا لأتمكن من هذه الحرية

ولم يكن الاستاذ الامام مع هذا السعي الخفي لتنفيذ مقاصده الاصلاحية من طريق رسمي مضيعا لاوقاته في السعي له بل كان أول ماوجه اليه همه هو السعي لاصلاح الازهر من طريق مشيخته كما سيأتي. ثم إنه كان يقرأ درسا في تفسير القرآن ،أخبرني بهذا الدرس في حديث دار بيني وبينه (في يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ١٣١٥) بداره إذ اقترحت عليه أن يكتب في التفسير فاعتذر بعدم عناية المسلمين بالعلم وبتأويلهم للكتب كما أولوا نصوص الشرع، وأطال في ذلك بما دونته في فاتحة الجزء الاول من تفسير القرآن ومنه قوله

كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم أحد فيما أعلم، مع انها كان حقها أن تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئا خلا تلميذين قبطيين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعاني في بعض مايكتبان ، وأما المسلمون فلا ! ! ! والآن أبين أعماله في مصر مبتدئا بعمله في القضاء الاهلي

(١) راجعها في ص ٥٣٣

المقصد الاول

عمله في القضاء الاهلى

قلنا ان الخديو توفيق باشا كان يخاف من الشيخ محمد عبده أن ينشر أفكاره الاستقلالية في الامة بالتعليم وبالمعاشرة ، فأراد أن يشغله عن ذلك فأمر بأن يعين قاضيا في المحاكم الاهلية ، وان يكون في خارج القاهرة ، فلما بلغ الخبر الاستاذ امتعض وقال انني لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا ، وانما خلقت لأكون معلما ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت. ثم رغب الى ناظر الداخلية أن يشفع له عند الامير باستبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بالقضاء ، وقال له انني اعلم انه لا ارتقاء في التدريس وانني أرتقي في القضاء إلى أعلى درجة فيه ولكنني لا أحبه ، فلم يقبل الامير هذه الشفاعة وصرح بالسبب فقال انني لا أحب أن يربي لي التلاميذ على أفكاره السياسية ، فرضي بالقضاء ، وما زال يرتقي فيه الى أن بلغ أعلى درجة منه كما قال ، وهي درجة المستشار في محكمة الاستئناف

عين قاضيا في محكمة بنها ثم في محكمة الزقازيق ثم في محكمة عابدين بالقاهرة ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف

وقد كان قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضي المجتهد لا المقلد ، ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الوقائع عليها بادي الرأي ، بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا ، فان انطبقت على القانون وإلا عمد إلى وسيلة أخرى ولا سيما الصلح . ومما كان يحكم فيه باجتهاده واعتقاده مسائل الربا فانه كان اذا تعذر عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا ، وكأين من قضية خالف فيها القانون عمداً ، حتى وشى به بعض حساده الواقفين على ذلك وذكر شيئاً من مخالفاته هذه في تقرير طويل قدمه الى وزارة الحقانية . فسأله المستشار القضائي السابق (مستر سكوت) عن حقيقة ذلك سؤالا عاديا غير رسمي

بعد أن أطلعه على التقرير، فقال الاستاذ: هل العدل وضع لاجل القانون أم القانون وضع لاجل العدل ؟ قال المستشار بل القانون وضع لاجل العدل والعدل هو المقصود بالذات. فأنشأ حينئذ يشرح له تلك القضايا ويبين أنه لم يحكم فيها إلا بالعدل، فاقتنع المستر سكوت وسر منه سروراً عظيما لانه كان منصفا عارفا بقيمة الرجال، على ان هؤلاء الانكليز أبعد الشعوب الاوربية عن الرسوم في القضاء وأقربهم إلى اعتبار الانصاف ووجدان القاضي فيه

وقد أساء الادب بعض الاجانب مرة في الجلسة فأمر بحبسه فحبس، فاضطرب قنصله الجنرال واحتج وكلم وزير الخارجية ولما وصلت الشكوى إلى نظارة الحقانية كلم المستشار القضائي الاستاذ في ذلك قائلا إن هؤلاء القناصل ليس لهم عمل يشغلهم في مصر فهم يفترصون شيئاً مثل هذا يماحكون به الحكومة، ونحن نحب أن لانجعل لهم سبيلا إلى القيل والقال، فذكر له الامام ما كان من ذلك الاجنبي في الجلسة من رفع الصوت وعدم التزام الادب المعروف، وقال انني مادمت جالساً على هذا الكرسي لتقرير العدل فانا لا أقصر في احترامه — أوقال — لا أقبل أن يهينه أحد إذ لا يمكن احترام القضاء إلا بذلك الخ ماقال وكان مستحسنا عند المستشار

وقد كان لا يعتد بمعارضة الاجانب عند تنفيذ مايصدر من الاحكام. من ذلك أن كثيراً من الفلاحين كانوا اذا حكم على أحدهم بنزع أرض من يده يلجأ إلى رجل أجنبي أو رجل يتمتع بحماية أجنبية فيعطيه الارض بعقد كاذب نكاية في خصمه فيمنع الاجنبي الحكومة من تنفيذ الحكم، أو ترفع الدعوى إلى المحكمة المختلطة فتحكم فيها. وكان من المحكوم لهم من يترك الارض للاجنبي لاعتقاده بعجزه عن انتزاعها منه في المحاكم المختلطة، ومنهم من كان يلقي بنفسه في مهاوي الدعاوي ويخسر فيها ماشاء الجهل أن يخسر، فعلى أمثال هؤلاء الاجانب كان ينفذ أحكامه بالقوة متحملا تبعة التنفيذ، لعلمه بان ذلك الاجنبي المحتال لا يتجرأ على مقاضاة الحكومة في دعوى هو فيها مبطل يعجز عن اثبات دعواه

من ذلك أنه حكم مرة بنزع أرض من واضع يد وطني وردها الى صاحبه

الحق الذي ثبت له في المحكمة ـ فقيل له ان فيها رجلا انكليزي التابعية رفع عليها علم دولته وهو يعارض في تسليمها . . فأعطى محضر المحكمة أمراً بأن ينزع العلم ويخرج الرجل المدعي لملكيتها بالقوة ، فلما رأى ذلك الرجل المستأجر لمنع تنفيذ الحكم ان الامر جد، وأنه اذا لم يخرج ممتثلا أخرج مهانا لم ير له مندوحة من الخروج .

وكان في الشرقية رجل سوري محصن بحماية الدولة الفرنسية قد جعل نفسه ملتحداً المحكوم عليهم بأمثال هذه الاحكام في مقابلة جعل يكبر بقدر كبر القضية، وكان يدخل في المحاكمات مع خصوم الملتجيء اليه حتى صار ذا ثروة عظيمة، فلما رأى أحكام هذا القاضي الذي شرف القضاء بعمامته، التي كانت عنوان علمه وعدله وقوة إرادته، ترك هذه الوسيلة الدنيئة لكسب السحت إذ صارت مدعاة خيبة وخسارة واهانة

ذلك شأنه في القضاء وقد كان فيه نسيج وحده ، ولم يكن مشغولا فيه عما خلق لاجله من تربية الامة، فقد كان يعاقب المزورين وشهداء الزور حتى طهر كثيراً من البلاد من شرهم بعد أن استفحل وطغى سيله ، كان يتسقط شاهد الزور حتى يقر فيحكم عليه ويخرجه من الجلسة الى الحبس. ثم ان الحكومة أقرت عمله هذا وأدخلته في القانون بالتعديل له بعده . وكان يجتهد في الاصلاح بين أهل البيوت وذوي القربى ، ويبالغ في حفظ حقوق اليتامى فكم من أسرة كبيرة قطعت العداوة أرحامها ، واغتالت الخصومات ثروتها ، أصلح بحكمته وأحكامه ذات بينها ، وكان مما ثبت عنده باحصاء الدعاوى السنوية ان أكثرها كان بين الاقربين ، وقد قال في خطبة له في الجمعية الخيرية وكان مستشاراً : إن العداوة بين الناس صارت على أشدها للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد ! أي على خلاف ماتقتضيه الفطرة السليمة ووشيجة الرحم وهداية الدين

وكان يطارد الفحش والفجور حتى كادت الزقازيق تطهر من رجس البغايا أيام كان قاضياً فيها كما طهرت من التزوير ، ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التي يسمح له القانون بها على كل بغي تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب . وقد نقل اليه عن بعض المجان هناك أنه قال مرة لبغي يعرفها كيف الحال ؟ قالت زي الزفت ، واذا بقي القاضي ابو عمة

(أي ذو العمامة) هنا فانه يقطع رزقنا من هذه البلد ، عايز يرجع الدنيا لزمان سيدنا النبي ، و قالت أخرى مامعناه ان النبي ظهر ثانية

أخبرني أنه كان اذا رأى أو علم بأن واحدة منهن خرجت الى الشارع متهتكة أو جلست أمام ماخورها متبرجة تغازل المارين أو تغني — أمر بعض الشرطة بسوقها الى المحكمة بذنب إغراء الناس بالفسق المحظور في القانون وحكم عليها بالغرامة أو بالحبس في الحال ، فكن يقلن ياويلتنا بل « يادهوتنا » كيف يعرف الناس بنا اذا التزمنا مايريده هذا القاضي منا من ستر وصيانة وأدب ؟

وقال لي كانت الفاجرة منهن تأتي المحكمة أولا قبل أن يعلمن مايراد بهن متبرجة بهيئتها المنكرة فاذا سألتها ماصنعتك ؟ — على سنة التحقيق — صرحت بفجورها بملء فيها ، فلما عرفني صرن يجمجمن بالجواب مرتعدات الفرائص ، فان أفصحت احداهن لم تزد على قولها : أنت عارف .

وأخبرني انه لما عين لمحكمة الزقازيق الكلية كانت قضايا العدوان والتزوير كثيرة ألجأته الى أن يعقد الجلسات في المساء حتى انه كان في بعض أيام رمضان يستحضر طعام الفطور الى المحكمة فيأكل ويصلي فيها ثم يشتغل بعد العشاء بكتابة بعض الاحكام . ولما اشتهرت سيرته وأحكامه في المديرية كلها قلت القضايا واستراح من العمل ، على ان صحته حسنت في المدة التي كان يكثر فيها العمل .

وقد عرف الذين يختلفون الى جلساته من الخصوم والمحامين وغيرهم عادة من عاداته لم يكن هو يشعر بها وهي انه اذا ثبت عنده إجرام مجرم وأراد الحكم عليه بالعقاب كالقتل وما دونه أمال عمامته على جبهته ، فاتفق انه فعل ذلك مرة فصاح المجرم الذي علم أن سينطق بالحكم عليه « بعرضك اعدل العمة حتى أقول لك الصحيح » فضحك جميع الحاضرين ضحكة الدهشة ، واشتهرت هذه الحكاية في القطر المصري كله .

وأما براعته في تحقيق القضايا وفراسته في تمييز البريء من ذي الريبة فحدث عنها ولا حرج ، وقد كان مؤيداً بالوجدان الصحيح والالهام الصادق ، فان كان كغيره من البشر عرضة للخطأ في رأيه فقد كاد لايخطيء في وجدانه أو إلهامه ،

وسمعته يقول في بحث الكسب والاختيار انني كثيراً ماأنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالادانة مثلا حتى اذا ماتمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيته في ذهني من وجوه ترجيح الادانة، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتما فأحكم بالبراءة ،

وهذا يشبه قول بعض العارفين : عرفت الله بنقض العزائم، والمراد منه ان الانسان غير مستقل الارادة التي هي مناط الاختيار ، فهو مجلى لتجليات من الابداع الرباني غير منتظم في سلسلة الاسباب . وههنا بحث دقيق في إثبات القدر الموافق لمذهب التطور التدريجي في الجملة ، وهو مذهب أهل السنة. وما يعارضه من القول بالأمر الأنف (بضمتين) المراد به ان كل مخلوق مبدع مستأنف وهو مذهب القدرية ، والحق أن القدر هو المطرد في البشر ، وان الأمر الأنف كالاستثناء في القانون، وهو واقع في نفس الانسان ، وفي آيات الله للانبياء ، وحجة على ان سنن النشوء والارتقاء انما تطرد في سلاسل الانواع بعد وجودها، لا في أصل ايجادها كلها ، وقد تتعارض مع سنن غيرها مما وراء المادة الجارية فيها ، وواضع السنن ومقدرها باقدارها ، قادر على التصرف فيها، وترجيح غيرها من السنن عليها. ولا يخلو شيء من ذلك من حكمة بالغة ، وهذا استطراد لا محل هنا لتفصيل القول فيه .

المقصد الثاني

عمله في الازهر

كان أول حديث دار بيني وبين الاستاذ الامام (قدس الله روحه) في مصر الحديث في إصلاح الازهر . زرته في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة بداره (في أواخر رجب سنة ١٣١٥) وبعد التحية والسلام، وما يتصل بذلك من كلام، كاشفته باعتقادي واعتقاد من أعرف من العقلاء فيه وانه بقية رجاء المسلمين في السعي للاصلاح والاضطلاع به، وأنه بلغني انه يعمل لذلك في الازهر. فأفاض في كلام لخصته بعد مغادرة المجلس في عشر مسائل . قال (١) إن إصلاح الازهر أعظم خدمة للاسلام فان اصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم ، و (٢) ان أمامه عقبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم ، و (٣) ان هذا الاصلاح لايتم إلا في زمن طويل ، وانه إذا رأى حال الازهر قد صلحت قبل موته فانه يموت قرير العين ، ويرى نفسه سعيداً بل يرى نفسه ملكا . و(٤) انه لايرى لدخوله في الحكومة فائدة الا الاستعانة على إصلاح الازهر ، فانه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له في الازهر كلام ولا يقبل له رأي ، و (٥) انه لم يحصل شيء من الاصلاح يذكر حتي الآن ، و (٦) انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الاصلاح اغتناما للفرصة فأشير عليه بوجوب التدريج (!!) وانه لابد له من المسايرة وإن كان يخشى أن تضيع الفرصة بما يسمونه التدريج ... هذه ست مسائل في موضوع الازهر أطال القول فيها وانتقل منها الى المسائل الاخرى وأهمها تخطئة أذكياء المسلمين الذين يريدون خدمة الاسلام من طريق السياسة ، أي دون التربية التي توحد قوى الأمة، والى يأس من يعرفه من كبراء المسلمين من نهوضهم وتخطئتهم في ذلك .

وقال لي في حديث آخر ان نفسي توجهت إلى إصلاح الازهر منذ كنت مجاوراً فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين ، وقد شرعت في ذلك فخيل

بيني وبينه ، ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها ، حتي إذا ماصدفت الموانع لويت وصبرت مترقبا فرصة أخرى . وبعد ان عدت من النفي حاولت اقناع الشيخ محمد الانبابي (شيخ الازهر) بشيء فلم يصادف قبولا . قلت له مرة هل لك أيها الاستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الازهر ؟ ووصفت له من فوائدها ماشاء الله أن أصف ، فقال ان العادة لم تجر بذلك. فانتقلت به في شجون الحديث الى ذكر الشيوخ وسألته منذ كم مات الاشموني والصبان ؟ قال منذ كذا ، قلت انهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد ان لم تجر العادة بذلك . فسكت ولم يدخل في الحديث

وقال لي مرة أخرى ان بقاء الازهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه . وانني أبذل جهد المستطيع في عمرانه فان دفعتني الصوادف الى اليأس من اصلاحه فانني لا أيأس من الاصلاح الاسلامي بل أترك الحكومة وأختار افرادا من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفا لي في خدمة الاسلام ثم أؤلف كتابا في بيان حقيقة الازهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وأنشره باللغة العربية ولغة إفرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهلها الناس حتى من أهله

ثم انه لما اضطر الى الاستقالة من ادارة الازهر على الوجه الذي سنبينه عزم على بناء محل بجانب داره بعين شمس والسعي لاختيار نفر من الاذكياء السليمي الفطرة وتربيتهم فيه بمساعدة مؤلف هذا الكتاب وهو ما كان اقترحه على السيد جمال الدين كما تقدم

وأما بدء عمله في الازهر فقد أتيح له بعد وفاة توفيق باشا فانه لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال ، وتوجهت إلى أعمال ، كان الغرض منها إزالة الاحتلال، ولو كان هذا الغرض مما ترجى إصابته يومئذ بسهام المصريين ، لكان الفقيد يكون في طليعة العاملين ، لانه كما نعلم أنفذهم رأيا ، وأقواهم عزما ، وأخلصهم قلبا ، ولكنه كان يعتقد بعد ذلك السعي الذي

شرحناه في الفصل السابق أن المسألة لا يمكن أن تحل بوسيلة السياسة إلا باتفاق الدول العظام وأن الرجاء في اتفاقهم بعيد كما تبين. فأراد أن يكون حظه من حب الامير الجديد للعمل السعي في إصلاح الازهر بنفسه واقناع الامير بالسعي في إصلاح المحاكم الشرعية والاوقاف لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة تشمل اصلاح التربية والتعليم واصلاح المساجد والارشاد، واصلاح البيوت (العائلات) فاتصل بالامير وحظي عنده وكاشفه برأيه فيها بأن قال له وقد رآه متبرما ضجراً من استيلاء الانكليز على جميع أعمال الحكومة: ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة فيمكنه أن يصلح الأمة كلها باصلاحها، وقد تركها الانكليز له لانها دينية فهم لا ينازعونه فيها الآن، ولا يؤمن تدخلهم في شأنها اذا طال العهد وساعدت الفرص فيجب المبادرة لاصلاحها، وذكر له كليات هذا الاصلاح. وكاشف الحكومة بأمله في اصلاح الازهر بأسلوب آخر، وجاء بما جاء به من آيات الاقناع حتى توصل الى إنشاء قانون تمهيدي للاصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب في الازهر ينتخبون انتخابا وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على انهما من قبل الحكومة لا رأي لشيخ الازهر ولا للمجلس في انتخابهما، ولا في استبدال غيرهما بهما. وكان الشيخ محمد الانبابي الذي هو شيخ الازهر لذلك العهد مريضا وقد كثرت شكوى الشيوخ من إدارته فعين الشيخ حسونة وكيلاله بعد أن أخذ عليه العهد باقامة النظام والاتفاق مع الاستاذ الامام على الاصلاح وقد أجملت القول في الاصلاح الرسمي في ترجمته من المنار فقلت

عين الشيخ حسونة وكيلا لمشيخة الازهر مأذونا بادارة شؤونه لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ وصدر الامر العالي بتشكيل مجلس ادارة الازهر لست خلون من رجب من تلك السنة أي في الشهر الثاني ثم حصل السعي في اقناع الشيخ الانبابي بالاستقالة فاستقال وصدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا للازهر في ٢ المحرم سنة ١٣١٣

كان الاستاذ الامام، روح الله روحه في دار السلام، يحب أن يجري الاصلاح في الازهر باقناع كبار مشايخه ورضى أهله فبدأ باستمالتهم بتكثير رواتبهم

فسعى لدى المستشار المالي الاسبق لتعيين مبلغ من خزينة المالية لمساعدة الأزهر الذي يخرج للحكومة كذا رجالا من القضاة الشرعيين والمفتين والمأذونين فأجيب الطلب وعين في ميزانية سنة ١٨٩٥ م مبلغ ألفي جنيه للازهر على أن تصرف بنظام معلوم لا برأي شيخ الازهر وميله على ما كان يعهد في الازهر، مع الوعد بالزيادة على هذا المبلغ في فرصة أخرى اذا جاء بفائدة ، فكان هذا حجة للفقيد على وجوب وضع قانون للمرتبات في الازهر ليكون لكل عالم حق معلوم يتناوله في وقته من غير تزلف إلى شيخ الجامع او غيره . وتلا هذا القانون قانون كساوي التشريف ومرتباتها وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، فصارت تعطى لمستحقها من غير سعي ولا تزلف، فسر الشيوخ بذلك سروراً عظيما

بعد هذا وجه الفقيد عنايته في المجلس الى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس فيها على طريق توصل الى الغاية منها. وبعد اجتماع ومذاكرات طويلة وضع القانون لذلك واحتيج في تنفيذه الى المال فلجأ الفقيد الى أريحية الامير فصدر الامر لديوان الاوقاف بصرف ٣٣٧٤ جنيها للازهر بينت مصارفها ومنها ٤٦٤ جنيها لانشاء دار الكتب الازهرية ، ثم وضع نظام آخر لتوزيع الجرايات بالعدل

وأما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فهو الذي أحب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى أن يجعله برأي كبار الشيوخ ليسهل تنفيذه بالرغبة ، ولا يثقل عليهم إلزامهم به من جانب القوة ، وليتعود أهل هذا المكان على البحث في الامور المهمة ،والتعاون على ماينفع الامة، فوضع مشروع نظام التدريس واختيار الكتب واقترح أن تؤلف لجنة من كبار الشيوخ للبحث فيها وإقرار مايرونه نافعاً ، فألفت اللجنة من أكثر من ثلاثين عالماً وجعل الشيخ سليم البشري أحد أعضاء مجلس الادارة رئيساً لها . ثم انتخب منها لجنة للبحث في كل فرع من المشروع وإبداء رأيها فيه للجنة الكبرى، وكانت هذه اللجنة مؤلفة من بضعة نفر ، هم أكابر شيوخ الازهر وضم اليهم الاستاذ الامام من قبل مجلس الادارة ، وبعد أن اتمت هذه اللجنة عملها قدمته إلى اللجنة الكبرى فأقرته هذه بعد تحوير

قليل لا يذكر وكانت مشيخة الازهر قد اسندت يومئذ الى الشيخ سليم البشري الذي أوقف كل ما كان المجلس شرع فيه فأوقف أيضاً مشروع اصلاح التدريس بل كان المجلس يقرر الشيء بالاتفاق مع رئيسه الشيخ سليم ثم انه لا ينفذه ولم يكن القصد من ذلك إلا إحباط سعي الاستاذ الامام وإبقاء القديم على حاله ، ولقد كان قادراً على الالزام بالتنفيذ بطلبه رسمياً من الحكومة ولكنه لم يكن يحب أن يكون للحكومة تصرف في الازهر بل أن يبقى مستقلا يصلح أهله برضى واقتناع وهل يبقى كذلك بعده ؟ الله اعلم والايام تظهر ما يعمل

وكان من الاصلاح الذي تم في الازهر بسعيه رحمه الله تعيين طبيب للازهر وصيدلية (أجزخانة) خاصة به في نفس الجامع وإنارة المسجد بالغاز البخاري ، وإنشاء الميضأة على الاصول الصحية وتجديد مبان صحية في الاروقة وغير ذلك مما نفصله في التاريخ ، ومن شاء أن يطلع على ذلك بالتفصيل التام ، فليرجع الى كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر) (١)

وقد انتقل الازهر بهذا الاصلاح من خلل عام ، إلى شيء من النظام ، ومن حالك الديجور ، إلى بصيص من النور ، ولم يتم عمل من الاعمال على ما كان يحب رحمه الله تعالى . ولكن الاصلاح الحقيقي الذي كان روحا محيياً ونوراً مبصراً فهو ما كان يلقيه من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هي التي حوات نفوساً كثيرة عن السبل المتفرقة الى سبيل الله وصراطه وهي محل الرجاء في هذا المكان اه

هذا ما أجملناه في ترجمة الامام عقب وفاته وقد وعدنا بتفصيله في هذا الكتاب ، واننا ننجز وعدنا بتلخيص المهم من كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر – من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ الى غاية سنة ١٣٢٢) وهي مدة اشتغال الاستاذ الامام المصلح في المجلس فهو قد استقال في شهر المحرم سنة ١٣٢٣ وتوفى في شهر جمادى الاولى منها ، وان كان في هذا التفصيل تكرار لما في ذلك الاجمال

(١) هو تاريخ يبين ما كان عليه الازهر قبل الاصلاح وما صار اليه بعده صورة ومعنى وصفحاته ١٢٤ وثمن النسخة منه ٤ قروش واجرة البريد قرش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين

طبعت هذا الكتاب ونشرته في سنة ١٣٢٣ ولم أكتب عليه اسم مؤلفه. وأقول الآن ان الذي كتبه هو الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان صديق الاستاذ الامام وزميله في هذا العمل ، كتبه في أثناء مرض الامام بامره ، وقد قرأته كله عليه قبل طبعه فأقره ، وأكثر مايسنده فيه الي « أحد أعضاء مجلس الادارة او بعض الاعضاء» يراد بالعضو فيه الاستاذ الامام ومنه وهو أقله ماير يد به نفسه وانني أسكت عن الاكثر وابين الاقل في الحاشية ، ولم يكن أحد منهما يريد إظهار اسمه لان عملهما كان خالصا لوجه الله عز وجل جزاهما الله أفضل الجزاء. قال الكاتب رحمه الله

﴿ تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسبابه ﴾

(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)

في اوائل المحرم من سنة ١٣١٢ هجرية قامت قيامة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبابي شيخ الجامع الازهر اذ ذاك فرفعوا العرائض الى الجناب العالي مفعمة بان شيخهم عاجز عن ادارة شؤونهم وانه خص أهل مذهبه الشافعية بخيرات الازهر وانه قصر عليهم كساوي التشريف على غير إنصاف بين أهل مذهبه وبين بقية اهل المذاهب،وما زالوا كذلك حتى أوقف الجناب العالي صدور الاوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ وخصهم بتلك الكساوي التشريفية وبقيت الكساوي موقوفة الى أن تغيرت الحال

وفي الثامن من شهر جماى الآخرة سنة ١٣١٢ صدر الامر العالي بتعيين الشيخ حسونة النواوي وكيلا لمشيخة الأزهر مأذونا بأن يدير شؤونه حتى يتقرر أمر جديد . ثم لم يمض الا أقل من شهر حتى صدر أمر عال بتشكيل مجلس ادارة الازهر وذلك في ٧ رجب سنة ١٣١٢ وابلغ الى رئاسة مجلس النظار، وسميت أعضاء المجلس في ذاك الامر الكريم، فكان منهم اثنان من

موظفي الحكومة وهما الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وثلاثة من اكابر العلماء الازهريين غير الموظفين أحدهم شافعي وهو الشيخ حسن المرصفي والثاني مالكي وهو الشيخ سليم البشري والثالث حنبلي وهو الشيخ يوسف النابلسي شيخ مذهب الحنابلة اذذاك . ومجلس النظار أبلغ هذا الامر الى وكيل المشيخة وهو أعلنه للأعضاء ودعاهم الى الاجتماع أول مرة في الازهر للنظر فيما لديه فيه من الشؤون وكان أول اجتماع لهم في السادس عشر من شهر رجب المذكور

وبعد هذا رؤي ان وجود شيخ للازهر منعزل عنه لايعلم شيئا من شؤونه ووجود وكيل هو رئيس مجالس الادارة واليه ينتهي كل شيء مما يدعو إلى توقيف سير الاعمال ، ويوجب بقاء القيل والقال ، فأوعز الى مأمور رسمي عظيم بان يحسن للشيخ الانبابي الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلا ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التي اعتبرها أمراً ، وقدم استقالته الى المقام الرفيع – وكان حينئذ في الاسكندرية المصيف – وصادف ان رأس السنة الهجرية كان قد قرب فتوجه الكثير من العلماء لتأدية التهنئة بذلك الموسم وبالطبع كان فيهم الشيخ حسونة النواوي وكيل المشيخة ، فدار الكلام بصفة غير رسمية في قبول الاستقالة الانبابية وفيمن يعين شيخا للازهر بدله وبات في حكم المقرر أن يكون الشيخ الاصيل هو ذلك الوكيل

وبينما الحال كذلك في سراي رأس التين واذا بعريضة وقع عليها فوق الثلاثين وتلغراف وقع عليه عشرة ونيف كلهم من اكابر العلماء شافعيين وغير شافعيين طلبوا فيهما من الجناب العالي أن لايقبل استقالة الشيخ الانبابي وان يبقيه شيخا لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت من العلم والقدرة على ادارة الشؤون،وان لايعين الشيخ حسونة شيخا للازهر لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت ... وقد كاد هذا الامر يفضي الى بقاء القديم على قدمه والى توقيف تعيين الشيخ حسونة لولا ان بعض العارفين بحال الازهر واهليه كان موجوداً في الاسكندرية وأشار بمراجعة هذه التواقيع التي على العريضة والتلغراف ومقابلتها بالتواقيع التي على عرائض الشكوى من الشيخ الانبابي فروجعت فاذا بعضها

موقع به على النوعين ، وهنالك تحقق الجناب العالي انه لاقيمة لمثل هذه التواقيع التي توقع على الامرين المتضادين، وان المصلحة هي المقدمة بقطع النظر عمن يضادها وان كثروا وكبروا ، فصدر الامر الكريم بقبول استقالة الشيخ الانبابي رحمه الله ولم يعبأ بطلب ابقائه من أولئك الطالبين وفي اليوم الثاني من شهر المحرم سنة ١٣١٣ صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا أصيلا على الازهر ورئيسا لمجلس ادارته، ثم ذهب الى السراي العامرة واستلم الامر وشكر ولي النعمة على ماتفضل به عليه ، ثم استفاض الامر بين علماء الازهر الموجودين في الاسكندرية فارسل بعض أصدقائه تلغرافا الى مصر أخبر فيه بأنه قد عين شيخا للازهر وانه عائد الى مصر في الغد، فلا وربك لم يبق ولا واحد تقريبا ممن طعنوا على تعيينه في تلك العريضة وذلك التلغراف الا وقد استقبله على محطة مصر او انتظره في بيته بقنطرة عمر شاه قبل أن يصل اليه ليهنئوه بالمنصب الجديد الذي هو أحق به ممن سواه وصدقوا فيهم حدس من قال في ذلك اليوم (يوم ورود العريضة والتلغراف) ان اولئك الطاعنين سيكونون السابقين الى تهنئة الشيخ الجديد في المحطة ليعرفهم بانهم كانوا أول المهنئين [1]

قانون المرتبات

قلنا فيما مضى ان أول اجتماع لمجلس الادارة الذي شكل على الوجه السابق كان في السادس عشر من شهر رجب سنة ١٣١٢ ونقول انه في هذا الاجتماع الاول قرر أعضاؤه خطة سيرهم وما يلزم البدء به من الاعمال ومايقدم من القوانين المحتاج اليها في الوضع، فظهر لهم ان أول مايهم أهل العلم هو ضبط الرتبات وتوزيعها عليهم، وقد صادف ان نظارة المالية كانت قد وضعت في ميزانية سنة ١٨٩٥ مبلغ ألفي جنيه مصري في السنة معونة للعلماء فوق ما كان لهم فيها من قبل وذلك بسعي بعض أهل الخير [2] الذين يحبون أن يتسع رزق أهل الازهر وأهله يعرفونهم بهذه

(١) ان الشيخ عبد الكريم هو الذي قال هذا للخديو بايعاز الاستاذ الامام

(٢) هو الاستاذ الامام الذي أقنع المستشار المالي بذلك كما اخبرني وقال انه تعب تعبا عظيما فى اخذ وقدمهم لمقابلة المستشار ليتكلم بلسانهم وأعانته لانه لم يعبر عنه بعضو مجلس الادارة

الصفات وإن أنكروها عليهم أحيانا ، واشترطت المالية أن لا تصرف هذه المعونة إلا بعد أن يوضع لصرفها نظام فان وضع فبها ، وإلا أبقت معونتها عندها ، وحرم منها أهل هذا المكان الضعفاء — كل هذا جعل البدء بوضع قانون المرتبات أمراً لازما لا يسوغ معه تقديم غيره عليه ، فكلف المجلس بعض أعضائه بوضع مشروع لهذا القانون فوضعه ، ثم توالت الجلسات لتلاوته والتعديل والتنقيح فيه ، حتى كمل وضعه وجاء وافياً بالحاجة من معظم وجوهه ، وقدم الى هيئة الحكومة ودارت المخابرات بين الهيئة الحاكمة وبين بعض أعضاء المجلس في تفهم مواد هذا النظام الذي لم يعهد له عند الحكومة مثيل حتى اقتنعت نظارة المالية بما فيه وتبين لها ان ما كان منه مخالفا للمألوف في قوانينها المالية انما جاء طبقاً للمألوف في الازهر ومراعى فيه احكام الضرورات وهي تبيح المحظورات ، فقبلته المالية وقرره مجلس النظار وصدر الامر العالي به في اليوم السادس من المحرم سنة ١٣١٣ و٢٩ يونية سنة ١٨٩٥

ولقد ترتب على ايجاد هذا النظام ان طلبت نظارة المالية من الازهر أن يقرر درجات العلماء ويحدد المرتب لكل درجة منها ويبعث اليها بجداول هذا الترتيب ، فاشتغل المجلس بذلك وأتمه على الوجه الاكمل فيما رآه وأرسل الجداول الى نظارة المالية فلم يسعها بعد إلا أن اقرت الامر وأمرت بصرف الالفي جنيه ، وبقي هذا المبلغ في ميزانية المالية يصرف معونة للازهر مشاهرة الى الآن

ولا تظهر فائدة هذا العمل (وضع قانون المرتبات) إلا بذكر طرف مما كانت عليه الحال فيها قبل وجود هذا القانون وطرف آخر مما صارت اليه حالها بعد وضعه فلنذكر منهما شيئا وان كان إجمالياً وقليلا لتتجلى الفائدة واضحة التبيان

﴿حال الازهر ومرتبات الشيوخ قبل النظام الجديد﴾

تنقسم مرتبات الازهر الى قسمين : سنوية وهو ما يسمونه بدل الكساوي وشهرية ، ومصرفهما معاً العلماء المدرسون وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الامر فيها بنوعيها موكولا الى شيخ الجامع الازهر يعطي من يشاء ويمنع من

يشاء . وكانت المرتبات السنوية تجزأ اجزاء صغيرة بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطي منها نحو مائة قرش في العام او اقل،وكانت المرتبات الشهرية تمنح لأناس دون آخرين،فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشا في الشهر ولكثير منهم الحرمان بالمرة،وللقليل منهم ما فوق ستمائة قرش شهرياً . واذا انحل بموت احد العلماء شيء من هذين القسمين رأيت بيت شيخ الجامع غاصاً بالمتزلفين ، مزدحماً بالراجين، مملوءاً بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الازهر [1] وهو كاتب بسيط تتماوج بين يديه الفرجيات ، ذاهبات آئبات ، كل يرجوه، وهو يعد او يصد، او يؤمل او يقنط ، وربما انتهى الامر بعد الجري والعدو بين البغالة والفجالة [2] لتجزئة ذلك المنحل وضم اجزائه الى مرتبات بعض الاكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرة. فيتربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم لعله ينالهم من مرتبه شيء يسير

واني لأعلم ان مجالس الادارة جاء وفي العلماء من ليس له مرتب اصلا وهم كثيرون،وفيهم من له ستة عشر قرشا في الشهر لاغير،وفيهم من يمني نفسه،وفيهم من يئس ورضي بالخبز القليل ، أعرف منهم واحداً مات رحمه الله وقد عرضت عليه لفقره وعلمي بحاله بعض الشيء من مالي كل شهر فأبى علي ذلك،وطلب مني ان ارجو شيخ الجامع حينئذ في أن يعطيه شيئا ولو من مرتبات صدقات الاوقاف ففعلت ورضي بما توسطت له به عند الشيخ وهو نزر قليل

هذا طرف من تلك الحال القديمة وقد تغيرت والحمدلله بالمرة بعد وضع

---

(١) المباشر في اصطلاحات بعض الفقهاء هو الكاتب إذ كان يوقع بالتنفيذ ويباشره وهو هنا كاتب الازهر ولما صار للأزهر عدة كتاب صار رئيسهم فهو فيه بمعنى (باشكاتب) في الدواوين اه من حاشية الاصل

(٢) البغالة موضع في مصر يقيم فيه بعض العلماء منهم الشيخ سليم البشري شيخ الازهر الاسبق والفجالة محلة كان يقيم فيها المرحوم الشيخ الانبابي اه من الاصل

ذلك القانون اذ تقرر فيه ان المرتبات السنوية (بدل الكساوي)[1] لايمكن ان ينقص عن اثني عشر جنيها في العام ولا ان يزيد عن ثلاثين جنيها وثلثي جنيه، وبينهما درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيهات(٢) وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه بانحلاله عمن يموت من العلماء ضوابط مقررة لايتعداها أحد، وان المرتبات الشهرية لايمكن ان تنقص عن خمسة وسبعين قرشاً ولا ان تزيد عن ثلاثمائة قرش الا اذا تجدد شيء في المقرر، وبينهما درجات. وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه ضوابط كذلك. وبذلك اخذ كل واحد ممن لم يكن يأخذ مرتب درجته التي وضعه فيها مجلس الادارة أو كمل لمن كان بيده اقل من المقرر لدرجته.

واما من كان منهم فوق هذه الدرجات فقد أبقي على ما كان بحكم الضرورة لأنهم ليسوا بالكثير، ولانه كانت لبعضهم مكانة بالسن والشهرة بالعلم، ولانه شيء اكتسب بالفعل فلا وجه لأخذه، فاضطر القانون لاستبقائهم على ما كانوا عليه وقرر أن توزع مرتباتهم بعد موتهم طبق القانون، فاستقر كل واحد في مكانه وانتفع بالمرتب على مقدار ما قسم بدون ان يجهد نفسه في الرجاء او الاستجداء

واني لأعرف واحداً منهم هو حي يرزق الى الآن قال لما علم بأن ما كان بيده من المرتب قد زاد (اني غير مصدق بانني اخذت شيئا وكيف اصدق وانا لم

---

(١) كان الممتازون من العلماء يزورون والي مصر في أول ليلة من رمضان فيخلع عليهم الخلع وهي الكساوي. وقد انقطعت هذه العادة مدة من الزمان ثم رأى الولاة بعد ذلك ان يستبدلوا بها نقوداً وصارت من مرتبات الازهر التى تصرف لاربابها من خزينة المالية في أول رمضان والفضل في استرجاعها المرحوم الشيخ العباسي ولكنها صارت في ايدي مشايخ الازهر يعطون منها من شاؤا اي مقدار شاؤا فردها النظام الي أصلها اهـ من حاشية الاصل

(٢) درجات بدل الكساوي سبع (الاولي) ٣٠ جنيها و ٨٦٧ مليما وهي لاثنين من العلماء أحدهما شيخ الجامع (الثانية) ٢٧ جنيها وهي لثلاثة (الثالثة) ٢٤ جنيها وهي لثمانية (الرابعة) ٢١ جنيها وهي لستة (الخامسة) ١٨ جنيها وهي لاربعة (السادسة) ١٥ جنيها وهي لخمسة (السابعة) ١٢ جنيها وهي لعشرة اهـ من حاشية الاصل

اكلم احداً ولم ارج كبيراً انهذا لمن المحال) ولم يصدق الا بعد ان قبض الزيادة بيده في آخر الشهر وتكرر صرفها بتكرار الشهور وهنالك عرف ان الحق يصل الى صاحبه بدون ذلك الطريق المعروف

وأما اولاد العلماء فقد جعل لهم القانون حداً لاستيلائهم على تلك المرتبات المنحلة عن آبائهم وقيد ترتيبها لهم بقيود مراعياً معونتهم على طلب العلم واستدامة اشتغالهم ليخلفوا آباءهم الاولين وقدر لهم سنين يأخذون فيها ذلك المرتب مع مراقبتهم في عملهم من مجلس الادارة

هذه حال المرتبات بعد القانون وهي وان كرهها الاقلون قد أفرحت الاكثرين، وجعلتهم في مأمن من استقلال الشيخ بالامر وصرف ما يشاء لمن يشاء ، واني لأعرف واحداً من اكابر المالكية قال لبعض اعضاء مجلس الادارة والمجلس يشتغل بترتيب الدرجات « كيف يأخذ هؤلاء العلماء الصغار من المرتبات ونحن العلماء الكبار على قيد الحياة؟ » فأجابه العضو «يامولانا ان الصغير يشتغل بالتعليم كما تشتغل وان اختلفتما في النفع فيحسن أن يكون له في مقابلة عمله راتب قليل، ومثلك يامولانا يأخذ على مقدار عمله الراتب العظيم » فلم يقتنع الشيخ ورأى ان هذا من الاجحاف بمكان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بعد أن وضع هذا القانون وجداول الدرجات قاسى مجلس الادارة الاهوال في تطبيق كل حادثة وقعت على نصوصه لان اهل هذا المكان لم يتعودوا على شيء من النظام، ولاحظ المجلس انه ربما كان للمالية بعض المراقبة على تطبيق نصوصه فجاء هذا الحساب مضبوطا وأرسلت المالية آخر السنة مندوبا من أمهر عمالها لمراجعة أعمال المجلس ففتش كل صغيرة وكل كبيرة فلم يجد ما يلاحظ عليه ورجع مسروراً ، ثم عاد آخر السنة الثانية وفعل كما فعل في الاولى فكان الامر فيها أيضاً على ما رآه

﴿ إلحاق التعليم في الجامع الاحمدي بالازهر[1] ﴾

في ١٦ شوال من سنة ١٣١٢ أي بين زمن توكيل الشيخ حسونة وبين زمن مشيخته صدرت ارادة سنية بالحاق الجامع الاحمدي بالجامع الازهر في التدريس والامتحان وادارة الشؤون العلمية، فأجهد المجلس نفسه (في الفترة التي كان فيها قانون المرتبات بين يدي الحكومة) في وضع القوانين والنظامات لهذا المسجد وقاسى كذلك في تنفيذ تلك القوانين خصوصاً ما يتعلق منها بالامتحان مشاق لا تحتمل عادة، وآخر الامر انصاع أهله للحق وقر قرار شيخه الجديد الذي عينه مجلس الادارة وقبل الامتحان من اهله اكثر من عشرين وهم الذين كان دسهم شيخه السابق قبل فصله بأيام في العلماء بلا امتحان، وسار التدريس فيه سيراً حسنا بقدر الامكان، وتخرج فيه كل سنة كثير من العلماء بالامتحان

(إلحاق التعليم في المسجد الدسوقي ودمياط بالازهر)

وفي يوم صدور قانون المرتبات السابق ذكره (٦ المحرم سنة ١٣١٣) أي عقب تعيين الشيخ حسونة شيخاً بأربعة ايام صدرت ارادة سنية اخرى بالحاق التدريس والامتحان في المسجد الدسوقي وفي دمياط بالجامع الازهر فوجه مجلس الادارة عنايته اليهما، ووضع لكل منهما نظاما خاصا به وكلف نفسه أوصابا كبيرة في تنفيذهما، ولم يعبأ بما لاقاه من أهل العلم في دمياط فقد كثر شغبهم ولعبهم في أمر تقرير درجاتهم وعلت شكواهم فوجه اليهم المجلس من أعضائه من عمل بالحق، حتى انحسم الامر فيها بالعدل، وتقررت لهم الدرجات وفرضت عليهم الاعمال، وتكفل نظامهم بما يعوزهم من العمل فسكتوا راضين

وأما الجامع الدسوقي فقد عمر بالعلم ونيط التدريس فيه ببعض علماء من الازهر

---

(١) غرض الاستاذ الامام من هذا الالحاق ظاهر وهو توحيد التعليم وفائدته في ازالة الفساد وتعميم الاصلاح لا تخفى ومن العجيب ألا يشير الكاتب الى سعي الاستاذ الامام او احد اعضاء مجلس الادارة الى ذلك

ارسلوا اليه،وتوارد اليه الطلاب من أقاصي البلدان بعد أن كان لايتاقى فيه غير لفيف من اهل البلد لايهمهم الا الاخذ من صندوق النذور[1] ودروسه الآن حافلة والراغبون فيها كثيرون،وقد جاء منهم الى الازهر طلاب واختبروا فوجدوا أهلا لأن يتلقوا الكتب العالية فيه،وحسبت لهم مدة الطلب في دسوق

كساوي التشريف

لما كان من عادة اهل الازهر الاهتمام بالماديات قبل كل شيء وقد فرغ المجلس من أمر قانون المرتبات توجهت الفكرة الى كساوي التشريف التي كانت اوقفت في زمن الشكوى من المرحوم الشيخ الانبابي وكانت نحو اثنتي عشرة كسوة فوزعها المجلس على بعض المشايخ توزيعا روعي فيه جانب الاستحقاق والعدل من جهة وجانب ما كانت قد جرت العادة بملاحظته من قبل . وصدر الامر العالي بالاحسان بها طبق ماقرره مجلس الادارة،فكان هذا مع ماسبقه من اعطاء المرتبات موجبا للفرح والسرور،ثم التفت المجلس بعد ذلك الى انه يجب أن يكون لصرف هذه الكساوي قانون يراعى فيه تقرير صفات الاستحقاق لكل درجة من درجاتها حتى تندفع الاثرة ويكون الحكم هو القانون، وتكون الاهلية بالصفات وبالاعمال،لابالمحاباة والالحاح . فوضع المجلس هذا القانون ثم عرضه على الحكومة وهي بعد أخذ ورد وطول مناقشة وكثرة اجتماع ببعض الاعضاء أقرته وصدر الامر العالي بالعمل به في ١٧ شعبان من سنة ١٣١٣

والذي قيل في بيان الفائدة من وضع قانون المرتبات يقال أيضا في وضع قانون كساوي التشريف فقد كان الامر فيها فوضى تابعا للهوى وكان لايمنح الكسوة من علم وعلم أو عمل بما تعلم ولكن ينالها من كثر سعيه او ظهرت ثروته او التجأ الى ذي جاه ، حتى تعدت الى غير العلماء فأخذها بعض من لايقدر أن

(١) يعني صندوق النذور التي تنذر للشيخ ابراهيم الدسوقي لاجل قضاء الحاجات وشفاء المرضى. وهي من سحت الوثنية

يقرأ فضلا عن أن يفهم، وتحلى بها بعض التابعين للمشايخ من القضاة وقد كانوا في صف كتاب المحاكم، ووصل اليها من مشايخ الطرق والسجاجيد أناس لا يعرف كيف وصلت اليهم، وترقى في درجاتها من لا مكانة له في الوجود الا بتلك المظاهر. أعرف منهم كثيرين ويعرفهم غيري بما أعرفهم به من الصفات وقد وصل الامر في هذه الكساوي الى ان مجلس الادارة كان يصل اليه الخبر بموت أحد أصحابها اتفاقا فيحتاج في الوقوف على حاله وموته أو حياته الى استعلامات رسمية من بعض جهات الحكومة في الارياف وبعد اللتيا والتي يعرف اسم الشخص وتاريخ موته فيصرف الكسوة التي كانت معه الى مستحق جديد

اما وقد وضع النظام فقد تقررت الصفات وحددت الدرجات وخص المدرسون من العلماء بانواعها الثلاثة، وجعل لغيرهم ممن ليسوا منهم نوع مخصوص سمي بكسوة المظهرية، وبين المظهرية والعلمية مميزات. وقد تساهل القانون في العلماء الموظفين نوعا من التساهل فقرر لهم الكسوة العلمية بقطع النظر عن الدرجات. وأما من وصلتهم هذه الكساوي العلمية قبل صدور القانون وهم ليسوا من أهلها فقد ابقيت الحال فيهم على ما كانت الى أن يموتوا لانهم صائرون الى النقص بالضرورة، وقد كادوا يفرغون فلم يبق منهم الا عدد قليل

ثم ان المجلس أراد أن يوفق بين القانون وبين ما كان جاريا من قبل نوعا من التوفيق فراعى في بعض الاحيان الاقدمية في العالمية بعد مراعاة صفة الانفع في التعليم، وبذلك انتقل الحال في أمر الكساوي كما انتقل في أمر المرتبات وسارا في طريق يحمده العاقل ويرضاه كل محب للنظام (١)

«١» نعم ولكن محبي النظام كانوا هم الاقلين، وأعداءه كانوا هم الاكثرين وقد كان الشيوخ المعممون في سورية يتألمون لدخول النظام في الازهر حتى قال بعضهم أمامي في طرابلس الشام عقب حادثة الازهر التي أثارها بعض مجاوري السوريين فأوجبت تدخل البوليس والجند لازالتها ـ قال ـ ان الازهر أدخل فيه النظام، فحكم فيه النظام، وكان قبل ذلك فوق النظام والحكام. أي ماهذا حاصله

نظام التدريس والامتحان

بعد صدور قانون الكساوي توجهت فكرة المجلس الى مافوق الماديات وهو التدريس والتعليم والامتحان فوضع لذلك مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية وما لمجالس الادارة ولشيخ الجامع من الاعمال وشروط الانتظام في مسلك طلبة الازهر ومدة طلب العلم والمسامحات والعلوم التي تدرس في الازهر وبيان المقاصد منها والوسائل وما يجب لعلوم المقاصد من العناية بتوسيع زمن الدرس فيها ، ثم الامتحان بقسميه وهما الامتحان لنيل شهادة الاهلية والامتحان لنيل الشهادة العالمية ، ثم أحكام الضبط والربط والعقوبات . وفي كل باب من هذه أحكام فسيحة تتوجه كلها الى مقصد واحد هو تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن محدود بطريقة سهلة التناول، والتحلي بثمرة تلك العلوم وهي محاسن الاخلاق والاعمال .

وقد قسمت فيه العلوم الى مقاصد ووسائل كما قلنا وبينت المقاصد بانها علوم التوحيد والتفسير والحديث والفقه وأصوله والاخلاق الدينية وبينت الوسائل بانها المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة ومصطلح الحديث وضم اليها الحساب والجبر ، وهذه العلوم بقسميها هي التي يلزم طالب الامتحان لشهادة العالمية بالامتحان فيها ، ثم ان هناك علوما أخر تستوجب لمحصلها التفضيل على من في درجته في التوظف والمرتبات، وهي تاريخ الاسلام، وصناعة الانشاء ، ومتن اللغة وآدابها ، وتقويم البلدان ومبادىء الهندسة . وهذه لا يلزم الطالب بالامتحان فيها الا اذا رغبه وأراده

ثم ان القانون قضى على معلمي البلاغة ونحوها مما يقصد من تمامه العمل به أن يمرنوا الطلبة على تطبيق العلم فيها على العمل (راجع المادة ١٩) وان يخصص لعلوم المقاصد وهي العلوم الدينية المحضة أوسع أزمان التدريس بحيث يكون مايصرف من الزمن في تعليم الوسائل اقل من الزمن الذي يصرف في تعليم المقاصد (راجع المادة ٢٠) وان يقتصر في السنين الاربع الاول من سني طلب

العلم على المتون والشروح الواضحة العبارة فتمنع فيها قراءة الحواشي والتقارير (راجع المادة ٢٢) وانه يجب على الطالب أن يحصل من علوم الوسائل اولا مايكفيه ويؤهله الى طلب المقاصد (راجع المادة ٢٣) وقد جئنا بهذه النموذجات من هذا القانون ليظهر مقصده وتعرف مقاصد المجلس(١) التي رامها العلماء والطلاب في هذا المكان الديني المحض وانه لم يطلب سواها فيه .

وقد كابد المجلس عظيم المشاق واستغرق بحثه النافع طويل الاوقات حتى أكمل المشروع على مارآه مفيداً في هذا القصد الديني المحض، وأرسله الى الحكومة فشكلت للنظر فيه لجنة من خيار رجالها ، ومن أشهر الصالحين وكبار العارفين فيها بحاجات هذا الزمان ، وانضم اليهم بعض أعضاء المجلس ، فوالوا الجلسات حتى فرغوا من تنقيحه وزادوا فيه مازادوا وحذفوا منه ماعلموا صعوبة تنفيذه ، ثم رفعوه إلى الجناب العالي الخديوي فأصدر أمره بالعمل به في ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤ وبه صارت مشيخة الازهر مشيخة نظامية ، ولم يبق عليها إلا الجد في العمل بهذه القوانين والمحافظة على ان تكون كل أعمالها مطابقة لها ، ومراقبة تنفيذها على الوجه الاكمل وتمتع العلماء والطلاب بثمراتها ، وان ذلك لم يكن بالامر السهل القريب المنال ، ولهذا كان التعب والعمل للتنفيذ فوق ما يحتمل في العادة ، ولكنها المقاصد القويمة تسهل الصعب وتخفف ثقل العناء ، وتصحح العزيمة للدأب على الاعمال

ولا داعية لتبيان الحال في التعليم والامتحان قبل صدور هذا القانون وما تغيرت اليه فيهما بعده ، فان ذلك يضطرنا إلى تطويل القول مع كونه معروفا بالبديهة فلا ينكر ان الازهر سار من فوضى في التدريس الى نوع من النظام ، وان كان لم يصل الى الحد المطلوب فيه. وأما في الامتحان فالامر أجلى من أن يبرهن عليه لانه مامن شيخ من الذين تولوا مشيخة الازهر زاد في عدد من يمتحنون في كل عام على ستة نفر ،وفي بعض السنين كانوا لايتجاوزون أربعة ، والذين كان يساعدهم

(١) ما المجلس الا الاستاذ الامام رحمه الله فهو الذي وضع القانون وبين هذه المقاصد له وهو الذي كان سبب مساعدة الامير لها أولا ثم كانت مقتا ومتها لسخطه عليه

الحظ ويؤخذون للامتحان كانوا لا يصلون الا بعناية الراجين ، وإلحاح الملحين، ولم يكن للدور ولا للاقدمية ولا للذكاء ولا للشهرة بالتحصيل مدخل في نيل الحق ، بل السلطان القوي هو شفاعة أولئك الشفعاء الذين لا يشفعون إلا للغني وان كان غبياً ، ويضيعون حق الفقير وان كان ذكياً، وبذلك تراكم في قلم كتاب الازهر عرائض طلب الامتحان حتى صارت لا يدرى أولها من آخرها ، ولا عاجلها من آجلها ، ويئس مقدموها من إجابتهم ، ففترت عزائمهم عن التحصيل، وانقطع معظمهم عن المجيء الى الازهر الا في القليل من السنة الدراسية ، وتعدى هذا اليأس إلى من يليهم في الزمن ، فجفت آمالهم ، وعلموا ان الدور إن وصل اليهم فانما يصل بعد الهرم، وكان ذلك ظاهراً للعيان

وقد تدارك مجلس الادارة هذا الامر وأحب أن يعيد الى الناس آمالهم ، فقرر تصفية هذه التلال المتراكمة من العرائض ليتحقق وجود أصحابها ، فأعلن الجميع بأن الامتحان سيكون على غير تلك القاعدة السداسية أو الرباعية، ولكن جاء الامر في سنة ١٣١٤ على غير ما في الحسبان إذ طرأت فيها حادثة رواق الشوام المشهورة المشؤومة ، ثم اضطر الازهر بحكم قرارات الصحة العمومية إلى المسامحة معظم السنة أو كلها تقريباً فلم يمتحن في سنة ١٣١٤ غير شخص واحد ونجح

وهاك بيان عدد من امتحنوا في السنين التي بعدها — سنة ١٣١٥ امتحن فيها ٢٩ نجح منهم ١٨ وسقط ١١ وسنة ١٣١٦ امتحن فيها ٢٨ نجح منهم ١٣ وسقط ١٥ وسنة ١٣١٧ امتحن فيها ٢٠ نجح منهم ١١ وسقط ٩ وسنة ١٣١٨ امتحن فيها ٢٥ نجح ١٦ وسقط ٩ وسنة ١٣١٩ امتحن فيها ٣٧ نجح منهم ٢٣ وسقط ١٤ وسنة ١٣٢٠ امتحن فيها ٣٩ نجح منهم ١٧ وسقط ٢٢ وسنه ١٣٢١ امتحن فيها ٩٥ نجح منهم ٣٤ وسقط ٦١ وفي سنة ١٣٢٢ امتحن فيها ٦٨ نجح ٣٤ وسقط ٣٤ ومن هذا البيان يتضح الفرق بين مابعد القانون وما قبله وأما كثرة السقوط في بعض السنين فسببها انقطاع اولئك الذين كانوا قدموا عن التحصيل. فتجددت الآمال، واجتهد العمال، وانتظم تقديم طلب الامتحان ، وهذه بعض المزايا للقانون في هذا الباب، وهي فاتحة الخير عند اولئك الطلاب

﴿ المسامحة أو عطلة الدراسة ﴾

ترتب على صدور ذلك القانون تقليل عدد المسامحات وتقصير أزمان العطلة الدراسية ، فقد كانت الحال فيها قبله لا يكاد يعرف لها ضابط ، وكان الطالب يمكنه أن يتغيب قبل المسامحة الرسمية بأسابيع ولا يحضر إلا بعد انقضائها بأسابيع ، وكان المشايخ المدرسون يذهبون الى بلادهم قبل الطلبة ولا يحضرون منها إلا بعدهم ، وكانت السنة الدراسية تبتدئ من أواخر شوال وتنتهي في أوائل جمادى الآخرة وبين البدء والنهاية مسامحة العيد الاكبر ، وكانت تقرب من عشرين يوما ، ثم مسامحة مولد السيد ، ثم مولد الدسوقي ، وربما تداخلتا فلا تنقص مدتهما عن خمسة وأربعين يوما ، ثم مسامحات صغيرة كعاشوراء والمولد النبوي والمولد الحسيني ومولد الشافعي ومولد العفيفي ومولد الشرقاوي ، وكل واحدة من هذه لا تنقص عن ثلاثة أيام فمدة الدراسة بعد كل هذه المسامحات لا تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف متقطعة في السنة ، يخرج منها أيضا يوما الخميس والجمعة من كل أسبوع ويضاف الى ذلك ما يتساهل فيه المشايخ والطلبة وهو كثير

ولما صدر القانون حددت فيه أيام العطلة تحديداً تاما واشتغل المجلس بشدة المراقبة على الطلاب وعلى بعض المشايخ وتقدمت الحال نحو الصلاح عاما فعاما ، ومع ذلك لم تخل هذه المراقبة من تقصير في بعض الاحايين ، والشدة كل الشدة كانت في تعويد الطلاب على العمل ، وانتهاز فرصة الوقت وعدم ضياعه فيما لا يفيد ، وأشد من ذلك ما يلاقيه المراقبون في تعويد الدارسين أنفسهم على احترام النظام والاستمرار في العمل الى آخر أيامه ، والى الآن لم تصل الحال الى الدرجة المطلوبة ، لأن الكثير من الطلاب تعودوا البطالة بلا سبب ، فصاروا يختلقون المعاذير ويقدمونها الى المشيخة والى المتولين أمر الجرايات ، كموت الآباء وهم أحياء ، أو مرضهم وهم أصحاء ، وككونهم مطلوبين للقرعة وقد أخذوا شهادة المعافاة ، أو أن عليهم أو لهم قضايا في المحاكم الاهلية والاعلان بيدهم ، وربما ادعوا لانفسهم

المرض والواحد منهم يأكل خمسة الارغفة في اليوم ، وهذه الاشياء وإن كانت تقل يوما عن يوم إلا أن الباقي منها كثير وهو ما كانت الهمة موجهة الى قطعه بالمرة وجعل الطالب طالبا حقيقيا يرغب بذاته في التعليم

وجملة القول ان المسامحات قد ضبطت ضبطا تاما، وصارت السنة الدراسية سنة كاملة ، تبتديء من العاشر من شوال وتنتهي بالخامس والعشرين من شعبان ، ويتخللها اثنان وستون يوما للمسامحة الصيفية « منها شهر يوليه وبعض شهر أغسطس » وهي الايام التي اذا اشتغل فيها المشايخ والطلاب كان شغلهم كلا شغل لشدة الحر ووقوف الاذهان ، ومنها أيام في عيد الاضحى وغيره ولا يمكن أن يضيع غير ذلك ولا يوم واحد بمثل تلك المعاذير ، ومن أضاعها من الطلاب عوقب عليها بما هو مبين في القانون ، وهذا فيما أرى من أجل المزايا لهذا القانون . وغيرها كثير نضرب عن ذكره صفحا مخافة التطويل

﴿ مساعدة الجناب العالي على تنفيذ القانون بالمال من الاوقاف ﴾

وقد توجهت فكرة المجلس بعد صدور هذا القانون الى أمر تنفيذه فرأى انه لابد في ذلك من معونة الجناب العالي الازهر بالمال ، فاستقر الرأي على قرع باب المكارم الخديوية توصلا الى هذا الغرض ، لانه بدون المال لاتنجح كبار الاعمال،فكان كذلك واجتمع المجلس مرات لتحديد أقل مايمكن به السير من النقود ولترتيب البدء في العمل بعد أن يسمح بها جنابه الكريم . ثم انحط الامر بعد اقدام وإحجام على أن ترفع مذكرة الى ولي النعم ببيان المبالغ المحتاج اليها فرفعت مبينا فيها مايلزم من المبالغ وطريق صرفها والمنفعة منها، فتقبلها جنابه الكريم بالمسرة والارتياح ، وصدر أمره السامي الى ديوان الاوقاف بتقريرها في ميزانية سنة ١٨٩٧ وسبق ذلك عدة مذاكرات في كثير من الاجتماعات مع بعض العارفين ممن وثق بهم الجناب الخديوي، تقررت فيها خطة السير في علوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ والخط ، وعرضت كلها على الجناب العالي فاستحسنها غاية الاستحسان، ووافق عليها، وأظهر غاية المسرة من تقريرها وادخالها في الازهر

المنيف ، ولم يخطر على باله حفظه الله في ذلك الوقت ولا على بال أحد من رؤساء العلماء وكبرائهم مالكيين وغير مالكيين ان ذلك مما يعطل دروس العلوم المتداولة في الازهر ، أو انه مما ينهى عنه الدين ، أو انه مما يعود على العقيدة الاسلامية بالضعف أو غير ذلك مما لاكته الالسن في هذه الايام (١)

وانتهى الأمر بأن قررت المبالغ في تلك السنة وورد الاعلام بها من ديوان الاوقاف الى الازهر في أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٦ وصادف ان السنة الدراسية كانت قد انتهت أو كادت تنتهي فلم تستعمل هذه المبالغ إلا في شوال سنة ١٣١٤ الموافق لشهر مارس سنة ١٨٩٧ وهذا فيما عدا المبالغ التي قررت لدار الكتب الازهرية فانها استعملت من أول يناير سنة ١٨٩٧ ، لان دار الكتب (الكتبخانة) يمكن العمل فيها في أي وقت بخلاف الازهر فان سنته الدراسية تبتديء في شهر شوال من كل عام

وهذا بيان تلك المبالغ التي قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها

جنيه مصري	
٦٠٠	لاربعة وعشرين عالما
٦٠٠	مكافأة للطلبة
٦٠٠	« لمشايخ الأروقة والحارات وللملاحظين
٦٠٠	لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي
٣٦٠	للخط
١٥٠	مصاريف الادارة العمومية للازهر
٤٦٤	لدار الكتب الازهرية
٣٢٧٤	

استعمل المجلس هذه المبالغ على الكيفية الآتية فأما المبلغ الذي قرر لاربعة وعشرين عالما فقد انتخب المجلس هذا العدد من بين كبار العلماء على اختلاف

(١) سبب هذا ان الخديو غضب على الشيخ محمد عبده الواضع منهاج الازهر لهذه العلوم بعد ان كان راضيا عنه فلما غضب صارت تلك العلوم والنظام في التدريس خطراً على العقيدة الاسلامية عند أولئك المنافقين

مذاهبهم ووزع عليهم ستمائة جنيه لكل منهم مبلغ يختلف بين الجنيين والثلاثة ونصف زيادة على مرتباتهم الشهرية الازهرية وكلفوا في مقابله بأن يكون تدريسهم للعلوم الدينية المحضة على الطريقة التي قضى بها القانون من ترك الحواشي والتقارير والاقتصار على الشروح والمتون الواسعة العبارة وتوسيع زمن الدرس في علوم المقاصد وتمرين الطلاب على تطبيق العلم على العمل في العلوم التي غايتها العمل بها وغير ذلك مما يفيد في جودة التحصيل ، وقد وضع المجلس لهذا النوع قرارا مخصوصا بين فيه مايجب على كل أستاذ في إلقاء هذه الدروس وخصص لكل واحد من الاربعة والعشرين عالما علوما معينة من العلوم الدينية المحضة وكتبا معينة من الكتب المعروفة ، لانه لاحظ ان ليس في امكان كل شيخ أن يحسن تدريس كل علم او كل كتاب ، وقرر أيضا ان هذا المبلغ يصح انتقاله عمن أخذه اذا لم يؤد العمل على مافرض عليه . وقد جرى المجلس على أن يجمع هؤلاء العلماء في أول كل سنة دراسية ويبين لكل منهم ما اختاره له من العلوم والكتب والطريقة التي يتبعها في التدريس والتمرين ، ثم يوجه نظرهم الى قراءة السيرة النبوية من كتب السنة الصحيحة لانها كانت معدومة تقريبا من الازهر مع أنها من أهم العلوم الاسلامية المحضة، وكذلك وجه نظرهم الى علم مصطلح الحديث وقد كاد هذا العلم ينقرض من الازهر الا ما كان منه في مقدمات كتب الحديث ، وكانت النتيجة مفيدة اذ تدرج الطلاب في الارتقاء من عام إلى عام ، ولولا هذا المبلغ لما أمكن تكليف أحد من اولئك العلماء بعمل مالم يتعوده من قديم

مكافأة امتحان الطلبة

وأما المبلغ الذي قرر لمكافآت الطلبة فقد كان الغرض منه بثروح الغيرة فيهم وترغيبهم في تحصيل العلوم المتداولة في الازهر ، وان يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ماحصلوه منها راسخا في الذهن لا أن يكون قاصراً على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ، ولهذا وضع المجلس قراراً لصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختياري في آخر كل سنة دراسية في ثلاثة

علم من العلوم التي تقرأ في الازهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفيته وان يكون تحريريا وان توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ماحصلوه ونجحوا فيه ، وان توزيع المكافات يكون في اول العام الدراسي بمحضر من شيخ الجامع وأعضاء مجلس الادارة وكل أفاضل العلماء الازهريين

ولقد جاء هذا الامر بالفائدة المقصودة منه فلم يحن موعد تقديم الطلبات في اول سنة لتقرير هذا المبلغ حتى اجتمع منها الدى قلم الكتاب شيء كثير، ثم امتحن الراغبون فيما تقدموا الى الامتحان فيه من العلوم على يد لجان شكلت له من خيار العلماء مع مراقبة أعضاء المجلس ونخبة من العارفين باساليب الامتحانات وتقرر ان تعتبر نمرة النجاح في العلوم الدينية المتداولة في الازهر هي نمرة ١٥ فما فوق، وان تكون نمرة النجاح في العلوم الحديثة هي نمرة ١٨ فما فوق ، تسهيلا للنجاح في الاولى وتشديداً في الثانية ، مراعاة لموضوعات العلوم وملاحظة لمنع الظنون. وهذا بيان من تقدموا للامتحان في كل سنة من السنين وبيان الناجحين فيه

ناجحون عدد	ساقطون عدد	مقدمون للامتحان عدد	سنة	
			١٣١٤	(لم نتحقق منها بالضبط (ولذلك لم نذكرها
٢٩٠٩	٢٧٢٠	٥٦٢٩	١٣١٥	
١٨٥٦	١٥١٩	٣٣٧٥	١٣١٦	
١٩٤١	١٢٩٩	٣٢٤٠	١٣١٧	
٢١٨٤	١٧٢٤	٤٩٠٨	١٣١٨	

وليلاحظ ان عدد المقدمين والناجحين والساقطين المبين هنا كان منظوراً فيه الى العلوم التي يقدم فيها الطالب لا الى كل طالب بخصوصه . مثلا اذا قدم الطالب الواحد في خمسة علوم ونجح منها في اثنين او ثلاثة عد المقدمون خمسة والناجحون اثنان أو ثلاثة، وليلاحظ أيضا ان سبب الكثرة في عدد المقدمين في سنة ١٣١٥ كان لان المجلس أطلق لكل واحد أن يقدم في كل علم شاء التقديم فيه حتى لو قدم في عشرة علوم قبل طلبه ، ثم رأى ان هذا الاطلاق مضر بالطلبة فحدد لهم ان لا يقدم الطالب في أكثر من أربعة علوم من العلوم الدينية مجتمعة واذا

أرادأن يضم اليها شيئا من العلوم الجديدة فليضم علما واحداً وبهذا قل عدد المقدمين

وما كان أبهج الاجتماع الذي توزع فيه تلك المكافآت على اولئك الناجحين فقد كان يجتمع اليه كل المشايخ تقريباً وكان شيخ الازهر يعطي بيده لكل طالب من العشرة الاوائل مكافأتهم، والمشايخ يشاهدون فرح الطلبة فيخرجون وكلهم ألسنة تشكر مجلس الادارة على هذا العمل الخيري ويبالغون في نتيجته وما يأتي به من الفائدة للطلاب في المستقبل ، وكان يختم كل مجلس بالدعاء للجناب الخديوي الذي كان مصدر تلك النعمة . وقد وجدت في الطلاب روح التسابق وذاقوا طعم العلم وأقبلوا عليه

مشايخ الاروقة والحارات والملاحظون

وأما المبلغ الذي قرر لمشايخ الاروقة والملاحظين ومشايخ الحارات فقد كان الغرض منه أن ينساقوا الى نظام الضبط والربط في الجامع الازهر ويتعودوا عليه ، فانهم كانوا من قبل في غاية الاهمال . ولما جاءت النقود وعرف مشايخ الاروقة انهم ينتفعون منها وتحقق المجلس انهم يقبلون كل شيء ويعملون ما لم يتعودوه متى كان من ورائه المال، وضع المجلس نظاما لادارة شؤون الضبط والربط وكاف به مشايخ الاروقة (وسيأتي الكلام عليه) وقرر لهم مرتبات شهرية تختلف بين مائتي قرش وخمسة وستين قرشا بحسب درجة الاهمية وكثرة العدد في كل رواق . ثم زاد عدد الملاحظين فبعد أن كانوا اربعة في كل الجامع صاروا ستة عشر وترقت مرتباتهم حتى صار يمكن تكليفهم المبيت في الازهر بالدور

وأما ذلك النظام الذي وضع للاروقة فانه صدر في ٢٤ يناير سنة ١٨٩٧ وقضى بأن يكون شيخ الرواق من العلماء المستحقين فيه فان لم يكن من علماء الرواق فمن علماء اقرب الاروقة اليه ، وبأن يراقب الشيخ من في رواقه في سفرهم وحضورهم ويقيد أسماءهم في دفاتر مخصوصة، وأن يكون مسؤولا عن آداب الطلبة ماداموا في الرواق، وفيصلا فيما يقع بينهم من المنازعات الخفيفة، ويلاحظهم في أداء الوظائف التي شرطها الواقفون ، ويحصل ايرادات الوقف ويوزعها على المستحقين بعد أن يقدم عنها حسابا لمشيخة الازهر، وأن يبيت بنفسه أو يستنيب من يبيت

في الرواق لملاحظة الضبط والصيانة في الليل . وبذلك خفت وطأة المشاجرات الليلية والنهارية ، وما اجل ماتفعله النقود

العلوم الحديثة

وأما المبلغ الذي قرر للحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي فقد استجلب به المجلس في أول الامر اساتذة من معلمي هذه الفنون في المدارس الاميرية وانتخبهم ممن سبق لهم تلقي العلوم الدينية في الازهر حتى لا يكونوا بعيدين عن أهله، وليلاحظوا في تعليمهم عوائد المكان وأهله . وقد وضعت قبل تعيينهم القواعد التي يسير عليها التدريس في هذه العلوم وحددت السنين لكل علم منها ، وأرسل هذا إلى للمعية السنية فوافق عليه الجناب العالي مع إظهار غاية الاستحسان،وأبلغت المعية ذلك الى الازهر ، وهوشرع في العمل من أول السنة الدراسية الداخلةفي سنة ١٣١٥ وسار هذا التعليم فيطريق قويم

(معلموالخط) وأما مبلغ الثلاثمائة والستين جنيها المقرر لتعليم الخط فقد انتخب المجلس عشرة من المعلمين للخط على اختلاف أصنافه وناط بهم تعليمه وجعل لهم أوقاتا معينة في أماكن مخصوصة فأقبل عليهم الطلاب في الاوقات الخالية من الدروس

فائدة الامتحان والعلوم الحديثة

وأما الفائدةالتي نجمت عن استعمال هذه المبالغ الثلاثة (مبلغ مكافآت الطلبة، ومبلغ العلوم الحديثة، ومبلغ الخط) فتعرف مما يأتي

قد كان طلبة الجامع الازهر لا نصيب لهم فيصناعة الكتابة والانشاء وكان الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة قصرت صحيفته عن بيان المطلوب له ولم ينفعه ماحصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه نقشاً مكسر الخطوط ناقص الحروف ، وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه عبر عن ذلك باللفظ لابالرقم لعدم معرفته به

هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من الاكابر الى اليوم ، واني لأعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ الانبابي الى الافطار عنده في رمضان فاعتذر اليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره على حال لم ير مثلها الراءون ، إذ كتبه اليه في ورق من اوراق العطار والكتابة فيها غير منتظمة الشكل، والخط لايقرأ الا لمن تعود قراءة هذه الخطوط ، والاربعة الأسطر التي كتبها اعتذاراً للشيخ كان فيها أكثر من عشر لحنات نحوية لايمكن تطبيقها على قواعد العربية ولو مع التأويل الذي تعودوه ، وهذه الرقعة من عالم كبير الى عالم أكبر ، فلا يقال ان الاستاذ كتب ما يفهمه المكتوب اليه . وأعرف غيره وغيره وغيره من أمثاله ، وهؤلاء الاغيار كثيرون وتطويل القول فيهم مما لاحاجة اليه

وقد أصبح الفرق بين تلك الحال وما نحن عليه الآن في الازهر واسع المدى وان لم يبلغ الغاية المطلوبة ، ذلك أن امتحان المكافأة قد عود الطلاب على التعبير عما في الضمير ، وعلمهم استبقاء المعلومات في ذاكرتهم حتى يكتبوها في الامتحان ، وعلمهم ملاحظة القواعد في الكتابة وانتقاد أنفسهم في ذلك لتوقع الانتقاد عليهم — وان تعلم الخط والاملاء جعل خطوطهم مما يقرأ عادة ، وصير الاملاء صحيحاً مضبوطاً ، وهم الآن في الحساب وتقويم البلدان والتاريخ على حالة لم تكن لتنتظر منهم ، فقد أصبح الازهر وفيه خمسة عشر عالماً يدرسون الحساب على أحسن ما يكون من تدريسه في المدارس ، وعالمان يدرسان علم تقويم البلدان كذلك ومن الطلبة من لا يكادون يحصون عداً من العارفين بالعلمين ، والكثير منهم قد أدى الامتحان في الحساب والجبر العالي وأخذ الشهادة باكمال دروسهما ، ومن بينهم عدد كثير قد دخلوا في امتحانات الاساتذة في المدارس الأميرية ومدارس الاوقاف والمدارس الاهلية وحازوا قصب السبق فيه على المتخرجين في المدارس وأحرزوا وظائف الاستاذية في تلك المدارس باستحقاق ، وهذه احدى النتائج الحسان التي ربما كانت لاتحلم بها ولاتخطر على البال

ثم ان المجلس تعود ارسال تقرير عمومي يشتمل على نتيجة هذه الامتحانات في كل سنة الى المعية السنية ليعرض على الجناب العالي ومعه الرسوم الجغرافية

هو الخطوط وبعض الرسائل التي يؤلفها الطلبة، وفي كل سنة كانت تجيء الى الازهر مكاتبة الديوان العالي الخديوي معلنة عرض تلك النتيجة على جنابه العالي وانها حازت الرضا والقبول، وان جنابه الفخيم مسرور منها مستحسن لها، ومشجعة على استمرار العمل مع الجد والاجتهاد، وفيها الثناء الجميل على المجلس لقيامه بهذه المهمة خير قيام، وفي بعض السنين لاحظ المجلس أن يعرف تأثير هذه الطريقة الجديدة ويستطلع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة وحال المقتصرين على القديم، فقرر انه لا يقبل طالب امتحان المكافآت في علم من العلوم الحديثة وحده بل لابد أن يصحب بثلاثة علوم على الاقل من العلوم المتداولة، وان من يطلبه في العلوم القديمة وحدها فله ذلك بدون حجر عليه، فكان كذلك في سنة ١٣١٨ وبعد قراءة اوراق الامتحانات تبين منها جليا ان الناجحين في العلوم القديمة وهم مشتغلون بالعلوم الحديثة أكثر من الناجحين فيها وهم غير مشتغلين بتلك العلوم الحديثة، وهنالك ظهر للمجلس ظهوراً لا ريبة فيه ان هذه العلوم مما يساعد على فهم العلوم الدينية، وكتب المجلس هذا في تقريره السنوي وأوضحه بأدلته المبينة بالارقام

فهذا هو الفرق بين حالتي الازهر قبل استعمال هذه المبالغ وبعده وهو فرق ظاهر عرفه الخاصة والعامة واعترفت به الحكومة أيضا، لانه كان يرفع اليها تقرير كل سنة بنتائج الامتحان بعد أن يرفع الى الجناب العالي ويتقبله الجناب الخديو بالمسرة والانشراح كما هو مثبت في دفاتر الازهر من مكاتبات رؤساء الديوان الخديوي، وتلقاه الطلبة أنفسهم مع ما فيه من المشقة عليهم بالاقبال عليه، ولم ينازع فيه أحد من مشهوري العلماء ولا من أكبر صالحيهم الى آخر سنة ١٣١٨ هجرية لا منازعة ظاهرة ولا خفية، بدليل حضورهم جميعا في حفلة توزيع المكافأة واعطائها من يد شيخ الجامع نفسه للعشرة الاوائل من الطلبة تنشيطا لهم وحثا لغيرهم على مساواتهم، وما منهم الا من أظهر الاستحسان وبشر بحسن الاستقبال ودعا لمن كان السبب في هذا الخير العميم(١)

(١) راجع حاشيتي ص ٤٤١ و ٤٤٥ وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام على معارضة الاصلاح

دار الكتب في الازهر

المبلغ الذي قرر للمكتبة الازهرية وهو ٤٦٤ جنيها قد خصص لمرتبات الامين والمغير والكاتب والخادم (الفراش) ولأربعة من العمال المؤقتين انتخبوا من العلماء ليعملوا جميعا في جمع الكتب وترتيبها تحت ملاحظة الامين ومنه مبلغ ١٥٠ جنيها لشراء كتب جديدة ولتكميل بعض النواقص من الكتب الموجودة ولتجليد مايوجد منها بلا جلود. ثم زيدت هذه المرتبات سنة بعد سنة بحسب مقتضيات الاحوال كما زيد في عدد العمال ووضع مجلس الادارة لهذه المكتبة قانونا عامله سار العمل فيها عليه الى الآن سيراً حسنا

ولاجل أن يعرف ماهي هذه المكتبة وأين كانت كتبها وكيف كان حالها وما هو شأنها اليوم نذكر طرفا من خبرها ليعلم مقدار العناية في جمع تلك الكتب وترتيبها على هذا النظام التي هي عليه الآن

كان في الازهر خزائن كتب وضعت في بعض الاروقة والحارات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفاكهاني وجامع العيني، ونيط حفظها جميعها باشخاص يقال لهم المغيرون، فتصرفوا فيها تصرفا سيئا للغاية صح معه اطلاق اسم المغيرين عليهم، لانهم غيروا وضعها، وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها، وتركوا مالا عناية لهم به منها في التراب، يأكله العث ويبليه التراب. وهذا غير ماتصرفوا فيه تصرف الملاك وصار بأيدي باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الاول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء وبالجملة فلم(؟)يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها لعدم امكان الانتفاع

ولما جاءت للمجلس فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد واصلاح ماأفسدته منها هذه الأيدي، وتسهيل الانتفاع بها ، اختار المكان المعروف في الازهر برواق الابتغاوية وكتب لديوان الاوقاف في سنة ١٣١٤ فأرسل من أخذ المقايسة لاصلاحه وانشاء مايلزم له من الخزائن التي توضع فيها الكتب. ثم

عرض الأمر على الجناب العالي فأقره مستحسنا له وخرج هذا العمل من القوة الى الفعل، وتهيأ المكان لما وجد لأجله من وضع الكتب وحفظها فيه من الانتفاع بها تحت ضوابط ونظامات، وشرع عمالها في انفاذ ماعهد اليهم من أول سنة ١٨٩٧ أفرنكية الموافق شعبان سنة ١٣١٤ وهنالك ظهر العجب العجاب

حملت تلك الكتب من خزائنها السابق ذكرها الى ذلك المكان الجديد فكان يأتي بها أولئك المغيرون محشوة في الزكائب والمقاطف، ثم يفرغونها تلالا وأكواما عليها خيوط العناكب، وبينها الاتربة، ويتخللها الجلود البالية، وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع إلا مالا يكاد يذكر، وجلس بجانبها أولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها ، وأعضاء المجلس والامين يراقبون عملهم ويرشدونهم الى الطريق الاقوم، فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدشوت والاوراق المتفرقة كتبا معتبرة في كل الفنون وكان معهم مندوب من ديوان الاوقاف وموظف آخر نيط به تقويم كل كتاب وجد أو جمع بالثمن اللائق به، وقيدت في دفاتر بأعداد متسلسلة ، واستلمها الأمين بأثمانها المقدرة لها

ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون وقرروا لكل فن موضعا مخصوصاً من المكان وقد استغرق عملهم هذا أزمانا طوالا كانت كلها أتعابا ومشاق، واني لأعرف كتبا كثيرة مما تجده الآن كاملا كان الكتاب الواحد منها بعضه في خزانة فلان وبعضه الآخر في خزانة فلان وباقيه في خزانة فلان ولم تجتمع أجزاؤه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة، وأعرف كذلك ان بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت كان في خزائن الجامع العيني ولم يعبأ به أحد ممن تولوا تغييرها للطلاب، ولم يعن بفرز الدشت لتوجد تلك النفائس بين أوراقه إلا بعد أن كان صدر أمر أحد مشايخ الجامع باحراقه، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالتعب في المحافظة عليه، وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الاتربة مع انها من أجود المصاحف خطا وورقا، وفيها من الفوائد وعلوم التجويد مالا يوجد في سواها وغير ذلك كثير، فنكتفي بما ذكرناه فما الغرض إلا بيان حالها قبل جمعها وفي هذا القدر مايكفي لذلك

بعد أن عرف ان في الازهر دار كتب أقبل عليها أهل البر فأعانوها بهداية من الكتب النفيسة، وأهم هدية قدمت اليها هى هدية كتب المرحوم سليمان باشا أباظه فان ورثته حياهم الله لثقتهم ببعض أعضاء المجلس (١) سمعوا قوله وقبلوا اشارته وقدموا كتب أبيهم الى دار الكتب الازهرية مشترطين أن تجعل لها خزائن مخصوصة في مكان مخصوص فكان كذلك وجاءت تلك الكتب كالعروس تجلى لصاحبها ليلة الزفاف لأن الباشا رحمه الله كان ممن يتعشق الكتب ويحب فنون الآداب العربية والتاريخ وهي في كتبه شيء كثير، فكان ورثته قدوة لغيرهم من الناس وبذلك كله تكونت مكتبة جميلة منتظمة لاينقصها الآن سوى الفهرس العام والعمل فيه سائر سيراً حسنا وإن كان بطيئا ولعله يتم فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولم يكتف المجلس بهذا القدر بل رجع الى الاروقة الشهيرة في الازهر وهي أروقة الترك والشوام والصعايدة والمغاربة وجعل الكتب التي بقيت فيها تحت مراقبة أمين المكتبة الازهرية، وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ أخرى لترتيب كتبها وتنسيقها، فأجيب الطلب وتعينت العمال، ورتبوا الكتب في تلك الأروقة على الطريقة التي رتبت عليها المكتبة، ثم وضع الكثير منها بعد جمعها وترتيبها في خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقته بالاروقة المذكورة تحت مراقبة هذا الأمين، ولا تزال العناية موجهة الى تجديد خزائن لباقيها

ولقد تفضل الجناب العالي بزيارة دار الكتب الازهرية عدة مرات وما من مرة إلا وأظهر سروره مما رآه فيها من حسن الوضع والنظام، وهي الآن مطرح أنظار السائحين، ومحط رحال الطالبين، ومكان النفع العام للعلماء والطالبين

وقد زيد في مبلغ المائة والخمسين جنيها المخصصة لشراء الكتب واصلاحها وتجليدها مائة جنيه في كل عام فأصلح وجلد كثير مما كان من الكتب بلا جلود، واشتريت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاق بها المكان على سعته

(١) تقدم في أول هذا الفصل أن سليمان باشا أباظة كان من اوفى اصدقاء الاستاذ الامام وكان أنجاله يعدونه كوالدهم في العطف عليهم فلذلك قبلوا رأيه

فاضطر المجلس الى أخذ مكان آخر من الازهر أصلحه ديوان الاوقاف وعمل فيه ماعمل في الأول، وامتلأت خزائنه أيضا بمعتبرات الكتب ونفائسها مما يتجدد شراؤه كل عام .

ولم يصل المجلس الى هذا الحد من صيانة تلك الكتب وجعلها بمأمن من الضياع والتلف إلا بعد عناء شديد وجهد جهيد في مقاومة تلك الافكار العتيقة، ومطاردة تلك الاطماع التي كان يقصد منها بيع تلك البقية بذلك الثمن البخس ، واني أعرف كثيراً من أهل الفضل والدين أرجعوا الكتب التي كانوا اشتروها من أولئك الباعة الادنياء الى مكتبة الازهر لعلمهم انها صارت دار الحفظ والصيانة لهذه الكتب الموقوفة على المتعلمين، وأما بعض أهل الشهرة من كبار العلماء وصالحيهم فقد جيء من بيوتهم بالكتب في الزنابيل والغرائر ،لايعرف الكتاب منها أول ولا آخر

اصلاح التعليم

وفي أول السنة الدراسية من سنة ٣١٤ الداخلة في سنة ٣١٥ شرع المجلس في تنفيذ بعض مواد القانون فبدأ بالمادة الثانية والعشرين لانها أساس ترقي التعليم ، وهي القاضية على الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى من سني التعليم،لحدد الكتب التي تقرأ فيها بدون تلك الحواشي وتلك التقارير التي تحول بين الطالب وبين الفهم وتشوش عليه موضوعات العلوم ،فأصدر قراراً في ٦ شوال سنة ٣١٤ بأن الكتب التي تقرأ في السنين الأربع الممنوع فيها الحواشي والتقارير تكون في علم النحو من الاجرومية الى ابن عقيل ، وفي فقه الحنفية من مراقي الفلاح الى العيني ، وفي فقه المالكية من ابن تركي الى الشرح الصغير وفي فقه الشافعية من ابن قاسم الى التحرير بدخول الغاية في الجميع ، وحتم في القرار منع قراءة شرح الكفراوي على الاجرومية لانه أضر الشروح بالطلبة المبتدئين ، ثم ألزم الاساتذة أن يبدأوا دروس الفقه في كل سنة من السنين الأربع برسالة في علم التوحيد قاصرة على سرد العقائد ومجردة عن البراهين الكلامية وأن يختموا

دروس الفقه في كل سنة منها برسالة صغيرة في علم الاخلاق حتى يشب الطالب متحلياً بالآداب الشرعية وكذلك حتم على الاساتذة أن تكون قراءة الكتب المعتاد قراءتها في أيام العطلة الدراسية مجردة عن الحواشي والتقارير

وقد لاحظ المجلس أثناء تلك السنة الدراسية أن بعض الطلبة وكثيراً من المشايخ قد تعودوا أن يطيلوا مدة البطالة الرسمية فأصدر قراراً في آخرها ليكون عليه العمل من أول السنة التالية الدراسية (١٣١٥ الداخلة في سنه ١٣١٦) أبان فيه مدد المساحات القانونيـة وحددها تحديداً في غاية الوضوح حتى لا يحتج طالب ولا يتأول عالم . وحتم على كل استاذ وكل طالب أن لا يخلي من أيام العمل القانوني يوما واحداً من إلقاء الدروس أو تلقيها وقرر العقوبات على كل من يخالف بقطع الجرايات فيما ليس فيه شرط واقف وبقطع المرتبات النظامية التي رتبت بمقتضى القانون فيما لا يسمح شرطهم بقطع الجراية فيه

وكذلك لاحظ المجلس في أثناء إنماء الدروس في تلك السنة الدراسية ان في الازهر عادة مستحكمة وهي إهمال الاستاذ للطالب في آدابه وفي مواظبته على الحضور في الدروس، وإهمال الطالب لانه لم يتعود من مشايخه المراقبة عليـه فأهمل في احترامه لهم، وتباطأ في أعماله، ولم يبال بحقوق اخوانه الطلبة ، ففسدت أخلاق الطلاب، وضاعت آدابهم الدينية، وتلاشت عوائد حسن المعاشرة بينهم، فأصدر المجلس قراراً في ٢٩ شعبان سنة ٣١٤ ليكون دواءاً لتلك الادواء . بين فيه ما على الطالب من الحقوق ، وما على الاستاذ من الواجبات ، فحتم على الطالب أن لا يتلقى أقل من ثلاثة دروس في اليوم، وأن لا يشتغل أثناء الدرس بغيره ، ولا يكلم فيه غير أستاذه، وأن لا يسأل الطالب أستاذه في الدرس أكثر من ثلاث مرات في الموضوع الواحد. فان بقيت لديه شبهة كلمه فيها بعد الفراغ من الدرس، وأن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ، وأن يحترم أستاذه في الدرس فلا يرفع صوته عليه، ولا يجلس بين يديه بهيئة تنافي الآداب وأن يعامل جليسه في الدرس بالحسنى ، فلا يؤذيه بالقول ولا بالفعل ، وأن يستمر في تلقي الكتاب الذي ابتدأ فيه على الاستاذ الذي شرع في تلقيه عنه حتى يتمه ،

فاذا بدا له الانتقال الى شيخ غيره وجب عليه أن يخبر شيخ جهته المنتسب هو اليها ، وإذا شرع الطالب في تلقي كتاب وجب عليه اكماله فلاينتقل الى كتاب أرقى منه قبل ان يتمه ، وكل هذه الآداب التى قررت للطالب كانت العادة جارية بين الطلبة بمخالفتها ، وضررها بالتعلم والاخلاق لامرية فيه

وأما الاستاذ فقد حتم عليه في ذلك القرار أن يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الاخلاق والسيرة الشخصية ، وأن يتعهد الطلبة الذين يحضرون درسه بنفسه ان كان مبصراً او بمن يستنيبه ان كان ضريراً ، ليعرف من يتغيب منهم عن الدرس فيخبر عنه شيخ جهته المنتسب هو اليها ، ليخبر شيخ الجامع بانقطاعه عن الدروس ، وأن يراقب حال الطلبة اثناء الدرس حتى لايأتي احدهم بما نهي عنه ، فاذا خالف نبهه الشيخ اول مرة ، فاذا عاد زجره . فاذا عاد أبعده عن الدرس ، وأخبر شيخ جهته ليخبر شيخ الجامع ليعاقبه بما يراه ، وأن يجتنب الاستاذ حتما تلك العادة القبيحة : عادة سب الطلبة وشتمهم الشتم القبيح بسب الآباء والامهات ، وضربهم بالعصي والنعال . وأن يوجه ذهن الطالب الى تعقل المسائل وفهم المعاني من أقرب الوجوه ، متجنباً الاحتمالات البعيدة وتكلف التعاسيف ، وأن يحضر الاستاذ درسه قبل إلقائه فيراجع ما يحتاج لمراجعته من الكتب لتصحيح ألفاظ الشعر التي تذكر في الشواهد ، حتى لايضيع وقته في التفاهم مع الطلاب ، وان كان ذلك لايمنعه من قبول رأي التلميذ ان كان صوابا ، وان لايأتي الاستاذ للطالبين في أثناء الدرس بما يشوش عليهم الفهم ، فلايغرب بالاكثار من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بتلك الاحتمالات المضيعة للاوقات ، وأن لايخلط مسائل علم بمسائل علم آخر الامسألة جاءت عرضا وتوقف عليها فهم المقام ، فيتكلم عنها الاستاذ بعبارة قصيرة على قدرما تدعو اليه الضرورة في الافهام ، وجعلت مدة الدرس بحيث لاتنقص عن ساعة ولا تزيد عن ساعتين

وكل هذه التكاليف التي نيطت بالاستاذ كانت العادة جارية بعدم ملاحظتها ، وكان هم معظم المشايخ الكبير هو التشدق بالاحتمالات البعيدة وتضييع الاذهان

تفتيقا لها كما يزعمون ، ولا يبالون أفهم الطالب أم أشكل عليه الامر ؟ أصحت القاعدة ام ضاعت هباء ؟

أعرف شيخا من كبار المالكية (١) قد شهر بالتقدم في السن كان يقرأ درسا في علم المنطق أيام المسامحات من كتاب الخبيصي ويحضر درسه هذا كل الباقين من المجاورين في الازهر تقريبا ، وعرض في درسه ان حاشيته اعترضت على الشرح فأخذ الشيخ يدفع الاعتراض بالتمحلات والاحتمالات النحوية ، حتى استقر رأيه على تصحيح كلام الشرح ، فقال له بعض الطلبة وأنا أعرفه أيضا (٢) « يامولانا أنه يترتب على هذا التصحيح تغيير حكم القاعدة المنطقية فبعد أن تكون السالبة الكلية تنعكس جزئية مثلا يصير عكسها كلية ولم يقل بهذا المنطقيون » فأجابه الاستاذ : ليس في هذا من ضرر يا كيت وكيت اذا صح الاعراب اندفع الاعتراض ، فما علينا من القاعدة الاصلية وما يطرأ عليها من البقاء او الانقلاب . وأعرف شيخا آخر من كبار الشافعية قرأ في درسه لعدم مراجعة الكتب قبل القاء الدرس البيت المشهور * كادت نفوس القوم عند الغلصمة * بالفاء بدل الغين ، فقال له أحد الطلاب وأنا أعرفه أيضا انها الغلصمة بالغين لا بالفاء ، فسبه وشتمه وأهانه كثيراً وأصر على انها بالفاء . كل هذا قد لاحظه المجلس ووضع له ذلك القرار ، تخفيفا لتلك الاضرار ، ومراعاة لمصلحة المعلمين والمتعلمين بما يقضي به الشرع الشريف ، ويطالبنا به الدين القويم

نظام الجرايات

وفي ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٤ دار في خلد المجلس ان يضع نظاما للجرايات بما تخوله له المادة التاسعة من القانون لتنقطع الفوضى في هذا النوع من الماديات ، كما قطعت في مادة المرتبات ، وأمر الجرايات في الازهر لا يخطر ما فيه من الهمجية

(١) هو الشيخ احمد الرفاعي المشهور (٢) هو سعد زغلول الشهير وقد سمعت هذا منه وذكرته في المنار عنه

على بال ، ولا يمكن أن يتصور كيف وجدت على ماهي عليه ولا كيف سارت ولا كيف رضي بسيرها القوم ، وهي التي كانت منبع الثروة للنقباء ومشايخ الاروقة والحارات ، وسبب التخاصم بين المجاورين بل بين العلماء الكبار ، اذ كانت تعطى في الغالب لغير المستحق وهو يعرف أنه غير مستحق ، فيبيعها للنقيب طول السنة الدراسية او مدة المسامحات . ولم يكن الاخذ للجرايات او الحرمان منها مبنيا على طول زمن المجاورة أو على اختيار تبين به حال الطالبين فيقدم المجتهد ويحرم من سواه ، وانما كان مبنيا على حسن الحظ والاهواء ، فكتبت مشيخة الازهر الى مشايخ الاروقة تمهيداً لوضع هذا النظام منشوراً مضمونه ان مجلس ادارة الازهر سيشرع في سن النظام لكل الاروقة والحارات وذلك يستدعي أن يكون لديه كل المعلومات المناسبة لذلك وطلبت منهم أن يرسلوا الى المشيخة في ظرف ثلاثة أسابيع بيان ماعندهم من الجرايات والمرتبات ومن هو مصرفها من العلماء والطلاب ، وما هو الأصل في ترتيبها على الوجه الذي هي عليه سواء كان قاعدة عمل قديم أو شرط واقف ، مع ارسال صور من كتب الوقف أو من قواعد العمل القديم ، وصور مافي كل رواق من قانون قديم وضع لضبط المجاورين أو لتوزيع الجرايات والمرتبات ، أو لتعيين المستحقين بالعدد أو بالصفات ، وما يكون موجوداً عندهم من شروط الانتظام في سلك الطلبة والمنتظرين ، أو طرد من يخرج عنها من المجاورين ، وما يوجد من الوقفيات القديمة الدالة على ان للرواق ريعا سواء كان متحصلا أو غير ممكن التحصيل بسبب من الاسباب

وبناء على ذلك وعلى كثرة الالحاح من المشيخة تكاملت المعلومات وقدمت الى مجلس الادارة ، فقرر تشكيل لجنة للنظر في تلك المعلومات ، واستخلاص مشروع نظام واحد يعم جميع الاروقة والحارات ، على اختلاف مقادير الجرايات في كل منها وجهات ورودها ، مراعى في كل واحد منها شروط الواقفين عليه ان كان له أوقاف معلومة بشروط معينة ، وأما إن كان أصلها الارصادات أو شروطها غير معلومة فيراعى فيها قواعد الشرع المنيف ، فشكلت اللجنة تحت رئاسة الشيخ عبد القادر الرافعي وانضم اليها أحد أعضاء مجلس الادارة ليضع المشروع في القالب المعتاد للنظامات

وقد اشتغلت اللجنة بجد واجتهاد ، وبحثت طويلا في تلك المعلومات التي وردت من الاروقة والحارات في سجلات الازهر وفي الوقفيات المقيدة بها ، ورجعت في معظم أعمالها الى الكتب الفقهية والنصوص الشرعية في الاحوال التي كانت تستدعي ذلك حتى أكملت المشروع وقدمته الى المشيخة في أواخر سنة ١٣١٦

تضمن هذا المشروع فصل معظم الاروقة بعضها عن بعض في الحكم لان شروط بعض الواقفين مخالف لشروط البعض الآخر ، وضم بعض الاروقة والحارات الى مماثله في الحكم ، وجعلت فيه الجراية العمومية التي تصرف الآن من الاوقاف لغالب الاروقة تحت حكم واحد لانها من قبيل الارصادات أو من قبيل ماهو مجهول الشروط ، وجعل للغرباء أحكام خاصة بهم من جهة تقدير الكفاية لكل شخص من الجراية في كل يوم لانهم منقطعون وليس لهم أهل في البلد ينفقون عليهم ، ثم بين فيه مدد المسامحات والمدد التي يسمح للطالب بالتغيب عن الازهر فيها أيام العمل والتحصيل محافظة على شروط الواقفين ، وحددت فيه العقوبات بقطع الجرايات بما ينطبق على شرط الواقف وغير ذلك من الاحكام

وبعد الفراغ من وضع هذا المشروع قدمته اللجنة الى مشيخة الازهر ليعرض على مجلس الادارة ويقرره بعد تعديل مايحتاج منه الى التعديل وقد طرأ على المجلس أمور كثيرة عاقته عن النظر فيه وأقلها انه يحتاج الى مراجعة الاصول التي أخذت عنها اللجنة التي وضعته وأكبرها مايؤخذ من الكلام فيما يأتي عن مدة مشيخة الشيخ سليم البشري والعوائق التي كانت تعترض سير المجلس في مدة هذا الاستاذ

امتحان التدريس وشهادة العالميه

وفي ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٦ قرر مجلس الادارة النظر في شؤون امتحان طالبي التدريس ، فأول اصلاح بدأ فيه أن أعلمت مشيخة الازهر طلاب هذا الامتحان بأن (المادة الثانية والعشرين) من القانون تقضي بأن الطالب والاستاذ مخيران بعد الأربع السنين الأولى في النظر في الحواشي وعدمه ، ومع هذا التخيير لايصح أن يلزم الطالب بأن يؤدي الامتحان في الحواشي امتعاد

تأديته فيها ، وما عليه إلا أن يكون على علم تام من الفن الذي يمتحن فيه ، وان (المادة الثالثة والعشرين) من القانون تقضي بأن كل طالب علم في فقه مذهبه يتلقى أصول مذهبه ولا يصح من هذا إلزام طالبي الامتحان بأن يؤدوا امتحان الاصول في كتاب جمع الجوامع اذا كان الطالب مالكيا أو حنفيا، فان ذلك الالزام يفضي الى ترك العمل بمادة (٢٣) السابق ذكرها ، فما على طالب الامتحان إلا أن يمتحن في علم الاصول غير مقيد بكتاب جمع الجوامع المذكور

وبعد هذا تحقق المجلس من أن كيفية امتحان التدريس جارية على غير قاعدة معينة وان كل عضو من أعضائه يسأل الطالب كما يشاء في أي وقت أراد على غير نظام ، وهذا يؤدي الى تشويش ذهن الطالب ، فأصدر قراراً في ٢٨ شوال سنة ١٣١٦ كان هو النظام الداخلي لامتحان طالبي التدريس، ومقتضاه ان السنة الدراسية كلها ظرف للامتحان ، وأن يعقد مجلسه في كل أسبوع مرة على الأقل، ولا يمتحن في المجلس الواحد أقل من اثنين، وأن لا يسأل الطالب في أول قراءته بل يمهل حتى يسكن روعه وينطلق لسانه ، وأن لا توجه اليه الاسئلة إلا بعد أن يقرر المسألة على حسب فهمه ، ولا يكون السؤال في العبارات ، إلا بعد الاسئلة في الموضوعات ، وأن لا يتعدد السائل في سؤال واحد ، وأن لا يتداخل سائل آخر في سؤال السائل الاول حتى يتمه ، وأن لا يناقش أعضاء المجلس بعضهم بعضا بل تكون المناقشة قصرة على العضو السائل والطالب المسئول، فاذا وقعت المناقشة بين الاعضاء بحضرة الطالب فلا يعد عجزه عن الجواب فيها طعنا على اقتداره ، وان لرئيس اللجنة أن يخصص كل واحد من أعضائها للسؤال في علم من العلوم ، وان الاستطراد ممنوع لما يترتب عليه من الخلط في موضوعات العلوم، فلا يسأل الطالب وهو يقرأ الفقه مثلا في علم النحو والبيان، وغير ذلك من اختصاص رئيس اللجنة ببعض الاحكام ووجوب العمل بهذا القرار في العام الدراسي الذي صدر فيه (وهو عام سنة ١٣١٦ الداخل في سنة ١٣١٧)

وكل ما أوجبه هذا النظام كان لمعنى مخصوص مشاهد في الامتحان، سبب الشكوى منه في كل زمان ، ومع شدة مراقبة رؤساء اللجان والمحافظة على تنفيذ

ماقضى به هـذا القرار فقد كان يغلب على بعض الاعضاء ماتعوده قديما فيحتاج الى التنبيه في كل مرة ، وما رسخ من أزمان ماضية لايزول إلا بالتكرار

العلوم والكتب ونظام التدريس

وفي ٩ رجب سنة ١٣١٦ صدر قرار من مجلس الادارة تنفيذاً للمواد ١١ و١٢ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ من القانون وهي متعلقات بتوزيع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة المدرسين فيه، وبتعيين الكتب لجميع العلوم التي تدرس في الازهر خصوصا غير المتداولة فيه، وبتحديد نوعي العلوم من المقاصد والوسائل وبتمرين الطلاب في العلوم الآلية على تطبيق العلم على العمل، وبتخصيص الزمن لكل نوع من النوعين وبمنع قراءة الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى. وبالزام الطالب بأن يبدأ اشتغاله بعلوم الوسائل حتى اذا جاء الى المقاصد كان لديه مايجعله أهلا لتلقيها

ولقد كان في وسع المجلس أن يصدر قراره بذلك كله ويصير بمجرد صدوره واجب التنفيذ كما قضى به القانون ، لكنه أراد أن يشرك معه كبار العلماء ليشاورهم في الامر ويقف على آرائهم في كل باب من هذه الابواب [1] فلذلك تقرر تشكيل لجنة من اكثر من ثلاثين من أفاضل العلماء من كل مذهب تحت رياسة الشيخ سليم البشري ، وكان إذ ذاك من أعضاء المجلس ، وضم إلى أعضائها بعض أعضائه الآخرين ، وكتب شيخ الازهر إلى رئيس هذه اللجنة كتابا بذلك ودعا العلماء إلى الاجتماع في إدارة الازهر فاجتمعوا جميعاً ، وافتتح شيخ الجامع الجلسة بعد الحمد لله والثناء عليه بأننا قد دعوناكم لابلاغكم ان لجنة تشكلت منكم للنظر في أمر الكتب وطريقة التعليم ، ولا يخفى عليكم أن لكل علم غاية، ولكل غاية وسيلة ، ومن وسائل العلوم الكتب والتعليم ، ومن الكتب

---

(١) كان غرض الاستاذ الامام من هذه المشاورة ان يكون كبار علماء الازهر مقتنعين بهذا الاصلاح ليرجى دوامه وعدم رجوعهم عنه اذا زالت السلطة القاوية التى كان هو القائم بها ولم يكن وانقا بدوامها

ماهو سهل الايصال إلى الغاية أو واف بما يؤدي اليها ، ومنها ما ليس كذلك ، ومن طرائق التعليم ما يوصل إلى فهم مايلقى على الطلبة ومنها ما ليس كذلك ، ولا يخفى عليكم أيضاً ان من الاساتذة من يتصدى إلى تدريس علم والافضل له أن يقتصر على غيره ، ولقد رأينا في امتحانات طالبي التدريس أن بعض طلبة العلم بعد إقامتهم الزمن الطويل في الازهر يوجد فيه قصور ظاهر ، وأغلبهم لا يكون عنده من المعلومات أكثر مما يعرفه بعض طلبة العلم المتوسطين ، ولأجل هذا شكلنا هذه اللجنة وكتبنا لحضرة رئيسها هذا الكتاب وتلاه بنصه وهذا ملخصه :

من المعلوم ان الكتب المتداول قراءتها في كل العلوم التي تدرس في الازهر محتاجة للنظر فيها من حيث هي موصلة للمطلوب منها من تعليم الطالب مافيها من العلوم لان نظام التعلم والتعليم مفتقر الى معرفة الوسائل من المقاصد والغاية المطلوبة من كل علم ، وبمراعاة ذلك يصلح ما هو معلوم لنا ولكم من نقص محصول الطلبة في كثير من العلوم ، وفضلا عن ذلك فان ما نشاهده وتشاهدونه من عدم وقوف كل استاذ عند حده في قراءة الكتب والفنون محتاج كذلك الى الاصلاح ، وفي علمكم ان القانون يقضي باصلاح ذلك كله وجعله على نظام مقرر مضبوط ، ولهذا شكلت لجنة من اكابر العلماء تحت رياسة فضيلتكم للنظر في امر العلوم التي تدرس في الازهر ، وتحديد الغاية المطلوبة من كل علم ، وفي امر الكتب المتداولة قراءتها وتقدير ما يلزم إدخاله عليها سواء كان بتغيير بعضها أو الزيادة على الموجود أو تنقيصه ، والنظر في قراءة حواشي الكتب التي يستقر الرأي عليها والزمن الذي يخصص لقراءة كتب المقاصد والذي يخصص لكتب الوسائل ، والنظر في توزيع العلوم على حضرات الأساتذة المدرسين ، حتى يحصل بذلك طلاب العلم بالازهر على المقصود منه ، وتستقيم طريق التعلم والتعليم ، مع تطبيق عملكم في سائر الامور كلها على قانون الجامع الازهر ، وتقييد جميع الآراء التي تبدى في جلساتكم وتحريرها واضحة في محضر يعد لذلك

وبعد الفراغ من تلاوته اجتمعت كلمة كل الاعضاء على استحسان هذا المشروع ، وعلى وجوب النظر في الموضوع ، ورأوا ان الاسهل لاكمال الامر أنه

تنتخب لجنة فرعيـة من هذه اللجنة العمومية للنظر في كل جزء مما حواه هذا المشروع وتقرير ماتراه فيه ، فكان كذلك،وصادفت أغلبية الاصوات لأعضاء اللجنة الفرعية كلا من الشيخ عبد القادر الرافعي والشيخ عبد الرحمن البحراوي من الحنفية والشيخ احمد الرفاعي والشيخ محمد أبي الفضل من المالكية والشيخ محمد البحيري والشيخ محمد النجدي من الشافعية،وضم اليهم الشيخ محمد عبده على أن يكون عضو مجلس الادارة ، والشيخ يوسف الحنبلي عند الكلام على كتب فقـه الحنابلة ، وتقرر أن تعرض هذه اللجنة الفرعية أعمالها على اللجنة العمومية لتقرر فيها ما تراه

ولقد ابتدأت اللجنة الفرعيـة جلساتها يوم الاحد ١٣ رجب سنة ١٣١٦ واستمرت على الاجتماع والبحث والعمل الى يوم الاحد ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٧ وكان أعظم همها وما دار عليه بحثها هو تعيين كتب الدراسة وبدأت عملها بتلاوة الفصل الاول من الباب الثالث من القانون وهوما يحتوي على ماشكلت لأجله اللجنة ، وما زالت تنظر في كل جزء جزء حتى أكملت مأموريتها وقدمت تقريرها الى اللجنة العموميـة في ذلك اليوم ، واللجنة العمومية لم تعدل في تقرير اللجنة الفرعية إلا بعض الشيء ، وذكرت في بعضه انه مستحسن وان كان غير لازم، إلا انه في موادتافهة لاتذكر ، ثم رفعته الى مشيخة الازهر ـ وقد كانت أسندت الى الشيخ سليم البشري ـ فرقدهذا التقرير المسكين مع مارقدمن الاعمال الجامعة تسمح المشيخة بتقديمه الى مجلس الادارة ولا أظن الا ان نومه سيطول إن شاء الله (١)

وأما تقرير اللجنة الفرعية الذي أقرته اللجنة العمومية فاني ذاكر ملخصه تتميما للفائدة وتبيانا لتلك المقاصد التي كان يقصدها مجلس الادارة وليعرف الناس أنه كان لا يقصد بالعلم وأهليه غير الخير

[المؤلف] وههنا تفصيل لما اتفقوا عليه في تدريس كل علم لا نطيل بنشره ، ومن شاء الاطلاع عليه فليرجع الى ذلك الكتاب ، ولكنني أذكر انه بين في التقرير ...

(١) كان سبب توقيف الشيخ سليم لاعمال المجلس العلم بانحراف الخديو عن الشيخ محمد عبده وارتياحه أو ايعازه بمقاومة عمله كما سنفصله في الكلام على مقاومة الاصلاح

يكون الغرض من درس كل علم ما وضع العلم لأجله والتأهيل للعمل به ومن ذلك وهو أهمه،أن يكون درس التفسير «لبيان ماأودع في القرآن من الاسرار والحكم والمقاصد التي يرمي اليها في القصص والأوامر والنواهي ووجوه العظة بأخبار الماضين وأحوال الحاضرين ، والمقاربة بين ماجاء فيه وما عليه الناس الآن . وبيان مافيه من أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز» وكان مما قررته اللجنة درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز من كتب البلاغة ، وكذا درس رسالة التوحيد للاستاذ الامام في العقائد ، ولكن لم يقرأ هذه الكتب فيها غيره . وفي هذه السنين يقرأ رسالة التوحيد بعض اخواننا الذين نشأوا على مشربه رحمة الله

(ثم قال الكاتب)

ثم اتفقت الآراء على عدة من العلوم التي لم تكن تدرس في الجامع الازهر ومنها (التاريخ الاسلامي) واختاروا له كتاب الخميس والمواهب اللدنية في تاريخ السيرة النبوية . وكان من رأي الجميع وجوب قراءة التاريخ وأن يكون المقصود منه بيان الحوادث وتعليلها لا مجرد ذكر القصص والحكايات وكذلك اتفقت الآراء على تقرير علم (تقويم البلدان) وأن تكون كتبه مايختار مدرسوه ثم اتفقوا أيضا أن يقرأ في الازهر (علم المحاضرات) وأن يكون الكتاب الذي يقرأ فيه هو العقد الفريد لابن عبد ربه ثم تقرر أيضا بالاتفاق أن تدرس فنون (روايات القرآن)ولكن لايكون ذلك إلزامياً بل لمن يختار

مسألة زاوية العميان

فصل الشيخ عبد الكريم رحمه الله هذه المسألة في خمس صفحات وقال انها أهم عمل إداري لمجلس الادارة . وملخصها أن زاوية العميان هي أحد أروقة الازهر خاصة بالعميان ، كان للمجاورين فيها استحقاق في وقف (المرحوم عبد الرحمن بك كتخداي) الذي يديره ديوان الاوقاف وقد مضت عدة سنين والديوان لايعطيهم استحقاقهم في الوقف فوكل شيخ الزاوية أحد كبار

المحامين بارشاده في رفع قضية على الديوان في المحكمة فحكمت المحكمة على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه وأيدت الحكم محكمة الاستئناف فتوقف الديوان في الدفع فاضطر المحامي الى حمل المحكمة على التنفيذ القهري ففتح محضرها خزينة الاوقاف بالقوة القاهرة (في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٧ الموافق ربيع الاول سنة ١٣١٥) وأعطى المبلغ للمحامي فأخذه ووضعه في صندوقه ولم يعطه لشيخ الرواق الذي هو وكيله ، فكان هم مجلس الادارة حفظ المبلغ من الضياع وإيصاله الى مستحقيه بالعدل والانصاف . فكلف شيخ الزاوية أن ينذر المحامي بدفع المبلغ من قبل المحكمة ـ فلما بلغه الانذار اتفق مع بعض الاجانب على بيع حصص العميان اليه لاجل منع التنفيذ في مقابلة مبلغ معين يدفعه له ، فأنذر الاجنبي شيخ الزاوية وشيخ الازهر والمحامي طالبا دفع المبلغ له بما اشتراه به من المحامي الوكيل الشرعي عن المستحقين . وبلغ المحامي أصحاب السلطة والنفوذ الفعلي في الحكومة من الانكليز ان مجلس ادارة الازهر يريد أخذ مال العميان الفقراء المساكين ليرده الى ديوان الاوقاف أرضاء للخديو فعزموا على عدم تمكين الازهر من أخذ المبلغ

وأما سمو الخديو فكان قد اعتقد أن الازهر استعمل سلطته القانونية بما يعد إهانة واساءة الى ديوان الاوقاف التابع لسموه وهو صاحب الفضل والنعمة على الازهر فيما دخل فيه من النظام وبما أفاض عليه من الاموال ، فوقع مجلس الادارة في مشكلة ذات ثلاث شعب: الخديو يسيء الظن فيه بانه خارج عليه مهين لديوانه ـ والانكليز يسيئون الظن فيه بانه آلة للخديو يريد ارضاءه باموال العميان المساكين، وهو بريء من هذا وذاك وانما هو القيام بالواجب عليه من حفظ حق العميان ان يضيع وايصاله اليهم بالعدل والانصاف

فذهب أحد أعضاء مجلس الادارة الى الاسكندرية لشرح المسألة لسمو الخديو ـ وهذا العضو هو الكاتب الشيخ عبد الكريم رحمه الله إذ كان الاستاذ الامام مسافراً بالاجازة ولو كان موجوداً بمصر لما وصلت المسألة إلى هذا الحد المشكل . فقابل الخديو وشرح له الحقيقة وان القضية رفعت على الديوان قبل تشكيل مجلس الادارة وان المجلس وجد نفسه أمام حكم نهائي لا مرد له فكان الواجب

عليه حفظ هـذا الحق لاهله وهو عرضة للضياع ، ثم قابل رئيس مجلس النظار وكان عنـده ناظر الخارجية فشرح لهما المسألة ، فاقتنع كل من الجانبين بعض الاقتناع،وظلت المسألة معلقة حتى عاد الاستاذ الامام من إجازته وعاد في تلك الاثناء المستشار القضائي الانكليزي وكان يجل الاستاذ الامام كل الاجلال كما تقدم في الكلام على عمله في القضاء ، فبين له حقيقة المسألة ثم بينها للعميد المسيطر على الجميع (لورد كرومر) ففوض هذا البت فيها الى المستشار، فجمعه الاستاذ الامام بشيخ الجامع الازهر وكان المحامي قائماً تردد عليه ليستعين به على ما يريد فقضى بأن يوزع المبلغ كله على مستحقيه في الحـال وأن يضرب بانذارات ذلك الاجنبي الذي ادعى شراءه عرض الحائط ، وألزم المحامي رده كله ، وان يكون توزيعه بمقتضى كشوف يحررها مجلس ادارة الازهر باسماء المستحقين ومقـدار حصصهم ، وأن يتولى التوزيع عثمان بك مرتضي مدير الاقلام العربية في نظارة الحقانية. وكذلك كان، ولما وصلت الدنانير الى أولئـك العميان الذين كادوا يرضون بعشرها انطلقت ألسنتهم بالدعاء لمن كان سبب ذلك . . .

الحاق الاسكندرية في التعليم والنظام بالأزهر

في ٢٩ المحرم سنة ١٣٢١ و ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٣ صدرت الارادة السنية بالحاق التدريس والامتحان في ثغر الاسكندرية بالجامع الازهر،ومضمونها (ان الجناب العالي وافقت ارادته العلية أن تكون الاسكندرية ملحقة بالازهر في التدريس والعلوم والامتحان وان مجلس ادارته يضع لها القوانين والنظامات ويرتب درجات العلماء الموجودين فيها وقت صدور هذه الارادة ويحصر الاماكن التي تدرس فيها العلوم هناك وان يكون ترتيب درجات علمائها بحضور ثلاثة من مشهوريهم الأقدمين) فبلغت نظارة الداخلية الازهر هذه الارادة ، ولم يكن إلا ان سافر شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى الاسكندرية وشكلا لجنة تحت رئاسة شيخ الازهر من أكابر علماء الاسكندرية ودعوا اليها الشيخ احمد باشا ليعلم هل يقبل ان يكون الجامع الانور الموقوف للتدريس من قبل جدهم الاعلى

خاضعا لهذه النظامات الجديدة في الاسكندرية أم لا ؟ فتردد في الامر اولا ثم عاد اليهما وأمضى على المحضر بانه قابل هذه التنظيمات ، وان مسجد جده تسري عليه الاحكام التي توضع لها ، ثم اشتغلت اللجنة بعد ذلك في حصر العلماء الموجودين وجعلت عمدتها في عملها قائمة وقف الغزي الذي اشترط واقفه ان يصرف جزء من ريعه الى العلماء ، ودفتر الجامع الانور التابع لوقف أولاد الشيخ ، لانه لم يكن ليدرج في قائمة وقف الغزي مستحق على أنه من العلماء الا بعد امتحان واذن بالتدريس ممن له الولاية في ذلك ،ولان دفتر الجامع الانور يقيد فيه من يؤذن له بالتدريس على ماوضعه واقفه من القواعد ،سواء كان بالامتحان أو الاختيار المصحح لصدور إذن شيخه للطالب بالتدريس فيه، فكل من اندرج في أحد هذين النوعين فقد حاز صفة العالمية في ذلك الثغر ، فله حق اطلاق هذا الاسم عليه فيه ، أما ترتيب درجاتهم (أولى وثانية وثالثة) فكانت عمدة اللجنة قد طابت التثبت من حالة العالم في العلم والاشتغال به ومقدار عمله بالسؤال من أعضاء اللجنة الاسكندريين لانهم أعرف بأنفسهم، ودرجة الاشتغال لاتعرف إلا منهم، فلا يعول في تقدير الدرجة للعالم إلا على أقوالهم، خصوصا وانهم من المشهورين ولهم على معظم علماء الثغر المشيخة في العلوم

أمضى الشيخان في الاسكندرية ثلاثة أيام ، ثم عادا ومعهما محضر عملهم. واشتغل مجلس الادارة بتقرير العلماء في الاسكندرية وحصرهم في عدد مخصوص ، وترتيب درجاتهم العلمية ، فصدر قراره بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢١(أواخر يونيه سنة ١٩٠٣) قاضيا بحصر عدد العلماء الاسكندريين في سبعة وأربعين عالما وان منهم أحد عشر في الدرجة الاولى وتسعة عشر في الدرجة الثانية وسبعة عشر في الدرجة الثالثة ، وتضمن هذا القرار أيضا أن لايدرج في سلك علماء الاسكندرية بعد اولئك المحصورين إلا من ينجح في امتحان التدريس على القاعدة الجديدة التي يوضع لها النظام الجديد ، وان هؤلاء العلماء المحصورين يدرسون في الاسكندرية وغيرها من أماكن التدريس في القطر المصري (عدا الجامع الازهر) وان من أراد منهم أن يدرس في الازهر فعليه الدخول في امتحان التدريس

فيه، وان من يتقدم لهذا الامتحان من علماء الاسكندرية يقدم على غيره من كل طالبيه ، وحدد في هذا القرار مايدرسه أهل كل درجة في الاسكندرية من العلوم المتداول تدريسها فيها

ولما كان تنفيذ هذه الاحكام يتوقف على وجود شيخ للعلماء هناك وكان لاولاد الشيخ ابراهيم باشا المنزلة الرفيعة بين أولئك العلماء لما لهم من الاوقاف ولمكانتهم من الثروة وقدم بيتهم في العلم رأى مجلس الادارة أن يعهد بتنفيذ هذه الاحكام إلى أكبر أولاد الشيخ الثلاثة ، فقرر تعيين الشيخ محمود باشا شيخا لعلماء الاسكندرية وتعيين الشيخ احمد باشا وكيلا له لانه كان في حالة شيخوخة لايتمكن معها من ضبط الاعمال ، وأرسلت مشيخة الازهر هذه القرارات إلى الشيخ ووكيله وعهدت اليهما بتنفيذها وانتظرت الجواب بانهما سيعملان بما تضمنته هذه القرارات من الاحكام

ثم اشتغل مجلس الادارة بوضع قانون لسير التدريس والامتحان في الاسكندرية كما وضع لغيرها من الاماكن الملحقة به ، وبعد الفراغ من وضعه رأى شيخ الجامع تعيين احد اعضاء الادارة الازهرية [١] ليذهب الى الاسكندرية ومعه هذا النظام الجديد فيتذاكر فيه مع شيخ العلماء ووكيله هناك حتى اذا كان لهما عليه ملاحظات إصلاح الحال فيها قبل التصديق الانتهائي عليه ، فكان كذلك وذهب هذا العضو في شهر اغسطس او سبتمبر من سنة ١٩٠٣ واشترك مع الشيخ احمد باشا في تلاوة ذلك النظام فلم يجد من ملاحظته عليه الا ما يضمن المحافظة على كيان اوقاف اولاد الشيخ والتوقي من أن تمس بمحاسبة أو مراقبة من قبل المشيخة الازهرية ، ثم لاحظوا على قرار حصر العلماء انه ترك فيه ستة ممن يصح ادراجهم في اولئك العلماء وان ترتيب درجات العلماء يحتاج الى التعديل لان بعضهم أعطي الثالثة وهو يستحق الثانية مثلا

هذه كل ملحوظات اولاد الشيخ على النظام والقرارات وكلها امور نفسية في اشياء شخصية كما هي القاعدة عند اهل العلم الشريف الآن . فبحث معهم

(١) يغلب على ظني ان هذا العضو هو الشيخ عبد الكريم رحمه الله

مندوب المشيخة فيما طلبوه فتبين له بمراجعة دفاتر مسجدهم والتحقق من حالتها ان اولئك الستة الذين تركوا في حصر العلماء لهم الحق حقيقة في أن يدرجوا في سلكهم فوعدهم بادراجهم بمجرد رجوعه الى مصر . وأما تغيير الدرجات لبعض اولئك المحصورين سابقاً فلم يوافقهم عليه لان التغيير في البعض بلا سببٍ يستلزم إجابةمن يطلب تغيير درجته في المستقبل والا كان ترجيحاً بلا مرجح ، ثم عاد مندوب المشيخة الى مصر وعرض الامر على الشيخ فقدمه الى مجلس الادارة وهو اصدر قراره بجعل هؤلاء الستة من العلماء وأن يكون واحد منهم في الدرجة الثانية والخمسة في الدرجة الثالثة كما اتفق عليه المندوب مع أولاد الشيخ ابراهيم باشا فصار عدد علماء الاسكندرية الذين يسري عليهم حكم القرار السابق ثلاثة وخمسين أحد عشر درجتهم اولى وعشرون درجتهم ثانيـة واثنان وعشرون درجتهم ثالثة ، وتاريخ هذا القرار ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٢١ و٨ مارس سنة ١٩٠٤

(وههنا ذكر الكاتب ان اولاد الشيخ ابراهيم الباشا بدا لهم رفض ماقرره مجلس ادارة الازهر من جعلهم تابعين له في ادارته ونظامه وترك استقلالهم وانفرادهم بالرياسة العلمية في الاسكندرية وان المجلس جاملهم بكساوي التشريف وغيرها الى أن يئس منهم فقرر تعيين شيخ لمعهد الاسكندرية غير الشيخ محمود الباشا (ثم قال)

الشيخ محمد شاكر

ان الله تعالى قد لطف بعباده العلماء وأراد أن لايبقي حالة الاسكندرية على ماهي عليه من الخلف وتعطيل الاعمال ، فساق الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الى مصر بالاجازة لجاء اليها وليس في نفسه إلا الاستراحة من حر السودان ومن العمل فيه أيام شدة القيظ، ولم يكن يخطر على فكر أحد من شيخ الازهر ولا أعضاء مجلس ادارته انه بقدمه ينحل هـذا المشكل لانه في وظيفة عالية بالسودان مرتبط فيها برأي غير رأي مصر والمصريين، ولكن الحاجة تفتق الحيلة كما يقال ، ولأجلها فكر فيه بعض أعضاء المجلس وجس نبضه فوجـد منه

ارتياحا للقبول فأشار عليه أن يعمل ليصل الى هذه الغاية [1] فقام بالأمر خير قيام ومهد لذلك باسترضاء الجهتين: جهة السودان لتوافق على نقله منها، وجهة مصر لترضى بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية ، وكلل سعيه فيهما بالنجاح ، فقرر مجلس الادارة في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ انتخابه لهذه الوظيفة الجليلة وأن يكتب الى نظارة الداخلية لتستصدر الامر العالي بذلك فكان ماطلبه المجلس وصدر الأمر العالي بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية في يوم ١٠ صفر سنة ١٣٢٢ و٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ وانحل ذلك المشكل العظيم

عض أولاد الشيخ باشا بعد ذلك بنان الندم فانه لم يكن ليمر على خاطرهم ماساقه الله من حل هذه العقدة وعادوا على الشيطان بالسخط وعلى أنفسهم باللائمة لقبولها وساوسه ، ولكن هذا لم يكن بالنافع فقد فات وقته ومامضى لايعود

قام شيخ علماء الاسكندرية الجديد بعمله أحسن قيام ، لما فيه من الفطنة وشدة الذكاء ، وعلمه بما يجب لهذا الزمان الحاضر وعضده مجلس الادارة الازهرية وشيخ الازهر أكبر التعضيد، وسهل له الطريق في استعمال فكرته ، ولم يقيده بنظام سوى نظام الازهر نفسه ونسخ له صور القوانين والقرارات التي يجري عليها العمل المستمر، وقرر له كل ماطلبه في سير الاعمال وضبط نظامها وتكليف العمال بما يطلبه منهم . فأمضى بقية سنته في ترتيب وتنظيم وفي تعويد العلماء على العمل وضبط المواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس. واستصدر أخيراً من مجلس الادارة قراراً بحصر المساجد التي يكون فيها التدريس في ثمانية مساجد ليس مسجد أولاد الشيخ ابراهيم باشا منها . والحكمة في ذلك ظاهرة جداً لانه يجب أن لايوجد

---

(١) ان العضو الذي أشار عليه بذلك هو الاستاذ الامام ، ومما أشار عليه به ان يظهر السخط عليه لاستمالة سمو الخديو حتى انه رضي ان يطعن عليه بهذا القصد ، اذ كان من المعروف لدى سموه ان الشيخ محمد شاكر من حزب الشيخ محمد عبده ومن رجاله وانه هو الذي اختاره للسودان وسعى لجعله قاضي القضاة فيه . وهذا حق وان لدي أكثر مكتوباته وتقاريره المهمة التي كان يرسلها الى الاستاذ الامام ليستنير فيها برأيه

معه من يشغله عن الجد في العمل، وأن تزول عوائق المعارضات من بين يديه، فأصدر المجلس هذا القرار المطلوب وبه استراح خاطر شيخ العلماء الجديد

والمقصد الأكبر والساعد القوي للازهر والاسكندرية هو صاحب الفضل والنعم المتوالية على الجهتين الجناب العالي الخديو، فانه قد أظهر ارتياحه واستحسانه لما بذله شيخ علماء الاسكندرية من الجهد في تغيير وجهة التعليم فيهما من القديم الى الحديث

وأظهر رضاءه العالي عن الازهر لتعضيده هذا الشيخ في مقاصده ونقل التعليم من حالة الهمجية الى حالة النظام، والدخول بالعلم والعلماء والطلاب في باب العلوم التي يقتضيها هذا الزمان (١)

وفي آخر السنة الدراسية الموافق تقريبا لأخريات سنة ١٩٠٤ قدم شيخ علماء الاسكندرية تقريراً الى مشيخة الجامع الازهر (نشرته جريدة المؤيد في حينه) فصل فيه اعماله في تلك المدة القصيرة وهي نحو ستة أشهر تفصيلا تضمن بيان أحوال العلماء والطلبة وما كانوا عليه وما صاروا اليه وما قرىء في تلك المدة من العلوم وكيفيات التدريس ومواعيده وأمكنته وأنواع العلوم التي قرئت هناك ومن اختارهم من العلماء لتدريس كل علم منها، وختمه بأن لابد من ايجاد نقود كافية لكي يكمل الغرض المطلوب ويتمكن من إلزام العلماء والمتعلمين بالنظام، لانه يستحيل تقدم الاعمال بغير نقود . فوقع تقريره هذا عند مجلس الادارة أحسن الوقع وتحقق ان العمل في الاسكندرية سيوصل الى مايرجوه من نفع المتعلمين، وكلف شيخ العلماء بأن يبين حاجته من النقود ويضع لصرفها ميزانية مضبوطة فيعاونه في تحقيق أمله بطلبها من لدن الجناب الكريم، ففعل ما كلف به في أقرب زمن، وقدم منه نسخة الى الجناب العالي ثم قدم نسخة أخرى الى مشيخة الازهر، فلم يكن غير قليل من الزمن حتى وردت النسخة المرفوعة من الجناب

(١) لا شك في ان سموه كان يحب هذا النظام الذي وضعه الشيخ محمد عبده للازهر ونفذه بمساعدة سموه ولكنه سخط أخيراً على النظام تبعا للسخط على الشيخ . ولما ظن ان النظام في الاسكندرية لا فضل فيه للشيخ وان الشيخ محمد شاكر ليس من رجاله وجد المقتضي لسروره وتعضيده غير معارض بالمانع منها

المالي على الازهر مع كتاب من رئيس الديوان الخديوي مطلوب فيه نظرها بمجلس الادارة وتصديقه عليها بعد البحث وتحققه من الحاجة الى ما فيها، فبحث فيها المجلس ورآها كلها موافقة للصواب فأقرها على ما وضعت وصدر قراره الرسمي بذلك في يوم ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٢ و ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وأبلغ هذا القرار في يوم صدوره الى ديوان الاوقاف ليقرر المبالغ المطلوبة في ميزانية سنة ١٩٠٥ المقبلة ، أما مقدار المبلغ الذي طلبه الشيخ محمد شاكر وأقره مجلس الادارة فهو ٤٣٧٤ جنيهاً مصريا في العام وقد أقر عليه المجلس الأعلى بديوان الاوقاف المنعقد تحت رئاسة الجناب العالي حسب العادة، وأدرج في ميزانية سنة ١٩٠٥ ، وجاء بذلك كتاب الى الازهر وهو أبلغ الخبر الى شيخ العلماء في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكلفه أن يضع لصرف هذا المبلغ قاعدة منتظمة حسبما يراه مفيداً للعلم والتعليم

وضع شيخ علماء الاسكندرية ميزانيته وجعل فيها موضعاً لاربعة من علماء الازهر ليكونوا عونا له على ادخال العلوم الحديثة التي تعلموها في الازهر بالاسكندرية ، فضلا عن تعليم العلوم الدينية المتداولة في الازهر على الطريقة التي تضمنها قانون الجامع الازهر وقرارات مجلس ادارته فيكون تعليمها مفيدا للطلاب ، وخصص قسما من المبلغ المقرر له ليصرف في جرايات للعلماء والطلاب، وقسما منه لاسكان المجاورين، وقسما بعنوان مرتب شهري للعلماء على اختلافهم في الدرجات ، وقسما بعنوان معونة لبعض العلماء الفقراء غير المشتغلين حق الاشتغال، فجعل مرتب العالم الازهري من الاربعة الذين طلبهم منه ثمانية جنيهات في الشهر، ومرتب العالم من الدرجة الاولى الاسكندرانية خمسة جنيهات ، ومرتب العالم من الدرجة الثانية منهم أربعة جنيهات، ومرتب العالم من الدرجة الثالثة منهم ثلاثة جنيهات، ومرتب العالم من ذوي المعونة منهم جنيهاً واحداً — وهذا عدا الجرايات — وأرسل ترتيبه هذا مع جدول ببيان الدروس التي تاتى في العام الدراسي المقبل (الذي نحن فيه الآن) وأمكنتها ومدرسيها وأوقات تدريسها هناك الى الازهر، فبحث فيه مجلس الادارة بحثاً مدققا وأصدر قراره مصدقا عليه بتمامه في ٨ ذي القعدة سنة

١٣٢٢ و١٤ يناير ١٩٠٥ ثم انتخب له العلماء الازهريين من أفضل علمائه الذين تخرجوا منه حديثا بعد دخول العلوم الحديثة فيه، وقرر أن تبقى مرتباتهم الازهرية معهم مضمومة الى المرتب الاسكندري ، وسافروا الى الثغر الاسكندري قبيل مسامحة عيد الاضحى ، وهاهم اولاء مع شيخ العلماء هناك يداً واحدة يشتغلون ليل نهار فيما يعود على العلم بالترقي والتقدم ، وفيما يعود على المتعلمين بالنجاح إن شاء الله تعالى

﴿ مرتبات أولاد العلماء وما تنفقه الحكومة على الازهر ﴾

بعد نحو شهر من تقليد السيد البيلاوي مشيخة الازهر اتفق هو وأعضاء المجلس على تنفيذ قانون المرتبات فيما يتعلق بأولاد العلماء ، ولتوضيح المقام نقدم مقدمة مختصرة نبين فيها ماهو المرتب للازهر في المالية شهريا وما يصرف منه للعلماء وما يصرف لاولاد المتوفين منهم وما يقضي به قانون المرتبات في شأن أولاد العلماء فنقول :

كان المرتب الشهري للازهريين سواء كانوا علماء أو اولاد علماء قبل صدور قانون المرتبات نحو ٣١٠ جنيهات ثم انضم اليه مبلغ الألفي جنيه في السنة الذي أعطته الحكومة إلى الازهر ووزعه مجلس إدارته بعد صدور القانون فخص الشهر ١٦٦ جنيهاً وكسوراً وبضمه إلى مبلغ ٣١٠ السابق ذكره يكون مجموع مايخص الشهر ٤٧٦ جنيهاً وكسوراً (وهذا عدا نحو ٦٢٧ جنيهاً سنوية تصرف في بدل كساوي التشريف لكبار العلماء وهو لا دخل له في المرتبات الشهرية) والذي يصرف من مبلغ الـ٤٧٦ جنيها الشهري للعلماء نحو ١٤٩ جنيها في الشهر . و كان عدد أولاد العلماء الذين يأخذون هذا المبلغ ١٧٣ شخصا . فهذه جملة ماتصرفه الحكومة المصرية السنية لهذا الجامع الذي هو أكبر مدرسة دينية في البلاد الاسلامية ، وخلاصة ذلك ان أولاد العلماء كانوا ١٧٣ نفساً ومرتبهم الشهري ١٤٧ جنيها(١)

(١) ليت الشيخان محمد عبده وعبد الكريم يعلمان في برزخهما ان ميزانية الازهر زادت في عهد جلالة الملك فؤاد على ٣٠٠ ألف جنيه في السنة وان الاصلاح الذي كانا ينشدانه لم يتقدم ٣٠٠ خطوة ولا ٣٠ ولا ثلاثا إلا مابينه بعض المدرسين القليلين المهددين

أما الاحكام المتعلقة بأولاد العلماء في قانون المرتبات فهي كما يأتي :

(مادة ٢٠) إذا توفي أحد العلماء عن شيء من هذه المرتبات الشهرية وكان له ابن او أكثر صرف لهم مايكفيهم من مرتب أبيهم فإن لم يكف البعض صرف لهم الكل ، والمرجع في تقدير الكفاية إلى مجلس الادارة

(مادة ٢١) إذا كان أولاد العالم المتوفى قصراً عند وفاته اشترط فيهم أن يشتغلوا بحفظ القرآن إلى أن يبلغوا خمس عشرة سنة ، فاذا بلغوها اشترط أن يشتغلوا بطلب العلم وأن يواظبوا عليه ، وان كانوا عند وفاة والدهم قد بلغوا السن المذكورة اشترط في صرف المرتب اليهم أن يكونوا مشتغلين بطلب العلم مواظبين عليه

(مادة ٢٣) إذا امتحن ابن العالم ولم ينجح على ماقرر في أصول الامتحان أو احترف بحرفة غير طلب العلم في الازهر قطع مرتبه وصرف إلى مستحقيه

(مادة ٣١) مجلس الادارة ينظر في شؤون من يأخذون الآن مرتبات عن آبائهم ، فمن ثبت له منهم أنه مشتغل بطلب العلم حق الاشتغال أبقاه على مرتبه إلى أن يؤدي الامتحان بنجاح وعند ذلك ينقل إلى درجة العلماء ويجري على حكم المادة (٢١) ومن ثبت له منهم أنه غير مشتغل او مشتغل غير مواظب أمره رئيس المجلس بالاشتغال او المواظبة فان استمر على ترك الاشتغال او ترك المواظبة أربعة أشهر في السنة متوالية او متفرقة لغير عذر كان لمجلس الادارة أن يقطع مرتبه ويصرفه لغيره من المستحقين ، فان عاد إلى الاشتغال بعد ذلك لم يكن له حق في أخذ المرتب إلا اذا امتحن وصار من العلماء وعند ذلك يأخذ مرتب عالم وتجري عليه أحكام الدرجات

(٣٢) تضمنت المواعيد التي تقضيها ابن العالم في الاشتغال بطلب العلم

وهذه الاحكام كلها كما تراها روحها اشغال ابن العالم ومعونته على طلب العلم وإلزامه بمداومته ولكن هؤلاء الابناء قد عكسوا قصد القانون وصارت النقود معونة لهم على البطالة ، وعلى إتيان مايخل بشرف العلم وأهله كما ثبت بالتجربة ، فان من لا مرتب له منهم او من له مرتب قليل يشتغل لينال مركزاً في الوجود وليكون خلفا لابيه في الازهر ، ومن له منهم مرتب يغنيه نوعا ما اكتفى به عن العمل او استعمله في غير ماوضع لاجله أو استعان به على مالا يرضي الله وكان ماسا بالعلم والعلماء والمتعلمين.

لأجل هذا كله ولتحري النفع لاولاد العلماء نظر مجلس الادارة في شأنهم فقرر في جلسته المنعقدة في ٢ المحرم سنة ١٣٢١ و ٣١ مارس سنة ١٩٠٣ ان يدعى جميع اولاد العلماء الذين يأخذون هذه المرتبات لاختبار بسيط يتبين به حال المشتغلين منهم وغير المشتغلين والمواظبين والمهملين مع مراعاة التساهل الى الحد الممكن بحيث لا يراعون النسبة بين الزمن الذي أمضوه في الطلب وبين ما حصلوه من العلوم، لان الغرض انما هو الاشتغال وان يكون اختبارهم أمام لجنة تحت رئاسة أحد أعضاء مجلس الادارة، وان تقدم اللجنة جدولا باسماء من يختبرون منهم وملاحظاتها على كل واحد مبينا فيه حاله بغاية الضبط ، وان يعلمهم قلم الكتاب إعلانا صحيحا يصل الى كل واحد منهم بنفسه ويجيب عنه كتابة إما بالحضور أو ابداء المعذرة أو عدم الانقياد . كل هذا بعد أن ثبت ان رئيس مجلس الادارة السابق كان أعلمهم بنص المادتين (٣١ و ٣٢ من القانون) ونبه عليهم بدوام الاشتغال والمواظبة

اشتغل قلم الكتاب باعلان هذا العدد (١٧٣) وبعضهم مقيم بمصر والبعض مقيم بالبنادر أو الارياف، وقد كانت العادة من قبل ان تصرف للمعينين خارج مدينة القاهرة رواتبهم اذا أديت فيهم شهادة من القاضي أو نحوه بانه مواظب على الاشتغال، وكثيرا ما جاءت هذه الشهادات عن اناس تركوا القرآن أو العلم واشتغلوا بالمدارس أو بحرفة اخرى أو لم يشتغلوا بالمرة واستمروا يأخذون مرتب الازهر وهم على تلك الحال

وصلت الاعلانات اليهم وحدد فيها لكل فريق منهم يوم مخصوص يحضر فيه أمام اللجنة بادارة الازهر، وعلى اثر ذلك وصل الى الازهر بلاغات من ثلاثة عشر منهم يقول البعض انه تنازل عن مرتبه في الازهر والبعض انهم اشتغلوا بحرفة غير طلب العلم، والباقون انهم لا يقبلون الاختبار مهما كان سهلا، والادارة وشأنها في المرتب، فان شاءت ابقته وان شاءت قطعته ولا معارضة لنا في تجريه. فقرر المجلس بالطبع قطع المرتبات عن هؤلاء الذين أظهروا الاستغناء عنها ومالوا الى عصيان أوامر المشيخة ومقدارها ١٣ جنيها وكسوراً. ووزعها على من لا مرتب له من العلماء الذين كانوا يشتغلون بلا مرتب وهم اولى وأحق من أولئك الذين كانوا يأخذونها وهم لاهون نائمون، أو متمتعون آثمون ، ثم تتابع حضور معظم

الباقين الى اللجنة فكانت تختبر من يقول انه يتلقى السعدوهي تعلم انه كاذب - في اعراب مثال خفيف يحله من يتلقى كتاب (الازهرية) فاقرت قوما وهم على هذا النحو من التحصيل لعلمهم يخجلون فيعملون؛ ووجدت بين الباقين من هو مشتغل حق الاشتغال فأثنت عليه بما يزيد في نشاطه، ووجدت من هو مشتغل بحفظ القرآن لان سنه لم يبلغ الخامسة عشرة؛ ومن هو مقدم لامتحان التدريس فلم تختبره ووجدت من بينهم من لا يكاد يقرأ ولا يكتب بعد أن مضى عليه زمان طويل يختلف بين ست عشرة سنة وخمس وثلاثين سنة وهو يأخذ هذا المرتب على انه من المشتغلين

أذكر من هؤلاء واحداً قدم من (جرجا) بعد كثرة الاعتذار وطول التغيب وقد مضى عليه أكثر من عشرين سنة يأخذ المرتب بما يتوالى على الازهر من تلك الشهادات القاطعة بانه مشتغل بطلب العلم في جرجا حق الاشتغال، وقد اتفق كل القضاة والمفتين الذين عينوا في جرجا في ذلك لزمن على الشهادة له بانه طالب علم مشتغل بطلبه مواظب عليه، ولم يخطر ببال أحدهم أن يستدعيه مرة ليعلم من حاله ما يصحح الشهادة له بالاشتغال، وكأنهم فهموا ان أخذه لهذا المرتب خير ولا يجوز لهم أن يمنعوا الخير. واني لاعتقد انه لو التفت أحدهم إلى ذلك واستدعاه مرة وسأله عن أسهل شيء لانتبه هذا الطالب من غفلته وعمل بعض العمل ليحلل أخذ هذا المرتب، ولكنه جزم بأن لارقيب عليه فاهمل نفسه غاية الاهمال، واشتغل بدل العلم بسفاسف الاعمال. ولو فعل حضرات القضاة والمفتين ذلك لخرجوا من عهدة الشهادة بما لا يعلمون(١)

(١) يقول محمد رشيد : الم يقرأ او لم يسمع هؤلاء القضاة والمفتون قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيراً فالله اولى بهما) الآية؟ بلى كلهم قرأها وسمعها مراراً لاتحصى وحفظوا لفظها ايضا ولكن لم يخطر ببال احد منهم انه مخاطب من ربه بالمبالغة في القيام بالقسط والشهادة بالحق مهما تكن حال المشهود عليه، لأنهم لم يتعلموا في الازهر ولا في غيره وجوب تدبر القرآن والاهتداء به، ولما قام الشيخ محمد عبده يطالبهم بهذا ويحاول اصلاح فسادهم وابطال تزويرهم حتى في طلب العلم عادوه وطعنوا في دينه كما سيأتي

وبالاختصار قد حضر هذا الشخص إلى ادارة الأزهر وجلس لامتحانه بعض من يشفقون عليه من أهل جلدته بل سكان بلدته بل ذوي قرابته وهم أخوف الناس عليه فلم يسعهم إلا الاقرار بانه لم يشتغل زمنا ما بأي علم من العلوم

ولما انتهى المجلس وعلم هو منهم او أعلموه بما سيؤول اليه حاله طلب من شيخ الجامع أن يعاد امتحانه لانه تهيب ذلك المجلس، وهو عذر لم يكن مقبولا لان الامتحان أمام شيخ الجامع أهيب منه امام عضو من الادارة ، خصوصا وقد كان في الاولى قوي الظهر بمن حضروه ، ولكن الشيخ قبل طلبه قطعا للمعاذير فلم يلبث أن خرج من المجلس الثاني وهو جازم بأنه غير مغبون وبانه هو المقصر في نفسه وعاد على من كانوا يشهدون له باللوم والتعنيف ورجع إلى بلده يائسا من بقاء المرتب بيده

استخلصت اللجنة أولئك المختبرين فظهر أنهم منقسمون أربعة أقسام: الاول يبقى مرتبه، والثاني يكلف تقديم طلب الامتحان لنيل شهادة العالمية ويبقى مرتبه إلى أن يخرج من الامتحان فان نجح نقل إلى مرتب العلماء وان سقط قطع مرتبه بمقتضى القانون، والثالث أمر بمداومة الاشتغال والمواظبة، وأعلن بانه مراقب في عمله ، فاما أن يجد ويجتهد وإما أن يقطع مرتبه، والرابع وهو أمثال ذلك الجرجاوي يقطع مرتبه من الآن

وقد استغرق هذا العمل من اول ابريل سنة ١٩٠٣ إلى ١٦ يوليه سنة ١٩٠٤ أي خمسة عشر شهراً ونصف شهر : وفي ١٦ يوليه سنة ١٩٠٤ صدر قرار المجلس بقطع مرتب القسم الرابع وعددهم ثلاثون وهم الذين تبين للمجلس انهم لا يصلحون لشيء مطلقا ، وانه يحرم أخذهم المرتب المشروط بالاشتغال والمواظبة. وتقرر أن يكون القطع من اول أغسطس سنة ١٩٠٤ ، أما مقدار ماقطع من الثلاثين فهو ٢١ جنيها وكسوراً في الشهر . ثم اتبع المجلس هذا القرار بقرار آخر في ٨ ديسمبر سنة ٩٠٤ بقطع مرتب ثمانية من أضراب اولئك الثلاثين كان ينبههم إلى الاشتغال وتحقق انهم لم يشتغلوا ولن يشتغلوا، ومقدار مرتبهم تسعة جنيهات وكسور ، فيكون جملة من قطعوا ٥١ نفسا ١٣ تنازلوا و٣٨ لم يفلحوا وجملة مرتبهم ٤٤ جنيها وكسوراً فالباقي من أولاد العلماء الذين يأخذون المرتب من أول يتم

سنة ١٩٠٥ - ١٢٢ ومرتبهم الباقي لهم مائة جنيه وجنيهان ويضم المقطوع من أولاد العلماء إلى مرتب العلماء يصير ما يأخذونه ٣٧٣ جنيها في الشهر وكسور الجنيه ، وعلى هذا تم الامر في مرتب أولاد العلماء وهو عمل قد طابق القانون والحق من كل الوجوه

سعي الاستاذ الامام لاعانة أولاد العلماء بعد قطع رواتبهم

في زمن الشيخ حسونه قطع مجالس الادارة مرتب بعض أولاد العلماء وهم نحو ثلاثة عشر على ما أظن لم يتحقق فيهم الاشتغال المشروط في القانون، ولكن كان معظمهم من الاغنياء الذين لا يؤثر فيهم قطع هذه المرتبات، وأما هؤلاء فكثير منهم ممن كانوا قد استغنوا بهذا المرتب القليل وقعدوا عن العمل بأقل من الكفاف فصاروا كلا على الازهر والازهريين . ولما رأى بعض أعضاء المجلس - وهو من يعرفه الناس بالسعي الى الخير والعمل للمصلحة العامة - ان في الواحد والخمسين المقطوعين بمقتضى القانون من قعد به الدهر عن السعي، وتعود أن يأكل بلا كد ولا تعب ولا عمل، حتى شاخ وهرم، وصار لا يقدر على التحصيل من جديد وله زوجة وأولاد وقد أخذه القانون بالعدل المر فأخرجه من عداد المستحقين - لما رأى ذلك العضو هذا استعطف بعض أهل الخير والمروءة والثروة فأخذ منهم جانبا من النقود وأودعها في خزينة الازهر لتنفق على أولئك المعوزين باعتبار ما كان مرتبا لهم من قبل، فمن جهة قد روعي القانون وتنفيذه ، ومن جهة لم يفت أولئك المحتاجين شيء من حاجاتهم التي كانوا يقضونها بمثل هذا المرتب الزهيد، وسعى لبعضهم سعيه المحمود فقيد في بعض الاوقاف الخيرية ورتب له مبلغ مستديم، ولا يزال يجمع لهم النقود ويرسلها الي الازهر ليصرف عليهم منها الى الآن ، ولقد فعل هذا حتى بعد استقالته من عضوية مجلس الادارة بل بعد مفارقته الازهر فبعث الى خزينة الازهر بمبلغ كبير يكفي أولئك المستحقين سنتين ان شاء الله. وقد سعى لترتيب مبلغ غير قليل في وقف خيري واسع لا علاقة له بالاوقاف العمومية لبعض هؤلاء المساكين، الذين أفسدهم إهمال المشايخ السابقين، ولو كان ممن يعملون كما يعمل الناس لغرض مخصوص لما اهتم بعد بهذا الجمع، ولكنه رجل المصلحة، ورجل الخدمة العامة، ورجل الشفقة على البائسين في أي مكان وجد وفي أي زمان. فجزاه الله أحسن الجزاء

حالة الأزهر الصحية وتعيين طبيب له

فاتنا ان نذكر شيئين مهمين : تعيين طبيب للازهر واستدرار المكارم الخديوية لعلماء دمياط والجامعين الاحمدي والدسوقي. فأما تعيين الطبيب فقد كان في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ أي قبل فصل الشيخ حسونة بنحو سبعة أشهر وعشرين يوما ، والحامل على طلب تعيينه والفائدة منه يتبينان بذكر ما كان عليه الجامع والطابة في الامور الصحية قبل مجيء الحكيم وما صار اليه بعده ، ولا نذكر منهما غير القليل ، فهو يكفي عن التطويل

كانت أمكنة الجامع الازهر من صحنه الى مقاصيره الى أروقته الى مغاطسه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ ، ومهب روائح عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أمراض معدية ، فاذا دخل الداخل الى الصحن وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكنس من مواضع النوم أكواما والى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج وما تحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفض ولا تنظيف. وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة

ثم اذا ذهب الى جهة الميضأة وجد حواليها أمثال ذلك ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات(١) واذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الادران ، وشم منها مالا تحمل الانوف والابدان ،

---

(١) بل كان بعضهم يستنجي بمائها من جوانبها وقد اخبرني الاستاذ الامام انه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الازهر بل كان يأخذ الماء من حنفية فيها المسمي بالسلسول على قلته ويتوضأ منه . وكانت ميضأة الجامع الاحمدى اقذر من ميضأة الازهر ولاسيما ايام الموالد الثلاثة فقد كان النساء يغسلن اولادهن من العذرة فيها حتى ترى سابحة وراسبة فيها ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون ابطال الميضأة المكشوفة واستبدال الانابيب بها (الحنفيات) من سيئات الاصلاح الذى ذهب ببركات الازهر

واذا وصل الى غرف السكنى في الاروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه فيمنعه الكسل أن يمضي بها الى البالوعات، وذاك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط وداخل المسكن: وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت ، وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الاسبوع والاسبوعين بلا كنس فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات ـ هذا الى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة ، ونومهم مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه، ومعهم فيها على ضيقها متاعهم وفراهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود .

واذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحول الاساطين وفي الاماكن التي يسمونها بالحارات وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب القائم بعضها فوق بعض صفوفا بلا نظام ، تجري بينها لقذارتها الفيران، حتى يخالها الرائي لقدم عهدها من آثار الاقدمين، واذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المش وعفن الخبز فلا يملك رائيها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا الى حيث ينتهي به الفرار

هذا حال السكان ، وأما حال السكان فقد كانوا لايخلصون من الامراض المعدية وأهمها الجرب والرمد الصديدي: وفيهم المسلول والمجذوم والمصاب بالزهري وإن كان هؤلاء قليلين، وأهم ما كانوا يستعملونه الجرب هو كبريت العامود ، ولا تسل عن الدرس اذا كان بين طلبته جربان قد طلى جلده بالكبريت والقطران، فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون ، ويالله والله أكبر اذا كان الفصل فصل القيظ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة وتسري العدوى الى معظم المجاورين، ورحم الله من لا أنف له أو من كان فقد حاسة الشم فانه هو السعيد فيهم

وقد ذاق كل منا ذلك الألم ونحن في الطلب ، ولكن كان يخففه عنا مايلقى علينا من المتقدمين منا والسابقين في طلب العلم من أن الجرب علامة الفتوح وان الذي لايلحقه الجرب من المجاورين يعد بينهم مترفها ولا يؤمل فيه النجاح .

ولقد فشت الامراض الوبائية في الازهر كثيراً ولم يشعر بها أحد وبقيت في المجاورين تحصدهم، ولا يوجد من يخبر عنهم لجهل الحكام بحالهم ،ولجهل أهل المحل بما يلزم للصحة من الاحتياط

وإن من يكون مسكنه ومبيته ومقيله ومحل عمله ودرسه ومعيشته على ما قدمناه فلا بد أن تلزمه المعديات من الامراض ، اللهم إلا من كان منهم قوي البنية بأصل الخلقة وكان بدنه غير قابل للتأثر بالعدوى ، وهؤلاء في وسط مثل هذا الجو قليلون .

هذا قليل من كثير من حالهم الماضية ، أما وقد جاءهم الطبيب فقد خفت جداً وطأة هذه الامراض لانقطاع معظم أسبابها وزوال بعضها بالمرة ، فالميضأة استبدلت بحنفيات(١) والكنس مستديم ليل نهار، والمغاطس أبدلت بحمامات تقريبا، والغرف قد اتسعت على السكان بحيث لا يسكن في الغرفة الواحدة إلا عدد يراه الطبيب غير مزدحم فيها، ووجدت المراقبة على الغسيل، وأعدت مطابخ في الاروقة بعيدة عن غرف السكن ، وأقفلت تلك الصهاريج وأدخلت المياه النظيفة من مياه الشركة ، واستعملت المرشحات، وتعود الطلبة على التداوي من الامراض ، فقد أعدت للطبيب بينهم غرفة في الرواق العباسي يجلس فيها وقتا معينا من النهار فيفد عليه فيها مرضى الطلبة فيبحث في أمراضهم ويعطيهم الدواء من صيدلية (أجزخانة) الازهر التي ينفق عليها ديوان الاوقاف، ويصف لهم كيفية استعماله، ولا يتكلفون في العلاج نقودا ، واذا كان بعضهم في حال لا تمكنه من المجيء الى موضع الطبيب ذهب هو اليه بنفسه في محل سكنه داخل الازهر أو خارجه

وقد أعقب هذا ان النظافة في الجسم والمكان والثوب والأكل والشرب قد وجدت على الجملة في غالب المجاورين بنصائح الطبيب وهي مناط الصحة كما هو معروف ،

ثم ان النور الذي كان يمرض العيون قد ذهب بالمرة واستعيض بأنوار الغاز ، وهي تستعمل الآن في المطالعة والتدريس الليلي ولونها أبيض وضوءها عظيم ، وأما النور الذي كان يستعمل قبل ذلك في المطالعة فكان على سرج الزيت توقد بجانب العمد ولونها أحمر كدر ودخانها يعمي السليم ، وإذا رأى الطبيب بعض المصابين بالزهري أو السل أو الجذام كتب إلى المشيخة باعطائه رخصة طويلة جداً بحيث ينقضي الاجل قبل انقضائها ، ولا ترى المشيخة إلا فاعلة ما يشير به ، وفي هذا من شدة الاحتياط ما لا يخفى وهي الدواء الحقيقي لمثل هذه الامراض

(١) الصواب أن يقال استبدلت بها الانابيب المعروفة بالحنفيات

هذه جزئيات من حال الازهر بعد وجود الطبيب يستدل منها على الكليات والفضل في ابتكار هذه الفكرة ـ فكرة إيجاد الطبيب ـ لمجلس الادارة، والفضل كل الفضل لمن ساعد على تحقيقها واستحسنها وأمدها بالمال وهو الجناب العالي حفظه الله، فانه لما عرضت عليه هذه الفكرة فرح بها وأيدها ، وأمر بأن ينتخب للازهر طبيب مسلم عارف بأحوال هذه البلاد وأمراضها ، فانتخبه المجلس وكتبت عنه المشيخة إلى الاوقاف وهو عرض الامر على وليه ، فصدر الامر على الفور بتعيين الطبيب وما يلزم من الادوية ، وورد مكتوب الديوان بذلك إلى الازهر بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٨ نمرة ٧٤ ولم يكن إلا يوم حتى جاء الطبيب وأخذ في عمله بغاية الجهد والاجتهاد ، وهو إلى الآن يعمل بكل نشاط

ولقد زاد المجلس في هذا النوع ترقياً فطلب في سنة ١٩٠٤ بناء مستشفى لطلبة العلم الفقراء يقيمون فيه مدة العلاج ، فارتاح الجناب العالي إلى هذا الطلب وأمر بانتخاب قطعة من أرض الاوقاف قريبة من الازهر يبنى عليها هذا المستشفى ، فكان كذلك فشرع الديوان في بنائه على الارض التي في آخر السكة الجديدة مما يلي شارع الدراسة وهي أحسن موقع صحي يبنى عليه مثل هذا المستشفى

(وهنا عقد الكاتب فصلا لبيان كل ما كان من إعانة ديوان الاوقاف للأزهر وهي حقيرة جداً بالنسبة الى ميزانيته في هذا العهد . ثم قال)

هذه الاعمال الماضية كلها التي شرحناها من أول هذه الرسالة إلى هذه النقطة هي الاعمال المستديمة التي قام بها مجلس الادارة من عهد تشكيله ، وقاسى في وضعها وفي تنفيذ معظمها أكبر الاهوال على ما تبين مما ذكرناه ، وتضاف اليها الاعمال الجزئية اليومية من ترتيب المرتبات وتوزيع كساوي التشريف والترقي فيها وما كان يتحراه في ذلك من وجوه المصلحة البعيدة عن الغرض ، فاننا لم نعهد عليه انه أعطى أو منع الا لما يراه نافعاً في التعليم . . .

(ثم عقد الفصل الآتي في محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه)

محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه

(كان) من الأعمال اليومية المحافظة على كيان الازهر وشرف الازهريين ومكافحة كل جهة من جهات الحكومة وديوان الاوقاف إذا جاء منها ما يمس حقا من حقوق الازهر وأهليه، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصي

(فمنها) المحافظة على حقوق الازهر وطلبته في أمور القرعة العسكرية إذ كثيراً ما كانت (نظارة) الحربية تعامل الطالب خطأ بما تراه مجالس القرعة في العاصمة وبلاد الارياف ولا يساعد عليه القانون، فتتكرر المكاتبات بين الازهر والحربية متضمنة للحجج والبراهين ويذهب ذلك العضو المعروف إلى النظارة وينتهي الامر برد المظلمة وتقرير قاعدة لمعاملة الطلبة في المستقبل، فينتفع بها العموم

(ومنها) انه إذا وقع عالم أو طالب فيما يوجب المحاكمة ناضل الازهر عنه بوجه الحق كما حصل في حادثة من شهدوا من العلماء لطالب في بلبيس وذلك ان هذا الطالب انتحل لنفسه صفه العالمية وعقد عقد زواج بلا حضور المأذون خلافا للائحة، ولما وقع بين يدي النيابة استشهد كثيراً من علماء الازهر على ورقة ليقدمها إلى النيابة بأنه عالم شهير حتى يخرج من التبعة بمقتضى اللائحة، فقدمها إلى النيابة فاشتبهت فيها وأرسلتها إلى الازهر وطلبت منه أن يرسل اليها كل من وقعوا عليها لسؤالهم عما شهدوا به، والتدقيق في البحث معهم فيه. فرأى الازهر أن لا يرسلهم دفعاً للاهانة عنهم، واستحضر أولئك الشاهدين من العلماء فقرروا جميعا انهم لم يعلموا بما شهدوا عليه، وانهم إنما ختموا على تلك الورقة لان كاتبها أفهمهم بانه يريد التوظف في مسجد ببلده وانه يليق لتلك الوظيفة. ثم أرسلت المشيخة نتيجة التحقيق إلى النيابة في الزقازيق وبها دبن المتهم. ثم نشرت المشيخة إلى عموم العلماء منشوراً تحذرهم فيه ان يشهدوا بما لا يعلمون. ونظائر هذه كثيرة الوقوع

(ومنها) مقاومة ديوان الاوقاف في استئثاره على الازهر ومن فيه خصوصا في مسائل التوظيف والامامة ومستخدمي الجامع وما ألحق به. والمشاكل بين

الازهر والديوان في هذا الباب عديدة وأقربها مسألة الاسكندريه الاخيرة ومسألة المنصورة ولا نطيل فيهما الكلام .

ومما كان بين الازهر والاوقاف مسائل من يموت من العلماء وله مرتب في الديوان رتب له لانه من العلماء فان المادة (٢٥) من قانون المرتبات تقضي بانه اذا انحل عن أحد العلماء شيء من هذا القبيل لايعود الى الديوان ولكن يوزعه مجلس الادارة على علماء الازهر في منفعة التعليم وقد مات في زمن الشيخ حسونه بعض العلماء ممن لهم هذا المرتب وكذلك في زمن الشيخ سليم وفي زمن السيد الببلاوي وكلما قرر الازهر توزيع مرتب واحد منهم على العلماء وأرسل قراره الى الديوان ليأمر بالصرف بموجبه قامت قيامة أهله كانهم يصرفونه من خزائنهم ، ويضطر الازهر الى كثرة الاخذ والرد ، والى تردد بعض أعضائه على الديوان حتى ينتهي الامر باجابة الازهر الى ما أراده من المحافظة على القانون (١)

وقد كان من الواجب على الديوان ان لا ينازع ان كان لا بد من المنازعة الا في المرة الاولى ثم يجعل ما انتهى عليه الحال فيها قاعدة للعمل في المستقبل ، ولكن هكذا كان يقع النزع في كل مرة بخصوصها .

إني لأتذكر ان مشيخة الازهر كانت كتبت الى الديوان في اواخر عهد السيد الببلاوي بما مضمونه (اننا علمنا بان مولانا الجناب العالي قد تفضل على بعض علماء الازهر في هذا الزمن الاخير فاحسن عليهم برواتب مختلفة من جنيهين الى عشرة جنيهات في الشهر وصدرت اوامره العلية بذلك ، والازهر يهمه ان يعرف اسماء من رتبت لهم هذه المرتبات ومقدار ما رتب لكل منهم ليقيدها في دفتره وليقبضها مباشر الازهر مع المرتبات الاخرى ويسلمها الى أربابها كما هو متبع في سواها) فحفظ الديوان هذه الكتابة عنده زمنا الى ان جاء هذا التغيير الحديث في مشيخة الازهر ومجلس ادارته فكتب الى الازهر جوابا عن تلك الكتابة مضمونه « قد علمت كتابة الازهر المتضمنة طلب اعلامه بمن رتبت لهم مرتبات

---

(١) لولا هذا العضو وهو الاستاذ الامام كما هو معلوم لم يتجرأ الازهر على معارضة ديوان الاوقاف ولا مطالبته ، ولما كان يستفيد من المطالبة ما يريد

حديثة من علماء الازهر ومقدار ما رتب لـكل منهم ، وقد تحقق الديوان ان الازهر يريد ادخال هذه المرتبات الجديدة تحت حكم المادة (٢٥) من القانون ولذلك استعلم من المعية السنية عنها فأجابت بان هذه المرتبات لهؤلاء العلماء هي شخصية وعلى ذلك فهي لا تدخل تحت قانون المرتبات الازهري » وهو جواب من الاوقاف غير مقنع كما تراه لا يقتنع به الا من يريد السكوت

(ومنها) تعويد الطلاب والعلماء المواظبة في العمل ، والمحافظة على مواعيد الدراسة الرسمية ، وتعليم الطلاب انه لا يتقدم أحدهم في الجرايات الا بالجد . فشرعت لهم نظامات الانتساب والانتظار ، وحددت لهم فيها المواعيد ، وسنت لهم الامتحانات ليتقدم أهل الاعمال على أهل البطالات فسادت هذه الروح بين الطلبة خصوصا طلبة الحنفية المقيدة أسماؤهم في الرواق وفي الدفتر، ومستحقي وقف المرحوم سليم باشا اتوزبير الشهير من الشافعية والمالكية والحنفية ، وكل هؤلاء تحت نظر مفتي الديار المصرية (١) بمقتضي شروط الواقفين أو قرارات المشايخ السابقين، فقد فهموا ان الاستحقاق لا يكون الا بالاشتغال، وان الاشتغال لا يتبين الا بالاختبار ، فصاروا يتقدمون اليه ، ويتهافتون عليه

(ومنها) فصل ما يقع من المشاكل كل يوم بين الطلبة وبين مشايخ الاورقة والحارات بتحقيق ما يشكو منه الطالب أو الشيخ وتقرير ما يقطع الشكوى وما يحسم النزاع واكثر ما يكون وقوع هذا في رواق الصعايدة والشوام ورواق المغاربة ورواق البرابرة، واما غيرها فوقوع النزاع فيها قليل

(ومنها) المراقبة الشديدة على سفر الطلاب والعلماء في غير المواعيد المقررة حتى صار من البديهي عندهم ان السفر لا يكون الا بعد الاستئذان من الجهة المختصة باصدار الاذن به وصدور أمرها كتابة الى مريدي الاسفار وشدة الملاحظة والمراقبة على أمر النظافة في الجامع وأروقته وفرشه وخزائنه وكل هذا وغيره مشاهد معلوم

(١) أي وهو الاستاذ الامام المنفذ للنظام فيهم ومن أجدر بتنفيذ النظام من واضعه لقوة شعوره بالحاجة اليه

تمهيد لبيان الشغب قبل الانقلاب

لا يشك عاقل متدين في ان هذه الاعمال كلها كليها وجزئيها مما يرضاه الدين الحنيف، ويأمر به الشرع القويم، ويقبله العقل السليم، وليس فيها مايقلق طالبا أو عالما، ولا مايوجب شغبا أو لغبا، ولا ما يولد شقاقا أو خلافا، ولا مايقتضي زعزعة في العقيدة أو فسادا في الاخلاق، ولا مايوجب نزوعا الى الثورة، أو شغلا عن العمل النافع، ولا مايستدعي ترك علوم الدين واهمال تعليمها، ولا ما يخرج بهذا المكان عن كونه مدرسة دينية محضة، تدرس فيه العلوم الدينية المحضة، ولا ما يجلب على هذه المدرسة عارا في بلد من البلدان، ولا مايدعو الى الاضطراب والهياج، ولا ما يخالف نظام الهدوء والسكينة والاطمئنان، ومن ادعى شيئا من هذا فعليه ان يميز بين الدين وعدم الدين، فان لم يستطعه وأراد محو ماوضع وان كان هو النافع للدين، واحداث مايغايره وان كان هو الضار بالدين، فما عليه الا أن يعمل ليستصدر امرا عاليا بالغاء كل ما كان بناء على انه مخالف للدين، وارجاع الازهر الى ما كان عليه من قبل، وهذا أمر غير ميسور لان الجناب العالي أيده الله قد تحقق من نفع هذه الاعمال وموافقتها للدين، وأنها مفيدة للعلم والمتعلمين، موطدة لاركان علوم الدين، لانه كما سبق قد استحسنها جميعها، باستحسان كل واحدة منها عند صدورها، بل ان جنابه العالي هو المبتكر للكثير منها، وأهمه تشكيل مجلس الادارة وصدور الاوامر بما وضعه (المجلس) من القوانين، وهو المؤيد لباقيها المساعد على ايجادها بما أمدها به من المعونة بأموال الاوقاف الخيرية، وهو أفضل ماتنفق فيه. ولا يرضى جنابه العالي وهو الامام، بان تحل الهمجية محل النظام، ولا تسمح نفسه العلية أن يحكم بأن ما أمر به لاصلاح الدين مخالف للدين. وصاحب الغرض وان كان يقتدر على تصوير الخير بصورة الشر، وعلى تمثيل الحق بالباطل، والنافع بالعاطل، وتشويه المليح، وتزيين القبيح. الا انه لا يلبث أن يظهر مقصده فيقع في شر اعماله وان للبيت ربا يحميه (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون) .

ندع هذا كله ليحكم فيه من يطلع عليه ونرجع بالسيد الببلاوي الى ما بعد

تسعة أشهر من تعيينه سار فيها مع أعضاء مجالس الادارة بغاية الوئام والوفق كما قد مناه واتخذ العمل الصالح إمامه وجعل مقصده خدمة العلم والعلماء والطلاب

[ثم ختم الكاتب كتابه بعد هذه المقدمة بذكر الشغب الذي كان السبب المباشر لاستقالة السيد الببلاوي من مشيخة الازهر ، والمفتي الشيخ محمد عبده والشيخ عبدالكريم سلمان من مجلس إدارته فننشره ونقفي عليه ببسط الحقائق التي لم يكن يستطيع هو التصريح بها ـ قال]

الشغب الذى انتهى باستقالة الببلاوى

﴿ والعضوين العاملين بالمجلس ﴾

بعد مضي تسعة أشهر من تعيين السيد علي الببلاوي ـ والناس في هدوء وسكون، وجميع المدرسين بلا استثناء في وفق على طاعة رئيسهم، والطلاب قد وضعوا بين أيديهم أملا يقصدونه بعملهم ـ سمع الناس فجأة بضجة بين بعض المدرسين وهياج الى الشكوى من أمور كلها من مقتضى الامر العالي الصادر بنظام الازهر وما عدا ذلك مما سمع ليس له حقيقة بالمرة، ووجد بعض الزعانف من بينهم يدعون الناس الى الختم على عرائض الشكوى ، وموضع تلك العرائض التي يؤتى الناس للختم عليها منزل شيخ كان معروفا من قبل بالبعد عن الناس والابتعاد عن أبواب الامراء ، وكان يظهر من التعفف والتقشف ما يمثل به سيرة الصالحين ولم يكن يطلب من حظوظ الدنيا الا أن يكون شيخ القاري بمصر (١) يأخذ جراياتها ويتسلط على قرائها الا انه من عدة سنوات نصح بعض المتزلفين للجناب العالي الخديوي أن ينشيء في دمينه درسا للتفسير في شهر رمضان على نحو ما يحصل من سلاطين آل عثمان فأمر الجناب العالي شيخ الازهر الشيخ سليم البشري بانتخاب اثنين من العلماء لذلك فانتخب ذلك الشيخ والاستاذ الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الحالي

(١) في مصر طائفة تعيش بقراءة القرآن للموتى في القبور وفي غير القبور ولها رئيس يسمى شيخ المقاري

على ان من نحن بصدده يقرأ كل يوم من رمضان في سراي القبة ، وأما الآخر وهو شيخ الازهر الحالي فانه يقرأ كل يوم جمعة منه فقط في سراي عابدين

من ذلك العهد خلع الشيخ القصير ثوب التقشف الطويل ، وارتقى على سنه وشيبته إلى درجة من حب الزلفى أقسم فيها بالله: إن أفندينا العباس ولي من أولياء الله. وذلك في حضرة أحد مشايخ الازهر السابقين، ثم ساق له بعض الكرامات، وحكى عنه ماشاهد من خوارق العادات (١) . ثم ان الشيخ سليما استعمله في السعي لابطال مكافأة طلاب الازهر التي سبق الكلام عنها، ونحو ذلك من مقاصده التي مر عليك خبرها . أصبح هذا الشيخ وسيلة من الوسائل يتوسل بها من شاء إلى ماشاء. وهو الذي أرسل بعض من يجتمع عليه يدعو بعض المشايخ لختم العرائض بالشكوى من السيد علي الببلاوي ومجلس إدارة الازهر، فأخذوا يوفدون الناس إلى منزله وهو ومن معه يقولون لمن يحضر : إن هذه عرائض بطلب زيادة مرتبات وعد أفندينا بمنحها للمدرسين ، ومن طلب قراءتها ليعرف ما فيها اضطروا أن يقولوا له ان هـذه الشكوى على رغبة أفندينا ومن ختم نال المكافأة ومن لم يختم صار مغضوبا عليه، وهو يصدق لان الشيخ من الحاشية

بحث الباحثون عن السبب في هذه الضوضاء وقيام الشيخ بمن يسمع قوله للشكوى وقد كان من الهدوء والسكينة بحيث يضرب به المثل ، والذين هاجوا معه كانوا من المنتسبين لشيخ الجامع ولاعضاء مجلس الادارة وممن سبق احسان هؤلاء اليهم ، فوجدوا أن ذلك كله كان عقب قرار صدر من مجلس الاوقاف

(١) وهو ان سموه كان بالاسكندرية فكلم الحاشية في سراي القبة : ان الشيخ يحضر لقراءة الدرس فلا تدعوه يذهب حتى يفطر، فعلم سموه ان الشيخ سيحضر وهو غائب وهذا من المكاشفة وعلم الغيب الظاهر، وما كان يقول هذا الذين يجهلون أن مجيئه الى السراي كان معروفا للخديو لاجل الدرس بل يقوله لمن يعلم ذلك ؟ وما كان الخديو مكاشفاً وانما كان كاشفاً لدجل الشيخ وتلبيسه اذ ادعى انه يجمع له الجن ويريه بعض أعمالهم فأدرك الخديو حيلته في ذلك وأظهرها له

الاعلى في مسألة استبدال أرض للاوقاف في الجيزة وقد اشتهر أمرها ولا يزال مشتهراً إلى اليوم . وقال قائلون ان الغرض من هذا كله الانتقام من المفتي لان هذا القرار صدر بموافقته. وسواء كان السبب معقولا أو غير معقول فهـذا هو الذي كان يقال ولا يزال يقال

مع السعي والتحريض والترغيب والترهيب لم يوافق الشيخ على الختم أكثر من خمسين مدرسا (من عدد أربعمائة ونيف) قام هؤلاء النفر وحملوا عرائضهم وقدموها إلى الجناب العالي فدرجت في الادراج، وظهر بعد ذلك ظهور الشمس في ضحاها ان مبعث الحركة كان السراي العامرة، لازالت ببركة الميل الى الوفاق عامرة

وحدث في أثناء ذلك مسألة الزوجية المشؤومة على البلاد والعباد، فظن قوم برجال الازهر التقصير في معونتهم أو انهم يعاونون خصومهم، ولا والله ما أصابوا، فما رجال الازهر من أولئكم الطرفين . فمن ثم كان لهذه الحادثة ما كان لها من التعكير على ادارة الازهر ، ولا يدري عاقل ما العلاقة بينها وبين هذا الاثر وقد قيل ماقيل (*)

وقعت هذه الاحن كلها موقع التصديق ، فأحب الجناب العالي على زعم البعض أن يستقيل أعضاء مجلس الادارة أو بعضهم حتى ينتهي المشكل ، ولكن جنابه العالي لم يصرح بذلك لاحد من الاعضاء بطريق رسمي أو شبه رسمي. وإنما كان يذيعه بعض أولئك العلماء ومن أعانوهم حتى يصلوا إلى غرض مخصوص ، وأما الحكومة فقد صمت أذنها في ذلك الوقت عن سماع مثل هذه الاصوات ، وتركت

(*) عقد الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد نكاحه على صفية بنت السيد عبد الخالق السادات بدون إذن ابيها ، واخرجها الى بيته فرفع والدها عليه قضية طلب فيها فسخ العقد لانه غير كفؤ لها ، فحكم القاضي الشرعي أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر في القضية ، وآخرا ببطلان العقد لعدم الكفاءة . وعدت الامة المصرية عمل الشيخ علي إفسادا لآداب الامة وهاجت عليه الجرائد ، وكانت القضية شغلها الشاغل، وأمين صاحب المؤيد إهانة قبيحة عامة ، وكان الخديو نصيرا له بالطبع واتهم هو الاستاذ الامام بأنه عونا للسيد عبد الخالق السادات عليه ، فهذا ماأبهمه المؤلف كما أبهم كثيرا من المسائل أو أظهر الريب فيها تقية واحتراسا

الشاكين والمشكويين يقولون ويعملون مايشاءون . فطال الزمن على هذه الضوضاء ولم يشأ رجال الازهر قمع أولئك المحركين باجراء العقوبات المنصوص عليها في قانون الجامع الازهر لانهم جزموا بان أولئك النفر آلات في أيدي أولئك المعينين لهم اللاعبين بهم ، الذين يذيعون ان جميع أقوالهم وأعمالهم انما تصدر عن رضى واستحسان من ولي الامر ، وما هم في ذلك إلا موهمين

كبرت كل هذه الاحوال عند السيد علي الببلاوي ورأى انه معطل عن العمل ولا فائدة من وجوده ان لم تترتب عليه الآثار ، فحاك في خاطره أمر الاستقالة وأفضى به إلى بعض أعضاء المجلس فلم يوافقوه عليه ، فكمن في نفسه يترقب الوقت ويتحين الفرص ، حتى رأى ان قد رتب للبعض من أولئك الساعين بالازهر (ومنهم الشيخ المنصوري الذي كانت معونة الشيخ سليم له سببا في عزله من المشيخة) مرتبات من الاوقاف على غير علم منه ولا مذاكرة معه ، ولا أخذ رأي له فيمن يرتب له ومقدار مايكفيه ، وتجسم خاطر الاستقالة في نفسه وجعله نصب عينيه ، لانه جزم بأن ترتيب هذه المرتبات هو تشجيع لاولئك الناس واستحسان لما يعملون . وانه يحط منزلته بين العلماء ، ويكون عقبة في طريق أعماله التي لا يقصد منها غير فائدة الازهر والازهريين

حدثت بعد ذلك حادثة رواق المغاربة وهي ان فريقا منهم قد احتلوا بعض غرف خالية من السكان في الاروقة العباسية الجديدة . فأراد مجلس ادارة الازهر إخراجهم منها واجراء التحقيق فيما صنعوه ، فلم يمتثلوا وأبوا الانقياد وتداعموا بالقنسلاتو الفرنساوية ، فدارت المخابرة بين بعض أعضاء المجلس وبين ناظر الخارجية وبينهما وبين القنسلاتو ، حتى استقر الرأي على أن يعمل الازهر بمقتضى قانونه ان لم يمتثلوا لأوامره . فكان كذلك وصدر قرار مجلس الادارة بقطع عدة أشخاص منهم بمقتضى قانون رواقهم ، وطلبت الخارجية امهال تنفيذه حتى تعلم حال القنسلاتو في شأنهم ، فلم يكن منها أدنى ممانعة للحق والقانون . ولما دعي شيخ رواق المغاربة للمفاوضة معه في شأنهم لم يعثر عليه إلا بعد يومين كان فيهما حيث لا يعلم مكانه أحد من الازهر ، ثم عاد فأخبر أن القنسلاتو غير معارضة للازهر في شيء

وانها تحب أن يعمل الازهر. معهم باللين أولا فان لم يفعل فليجر أحكام القانون

خرج المغاربة من الاماكن التي احتلوها وانتهت حادثتهم، ولكن شيخهم هرب ولم يخبر المشيخة بما وقع، فبحثت عنه فقيل انه في حلوان مرة، وقيل انه في غيرها أخرى، ولم يزل غائبا حتى حضر الجناب العالي من الاسكندرية وظهر أن غيبته كانت في سراي القبة. ولم يزل فيها حتى انتهى الامر في المشيخة وجاء يخبر بان الجناب العالي رأى حلا آخر غير ما اقتضاه القانون وجرى عليه مجلس الادارة، ولا ضير فان أمره أعلى من القانون

في أثناء هذه الحركات الاخيرة تردد بعض الحواشي على بيت السيد الببلاوي فكاشفهم بما يريده من أمر الاستقالة، فما أظنهم إلا قد حسنوها اه خصوصا وانه قد ضجر من تكرار هذه الملمات، وجزم بانه معطل عن العمل لا محالة، وانه لا يرجى من بقائه أن يعود إلى عمله المفيد. فكتب في يوم ١٥ مارس سنة ٩٠٥ استقالته وسلمها إلى رئيس الديوان الخديوي العربي والافرنجي، وهو أبقاها عنده إلى أن شرف الجناب العالي من بعض تنقلاته، وجنابه العالي تقبلها وأمر بان يكتب اليه كتاب القبول، وفيه غاية التلطف والعطف والاحسان، ثم استقر الرأي على تعيين الاستاذ الحالي الرجل الزاهد المعتقد الجليل، فصدر الامر العالي بتعيينه بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٣٢٣ (١٩ مارس سنة ٩٠٥) وعقب تعيينه استدعي إلى السراي العامرة في محفل حافل من العلماء، لالباسه الخلعة المعتادة لمن يعين شيخا للجامع الازهر

وفي هذه الحفلة قال الجناب العالي قولته المعروفة في الازهر وما يقصده فيه وما يحبه له، وعلى أثر ذلك جزم العضوان الموظفان بانهما ربما لا يلائمهما العمل في هذه الهيئة الجديدة، فاستقالا بعد تعيين الشيخ الجديد بنحو ستة أيام، وقبلت استقالتهما وصدرت الاوامر العالية بتعيين بدلهما. وعلى ذلك استقرت الحال

وبالجملة فقد كان زمن الشيخ حسونة كله على الازهر خيراً وبركة، وكان زمن الشيخ سليم البشري كله زمن وقوف حركة، وكان زمن السيد الببلاوي كله زمن ونام ووفق، وعمل بقدر ما يطاق، ونسأل الله أن يكون هذا الزمن الجديد زمن نجاح وفلاح آمين (كتب في أوائل سنة ١٣٢٣)

(هذا آخر مادونه الشيخ عبدالكريم رحمه الله من هذا التاريخ)

خلاصة الكلام

فى مسألة اصلاح الازهر

قد لخصنا ما كتبه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان من تاريخ الاصلاح للازهر الذي سعى الاستاذ الامام اليه ، وكان هو أكبر أعوانه عليه ،

وملخص ما كتبه ـ وهو وقائع رسمية مقرونة باسبابها ونتائجها ـ ان الخديو عباس حلمي باشا كان مقتنعا بما بسطه له الشيخ محمد عبده من الحاجة إلى إصلاح الازهر من كل وجه ، ومخلصا في مساعدته عليه ، وان الشيخ حسونة النواوي أمثل من غيره من الشيوخ استعداداً لقبول الاصلاح وتنفيذ مايقترحه الشيخ محمد عبده على مجلس الادارة ويقنعه به فيحمله على تقريره ، وانما كان البطء في المضي في الاصلاح من ضعف استعداد أعضاء مجلس الادارة لتغيير تقاليدهم ، وكان الاستاذ الامام يريد أن يكون الاصلاح برأيهم واقتناعهم واقتناع جمهور العلماء وألفتهم النظام فيه ليكون ثابتا . وكان الشيخ حسونه لايعارض الاستاذ الامام رأياء ولايخالف له قولا ، ولكنه يطالبه بأن يسير بالتدرج إلى الاصلاح الهوينا ، ولولاه لسار فيه شوطا بعيداً ، فتخرج فيه بامثاء الكتاب ، ومصاقع الخطباء ، وفحول العلماء ، وكبار رجال القضاء ، والدعاة إلى الاسلام ، والوعاظ المرشدون للعوام ، بما تقتضيه حال هذا الدهر في كل العلوم والاعمال ، وانتشر ذلك في العالم الاسلامي وغيره .

كان الاستاذ الامام صاحب عارضة لا تعارض ، وحجة لا تناهض ، وعزيمة لايفل لها حد ، وهمة لايعرض لها فتور ولا يأس ، وكان أعضاء الادارة يعلمون أن أمير البلاد يؤيده ، والحكومة تنصره ، وقوة الاحتلال لاتقاومه ، فلايجدون لهم تفصيا مما يطالبهم به بعد سقوط شبهاتهم دونه ، الا استعانة صديقه الشيخ حسونه عليه بمطالبته بالرفق واتباع سنة التدريج حتى إنهم ألقوا هذا الرأي إلى الامير

ومن أمثلة كبحه لجدلهم بالشدة ان الشيخ محمد البحيري ـ وكان من أذكاهم ـ قال له في مجلس الادارة في الدفاع عن المنهاج الازهري في التعليم : إننا نعلمهم

كما تعلمنا . قال الاستاذ الامام وهذا الذي أخاف منه. قال البحيري ألم تتعلم أنت في الازهر وقد بلغت مابلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم الفرد ؟ قال الامام إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر، فانني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ماعلق فيه من وساخة الازهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ...

وقد اغتر الشيخ حسونه بما كان من الضوضاء في مسألة قاضي مصر الشرعي المشهورة، فخرج عن رأي الشيخ محمد عبده في سيرته فيها، فكان ذلك سبب عزله من مشيخة الازهر وافتاء الديار المصرية معـا ، وسيأتي شرح هذه المسألة في مكانها اللائق بها من هذا التاريخ ، وولي المشيخة بعده الشيخ عبدالرحمن القطب والافتاء الشيخ محمد عبده نفسه كما سيأتي ، ولم يلبث الشيخ القطب ان توفي، فبادر الخديو إلى تعيين الشيخ سليم البشري شيخا للازهر

وفي أثناء عهد الشيخ سليم تغيرت نيـة الخديو وأفكاره بسبب مانذكره وراجت لديه دسائس العلماء وغيرهم ، فكان ذلك مجرئا للشيخ سليم على وقف سير الاصلاح في الازهر، حتى انه كان يمتنع من تنفيذ قرارات مجلس ادارته، التي تقرر بالا تفاق معه في الجلسات التي تعقد برياسته ، وكان الشيخ محمد عبده يصبر على ذلك وهو قادر على إكراهه أو عقابه إذا أصر على عدم تنفيذها

قال لي مرة عند الحديث في هذه المسألة : ان الشيخ سليما مسكين لايعلم ان مادة كذا من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ مايتقرر من أحكام قانونها محاكمة جنائية ، واني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الادارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا بمقتضى قانون الازهر وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه القرارات فانه لايسعه إلا أن يدعوه للتحقيق في محكمة الجنايات، ولكنني انما أريد أن يكون اصلاح الازهر برأي شيوخه واقتناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين ، ولا فرق فيها بين قانون الازهر وسائر قوانين الحكومة ، إذ هو صادر بمقتضى ديكرتو خديوي كغيره

[أقول ولدى مذكرة بخطه في مواد قانون الازهر التي امتنع الشيخ من تنفيذها سأنشرها بعد]

(قال) وانا مادمت في هذا المكان لا أدع للحكومة مجالا للتدخل في شؤونه لانها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية

وقد أراد الانكليز التدخل في شؤون الازهر في تلك الفرصة ليرفعوا عنه سلطة الخديو ويجعلوه تابعا لمجلس النظار، فكان الاستاذ الامام حائلا دون ذلك

أخبرني مرة أن لورد كرمر أرسل اليه أنه يريد أن يزوره ـ وقد علم رحمه الله أن الغرض من هذه الزيارة الكلام معه في حالة الازهر إذ كان قد بلغه ما يفعله الخديو من الدسائس فيه، واستخدام الشيخ سليم فيها، ويريد أن تتدخل الحكومة في عزل الشيخ سليم كما فعلت في عزل الشيخ حسونه ـ قلت له وماذا تنوي أن تقول له ؟ قال أقول أحسن ما أعلم، وأسكت عن شر ما أعلم، ولا أقول إلا حقا، ولا أدع منفذاً لنفوذ الاجنبي أن يتسرب إلى هذا المعهد الديني قلت: حياك الله، ما أشد جهل قومك بمقامك، وعلو درجة إيمانك ووطنيتك !

ولكن الازهر صار بعد وفاة الاستاذ الامام خاضعا للحكومة في جميع شؤونه وكذلك مصلحة الاوقاف صارت وزارة مرتبطة بالحكومة بسعي الانكليز، وهو ما كان أنذر به الخديو كما تقدم في أول هذا المقصد فصح فيه المثل:

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

ولقد كان على شدة عنايته بالازهر وأهله والدفاع عنهم ومبالغته في تكريمهم شديد الاحتقار لهم في نفسه — إلا أفراداً منهم — وكان للأزهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص عند شدة تألمه من فساد حالهم وهي: الاصطبل. المارستان. المخروب (بهذا اللفظ العامي)

ولو أنه هو الذي كتب الكتاب الذي كتبه الشيخ عبد الكريم ولخصناه فيما تقدم كما كان ينوي لفضح هذا المكان المشهور بفضله وعظمته وخدمته للعلم والدين فضيحة لا أستطيع وصفها ولا تقدير سوء تأثيرها في الشرق والغرب، ولعجز أن يزيل ذلك التأثير المخزي كل أحد، وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم

آنفا من شهادة الزور حتى من قضاة الشرع والمفتين . الذين لقب المحقق ابن القيم أمثالهم « بالموقعين عن رب العالمين » وكان قد اطلع على مالم يطلع عليه أحد من مخازيهم بعمله في ادارة الازهر وتفتيشه المحاكم الشرعية كأكل السحت من الرشوة على الاحكام والفتاوى، وعلى ما هو أشد ضرراً منها وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية ، ثم ناهيك بما هو العلة لهذه المخازي كلها وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم الذي مكن الخدبو مما ذكر من العبث بهم ، والعزة والكبرياء على المجاورين المساكين والاهانة لهم ، وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتائمهم البذيئة المزرية التي لا تبقي في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ، ولا عزة الايمان المكتسبة ، وقد كان لكثير من أبناء أولئك الفقراء المساكين من الفلاحين نصيب وافر منهما . دع تأثير القذارة والامراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم

ولقد قلت للاستاذ الامام : كيف استطعت أن تعيش نظيف الجسم والثوب والعقل والقلب عزيز النفس في هذه البيئة التي نشأت فيها ؟ فذكر لي ان السيد جمال الدين استغرب هذا منه قبلي، وذهب الى ان له وراثة ممدة لفطرته فيه فكان يقول له : بالله قل لي أي أبناء الملوك أنت ؟ وسأبسط هذا في الكلام على أخلاقه

وقلت له مرة: انني جاهدت نفسي في التصرف على تعمد ترك لذائذ الطعام، والنوم على الارض ، وبذل مافي اليد ، حتى لم يعد يشق علي من ذلك شيء ، ولكنني حاولت أن أعود نفسي احتمال الوساخة بترك تغيير الثياب من العرق ، وترك الاستحمام غير الواجب مدة من الزمن ، فعز علي ذلك. إذ كان يضيق صدري منه حتى انه ليفسد علي عبادتي ، فلا أراني فيها منشرح الصدر ، ولا حاضر القلب ، . . فقال وأنا كذلك من كل وجه

وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والاوهام من أكثر القوم، حتى ان الشيخ حسونة الذي كان يعده الاستاذ الامام أمثلهم كان يقبل يد أحد أدعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يلبسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات ، فيؤمنونه على نسائهم حتى انهن كن يدخلن معه الحمام!!

وناهيك بما يفعلونه في احتفالات الموالد المبتدعة ، ومشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما ينذر لها من المال والفول النابت وغير ذلك

إنني أذكر هذه الاشياء وأنا متألم من ذكرها لأبين للقاريء أهم الابواب التي كان يريد الاستاذ الامام أن يصورها بقلمه البليغ ، ويذكر أسبابها ونتائجها وسوء تأثيرها في إضاعة الاسلام ، وهداية القرآن ، وسنة محمد عليه الصلاة السلام ، وما تبع ذلك من اضاعة ملك المسلمين وعزهم ومجدهم .

على أنه قد كان لذلك الاصلاح على ضعف وسائله ، وقوة غوائله ، تأثير عظيم في اصلاح اخلاق الازهريين وصحتهم ونظافتهم ، وكثر فيهم المقاومون للخرافات والأوهام ، والاستعانة على مصالحهم ومنافعهم بالاموات ؛ وأعود الى ايضاح ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم من سبب غضب الخديو على الاستاذ الامام وانتقامه منه بما عمله في الازهر

الغضب على الاستاذ الامام ورئيس الديوانه
وما اقتضاه من الانتقام

كان أنكى ما أحفظ سموه على الشيخ محمد عبده المفتي وعلى صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم (في ص ٤٨٩) ، وأبهمه كأمثاله وهو مسألة أوقاف الجيزة . وبيانه بالايجاز أنه عرض على مجلس الاوقاف الاعلى طلب استبدال بعض أراضي الاوقاف المعدة للبناء في الجيزة من ضواحي القاهرة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية ، وبني الطلب فيها على تقدير ريع المزرعة وكونه أكثر من ريع تلك الارض ، بما يقتضي أن يزاد عليها ثلاثون ألف جنيه ومع هذا تكون أنفع للوقف ، فقال الشيخ المفتي : الانفع للوقف في مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن لا بالغلة السنوية ، فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة برياسة (باشمهندس) الاوقاف لتقدير ثمنها وثمن تلك المزرعة . وكان أول من وافقه على هذا حسن باشا عاصم الذي هو نائب سمو الخديو في المجلس ،

ومن ذا الذي يعارضهما فيه ؟ تقرر تأليف اللجنة فقامت بعملها فكانت النتيجة أن الفرق الذي تتحقق به الانفعية للوقف إعطاؤه عشرين الف جنيه مصري فوق المزرعة فكانت جملة الخسارة خمسين ألفاً

بهذا اشتدت حفيظة سموه على مفتي الديار وعلى رئيس ديوانه ، وآلى حلفة لاتحلل ليخرجنهما من منصبيهما أو يخرج هو من منصب الخديوية

فاما منصب رياسة ديوانه فأمره اليه وحده ليس للحكومة ولا للاحتلال المسيطر عليها رأي فيه ، ولكن قوانين الحكومة لاتبيح العزل بغير ذنب يحكم فيه مجلس تأديب . وكان سموه يكره احالته على المعاش لانه يحب أن يخرج من عمله عاريا عادما ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستقالة ، فكان سموه يعمل كل ما من شأنه أن يسوءه ليستقيل ، يعمل ذلك بنفسه وبالايعاز إلى موظفي الديوان ، وكان حسن باشا على عزة نفسه وإبائه يتجاهل كل هذا ويصبر عليه حتى لا ينال الخديو أربه منه ، فلما أعياه أمره ، وعيل صبر سموه وما عيل صبره ، أحاله على المعاش

وأما منصب الافتاء فله علاقة بالحكومة والمفتي عندها من موظفي وزارة الحقانية لامن موظفي المعية ، فرأى سموه انه لابد من التوسل إلى النيل منه بارضاء العميد البريطاني ودولته .

وقد دونت خبر إحالة حسن باشا عاصم على المعاش وخبر استرضاء سمو الخديو للانكليز متعاقبتين في مكان واحد من جزء المنار الذي صدر في غرة شوال سنة ١٣٢٢ (٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤) من المجلد السابع

وذكرت في الخبر الاول اجماع الجرائد على الثناء على حسن باشا عاصم واستغراب إحالته على المعاش من غير سبب ، إلا اللواء فانه رجح أن سبب الاحالة غضب الامير على رئيس ديوانه « منذ حدثت مسألة استبدال مزرعة الامير المعروفة (بمشتهر) بارض لديوان الاوقاف في الجيزة . والمسألة مشهورة وملخصها أن طالب الاستبدال كان طلب من ديوان الاوقاف ثلاثين الف جنيه زيادة ، فما رضي الديوان حتى أخذ منه عشرين الف جنيه . وكان ذلك بموافقة حسن باشا الخ.

وأما مسألة استمالة سموه للانكليز فقد كتبت فيها مانصه (ص٧٥٩ م٧) :

﴿ استعراض الامير لجيش الاحتلال احتفالا بجلوس ملك الانكليز ﴾

جرت عادة المحتلين بأن يستعرض عميدهم جيش الاحتلال في ميدان قصر عابدين لما لا يخفى، وقد سبق من توفيق باشا الخديو السابق التراثي للجيش من شرفة القصر، ولكن عباس باشا الخديو الحالي أعرض عن ذلك حتى كان في احتفال هذا العام، وكان في أول أيام الصيام، أن خرج بملابسه العسكريه وحضر الاستعراض مع اللورد كرومر تحت العلم الانكليزي، فكان لذلك تأثير عظيم في النفوس وامحى بهذا مع ماسبقه من قبيله ما كان يتوهمه الدهماء من أن الامير هو المعارض للمحتلين وأن النظار هم المشايعون لهم ؛ وعلموا أنه أشد من نظاره وفاقا معهم، لان أولئك يوافقونهم لمكان القوة فيما يريدون ، وهو يمنحهم أكثر مما يطمعون، ولا نقول الا ان ماظهر وتبين نافع، وان خفاء الحقيقة قبله كان ضاراً لما فيه من غش الامة والقذف بها في معامي الغرور والوهم ، فللامير ـ وفقه الله تعالى لكل مايرضيه ـ الشكر أن كذب بعمله أولئك المغررين المخادعين الذين شغلوا قلوب الناس بمسألة وهمية وهي مقاومة المحتلين، ونسأل الله تعالى ان يوفق أهل هذه البلاد إلى الاستفادة من هذه الحالة بالمحافظة على أرضهم وتثميرها وعمارتها، وبالعناية بتربية أولادهم وتعليمهم العلم النافع ليحيوا حياة اجتماعية شريفة يرتقون بها إلى أن يكونوا أمة عزيزة، فان الحرية الهادئة لا يرتقي فيها إلا المهذب المقتصد، ومن اتبع فيها هواه، خسر دينه ودنياه اه

وقد كان المؤيد وغيره من الجرائد لبسوا على الناس هذا النبأ الغريب وجعلوه من فلتات المصادفات، ونوادر الاتفاقات، فكان ما كتبته آنفا فضيحة لتلبيسهم، ولما اطلع عليه الامير استشاط غضبا ، وحرق الأرم حنقاً، لأن صيته بمقاومة الاحتلال هو رأس ماله في التحبب إلى الشعب وتبغيض النظار اليه ، واستحضر بطرس باشا غالي وزير خارجيته فأعطاه المنار وأمره أن يذهب به إلى لورد كرومر ويترجمه له ويبين له ان الذي أغرى صاحب المنار بهذه الكتابة هو الشيخ محمد عبده لانه يكره الاتفاق معهم

هذا ما كان من التمهيد السياسي لاخراج المفتي من منصب الافتاء ومن ادارة الازهر ، وأما التمهيد الديني فنشير اليه بما يأتي:

﴿ التمهيد الديني ، بعد التمهيد السياسي ، للانتقام من المفتي ﴾

غيرة شيوخ الازهر على الدين

في هذه الاثناء كثر خوض العلماء في مسألة الازهر والتبرم مما يسمى الاصلاح فيه ، واضافة مايسمى بالعلوم الجديدة إلى دروسه ، وتبارت أقلام الكاتبين منهم في الجرائد في الشكوى من هذه العلوم، والخوف منها على الدين القويم والشرع الشريف، ومن امتحان الطلبة فيه ، ومن مكافأة الناجحين منهم بالدراهم ومن مفاسد ذلك عندهم ان هؤلاء الناجحين المكافئين يؤلفون حزبا جديداً لبعض العلماء (يعني الاستاذ الامام) وقد كتبت في تلك الايام مقالات كثيرة في الجرائد رددت فيها على ماكان ينشر من ذلك وكنت أضعها امضاء (أزهري) أو غيره

وكان من تلك المقالات مانشره الاستاذ الشيخ محمد الاحمدي الظواهري في المؤيد في ٥ المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) من الانتقاد على طريقة الازهر القديمة في التعليم لبنائها على « التقليد وضيق الفكر » والتسليم لما يقرره المشايخ في تفسير الكتب ، وينتقد طريقة الاصلاح الجديدة في مدارس المعاهد الدينية ويقول فيه « وارجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس بعنايتكم وان تقطعوا منها جراثيم الفساد والانحطاط » . وأذكر ان المؤيد تعقب هذه المقالة بانها مخالفة لما كتبه الشيخ الظواهري في كتابه (العلم والعلماء) من مدح طريقة الاصلاح الجديدة والترغيب في العلوم الجديدة الخ وانه عاد فكتب مقالة أخرى يؤيد بها رأيه الجديد بنصوص من ذلك الكتاب ، ولا غرض لنا في بيان الرأيين هنا وقد نشرنا في ذلك الوقت أهم ما جاء في كتاب العلم والعلماء من فساد التعليم في الازهر وفساد علمائه وما يجب أن يكونوا عليه ، وضربه المثل العالي لهم بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وما قيل من سبب مخالفته لذلك ومجاراته للشيوخ المعارضين للاصلاح ، فليراجعه من شاء في صفحة ٧٢ و ٩١٠ من مجلد المنار الثامن

وانما نقول هنا ان التمهيد السياسي المشار اليه لم يثمر لسموه إلا عدم معارضة الانكليز والحكومة المصرية له في التبديل الذي يريده في الجامع الازهر باستقالة شيخه السيد علي الببلاوي والشيخ محمد عبده والشيخ عبدالكريم سلمان (رحمهم الله تعالى) وأما إفتاء الديار المصرية فقد صرح لورد كرومر بان الشيخ محمد عبده يظل مفتيا في مصر ماظلت بريطانية العظمى محتلة لها ، وانحصر انتصار الخديو في هذه المعركة بما ذكر من استقالة الشيوخ الثلاث بتأثير التمهيد الديني الذي علمه القراء ، ولكن هذا النصر كان صوريا لاحقيقيا ، بل هو شر انكسار الامير نفسه، لأنه أضاع به ما كان يستقل به من الامور الدينية العامة حتى الازهر – وشر خيبته للشيوخ الذين يسخرهم الامير لمقاصده كيف يشاء والأزهر نفسه، لأنه بني على حرمان الازهر من اصلاح وعلوم لا ارتقاء فيه بدونهما ، وحرمانه بذلك من تخريج القضاة الشرعيين حتى لا يكون للمتخرجين فيه نصيب من تنفيذ ما بقي للامة من أحكام الشريعة الاسلامية ؟ إذ لم ترض الحكومة به إلا بعد أن رضي الامير معها بانشاء مدرسة خاصة لتخريج القضاة الشرعيين وموظفي المحاكم الشرعية ، ولكن أكثر أولئك الشيوخ لم يكونوا يعقلون هذه الخيبة والكسرة ، وما عقلوها إلا بعد سنين كثيرة ، أجمعوا فيها على ان إنشاء مدرسة القضاء الشرعي انما كان قضاء على الأزهر نفسه وبذلوا جهدهم لالغائها ، واعادة النظام الذي حاربوه وسعوا لابطاله مسخرين مذللين

تمام التمهيد بشخص الشيخ الشربيني

كان الشيخ عبد الرحمن الشربيني رحمه الله من أشهر شيوخ الازهر في علومه ومن أشهرهم بالصلاح والزهد في الدنيا ومناصبها ، وأبعدهم عن التفكر فيما يرتقي به اهلها . وقد عرضت عليه مشيخة الازهر مراراً فأعرض عنها وما قبلها ، ولكنهم في هذه المرة أقنعوه بأنه قد انحصر في شخصه إزالة الفساد الذي يسمى بالاصلاح، وتوجيه تعليم الازهر الى ما يليق بعلماء الدين من التقوى والصلاح ، وكان أول من اظهر للمسلمين قبوله لذلك الشاعر الكاتب خليل مطران (السوري المسيحي) فتلقى من فمه حديثا نشره في جريدته (الجوائب المصرية) رددت صداه الجرائد ،

وفي مقدمتها جريدة المؤيد التي كانت مذبذبة في هذه الحادثة ؛ لأن الشيخ علي يوسف كان يعتقد وجوب إصلاح الازهر وأن الشيخ محمد عبده هو القادر على هذا الاصلاح دون غيره من العلماء وغيرهم، ولكن سياسته كانت تقديم إرضاء الخديو على كل ما سواه إذا تعارض معه ، وكان قد أساء الظن بالاستاذ الامام في قضيته الزوجية كما تقدم فآثر الانتقام منه لنفسه أيضاً

وهذا نص الحديث

حديث الشيخ عبد الرحمن الشربيني

هذا نص مانشره خليل مطران في جريدته (الجوائب المصرية) في ٧ المحرم ونقله المؤيد عنها في صدر العدد الذي صدر منه في ٩ المحرم وعنوانه (حديث مع عظيم من علماء المسلمين) قال بعدوصفه بحجة وقته وإمام عصره ... الخ

«ماذا يرى مولانا فيما قام يلتمسه اليوم الشيخ الظواهري من الجناب الخديو؟»[1]

الاستاذ : الظواهري انما نطق بلسان كل محب لخير الازهر عالم بالغرض الذي أسس له والخدمة التي أداها للدين ولايزال يرجى منه أداؤها مادام فيه جدار قائم

قلنا : وما ذلك الغرض وماتلك الخدمة يامولاي ؟

الاستاذ : غرض السلف من تأسيس الازهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الائمة الاربعة رضوان الله عليهم[2] وأما الخدمة التي قام بها الازهر للدين ولايزال يؤديها له فهي حفظ الدين لاغير . وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الاعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له . وقد خرج منه

(١) يعني مانشره المؤيد للشيخ محمد الاحمدي الظواهري في خامس المحرم بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم)وتقدمت الاشارة اليه

(٢) المعروف في التاريخ أن الجامع الازهر قد بناه جوهر قائد المعز العبيدي إمام الباطنية ومؤسس دولتهم في مصر ، وهؤلاء الباطنيون كما قال الغزالي : ظاهرهم الرفض ، وباطنهم الكفر المحض . فالجامع الازهر وجامع الحاكم قد أسسا لنشر مذهبهم الظاهر وكفرهم الباطن لا لفقه مذهب أهل السنة الاربعة كما قال الشيخ ، وان وافقه الاستاذ الامام في رده الآتي عليه جدلا أو بناء على الظاهر

بحمد الله في كل زمان ومكان من أدى هذه الخدمة الشريفة حق أدائها فعلماؤه في مشارق الارض ومغاربها هم هداة الخواص ومرجع العوام في الكثير من أمور دينهم.

قلنا : وهل حدث يا مولاي مايقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه ؟

فتبسم الاستاذ ثم قال : بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه، ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفىء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية التي تبعث اليه بالطلبة المستفيدين، ويبعث اليها بالعلماء المرشدين، ولقد جاوزت خمسين حجة أطلب العلم وأخدمه بالازهر فلم أعلم ولا سمعت ان مقام الائمة الاربعة وضع في موضع الشكوك والريب الا في هذا الزمن الاخير حيث كثر بين أفراد الطلبة ممن نجح فيهم سعي المفسدين المتهجمين على مقام الائمة ، الطاعنين بكفاءتهم ، المنكرين عليهم عليا مراتب الاجتهاد

« إني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الازهر ، أو اصلاح الازهر ، ولكنني لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح حتى الآن من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه ، وذهاب ماكان من مودة ورحمة ومهابة بين الطلبة وبين مشايخهم الاجلاء ، حتى أصبح الائمة الذين كان يغضى في الازهر من مهابتهم لمكانتهم في العلم وجليل خدمتهم له، وما يحملون من شريف شرع الله عرضة للسخرية من بعض الطلبة المخدوعين الذين سمعوا بسبنسر وفلسفته فهرفوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله ، عما وجدوا في الازهر من أجله ، وهو طلب علوم الدين لاغير

« عرضت عليّ مشيخة الازهر مراراً فاعتذرت وتنصلت لعلمي أن العلماء في هذا المسجد أخوة في خدمة الله وشرعه ، فلا يليق بأحدهم وهو خادم الله والعلم أن تأخذه العزة بالرياسة والزعامة (١)

وقد رأيت الكثيرين من اخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة . كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لايميزهم إلا فضلهم الباهر ، وذكرهم العاطر

---

١) الرياسة ضرورية للدين والدنيا وهي لاتستلزم أخذ العزة بالاثم . ثم لماذا قبلها الشيخ آخراً بعد أن رفضها مراراً؟

قلنا مقاطعين : واليوم يامولاى

قال الاستاذ : اليوم نسمع بوجود أحزاب في الازهر ونرى الطلبة منقسمين مشتغلين عن طلب العلم الشريف باحاديث أهل النفوذ والجاه والتأثير فيما يزعمون، مشغوفين بالفلسفة ، حتى ان من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف الى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرأوها أو مجلة فلان ليتصفحوها(١) ومثل هذا في تاريخ الازهر من قبل ماسمعت ولا رأيت

قلنا أيأذن لنا الاستاذ في نشر هذا الحديث لعل في ذلك زاجراً لفريق من الطلبة ومنبهاً لحكومة الجناب العالي الى تلافي الخطب قبل تفاقمه ؟

قال الاستاذ : انشر ماشئت وقل ماشئت ، وألفت نظر الجناب العالي والحكومة والناس الى أمر واحد جدير بالتأمل والاعتبار ، وهو ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا ، فليتركوه كما هو حصنا للدين ، وذخرا للمسلمين في اطراف البلاد . وإن أرادوا به اصلاحا فليكن الاصلاح منحصراً فى حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وما سوى ذلك من مبادىء الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه اه بحروفه

وقد أثنى المؤيد على هذا الحديث وصرح بموافقة الاستاذ على كل ماقاله فيه من هدم مايسمى بالاصلاح للدين ــ إلا ادخال العلوم الحديثة فانه لايرى ضرراً منها

ولما نشر المؤيد هذا الحديث كتب الاستاذ الامام مقالا فند فيه كلامه كله بما يعد تفنيداً لكل ما كتب الشيوخ المسخرون لتلك الفتنة وأقام عليه وعليهم الحجة التي لا تدفع ، فبيضت المقال ونشرته في المقطم في ١٣ المحرم (١٨ مارس) وأبقيت الاصل عندي وهذا نصه:

---

١) يظهر أن الشيخ رحمه الله لم يقرأ كتاب العلم والعلماء للشيخ الظواهري الذي أيد رأيه في كتابه المفتوح للخديو ذكر في كتاب العلم والعلماء أن الاطلاع على الجرائد والمجلات من الضروريات للعلماء وذكر من اسماء هذه المجلات المقتطف الفلسفي والهلال التاريخي والمنار الديني

الازهر الشريف

والغرض من اصلاح طرق التعليم فيه

(لاحد علماء الازهر الاعلام)

ما كنت لأخط سطراً واحداً في موضوع مايكتبه بعض الناس في هـذا الوقت متعلقا بالازهر الشريف لولا مانسب ناسب كلاما لاحد شيوخه بعد ماوصفه بأوصاف تعين شخصه، ولولا ماجاء في ذلك الكلام مما يمس الازهر ويمس كثيراً من شيوخه .

لا أتكلم فيما بعث الناسب على ملاقاة الشيخ، ولا مادفع الناقل الى النقل عنه، فذلك مما عرفه كل قاريء لأول الاطلاع عليه، ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب الى الشيخ دفعاً للبس من الباطل قد يستر عين الحق عمن يهمهم أن يعرفوه

لا ننكر على الاستاذ ماقاله في الغرض من انشاء الازهر فذلك غرض كل من يبني مسجداً لله في أي مكان وأي زمان، لايبنى مسجد إلا ليعبد الله فيه ويعلم فيه دينه، ولا ننكر عليه ان الخدمة التي يلزم أن يؤديها الازهر هي تعليم الدين ولكن لم نفهم قوله « وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الاعصر فلا علاقة للازهر به » فان كان يريد ان التعليم في الازهر يجب أن يكون قاصراً على الفقه وأصوله والحديث ومصطلحه، وعلم تقرير العقائد، كما ورد به الكتاب والسنة، وعلم آداب الدين والاخلاق المؤسسة على ماورد منه ـ وأما ماعدا ذلك وان كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها فلا يصح أن يدرس في الازهر ـ إن كان يريد ذلك فكنت أكون أول موافق في رأيه لو كان التعليم في الازهر قاصراً على ذلك في القرون الماضية، ولو كان حضرة الاستاذ نفسه لم يتعلم ولم يعلم في الازهر غير هـذه العلوم . لكننا عرفنا الاستاذ يقرىء فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام على مافي علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها، وعلى مافي مقدمات

الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود وهل هو عارض الممكنات أو عين الممكنات ؟ والتعرض لاحكام الجواهر والاعراض مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الكون ، وقد ذكر لي بعض عشاق الاستاذ ان له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد مما لم يساوه فيها غيره . وقال لي: انه يعرف من كتاب المواقف وشراحه ويقف على اسراره مالم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه . ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الخمسين التي ذكرها ولم نجد للاهتمام في الازهر وجهة الا تعاليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها مما ليس في علوم الدين وإن كان من مقدماتها ، واني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق ، فاذا قرأ شرح التلخيص في المعاني والبيان للسعد التفتازاني أفنى فيه بضع سنين يحقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته ، وقلده بعض الناس في ذلك حتى أصبح آباء الطلبة يئنون من طول الاقامة في الازهر الشريف دون أن يحلى الطالب منها بطائل ، والفضل في ذلك لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق ، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني مالا يعرفه إلا مثل الاستاذ من علية المحققين

أما كتاب الله فلا نعهد للشيخ فيه درساً يستوفي من التحقيق مايستوفيه أحد شروح السعد على التلخيص ولا أخص الشيخ بذلك بل هذا كان شأن الازهر الذي وجدناه عليه ولا يزال الى الآن

كنت أوافق الشيخ على ماراه إن صح أن يكون ذلك مراده لو سعى - حفظه الله - هو واخوانه من خدمة العلم في انشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يرتقى بها الى فهم علوم الدين وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية وينال الشهادة بذلك يأتي الى الازهر ويتعلم الدين خاصة

كل ذلك لم يكن فلم يبق إلا ان الشيخ أراد من علوم الدين مايجمع مقاصده ووسائله حتى علم المنطق والكلام ، فاذا أراد الشيخ ذلك - ولا محيص له عن أن يريده - فماذا يقول في امام الحرمين والامام الرازي وغيرهما من أئمة مذهبه وفي

جاءنا بالتواتر من كتبهم، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الاكوان ليبنوا عليها الادلة التي رأوا اقامتها لاثبات مكونها ؟ وفي العلماء الاجلاء الذين كانوا يقرؤنها في الجامع الازهر في كل زمان وقد يعرفهم الشيخ كما نعرفهم ؟ إن سمح الشيخ لنفسه باللوم على متقدم فانا لا نسمح لانفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصلحة في ذلك . واذا صح معنا ان أئمتنا سبقونا الى اضافة هذه العلوم ـ علوم البحث في حقائق الاكوان ـ الى علوم الدين لانهم عرفوا ان لا سبيل الى اقامة الأدلة الصحيحة على العقائد ـ التي شرط في العلم بها اليقين إلا بذلك البحث وقد شاركهم الاستاذ في العمل على تلك الطريقة ـ فما الذي ينكره الاستاذ من علوم سماها « علوم الأعصر » أو أمور سماها « أمور الدنيا» ؟

هل يعد الحساب من ذلك؟ وهو باب من أبواب الفقه في قسم من أهم أقسامه وهو علم الميراث أو علم الفرائض ؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي ﷺ التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها وهي قسم من الحديث ؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية والاخلاق التي تكتسب من الدين وهو الفقه الحقيقي ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه ؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الازهر لكن لا على سبيل الالزام فألزم بها الطلبة وأصبح كل واحد منهم يعرف انه لاينال درجة العالمية إلا بتحصيلها ، وما عدا ذلك فهو لايزال على ما كان ، فهل هذه الفنون هي التي يسميها الاستاذ مبادىء الفلسفة؟

ان من الغريب عندي أن يكون الاستاذ الذين يشيرون اليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه ،

الأمر العالي الصادر بتنظيم الازهر موجود والاطلاع عليه سهل فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه حتى يعرفوا ماهو الاصلاح الجديد؟

جاء في ذلك الامر العالي مايوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد (وهي علوم الدين) أكثر زمنهم وانه لا يباح أن ينفق في تحصيل الوسائل مايساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه ، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ ؟ ان الذين أرادوا الاصلاح لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة

الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين والوقوف على أسراره والتخلق بأخلاقه . والامر العالي الصادر في سنة ١٣١٤ وهو مايسمونه الاصلاح كان كافلا لذلك لو كان حضرة الاستاذ واخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه ، ولكن مثل هذا الكلام الذي نشر في هذه الايام وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة بعد الذي حال دون الاصلاح ، وعاق طلابه عن الوصول الى مايقصده حضرة الاستاذ من جعل التعليم دينيا، ومن اشراب كل عمل من أعمال الطلبة والاساتذة روح الدين ، فليهنأ الاستاذ ببقاء الازهر على ماهو عليه قبل الاصلاح وبعده إن كان لم يبلغه ذلك أو بلغه مايخالفه ممن لم يصدقه الحديث

أما قول الاستاذ : ان في الطلبة من يحط من مقام الائمة وينكر عليهم مراتب الاجتهاد فذلك مما لم أسمعه ولا اظن أحداً يعرفه إلا من بلّغه ، غير أنا نعرف أن كثيراً من الطلبة يختلف الى من لا دين له ممن يسمون بالمسلمين ويخوضون معهم فيما لا يليق ، لا متعلقا بالائمة فقط ولكن قد يصعدون الى من هو أعلى وأقدس، وهو شيء يشتكي منه طلاب الاصلاح ويحاولون دفع ضرره بتعليم الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والائمة رضوان الله عليهم أجمعين ، فان الذي يخدع الطالب ذلاقة لسان المنافق ، وجهل الطالب ونقص علمه ، فيروج عنده الاباطيل بسهولة ، ولو علم حال من مضى من سلفه كان من السهل عليه أن يهدي الضال لا أن يتبعه في ضلاله ، فهل يسمح الشيخ بتعليم تاريخ السلف في الازهر حتى يعرف الطلبة من أحوال الائمة مايدفعون به المطاعن فيهم ؟ وهل علّم الاستاذ أحداً من هو الامام الشافعي ؟ وكيف حصل العلم ؟ وكيف عمل على نشره في الآفاق ؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات الخاصة وغوغاء العامة ، مع الوقوف على أحوالهم ، وتقرير الاحكام بما يتفق مع مصالحهم في شؤون دينهم ودنياهم ؟ فليطلعني حفظه الله على واحد أخذ عنه هذه السيرة الجليلة سيرة الامام الشافعي محررة بما صح من الاخبار ، لا محشوة بما لا يعقل من الاوهام ؟

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الازهر كما يقول فاننا لم نفهم لها معنى ، لعله

يعني ماحصل من المغاربة وعصيانهم أوامر المشيخة في هذه الايام ،لو أرادالشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها لصعب عليه أن يعرف أن ذلك من تأريث بعض اخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه ، وهي حركة ضد الاصلاح لا ناشئة عنه

يقول الشيخ: انه لايعرف الا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبةومشايخهم، متى كان هذا ؟ اما انتقاد الطلبة على أساتذتهم فقد كان معروفا مدة الاربعين سنة التي أقمتهـا في الازهر والعشرة التي سبقني بها الشيخ بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لاينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم(واقوالهم)

وأما وصول الانتقاد إلى حد الاهانة والتقاطع فذلك لم يكن الآن اللهم إلا ان يعني الشيخ ماوقع من أحد حذاق المحامين من الشدة في نقده لبعض كلامه(١) ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن ، وان كان قد سبق له طلب مدة الخمسين سنة الماضية أظن ان مجلس الشيخ مطروق باولئك الذين ينقلون له مالا تعرف له حقيقة

من أين جاء للشيخ لفظ سبنسر وأي طالب نقل اليه هـذا الاسم ؟ وأي مبدأ من مبادىء سبنسر دخل في الازهر ؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة لو كان هو الذاكر له ؟ـ سبحان الله ما كان أحق بالتقوى أن تنهى أهلها عن الهزو والهزء

ان الذي يلمزه الشيخ بهذا الـكلام طالما نادى في درسه بأن الذي أضر بالعقائد وباللغة ادخال الفلسفة في الاولى والحذو حذو أهلها في الثانية فهو وأن تعلم شيئا مما تعلمه لم يحصله إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم تمكن وسائل الخير

لمَ لم يقبل الشيخ مشيخة الازهر بعد حضرة الشيخ حسونه النواوي وقد ظهر له ان مادخله الشيخ حسونه كان شراً على الازهر ، وكانت مشيخة الاستاذ كافلة بازالة ذلك الشر ؟ زهد في المشيخة حتى لايعلو على بعض اخوانه كما يقول، سبحان الله! أفما كان له أسوة في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب في قبول الرياسة على اخوانهم ليحفظوا نظامهم ؟ هل هو أزهد منهما في الرياسة او أعلم منهما بما فيها؟

---

(١) هذا المحامي هو السيد احمد الحسيني ـ رحمه الله ـ كان يحضر درس الشربيني فى فقه الشافعية واعترض عليه وناقشه فى بعض المسائل بما يعد تجهيلا له

يمدح المشايخ الذين رآهم في خمسين سنة لا يشتغلون بالسياسة ؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن ؟ هل كان الشيخ حسونه يشتغل بها او الشيخ سليم من بعده أو حضرة الشيخ البيلاوي اليوم ؟ وأي سياسة يعني الشيخ ؟ ان كان مايريد منها سياسة الازهر وتنظيمه وتأسيس العمل فيه على قواعد يلزم السير عليها فالبادىء بوضع هذا الاساس هو الشيخ العباسي رحمه الله ، ولقد هاج عليه الناس وفيهم كثير من اخوان الاستاذ لانه وضع قاعدة الامتحان على انه كان يغضى من مهابته كما يعرف الشيخ وأضرت نصائح المشايخ بكثير من الطلبة إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحان حتى حرموا من نيل درجة العالمية وهم يندبون حظهم إلى اليوم. وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح ولولا حادثة حدثت مادخلت في الامتحان ولذهبت متاعي سدى

وإن كان يريد للسياسة معنى آخر فما هو ومن هم المشتغلون به ؟ أظن ان الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لايشعر حيث سمح بنشر هذا الحديث أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي لكن يستبيح منه لنفسه مالا يستبيحه لغيره

نعم عهد لعلماء الازهر ولطلبته تبعاً لهم شغل بالسياسة قبل أن يدخل فيه مايسمونه بالاصلاح . ذلك في أيام الفتنة العرابية ، فقد انقسم المشايخ الى قسمين أكثرهم مع عرابي ، وأقلهم مع الخديو السابق، وكانوا يسمحون لعبدالله افندى نديم أن يدخل الازهر ويخطب فيهم بفتنة السياسة، وكانوا يحيطون به وينادون: اللائحة مرفوضة (يعني اللائحة التي قدمها قناصل الدول بطلب نفي كبراء الضباط) كان هذا في مدة الخمسين سنة التي ذكرها الشيخ، وأما ما كان في زمن الفرنسيين وأول مدة محمد علي فلا نتكلم فيه لانه مضى عليه أكثر من مئة سنة وصار أولئك المشايخ سلفا رضي الله عنهم

ألم يكن الاجمل بحضرة الاستاذ في صلاحه وتقواه أن يبذل جهده أولا في لقاء الذين يعنيهم بكلامه ويبحث معهم فيما يعملون وما يقصدون ، فان رأى خيراً ساعد عليه وإن رأى شراً وعظ ونصح ، فان لم ينجح النصح كان له الحق فيما ينشره في جرائد سيارة يحب كثير من الناظرين فيها أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا!

اللهم ألهم الاستاذ واخوانه أن يقرأوا سورة الحجرات ، وأن يعظموا قول الله فيها ، فاذا جاءهم فاسق بنبأ تبينوا ولم يصيبوا قوما بجهالة حتى لا يصبحوا نادمين

أما مانشره بعض الناس في تلك الجرائد التي لا أشك في منازعة ضمائر أربابها لألسنتهم وأقلامهم من الكلام في الالحاد ، او وجوه الاصلاح ، فهو مما لا يصح النظر فيه بل هو مما يمر به العقلاء كراما . سامح الله هؤلاء المخاطرين بشرف الازهر وأهله الطالبين لالحاق أشد المضرات به ، ونظر الله جل شأنه بعنايته إلى هذا المسجد الشريف وقيض له من يتغلب على هذه المصاعب كلها حتى يصبح مؤديا للوظيفة التي تطلب منه ويتمناها الشيخ الفاضل

واذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ احراراً فلينقلوا هذا كما نقل ذاك بعضهم عن بعض تأدية للافكار الى قرائهم؟ اه

استدراك على مقالة الرد على الشيخ الشربيني

في اشتغال علماء الازهر بالسياسة

ثم نشر المقطم في ١٥ المحرم (٢١ مارس) مقالة عنوانها (علماء الازهر والسياسة ، او السياسة والازهر) بامضاء (مؤرخ) استدرك فيها على المقالة السابقة بان علماء الازهر قد ثبت عنهم الاشتغال بالسياسة الداخلية للحكومة في مدة السنين الخمسين التي نفى الشيخ العظيم نفي اشتغالهم بالسياسة فيها ، وذلك « عند ماأرادهم رب السياسة (الخديو) عليها ، ولم ينج من شرها إلا الشيخ العباسي مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر يومئذ »

وذكر الكاتب حادثة محاولة اسماعيل باشا اسقاط وزارة نوبار باشا ونجاحه في ذلك وان تلك الوزارة كانت تسعى لتخفيض ربا ديون الحكومة المصرية من سبعة في المائة إلى اربعة فرأى الخديو ان هذا التخفيض لا يليق بالحكومة ولا بالامة المصرية الشريفة فأمر بوضع لائحة سميت (اللائحة الوطنية) كان من أحكامها أن تضمن الامة المصرية سداد الديون وربا الفاحش. واستعان على ذلك بعلماء الازهر فوقع اللائحة أكثر من يعرف له اسم من العلماء ومشايخ الطريق ووجوه الامة وأعضاء مجلس نوابها

وبعد أن وضعوا أختامهم بعث بهـا إلى المرحوم الشيخ العباسي لامضائها وختمها فتعلل بالمرض وكان في حلوان فلم يأذن للرسول بمقابلته... وما زال الخديو يلح عليه في وضع اسمه على اللائحة حتى كتب عليها هذه العبارة « اوافق على المشروع من هذه اللائحة » يريد بالمشروع ما وافق الشرع دون ماخالفه من دفع الربا على النحو الذي طلبه الخديو . فاكتفى الخديو بذلك لان الذي كان يهمه ان يوجد اسم المفتي وشيخ الازهر على اللائحة

ثم قال الكاتب:

« ولعل الشيخ لايسمي ما كان من أولئك العلماء دخولا في السياسة لانه يشترط في الدخول المذموم أن لايكون وسيلة للحاكم في الوصول الى رغبته: ولذلك برأ الازهر وعلماءه من الدخول في السياسة في تلك المدة

« واذا صح هـذا يكون قضاء على العلمـاء بان يكونوا آلات في إيصال السياسيين إلى حظوظهم ورغائبهم بلا حرج عليهم ولا لائمة تتوجه اليهم ،سواء وافقت السياسة الشرع أم خالفته ، وحصر السياسة في نقطة واحدة وهي أن يفقه العالم معنى السياسة ويكون بصيراً بتصرفها ، ولو ليتقي شرها ، ويأمن مكرها ، ولكن السادة المالكية جعلوا هـذا المعنى تعريفا للفقيه إذ قال فيـه أحد أئمتهم « الفقيه هو المقبل على شانه ، البصير بأهل زمانه » اه ملخصاً

وأقول الآن ان سر الاستاذ الامام رحمه الله هو الذي اشار بكتابة هذا الاستطراد على المقال الاول

وجملة القول ان هذه التمهيدات السياسية والدينية قد انتهت بما تقدم من استقالة السيد الببلاوي وتولية الشيخ الشربيني مشيخة الازهر كما تقدم . فكان هذا الشيخ الزاهد كغيره آلة لسياسة الخديو الضارة بالازهر وبالدين، ثم لم يكن موفقا في مشيخته لشيء من خدمة الدين، ولا راضيا ولا مرضيا من العلماء ولا السياسيين. ونذكر الآن ملخص خطبة سمو الخديو في حفلة إلباس الخلعة للشيخ الشربيني وبعض ما كان لها ولترك الاستاذ الامام لادارة الازهر من سوء التأثير في العالم الاسلامي

ملخص خطبة الخديو بقصر عابدين

﴿في حفلة الانعام بالخلعة على الشيخ عبد الرحمن الشربيني﴾

شيخ الازهر في ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣

قال سموه بعد مقدمة :

« ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيفي في مصر وجميع الاقطار الاسلامية . يأتيه المسلمون من كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ، ولينفعوا قومهم ويرشدوهم للدين الصحيح متى رجعوا اليهم

« ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهريين دائماً ، ولكن من الاسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم، ومسائل الشخصيات بالدين، ويكثرون من أسباب القلاقل .

(وههنا ذكر حادثة رواق المغاربة التي تقدم ذكرها في ص ٤٩١ وأشار إلى ما سبقها من حادثة رواق الشوام وهما من حوادث الشغب الذي أحدثه وشكا منه ثم قال)،

«وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف، والشغب بعيداً عنه، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء

«إن كل ما يهم الحكومة من الازهر شيئان . الاول استتباب الامن فيه وهو ما أوصي به دائماً . والثاني تخريج القضاة الشرعيين، وهو ما سينشأ له مدرسة مستقلة يقصدها كل من يتحصل على شهادة العالمية في الازهر ، ويريد التوظف في القضاء . وستشتغل الحكومة بابراز هذا المشروع من القوة للفعل قريباً

«واني أول من يقدر السيد علي الببلاوي شيخ الجامع الازهر السابق حق قدره ، ويعرف فضله وتقواه ، ويحترمه مزيد الاحترام ، ولكنه رعاية لصحته رأى أن يستقيل من وظيفته ، وقد جريت منذ اثنتي عشرة سنة على هذه

القاعدة ، وهي أن أقبل استقالة كل من يستقيلني من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلني من وظيفته سواه فانا مستعد أن أقبل منه جريا على العادة التي اتبعتها في ذلك . والآن قد اسندت وظيفة مشيخه الازهر للاستاذ الشيخ الشربيني المعترف له من جميع الطبقات - ازهريين وغيرهم - بالعلم والتقوى والصلاح . وأنا مستعد أن أساعده بكل ما في وسعي لتأييد كلمة العلم والدين في الازهر . وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب ، وأن تحثوا اخوانكم والطلبة على ذلك . ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والاوهام أو الايهام بالاقوال أو بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى أن يرجع إلى بلده ويبث فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهريين » اهـ بنصه الرسمي المنيف الذي نشره المؤيد

يرى قاريء خطبة الامير انه يتكلم بلسان الفاتح الظافر ، والملك المستبد القاهر ، كأنه لا يدري ولا يشعر بانه هو المغلوب المقهور الخاسر ، وان الازهر نفسه هو الذي خسره نهائيا في هذه المعركة ، فان أمر الازهر كان من خصائصه التي لا تتعرض له فيها الحكومة ولا سلطة الاحتلال ، فأصبح لا يملك الاستقلال فيه بشيء ، وقصارى سلطته أن يقبل استقالة من يستقيل منه ، وأي شيء هذا؟

وأما قوله (ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده) الخ فهو يعني به هذا العاجز صاحب المنار - كما صرحت بذلك جريدة اللواء - لانه كان أخلص نصير للاستاذ الامام في كل ما كاد به الامير له ولا سيما مسألة الازهر ووسائلها ، وقد أشار بهذه العبارة إلى ما كان ينويه من اخراجي من مصر منفيا بعد أخذ كتابة من شيخ الازهر بان ما أكتبه في المنار مخالف للعلم والدين ، او اعتداء على علمائه العاملين. وقد بلغ هذا الكيد يومئذ كبار الحكومة وتحدث به مصطفى باشا فهمي رئيس النظار مع الاستاذ الامام فقال انه يريد نفي السيد رشيد رضا من مصر ولكن من ينفذ له . وسأذكر في مقام آخر بعض ما كان من سموه في شأني وأوله التفريق بيني وبين الاستاذ الامام ، ومنه السعي لاخراجي من هذه البلاد

وأكتفي هنا بذكر بعض ما كتبته في المنار عقب هذا العبث والتغيير في الازهر من بيان ما بني عليه ، ثم أنشر بعده فصلا فيما كان من تأثير استقالة الاستاذ الامام من ادارة الازهر . وهذا نص مانشرته في ص ٧٧ من المجلد الثامن

﴿ غرض الحكومة الخديوية من الازهر ﴾

قد شاع وذاع أن سمو الامير اتفق مع حكومته على ان كل مايهم الحكومة من الازهر شيئان (الاول) أن يكون أهله في أمان (والثاني) تخريج القضاة الشرعيين . ولما كان التعليم في الازهر غير كاف لتخريج القضاة الذين تصلح بهم حال المحاكم ، وينفذ حكم الشريعة عزمت الحكومة الخديوية على انشاء مدرسة خاصة لتخريج القضاة يكون تلامذتها من طلبة الجامع الازهر ، ولم يكن أحد يصدق هذه الاشاعة لولا أن المؤيد ذكر أن الامير قال ذلك في كلامه الذي خاطب به مشايخ الازهر في حفلة إلباس الخلعة للشيخ الشربيني ووافقه المقطم في معناه (١) وأسنده إلى أولياء الامور

وقد كثر التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر على عنايته العظيمة بخدمة الازهر وحرصه على تخريج رجال فيه يقدرون على خدمة الشرع وتأييد الدين . وكان ينبغي أن يكون أول سبب يخطر في البال ، بعد الاطلاع على تلك الأقوال ، هو بلوغ الشغب في هذه المدرسة غايته ومثله من رجال الجد لم يخلق للعب بالشغب ، بدون فائدة تكافيء إنفاق الوقت في التعب . ثم اكتفاؤه بعناية أولياء الامور بتربية جماعة من طلبة الازهر في مدرسة خاصة ليتخرج منهم أساتذة وقضاة وهو شيء مما كان يميل اليه ، وقد تيسر الوصول اليه ، ويقول المقطم ان الحكومة ستنوط بالشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أمر هذه المدرسة فان صح ذلك فحسبه تربية البعض من الكل ، على أن تركه لادارة الازهر ليس تركا للازهر كله ، فانه شيخ رواق الحنفية وهو أكثر الاروقة طلابا فهو يبث فيهم النظام ويرشدهم الى روح العلم والدين وهذا بعض آخر من كل و « كل ميسر لما خلق له »

(١) عنيت بقولي في معناه أن المقطم لم يوافق المؤيد على أن تلك الخطبة هي نص ما نطق به الخديو بل نازعه في ذلك مؤيدا نزاعه بشهادة من كان حاضراً للحفلة وسمع الخطبة بأذنه .

تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في المسلمين

نشرنا في (ص٢٣٧) من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :

لقد اضطربت قلوب عقلاء المسلمين ووجمت نفوسهم لهذا النبأ في كل قطر، فقد جاءتنا الكتب والرسائل في ذلك من السودان وسورية ومن بلاد المغرب والمشرق مابين شاكية وباكية، منها ما يعرف مرسلوها عذر الامام، ويرون أن لاعتب عليه ولا ملام، لوقوفهم على حقيقة أحوال هذه البلاد، فرأيهم في ذلك كرأي اكثر العقلاء في مصر الذين استشار الامام بعضهم فأشاروا بوجوب تركه(١) ومنها ما يتضمن اللوم لاعتقاد أصحابها أن الاستاذ الامام قد يئس من إصلاح المسلمين، فترك خدمة الملة مللا من مقاومة الجامدين، أو علماً بأنهم غير مستعدين، وقد آلمهم ذلك لأنهم يعتقدون أنه اكبر زعيم للاسلام في هذا العصر وأقوى نصير له في علمائه، ويشعرون بأنهم يستمدون منه الهمة والغيرة والرأي الصحيح على بعد الديار، وتنائي الاقطار، ولا أنكر انني أعرف من أذكياء المسلمين الاقربين داراً بل من المصريين انفسهم من سرى اليه شيء من هذا الوهم

وقد آلمني وسيؤلم كل ذي غيرة وشعور قول (النواب محسن الملك) ان اليأس والقنوط قد تمثل لأهل النهضة الاسلامية في الهند، وشعروا بأن قد طفىء نور الاصلاح المنبعث من هذا الامام. فوقعوا في حنادس الظلام — يحزننا ويمضنا هذا القول من قوم نعتقد أن نهضتهم أعلى من نهضتنا، وهمتهم أعلى من همتنا، والامل فيهم أقوى من الامل فينا، ولا نفضلهم الا بهذا الرجل وباتقان اللغة العربية، لاننا نراهم يرجوننا اكثر مما يرجون أنفسهم، كما انه يسرنا شعورهم بارتباطهم بنا، ولا يأس منا ولا منهم إن شاء الله

ان من أغرب ما كتب الينا في هذه الحادثة نبذة لأحد الفضلاء في فاس وهي:

---

(١) من هؤلاء جل تلاميذه ومريديه من كبار رجال الحكومة كسعد زغلول وفتحي زغلول وقاسم امين ومحمد راسم الخ

«قد ساءنا وايم الله مابلغنا من استقالة حضرة جناب الاستاذ الامام، وعالم علماء الاسلام ، فريد هذا العصر ، وغرة جبين الدهر، ذروة جهابذة الآفاق ، ونخبة كبراء المصلحين بالاتفاق، مولانا وسيدنا الشيخ محمد عبده أدام الله بقاءه مرشدا للعالمين – من عضوية إدارة مجلس الازهر الشريف الذي كان متعنا الله بوجوده مجتهداً في إصلاحه، كما ساءتنا تلك الخطبة ... ولكن (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم – والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقد كدر ورود هذا الخبر جميع محبيكم ومحبي الاستاذ الامام لعلمنا بأنكم من المجددين في إصلاح الامة الاسلامية . الخ

وإنما كان هذا غريبا لان تلك البلاد أبعد بلاد المسلمين عن التفكر في الاصلاح أو الشعور بالحاجة اليه ، ولكن هذه الافكار قد سرت في كثير من أهلها من بعض المهاجرين اليهم من المسلمين ، ومن قراءة بعض الصحف كالمنار . وقد ختم هذا الكاتب كلامه بقوله: وأدام الله بقاءكم رغما عن أنف الجاهلين والمستبدين، والمفسدين والمقلدين اه

تأثير الاستقالة في الهند

ذكرت نبذة من كتاب عالم فاضل في المغرب الاسلامي الاقصى في سوء تأثير هذه الحادثة حذفت كلمات الطعن منها ، وأكثر ما كتب إلي في ذلك يتضمن طعناً شديداً في الخديو لم يكن نشره ممكنا – واقفي عليه بما كان من تأثيره في أرقى الشرق الاسلامي

كتب إلي زعيم مسلمي الهند وعميد نهضتهم الاسلامية الاكبر ، العلامة الكاتب الاشهر ، النواب محسن الملك عميد المدرسة الكلية الاسلامية في عليكره ورئيس الشرف لادارتها كتابا طويلا أثني فيها علي وعلى جهاد المنار في سبيل الاصلاح الاسلامي ، ثم قال في هذه المسألة مانصه نقلا عن ص ٢٣٣ م ٨

«وقد أدهشنا خبر هائل وصل الينا من الجامع الازهر وأوحشنا وأقلق جل

أصحابنا والامة، وأراق الدماء من الجفون والمقل ، وكادت القلوب لها ان تنهبل[١]
وقد انصدعت له الصدور، وتصدعت لها المهج في شلو كل مصدور ،وذلك ماشاع
عن هذا الفيلسوف السرسور والحلاحل الوقور[٢] ، والنبراس في ظلمات الديجور،
من رفض ما كان اليه من نظارة الجامع المذكور ،أسفا على ما تجرب من جفاء اهل
عصره،ولا سيما علماء مصره،ومساعدة الحضرة الخديوية للعلماء، وقضائها بخلاف
ما كان يرجى من تلك الحضرة الغراء، لما كان أيده الله تعالى يريد من إشاعة العلوم
الحديثة ،وإذاعة المعارف والحكم الجديدة،زيادة على ما كان يجري فيه من دروس
العلوم الشرعية والمسائل الفرعية . ولما لم يصغ احد الى رأيه ومقالته ،ولم يكترث
رجل الى ماكان فيه من محض نصاحته، تمثل لنا عند ذاك الياس،وتجسد لنا شبح
القنوط والابلاس[٣] لخمود هذا النبراس، فقد كنا نظن قبل ذلك أن سوف يرحل به
عنا ليل الحزن، ويقلع عنا دامس الفتن، وتقوض عنا خيام البلاء، وتعطف عنا سهام
الضراء ،ويتنفس علينا صبح الاقبال،ويطلع على وجهنا فجر الآمال من اجل ذاك
البارع الحكيم المفضال،وكنا نظن انه قد توقد في الاسلام مصباح يستوقد منه آلاف
الوف من المصابيح، ومفتاح ينفتح به مغالق أبواب الفرج والتراويح ،ولكن قد
تبين الآن أنا لم نبرح عرضة للبلاء ،ودرية لرماح الضراء ،وجزراً لسيوف البأساء،
ما زالت هذه الخضراء تدور على الغبراء . وما أشبه حال هذا الحكيم الرزين، في
المصريين، بحال السيد احمد الذي أعثرناك على حاله في الهنديين، فقد عظمت الرزية
وجلت المصيبة، فإنا لله وإنا اليه راجعون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

ولما وصلت جريدة المؤيد إلى الهند ورأوا فيها خبر الانقلاب وخطبة الخديو
كتبوا في ذلك مقالات شديدة في الانكار على سموه،لم نعن بترجمة شيء منها
في ذلك الوقت لتعذر نشره ونكتفي منه بما نشر في جريدة (الرياض) التي كانت

(١) يقال تهبل لعياله واهتبل اذا اكتسب . ولعل الكلمة في الاصل تهتبل من
هبل ولده واهتبله اذا ثكله (٢) السرسور بالفم الفطن العالم الدخال فى الامور .
والحلاحل السيد في عشيرته الشجاع الركين فى مجلسه (٣) الابلاس هو الغم من
اليأس والحيرة

تنشر باللغتين العربية والاوردية في عليكره وكنا حفظناها لاعتدالها ، وهذا نصه من العدد الذي صدر في ١٠ صفر سنة ١٣٢٣

﴿ خطبة الجناب العالي الخديوي واصلاح الازهر ﴾

ألقى الجناب العالي الخديو خطبة أنيقة على جمع حافل من العلماء والفضلاء والمشايخ عند استقبال حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الازهر الجديد صرح فيها بآرائه وأفكاره السامية في مسألة الاصلاح الازهرية فقال حفظه الله :

« إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنفي في جميع الاقطار الاسلامية يأتيه المسلمون من كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ، ولينفعوا قومهم ويرشدوهم للدين الصحيح متى رجعوا اليهم »

ولكن الافادة والارشاد يتوقفان على أن تكون علومهم ومعارفهم أعلى وأرقى من معارف قومهم سواء كان معارف الاديان ، أو معارف الاكوان .

« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء »

(وقال حفظه الله في ختام الخطبة)

« وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب وتحثوا إخوانكم على تأييد كلمة العلم والدين ومن كان يحاول الشغب بالوساوس والاوهام أو الايهام بالاقوال او بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عنه ، ومن كان أجنبيا من هؤلاء فأولى له أن يرجع الى بلده ويبث فيها ما يريده من الاقوال والآراء المغايرة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهريين »

بعد إيراد تلك الكلمات من الخطبة الملوكية لا يسعنا إلا ان نقول بأسف زائد : ان حركة الاصلاح قد قضي عليها ، وان هذه المدرسة العظيمة تبقى على

تقاليد قديمة، وأوضاع عتيقة، وطرق غير نافعة، وجمود وخمود وهبوط، يبقى مستقبل التعليم الديني مظلماً الى ماشاء الله تعالى . فليسكت المنار وليرجع الشيخ الظواهري عن الآراء والاقتراحات التي نشرها في كتاب العلم والعلماء والكتاب المفتوح فقط اه

ثم نشر في العدد الرابع الذي صدر من هذه الجريدة في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٣ المقال الآتي :—

عجب واسف على قضية الخديو في الجامع الازهر

لحضرة الفاضل العلامة النواب محسن النظام الاعزازي لعليكره كالج

قد استحرنا وتضجرنا وتحسرنا وتحيرنا من النطق الفاصل والحكم الفيصل، الذي قضى به سمو الخديو المصري على جامع الازهر، من جهة ماهو عليه من مكانته في العلم بالمعارف الجديدة والخبرة الواسعة المتسعة بالعلوم الحديثة، وما كان بمرأى منه من الترقيات الحالية في أرض اوربا، وعلى معرفة تامة بما يستتبع التعليم النافع من الآثار الجيدة، والنتائج الحسنة، والفوائد المستحسنة، فليت شعري كيف بدا له أن يقضي بمثل هذه القضية؟ أم كيف عن له أن يحكم بمثل هذا الحكم الذي تنسد به ذرائع الارتقاء والصعود على وجوه المسلمين، وانه بنفسه لينظر إلى باقي الجامع الازهر من ضياع النفقات الكثيرة وضيعة الاموال المنفسة الثمينة التي تنفق فيها، وهو بعد على خبرة تامة بحال الطلبة الخارجين عن هذا الجامع، والذين يتحلون من نصاب دروسهم منه لايكونون إلا صعاليك وسائلين وفي الرقاب، وهم مع ذلك من أرباب الجهل البحت، وأصحاب التعصب الذميم المحض، وليس للجامع الازهر حظ من التعاليم الدينية الاصلية الحقيقية النافعة، ولا يوجد فيه ضرب من الدروس التي تنفع الناس، نظراً إلى ارتقائهم في معارج الفضائل الخلقية، والمدارج الدنيوية، ومع كل ذلك فان السعادة الخديوية قضت على الجامع الازهر أن تدوم له تلك الحال التي كان عليها إلى الآن في النهج القديم الذي لايسمن ولا يغني من جوع، ولا يقصد فيه إصلاح حال، ولا يرام منه رعاية لجانب العواقب والمآل

وأعظم من ذلك أن الحضرة الخديوية لم تقنع بمجرد هذا الامر، ولا بمحض هذا الحكم، بل أخذت تنبز بالالقاب من أراد منهم الاصلاح في أحوال الجامع، وزاد الخديو على ذلك بان وعدهم بالاجلاء عن حوزة ملكه، وهددهم بالنفي عن حومة دولته، وأجبر أمثال المفتي محمد عبده الذي من حق العالم الاسلامي أن يفتخر بوجوده، ويختال مرحا بكونه وشخصه، لعلو كعبه في العلوم، وسعة معرفته وخدمته للمعارف، ودراسته وصفاء سريرته، وتوقد قريحته، وجلاء قلبه وحدة ذهنه، ألجأه سمو الخديوي إلى الاستقالة وترك العضوية والنظارة، والذي ظهر لنا ان الخديو لا يريد بذلك إلا تطييب نفوس العوام، وإرضاء شيوخ الازهر الاعلام، وتنشيط قلوب هؤلاء الكرام، الذين لا يعرفون من العلم إلا الدارس، ومن الدرس إلا الخلق البالي، كما يحسبهم الجاهلون أنهم هم المسلمون حقاً، وأهل الديانة صدقا، ويكون محلهم في أعين الخلق محل حماة الاسلام، وموقعهم موقع الذابين عن حمى شريعة خير الانام

(وههنا استغرب عدم تدخل لورد كرومر في هذه المسألة، وعلله بما عن له. ثم قال)

فأما اذا كان الامر كما وصفناه فهل يرتجى من أهل مصر أن يعرجوا بشيء في معارج الارتقاء، بعد ذلك القضاء المقلق، والحكم الموبق، الذي تصدعت له قلوب الحازمين من أهل الاسلام كافتهم؟ وهل يرتجى لهم بعد تلك الحادثة الهائلة أن يمكنوا من الصلوحية للارتقاء في العلم والحكمة، بعد ولوعهم في مثل تلك الدروس الخاوية، وعكوفهم على تلك التعاليم الخلقة البالية، في الجامع الازهر؟ وهل في الوجود أحد أعرف بذلك من سمو الخديوى؟ الخديوى يعرف ان المسلمين الذين يتعلمون في الجامع الازهر في تلك الهيئة الرثة الخلقة، لا يزالون ينحدرون بها في غيابة الجهل والظلمة، ومنتهى غاية الذل والمسكنة، ولا يقدرون على شيء غير التقمص بقمص التعصب والجهالة، والارتزاق والاستيكال في وجوه الذلة والمهانة، ومن الآن لا يولد فى أرض مصر رجل يكون له هوى في الوطن، ووله في ارتقاء القوم، وحرية في العزم والرأي، وان يخلق في هذه الارض نسمة يكون من شأنها ادعاء الصلوحية، ودعوى القابلية للامور الحكمية،

والملكية لنفسها ، وقد تبين ذلك عند أهل مصر وهم قد افتهموا من هذا الحكم الهائل ان سمو الخديو قد آثر رضاء الشيوخ ومشايخ الازهر على فلاح القوم وصلاحهم،وقرب على ذلك بمثل لهذا القربان والله المستعان على ذلك وفي كل نازلة.

ولو ان أهل مصر كانوا يتوقعون من المستر دنلب بعد قنوطهم وإياسهم من جامع الازهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر ، ويكون فيها نشر التعاليم العالية واشاعة النصاب الاعلى في العلوم والحكم ، لكان في ذلك بعض تعزية عما قد فاتهم من ذلك في الجامع الازهر ، ولكن الذي ظهر لنا انهم لايتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا كما قد يئسوا من ذلك الجانب، وعسى أن ينكشف لديهم ان أعضاء الدولة والذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لا يرضون بان يتاح لهم من التعاليم ماتستنير به قلوبهم ، وتستضيء به أدمغتهم ، ويطلمون به على حقوقهم الملية والسياسية ، ويعزمون به على طلبها والاجتهاد والجد في تحصيلها ، واحراز الفائت منها .

فأما الدولة الانكليزية فقد أخذت أزمة الحكومة المصرية وأعنتها في يدها لمحض النصح التام لكافة أهلها ،وأن لا تألوا جهداً في تحسين صورتها وتجويد حالها ومنظرها، ولكننا نسلم ذلك الى الوقت الذي ليس لاهل مصر اطلاع على أحوال السياسة ، وإلمام وممارسة بفنون التمدن، وما فيه قوام الدولة وقيامها، أو هم ذاهلون عن اكتساب العلوم النافعة التي امتلكت بها أرض أوربا سائر البلاد، وذلت لنفسها كل صعاب الامصار والاقطار . ومعلوم ان هذه الذلة والهوان، وان ذاك النعاس والنسيان، وهذا الحرمان والخذلان، وغيرها من المعاير التي توجد في أهل مصر من أجل تلك التعاليم الدارسة البالية في الجامع، أصلها من هؤلاء الابرار من أهل العلم والمشيخة المقدسين، وهم السبب الاصيل والعلة التامة لهذه الحال المتهنة ، وانما يكفي من تعليم الدين محض اسمه لاجل ارضاء المسلمين ، وتفريح خواطر العامة الجاهلين .

فأما نحن فقد أحطنا خبراً من الجرائد المصرية ان اهل مصر وان كانوا قد أحسوا بما فيه ملكهم ودولتهم من الارتقاء والاصطعاد من أجل النظام الحاضر

البريطاني واخضرار عود المملكة به واستقامة عمودها لاجله ،وهم عارفون فضل الحرية التي اكتسبوها ولم يرزقوها من قبل - فهم بعد غير راضين بنهج التعليم الذي وضعه لهم المستر دنلوب رئيس ادارة التعليم وأسسه لهم وأنفذه بينهم في أرض مصر ، ويحسبون ان هذه الطريق لا تأذن لهم بشيء من الارتقاء والصعود. وهم لا يكتمون ذلك ولا يسرون رأيهم هذا ، بل يجاهرون به ويتصارخون في الجرائد المصرية، ولكن لو أمكن في الوجود سبيل الى اصلاح الجامع الازهر وتسبل اليه اشاعة العلوم النافعة ، أو وقع رأي مثل المفتي محمد عبده وغيره ممن يبتغي الاصلاح في موقع القبول، لكفت هذه الكلية وحدها لاصلاح المصريين ، وتخرج من هذه الكلية الباهرة متعلمون كانت أرض مصر تصير كمثل أوربا باجتهادهم في نشر التعاليم العالية وإحسان التربية لبني أوطانهم ممن يتعلم فيها .

أوليس انه لو أصلح حال كلية مثل الجامع الازهر الذي يتعلم فيه عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف نفس ، ونشرت فيه العلوم الحديثة على منهاج كليات أوربا ، وأتيحت لهم الدروس الدينية مع العلوم العقلية ، وكان هناك نظم جيدة لتربية الرجال المتعلمين فيه - أفلا يتخرج منه في كل سنة مائة نفس يحامون عن الاسلام والمدنية ، وتستنير قلوبهم وأدمغتهم بأنوار العلوم الحقيقية ، ويمحون بذلك عن المسلمين نسبة الجهالة ، ورسام فقد القابلية للارتقاء والنهضة ؟

الحق ان الحكم الذي قضى به سمو الخديو انما هو غضب من الله وعذابه حل على أهل مصر ، وقد تمثل وتصور في هيئة هذا الحكم الهائل الخديوى ، وللمصريين أن يقنطوا من الآن وييئسوا منذ الساعة من ارتقائهم في معارج الصعود ، ويقيموا المآتم بالبكاء والعويل على ما فاتهم من تعليم العلوم النافعة والفنون المفيدة لهم . ولشيوخ الازهر وأساتذتها أن يتعيدوا بمثل هذا العيد العظيم ، وأن يبارك كل واحد منهم الآخر ويهنئه على انه من الآن لن يتطرق الخلل الى ملاذ هؤلاء المعممين ومنافعهم المزخرفة ومعايشهم الدينية والدنيوية، وان كان يستتبع ذلك هلاك قومهم ، وطلف اخوانهم وتلف أبناء أوطانهم

ثم إن علماء الازهر قد وصفوا هذه العلوم الجديدة بأنها مطفئة لنور الاسلام

وإن الخديوي بنفسه وصف العلوم التي تتلقى الان في الجامع الازهر فقال انها تبعد الرجل عن عقائده الدينية ، وتحول بينه وبين تركها ، والانصراف عنها، وقد عبر عن أشاعة العلوم الجديدة الشائعة في تلك السنين والاعوام ، وادخالها في نصاب التعليم بالوساوس والاوهام، ووصف الذين يبتغون الاصلاح، ويسعون من أجل تلك الامصار والبلاد ، بأهل الشر والفساد ، وهذه الاقوال والكلمات وان هي احلولت في مذاق القوم ومطعمهم ، وراقهم زخرفها وزبرجها لما يحسبون فيها من احياء رميم الدين ، واعلاء كلمة الشرع المتين ، فانه بعد قد تبين للعاقل ان من الحق غير ما ارتآه هؤلاء ، وخلاف مازعمه وذهب اليه أولئك الناس، وان قولهم ضد ما يقوله الاسلام بنفسه ، أو رآه سلفنا الصالحون به من قبل ، فهؤلاء كأنهم قد صرحوا بخطاباتهم وكلماتهم تلك ان الاسلام أشد مبغض وأمرّ قال المدنية ، والارتقاء للعلوم الطبيعية، مباغض لها ولمدلولها أي مباغض، ومعاد لها ولمنطوقها أي عداء ،وكان المسلمون في رأي هؤلاء بمعزل عن الاستعداد والقابلية في الارتقاء والاصطعاد ،فقد طعن هؤلاء في الاسلام طعنة ماطعنه بها أشد المبغضين له ،ولا رماه بها أعظم المعادين معه ، وقد عادى هؤلاء إخوانهم معاداة لا يستطيع أن يزيد عليها أكبر أعاديهم،ولا يستزيدها أعظم مبغضيهم

وانما يزيدك عجباً إلى عجب أن سمو الخديوى لعلى علم باستقراره على عرش الملوك الذين سبقوه وتسلطنوا في أرض مصر،وكانوا ممن أشاعوا العلم والحكمة لا في ملكهم خاصة بل في سائر البلاد والاقوام،أولست بخبير بما صنعه الكلدانيون(١) وتلاهم في ذلك البطالسة الاقدمون ، وجاء على أثرهم الفاطميون، وهذا مضافا إلى ماسبقهم في ذلك من جماعة آل عباس الذين امتلكوا هذه البلاد وأشاعوا فيها العلم والحكمة

أو مادار في خلده انه خليفة هؤلاء الملوك الماضين،ومن خلف هؤلاء السلف الفاضلين ؟ وان أرض مصر أرض تخرج منها أناس كانوا أول من تكلم على صناعة حمو مطرنا(٢)وحسبوا حركات النجوم وتقويمها وسيرها ورجوعها واستقامتها

(١) لعله اراد ان يقول الفرعونيون فوقع فى ذهنه اقرانهم الكلدانيون اهل مدنية العراق فرسم قلمه هذه موضع تلك ،أوأراد الجمع بينهما

(٢) كذا فى الاصل غير منقوط والمراد تحنيط الموتى

وتداويرها وجور جرانها وحواملها ومتمماتها . واليونانيون بأسرهم على جلالهم في هذا الشأن عيال على هؤلاء المصريين فان تاليسهم(١)أول من أخذ هذه العلوم منهم، وأخذت الهند علومهم من الفينيقيين الذي كانوا في نوبتهم تعلموا هذه العلوم من المصريين فيما هو مبين من المقالة الرابعة البديعة الحكمية الشهيرة (بالاوائل العلوية ، في الحكمة العربية) التي نشرت في النمرة السابعة من الجزء الاول من البيان الاغر فليرجع اليه

وأرض مصر بنفسها الى الآن مكتنزة لعجائب علوم المصريين وعماراتهم البديعة التي أعجزت الفلاسفة الافرنجيين عن اكتناه سرها، واعيتهم عن الوصول الى تخوم حقيقتها، وفيها الى الآن من تلك الآثار المغربة والعلوم المبهرة مالا يعلم حدها إلا الله عز وجل

هذا وان سمو الخديوي لا يرى حقاً في ردم باب الحكمة على وجه رعيته، ولا يحسب ذلك ضيماً في شان صعاليك قومه وملته،ولا يستحي من النظر الى مكانته واستقراره في عرش مملكته ، في أي أرض يملك ؟ أم على عرش من هو جالس ؟ أم خليفة من هو من الملوك الماضيين الفاضلين ، أم رئيس من هو ممن تخرج من الحكماء الكاملين، من تلك الآفاق والارضين

ونحن منمقون شيئا في هذا الباب في الزمن القابل ونبين للناس غلط الخديو وشيوخ الازهر من الكتاب والسنة ، وأقاويل حكماء الاسلام في العهد القادم .

وعما قريب سنوضح للناس أن سعادة الخديوى وعلماء الازهر قد أضروا بالقوم والملة ضرراً لا يستطيع أحد أن يكافئه بشيء أو يكفي شره بنوع (٢)وهؤلاء الشيوخ والخديو وإن فرحوا الآن بما قدصنعوه في الحال فعما قريب يذوقون من مرارة سمومه في مواخره وصعاب عواقبه ومعاثره (لعلها مصايره) ، مالا غاية له إلا موت القوم والملة ،ولا نهاية له إلا فوت العلم والحكمة (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

---

(١) هو طالس أقدم فلاسفتهم السبعة (٢) قد أرسل الينا هذا المقال وقتئذ وننشره فيما يلي بعد مقدمته له فيما كان سببه

﴿ تعليق جريدة الرياض على مقالة النواب ﴾

[الرياض] الازهر أكبر كلية اسلامية في العالم فكان أجدر به ان يخرج منه رجال يفتخر العالم الاسلامي بهم وبعلومهم ، ويستفيد المسلمون من أدوار معارفهم ، ويرتفع بهم الدرجة العلمية الاسلامية التي انحطت منذ عدة قرون

أفليس هذا محل الاسف ؟ ان هذه الكلية الاسلامية مع كثرة المعلمين والمتعلمين فيها لاتفيد المسلمين إلا تعصبا وجهالة ، ولا يزيدهم إلا اخساراً في العلم والتمدن وانحطاطا في العلوم الحديثة والقديمة ، وخسرانا في المعارف الكونية والدينية

فأي شخص أعلم من حضرة الخديوي بسوء تربيته ، ونقص تعليمه ، وفساد نصابه ، فان سموه قضى معظم عمره الشريف في سياحة البلاد الاوربية ، واختبر بنفسه نتائج الكليات الغربية ، فهو عالم بالعلوم الحديثة والقديمة عارف باسباب تقدم الاقوام وتأخرهم ، وترقيهم وتدليهم وحياتهم وموتهم

بناء على هذه الوجوه عجبنا وعجب كل مسلم في الهند من حكم سموه الذي قضى به في جمع حافل من العلماء ، وشدد النكير على حزب المصلحين وجماعة المخلصين ، وعنفهم وأنذرهم بسوء عاقبة هذه الوساوس والاوهام ، فان اقتضت المصالح المصرية بالغاء العلوم الجديدة من الازهر فكان الانسب عندنا أن يرتفع النصاب الديني إلى الدرج الاعلى في جميع العلوم المتعلقة بالديانة الاسلامية كالفقه وأصول الفقه ، والتفسير وأصولها ، وعلم الحديث بأسانيده وأصوله ، وعلم الكلام الذي هو الفلسفة الالهية الاسلامية إلى النهاية التي بلغت إلى الآن ، والعلوم التي هي مثل المبادىء لهذه العلوم كالادب والبديع والبيان والانشاء والبلاغة بحيث من يتم دروسه يكون على بصيرة تامة في جميع الاصول الاسلامية وفروعها ويقدر على اثبات العقائد الاسلامية بالبراهين القاطعة ، ويكون له نفوذ عظيم في العالم الاسلامي ، فان ارتفع تعليم الازهر على هذه الدرجة يستحق أن يقال له انه نافع للمسلمين في دينهم ، ويبقى الضرورة الدنيوية على حالها ، وإلا فالآن يصدق على من يخرج من الازهر : ليس له في الدنيا نصيب ، وما له في العلوم الاسلامية من خلاق اهـ

دفاع المنار عن علماء الازهر

فيما نبزهم به النواب محسن الملك

نشرنا فيما تقدم ماجاءنا في كتاب طويل من النواب رحمه الله تعالى خاصا بترك الاستاذ الامام الازهر بعد اطراء طويل للمنار ولنا ، وقفينا عليه بمقالته الحافلة في هذا الموضوع التي نشرها في جريدة الرياض الهندية ووعد في آخرها بالرد علينا فيما دافعنا به عن علماء الازهر

واننا ننشر هنا ذلك الدفاع عنهم بنصه ونقفي عليه برد النواب فنقول :

كنا بدأنا جواب المنار على كتاب النواب الجليل بما يتعلق باقتراحه علينا الاستمرار على كتابة المقالات الحمازة للقلوب ، الحفازة للهمم ، الموكفة للديم ، ثم عطفنا عليها الجواب عن أقواله الهمازة اللمازة لعلماء الازهر التي أملاها عليه تألمه وتبرمه بما كان من خطبة الخديو وحديث شيخ الازهر السابقين ، وهذا نص عبارتنا (في ص ٢٣٥ من مجلد المنار الثامن)

وأما ترك الاستاذ الامام للازهر فهو لم يكن من يأس ألم بنفسه الكبيرة ، ولا عن ضعف في همته العلية ، ولا لمقاومة علماء الازهر لما يريده من اصلاح التعليم ، أو اضافة علوم جديدة على مايقرأ في الازهر من العلوم ، وانما هو ماتنسمتموه من الجرائد المصرية ، ونزيدكم فيه بيانا بمكاتبة شخصية ، وقد ظلم العقلاء عندنا وعندكم علماء الازهر فأنزلوهم من درجتهم في العلم والفهم ، كما أعطوهم اكثر من سهمهم من الشعور والاخلاق

أما ظلمهم اياهم فهو اعتقادهم وقولهم فيهم انهم يعتقدون أن العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين ، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين ، وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم . وكل هذه الظنون فيهم باطلة فان من أصحاب الدرجة العلميـة الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها ، فكيف لايخافون الكفر والضلال على أفلاذ أكبادهم مع عدم تمكنهم من العلوم الدينية ، ويخافون ذلك على طلاب الازهر المتوغلين في علوم الدين ؟

ان هذا شيء لا يعقل . ثم كيف يطعنون باكابر علماء الاسلام الاعلام الذين تمكنوا من علوم الدنيا وصاروا يعدون من الفلاسفة كالامام الغزالي والامام الرازي وفلان وفلان؟ ثم كيف لا يطعنون بدين أكابر أمرائهم وحكامهم في هذا العصر وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا وقلما يوجد فيهم من تلقى عقيدة الاسلام ببراهينها ، أو عرف مهمات أحكامها، ولو غفلا من دلائلها وحكمها ، وان منهم من يصف بعض هؤلاء الامراء بالتقوى والصلاح . فظلم وألف ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقا عن علومه ،وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين،وأنه دين عام وأن لا دين بعده أوفق لمصلحة جميع البشر منه، مع استلزام هذا لكون الاسلام يتفق مع علوم البشر ومدنيتهم في كل زمان وإلا كان متضمنا لتكليفهم ما لا يطيقون نعم انه يوجد فيهم بعض الاغبياء الذين يعبث بهم هذا الوهم ،ولكن الحكم على جميعهم أو اكثرهم بذلك ظلم وجور . وانني اقول ان الاستاذ الامام لم يقرر في إصلاح الازهر شيئا إلا برأي جماعة من كبرائهم واستحسانهم، وقد نفذ بعض ماطلبه وحاوله برضاهم وموافقتهم ،وأوقف بعض الاصلاح للاسباب التي لا اصرح بشرحها بعد رضاهم به واعترافهم بفائدته (١)

وأما وصفهم بأكثر مما يستحقون من الشعور بالمصلحة وإرادة الخير فهو تابع لذلك الظلم،وهو اعتقاد كثير من العقلاء في مصر وفي أقطار أخرى ان هؤلاء الناس أعداء الاصلاح الذي عرف سراة الامة وعقلاؤها شدة الحاجة اليه لما في قلوبهم من الشعور بضرره ،ولما عندهم من الارادة القوية والعزيمة الصادقة والغيرة الملتهبة على الاسلام والمسلمين وانهم لا يخافون في ذلك لومة لائم ،ولا سطوة حاكم ، ولا حرمانا من منفعة مالية،أو كسوة تشريف قصبية، والحق أن هذا الصنف الشريف الذى كان له من قوة العزيمة بالاتحاد والاتفاق ما يقيم به محمد علي باشا حاكما على البلاد المصرية قد استضعف فضعف حتى صار لا يجهر برأيه الا اذا أيقن ان قويا بعده،أو حاكما يسنده، وكثيراً ما يستحسن أمراً ثم يستهجنه ، او يستقبح شيئا ثم يستحسنه،ولقد كان

(١) أعني إغراء الخديو لهم ، وهذا شر ما شكوته من ضعف أخلاقهم

أكابر علماء الازهر موافقين للشيخ محمد عبده في كل شيء يقترحه لاصلاح الازهر أيام كان مؤيداً بنفوذ الامير، وانما كانوا يرغبون اليه في أن يكون ذلك بالتدريج البطيء، لانهم لم يتعودوه ويثقل على المرء لاسيما الكبير المضي فيما لم يتعود ولما بدا للأمير في تأييده ومساعدته وقف كل اقتراح، وعورض كل اصلاح حتى لم يبق للحكومة الخديوية ثقة بتخريج القضاة في ذلك المكان فهي ستبني مدرسة جديدة لتخريجهم فيها، ولم يبق لها من العناية بالازهر الاحفظ الامن فيه كما هو حق كل أحد وكل شيء على الحكومة

لاجل هذا ترك الازهر ولكن آثاره الصالحة لن تتركه، فهو قد وضع أساس النظام الذي قد يضعف تارة ويقوى تارة وقد يزاد فيه وينقص منه ولكنه لا يزول. وهو قد نفخ في نفوس كثير من الاذكياء فيه روح الشعور بالحاجة الى اصلاح التعليم وإصلاح الاخلاق وخدمة الاسلام والمسلمين والسعي في ازالة ما غشيهم من البدع والفتن فاضعفهم وأذلهم فلن يموت هذا الشعور . ثم أنه لم يزدد الارجاء بالله وهمة في خدمة ملته بالعمل والتدريس والتأليف لايثنيه عن ذلك ثان الامايلم به من المرض أحياناً شفاه الله ونفع به آمين

هذا وان العبرة الكبرى فيما كتب هذا السري الكبير هو احساس المسلمين المخلصين الذين يعرفون الاسلام ويغارون عليه بأن الاصلاح اذا ظهر في أي قطر ففائدته لابد أن تكون عامة لكل البلاد الاسلامية، وان النور اذا ظهر في هذه الامة من أي مطلع فانه ينبسط على جميع البقاع لان هذه الامة أمة واحدة، ربها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، والهداية في دينه على ملة واحدة وهي ماجاء به نبيه (ص) عنه، ومصلحتها الذلك واحدة، فما يضرها يضر جميع المنتمين لها وما ينفعها ينفعهم أجمعين.

لاجل هذا أحس الاحياء من مسلمي الهند بان ما دهي به الاصلاح في الازهر هو مصيبة على الاسلام والمسلمين في جميع الارض لانه كان يرجى أن يكون خيره متى ثبت ونجح عاماً لجميع مسلمي الارض ولو بعد حين . فماذا يقول أولئك الذين يريدون أن يقطعوا أوصال المسلمين بنزعات «الوطنية» الفاسدة في هذا الاحساس الشريف من إخواننا في الهند وكذا في غيرها ؟ اه

(ويليه رد النواب على هذا الدفاع نقلا عن المنار: ص ٦٨١ م ٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه نعبد وإياه نستعين

سعادة الفاضل الحكيم العلامة ، دمتم بالعز والكرامة

سلام عليكم ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، وأصلي على نبيه النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه السادة الاهاميم (وبعد) فانا قد سررنا وتنشطنا بحسن صنيعكم اليمنى من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي . وقد سرني أيضا ما قد استتبعتم ذلك بانتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تحامون فيه عن علماء الازهر واستفراغكم الوسع بذلك في دفع ماوقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتآها الناس فيهم ، ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم ، هو أن تعفو عني مما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد ، فانه يا أخي ليس فيما أحسب مما يطمئن به بال أحد، أو أن يفند بهماقد رآه أكثر اهل النظر في هؤلاء العلماء من انهم لا يحبون إشاعة العلوم الحديثة ، ولا يجوزون لها السبيل والتطريق في المدارس والكليات ،ولا واحد عندي بمقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما أحسب، فقد علمت ياسيدي أن تعسف علماء الازهر وتعصبهم للعلوم الخلقة البالية،وخلافهم للاصلاح في شؤون التعليم والاخذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه أحد ،فقد شحنت بذلك الجرائد المصرية كلها لاسيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم لا يجوزون العدول بيسير عن المنوال العتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس في الجامع الازهر ، ويتحرجون من تشكيل صناعة التاريخ والجغرافية في نصاب الدرس الحاضر ، فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المنهاج الجديد في أرض أوربا ؟

أفحسبت ياسيدى ان الذين لا يزالون يقرءون ويتلون الجرائد المصرية، ولا يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهاراً ،أفتراهم يقلعون عن رأيهم في شأن

هؤلاء العلماء؟ أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فيما أفدتم بنفسكم بأنهم يعتقدون ان العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين، وان إصلاح طريقة التعليم خروج عن الصراط المستقيم - أفترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل؟ أم تراهم يوافقونك في قولك: وكل هذه الظنون فيهم باطلة؟ كلا ولا كرامة، وحاشاهم عن ذلك

فأما انتم فلعمري لم تألو جهداً في المحاماة عن هؤلاء العلماء، وأتيتم في بيان ذلك بحجتين، وكلتاهما ننتقد عليها، وننظر في وزنهما ورجحهما، على منهاج أصحاب النظر، أما الحجة الاولى فقولكم: ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقولكم: ولا يطعنون بدين أكابر امرائهم وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا الخ. ولكن هذا الكلام منكم لا يجديهم نفعاً، ولا يحامي أو يذب عنهم بشيء، فقد عرفتم ماهو من ديدن علماء هذا العصر انهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون. وهم الذين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازي وهو من معاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم - قال:

ترك دنيا بمردم آموزند خويشتن سيم وغله اندوزند

يعني بذلك انهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكنزون الذهب والفضة ويحتكرون الطعام لانفسهم* ومن ديدنهم أيضا ان لا يطعنوا بشيء على الامراء والولاة كيلا لا يحرموا من صلاتهم، ولا ييأسوا من استجلاب خيرهم ومبراتهم، بل وإنا نراهم يوافقون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على أفاعيلهم، ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين، فنراهم لا ينكرون عليها بل يعاضدونهم بموافقتهم ومشاركتهم فيها. وشاهد ذلك قولكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « فمشايخ الازهر يقرءون في كتب الحديث نهي الشارع عن بناء

(*) قال الشاعر العربي:

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى مايدر لها ثعل

القبور واتخاذ المساجد عليها ، واتخاذها أعياداً وتعظيمها . ثم انهم يشاركون العامة في هذه الاعياد التي يسمونها موالد على مافيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه . ثم انهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يسدل شعره الشريف ويفرقه ؛ وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين ، وقد أمرني بذلك بعضهم وكان شيخا للازهر قائلا : انك من أهل العلم لايليق بك أن ترسل شعرك فاحلقه ، فحججته بالسنة ، فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن » وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم ص ٢٢١ من هذه الثمرة الحاضرة « وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفا للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج ، فأما إذا أخذنا باطلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجها في هذا العصر إلى علماء الدين فانهم يحلقون ، بل ينكرون على من لم يحلق وهم مخطئون »

هذا — أم كيف يوافقكم أحد في قولكم « ظلم وأي ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم إنهم يعدون علوم الدنيا خطرا على الدين أو عائقا عن علومه ، وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين » الخ ـ وقد سلف منا مراراً انا قد رأينا في (الجوائب المصرية) انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين يجله كبيرهم وصغيرهم لعلمه وفضله ، ويعدونه حجة وقته وإمام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي ترأس العلماء في عصره ، ومن رأيه مايقول لمدير الجوائب ماتلك ألفاظه « غرض السلف من تأسيس الازهر : إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له »

ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قائلا « هل حدث يامولاي مايقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه ؟ » فتبسم الاستاذ ثم قال « بل ان الذى حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ، ويحوّل هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية » الخ ويجاهر في آخر كلامه متظاهراً قائلا « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا »

ؤ وليتركوه كما هو حصن للدين ، وان أرادوا به إصلاحا فليكن الاصلاح منحصراً في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وماسوى ذلك من مبادىء الفلسفة ، والعلوم الحديثة العالية ، فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه »

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وانا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأثاروا في إصلاح الازهر بما اضطر الخديوي إلى إخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الازهر قائلا « إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر فيها علوم الدين الحنيفية في مصر وجميع الاقطار الاسلامية.

« ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهريين دائما » ولما كان يخال ان هؤلاء الرهط الذين يرومون الاصلاح كلهم مفسدون قال فيهم « أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء ، ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والاوهام او الايهام بالاقوال ، او بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده ويبث فيها مايريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الازهر والازهريين » (١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرفها حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء أكثرهم لايجوزون الاصلاح في النهج القديم للتعليم ويحسبون أن العلوم الحديثة بأسرها مطفئة لنور الاسلام ، ولعمري ان هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الازهر الذي كان من حقه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزاً للنكبة، وموطنا للمذلة ، ومعقلا للمتربة ، وموضعاً للمسغبة ، ولو نظرت إلى العلوم التي تدرس فيها لوجدته بأسرها علوما بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوما دينية، ولا تجد فيها إلا تلقين نبذ من المسائل التي تشمئز منها العقول،

---

(١) المنار : قالت جريدة اللواء يومئذ ان المراد بالاجنبي هنا صاحب المنار

وتمج قبولها أحلام الفحول ، وذلك من أجل مخالفتها لقواعد الحكمة وأصول الفطرة، ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من المطالب التي لاتستنير بها أدمغة الرجال ، ولا يتسع بها فضاء علمهم ومعرفتهم ، بل يتركز بهـا التقليد في تخوم قلوبهم ، وقد امتلأ القرآن العزيز بذمه ،وشحن الكتاب المجيد برده ،وجل همتهم في أن يحمل الناس على منهاج يعتقدون به ان الاسلام بدع هذه البدع ، ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من أحاديث خرافة، بل عين الشرك الجلي ،فضلا عن الشرك الخفي ، وانما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء إما في الدنيا او في الدين،هذا شيء من حالهم في تعليم العلوم . فأماسبل التعليم ومنهاج تدريسهم ونظام الامور فيه فأمره أشهر من أن يذكر،وأبين من أن يوضح ، وقد تفجع له بعض فضلاء الهند الذي كان حل بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا إلى حيدر اباد عاصمة دكن ولقـد نشر نموه في الجزء العاشر من المجلد الخامس من مجلتكم المنار

وبعد ذلك فهل تحسبون انا نحسن الظن بهؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا إلى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم،فقد كانوا يعتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية،وكانوا يحضون المسلمين ويحثونهم ويحرضونهم على تحصيلها في تآليفهم وكتبهم وأسفارهم وزبرهم التي كانوا يعملونها لنشر تلك العلوم ويخاطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلان اني آنست ناراً في وادي هذه الفنون، لعلي آتيكم منها بخبر أو قبس لعلكم تصطلون »

أو ليس هؤلاء العلماء قد عثروا على قضية عمر بن حسام فيما أخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الابهري فقال بعض الفقهاء يوما ما الذي تقرءونه؟ فقال افسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها »فأنا أفسر كيفية بنائها . ولقدصدق الابهري فيما قال : فان من كان أكثر توغلافي بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته . انتهى كلام الرازي بعيون ألفاظه

اولم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي أبي الوليد بن

رشد (الذى) نص فيه على وجوب معرفة الموجودات والعلم بحقائقها من جهة الشرع وان القرآن العزيز قد أمرنا بذلك أمراً أكيداً في كثير من الآيات وكتب في آخر ذلك ماتلك عيون ألفاظه « وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى ..... » ولم يدر هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئة فيما نقـل عنه الفاضل عصمة الله في (التصريح شرح التشريح) للشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو عنين في معرفة الله (١)

وأعظم من ذلك كله الاثر المأثور المشهور عن سيدنا علي فيما أشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزانة الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخالف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لاسراره الغامضة الدقيقة. وهو قول معروف عنه وقد أخرج الخبر به مفصلا الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن يعيش القرشي التيمي في بعض مقاطيع القسم الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الغثاثة فليرجع اليه

هذا وانه لن يذهب عنا الاسف والكمد الذى نجده في أنفسنا من جهة قضية الخديو وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا المصر في حاجة إلي مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وأمثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده وأضرابه الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام ، ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزيغ عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها تطابق العقل والفطرة حذو القذة بالقذة، وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسلمين تعليمها والاخذ بها وتعلمها ، فيخرجوا بذلك عن قعر الذل وغيابة الهوان والصغار التي ألقوا

(١) يعني ان علمه يكون عقيما غير منتج

فيها وهم صاغرون ، وقد لزم الاسلام بهم عار قبح به منظره ، وساءت بذلك هيئته ، وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء ، في معارج العز والاعتلاء ، فأما نحن فلسنا في حاجة إلى أمثال هؤلاء الذين يقولون ان العلوم الحديثة مطفئة لنور الاسلام ومخمدة لناره ، ومطمسة لآثاره ، ومجلية له عن عقر داره ، ومحله وقراره

أو ليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضاحك بها الاعداء ، ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكاء ، وتسكاب الدماء ؟ أو ليس قد تراكمت على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب ومكان ، أي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا يتصدع لها القلوب وتتفطر بها الاكباد ، وتجود لها المحاجر والآماق بأنهار الدماء السائلات ، وتنسكب لها ماقي الامطار من المقل الغائرات ، خرجت الممالك من أيمانهم ، واضمحلت الدول التي بقيت في أيديهم ، كأنهم لا حراك بهم ، وصاروا في العالم كأنهم اللعبة تتداولها أيدي الاجانب ، وتتلاعب بها أكف الاباعد ، بما خرجوا عن امتلاك الاقارب ، لا يحس فيهم شيء من آثار المروة ، ولا عندهم ميل الى التجارة والصنعة بل هم زاهدون فيها ، وراغبون عنها ، يستقبحون شكلها ومنظرها ، ويستفظعون محلها ومصدرها ، ورضوا بالافتقار ، في تحصيل كل شيء حقير وجلب كل ماعون يسير ، من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرج للمساجد والصوامع من أرض الفرنج ولا يتخذون من ذلك شيئا بانفسهم وأيديهم . لم يبق لهم عزة ولا صولة ، ومابقي عندهم امرة ولا دولة ، وأما عددهم فهم وإن كانوا يبلغون إلى ألف مليون نفس في العالم فهم بعد ليسوا في قطر من أقطار الدنيا ممن يفتخر هنالك بوجودهم ، ولا ممن يتفاخر بهم على لسان وليهم وودودهم ، أو يفرح الرجل بالنظر إلى عيونهم وأشخاصهم ، او يسير اخوهم اذا كان يرمق إلى عدهم وافرادهم — فماذا يكون من السبب الاصيل في ذلك ، وبيد من رهنت ذمة هذه الامور

والذى أحسب ان جل السبب في ذلك ليس إلا نفارهم عن العلوم الحديثة وتعاميهم عنها ، وانم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يزرون تلك الاوزار ،

ويجوزون للمسلمين أن يخرجوا عن غمار الذل والصغار . ومن ثم تراهم يرعوون عن التعاليم النافعة ، ويردعون الناس عنها بفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم الحديثة، ويحولون بينهم وبينها، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لايبصرون ، ولايشعرون ان ارتقاء الاوربيين الذى يضرب به المثل اليوم ليس إلا من جهة توغلهم في العلوم الجديدة، ونبوغهم في الحكم الحديثة ، وكل دولتهم وقوتهم منسوبة في الاصل الى تجارتهم وحرفهم، وهي في نوبتها منسوبة إلى تناغيهم في هذه العلوم الجديدة النافعة

دع عنك أروبا وانظر إلى هذه الامة الحقيرة التي يقال لها أمة جابان ؟ أفلا يرونها كيف ارتقت في مدة لاتنيف على عدة سنين ، لا تعد إلا على أنامل الآدميين، ارتقاء مبهراً بهرت الانظار، وخطفت لها النواظر والابصار، أفليس انها لم تستكمل انفسها مدة خمسين سنة، وكانت تعد من قبل ذلك في الاقوام المتوحشة، وتستحقرها الامم المتمدنة ، وهى اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود والارتقاء، وقد أدهشت الدنيا باسرها باعمالها البديعة التي صدرت منها في هذه الازمان وكل واحد يحترمها كل الاحترام ، وحرمتها مركوزة في طبع كل انسان، فماذا الذى قلبها عن حالها القديم ، وانعكس أمرها عن شأنها الفاسد الرميم ؟ ماذلك إلا من أجل تناغيها في العلوم والحكم ، والازهريون على خبرة من حالها، ومنهاج ارتقائها ومنوالها، وانما الاسف عليهم من أجل انهم لايقيسون أنفسهم بهؤلاء ولاينظرون في علل تلك الاشياء ، ولا يفكرون في أسبابها التي أورثتهم الارتفاع ، وأورثتنا الانحطاط والانخفاض. ولو كان عندهم صواب في الرأي وحزم في الروية ومعرفة صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ، ولكان كل واحد منهم مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذى أضل الناس كثيراً ، ولكان يسلك في منهاج التحقيق الذى هو الصراط المستقيم، ويضيء فضاء الارض برحبها، وينور العالم الاسلامي بسعته كلها، بمشعلة الاسلام، ونبراس كلام الله الملك العلام

وليت شعرى ماذا الذى علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات البدنية؟ أم نبذ من تلك المراسم الظاهرية؟ أو مطالب عديدة من مسائل النفاس

والحيض (التي) يعنون بها التعليم الديني لا غير لا ما دون ذلك ؟ كلا ولا كرامة ، وحاشاها عن ذلك ، بل قد دلانا على ما فيه جل الخير وتمام النفع في الدين والدنيا وكمال الربح في الاخلاق والمدنية ، وعلمانا الاصول التي بها نهتدي الى تحصيل تلك العوائد الثمينة والفوائد الغالية ، وأوجبا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية باسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لمثلكم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضاآتكم (١) البديعة الرشيقة التي علمت الدنيا أن الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية ، والعوائد الملية والقومية ، وهو الذي تخذ العلم والعقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ، ولو لم يكن الازهريون يظنون ظناً باطلا ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لا يعتد ولا يعبأ بها ، واكثر هذه المطالب ليست بجديرة للعمل في هذه الاعصر والدهور (٢) ولو عرفوا ما في تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ما هو معلوم عند كل ذى حجي وهم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين لما رؤي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايتهم من الذل والهوان ، ونهايتهم من الصغار والخذلان ، ولو كانوا يعلمون أن العلوم العقلية والكونية عين العلوم الدينية ، لكانت كلية كيمبردج واكسفورد تحسد كلية الازهر وتغبطها غبطا ما كان يجحدها أحد ولتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يصعدون بالبلاد الاسلامية ويحلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء ، التي وصلت اليها أمة جابان في هذه الاعصر والازمان ،

هـذا رأيي ورأى سائر الافراد الذين لهم خبرة باحوال الدنيا ووقوف على أخبارها وإلمام بتواريخها ، واني لقاطع بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عداني ان العلماء هم العلة الاصيلة لكل هذا الصغار والهوان ، وتمام تلك النكبة والخذلان ، وهم موقوفون غداً بين يدي الرحمن ، ومسئولون من لدنه فليستعدوا للجواب ، فهم الاصل الاصيل لجل هذه المفاسد وكل تلك الشنائع

وأنت يا أخي لا تستطيع وإن جهدت كل جهدك للمحاماة عن علماء الازهر

(١) يعنى بهذه الامضاءات مقالات المنار الاصلاحية (٢) يعني مثل أبواب الرقيق

أن تغسل هذا العار عنهم ، وتدفع هذه التبعة والنقيصة منهم ، فانك لا تستطيع أن تكذب الحس والعيان ، ولا ان تدفع الوقائع التي حدثت في الادهر والازمان .
أفهذه الكلية التي مضت لبنائها الف سنة ونخرج منها مليون، بل أضعاف مليون طلبة ، ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة، أفيحق أن يكون نهج التعليم في هذه الكلية بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غذاءهم بالذلة ، وعشاءهم بالمسكنة ، ويبيتون وهم مخذولون بالمسغبة ، او يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج منها أناس يرتفع بهم منار الدين، ويتقد به نور الاسلام ويعلو قدر المسلمين، ويهتدي بها المسلمون إلي واجب الصعود والارتقاء، ويزيدهم عزة وبهاء ، ويهيء لهم ذرائع الاصطفاد والاعتلاء ،

و انما يحزننا أولا انا نجد المسلمين في أي مصر وأية نقطة من نقاط الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلم واكتساب الحكمة ، غافلين عنها غير مكترثين بها، وثانيا انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة، ولواحب الاكتساب متسعة، ومناهج التدريس مطروقة متفتحة، وحينما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التي هي أقدم كليات العالم، يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار، الذي تضيع فيه الاعمار ، ويضاع فيها الفضة والنضار ، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هذا النهج الباطل العاطل العتيق الذي لا ينبعث المسلمون به للنهضة، وينسلب من أجلها مادة التحقيق عن قلوبهم الخاوية ، ويبغض اليهم النظر في العلوم النافعة، يصطلحون على أن يسموه تعليما دينيا ـ وعلى أن يسموا الرجل العارف بمسائل شتى من الطلاق والرجعة والنفاس والحيض رجلا عالما ولا غير

هذا واني لست بمسهب مقالتي في هذا الشان، ولا بمطنب في شكايتي من علماء الزمان، نظراً إلى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤونهم واخبارهم ، فنحن في غنى عن إطالة الكلام عليها، وبمعزل عن إسهاب المقال فيها، وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وفقدان نفعها للمسلمين وضوح الشمس في كبد السماء ، وانما بقي

وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدراس الواحد في الدنيا من قديم الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع المفاسد الملية والمدنية في الاسلام ولا غيره ولو تقبل الناس آراء المفتي محمد بن عبده وبادروها بالقبول لكنا تأمل منه خروج المسلمين عن غيابة الذل والنكبة ، ونترقب صعودهم إلى أعلى قنن الفوز والسعادة ، ولكن عليكم بعد أن لاتيأسوا من روح الله ، وتجدوا كل الجد في اصلاح المسلمين ، وأحسنوا ان الله لايضيع أجر المحسنين . وكتب يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ١٣٢٣)

وأنا مخلصكم الصفي الوفي

(محسن الملك)

[المؤلف] انني نشرت لصديقي أمير العلماء والمصلحين في الهند مقالته هذه في السنة التالية ولم أناقشه في شيء منها ، وهو يحتج علي بالمنار في كثير مما انتقده علي . ولكنه لم يفهم مرادي من الدفاع عن علماء الازهر في تلك الحادثة بعد حملاتي الكثيرة عليهم من قبل لأنني لم اقدر أن أبينه البيان التام كما بينته هنا ، وهو أن الذين هبوا لمقاومة الاصلاح في الازهر لم يكن الباعث على ثورتهم جهلهم بالحاجة الى الاصلاح ولا الغيرة على الدين وانما كان الخديو هو الذي سخرهم واستخدمهم لذلك وروجت له جرائده هذا الايهام وهي المؤيد واللواء والجوائب المصرية والظاهر ، وكان هو يظن أنهم هم الذين بعثوا الخديو بل الجأوه الى ما فعل . وقد كتبت في تلك الاثناء مقالة في حقيقة حال الازهر واصلاحه لم أتمكن من نشرها ولو رآها النواب رحمه الله تعالى لما اشتبه في شيء من كلامنا الاول ، فننشر ههنا مقدمتها وهي

حقيقة الأزهر (*)

واهاوم الناس في علمه وتعليمه ، وما عرض حديثا في محاولة إصلاحه

للناس في وظيفة الازهر وحاله آراء وخواطر مختلفة يقل فيهاالصواب . كان الازهر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب يشتغل فيها المسلمون بجميع العلوم التي كانت معروفة في الارض أيام لا علم إلا علمهم ، ولا عمران إلا عمرانهم ، ولا مدنية إلا مدنيتهم . ولما فتكت الادواء السياسية والاجتماعية بعمرانهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والاندلس وهما جناحا عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الازهر في القلب او الوسط عضوا أثريا ليس له وظيفة حية لها أثر في العمران الاسلامي ، ونعني بكونها عضواً أثريا أنها حفظت بعض التصانيف التي ألفت في آخر عهد حياة العلم ، وكتبا أخرى كتبت في عهد موته ، نسخ بها كانبوها المقلدون ، ماأنشأه وسواه المتقدمون

يظن بعض الناظرين إلى الظواهر أنه لو لم يحفظ الازهر هذه الكتب بمدارستها لدرست رسوم الاسلام ، ونسيت لغته ، وجهلت علومه ، إلا بقايا لا يعتد بها في جامع تونس وجامع فاس ، وبعض البلاد التي غلبت عليها العجمة كبلاد الهند والروم ، فللازهر على رأي هؤلاء الفضل الاكبر على الاسلام والمسلمين وخاصة العرب منهم . ولو دققوا النظر لرأوا أن فائدة الأزهر في هذه القرون الاخيرة فائدة تاريخية لاحيوية ، كما هو شأن الاعضاء الاثرية ، فبها يعرف المؤرخ البصير كيف انحط العلم في المسلمين وإلى أي هوة هبط ؟ وما كل مايفيد المؤرخ لامة يكون مفيداً لها ، إذ المؤرخ يبحث عن الضار والنافع ، وعن أسباب الترقي وأسباب التدلي والانحطاط

ان الطريقة التي جرى عليها الازهر في مدارسة بعض كتب الفنون العربية والعلوم الشرعية غير موصلة إلى الغاية التي وضعت لها تلك الفنون والعلوم ، ثم

(١) مقالة كتبناها فى وقت الانقلاب لبيان اسبابه ننشر هنا مقدمتها فقط

هي عقبة في كل طريقة يمكن أن يشرعها محبو الاصلاح الذين ينكشف لهم قبحها وانحرافها عن جهة الغاية . ذلك ان اهل الازهر جمدوا على التقليد لما يفهمون من عبارات تلك الكتب فلم يعودوا ينظرون في المقاصد والغايات من العلوم، ولا في كون الغايات موافقة لمصلحة الامة العامة التي هي روح الشريعة ، وقد اتخذهم الناس رؤساء في الدين وظنوا كما ظن بعض الامم قبلهم انه لا يحل للامة إلا مايحلون، وانه يحرم عليها كل مايحرّمون ، فحرم المسلمون بهذا الاستفادة من روح الحياة المنبثة في القرآن لان علماءهم حجاب بينهم وبينه، كما ان تقليد الكتب حجاب بين هؤلاء وبين القرآن . وحرموا أيضا الاستفادة مما وصلت اليه حالة العصر من الارتقاء الصوري والمعنوي ، لان من لاحياة له لايستفيد من غيره شيئاً . ولذلك ترى المسلمين لم يستفيدوا من الارتقاء الاوربي الذي يحيط بهم فائدة جوهرية تعطيهم حياة حقيقية ، ومثل ماأصابهم منها كمثل الزينة التي تعلق على الجدران ونحوها من الاجسام غير الآلية لاتخالط جوهرها ولا تدخل في كنه حقيقتها

ليس ضرر الطريقة الازهرية في التعليم قاصراً على المسلمين بل هو يعم معهم جميع سكان البلاد التي تسير على هذه الطريقة ، لان البلاد التي يتألف أهلها من عناصر كثيرة تكون صفات العنصر الاكبر فيها هي الغالبة ، ويعسر على الاقل فيها أن ينهض بالاكثر ، وعلى الضعيف أن يؤثر في القوي . بل كان الجمود على تلك الطريقة هو الحائل دون اقتباس ماقضت الضرورة على الشرق أن يقتبسه من الغرب ، والسبب في طول العهد على التباعد والتباغض بين شعوب في الاوطان البعيدة والقريبة بل في الوطن الواحد ، فهي طريقة ضارة بأهلها وضارة بجيرانهم وأهل أوطانهم ، ، وضارة بسائر الناس ، لانها عائق عن ارتقاء طائفة من أبناء الانسان وجعلهم فتنة لاخوتهم ، وعقبة في طريقهم

وجد في مصر وفي غيرها أفراد من اهل العلم والفهم نشأوا على الطريقة الازهرية ، ويظن من لم يعرف تاريخهم أن هذه الطريقة على وعورتها قد توصل إلى غاية صحيحة ، ولكن من يعرف تاريخهم يعرف ان ذكاءهم الفطري قد هداهم إلى طريقة أخرى في التحصيل بواسطة أخرى أصابوها بسعي او بغير سعي ، على

انه لم ينهض من هؤلاء أحد إلى مرتبة المصلحين إلا عالمنا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد ، فقد كان هذا الرجل ممن نشأ في الازهر غريباً عن اهله ، وكان له واسطة غريبة لمعرفة الطريقة المثلى للعلم ،فنبغ في بلاده، وكمل بالسياحة في افريقية وآسية واوربة ، وعرف أحوال الامم الحاضرة، وتاريخ الامم الغابرة، ثم سمت به همته إلى السعي في إصلاح الازهر،معتقداً ان اصلاحه خير اصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولاصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم ، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ،وخير صلة بين المدنية القديمة ، والمدنية الجديدة ، لانه علم ان السبب في التقاطع بين اوربة والمسلمين هو جهل الاوربيين بحقيقة الاسلام ، وعجز المسلمين عن افهامهم تلك الحقيقة ، لانهم غير متحققين بها لا علما ولا عملا ولا تخلقا ، ثم جهل المسلمين بحقيقة مدنية أوربا وبكنه ارتقائهم العلمي والاجتماعي . ولو صلح حال التعليم في الازهر لهب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة ، والمدنية العزيزة ، كما هبوا لذلك في اول نشأتهم، فأحيوا ما اماته الزمان من علوم الهنود واليونان ، ، فلا يجدون امامهم إلا اوربة وعلومها الحية،ويفهمونها انهم خير عون لهم على تكميل مدنيتهم،فيتعارفون ولايتنا كرون .وإذا عارضت السياسة تعارفهم،فانه يسهل عليهم من إزالة معارضتها مع التعارف والعلم ، مالا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل

كان هذا الرجل سعى في بث شيء من الاصلاح في الازهر على عهد الخديو السابق (توفيق باشا) ،رأى من جمود اهل المكان مالا يمكن معه العمل إلا بمساعدة منه ، ولم يجد عنده اريحية لذلك وانما وجد اشد المعارضة . ولما ولي الخديو الحالي وهو قد تربى في اوربا وعرف من الحاجة إلى الاصلاح مالم يعرفه سلفه ، عرض عليه الشيخ محمد عبده رأيه في اصلاح الازهر والخروج به عن كونه تكية للفقراء، وملجأ للكسالى وجعله مدرسة حقيقية تؤدي وظيفتها كما يجب ، فتخرج للبلاد قضاة عادلين ،ومعلمين ماهرين ، ووعاظا هادين ،يعالجون بروح الدين هذه الامراض النفسية التي أفسدت الاخلاق والعقول ، حتى عمت الخرافات ، وفشت الفواحش والمنكرات فصادف من الامير الجديد أذنا واعية، وهمة سامية، وعهد اليه الامير أن يضع

المشروع للاصلاح ، فوضع للازهر قانونا وجعل له مجلس ادارة يدبر فيه نظام التربية والتعليم ، فانفذ الخديو ذلك وخصص للازهر مبلغا صالحا من مال الاوقاف إعانة على الاصلاح ، وراق ذلك لحكومته فخصصت له مبلغا آخر من خزينة المالية، وكان صاحب مشروع الاصلاح الشيخ محمد عبده عضواً في مجلس إدارة الازهر من قبل الحكومة وكذا زميله الشيخ عبدالكريم سلمان وباقي الاعضاء ينتخبون من علماء الازهر ، والغرض من هذا أن يكون هذان العضوان دائمين لا يعرض لهما التبديل ، لأن مدار الاصلاح عليهما . فسار العمل بالتدريج الطبيعي اللائق بحال قوم طال الزمان على جمودهم . ولم يكن في الازهر أحد يعارض الاصلاح عناداً ، وانما كانوا يطلبون إرجاء بعض المشروعات بحجة وجوب التدرج في العمل

بدأ الاصلاح (أولا) بتحديد مدة الدراسة وكان الرجل يقضي عمره في الازهر فلا يسئل ماذا قرأ ولا ماذا حصل (وثانيا) بالامتحان السنوي لمن يختاره مع مكافأة الناجح بالمال وكانوا لا يمتحنون طالبا لاجل نقله من كتاب إلى كتاب ولا لغير ذلك ، وقد ظهرت فائدة هذا الامتحان وكان يكثر عدد الراغبين فيه عاما فعاما (وثالثا) بالغاء بعض الكتب الضارة وتقرير بعض الكتب النافعة وقد عقد لذلك عدة لجان برياسة الشيخ محمد عبده وتقاريره بما تم فيها مطبوعة محفوظة (ورابعا) بجعل مدة دراسة المقاصد كالفقه والتفسير أطول من مدة دراسة الوسائل كالنحو والصرف ، وقد تقرر هذا قولا ولم ينفذ فعلا (وخامسا) بزيادة علم الاخلاق وعلم التاريخ وعلم تقويم البلدان وعلم الحساب والجبر والمقابلة في العلوم التي تدرس في الازهر ، وكل هذا قليل من كثير ، مما يحتاج اليه الازهر لنهضة المسلمين

سار الازهر بالتدريج على هذه الطريقة بغاية الهدوء والسكينة وبدأت تظهر ثمارها ، وتوجهت نفوس بعض الطلاب إلى التماس علوم أخرى ، ولكن سمو الخديو تغير في أوائل السير على الشيخ محمد عبده الذي يدير بيده المكان بالاتفاق مع شيخ الازهر الذي عين باقتراحه الخ

ولا حاجة الى نشر بقية هذه المقالة فقد نشرنا معناه آنفاً قبل أن نعثر بين محفوظاتنا على هذه المقالة ولكننا نقفي على هذا بنشر مذكرة بخط الاستاذ الامام

في بيان مالم ينفذ من مواد قانون الازهر بما نفخ فيه روح المقاومة والشقاق ، وكان يمكن للأستاذ الامام محاكمة شيخ الازهر في محكمة الجنايات بامتناعه من تنفيذها وانما لم يفعل لما ذكرناه قريباً من مذهبه ومشربه في الاصلاح

﴿ مذكرة الاستاذ الامام ﴾

في مواد قانون الازهر التي لم تنفذ

(المادة الثانية من قانون الازهر)

(شيخ الجامع ينفذ اللوائح وقرارات مجلس الادارة ، ويتخذ الوسائل لتحسين حالة الازهر وترقية التعليم ، ويدير الاعمال بما لايخالف القوانين وقرارات مجلس الادارة)

صدرت قرارات من مجلس الادارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الاروقة وقرارات متعلقة بالتعليم وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم على طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون، ورتبت لهم مرتبات مقدارها ستمائة جنيه في السنة من الاوقاف الخيرية، وشرط في ذلك القرار ان من لم يقم منهم بما عهد اليه ينزع منه المرتب ويعطى لغيره والمعول على الاختبار ، ولكنهم من يوم عينوا إلى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم، وهم في التدريس كغيرهم لم يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات، والقرارات المتعلقة بمشايخ الاروقة لم ينفذ منها قرار واحد

(المادة السادسة)

(مجلس الادارة ينعقد كل ١٥ يوم مرة على الاقل)

لاينعقد المجلس إلا عند موت شخص لتوزيع مرتبه أو اعطاء كسوته التشريفية لغيره، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك ، اما للنظر في حالة التعليم، أو في وضع شيء مفيد له فلا ينعقد، غاية الامر انه ينعقد في شهر شوال من كل سنة لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافية والخط لاغير

(المـادة الثامنة)

(مجلس الادارة يقترح طريقـة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الازهر سواء كان ورودها بصفة دائمية أو موقتة)

ظنت المشيخة ان المراد من ذلك النقود التي تأتي للتوزيع على انها نقود ، أما مايرد في شرط الواقفين من النقود التي يشتري بها جرايات فيوزعها الشيخ بدون مدخل للمجلس وهكذا جرى العمل مع ان المراد عموم مايخصص للازهر من النقود سواء اشترى به خبز أو وزع نقوداً .

(المادة الحادية عشرة)

(مجلس الادارة يوزع العـلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة وعلى السنين ولا يجوز لاستاذ أن يتعدى مايقرره المجلس)

لم يشتغل مجلس الادارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المعهود تدريسها في الازهر ، وانما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي أضيفت أي الحساب والجغرافيا والجبر لاغير . وبقية العلوم تهمل لايعرف مايدرس أولا ولا آخراً إلا ماجرت به العادة في قديم . والمادة المذكورة انما وضعت لاصلاح القديم لانه ضار ضرراً ظاهراً

(المادة السابعة عشرة)

تتضمن تقسيم العلوم إلى مسائل ومقاصد، وأضيف فيها علوم الاخلاق الدينية والحساب والجبر، وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الالزامية التي يمتحن فيها الطالب حتما عند طلبه الامتحان لنيل شهادة العالمية وجاء في المادة ٦٠ ان من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون أو من يدخل الازهر بعد ذلك يكون امتحانه على حسب هذا القانون

ومع ذلك لم يلتفت إلى الزام الداخلين بعد صدور القانون بتعلم هذه الفنون ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات بل

لم يتنبه إلى ذلك الا في هذه الايام حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات للامتحان فرفض طلبهم بناء على أنهم لم يتمموا الحساب والجبر ولكن ذلك بعد فوات الوقت

(المادة التاسعة عشرة)

العلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل

هذه المادة لم يعمل بحرف منها قط

(المادة ٢٠)

يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة مايساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد

لايزال معظم الزمن يصرف في النحو وهو من الوسائل ، وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث فلا يصرف فيها إلا الزمن القليل

(المادة ٢٢)

تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعا باتا في جميع العلوم في الاربع سنوات الاولى ويكتفي بالمتون والشروح الواضحة ، وبعد الاربع السنوات يخير الطلبة والاساتذة في النظر في الحواشي ، وأما التقارير فتمنع قطعا إلا بقرار من مجلس الادارة

حصل اجتهاد مدة سنتين فقط بعد صدور القانون في تنفيذ هذه المادة بجمع المشايخ الذين يدرسون في السنين الاربع الاولى وإلقاء التنبيهات عليهم لمراعاة هذه المادة ولكن لم يقع تفتيش ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التنبيهات أم لا ؟ ثم بعد ذلك أهمل الامر بالكلية والمشايخ يقرءون الآن مايريدون كما كانوا قبل صدور القانون

(المادة ٢٣)

(لايباح للطالب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحضر من وسائله مايمكنه من فهمه وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه)

هذه المادة لايمكن تنفيذها إلا بتفتيش حال كل طالب في دروس المقاصد لمعرفة إن كان تلقى من الوسائل مايؤهله لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق مايكفي وهذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم ، بل لم يشتغل مجلس الادارة بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الاخذ بما يقرره

(المادة ٢٤)

أكثر مدة الطلب ١٥ سنة

مقتضى ذلك ان الطالب لايقيم على انه طالب في الازهر أكثر من ١٥سنة ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك، ولم يلتفت مجلس الادارة إلى النظر في تصفية الجامع من هؤلاء البلداء بل منهم من يطلب الامتحان والمشيخة لاتجيبه إلى طلبه

(المادة ٣٧)

تقضي بان طلبات الامتحان تقدم إلى المشيخة في الشهور الاربعة الاولى من كل سنة ، وانه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجانا لامتحان الطالبين

ومقتضى ذلك أن يتحتم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصيغة الجمع ولا معنى لتحديد مدة الطلب بالشهور الاربعة ، والآن يوجد مايزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة ولا يمتحن من الطالبين أكثر من ثمانين شخصا في السنة وفي ذلك قتل للطالبين وهدم لقواهم بتطاول السنين عليهم بلافائدة

أما المواد ٤٣ و٤٥ و٤٦ و٤٧ المتعلقة بكيفية الامتحان فلم يعمل بها ولا مرة واحدة

وقد كان الشيخ محمد عبده شرع في تطبيقها عندما عين عضواً في لجنة الامتحان من نحو ست سنوات فلم يقبل المشايخ الجري عليها واستمر العمل على اهمالها إلى اليوم

والحاصل ان هذا القانون قد عدته مشيخة الازهر ومشايخه وطلبته من قبيل الوصايا التي يجوز للشخص أن يعمل بها ويجوز له أن لا يعمل وهم يحبون أن لا يعملوا بالضرورة لعدم تعودهم العمل اه نص المذكرة

من هذه المذكرة يعلم أن مشيخة الازهر كانت معادية للنظام حتى مادة جعل جل العناية في الازهر تحصيل علوم الدين المقصودة بالذات وفي مقدمتها التفسير والحديث ، ويعلم منها ان الذين اتهموا الاستاذ الامام بأنه أضعف علوم الدين في الازهر من المنافقين الذين يفترون الكذب وهم يعلمون

ونعود الى ما كان من تأثير استقالته في العالم مما نشرناه يومئذ في المنار

صدى الحادثة فى أوربا

(أو مقاومة النفوذين الفرنسي والانكليزي للاستاذ الامام في الاصلاح)

(نشرت تحت هذا العنوان ما يأتي في المنار بعد بيان تاثير ترك الاستاذ الامام للازهر في العالم الاسلامي . وقفيت عليه بانتقاده وهو)

نشرت جريدة اللواء في عدد يوم الخميس (١٣ ربيع الاول) خبرا قالت انه مترجم عن جريدة (الغلوب) الانكليزية بغير تصرف وهذا نصه بغير تصرف:

« اختلف العلماء من عهد قريب بشأن التعليم في الازهر، وسبب ذلك ان رئيسهم الشيخ محمد عبده حاول ادخال نظام للتعليم أوسع من النظام الحاضر - الذي وضع من قرون مضت والذي لا يتضمن غير محض تعليم مواد الاجرومية وقليل من بعض العلوم الاخرى - بقصد تكوين قوة جديدة في الاسلام، ويريد الشيخ محمد عبده السالف الذكر ادخال العلوم الحديثة في بروغرامه الجديد ليستعين بها العلماء على اكتساب أرزاقهم من طرق العمل والجد لا الكسل والتواكل

« وقد قاومه العلماء في مشروعه هذا مقاومة شديدة واتصل بنا انه قال في حديث له : ان السبب في عدم نجاحه وفشله النهائي راجع إلى محاربة النفوذين الفرنساوي والانكليزي السياسيين له، واستشهد بعبارة نشرت في بعض الكتب

السياسية الفرنساوية مؤداها ان سواس فرنسا من الحزب الاستعماري لايقبلون بوجه من الوجوه تنور المغاربة بنور العلم » اه

(اقول) ثم علمت بعدنقل هذاعن جريدة اللواء أنها تركت من الاصل كلمة أخرى ذكرتها جريدة (المغلوب) وهي ان الشيخ محمدعبده قال لمحدثه « فهل يسر الانكليز بتخريجي لهم رجالا مستعدين يفهمون حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدةمن العلم والمعرفة ؟» وانماترك اللواء هذه الجملة لانه يسر المسلمين من الشيخ محمد عبده أن يقول هذا في مقاومة الانكليز وسوء الظن فيهم . وما كان صاحب جريدة اللواء يحب أن يسر المسلمون من الاستاذ الامام بشيء

ملاحظة المنار او انتقاده على ذلك

(أي على ما نشرته جريدة اللواء)

يعجب المصريون أن يروا في الجرائد الانكليزية من يخبط في المسائل المصرية على غير هدى، مع وقوف الانكليز هنا على حقائق الامور ،وقد ذكرنا وذكر غيرنا ممن قرأ تلك النبذة في جريدة اللواء ماكان أشيع هنا بعدترك الشيخ محمد عبده لمجلس ادارة الازهر من ان بعض المصريين الذين لهم حظ فيما حدث في الازهر كلفوا أحد مكاتبي الجرائد الانكليزيةأن يكتب لجريدته التي يكاتبها شيئاً يفيد معنى ماكتب في بعض الجرائد المصرية التي لها هوى في الحادثة من أن جميع علماء الازهر مضادون للشيخ محمد عبده فيما يريد من اصلاح التعليم وزيادة العلوم في الازهر ، ويتضمن شيئاً آخر يفيد سخط الانكليز على الشيخ وأتذكر ان بعض الجرائد الاسبوعية في مصر كتبت شيئاً عن هذه الاشاعة وقالت ان ذلك سيكتب ثم ينقل في بعض الجرائد المصرية اليومية

مالنا ولما أشيع في سبب الكتابة ولما قيل في مصدرها ؟ انما نحن أمام قول يتضمن خبرين (أحدهما) ان علماء الازهر كارهون ومقاومون لما يريد الشيخ محمد عبده من النظام وتوسيع دائرة العلم في الازهر ، وقد بينا في كلامنا على رسالة « محسن الملك » ان هذا غير صحيح ، وان علماء الازهر برآء مما يرمون به من

الغلو في بعض العلم والنظام ، والجهل بما يعلي شأن الاسلام ، و(ثانيهما) ان الشيخ يقول انه لم يخفق فيما حاول من اصلاح الازهر إلا بمقاومة النفوذين الفرنسي والانكليزي له،لان ترقية المسلمين تناقض مصلحتهما في استعمار بلادهم .ونقول ان هذا النقل عن الشيخ غير صحيح ،وإن كان أكثر المسلمين يعتقد صحة علته المذكورة. ولا يعقل أن يقول الشيخ ذلك لان فرنسا لا نفوذ لها في الازهر ولا في مصر فتقاوم ولان الانكليز لم يقاوموه لما هم عليه من الحرية وعدم التعرض للمصالح الدينية . على ان المصريين الذين لم يقدروا حرية الانكليز حق قدرها ولم يعلموا انها تمثلت مع الفضيلة في اللورد كرومر في أبهج صورها ، يتعجبون من عدم مقاومة الانكليز لاصلاح الازهر في السنين الماضية ، ويظنون انهم بدأوا في المقاومة الآن.

وأما الشيخ محمد عبده فقد سمعناه غير مرة يقول: انه ما قصد إلى خدمة المسلمين في شيء واتى مقاومة فيه من غيرهم لا من انكليزي ولا من افرنسي ولا من قبطي ولا من شامي .ولا غرو فان جهل المسلمين وتخاذلهم في هذا العصر كافيان لاحباط كل سعي لترقية شأنهم ، لايحتاجون إلى مساعد في ذلك ، ومن يسعى بعقل لا يقاومه العقلاء

هذه فرنسا التي كان منهجها في مقاومة تعلم المسلمين في الجزائر أمراً معروفا قد أنشأت ترجع الى منهج الانكليز في التساهل وقد تكلم الشيخ محمد عبده مع رجالها في تونس والجزائر في مساعدة المسلمين على التعليم فوجد منهم ارتياحا الى ذلك وقد نشرت جريدة الطان من عهد قريب مقالة في الاحتفال بمدرسة الجمعية الخلدونية ذكرت فيها ان مصدر هذه الحركة العلمية في تونس هو الشيخ محمد عبده وبعض المجلات العلمية المصرية التي تحث المسلمين على الجمع بين علوم الدنيا والدين وترد فيها رأي الذين يظنون أن تعليم المسلمين يضر بفرنسا لان هؤلاء المتعلمين يكونون دعاة لاستقلال البلاد وقيامهم على المستعمرين لها ، وترجمت الاهرام مقالة الطان فسر بها المسلمون هنا . اه

والمراد ببعض المجلات العلمية المنار،وقد نشرنا فيه مقالا طويلا مترجماً عن جريدة الطان لامحل لبسطه هنا، ولكننا نقول مع الاسف إن ما أظهره بعض رجال فرنسة للاستاذ الامام في الجزائر من ميلهم الى اعطاء المسلمين ما يجب من حرية العلم والدين لم يصح فكان إما خداعاً وإما رأياً شخصياً ممن أبداه له هنالك

استطراد

في بيان حال الازهر في عهد الشيخ عبد الرحمن الشربيني

قد ظهر للناس عجز الاستاذ الاكبر، الشيخ عبد الرحمن الشربيني عن إدارة الازهر، فلم يستطع أن يعمل فيه عملا، ولا أن يحقق لسمو الخديو وقدماء الشيوخ الجامدين أملا، ولا أن يسير كما أراد الشيخ الظواهري سيراً يكون فيه [بين بين] أو مذبذبا

وقد لخصت حالته في هذا الطور الاخير في ورقة واحدة جعلتها مقدمة لمقالة النواب محسن الملك قلت فيها بعد خبر تعيين الشيخ الشربيني وما بني عليه مما ذكره الخديو في خطبته مانصه (ج٩م٩في رمضان سنه١٣٢٤)

« كان مدار ذلك الكلام على ان كل ما يهم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في أمان وهدوء وبعد عن الشغب والقلاقل، وأن يظل مدرسة دينية كما كان، وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضاء كبار شيوخه عن الامير وإخلاصهم لهو مما ينتجه جعل الشربيني شيخاً للازهر لانه في مقدمة العلماء الازهريين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه، ويتوقف هذا على ترك الشيخ محمد عبده له وهو هو الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه، ولكن جاء الامر على نقيض ما كان يظن أولئك الظانون. فاستاء محبو الاصلاح من اهل الازهر لترك الاستاذ الامام لادارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان.

« وأما المحافظون على الحالة العتيقة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشربيني أشد استياء من إدارة الازهر منهم على عهد من سبقه ـ كما أشرنا إلى ذلك في العدد الماضي وكثر في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والطعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية يقول في جهل علماء الازهر وفقد الثقة بهم مامعناه: ان الناس لايقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه إلا بعض حملة الطرابيش، وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العمائم كأساتذة المدارس الاميرية وغيرهم » اهـ

وكتبنا قبله في آخر الجزء الثامن من المجلد ٩ (شهر شعبان سنة ١٣٢٤) ما نصه :

« كثر الخوض منذ سنة في الازهر ومشيخته ومجلس إدارته ، وكتب في الجرائد بعض ما يتحدث الناس به من الخلل في الادارة ، والمحاباة في الامتحان وشهادة العالمية ، وبيع الشهادات بالدراهم ، وما بين شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية من المغاضبة والمناصبة . ومما أشيع ان المفتي شكا شيخ الجامع إلى رئيس النظار وإلى السيد البدوي (!!) وقد بلغنا أن شيخ الجمع ضاق صدره فاستقال ، وانه سيقال بعد أن يعين الشيخ محمد شاكر وكيلا للازهر تمهيداً لجعله أصيلا بعد استشارة الامير لحكومته في ذلك ، وسنعود إلى ما نراه نافعاً من الكلام عن الازهر في الجزء الآتي اهـ

ثم كتبنا في آخر الجزء التاسع منه ما نصه :

«ذكرنا في الجزء الماضي ما كان بلغنا من استقالة شيخ الأزهر وعزم الامير على تعيين الشيخ محمد شاكر وكيلا للازهر تمهيداً لجعله أصيلا ، وقد تحقق ذلك ولكن استقالة شيخ الازهر حفظت وحمل على طلب اجازة ثلاثة أشهر ، وعين الشيخ محمد شاكر وكيلا لمشيخة الازهر ، فعظم ذلك على أهل الازهر واستنكره كبراء الشيوخ واستكبروا أن يكونوا مرءوسين له على حداثته في السن والعلم . وانتهى الامر إلى الحكومة أو إلى أولي الامر ، فخاطبوا الامير في ذلك ، وتقرر أن الشيخ شاكر لا يكون شيخا للازهر ولا وكيلا ، وقد سمي الآن نائبا ، وقد زاد الشغب والاضطراب في الازهر في أيام نيابته ، على امداد الامير إياه بنفوذه ، ويتوقع أن ينتهي هذا التلاعب في الازهر بجعله تحت مراقبة نظارة المعارف إذ لا قرار إلا مع السلطة الثابتة المنتظمة ، ولعلنا نتكلم عن اصلاحه في جزء آخر اهـ

وأقول الآن : ان هذه الكلمة الاخيرة كانت انذاراً للخديو ، سببه أن بعض الناس كانوا يسعون إلى هذا كما سعوا من قبل ، ولكن الانكليز لم يرضوا بذلك ، وقد بلغنا أن بعض المصريين المتملقين لهم قال لمستر دنلوب مستشار المعارف : لماذا لا تصلحون لنا الازهر كما أصلحتم وزارة المعارف ؟ فقال له المستشار : إن

الازهر بناء متداع للسقوط من طبعه ولا بد من سقوطه ، فاذا وضعنا يدنا فيه قال الناس اننا نحن الذين أسقطناه

ثم كتبنا في آخر الجزء العاشر منه ـ شوال سنة ١٣٢٤ ما نصه :

ألفت ادارة الازهر ثلاث لجان أو أربعا لامتحان الذين أتموا مدة الدراسة وهم كثيرون جداً . فامتنع كثيرون من كبراء الشيوخ أن يكونوا من أعضائها لان الشيخ شاكرا نائب شيخ الازهر هو المؤلف لها والرقيب عليها ، فكان أكثر أعضائها من غير المشهورين ، وفيهم من صاروا مدرسين من عهد قريب ، ولكن هذه اللجان قامت بالامتحان بنظام واهتمام . وقد رأينا الازهريين المنصفين يفضلون نظام هذا الامتحان على ما كان قبله ، ولم نسمع الآن ما كنا نسمع في السنة الماضية (الدراسية) من أخبار المحاباة والرشوة . والفضل في ذلك لمراقبة الشيخ شاكر ويقظته ، فله الشكر والثناء الحسن . ولعل ماسمعناه من أخبار التساهل واعطاء الدرجات لافراد لا يستحقونها مبالغ فيه ، ولعل الشيخ شاكراً يعنى بتحقيق الحق في ذلك » اه

بعد هذا قبل الامير استقالة الشيخ عبد الرحمن الشربيني وولى مكانه الشيخ حسونة للمرة الثانية برضاء حكومته . وعلى يده نفذ مشروع مدرسة القضاء الشرعي . وقد كتبت في الجزء الاول من مجلد المنار العاشر الذي صدر في المحرم سنة ١٣٢٧ المقالة التالية :

نصر من الله وفتح قريب

﴿ الازهر ومدرسة القضاء الشرعي ﴾

قال الاستاذ الامام عليه رضوان الله تعالى « يستحيل بقاء الازهر على حاله فاما أن يصلح واما أن يسقط » وكان أكرم الله مثواه باذلا جل عنايته في اصلاحه حذراً من سقوطه وحرمان المسلمين مما يرجى باصلاحه ، وكان أقدر من عرفنا من الناس على هذا الاصلاح : وسائله ومقاصده ، وأحكمهم في تنفيذه ، الا انه أخطأ

في امر واحد لولاه لتم له ماأراد من الاصلاح وهو فوق ماطلب منه . ذلك الامر هو محاولة اصلاحه برضى كبراء شيوخه واستمالهم فيه بالاقناع دون السلطة الا مابدأ به من وضع قانون لادارته ، والسعي في اصدار إرادة من الامير به ، بناء على قرار من مجلس النظار لعلمه أن العمل بدون ذلك متعذر ، ولا محل لشرح ذلك هنا، بل موضعه الجزء الاول من تاريخه الذي نعتني بطبعه الآن وانما نريد أن نبين انه كان يحاول تنفيذ هذا القانون بدون استعانة بسلطة التنفيذ في البلد بل بمجرد اقناع شيخ الازهر وأعضاء الادارة

كان الشيخ حسونه النواوي اول من ولي المشيخة واختير للعمل بهذا القانون مع المرحوم وسائر من اختيروا للادارة ، وكان المرحوم هو الذي اختاره وسعى لدى الامير بتعيينه وكيلا للشيخ الانبابي المرحوم ثم أصيلا. وقد استعان على هذا ببعض اصدقائه كالمرحوم امين باشا فكري . ذلك انه كان يعتقد ان الشيخ حسونة أميل الشيوخ وأرجاهم لقبول الاصلاح . علمت ذلك منه اول مقدمي لمصر سنة ١٣١٥ اذ قلت له : سمعت من بعض مجاوري الازهر الطرابلسيين ان شيوخ الازهر قد امتعضوا من جعل الشيخ حسونة شيخا للازهر لانهم لايعدونه من كبار العلماء ،فقال ان كانوا يعنون بذلك انه لايقدر على ايراد الاحتمالات الكثيرة في مثل عبارة جمع الجوامع ،فهذا صحيح ،ولكن هذه الاحتمالات التي يوردونها ليست من العلم في شيء ، والشيخ حسونة أمثلهم . وقد دلت التجارب على صدق هذا القول — ولا ننسى فضل المرحوم السيد علي البيلاوي الذي ظهر من فضله فوق ما كان يظن فيه — فان ماجرى على يد الشيخ حسونة أولا وآخراً لم يجر على يد غيره مثله

نعم كان الشيخ حسونة يرجيء بعض مايقترح المرحوم ، عملا بالتدريج عن رأي واعتقاد، ولكنه لم يكن يقرر الشيء ولا ينفذه كما فعل من جاءوا بعده ماعدا البيلاوى، وقد تقلب على الازهر في هذه المدة عدة شيوخ كان أشهرهم في علوم الازهر أبعدهم عن الاصلاح . فالشيخ سليم البشرى من أشهرهم - لم يجر على يده شيء من الاصلاح بل كان معارضاً لكل شيء، فأرضى أمثاله من المحافظين

على القديم وأغضب طلاب الجديد ، والشيخ عبد الرحمن الشربيني أشهرهم على الاطلاق وهو لم يفعل شيئا ولم يرض طائفة من الطائفتين

قلت للاستاذ الامام مرة : ان قرار مجلس ادارة الازهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة يطالب القانون بتنفيذه ويعاقب على تركه ، فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يمتنع شيخ الازهر من تنفيذها بصفة رسمية، فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار(١) فقال : إن هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة واني أرجو أن لا أدع الحكومة تتداخل في الازهر مادمت فيه فكيف أكون أنا الذي يدعوها الى ذلك؛ فنحن ندعو الشيوخ بالاقناع معتصمين بالصبر

وكان يكره أن يكون «للمعية» أصبع في الازهر كما يكره أن يكون للحكومة يد فيه، لاعتقاده ان خير الاصلاح في العلم والدين ما كان بعيداً عن السياسة ناشئا عن اقتناع العلماء به واستقلالهم فيه، ولكن «المعية» ولعت بالازهر ولوعا كاد يكون عشقا وغراما ، ولما رأت أن عتعها بهذا المعشوق لا يتم مع وجود هذا العذول الرقيب، طفقت تناهضه حتى كان ما كان من أمر استقالته من ادارة الازهر، وكان ما كان بعده من الخلل في هذا المكان، حتى أدى ذلك إلى اقامة نائب عن شيخه الشربيني يدير الامر من دونه عدة أشهر، ثم إلى استقالته واعادة الشيخ حسونه إلى المشيخة ، وعلى يد الشيخ حسونة تم مشروع مدرسة القضاء الشرعي وصدر به الامر العالي فصدق قول المرحوم فيه «انه أمثلهم» في حياته وبعد مماته

مما كان ينويه المرحوم الامام من اصلاح الازهر انشاء قسم قضائي فيه يرشح فيه الطلاب لمنصب القضاء، زاده حرصا عليه اقتراح المستر سكوت المستشار القضائي الاول اصلاح المحاكم الشرعية وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخديوية قضاة شرعيين . ولم أر الاستاذ مهتما في مقاومة شيء كاهتمامه في حمل الحكومة على الاغضاء عن جعل متخرجي الحقوق قضاة للشرع ، سعى في ذلك وحاول اقناع كبراء الشيوخ بأن يسعوا معه فلم ير منهم مبالاة فكان يتململ ويقول إذا نفذ

---

(١) هذا السؤال وجوابه هو عين ما كان قاله لي في شأن الشيخ سليم كما تقدم حاولت بعد مدة أن أقنعه بهذه الشدة فرأيت رأيه لم يتغير

هذا المشروع قضي على الازهر . وقد نجح سعيه فلم ينفذ

وعند ماحاولت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية للمحكمة الشرعية العليا بمصر ولم يتم ذلك قوي عزمه وظن أن الفرصة سنحت لانشاء القسم القضائي وقد فتحنا كوة للبحث في ذلك، إذ أنشأنا مقالة في المنار الذي صدر في ذي الحجة سنة ١٣١٦ نقترح فيه انشاء هذا القسم القضائي ، ولكن حال دون إنشائه عزل الشيخ حسونة من المشيخة وتولية الشيخ عبد الرحمن القطب في ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧، ولم يلبث هذا أن توفي بعد شهر من توليته ، وولي الشيخ سليم البشري الذي وقف في عهده سير الاصلاح ، وكان من أمر « المعية » من اول عهده إلى الآن ما أشرنا اليه آنفا، إلى أن انتهى باستقالة المصلح العظيم من إدارة الازهر، وبهذا انقطع رجاء الحكومة من إصلاح حال القضاة الشرعيين الذين ضجت منهم الامة طالبة بلسان الجمعية العمومية ، ولسان مجلس الشورى إصلاح المحاكم الشرعية ، فعهدت اليه بوضع مشروع إنشاء مدرسة قضائية يتولى هو بنفسه أمرها ، وكان هذا المشروع آخر عمل إصلاحي عمله، إذ تم في أوائل مرض الموت، وما كان يؤلمه من هذا المشروع إلا انفصاله عن الازهر ، وقصارى ما أمكنه من وصله به جعله تحت نظر مفتي الديار المصرية دائما ، وكان للحكومة معه وقفة في هذه المسألة

تبارك ناصر المخلصين، أحياء وميتين، فقد قضت حكمته عز وجل أن يقوم بتنفيذ المشروع ويجعله أشد صلة بالازهر سعد باشا زغلول ناظر المعارف لهذا العهد ، ولا يجهل أحد من المصريين من هو سعد باشا من الاستاذ الامام ، وان يكون ذلك في عهد مشيخة الشيخ حسونه ، وبعد موافقته عليه وجعله تحت نظاره، وقد علم القراء اعتقاد المرحوم في الشيخ حسونة وما كان من نيته في أيام مشيخته الأولى . اه

ما أخطأ به الاستاذ الامام في ادارة الازهر

قلت في أول هذه المقالة انه أخطأ في اعتماده على اقناع علماء الأزهر بالاصلاح وذكرت في أثنائها انه كان يجب عليه التنفيذ بقوة القانون ولو أفضى إلى تدخل الحكومة . وسأذكر في الفصل التالي رأي خليل باشا حماده وانه لو قبله لتم له ما أراده ولكن صده عن هذا دينه وعما قبله وطنيته

الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي

قد توسل سمو الخديو بكل مايقدر من الوسائل للانتقام من الاستاذ الامام وعزله من منصب الافتاء ومن إدارة الازهر ، وكل منهما يتوقف على موافقة مجلس نظار الحكومة ، وموافقة المجلس يتوقف على موافقة مستشار المالية والعميد البريطاني من فوقه ، وكان من أسخف التدبير لاقناع لورد كرومر بذلك انهم لفقوا صورة شمسية له مع جماعة أو أسرة من الرجال والنساء ونشروها في جريدة الحمارة الهزلية معطمن في المفتي بأنه يجالس نساء الافرنج وذلك يعد إزراء بمنصبه الديني . وقد أرسلوا هذه الصورة الى لورد كرومر مع رجل أراد إقناعه بأن هذا يعد إزراء بمنصبه في عرف المسلمين وينبغي خروجه منه مراعاة لشعورهم ... فتبسم اللورد سخرية من هذه السخافة وقال : ان هذه الصورة لا يثبت لها عندي أصل ولكن الاستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه لادي كرومر وغيرها من عقائلنا، فهل يصح ان نعد هذا إهانة له أو لنا ؟ أم يصح أن نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبني عليه عملا مهماً كهذا ؟

والذي اشتهر أن تلك الصورة ملفقة أخذت عن صورة منفردة له مفتي وضمت بجانبها تلك الصور فكان المأخوذ عنهما كأنه ماخوذ عن أصل واحد . وقد نظم الاستاذ ابراهيم بك اللقاني المحامي الشهير والاديب الكبير أبياتا في ذلك قال فيها :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة
ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة
ولطخوا بعد هذا بالطين وجه الحمارة

يعني بقبة الاستشارة سراي القبة محل إقامة الخديو . وبتلطيخ وجه الحمارة بالطين وهو مثل ما أعقب نشر جريدة الحمارة للصورة وطعنها من محاكمة النيابة لصاحبها والحكم عليه بالسجن

ومن هذه الوسائل مسألة منع الحج اتقاء للوباء فقد ابتكر هذه الوسيلة سموه وعرضها على لورد كرومر مباشرة ، بأن قال له إنه يمكن ذلك باجازة العلماء

وإفتائهم، وهو يعلم أن الحكومة لاتعمل إلا بفتوى المفتي الرسمي فان هو أفتى أقام عليه قيامة العلماء والجرائد، وأسقط قيمته عند الامة كلها، وإن لم يفت اسخط الانكليز

ذكر اللورد ذلك لرئيس النظار، وهذا أخبر به المفتي وسأله عن رأيه فيه ففطن لمراد الخديو فرد مكيدته عليه ووضعها في عنقه بأن قال لرئيس النظار: إنه ليس لذلك إلا طريقة واحدة وهي أن يقول أمير البلاد وولي أمرها الشرعي إنه قد ثبت عنده أن السفر الى الحجاز في هذه السنة موقع للحجاج في خطر وتهلكة فحينئذ يفتيه العلماء بأن له منعهم من القاء أنفسهم في التهلكة مادامت معلومة ثابتة عنده. قال له الرئيس وهل يكفي ثبوت هذا عند الحكومة ؟ قال المفتي. لابد أن يثبت هذا عند ولي الامر النائب عن السلطان وتكون مسؤليته عليه وحده .. والاستاذ يعلم أن الخديو لايقبل حمل هذه المسؤلية ففشلت الدسيسة

ويشبه هذه المسألة ما جرى بيني وبين سموه في أثناء انكسار الجيوش البريطانية في حرب الترانسفال، قابلت سموه في قصر القبة وقلت له: إنه خطر في بالي أنه يمكن لافندينا في هذه الايام أن يسعى لجلاء جيش الاحتلال عن مصر باسلوب ودي يمكن أن يرضي الانكليز، وهو أن يقول أفندينا للعميد الانكليزي: إذا كنتم في حاجة الى ارسال من لديكم من جيش الاحتلال عندنا الى الترانسفال فيمكنكم ذلك بمقتضى اتفاق معنا ترضونه لتأمين مصالحكم في مصر بدون وجود هذا الجيش، بل اذا شئتم أخذ جيش متطوع من المصريين لمساعدتكم فاننا نقبل ذلك... أو ما يستحسنه أفندينا من الاسلوب بعد استشارة من يثق بهم من رجاله لاغتنام هذه الفرصة للاتفاق مع الانكليز الخ

فتهلل وجه سموه، وقال هيه ! وما هو رأي الشيخ محمد في هذا ؟ قلت له انني لم أذكر هذا له وانما هو رأي خطر في بالي فرأيت انه يجب علي عرضه على صاحب البلاد.

قال طيب. إذهب من هنا إلى عين شمس واذكره للشيخ ثم ارجع إلي فاخبرني برأيه فيه

فذهبت إلى دار الاستاذ الامام وقصصت عليه القصة فقال أتدري لماذا

أرسلك إلي ؟ إنما أرسلك لاجل أن يقول للورد كرومر إذا وافقت على هذا الرأي ان الشيخ محمد عبده يغريني بان أغتنم هذه الفرصة لطرد الجيش الانكليزي من البلاد ... قلت انه ينتظر بي لا حمل له جوابك فماذا اقول له ؟ قال قل له إن هذه مسألة مهمة يجب على أفندينا أن يتفكر فيها كثيراً قبل أن يبرم فيها رأيا

ومن تلك الوسائل مسألة صندوق التوفير الذي أرادت الحكومة إنشاءه في مصلحة البريد فسألت المفتي عن وجه شرعي له فقال يمكن اتخاذ طريقة شرعية لانتفاع الفقراء بما تريد الحكومة ان تعطيهم إياه في مقابلة توفير نقودهم في صندوق البريد . ولما ذكر ذلك لسموه قال بل انا الذي أتولى هذا الامر وبيان الطريقة الشرعية مع العلماء ، وطلب جماعة من علماء المذاهب إلى قصر القبة وذكر لهم المسألة وكان يظن انهم يتفقون على ان ما اشار به المفتي مخالف للشرع ومبيح للربا ، فخاب الظن وكان رأيهم عين رأي المفتي ، فلما بلغ ذلك الحكومة فطنت لمراد سموه

واما الوسيلة الكبرى فقد كانت الفتوى الترانسفالية المشهورة فهذه هي التي أقاموا لها القيامة ، وقالوا إن المفتي احل ماحرم الله من اكل الموقوذة . وأرادوا استفتاء شيخ الاسلام في الآستانة او استفتوه بالفعل ليحتجوا بفتواه على بطلان فتوى مفتي الديار المصرية فلم يفتهم . وسنبسط الكلام على هذه المسألة في المقصد الآتي وهو عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء . وفي أثناء ذلك رفعت تقارير إلى السلطان عبد الحميد بالطعن في مفتي مصر ورميه بعداوة الخليفة والسعي لخلعه ، وقابل ذلك آخرون بتقارير في الطعن في سمو الخديو وإثبات انه هو القائم بما يتهم به المفتي بل هو يطمع في منصب الخلافة والمفتي هو الذي يعارضه وحده . ومن أدلة ذلك انهم لقبوه في مجلس شورى القوانين بصاحب الجلالة فاعترض المفتي الشيخ محمد عبده على ذلك وأمر كاتب المجلس بشطب لقب صاحب الجلالة ووضع لقب الجناب العالي في موضعه ، وقد اشتهر ذلك ونشر في الجرائد . وكذلك فعل أحد الخطباء في خطبة الجمعة على مسمع من سموه ولم يعترض على ذلك إلا المفتي

وقد اطلعنا على تقرير رفعه الى المابين سعادة يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي نذكر هنا اهم مواده الخاصة بهذه الدسائس وما في معناها وهي :

مواد التقرير الذي رفعه الى المابين الهمايوني

صاحب السعادة يوسف طلعت باشا صاحب جريدة الراوي اليومية

(البند الاول) ان الخديو يحاول أن يجعل الازهر آلة سياسية دينية يهدد بها مولانا السلطان وغيره لقضاء مآربه وهو متمكن من التأثير على مشايخه البسطاء ولكن وجود المفتي في الازهر يحول دون غرضه فانه رجل قوي العزيمة ويعتقد أن استعمال رجال الدين في السياسة يضر بالاسلام والمسلمين ، ويعتقد أن المحتلين يتداخلون في كل شيء يتداخل الخديو فيه ، فيخاف أن تمتد أيديهم إلى الازهر فهو يقاوم ذلك وله حزب في الازهر يؤيده حتى ان شيخ الازهر الحالي على رأيه

(البند الثاني) ان الخديو يستعين على استمالة المشايخ والتأثير عليهم بمال الاوقاف العمومية والخصوصية . والمفتي يعاكسه في ذلك بما له من النفوذ في مجلس الأوقاف الاعلى . وطريق الاستمالة هو أن ماهيات المدرسين والخطباء كلها من الاوقاف ، هذا فضلا عن العطايا الخصوصية السرية ، ويدل على هذا البند وما قبله البنود الآتية

(البند الثالث) وضع المفتي مشروعاً في الاوقاف يسمى مشروع المساجد اقترح فيه أن يكون جميع الخطباء من المدرسين في الازهر ، وأن تكون ماهياتهم معينة مقررة ، وكذلك رواتب المدرسين والوعاظ لكي يقوموا باداء وظائفهم على الوجه النافع ، ولا يكون لاحد سلطة عليهم ولا تأثير لئلا يغريهم بشيء سياسي كما أغرى بعضهم بترك اسم السلطان في الخطبة غير مرة . وقد رضي الخديو من مشروع المفتي أن يكون الخطباء من المدرسين ، ولكنه عارض أشد المعارضة في أن تكون ماهيات الخطباء والمدرسين مقررة لتكون في يده دائما

(البند الرابع) لما كانت الخاصة الخديوية عقدت اتفاقا مع الخواجه بيساكي الرومي وشركاه لاستخراج معادن طشيوز ومنعت الدولة العلية الشركة من ذلك عاد بيساكي إلى مصر وأراد رفع قضية على الخاصة الخديوية يطالبها فيه بالتعويض المالي فأمر الخديو فيضي باشا مدير الاوقاف العمومية يومئذ بصرف سبعة عشر الف

جنيه إلى بيساكي حتى لا يرفع القضية فدفعها المدير بدون استشارة المجلس الاعلى فعارض المفتي في ذلك واحتج عليه ، وأخيراً قرر عدم المسئولية على فيضي باشا لانه مأمور من الناظر الحقيقي على الاوقاف وهو الخديو ، وعلى ان هذا هو المسئول وحده .

(البند الخامس) لما أرسل الخديو المهندسين الى طشيوز لفتح الطرق للجبال والغابات أمر لهم بستمائة جنية من الاوقاف فصرفت بدون اذن المجلس الاعلى فاحتج المفتي على ذلك كالذي قبله . وكان هذا وذاك سببا في فصل الاوقاف الخصوصية عن الاوقاف العمومية . وإيراد هذه الاوقاف يزيد على خمسة وثلاثين ألف جنيه في السنة يصرف عليها منها نحو سبعة آلاف جنيه ويستعين بالباقي على مقاصده وهذا ماعدا وقف خليل أغا المظيم الايراد الذي ضمه أخيراً

(البند السادس) انه أراد من مدة قريبة أن يربح من الاوقاف العمومية مبلغا عظيما فاتفق مع الخواجه زرفوداكي الرومي على أن يكون هذا واسطة استبدال أبعدية للخديو اسمها مشتهر تبلغ نحو ١٢٤٧ فدانا بارض للاوقاف في الجيزة تبلغ ١١٢ فدانا ونصف قرر المجلس الاعلى بأن تباع للمباني وذلك بأن يعرض زرفوداكي أرض مشتهر على ديوان الاوقاف بسعر ١٣٠ جنيها في الفدان وأن يحسب سعر الفدان من أرض الاوقاف بمبلغ ١٢٥٠ جنيها ثمن الفدان ليكون ربح الخديو من ذلك ثلاثين ألف جنيه ، وكلم في ذلك أعضاء المجلس الاعلى واستمال كثيراً منهم . ولما عرضت المسألة على المجلس عارض فيها المفتي ووافقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي فاضطر الباقون لموافقتهما لان الحق معهما ، وكانت النتيجة أن ديوان الاوقاف لم يكتف بالتخلص من دفع الثلاثين ألف جنيه إلى زرفوداكي بل أخذ منه عشرين ألف جنيه وبذلك يرى الخديو أنه خسر في هذه الصفقة خمسين ألف جنيه

(البند السابع) لما رأى الخديو أن المفتي هو العقبة في طريق اتخاذ الازهر والخطباء آلة سياسية أراد أن يزيله من الازهر ، فرأى النظار والمحتلين لا يرضون بذلك ، فأراد أن يستعين عليه بشيخ الازهر وبعض أعضاء إدارة الازهر فرأى

أن نفوذ المفتي هو الغالب وان شيخ الازهر وأعضاء الادارة لايمكنهم معاكسة المفتي . ومن ذلك انه أرسل الشيخ توفيق البكري إلى شيخ الازهر يبلغه أمره بأن يوجه كسوة تشريفة من الدرجة الاولى كانت منحلة الى الشيخ محمد راشد امام المعية وكان مجلس إدارة الازهر قرر توجيه الكسوة الى شيخ آخر قيل للخديو انه من حزب المفتي ولذلك أراد منعها عنه ولكن المفتي لم يقبل الا بتنفيذ قرار المجلس ووافقه الشيخ والاعضاء ولم يعمل بامر الخديو

(البند الثامن) رأى الخديو أن يعزل ثلاثة من أعضاء مجلس إدارة الازهر ويضع بدلهم ثلاثة له امل في موافقتهم له على كل ما يريد منهم امام معيته ، فاوعز الى شيخ الازهر بأن يعزلهم فلم يقبل فأرسل اليهم الشيخ توفيق البكري يرغبهم في الاستعفاء ، فقال لهم المفتي: ان البكري لا ثقة به ولا يعمل بتبليغه والالزام ممنوع فاذا قال لكم الخديو بصفة رسمية استعفوا فلا باس ، وعند ذلك يكون لكم عذر عند الحكومة إذا سألتكم عن سبب الاستعفاء ، فلم يقبل احد منهم أن يستعفي . وقد بلغ عضو آخر بان الخديو يريد مقابلته « لاجل إقناعه بالاستعفاء » فقال لا أذهب إلا بطلب رسمي . ومعلوم ان الخديو لا يمكنه أن يعمل عملا رسمياً هناك وانما يريد ان يكون ذلك خفية ويرى أن المانع الوحيد هو المفتي

(البند التاسع) ان الخديو تمكن من إقناع احد الاعضاء بالاستعفاء وذلك بان وعده بزيادة ماهية له في جامع غير الازهر جنيهين ونصفا في الشهر فاستعفى . ولكن الخديو لم يقدر أن يعين بدله أحد الذين يثق بهم ويظن أن المحتلين هم الذين حالوا دون ذلك لانهم يعرفون جميع مساعيه ويعاكسونه فيها وهو الذي يساعدهم على نفسه فانه لا يكتم شيئا فاذا عزم على شيء يبوح به لجميع من يجتمع به او لكثيرين منهم وان كان يعتقد بعدم إخلاصهم وإذا قال له اللورد كرومر: لاتفعل فانه لايفعل

(البند العاشر) ان الخديو بعد أن رأى نفسه عاجزاً عن عزل المفتي الذي يعارض مساعيه في الازهر والاوقاف شرع في معاكسته بأمرين : أحدهما الاستعانة بمولانا الخليفة الاعظم على عزله بحجة انه أفتى بما يخالف الشرع . وثانيهما : إنشاء جريدة اسمها (الظاهر) لاجل إسقاط نفوذه الديني وإضعاف حزبه المؤلف

من طائفة من العلماء ومن أكثر رجال الحكومة والمدارس

(البند الحادي عشر) ان الخديو يظن انه إذا أمكن غش شيخ الاسلام في دار الخلافة العلية وأخذت منه فتوى ضد المفتي فانها لا تلقى معارضة، ولكن الارجح عندنا انها تلقى أشد المعارضة من المحتلين نظراً لسياستهم المعلومة ومن الحكومة لانها تؤيد المفتي. ومن اكثر العلماء وأهل الفهم في مصر لانهم مقتنعون بصحة الفتوى، وقد زادتهم الجرائد تحزبا للمفتي. وقد تحقق ان اللورد كرومر قال للخديو: إن كان تحريك بعض المشايخ ضد المفتي لاجل فصله من الافتاء فاسمح لي بان أقول انه مادام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصر فان الشيخ محمداً عبده يكون هو المفتي حتى يموت. واننا نعلم الآن انه لا يوجد في مصر حزب ضد مقام الخلافة ونخشى أن يوجد ذلك إذا فرضنا مداخلة سماحة شيخ الاسلام في هذا الامر لاسيما إذا لم يعمل بقوله كما هو الراجح عندنا

(البند الثاني عشر) ان جريدة الظاهر التي سلطتها العمية على تخطئة فتوى المفتي جريدة غير منتشرة، وقد قامت ضدها أكثر الجرائد اليومية والاسبوعية ولم تنتصر لها جريدة الا اللواء كتب فيها جملة مختصرة وجريدة أسبوعية أخرى من الجرائد التي تسمى الساقطة تطبع في مطبعتها، وان أكثر الجرائد التي ردت على جريدة الظاهر لم تذكر اسمها لئلا تشتهر. وان صاحب هذه الجريدة جاهل بالشرع، ومن الذين يقضون معظم أوقاتهم في شرب الخمر جهرا ولعب القمار فليس لكلامه في الدين أدنى تأثير. وان الحكومة قد سلبت هذه الجريدة الامتياز فاعتبرتها من الجرائد الساقطة وكان يكتب على كل عدد منها «قررت عموم المحاكم الاهلية جريدة الظاهر رسميا لنشر الاعلانات» فصدر الامر بعدم كتابة هذه العبارة فسقطت بذلك قيمتها بالمرة وقد ردها كثير من الذين كانوا قبلوها

(البند الثالث عشر) أن الخديو كان قد اتخذ عدة وسائل قبل الطعن بالفتاوى التي اعترضت عليها جريدة الظاهر لايجاد نفوذ ديني في مصر ولاسقاط المفتي ولم ينجح في شيء منها لوقوف الحكومة على انها مدبرة من قبله. أهمها

مسألة الحج فان الحكومة في العام الماضي لم تكن تفتكر في منع الحج حتى قابل سموه اللورد كرومر وقال له انه يمكنه أن يتخذ طريقة لمنع المصريين من الحج بعد مشاورة العلماء .... فبلغ اللورد النظار ذلك فسأل هؤلاء المفتي فقال لا طريق لذلك إلا أن يستفتي الخديو بصفته أميراً للبلاد ، ويقول انه قد تحقق عنده بأن الحجاج المصريين اذا ذهبوا إلى الحجاز يكونون على خطر وانه يريد تأخير الحج إلى أن يزول هذا الخطر المحقق عنده هو . فاذا استفتي على هذه الصورة فان المفتي والعلماء يفتونه بالجواز والمسئولية عليه . فقال النظار واذا طلبت الحكومة هذه الفتوى بهذه الصورة فبماذا تجاب ؟ قال المفتي إن العلماء لا يعرفون في مثل هذا الامر إلا الامير نائب السلطان على البلاد . وبعد ذلك علم الخديو بجواب المفتي للحكومة فغضب غضبا شديداً ثم انتهى الامر باجتماع مجلس النظار تحت رياسته وأقر على الضريبة التي ضربت على الحجاج في العام الماضي ، وخففت في هذا العام ، وكان الخديو أراد أن يكتب في المؤيد ان الحكومة كانت تريد منع الحج وأن الخديو حامي حمى الدين هو الذي عارضها في ذلك ولكن الذي منع من ذلك هو العلم بان الحكومة كانت عازمة على تكذيبهم في الجريدة الرسمية وبيان الحقيقة

(البند الرابع عشر) أن من جملة وسائله للظهور عند العامة بمظهر الحامي عن الدين مسألة صندوق التوفير في البوستة ، فهذا الصندوق جملته الحكومة لحفظ مايوفره الفقراء مما يزيد من إيرادهم على مصاريفهم ومصلحة البوستة تستغل هذه الدراهم التي يحفظ فيها . وقد تبين لها أن نحو ثلاثة آلاف فقير لم يقبلوا أن يأخذوا ماتقرر في الديكرتو الخديوي من الربح ، فسألت الحكومة المفتي هل توجد طريقة شرعية ؟ فأجاب شفاهيا بامكان ذلك بتطبيق استغلال النقود المودعة في الصندوق على أحكام شركة المضاربة . ثم ذاكر رئيس النظار الخديو بتحرير الدكريتو الخديوي وتطبيق المشروع على الشرع فأظهر سموه الارتياح ولما قال له رئيس النظار : إننا استشرنا المفتي غضب غضبا شديدا وقال كيف يبيح المفتي الربا ؟ لا بد أن أستشير غيره من العلماء ، ثم جمع جمعية من مشايخ الازهر في سراي القبة وكلفهم بأن يضعوا له طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر أمام العامة

بانه هو الحامي عن الدين والمطبق له على الشريعة ، وأن الحكومة كانت عازمة على إلزام المسلمين بأكل الربا والمفتي مساعد لها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فإن المشروع الذي وضعه العلماء قدمته المعية لنظارة المالية فعرضته نظارة المالية على المفتي لتأخذ رأيه وتعمل به فوجده المفتي هو عين الرأي الذي كان قاله شفاها

(البند الخامس عشر) جاء رجل من الترنسفال وسأل المفتي عن ثلاث مسائل : عن جماعة يلبسون البرنيطة لقضاء مصالحهم عند النصارى ، وعن أكل الذبائح التي يذبحها النصارى هناك مع العلم بأنهم يضربون البقر قبل ذبحه بالبلطة ثم يذبحونه بغير تسمية كما يظن فيهم وفي أمثالهم ، وعن صلاة الشافعية خلف الحنفية فأفتاه المفتي بان لبس البرنيطة لايكون كفراً إلا اذا قصد لابسها بلبسها الخروج من الاسلام والدخول في غيره ، ولا يكون مكروها إلا بقصد التشبه بالكافر ، وبجواز أكل ذبيحة أهل الكتاب ، وصلاة الشافعي خلف الحنفي لان الجميع مسلمون. فعلم الخديو بذلك وظن ان الفتوى مخالفة للشرع أو المذهب فأوعز إلى جريدة الظاهر واستكتب بعض المشايخ عريضة فيما قل ذكروا فيها الاسئلة والاجوبة على غير وجهها فيما يقال أيضا ، وكان يظن أن مجرد ظهور الفتوى كاف في اسقاط نفوذ المفتي الديني أو التوصل الى عزله فظهر له خلاف ذلك

(البند السادس عشر) ان النتيجة من كل ماتقدم أن سمو الخديو يريد أن يجعل لنفسه سلطة دينية آلتها الازهر وماليتها الاوقاف وقد حدث بهذا كثيرين وقال ان أوربا تهاب البابا والسلطان لاجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا، وانه مادام الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية وعضواً في الازهر وفي مجلس الاوقاف الاعلى وفي شورى القوانين ، فان يتم له في ذلك عمل إلا العمل الرسمي القانوني الظاهر لكل أحد . وان الشيخ توفيق البكري الذي حسن له هذا الرأي لانفوذ له في هذه البلاد . . . . (١) ، وقد ساءت الناس قصيدته التي كان زين للخديو فيها دعوى الخلافة ورضي عليه هو وحده بسببها واتخذه الآن ساعيا فيها بينه وبين مشايخ الازهر ولكن بدون ذكر لفظ « الخلافة » . . . . . . (١) فالمفتي هو العقبة في طريق هذه السلطة وحزبه كبير جداً اه المراد من هذا التقرير

(١) قد حذفنا من هذين الموضعين كلاما لصاحب التقرير يطعن فيه على البكري

خلاصة الخلاصة

في اصلاح الازهر

ان الاصلاح الذي كان ينشده الاستاذ الامام في الازهر قسمان : صوري ومعنوي ، فاما الصوري فهو(١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية، و(٢)توسيع دائرة العلوم والمعارف ، و(٣)ترقية اللغة العربية . وأما المعنوي فهو (١) اصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و(٢)صحة القصد فيه بما يفضي إلى ارتقاء الامة في دينها ودنياها ، و(٣) اصلاح الاخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخا والوفاء الخ

فاما الاول فقد شرحنا ماقاساه في وضع قوانينه وتنفيذ نظامه مع اعداء النظام ، ولكن النظام وجد ولا يزال يصارع ماتربى عليه القوم من الفوضى والخلل في كل شيء ، ولا بد أن ينتهي الامر بانتصاره ولو بعد حين

وأما الثاني فعمدته فيه ما كان يبثه هو في دروسه التي تفيض روحا محييا ، وتتألق نوراً ساطعاً ، وقدقال فيه مامعناه: انني بذرت في الازهر بذراً إما أن ينبت ويثمر ويؤتي أكله المغذي للعقل والروح فيحيا به الازهر حياة جديدة ،وإما أن يقضي الله على هذا المكان قضاءه الاخير: وقد نبت ذلك البزر فصار زرعاً أخرج شطأه ولكن قل من يتعاهده بالسقي ومنع الحشرات الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله

وقد أشرت إلى هذا فيما زدته بعد موته في (المقصورة الرشيدية) فقلت بعد وصفه ، وما قام به من الاصلاح مع السيد جمال الدين ومن بعده، مغلبا فيها الرجاء في الازهر على اليأس :

ماتم للامام مأراد من خطتي الاصلاح هدما وبنا
ولم يفته كل ماشاء فقد خرّج من يتم كل مابنى
إذا استجاب الله مابه دعا وزال ماحاذره بما رجا(١)

(١)اشارة الى الابيات التي قالها قبيل وفاته

وعلم الازهر كيف يفقه الـ دين ويطلب العلوم واللغى
من غير بحث في مقال من خلوا يكثر فيه الاحتمال والمرا
علمه التوحيد كي يفقهه بعقله لا بقول من مضى
علمه التفسير كيما يهتدي به على علم صحيح يقتفى
وعلم (أسرار البلاغة) التي (دلائل الاعجاز) منها تبتغى
علم (بصائر المنطق) كي يقيم ميزان العلوم للحجى
وهل وراء الدين واللسان والـ عقل إذا أصلحتهن منتهى
فان يك الازهر لم يصلح بها فقد نأى عن سبل من كان مأى(١)
ونبتت من غرسه نابتة ستلأم الصدع وترأب الثأى(٢)
وترفع الحجر عن المعهد او يعود جحر الضب رحبا كالفضا(٣)
حتى ينال وهو قد أشفى الشفا من مرض بات به على شفا
ثم يولي المسلمون شطره ينحونه من كل فج ورجا
ماوردوا حياضه وصدروا إلا يفيضون علوما وهدى
فأحيوا الاسلام في أنفس من واصابهم بهجره صرف الردى
فعاد آهلا إلى موطنه من غربة طال بها عهد النوى
واستتبعت غربته المجد كما كان فعاد الامر مثلما بدا (٤)

---

(١) مأى بالغ وتعمق، والمعنى انه قد نأى وبعد عن طرق أولئك الشيوخ المتنطعين فى التعمق بالمناقشات اللفظية فى عبارات الكتب (٢) لأم الشيء اصلحه والصدع جمعه وشده فالتأم وزال، وفي معناه رأبه واصلحه، والثأى الفساد (٣) اشارة إلى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال « فمن؟ » والمعنى أن تلاميذه ومريديه سيرفعون الحجر عن العقول فيفهموا العلم والدين إلى أن يخرجوا اهله والمسلمين من الضيق الذي يشبه جحر الضب (٤) إشارة الى حديث « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وفي رواية بمعناه مع زيادة « فطوبى للغرباء الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي » وباحيائها تتمر هذه الغربة المجد، كالغربة الاولى